محاضرات رمضانية
في تقريب معاني الآيات القرآنية

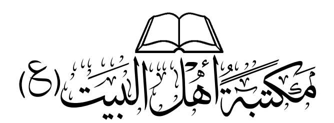
الجزء الأول
من الفاتحة إلى آخر الإسراء

تأليف

السيد العلامة المجتهد

محمد بن عبدالله عوض

حفظه الله وأبقاه



صف وتحقيق وإخراج:



اليمن - صعدة - ت (٥٣١٥٨٠/ ٧١٣٨٤٢٩٨٩)

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ

مقدمة مكتبة أهل البيت (ع)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين، وبعد:

فاستجابة لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال٢٤]، ولقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران١٠٤]، ولقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى٢٣]، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب٣٣]، ولقوله تعالى: ﴿إنما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة٥٥].

ولقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:((إني تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يَرِدَا عليّ الحوض))، ولقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((أهل بيتي فيكم كسفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى))، ولقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((أهل بيتي أمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء))، ولقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((من سرّه أن يحيا حياتي؛ ويموت مماتي؛ ويسكن جنة عدن التي وعدني ربي؛ فليتول علياً وذريته من بعدي؛ وليتولّ وليه؛ وليقتد بأهل بيتي؛ فإنهم عترتي؛ خُلقوا من طينتي؛ ورُزقوا فهمي وعلمي)) الخبر، وقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم: علي، وفاطمة، والحسن والحسين وذريّتهما عليهم السلام- عندما جلّلهم صلى الله عليه وآله وسلم بكساءٍ

وقال: ((اللّهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً)).

استجابةً لذلك كلّه كان تأسيس مكتبة أهل البيت(ع).

ففي هذه المرحلة الحرجة من التاريخ؛ التي يتلقّى فيها مذهب أهل البيت(ع) مُمثلاً في الزيدية، أنواعَ الهجمات الشرسة، رأينا المساهمة في نشر مذهب أهل البيت المطهرين عليهم السلام عَبْر نَشْرِ ما خلّفه أئمتهم الأطهار عليهم السلام وشيعتهم الأبرار رضي الله عنهم، وما ذلك إلا لثِقَتِنا وقناعتنا بأن العقائد التي حملها أهل البيت عليهم السلام هي مراد الله تعالى في أرضه، ودينه القويم، وصراطه المستقيم، وهي تُعبِّر عن نفسها عبر موافقتها للفطرة البشرية السليمة، ولما ورد في كتاب الله عزّ وجل وسنة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم.

واستجابةً من أهل البيت عليهم السلام لأوامر الله تعالى، وشفقة منهم بأمة جدّهم صلى الله عليه وآله وسلم، كان منهم تعميدُ هذه العقائد وترسيخها بدمائهم الزكيّة الطاهرة على مرور الأزمان، وفي كلّ مكان، ومن تأمّل التاريخ وجَدَهم قد ضحّوا بكل غالٍ ونفيس في سبيل الدفاع عنها وتثبيتها، ثائرين على العقائد الهدَّامة، منادين بالتوحيد والعدالة، توحيد الله عز وجل وتنزيهه سبحانه وتعالى، والإيمان بصدق وعده ووعيده، والرضا بخيرته من خَلْقِه.

ولأن مذهبَهم عليهم السلام دينُ الله تعالى وشَرْعُه، ومرادُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإرْثُه، فهو باقٍ إلى أن يرث الله الأرض ومنْ عليها، وما ذلك إلا مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)).

قال والدنا الإمام الحجّة/ مجدالدين بن محمد المؤيدي(ع): (واعْلَمْ أن الله جلّ جلاله لم يرتضِ لعباده إلا ديناً قويماً، وصراطاً مستقيماً، وسبيلاً واحداً، وطريقاً قاسطاً، وكفى بقوله عزّ وجل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا

السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام١٥٣].

وقد علمتَ أن دين الله لا يكون تابعاً للأهواء: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون٧١]، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس٣٢]، ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى٢١].

وقد خاطبَ سيّد رسله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله عز وجل: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴿١١٣﴾﴾ [هود]، مع أنه صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من أهل بدر، فتدّبر واعتبر إن كنتَ من ذوي الاعتبار، فإذا أحطتَ علماً بذلك، وعقلتَ عن الله وعن رسوله ما ألزمك في تلك المسالك، علمتَ أنه يتحتّم عليك عرفانُ الحق واتباعه، وموالاة أهله، والكون معهم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة١١٩]، ومفارقةُ الباطل وأتباعه، ومباينتهم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة٥١]، ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة٢٢]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة١]، في آيات تُتْلى، وأخبار تُمْلَى، ولن تتمكن من معرفة الحق وأهله إلا بالاعتماد على حجج الله الواضحة، وبراهينه البيّنة اللائحة، التي هدى الخلق بها إلى الحق، غير معرّج على هوى، ولا ملتفت إلى جدال ولا مراء، ولا مبال بمذهب، ولا محام عن منصب، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾) [النساء:١٣٥][(١)].

وقد صَدَرَ بحمد الله تعالى عن مكتبة أهل البيت (ع):

١-الشافي، تأليف/ الإمام الحجة عبدالله بن حمزة(ع) ٦١٤هـ، مذيّلاً بالتعليق

(١)- التحف الفاطمية شرح الزلف الإمامية.

الوافي في تخريج أحاديث الشافي، تأليف السيد العلامة نجم العترة الطاهرة/ الحسن بن الحسين بن محمد رحمه الله ١٣٨٨هـ.

٢-مَطْلَعُ البُدُوْرِ وَمَجْمَعُ البُحُوْرِ في تراجم رجال الزيدية، تأليف/ القاضي العلامة المؤرّخ شهاب الدين أحمد بن صالح بن أبي الرجال رحمه الله، ١٠٢٩هـ - ١٠٩٢هـ.

٣-مَطَاْلِعُ الأَنْوَاْرِ وَمَشَاْرِقُ الشّمُوْسِ وَالأَقْمَاْرِ - ديوان الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة(ع) - ٦١٤هـ.

٤-مجموع كتب ورسائل الإمام المهدي الحسين بن القاسم العياني(ع) ٣٧٦هـ -٤٠٤هـ.

٥-مَحَاسِنُ الأَزْهَارِ في تَفْصِيْلِ مَنَاقِبِ العِتْرَةِ الأَطْهَاْرِ، شرح القصيدة التي نظمها الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة(ع)، تأليف/ الفقيه العلامة الشهيد حميد بن أحمد المحلّي الهمداني الوادعي رحمه الله - ٦٥٢هـ.

٦-مجموع السيد حميدان، تأليف/ السيد العالم نور الدين أبي عبدالله حميدان بن يحيى بن حميدان القاسمي الحسني رضي الله تعالى عنه.

٧-السفينة المنجية في مستخلص المرفوع من الأدعية، تأليف/ الإمام أحمد بن هاشم(ع) - ت ١٢٦٩هـ.

٨- لوامع الأنوار في جوامع العلوم والآثار وتراجم أولي العلم والأنظار، تأليف/ الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ-١٤٢٨هـ.

٩-مجموع كتب ورسائل الإمام الأعظم أمير المؤمنين زيد بن علي(ع)، تأليف/ الإمام الأعظم زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(ع) ٧٥هـ - ١٢٢هـ.

١٠-شرح الرسالة الناصحة بالأدلة الواضحة، تأليف/ الإمام الحجة عبدالله بن حمزة(ع) - ت ٦١٤هـ.

١١-صفوة الاختيار في أصول الفقه، تأليف/ الإمام الحجة عبدالله بن

حمزة(ع) ت٦١٤هـ.

١٢- المختار من صحيح الأحاديث والآثار من كتب الأئمة الأطهار وشيعتهم الأخيار، لِمُخْتَصِرِهِ/ السيّد العلامة محمد بن يحيى بن الحسين بن محمد حفظه الله تعالى، اختصره من الصحيح المختار للسيد العلامة/ محمد بن حسن العجري رحمه الله تعالى.

١٣-هداية الراغبين إلى مذهب العترة الطاهرين، تأليف/ السيد الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير(ع) -ت٨٢٢هـ.

١٤-الإفادة في تاريخ الأئمة السادة، تأليف/ الإمام أبي طالب يحيى بن الحسين الهاروني(ع) - ٤٢٤ هـ.

١٥-المنير - على مذهب الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم (ع) تأليف/ أحمد بن موسى الطبري رضي الله عنه.

١٦- نهاية التنويه في إزهاق التمويه، تأليف السيد الإمام/ الهادي بن إبراهيم الوزير(ع) - ٨٢٢هـ.

١٧- تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبيين، تأليف/ الحاكم الجشمي المحسن بن محمد بن كرامة رحمه الله تعالى - ٤٩٤هـ.

١٨- عيون المختار من فنون الأشعار والآثار، تأليف الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

١٩-أخبار فخ وخبر يحيى بن عبدالله (ع) وأخيه إدريس بن عبدالله(ع)، تأليف/ أحمد بن سهل الرازي رحمه الله تعالى.

٢٠-الوافد على العالِم، تأليف/ الإمام نجم آل الرسول القاسم بن إبراهيم الرسي(ع) - ٢٤٦ هـ.

٢١- الهجرة والوصية، تأليف/ الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم الرسي(ع).

٢٢-الجامعة المهمة في أسانيد كتب الأئمة، تأليف/ الإمام الحجة مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٢٣-المختصر المفيد فيما لا يجوز الإخلال به لكلّ مكلف من العبيد، تأليف/ القاضي العلامة أحمد بن إسماعيل العلفي رضي الله عنه ت ١٢٨٢هـ.

٢٤- خمسون خطبة للجمع والأعياد.

٢٥-رسالة الثبات فيما على البنين والبنات، تأليف/ الإمام الحجة عبدالله بن حمزة(ع) ت٦١٤هـ.

٢٦-الرسالة الصادعة بالدليل في الرد على صاحب التبديع والتضليل، تأليف/ الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٢٧-إيضاح الدلالة في تحقيق أحكام العدالة، تأليف/ الإمام الحجة مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٢٨-الحجج المنيرة على الأصول الخطيرة، تأليف/ الإمام الحجة مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٢٩-النور الساطع، تأليف/ الإمام الهادي الحسن بن يحيى القاسمي(ع) ١٣٤٣هـ.

٣٠-سبيل الرشاد إلى معرفة ربّ العباد، تأليف/ السيد العلامة محمد بن الحسن بن الإمام القاسم بن محمد(ع)١٠١٠هـ - ١٠٧٩هـ.

٣١-الجواب الكاشف للالتباس عن مسائل الإفريقي إلياس - ويليه/ الجواب الراقي على مسائل العراقي، تأليف/ السيد العلامة الحسين بن يحيى بن الحسين بن محمد (ع) (١٣٥٨هـ - ١٤٣٥هـ).

٣٢-أصول الدين، تأليف/ الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين(ع)٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ.

٣٣-الرسالة البديعة المعلنة بفضائل الشيعة، تأليف/ القاضي العلامة عبدالله بن زيد العنسي رحمه الله تعالى - ٦٦٧هـ.

٣٤-العقد الثمين في معرفة رب العالمين، تأليف الأمير الحسين بن بدرالدين محمد بن أحمد(ع) ٦٦٣هـ.

٣٥-الكامل المنير في إثبات ولاية أمير المؤمنين(ع)، تأليف/ الإمام القاسم بن إبراهيم الرسي (ع) ٢٤٦هـ.

٣٦-كتابُ التَّحْرِيْرِ، تأليف/ الإمام الناطق بالحق أبي طالب يحيى بن الحسين الهاروني(ع) - ٤٢٤هـ.

٣٧-مجموع فتاوى الإمام المهدي محمد بن القاسم الحسيني(ع) ١٣١٩هـ.

٣٨-القول السديد شرح منظومة هداية الرشيد، تأليف/ السيد العلامة الحسين بن يحيى بن الحسين بن محمد (ع) (١٣٥٨هـ - ١٤٣٥هـ).

٣٩-قصد السبيل إلى معرفة الجليل، تأليف السيد العلامة/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٤٠-نظرات في ملامح المذهب الزيدي وخصائصه، تأليف السيد العلامة/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٤١-معارج المتقين من أدعية سيد المرسلين، جمعه السيد العلامة/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٤٢-الاختيارات المؤيَّدية، من فتاوى واختيارات وأقوال وفوائد الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع)، (١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ).

٤٣-من ثمارِ العِلْمِ والحكمة (فتاوى وفوائد)، تأليف السيد العلامة/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٤٤-التحف الفاطمية شرح الزلف الإمامية، تأليف الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٤٥-المنهج الأقوم في الرَّفع والضَّم والجَهْرِ ببسم الله الرحمن الرحيم، وإثبات حيَّ عَلَىٰ خَيْرِ الْعَمَلِ في التأذين، وغير ذلك من الفوائد التي بها النَّفْعُ الأَعَمُّ، تأليف/ الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع).

٤٦-الأساس لعقائد الأكياس، تأليف/ الإمام القاسم بن محمد (ع).

٤٧-البلاغ الناهي عن الغناء وآلات الملاهي. تأليف الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٤٨-الأحكام في الحلال والحرام، للإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم(ع) ٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ.

٤٩-المختار من(كنز الرشاد وزاد المعاد، تأليف/ الإمام عزالدين بن الحسن(ع)ت٩٠٠هـ).

٥٠-شفاء غليل السائل عما تحمله الكافل، تأليف/ العلامة الفاضل: علي بن صلاح بن علي بن محمد الطبري.

٥١-الفقه القرآني، تأليف السيد العلامة/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٥٢-تعليم الحروف إصدارات مكتبة أهل البيت (ع).

٥٣-سلسلة تعليم القراءة والكتابة للطلبة المبتدئين/ الجزء الأول الحروف الهجائية، إصدارات مكتبة أهل البيت (ع).

٥٤-سلسلة تعليم مبادئ الحساب/ الجزء الأول الأعداد الحسابية من (١ إلى ١٠)، إصدارات مكتبة أهل البيت (ع).

٥٥-تسهيل التسهيل على متن الآجرومية، إصدارات مكتبة أهل البيت (ع).

٥٦-أزهار وأثمار من حدائق الحكمة النبوية على صاحبها وآله أفضل الصلاة والسلام، تأليف السيد العلامة/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٥٧-متن الكافل بنيل السؤل في علم الأصول، تأليف/ العلامة محمد بن يحيى بهران (ت: ٩٥٧هـ).

٥٨-الموعظة الحسنة، تأليف/ الإمام المهدي محمد بن القاسم الحسيني(ع) -١٣١٩هـ.

٥٩-أسئلة ومواضيع هامة خاصة بالنساء، تأليف السيد العلامة/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٦٠-المفاتيح لما استغلق من أبواب البلاغة وقواعد الاستنباط، تأليف السيد العلامة/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٦١-سلسلة تعليم القراءة والكتابة للطلبة المبتدئين/ الجزء الثاني الحركات وتركيب الكلمات، إصدارات مكتبة أهل البيت (ع).

٦٢-سلسلة تعليم مبادئ الحساب/ الأعداد الحسابية الجزء الثاني، إصدارات مكتبة أهل البيت (ع).

٦٣-المركب النفيس إلى أدلة التنزيه والتقديس، تأليف السيد العلامة/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٦٤-المناهل الصافية شرح المقدمة الشافية، تأليف/ العلامة لطف الله بن محمد الغياث الظفيري، ت ١٠٣٥هـ.

٦٥-الكاشف لذوي العقول عن وجوه معاني الكافل بنيل السؤل، تأليف/ السيد العلامة أحمد بن محمد لقمان، ت ١٠٣٧هـ.

٦٦-مجمع الفوائد المشتمل على بغية الرائد وضالة الناشد، تأليف الإمام الحجّة/ مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ-١٤٢٨هـ.

٦٧-المختصر المفيد للمبتدئ والمستفيد، تأليف/ السيد العلامة الحسين بن يحيى بن الحسين بن محمد (ع) (١٣٥٨هـ - ١٤٣٥هـ).

٦٨-محاضرات رمضانية في تقريب معاني الآيات القرآنية، تأليف السيد العلامة/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

وهناك الكثير الطيّب في طريقه للخروج إلى النور إن شاء الله تعالى، نسأل الله تعالى الإعانة والتوفيق.

ونتقدّم في هذه العجالة بالشكر الجزيل لكلّ من ساهم في إخراج هذا العمل

الجليل إلى النور -وهم كُثُر- نسأل الله أن يكتب ذلك للجميع في ميزان الحسنات، وأن يجزل لهم الأجر والمثوبة.

وختاماً نتشرّفُ بإهداء هذا العمل المتواضع إلى روح مولانا الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي -سلام الله تعالى عليه ورضوانه- باعثِ كنوز أهل البيت(ع) ومفاخرهم، وصاحب الفضل في نشر تراث أهل البيت(ع) وشيعتهم الأبرار رضي الله عنهم.

وأدعو الله تعالى بما دعا به (ع) فأقول: اللهم صلِّ على محمد وآله، وأتمم علينا نعمتك في الدارَيْن، واكتب لنا رحمتك التي تكتبها لعبادك المتقين؛ اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، واجعلنا هداة مهتدين؛ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ۝١٠﴾ [الحشر]، نرجو الله التوفيق إلى أقوم طريق بفضله وكرمه، واللهَ أسأل أن يصلح العمل ليكون من السعي المتقبّل، وأن يتداركنا برحمته يوم القيام، وأن يختم لنا ولكافة المؤمنين بحسن الختام، إنه ولي الإجابة، وإليه منتهى الأمل والإصابة، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف١٥].

وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

مدير المكتبة/

إبراهيم بن مجدالدين بن محمد المؤيدي

[تقديم]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على محمد وآله، وبعد:

فهذه محاضرات رمضانية في تقريب معاني الآيات القرآنية إلى أذهان الحاضرين أثناء تلاوة القرآن في ليالي شهر رمضان، وقد كان العامة هم الغالبية فلزم أن تكون المحاضرات على مستوى أفهامهم، فلم نتعرض لما يعسر فهمه عليهم، وما يشوش عليهم الفهم والمعنى، فلم نذكر شيئاً من الخلافات الكلامية، ولا من استنباط الأحكام الفقهية، ولا من اختلاف المفسرين، ولم نتعرض للنحو والإعراب والبلاغة.

ولم نكن نراعي عند المحاضرة قوانين الكلام العربي وحدوده؛ لأن الغرض كما ذكرنا تقريب معنى الآيات إلى أفهام الحاضرين.

ولم أكن أحب سحبه وإخراجه في كتاب؛ لقصوره عن ذلك، ونقصانه عن أن يسطر في كتاب، إلا أن بعض الإخوان والطلبة استحسنوا ذلك وأَلَحُّوا علي في السماح فسمحت لهم، فقام بسحبه من الذاكرة وصفه على الكمبيوتر الولد علي بن محمد، وبعد صفه أخرجوا لي منه صورة لمراجعتها، فراجعتها، فإذا هي بحاجة تغيير لكل ما كتب فيها من أولها إلى آخرها، أي: تبديل ذلك التفسير بتفسير جديد، وشطب التفسير الأول إلا أن الظروف لم تسمح لي بذلك.

فعزمت على إصلاح ما أمكن إصلاحه، وسنعود إذا أذن الله تعالى إلى الإصلاح والتحسين عند الطبعة الثانية، ومن الله نستمد المعونة والتوفيق، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين، والحمد لله رب العالمين.

محمد عبدالله عوض

٤/ ٦/ ١٤٣٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفاتحة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۝٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ۝٧﴾:

افتتح الله سبحانه وتعالى فاتحة الكتاب وكل سورة من سور القرآن الكريم بـ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقد قال تعالى في أول سورة نزلت: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ۝١﴾ [العلق]، المعنى: استفتح قراءتك بـ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، متبركاً باسمه، ومستعيناً بذكره.

وقد ذكر الله تعالى في البسملة من أسمائه الحسنى ثلاثة أسماء هي: الله، الرحمن، الرحيم.

ولفظ الجلالة: اسم جامع لمعاني أسماء الله الحسنى فهو يحمل في معانيه معنى الحي القيوم العلي العظيم العليم القدير الحكيم اللطيف و..إلخ.

والرحمن: اسم يحمل معنى المتفضل على خلقه بجلائل النعم الخفية وبالنعم التي هي دون الظاهرة المكشوفة.

فإذا استعان المؤمن باسم الله تعالى في قراءته فإنه سيعينه ويبارك له في قراءته وفي فهمه؛ لأنه تعالى القوي القدير والعليم الخبير الذي بيده الملك كله، وبيده الخير كله، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

- وذكر اسم الرحمن الرحيم في فاتحة كل سورة يدل على أن القرآن الكريم وكل سورة من سوره من أعظم النعم وأكبر المواهب الإلهية على الإنسان، وذلك لما في القرآن الكريم من الهدى للإنسان لطريق سعادته في الدنيا والآخرة.

وفي ذلك دلالة على أن الله يحب هذه الثلاثة الأسماء أكثر من غيرها، نسميه بها، ونستفتح بها، ونتبرك بها، وإذا ذكرناه بها، واستعنا بأسمائه فهو سيعيننا ببركة أسمائه، ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، وهذه الثلاثة أفضل الأسماء.

«الرحمن» أي: المتفضل على عباده بالنعم العظيمة الواضحة.

«الرحيم» معناه: المنعم بالنعم الخفية الدقيقة.

يعني أنه المنعم بالنعم الظاهرة والخفية، ومن نعمه العظيمة الواضحة إنزال القرآن.

ولذا قال تعالى في سورة الرحمن: ﴿الرَّحْمَنُ۝١ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ۝٣﴾ يعني إذا ذكر الرحمن فمعناه المنعم بالنعم الواضحة. ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ۝٤﴾ يعني النطق باللسان، والإفصاح عما في القلب. ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ۝٥﴾ وهي من النعم العظيمة الظاهرة.

واستفتاح القرآن وكل سورة من سوره بـ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يشير إلى أن القرآن من النعم الواضحة، وأن القرآن رحمة عظيمة للناس؛ لأجل أن نعلم أن الله لم ينزل القرآن، ولم يرسل الرسل إلا لأجل رحمته العظيمة بالإنسان.

و﴿الله﴾: يعني الجامع لصفات الكمال، فهو في العلم والقدرة و...إلخ- هو وحده وكل شيء سواه ناقص، وهو وحده المنعم والمتفضل لا سواه، وهو الرزاق وحده لا قدرة لأحد غيره، ورزقه من السماء؛ فهو ينزل المطر وبسببه ينبت الشجر وهي تخرج الثمر، ومنها يأكل الناس والأنعام، فإن أمسك رزقه فمن يرزقنا.

وقالوا: إن الاسم الأعظم هو في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ۝١٦٣﴾ [البقرة]، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، دلالة على أن الاسم الأعظم في الفاتحة وفي أول آية الكرسي، لا يوجد هنا ك اسم أعظم مخفي إذا دعي الله به أجاب، وأسماء الله الحسنى كلها ظاهرة في القرآن، وقد أعلمنا الله بها، وأحب الأسماء إليه: الله، الرحمن، الرحيم.

وآية الكرسي فيها فضل عظيم، لكن هذه هي التي تكررت، وتكررها دلالة على أنها أفضل الأسماء.

وهو يعني أن الإنسان إذا أراد الدعاء والتوسل إلى الله سبحانه وتعالى يدعوه بهذه الأسماء: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥]، يعني أن نتوسل إليه بما يحبه: يا الله يا رحمن يا رحيم، فهو يحب أن يثنى عليه بهذه الأسماء.

فإذا أراد الإنسان التماس شيء من غيره فهو يقدم له المدح والثناء عليه، فالله يحب أن يثنى عليه، وأن نمدحه، وأن نذكره؛ لأجل أن يجيب دعوتنا. فإذا أردت الدعاء له فقدم الثناء عليه ثم ادعه.

ففي السورة بدأ بالثناء ثم الدعاء وهو قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ۝٦﴾، أول السورة ثناء وآخرها دعاء، ففيها دلالة على أن المتوسل إذا أراد الدعاء بدأ بالثناء.

والرحيم: يعني أن هناك نعماً خفيةً لا نعلمها ولا ندركها، كدفع البلاء في كل أحوالك وأنت لا تعلمها، وهذه من أكبر النعم أن يدفع عنك الشر والبلاء و...إلخ، وهي خفية لا ندركها، ولا تخطر في بالنا.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۝٢﴾ افتتح الله تعالى كتابه بعد البسملة بالحمد والثناء عليه، على نعمه على العالمين، والتي من أكبرها وأعظمها نعمة القرآن الكريم.

ومعنى الحمد: أنا نعترف لله بالفضل والإنعام فنحن نحس ونشعر بهذه النعم العظيمة ولو لم ننطق بها باللسان، فإذا امتلأ قلبك بالإحساس بالنعم والفضل والإحسان ولو لم تنطق بها، فإذا استشعرت هذه النعم ثم نطقت بالحمد والثناء بعدما امتلأ قلبك بهذا الإحساس والشعور ثم نطقت: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۝٢﴾ كان في ذلك التعبير تعظيم أكبر تعظيم، وهذا هو المفروض أن لا نقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۝٢﴾ إلا بعد الاستشعار لعظمته في القلب وإحسانه إليك وإحساسك بالنعمة، وهذا هو ذكر الله الأعظم، وأن هذه النعم

من فضل الله عليك، وأنك لا تستحقها بحولك ولا بقوتك، فالمفروض أن تستشعر ذلك الإحسان العظيم الذي أولاك ربك حتى لا تقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۝٢﴾ إلا ترجمة عما في القلب من الشعور بنعم الله، فإذا انعدم الإحساس فينبغي أن يتفكر الإنسان وينظر فيما أنعم الله عليه، ليحصل له الإيمان، وينتعش قلبه ويوقظه إلى الإيمان بالله، لكي لا يكون كافر نعمة عند تناسيه لنعم الله عليه حتى ولو لم يتكلم وينطق لسانه بالحمد إذا كان معترفاً لله بنعمه، المهم أن يكون قلبه حياً بذكر الله وبنعمه وفضله، هذا ذكر الله الأكبر.

فأما باللسان فقط والقلب ميت فليس له فائدة.

والحمد هو الثناء على الله والاعتراف بنعمه.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ۝٢﴾ يعني رب المخلوقات ومالكها، وهو المستولي عليها بقدرته، وأنه المحسن إليهم والمنعم عليهم والمتولي بسلطانه وربوبيته عليهم، ولم يستحق الله سبحانه وتعالى الحمد إلا لأنه رب العالمين ومالكهم والمنعم عليهم.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ۝٣﴾ يعني أنه المستحق للحمد وأنه المنعم عليهم بالنعم العظيمة والدقيقة والظاهرة والخفية.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ۝٤﴾ و﴿مَلِكِ﴾ قرأ بهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي صحيحة: هو وحده المالك ليوم الدين، أي: الجزاء، يعني يجازيهم ويحاسبهم على الأعمال كلها صالحها وطالحها: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ۝٨﴾ [الزلزلة].

فهو الذي يجب أن نتوجه إليه ونحمده ونخاف منه؛ لأنه المجازي لنا، ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ۝١٦﴾ [غافر]، يعني لا يوجد هناك نفوذ إلا له وحده.

فقد أمر الله أن تقرأ هذه السورة في كل صلاة: ((لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب))؛ لأجل أن نحيي ذكره في قلوبنا، ونستشعر سبوغ نعمه علينا، وعظيم رحمته بنا، وأن مرجع الخلائق إليه في يوم الحساب؛ لتجزى كل نفس بما كسبت.

وعليهم أن يتوجهوا إليه وحده ويخصوه بالعبادة.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعني نتذلل لك، ونخضع لك غاية الخضوع وغاية الطاعة، ونرفض كل معبود سواك؛ لأنك وحدك رب العالمين، ومالك أمرهم، والمنعم عليهم، وكل ما يعبد من دون الله لا يستحق العبادة؛ لأنها لا تعمل لهم شيئاً، ولم تنعم عليهم بنعمة، ولم تحدث خلقاً.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ۝٥﴾ لا نستعين إلا بك، ولا نطلب المعونة على أمور ديننا ودنيانا إلا منك، وكل ما دونك لا يستحق أن نتوجه إليه بالطلب.

وعدم الإجابة من الله لنا فله فيه حكمة؛ وذلك لئلا يدخل العجب في قلوبنا، ونفتتن في ديننا، ويدخلنا الغرور، وهذا من رحمته بنا، أي: لو أن الله تعالى يعقب السؤال بالإجابة عندما يسأله العبد لربما داخل السائل الغرور وظن أنه قد بلغ منزلة من التقوى رفيعة، وفي هذا الظن خطر عظيم على المؤمن، إذ يوقعه فيما نهى الله عنه من الغرور وتزكية النفس.

هذا، ومن شأن المؤمن أن لا يمسي ولا يصبح إلا هو متهم لنفسه بالتقصير في طاعة الله والتفريط في ذكره والتضييع لشكره.

وهذا لا يمنع أن نطلب المعونة من غير الله، لكن لنعلم أن الله هو المعين، وهو المسخر، وأن كل شيء بيد الله، لا ينفع إلا إذا أراد الله؛ فالنبي قد استعان بالمشركين ودعاهم لمعاونته.

وأن إعانته مبنية على الأسباب، والله هو المهيئ لهذا الذي يعينك، والمسخر له.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ۝٦﴾ آخر الفاتحة دعاء وأولها ثناء على الله، يعني أن الله يعلمنا الطريق القويم، وهي سبل الأنبياء التي سلكوها ليصلوا إلى رضوان الله. والصراط المستقيم يعني: الدين الحق الذي جاءت به أنبياء الله ورسله صلى الله عليهم.

ودلالة على أن هذه الدعوة التي أمرنا الله بها في كل صلاة هي التي توصلنا إلى طريق الحق وإلى السعادة والنعيم الدائم التي هي أمنية كل إنسان، وهي نعمة من الله أن يفرضها علينا لندعوه بها، ونتوصل بها إلى هذا النعيم الدائم، ولم يعلمنا كيفية الدعاء له إلا وهو سيستجيب لنا، وهو كريم لا يخيب أحداً لديه.

وينبغي أن لا يقطع أحد رجاءه وأمله في الله، بل يستغفر ويتوب إليه إن كان قد عصاه فسيغفر له ويتوب عليه.

وهو عالم ببني آدم، وأنهم مرة يخطئون، ومرة يصيبون، ومرة كذا ومرة كذا، فلا يخب أمل المرء في الله ورجاؤه فيه، فينبغي أن يقبل إلى الله بالدعاء ويستغفره، ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف]، ولو فعل ما فعل فلا ييأس ويقول إن الله لن يغفر لي، ولن يقبل توبتي ودعوتي؛ فالله يغفر لك المعاصي كيفما كانت إذا رجعت إليه وندمت.

فالله محسن إلينا غاية الإحسان، ومنعم علينا بأجل النعم؛ فينبغي أن نتألم إذا عصيناه، ونندم أشد الندم، ونحرص على أن لا نفعل شيئاً مما نهى عنه.

وهذه هي التوبة وهي أن نتألم لما وقع منا من معصية الله، وبعض الأئمة قد قال: إن التوبة هي الندم، أي: ولو لم يصحبه استغفار.

والصراط المستقيم: هو الدين الحق، فإذا هداك الله إليه فسوف تتوب وتستغفر وتفعل كل الطاعات، فهي دعوة عامة تشمل كل خير وطاعة في الدنيا والآخرة.

وهو: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

لكن: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴿٧﴾﴾ وهم اليهود والنصارى، فقد أنعم الله عليهم لكنه قد غضب عليهم وضلوا عن الطريق.

واليهود والنصارى فقد حرفوا وبدلوا وضلوا وأضلوا، فليسوا على طريق موسى عليه السلام؛ لأنه على الصراط الحق.

هذه اسمها سورة الفاتحة، وسميت الفاتحة لأن الله افتتح كتابه الكريم بها، ولها أسماء عدة، والفاتحة هو المشهور بينها، أو (الحمد لله رب العالمين)، وكذلك: (السبع المثاني) في روايات، ولها فضل كبير، وورد فيها آثار، منها: أنها لم تقرأ على مريض إلا شفي، ولا قرأها مكروب إلا فرج الله كربته.

ولم يشرعها الله في الصلاة إلا لفضلها الكبير.

وسميت السبع المثاني لأنه يثنى بها في كل صلاة، وأراد الله أن نذكره بها في كل صلاة دلالة على أنها أحب الذكر إليه.

وعندما قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب]، فمصلي الصلوات الخمس فهو ذاكر لله ذكراً كثيراً؛ فإذا كان محافظاً على الصلوات الخمس -ولو لم يصل النوافل- فهو من الذاكرين الله ذكراً كثيراً والذاكرات.

فإذا ذكرنا الله بالفاتحة في الصلوات ففيه دلالة على أنها أفضل الذكر، وأفضل القرآن، ودلالة على أن الله يحب الحمد والثناء عليه، وأنه أفضل الذكر.

قال أمير المؤمنين عليه السلام ما معناه: (الحمد أرجح ما وزن وأفضل ما خزن) يعني أفضل ما يثقل الميزان يوم القيامة، وأفضل ما يخزنه الإنسان ليوم القيامة.

فإذا أراد المرء ذكر الله تعالى فليقرآ الفاتحة، وكما قلنا الذكر في الأصل هو ما في القلب من الإحساس بنعم الله وفضله وقدرته و...، واللسان ليس إلا مترجماً عما في القلب؛ ولذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((التقوى هاهنا التقوى هاهنا))، فليست في الجوارح، ولا في حركات اللسان، فلا يكثر الله الحسنات ويعظمها ويباركها إلا عندما تكون صادرة من القلب، فإذا امتلأ القلب من الهيبة لله وتعظيمه ثم اندفع اللسان إلى ذكره كان أعظم عند الله، وحصلت اللذة في ذكره، والأريحية، وكان لها قيمتها ووزنها ومكانتها عند الله، وحصل النشاط في الذكر والاندفاع القوي.

فليحاول الإنسان أن يحيي قلبه بتذكر نعم الله عليه في بدنه وفي أهله وأمواله وجميع ما أنعم الله عليه.

فليتذكر نعمة العينين والأسنان والسمع والشم وما في باطنه؛ من يتولى الرعاية لها؟ ومن يسيرها التسيير الدقيق من دون خلل ولا اختلاف؟ ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤]، وإذا ذكرت ذلك زادك الله صحة وعافية، وحفظ لك صحتك وعافيتك: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف]، الذين أنعم الله عليهم ولا يذكرونه ولا يحمدونه، ويعطيهم فلا يحمدونه ولا يشكرونه.

وهناك عوالم من النعم فينبغي أن يتفكر كيف يحمد الله عليها، وأنه لا يستطيع أداء الحمد على جميع نعمه، وأنه عاجز عن حمده حق حمده، وهذا هو حمد، ومن أعظم الحمد، وهو الذي يحبه الله؛ لأنه اعتراف له بالعجز عن أداء حقه.

وساعة في التفكر يقال: إنها أعظم من عبادة عشرين سنة، والفكر يحيي الإيمان في القلب، ويملأه إيماناً، ويزيد في اندفاع الإنسان إلى الطاعة، وهذا هو الذكر الحق والصدق، وهو أحسن وأفضل مما يقرأ في الصحائف مثل صحيفة زين العابدين وأمير المؤمنين، وهو ذكر الله الأكبر (ذكر القلب)، وإن كان ما ينطق به اللسان ذكراً لكن ليس كذكر القلب.

فينبغي أن لا يهمل المرء نفسه، وأن يجعل هذه من الأمور المهمة العظيمة التي لا يصلح الإيمان إلا بها.

وقد قيل: إن الإيمان أفضل الأعمال، والمراد به هذا الذي هو حاصل في القلب، وبقاؤه في القلب حياً يحتاج إلى تعب وحراسة وذلك بمعاهدته بالنظر في آيات الله وآيات عظمته وقدرته وآيات رحمته، وما أسبغ الله على الإنسان من نعمه وكثير مننه، ثم النظر في مواعظ الله التي فصلها في كتابه الكريم، والحرص على ملازمة التقوى وسلوك سبيل الهدى، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد].

وشرع الله الصلوات الخمس لأجل أن تذكره بنعم الله عليه، فالكرامة في تقوى الله، والعزة في طاعته.

سورة البقرة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ۝٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ۝٥﴾:

﴿ الم ﴾ من حروف الهجاء، افتتح الله تعالىٰ به بعض سور القرآن لفوائد منها:

١ – ليستدعي بذلك الافتتاح إصغاء المشركين، وفتح آذانهم للاستماع إلىٰ آيات القرآن، وذلك لما في هذا الافتتاح من الغرابة التي لم يعهدها العرب في كلامهم.

٢– وللإشارة إلىٰ أن هذا القرآن الذي تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله هو من جنس كلامهم المركب من حروف الهجاء.

٣– وللإشارة إلىٰ أن الحروف التي افتتحت بها بعض سور القرآن هي الأكثر استعمالاً في كلمات القرآن، والحروف المفتتح بها في سور القرآن هي: «أ– ل – م – ص – ر – ك – هـ – ي – ع – ح – س – ن – ق – ط»، وبذلك يكون لهذه الحروف الفضل علىٰ سائر حروف الهجاء.

– وقد قيل: إنها حروف أقسم الله بها، وقيل: إنها رموز، أي: أن كل حرف رمز إلىٰ اسم من أسماء الله تعالىٰ أو إلىٰ عدد.

– ومن الفوائد: تسمية السورة بما افتتحت به من الحروف، فيقال: سورة «ص» وسورة «ق»، وسورة «طه»و..إلخ.

– وهذه السورة من السور التي نزلت في المدينة المنورة، وهي أطول سور القرآن الكريم، وفيها أطول آية، وفيها آية الكرسي أفضل آية.

وقد افتتح الله سورة البقرة بصفات المؤمنين وختمها بذكر صفات المؤمنين، وذكر فيما بين ذلك ما اختص الله تعالىٰ به بني إسرائيل من الآيات، وما أنعم به

عليهم من الفضل العظيم بالتفضيل، وبيان ما حصل منهم من التمرد، وكيف قابلوا نعم الله فيهم، وكيف تلقوها، وأنهم حرفوا، وكتموا، وغيروا، وبدلوا، وكفروا، وأفسدوا في الأرض، وذكر عقاب الله لهم، وغضبه عليهم.

وكيف قابلوا دعوة النبي ﷺ بعدما عرفوا صحة نبوته، وتحققوا صدق رسالته.

وذكر النصارى وما هم عليه من الضلال.

وذكر شهر رمضان وأحكام الصيام، وذكر القصاص وأحكامه، وذكر الطلاق وأحكامه، وذكر الرضاع والفصال والنفقة، وذكر الحج وأحكامه، وذكر الصلاة في الأمن والخوف، وذكر الحيض وأحكامه، وذكر النفقة في سبيل الله وأحكامها ومصارفها، وذكر الربا وأحكامه، وذكر الدين والكتابة والشهادة والرهن، وذكر القبلة والتوجه إليها وأحكامها.

وذكر بدء خلق آدم وما يتعلق به من سجود الملائكة وامتناع إبليس من السجود، وعداوته لآدم، وإخراجه من الجنة بسبب إبليس، ووسوسته لآدم وحواء.

وذكر قصصاً وأخباراً عن نبي الله إبراهيم ويعقوب، وعن بعض أنبياء بني إسرائيل فيها عبر وعظات.

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ...﴾ الآيات، المعنى: أن هذا الكتاب الذي هو القرآن كله بما فيه هذه السورة الكبيرة هو الكتاب الكامل، الرفيع المنزلة، المهيمن على كل كتاب، الذي لا يوجد فيه ما يدعو إلى الشك، بل كله حق واضح مكشوف، لا يوجد فيه مدخل للريب، ولا منفذ للباطل، يهتدي بهديه أهل التقوى، ويستضيء بأنواره المؤمنون، الذين يحافظون على إقامة الصلاة وأداء الزكاة، وهم مصدقون بما جاء به رسول الله ﷺ، وبما جاءت به أنبياء الله ورسله عليهم السلام من عند الله.

فهؤلاء هم الذين ينتفعون بالقرآن، ويهتدون بهديه، ويؤمنون به، وهم الذين استحقوا الفوز والظفر برضوان الله وثوابه في الدنيا والآخرة، دون غيرهم من المشركين وأهل الكتاب فلا حظ لهم في ذلك ولا نصيب.

قسم الله الناس في سورة البقرة إلى ثلاثة أقسام: المؤمنون، ثم الكافرون، ثم المنافقون؛ فهؤلاء الثلاثة الأصناف هم الذين كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فبعد أن ذكر المؤمنين وأثنى عليهم ذكر الذين كفروا فقال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ۝٦﴾ أي: لا تتعب نفسك في إقناعهم فقد ختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، لا تنفذ دعوتك إليهم أبداً.

وليس المراد الختم الذي هو التغطية، وإنما أراد الله تعالى أن يصور لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم حالة المشركين وموقفهم من دعوته فصورهم تعالى له صلى الله عليه وآله وسلم بصورة مقنعة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يبق بعدها له صلى الله عليه وآله وسلم طمع في إيمانهم ولا رجاء لإسلامهم، وليس هناك في الواقع أغطية على قلوبهم تمنع دخول الهدى إليها ولا على أعينهم أغشية تحول بينهم وبين رؤية الهدى، وليس في آذانهم ما يمنع من سماع الهدى.

ثم ذكر الله بعد ذلك المنافقين فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ۝٨﴾ أي: بينكم أيها المؤمنون ناس قد دخلوا في الإسلام وما هم بمسلمين، وهؤلاء هم الذين أقلقوا النبي، وكادوا الإسلام، وعانى منهم النبي معاناة شديدة، ولذا أنزل الله فيهم أكثر مما ذكر في الكفار، وذلك لأن تأثيرهم على الإسلام تأثيرٌ كبير، كإثارة الفتن، وغرس الريبة والشك في قلوب المؤمنين، وإغوائهم، وخاصة من كان قلبه ضعيف بالإيمان.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني يخادعون أولياء الله ويخادعون نبي الله، وهو المراد من الآية؛ لأن الله لا يخدع.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ۝٩﴾ أي: ما ضروا إلا نفوسهم بصنيعهم وهم لا يعلمون شؤم ما يفعلون، يظنون أنهم في خير العمل.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني التكذيب بالقرآن والشك في النبي، وهذا كفر في الواقع.

﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ يعني لم يهدهم، بل تركهم على ما هم عليه، يعني كلما نزل قرآن كذبوا به، فزادهم مرضاً، وازداد كفرهم، فكلما نزلت آية ازداد

كفرهم، لأنهم يكتسبون كفراً إلى كفرهم، وهذا هو المراد بالآية، وليس المراد أن الله يدخل كفراً فوق كفر.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ۝١٠﴾ أي: عذاب جهنم بسبب تكذيبهم لآياته، وتكذيبهم لنبيه وللقرآن؛ فاستحقوا سخط الله وعذابه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ۝١١﴾ يظنون أنهم في خير العمل، وأنهم الفطنون الحذاق، وغيرهم من المؤمنين لا يفقهون ولا يفطنون، ويقولون: نحن الذين على الحق والصلاح دون المؤمنين.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ۝١٢﴾ لا يعلمون أنهم مفسدون؛ لإعجابهم بما هم عليه من النفاق والسياسة والخداع.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ أي: أنؤمن مثل إيمان هؤلاء السفهاء؛ استخفافاً بهم وبالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويعتقدون أنهم أصحاب الآراء السديدة، والعقول الراجحة.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ۝١٣ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ۝١٤﴾

يكشف الله تعالى ستر المنافقين في هذه الآيات، ويبين حقيقة إيمانهم، وأنهم إنما يصانعون بإيمانهم المؤمنين.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ۝١٥﴾ وهذا جزاؤهم، أي: يخليهم ويمهلهم ويتركهم يسترسلون في استهزائهم بالمؤمنين، ثم بعد ذلك سيجازيهم على ما صدر منهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ۝١٦﴾ الهدى هو الثمن دفعوه وأخذوا الضلال، وصل الهدى إلى أيديهم فتركوه، وآثروا الضلالة فلم يربحوا في أعمالهم هذه التي يظنون أنها عين الصواب، ولم يهتدوا إلى طريق الحق التي ستسعدهم.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾:

- وصف الله تعالى حال المنافقين وما هم عليه من النفاق بين ظهراني المؤمنين فشبههم وصورهم لنا بصورة من استوقد ناراً وأشعل لهبها حتى إذا زان له لهبها وأنارت له ما أراد أطفأها الله عليه فبقي في ظلمات الليل لا يبصر شيئاً ولا يهتدي.

والمعنى أن المنافقين حينما دخلوا في الإسلام استناروا بنور الإسلام وأبصروا طريق الهدى إلا أن ذلك النور انطفأ عليهم فعاد عليهم ظلام الشرك والكفر بسبب الشك في دين الإسلام وعود الكفر إلى قلوبهم.

- في هذه الآيات التي أنزلها الله تعالى في المنافقين شرح متكامل، وتوضيح مفصل لحالة المنافقين؛ ليحذرهم المؤمنين؛ فأخبرنا تعالى عنهم:
- أنهم ليسوا بمؤمنين.
- وأنهم كافرون بدين الإسلام، ويسخرون من أهل الإسلام، ويستهزئون بهم، ويحتقرونهم.
- وأنهم معجبون بأنفسهم وبكفرهم ونفاقهم، ويعتقدون في أنفسهم أنهم نجحوا في خديعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين حيث إنهم استطاعوا بحسن سياستهم الاحتفاظ بكفرهم مع الأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم من سيوف المسلمين.
- وأنهم مع نجاحهم في ذلك يحاربون الإسلام ونبي الإسلام وأتباعه حرباً هي أشد من الحرب بالسيف، وأعظم فتكاً بالمسلمين من تجييش الجيوش، والزحف عليهم بأسباب الحتوف؛ فيثبطون الناس عن مناصرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويخذِّلونهم، ويرجفون عليهم، ويحذرونهم من عواقب مناصرته، ويجدون ويجتهدون في إفساد أمره، وإفشاء أسراره،

وعلى الجملة فحربهم على الإسلام كانت أعظم من حرب المشركين، وأشد نكاية بالمسلمين؛ فحذر الله تعالى المؤمنين من هذا العدو المندس بينهم الداخل فيهم، والمتلبس بهم، حتى لا يغتروا بهم، ولا يركنوا إليهم، وليكونوا على أشد الحذر منهم، والتحرز عنهم، ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴿٤﴾﴾ [المنافقون].

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴿١٨﴾﴾ عندما لم يستفيدوا من هذا الهدى وذلك النور الذي جاءهم به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وصفهم بهذه الصفات تعبيراً عن مكثهم في الشرك، وبقائهم عليه، فهم مثل الصم البكم العمي الذين لا يتأتى منهم الاهتداء إلى مراشدهم، فهم لا يرجعون إلى النور والهدى، ولا يمكنهم ذلك.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ وهذا هو المثل الثاني للمنافقين، والصيِّب: المطر القوي الذي يصحبه ظلمات في الليل ورعد وبرق، اجتمعت ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر على المنافقين فلا يرون مع ذلك سبيل هداهم، ولا يبصرون طريقهم؛ لتراكم الظلمات عليهم.

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ من شدته بين تلك الظلمات.

﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ ولم يتحركوا، شبه الله تعالى حال المنافقين بمن هو بين تلك الظلمات حيث إن المنافقين دخلوا في الإسلام مع كفرهم بالإسلام بقلوبهم فلم يروا من نور الإسلام والهدى إلا ما يزعجهم ويخيفهم، فهم في ظلمات الشرك والجهل مقيمون كغيرهم من المشركين.

وقوله: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ المراد به أنه قد أصبح لهم حكم الإسلام، وقد حصل لهم شيء منه، وهذه هي الفائدة التي حصلت لهم من الإسلام وهي المرادة من قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾، ولكنهم على خوف أن ينزل بهم شيء يكون فيه هلاكهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ...﴾ الله قادر على أن لا يروا شيئاً، ولكنه خلاهم وتركهم بين المسلمين لا يلحقهم شيء، وهو قادر على أن يهلكهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ۝٢٠﴾.

هذه ثلاث عشرة آية نزلت في المنافقين؛ لأن خطرهم على الإسلام والمسلمين أشد من خطر الكفار؛ لأنهم بين أظهرهم، ومخالطون لهم، وهم يحيكون المكائد، ويتحيلون الحيل للقضاء على الإسلام، وهو أكبر همهم، والبلاء منهم مستمر على النبي ﷺ، وهم الذين ألصقوا بعائشة تهمة الزنا؛ ليلطخوا عرض النبي ﷺ، وينفروا الناس عنه بهذه التهمة القبيحة المنفرة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ خاطب الله جميع الناس المؤمنين والمنافقين ودعاهم إلى طاعته وامتثال أمره.

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ ورباكم ورزقكم ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فهو الذي يستحق العبادة دون غيره من الأصنام وغيرها، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ۝٢١﴾ إذا عبدتموه فقد اتقيتم عذابه وسخطه، وعبادته هي الوسيلة إلى اتقاء عذابه وسخطه.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ مهدها لتعيشوا على ظهرها.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ سقفاً، ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ المطر ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ هذا هو الذي يستحق العبادة، وهو أهل لأن يعبد ما دام قد أوجد لنا هذه النعم دون غيره.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ۝٢٢﴾ لا تجعلوا له أمثالاً آلهة فليس له مثل، وأنتم من أهل العقول والعلم، فكيف تجعلون له أمثالاً وأنتم تعلمون أن هذه الأمثال لا تغني شيئاً، ولا يتأتى منها خلق ولا رزق.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ متشككين في هذا القرآن أنه من عند غير الله ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ۝٢٣﴾ ما دمتم قد كذبتم به فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من الناس.

تحداهم بالإتيان بمثل فصاحته حين كانت البلاغة في وقتهم قد بلغت قمتها والمهارة في أعلاها، وقد حاولوا ولم يستطيعوا، وقد كان هناك القصائد السبع (المعلقات السبع) التي هي أفصح الأشعار في ذلك الوقت، ولم يأت أحد بمثل بلاغتها قد علقت في أستار الكعبة، وحين سمعوا بالقرآن أزالوها من الكعبة؛ لأنهم رأوا وسمعوا شيئاً حط مرتبة هذه القصائد في الحضيض.

وكان كبار العرب وفصحاؤهم يذهبون خفية ليستمعوا إلى النبي ﷺ حين يقرأ القرآن، فيتعجبون من بلاغته وفصاحته، مع أنهم كانوا يمنعون صغارهم من الاستماع إليه؛ لئلا يتأثروا ويؤمنوا به، وكل من وصل إلى مكة حذروهم منه، ونعتوه بأنه ساحر وكذاب؛ لينفروهم عنه.

﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴿٢٣﴾﴾ وادعوا من استطعتم من دون الله ليعاونوكم على الإتيان بمثل القرآن، إذا كنتم ترون أن محمداً افتراه.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴿٢٤﴾﴾: فإن لم تستطيعوا أن تأتوا بمثله فاعلموا أنه حق من عند الله فاحذروا سخط الله وعذابه في جهنم الذي حذركم منه القرآن الذي جاءكم به محمد ﷺ.

فالنبي ﷺ قد أخبرهم أن هناك عذاباً وهناك ناراً أعدها الله في الآخرة للكافرين؛ فمن المفترض أن العاقل إذا سمع النذير ينذر بالخطر والهلاك أن يتحرز، ويتحذر، ويبالغ في النظر والتحقق، ويأخذ حذره، حتى ولو كان الخبر مشكوكاً فيه.

وقد اكتشف العلم الحديث كيف يمكن أن تكون الحجارة وقوداً وذلك الوقود النووي الذي يفجر الذرات فتصير ناراً وفيه إشارة ودلالة على أن القرآن حق؛ لأنه قد أخبر كيف يمكن أن تكون الحجارة وقوداً، وهي من المعجزات الدالة على صدق القرآن.

وقال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل: للمنافقين؛ لأن لفظ الكافرين يشملهم وغيرهم، فهو أعم.

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بعد أن ذكر الله النار التي وقودها الناس والحجارة وأنها أعدت للكافرين قال: ﴿وبشر﴾ يا محمد المؤمنين والمصدقين بما جئت به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

يعني بشر الذين جمعوا بين الإيمان والأعمال الصالحة بجنات النعيم التي يخلدون في نعيمها؛ لأن بعضهم يقول: إنه من قال: (لا إله إلا الله- دخل الجنة) فمن قالها دخل الجنة، وهذا غلط؛ لأنه قال: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فلا بد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، وقد تكرر ذلك في كثير من القرآن دلالة على أنه لا بد أن يقترن مع الإيمان العمل الصالح؛ فلا يغترن أحد بمثل ذلك؛ لأن الله قد رد عليهم بهذه الآية ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر]، وغيرها.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يعني أشجاراً كثيرة متنوعة، وخضرة قد غطت الأرض، وحجبت الشمس عن الأرض من كثافتها، والأنهار تجري من تحتها.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ يعني أثماراً متشابهة في أشكالها حتى يظن أنها نفسها ولكن لكل ثمرة طعم غير طعم الثمرة الأولى، أو أن المراد أنها مثل الذي قد رزقوا منه في الدنيا.

﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ أي: هذا الثمر، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ لا قذر فيهن مثل ذلك الذي يحصل في الدنيا من الحيض ونحوه. ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢٥﴾ لا ينقطع نعيمها ولا يخرجون منها أبداً.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ عندما ضرب الله المثل بالذباب والعنكبوت احتقر المشركون القرآن وطعنوا فيه ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي

أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ البعوضة وما هو أصغر منها.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني هذا المثل، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، استهزاء بالقرآن، وما الفائدة من ذكر هذا المثل.

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ كان هذا المثل سبباً لضلال كثير من الناس، وسبباً لزيادة الهدى عند آخرين، ولكن لا يكون سبباً لضلال المؤمنين، وإنما يكون سبباً لضلال الفاسقين الخارجين عن حدود الحق والمعروف الذين عرفوا عند الناس بنقض العهود وقطيعة الأرحام، وعرفوا أيضاً بالفساد في الأرض، وهؤلاء هم الذين خسروا الدنيا والآخرة.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ في النطف، والنطفة ميتة ﴿فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ للحساب. وهذا هو مشاهد محسوس أن نكون أمواتاً في النطف ثم يحيينا ويخرجنا من بطون أمهاتنا ثم يميتنا بعد ذلك، وهذا مشاهد محسوس، ثم بعد ذلك يحييهم للحساب، وليس في الآية دلالة على الحياة في القبور.

﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لا غيره من الأصنام التي تعبدونها من دون الله فإنها لم تخلق شيئاً في الأرض ولا في السماء، بل لا قدرة لها على فعل ما ينفعها أو يضرها، فكيف تعدلون أيها المشركون عن عبادة الإله الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً إلى عبادة غيره ممن لا يتصف بشيء من صفاة الإلهية؟!!

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾: هذا في بداية الخلق خلق الله الأرض ثم خلق السماء بعدها وجعلهن سبع سماوات.

والسماء المراد به الجنس بدلالة الجمع في ﴿فسواهن﴾ ذكره الزمخشري، والسماء الدنيا هي التي فيها المصابيح المضيئة والنجوم الكبيرة كالشمس، أو المراد بالسماء الارتفاع والعلو، فما ارتفع سمي سماءً.

وقوله: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١]، دلالة على أننا نرى السماوات وهي تلك النجوم البعيدة، ورغم التطور في زمننا هذا لم يستطيعوا أن يصلوا إلا إلى السماء الدنيا؛ فأقرب نجم إلى المجموعة الشمسية يبعد عنها حوالي ٣٠٠ سنة ضوئية، كما يقول العلم الحديث.

ذكر الله محاورة حصلت بينه وبين الملائكة وذلك حينما أراد خلق آدم فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يسكن الأرض ويعمرها، فاستنكرت الملائكة ذلك؛ لأنهم يعلمون أن من يسكن الأرض أنه جهول، وأنه سيحصل شر منهم وسفك دماء، وقد عرفوا ذلك حينما رأوا ما يحصل من الجن، أو أنهم كانوا قد عرفوا أنه من سكنها كانت هذه طبيعته.

وهذا الاستفسار ليس فيه اعتراض على الله، وإنما فيه حث على السؤال ليحصل العلم، وفيه حث على المشاورة، فعلى كبير القوم أن يشاور المقربين إليه في أمورهم، وأما الله تعالى فليس في حاجة إلى ذلك، وإنما هو من سبيل التعليم، وسؤالهم هذا لأجل أن يبين لهم الحكمة في ذلك الخلق البشري، وأن هذا الخليفة سوف يكون مؤهلاً لحمل العلم.

﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فظهرت حكمة الله من خلق آدم حين أنبأهم بالأسماء، وظهرت أهليته لحمل العلم، وانكشف أيضاً من هذا أمر إبليس وما كان يخبئ في قلبه من الكبر.

وسمي خليفة لأنه قد خلف الجن عندما كان قد أسكنهم قبله.

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ لماذا لم تخلق ملائكة في الأرض ليعبدوك ويسبحوك؟ ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ۝٣٠﴾ من الحكمة في خلقهم، ولله حكمة في كل ما خلق يختص بعلمها، ونحن لا نعلمها، وقد أظهر الله تعالى للملائكة بعض الحكمة في خلق آدم.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ المسميات، ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ۝٣١﴾ فسألهم فلم يعلموا بها، وسأل آدم فأخبرهم بأسمائها.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ۝٣٢﴾.

﴿قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أخبرهم آدم.

أو المراد بـ﴿عَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ﴾: أنه قابل للعلم والتعلم بخلاف الملائكة فإنما لكل ملك وظيفة يقوم بها ولا يتعداها، فبعضها وظيفته التسبيح وبعضها التحميد، وبعضها السجود، و..إلخ، وليس عندهم إمكانية لغير ما كلفوا به.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ۝٣٣﴾، لما ظهرت أسرار حكمة الله في خلق آدم للملائكة، قال لهم: ألم أقل لكم إنه لا وجه لاستنكاركم عليَّ في خلق آدم، لأني أعلم غيب السماوات والأرض، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون، والآن قد تكشفت لكم أيها الملائكة أسرار الحكمة في خلق آدم. والذي حكى الله تعالى من أسرار الحكمة هنا أمران:

الأول: أن هذا الخليفة الذي جعله الله في الأرض مؤهل لحمل العلم والحكمة.

والثاني: أنه ظهر بخلق آدم ما يكتمه إبليس من الكبر والتعالي الذي حمله على رفض أمر الله والتكبر عن طاعته.

وهذه الآية إشارة إلى قوله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ۝٣٠﴾ وما كنتم تكتمون يعني أن إبليس كان يكتم الكبر في قلبه فظهر كبره عندما أمره بالسجود لآدم فاستكبر.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ فقال: كيف أسجد لبشر لم يعبد الله وأنا على عبادته ستة آلاف سنة؟!! وهو مخلوق من طين، وأنا مخلوق من نار، والنار أفضل من الطين.

﴿وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ۝٣٥﴾ وهذا اختبار لهما، وابتلاء لطاعتهما.

وهذه الجنة في الدنيا، والمراد بالرغد: الترفه، أي: كلا في تنعم ورفاهية دون منغصات.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أوقعهما في الزلة وهي الأكل من تلك الشجرة، فوسوس إليهما أن الله ما منعهما إلا من أجل أن لا يكونا ملكين، أو يكونا من الخالدين، فطمعا بوسوسة الشيطان في منازل الملائكة، وفي أن يكونا من الخالدين.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من العيش الرغد في هذه الجنة.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ انزلوا إلى محل ثانٍ؛ لأن الجنة كانت في مكان مرتفع.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أنتم والشياطين.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ۝٣٦﴾ آدم ومن ولد له، لكم في الأرض متاع إلى يوم القيامة.

﴿فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ۝٣٧﴾ حزن آدم وأسف وندم فتاب الله عليه، وعلمه الله كيف يتوب، فعلمه أن يقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ۝٢٣﴾ [الأعراف]، فقالها، فتاب الله عليه، وغفر له.

وفي هذه الآية وما قبلها دلالة على شرف العلم عند الله تعالى، وأن له شأناً عنده؛ وذلك أن الله تعالى علم آدم من علمه، فحمل العلم الذي علمه ربه،

وألقاه على الملائكة فعرفوا حكمة الله في خلقه، وكبرت عندهم كرامته ومنزلته، حيث كان عنده من العلم ما ليس عندهم، وحمل من الحكمة ما لم يحملوه، ثم أمرهم الله تعالى بالسجود له تكريماً له بما يستحق من الكرامة التي جعلها الله له بسبب حمله للعلم والحكمة.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ أي: اخرج أنت يا آدم وأنت يا حواء وما تحملانه من الذراري والأجيال والقرون.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ۝٣٨﴾ وسأبعث فيكم رسلي وأنبيائي يدعونكم إلى الهدى، ويستنقذونكم من الهلاك، فمن استجاب لهم واهتدى بهديهم فهو في مأمن من عذاب الله، لا يلحقه خوف ولا مكروه ولا حزن، ومن كذب الأنبياء والرسل وكفر بهداهم وبما جاءوا به من آيات ربهم- فقد استحق عذاب الله وسخطه في نار جهنم خالداً فيها. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالهدى والرسل الذي يأتي إليهم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ۝٣٩﴾ أخبرهم بأنهم سيخرجون إلى الأرض ويتعبون فيها، بخلاف الجنة التي كنتم فيها فلا تعب ولا خوف ولا نصب، وسأرسل إليكم الرسل فمن اتبعها فلا خوف عليهم، ومن كفر بها فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، وأخبرهم بهذا لأجل أن يكون عندهم استعداد أنه إذا جاءهم نبي يؤمنون به.

﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ خاطب الله بني إسرائيل الذين كانوا في المدينة: بني قينقاع وخيبر وبني النضير وغيرهم.

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾لأن الله قد أنعم على اليهود بنعم لم ينعم بها على أحد من العالمين؛ ومن المفروض أنهم إذا تذكروا هذه النعم أن يكونوا أول من يؤمنون بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ وكان الله سبحانه وتعالى قد عهد إليهم في كتابهم أن يؤمنوا بالنبي الذي سيبعثه إليهم ﴿النَّبِىَّ الْأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

﴿وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ﴿٤٠﴾﴾ أي: خافوني ولا تخافوا غيري ولا تعصوني، وعهدكم يا بني إسرائيل الذي جعلته لكم إن وفيتم لي بالسمع والطاعة أني أرفعكم، وأثيبكم، وأجعل لكم في الأرض رفعة وشرفاً ونصراً وتأييداً.

﴿وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ وآمنوا بالقرآن لأنه مصدق للتوراة وموافق لها.

﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ بالقرآن؛ وكان الله قد أخبرهم في كتابهم بهذا النبي وبصفاته، ومن المفروض أن يكونوا أول المؤمنين به، لما يعرفون في كتابهم من صفته.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا تتركوا الهدى الذي جاءكم وتأخذوا مقابل ذلك ثمناً قليلاً من متاع الدنيا.

﴿وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ﴿٤١﴾﴾ فسخطي عظيم وبطشي شديد، فخصوني بالتقوى لتسلموا من سخطي وعذابي.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴿٤٢﴾﴾ كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم معروفاً عندهم بصفاته، فأرادوا أن يلبسوا على الناس ويغالطوهم، فضللوا أتباعهم أن هذا ليس هو النبي الذي في التوراة وليست هذه صفاته.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴿٤٣﴾﴾ خطاباً لبني إسرائيل بأن يقيموا الصلاة مع النبي والمسلمين، وأن يتبعوا الشريعة الجديدة التي أتاهم بها.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ كان علماء بني إسرائيل يأمرون الناس بفعل البر والطاعات، دون أن يفعلوا ما أمروا الناس به، فاستنكر الله عليهم ذلك، وذمهم بهذا الصنيع.

﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ وأنتم من أهل العلم بالتوراة وما فيها من ذم هذا الصنيع وكراهته.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴿٤٤﴾﴾ أي: أن من شأن العاقل أن لا يقدم على فعل ما ذكرنا مع علمه بقبحه، فأين عقولكم يا أهل التوراة؟ أما بقي لكم منها ما يزجركم ويردكم عن أعمال الجاهلين؟!

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ وهذه عامة للناس جميعاً. كان النبي ﷺ إذا عرض له أمر لجأ إلى الصلاة؛ لأنها تخفف الهم وفيها فرج، فالصبر والصلاة هما العون على مجاوزة الشدائد، والخروج من المكاره، وبهما تستفتح أبواب الفرج ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ الصلاة عمل شاق وثقيل ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴿٤٥﴾﴾ المتواضعين لله، وهم: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴿٤٦﴾﴾ وهم المؤمنون بيوم الحساب والجزاء والثواب والعقاب، فليست كبيرة عليهم.

﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴿٤٧﴾﴾ تذكروا هذه النعم التي أنعمت بها عليكم لعلكم ترجعون إلى شكري وطاعتي، وتستحون من معصيتي والتمرد عليَّ عند تذكرها، فتذكروا إحساني إليكم وحسن صنيعي بكم.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ اتقوا عذابي يوم القيامة حيث لا يقدر أحد على نفع أحد بأي نفع على الإطلاق.

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: لا يقبل منها فدية تفتدي بها، فخافوا هذا اليوم الذي ستلاقي فيه كل نفس جزاء أعمالها.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴿٤٩﴾﴾ يعدد الله هنا النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل، يذكرهم بها لأجل أن يؤمنوا بالنبي الذي جاءهم، يعاتبهم الله لعلهم أن يتراجعوا عن غيهم ويرجعوا إليه فيؤمنوا برسوله صلى الله عليه وآله وسلم ويستجيبوا لدعوته.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ينزلون بكم أشد العذاب، والعذاب هو: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ كان آل فرعون يذبحون مواليد بني إسرائيل، فإذا كان المولود أنثى تركوها حية ثم يسخرونها في أعمالهم.

﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴿٤٩﴾﴾ وهذه نعمة كبيرة حين نجاكم من هذا البلاء، وقد كان بنو إسرائيل كلهم في مصر من عهد النبي يوسف عليه السلام، تناسلوا وتكاثروا فيها قرناً بعد قرن، وكانوا قلة قليلة ومستضعفين في أرض مصر، فكان آل فرعون يعذبونهم ويستعبدونهم، ثم أخيراً كان من ولد ذكراً منهم قتلوه، ثم نجاهم الله على يدي موسى عليه السلام.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴿٥٠﴾﴾ فتحه الله لهم ليمروا منه لينجوا من فرعون: ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء]، ثم بعد أن نجاهم من بين البحر وتبعهم فرعون ومن معه أغرقهم الله أمام أعينهم وهم ينظرون؛ ليتشفوا برؤية عدوهم حين أخذهم عذاب الله بالغرق، وهذه من النعم العظيمة التي أولاها الله تعالى بني إسرائيل.

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴿٥١﴾﴾ وعد الله موسى أربعين ليلة ليكتب التوراة عند جبل الطور، ويأخذ معه من بني إسرائيل سبعين رجلاً، فذهبوا معه ليشهدوا أنهم سمعوا

التوراة حين أنزلت على موسى، وذلك لزيادة الحجة عليهم حين يكتبون التوراة بأيديهم في الألواح، ولِسَدِّ الطريق على المشككين في التوراة لئلا يكذبوها، فقام بنو إسرائيل خلال هذه الفترة التي غاب فيها موسى لكتابة التوراة باتخاذ العجل ليعبدوه، وقالوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه:٨٨].

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ۝٥٢﴾: عفا الله عنهم لأجل أن يشكروه؛ فكان العفو نعمة أنعم بها عليهم، ويريد الله تعالى من بني إسرائيل أن يشكروه عليها ويذعنوا بطاعتهم له ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ۝٥٣﴾ وهذه نعمة من الله أن آتاكم الكتاب: التوراة التي تفرق بين الحق والباطل، ويقال للقرآن فرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل فكان من المفروض بكم يا بني إسرائيل أن تكون التوراة سبباً لسلوككم طريق الهدى ولكنكم قابلتم هذه النعمة العظيمة بالكفران لها والتهاون بها، والإعراض عنها وتركتموها وراء ظهوركم وسلكتم سبيل الضلال.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ۝٥٤﴾ فلما كتب موسى عليه السلام التوراة في تمام مدة أربعين يوماً عاد إلى قومه بني إسرائيل فوجدهم على غير ما تركهم عليه من الدين، فتركوا عبادة الله واتخذوا لهم عجلاً يعبدونه، فغضب عليهم وأحرق العجل، وبين لهم خطأهم وضلالهم، ودعاهم إلى الرجوع إلى الله، وأرشدهم إلى التوبة التي كتبها الله عليهم وهي أن يقتلوا أنفسهم، فتابوا وقبل الله توبتهم، وقبول توبتهم نعمة عظيمة مَنَّ الله عليهم بها فكان من المفروض أن يقابلوها بشكر الله وبطاعته لا بالكفر برسالته وآياته وبنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴿٥٥﴾﴾ لم يكن السبعون الذين ذهبوا مع موسى عليه السلام بأرشد من قومهم الذين عبدوا العجل وكفروا بالله بل صنعوا كصنيعهم فإنهم لما وصلوا ميقات ربهم لكتابة التوراة كفروا بموسى وبدينه وبما جاءهم به من عند الله، وقالوا: لن نؤمن أبداً حتى تظهر لنا ربك فنراه عياناً، وتقع عليه أبصارنا جهرة، فإن لم تفعل أقمنا على الكفر بك وبرسالتك وبدينك، فراجعهم موسى، فأصروا على مطلبهم فغضب الله عليهم وأخذهم بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود لكفرهم وتمردهم وتعنتهم على الله تعالى وعلى نبيه موسى عليه السلام.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿٥٦﴾﴾ أحياهم الله بعدما أماتهم بالصاعقة، وهذه نعمة عظيمة من الله تعالى ينبغي أن تشكروه عليها لم يعطها أحداً قبلكم.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ وذلك عندما حكم عليهم بأربعين سنة يتيهون في الأرض لا يهتدون طريقاً فلم يتركهم الله تعالى مع غضبه عليهم من نعمه العظيمة فأظلهم بالسحاب في مدة تيههم.

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ وجعل الله لهم المن والسلوى طعاماً في التيه.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ذكَّرهم الله بالنعم التي أنعم بها عليهم، وأذن لهم بالتنعم بما أنعم عليهم من النعم، ولم ينعم على أحد بمثل ما أنعم به عليهم.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿٥٧﴾﴾: فأكلوا وتنعموا إلا أنهم لم يشكروا الله مولي النعم، بل أشروا وبطروا، وأعرضوا عن طاعة الله، واسترسلوا في معاصيه، وفي التمرد على خالقهم، والخروج عن أمره، فأذاقهم الله وبال أمرهم، وأخذهم بذنوبهم بسبب كفرانهم لنعم الله، وتمردهم عن طاعته، فهم الذين تسببوا في نزول ما نزل بهم من بأس الله، وحلول ما حل بهم من نقمته، وذلك من الله عدل وليس بظلم، تعالى الله عنه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ۝٥٨﴾: ذكرهم الله بعنادهم يوم أمرهم بدخول القرية وهي من قرى الشام.

﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ مدينة من مدن الشام، ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ يعني: ادخلوها مستغفرين متواضعين ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ۝٥٨ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فعاندوا، وعصوا أمر الله، ولم يمتثلوا أمره عند دخولهم المدينة، وهذا الخطاب بعدما مات موسى وهارون، وكان ذلك في عهد يوشع عليه السلام.

﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ۝٥٩﴾ أنزل الله عليهم عذاباً من السماء بسبب فسقهم وتمردهم على الله تعالى ومخالفتهم لأمره.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ ذكر الله بني إسرائيل بنعمة عظيمة مما منَّ به عليهم وذلك عندما كانوا في التيه سأل الله موسى أن يسقي قومه، ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وكانوا اثنتي عشرة قبيلة، فطلب لكل قبيلة عيناً ليشربوا منها، وذلك لئلا يتنازعوا فيما بينهم؛ لأنهم كانوا أهل عناد وتمرد؛ فلم يكفهم عين واحدة فقط!!

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ قد عرفت كل قبيلة عينها التي تشرب منها.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ۝٦٠﴾ أنعم الله عليهم بالمن والسلوى وعيون الماء المتفجرة من الحجر التي كانوا يستصحبونها معهم في تيههم، يأكلون ويشربون بغير تعب ولا عناء؛ فليشكروا الله على ما أولاهم من كريم رزقه، ولا يبدلوا الشكر بالفساد في الأرض، وهنا ذكر الله بني إسرائيل بنعمه لعلهم يرجعون إلى طاعته وطاعة رسوله الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ ملُّوا ما هم فيه من رزق الله الذي كان يأتيهم من السماء، واحتقروه وازدروه؛ فطلبوا غيره.

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ فقال لهم موسى عليه السلام: اذهبوا فانزلوا أي قرية من هذه القرى التي نمر من عندها في التيه فإنكم تجدون ما سألتم عنه، والمصر يراد به مدينة من المدن التي فيها أسواق.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أصبحوا قوماً مستذلين، ولم يحصل لهم دولة تعزهم وتمنعهم، وأصبحوا محكومين تحت دولة تذلهم، وسيطرت عليهم النصارى بعد ذلك، وبخت نصّر، وتبدلوا برحمة الله غضبه وسخطه جزاءً من الله على كفرانهم لنعم ربهم وتمردهم عن طاعته وكفرهم برسوله الخاتم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾: ذلك بسبب عصيانهم وعنادهم وتمردهم.

كان اليهود يقولون: إنه لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً؛ فقال الله لهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ رداً من الله عليهم، والصابئون: اسم لكل من مال عن الحق وانحرف عنه إلى ديانة أخرى، فحكم الله تعالى أن ثوابه العظيم في جنات النعيم عام لمن تحقق بالإيمان بالله وباليوم الآخر وأطاع الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما أمر ونهى، وسواء أكان من أهل الإسلام أو من اليهود أو من النصارى أو من الصابئين أو من غيرهم من الأمم، وليس ثواب الجنة ونعيمها خاصاً بأنه دون أمة.

هذا، ومن لوازم الإيمان بالله تعالى أن يؤمن بملائكته وكتبه ورسله جميعاً فمن كفر بواحد من رسل الله عليهم السلام فليس بمؤمن بالله لذلك فلا يكون ثواب الله في

جنات النعيم إلا لمن آمن بخاتم المرسلين ﷺ دون من كفر به وبرسالته فلا حظ له في ثواب الجنة لكفره بخاتم الرسل وبما جاء به من آيات الله ووحيه.

ثم ذكَّر الله بني إسرائيل بنعمه عليهم فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ۝٦٣﴾ تهاون بنو إسرائيل بالعمل بشرائع الله التي في التوراة فرفع الله فوقهم جبل الطور، وقال لهم: اعملوا بجد واجتهاد بأحكام الكتاب، وكونوا في غاية القوة بالتمسك بذلك مع الاستقامة والصبر، فقبلوا وأعطوا ربهم العهد على ذلك، ثم ذكَّرهم الله العهد الذي أعطوه على ذلك لعلهم يذكرون فيتراجعون عن ضلالهم، ولا يكتمون ما أنزل الله عليهم في التوراة من الشهادة بنبوة محمد ﷺ.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ ثم رفضوا العمل بعد أخذ الميثاق عليهم، ونكثوا العهد.

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ۝٦٤﴾ تركوا ما عاهدوا الله عليه فاستحقوا عذاب الله، إلا أن الله تعالى لم ينزل بهم ما يستحقونه من العذاب فضلاً منه عليهم، ورحمة بهم؛ فلعل ذلك يكون سبباً داعياً لهم إلى الحياء من الله، والرجوع إلى شكره وطاعته.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ۝٦٥﴾ ذمهم الله حين علموا بمن اعتدى منهم في السبت ولم يخبروا بهم الناس وأن الله قد مسخهم قردة، وفيها تهديد لهم، وإشارة أنهم إن لم يقلعوا عن عداوتهم لله ورسوله ﷺ فإنه سيحل بهم من العذاب مثل ما حل بأصحاب السبت.

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ۝٦٦﴾ جعل الله مسخ أهل القرية إنذاراً وتحذيراً للمفسدين في ذلك العصر، ولمن يأتي بعدهم بأن سخط الله سيحل بهم كما حل بأهل السبت إن لم يتراجعوا عن إفسادهم وتمردهم على الله.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قتل رجل على عهد موسى عليه السلام ولم يعلموا من هو قاتله فأخبرهم موسى بأن الله يأمرهم بذبح بقرة.

﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ قال بنو إسرائيل: هل أنت جاد يا موسى حين تأمرنا بذبح بقرة، أم أنك تستهزئ بنا؟

﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ لا أستهزئ بكم وإنما الأمر جد لأجل أن يعرف القاتل.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ تمرداً منهم.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ليست كبيرة ولا صغيرة، متوسطة.

﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ اذهبوا واذبحوا هذه البقرة، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ ولو كانوا ذهبوا من أول الأمر وذبحوا بقرة لكانوا ممتثلين، ولكنهم لجوا في عنادهم وسؤالهم فشدد الله عليهم بهذه الأوصاف.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ بقرة صفراء شديدة الصفرة تعجب من نظر إليها لحسن اصفرارها.

لم يكفهم ذلك الوصف، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ فلا ندري أي بقرة تريد أن نذبحها، ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ فنعرف ما تريد.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ إنها بقرة صعبة لم تذلَّل بكثرة الحرث وسقي الزرع.

﴿مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ سالمة من العيوب لا يخلط لونها لون آخر.

قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ ولم يقاربوا أن يفعلوا ما أمروا به من ذبح البقرة؛ لتمردهم ولدادهم، وكثرة تعنتهم.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴿٧٢﴾﴾ كان قتل النفس التي لم يعلم قاتلها هو السبب فيما أمروا به من ذبح بقرة وقد كانوا يترامون فيما بينهم بتهمة القتل.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ اضربوا الميت بقطعة من هذه البقرة، فضربوه بها فأحيا الله هذا الميت وأخبر بقاتله.

﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴿٧٣﴾﴾ أي: مثل إحيائه هذا الميت كذلك يحيي بقية الموتى، يعني أن ذلك آية دالة على قدرة الله تعالى على بعث الناس للحساب والجزاء بعد موتهم.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ بعد ما رأيتم آيات الله الدالة على قدرته على بعث الناس بعد الموت، ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ من الحجارة، ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ فتخرج من بينها العيون، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ فبعضها يخرج منه الماء ويتذلل لله، صور الله تعالى لنا قساوة قلوب اليهود فذكر أنها زادت قساوة قلوبهم على قساوة الحجارة، وأن الحجارة على شدة قساوتها قد تشقق فيخرج منها الماء وقد تخرج منها الينابيع والأنهار فينتفع الناس بما يخرج منها، ومن الجبال ما يهبط بعد طوله من خشية الله، أما قلوب اليهود فلا خير فيها على الإطلاق ولا تتأثر من خشية الله، لذلك فلا تتوقعوا إيمان اليهود ولا ترجوا منهم ذلك.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ قال الله للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وللمسلمين: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم هؤلاء اليهود ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴿٧٥﴾﴾ كانوا يسمعون التوراة فيخبرون الناس بغير ما سمعوه، لذلك يستبعد من اليهود أن يؤمنوا بالقرآن وبالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فاقطعوا أيها المؤمنون رجاءكم من إيمان اليهود ولا تتوقعوه.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ مكراً منهم بالمسلمين، وخداعاً ونفاقاً.

﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ يستنكر بعضهم على بعض أن يخبروا المسلمين بصفات النبي الواردة في التوراة لئلا يحتج المسلمون يوم القيامة بما سمعوه من اليهود من الاعتراف بما جاء في التوراة.

وما زال القرآن يتكلم عن اليهود؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عانى منهم معاناة شديدة، ووقفوا في وجه الإسلام، وكادوا النبي والمسلمين، وحاولوا طمس الدين بكل ممكن، وكانوا أهل قوة وأهل عدة وعدد وثروة، وكانوا أثرى أهل جزيرة العرب، ولاقى النبي والمسلمون منهم أذى شديداً، وناصروا المشركين عليهم؛ وهم أهل دهاء وحيل ومكر وسياسات، وكانوا أشد من العرب في هذا المجال.

وكانوا يمكرون بالإسلام من داخله؛ إذ كانوا يدخلون بين المسلمين نفاقاً وخداعاً وكيداً، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴿٧٧﴾﴾ فالله عالم بصفات النبي التي عندهم وأنهم إنما كتموها، وأن الله سيجازيهم على ما أسروا وأعلنوا.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ ومن اليهود من لا يقرأ ولا يكتب وليس لهم علم بأحكام التوراة، وقد تراكمت على قلوبهم الجهالات والضلال، ويظنون أن ما هم عليه من الجهل والضلال المتراكم هو من الهدى والنور الذي أنزله الله تعالى في التوراة وليس كذلك وإنما يظنون ويتوهمون فهؤلاء أيضاً لا يطمع في إيمانهم لما هم فيه من الجهالات والضلال البعيد ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴿٧٨﴾﴾ فليسوا من أهل العلم بالكتاب (التوراة).

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ توعد الله علماء بني إسرائيل عندما كانوا يحرفون الكتاب، ويبدلون الشريعة التي جاءتهم، ثم يقولون هذا كلام الله.

وذلك أنه كان لا يعلم الكتاب إلا دَرَسَة الكتاب، وهم أناس معدودون، والبقية جاهلون؛ فيخبرونهم بما أرادوا ويقولون هذا من عند الله، والناس يصدقونهم.

﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كانوا يأخذون على تحريف الكتاب رشوة ويغيرون أحكام التوراة بثمن قليل يأخذونه من كبار اليهود.

﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ فتوعدهم الله بالعذاب العظيم وأعده لهم عقاباً لهم على ما كتبوه، وعلى ما أخذوه من السحت على تحريف التوراة.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ ادعت اليهود زوراً وكذباً على الله أن الله لن يعذب عصاتهم في جهنم إلا أياماً معدودة ثم يخرجون منها إلى الجنة.

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ قال الله للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قل لهم: هل معكم عهد من الله أنه لن يعذبكم إلا أياماً معدودة؟ فإذا كان معكم عهد من الله ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ فهو موف بما عهد إليكم.

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أم تكذبون على الله زوراً وبهتاناً.

ثم قال الله: ﴿بَلَى﴾ ليس على قولكم يا معشر اليهود ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ يعني لم يتب منها ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ كل من كسب سيئة ولم يتب منها إلى أن مات فهو من أصحاب النار كائناً من كان، فلا تغرنكم الأماني والأكاذيب، سواء كان من اليهود أم من غيرهم.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ والجنة هي لمن تحقق بحقائق الإيمان واستقام على الأعمال الصالحة، سواء كان من اليهود أم من غيرهم؛ وليست الجنة خاصة باليهود كما يدعون زوراً وبهتاناً.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أخذ الله ميثاق بني إسرائيل على عهد موسى على ما تضمنته الآية وذلك: أن يخلصوا العبادة لله وحده ولا يشركوا معه غيره، وأن يقصد كل واحد منهم ويتعمد الإحسان إلى أمه وأبيه وإلى ذوي قرابته وإلى الأيتام وإلى المساكين، وأن يخاطبوا غيرهم من الأمم بالقول الحسن الذي تنجذب إليه النفوس ولا تنفر عنه، وأن يحافظوا على إقامة الصلاة وإخراج الزكاة، أخذ الله ميثاقهم على هذه الخصال فأبوا وعاندوا فقال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ فلم توفوا بالعهد، وكانت اليهود أجفى البشر وأغلظهم، أهل قسوة وكبر وغلظة وشدة.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴿٨٣﴾﴾ إلا قليلاً منهم وفوا بما عاهدوا الله عليه وأغلبهم أعرضوا عن العهد وعن الميثاق الذي أخذه الله عليكم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ لا يقتل بعضم بعضاً، وهم بنو إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة، ومحرم عليهم في التوراة أن يقتل بعضهم بعضاً.

﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ لا يخرج بعضكم بعضاً من دياركم فلا تتقاتلوا ولا يخرج بعضكم بعضاً من ديارهم.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴿٨٤﴾﴾ اعترفتم وقلتم: هو صحيح أن الله قد أخذ علينا هذه المواثيق.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ تتقاتلون فيما بينكم؛ لأن اليهود الذين في المدينة كان فرقة منهم قد تحالفت مع الخزرج وأخرى مع الأوس، وكانت الأوس والخزرج تقتتل فيما بينها، وكان كل فريق منهم يقاتل مع حليفه.

﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ وعندما تأسرونهم

تفادونهم وتأخذون الأسرى بعدما قتلتموهم وأخرجتموهم فإذا أخذت الأوس أسرى من اليهود قامت اليهود ودفعت الفدية وتركتهم وشأنهم.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ أمرهم الله في التوراة أن إذا أسر أحد منهم أن يدفعوا عنه الفدية فقد امتثلوا هذا الأمر، وأما إخراجهم وقتل بعضهم لبعض فلم يمتثلوا فقتل بعضهم بعضاً وأخرجوهم من بيوتهم، وهذا استنكار من الله تعالى عليهم حين فعلوا البعض وتركوا البعض.

﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ۝٨٥﴾ فهم لذلك يستحقون الخزي في الدنيا والعذاب الشديد في نار جهنم، وسيجازيهم ربهم بكل صغيرة وكبيرة من أعمالهم الخبيثة فقد أحاط بكل شيء علماً، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ آثروا الحياة الدنيا على الآخرة قصدوا ذلك وتعمدوه تهاوناً منهم بأمر الله واستخفافاً بدينه.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ۝٨٦﴾ بسبب أعمالهم لا يخفف الله عنهم عذاب جهنم ولا يجدون هنالك من يدفع عنهم عذاب الله وذلك لاستحكام غضب الله عليهم وعظيم سخطه عليهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أتى على أثره رسل كثيرة إلى بني إسرائيل، ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ جبريل عليه السلام.

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ۝٨٧﴾ خاطب الله بني إسرائيل: كلما جاءكم رسول كذبتم به أو قتلتموه، وفعلاً فرسل الله لا تأتي إلا بما لا تهوى الأنفس – استكباراً منهم وتمرداً على الله وعلى رسله.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قالوا لنبيهم: قلوبنا مغطاة فلا نعقل ما تقول.

﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴿٨٨﴾﴾ أي: ليست قلوبهم غلفاً، بل لعنهم الله بكفرهم، وتكبرهم، وتمردهم، وإيثارهم للحياة الدنيا وشهوات أنفسهم على الآخرة، وعدم إرادتهم للحق، وحبهم للرياسة والسلطة والتكبر ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴿٨﴾﴾ فلن يؤمنوا مع ما هم عليه من الميل إلى شهوات الدنيا والتكبر فيها.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ ذكر الله حالتهم كيف كان فعلهم بأنبيائهم وتكذيبهم واستكبارهم، ولما جاءهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن المصدق للتوراة ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كانت اليهود الذين في المدينة يقولون: إنه سيبعث في هذا الزمان نبي وسننصره ونقتلكم ونسيطر عليكم، وسيكون لنا دولة، فلما جاءهم كفروا به وكذبوه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ جاءهم النبي الذي عرفوا حقاً أنه هو النبي المذكور في التوراة وأن أوصافه مطابقة للأوصاف التي فيها ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ فلم يؤمنوا به، ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴿٨٩﴾﴾.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ عندما رفضوا الإيمان واستبدلوا به الكفر وقالوا: لماذا بعث الله نبياً ليس منهم؟ وذلك بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده!! اعتراضاً منهم على الله، وحسداً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ اجتمع غضب على غضب من الله عليهم؛ لأنهم كفروا بما أنزل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فغضب الله عليهم، واعترضوا على الله تعالى حين اختار محمداً صلى الله عليه وآله وسلم للرسالة، فغضب الله عليهم؛ فاجتمع عليهم غضب بعد غضب.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ۝٩٠﴾ بسبب كفرهم استحقوا من الله العذاب المهين في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ بالقرآن وبالنبي، ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ من التوراة ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ بما أنزل على محمد ﷺ ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي: القرآن.

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ۝٩١﴾ إذا كنتم تبحثون عن الحق فلماذا تقتلون أنبياء الله من قبل؟ يعني أسلافكم، وصفهم الله بأنهم أهل تمرد لا يريدون الإيمان من زمن موسى عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ۝٩٢﴾ فلم يغب عنكم إلا أربعين ليلة فعبدتم العجل.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ سمعوا ما أمرهم الله به، ولكنهم لم يعملوا، ولم يمتثلوا، بل عصوا وتمردوا.

﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ دخل في قلوبهم حب عبادة العجل، وتمكن فيها غاية التمكن.

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ۝٩٣﴾ كانت اليهود تقول إن الله تعالى أمرنا في التوراة أن لا نؤمن برسول يأتينا بعد موسى، وأن علينا أن نتمسك بالتوراة دائماً، قالوا ذلك كذباً وزوراً، وبئس ما قالوا، وتعالى الله عن أن يقول ذلك، بل أمرهم الله في التوراة أن يؤمنوا بالنبي الأمي وأن يتبعوه، قال تعالى: ﴿النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ۝٩٤﴾ قل لهم يا محمد: إن كانت الدار الآخرة خالصة

لكم دون غيركم من الأمم، وأنكم وحدكم ستدخلون الجنة- فتمنوا الموت إن كنتم صادقين في هذه المقالة.

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بما عملوا من الأعمال السيئة، ولو تمنوه لماتوا، وهذا الخطاب لليهود الذين في عهد النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٩٥﴾ عالم بهم وبأعمالهم السيئة التي قدموها.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ لا يحرص أحد مثل حرصهم في البقاء على الدنيا.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فهم أشد حرصاً من المشركين على البقاء في الحياة الدنيا ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يتمنى، ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ ولن ينفعه من العذاب أن يعمر هذا التعمير.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ عالم بأعمالهم كلها صغيرها وكبيرها وسيلقون جزاء ما عملوه.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ عادت اليهود جبريل، فقالت إنه الذي نزل النبوة على محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وإنما نزله على محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بإذن الله وبأمره وليس من تلقاء نفسه، فلماذا يعادون جبريل وليس إلا مأموراً بتبليغ الرسالة إليه؟

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتاب من التوراة والإنجيل، أي: أن القرآن مصدق لما تقدمه من الكتب ﴿وَهُدًى﴾ يهتدي بأنواره المؤمنون، ﴿وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧﴾ وفيه البشرى للمؤمنين بالثواب والنعيم في الدنيا والآخرة، وحينئذ فليس فيما جاء به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ من الرسالة ما يدعو اليهود إلى عداوته وإنما جاء بما يدعم أحكام التوراة ويشهد بصدقها.

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ۝٩٨﴾ جازى الله تعالى اليهود على عداوتهم لجبريل ومحمد عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

ولغيرهما من الملائكة والرسل ﵈ بأن عاداهم، وعداوة الله لهم هي أن الله تعالىٰ سيجازيهم بعذابه في سعير جهنم.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات، فيها الحجج ظاهرة وواضحة، لا شك فيها ولا ريب، ولا مدخل لذلك فيها.

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴿٩٩﴾﴾ فلا تطلب غير ذلك من الآيات يا محمد، وتقول: لو جاءني آية واضحة أوضح من هذه لآمنوا، فالحجة فيه ظاهرة لا يكفر بها إلا من تمرد وأبىٰ قبول الحق.

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴿١٠٠﴾﴾ عادة اليهود نقض المواثيق والعهود وهم أهل نقض وغدر وخيانة.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني النبي محمداً ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ للتوراة، ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿١٠١﴾﴾ نبذوا كتابهم الذي ذكرت فيه صفات النبي ﷺ، وتركوه وراء ظهورهم، ولم يعملوا به، وأنكروا أن يكون النبي الذي ذكره الله في كتابهم، وأنه ليس النبي الذي سيبعث في آخر الزمان، وهم إلىٰ الآن ما زالوا منتظرين للنبي الموعود به في التوراة، والواقع أنه قد جاء فكذبوا به بعد علمهم بأنه النبي المذكور في التوراة الذي وعدوا به في آخر الزمان.

وهم أهل كفر وأهل تمرد علىٰ طول التاريخ من عهد موسىٰ، كفروا به ولا زال بين أظهرهم، وهو الذي أنقذهم من مصر وأخرجهم من ظلم فرعون، ورأوا الآيات البينات رأي العين: فلق البحر، ونزل عليهم المن والسلوىٰ، ورفع فوقهم الطور، وقد كفروا به وأقدامهم لم تجف بعدُ، حين خرجوا من البحر وعبدوا العجل قالوا لموسىٰ: اجعل لنا إلهاً كما لأولئك آلهة.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ هم اليهود نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولم يؤمنوا بالرسل، ولا بالقرآن، وكفروا بأنبيائهم، واتبعوا بدلاً

عن ذلك ما تتلوا الشياطين من السحر الذي كانت تتلوه الشياطين في عهد سليمان، وأخذت اليهود به بدل الأخذ بكتب الله وآياته.

والمراد بـ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ على عهد سليمان وفي عصره.

وكانت اليهود تقول: إن نبي الله سليمان الذي علمهم السحر فقال الله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ وليس سليمان الذي علمهم السحر وحاشاه، فلم يأتهم إلا بالهدى ودين الحق، ولكن الشياطين هم الذين علموا اليهود السحر.

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ لم ينزل الله السحر على الملكين هاروت وماروت ولكنهما تعلماه.

﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ وهما مَلِكان من ملوك الدنيا؛ بدليل أنه قرئ بكسر اللام.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ :كان هذان الملكان لا يعلمان أحداً السحر حتى يحذرانه من فتنة السحر والركون إليه، ويقولان: إنما نحن فتنة للناس، وموضع اختبار لهم، وإن التصديق والعمل بالسحر كفر فاحذروا.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ اليهود كانوا يتعلمون من الملكين ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فتأثيره متوقف على إرادة الله تعالى؛ فإذا أراد الله حفظ المرء فلن يضره السحر.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ كان اليهود يتعلمون السحر، وهو من العلوم التي تضر ولا تنفع، ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ وقد عرفوا أن الذي يتعلم السحر ويأخذ به أنه ليس له في الآخرة حظ ولا نصيب، وأنه في سخط الله، ومن أهل نار جهنم، وتعلموه رغم ذلك كله.

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ خسروا أنفسهم بتعلم السحر فكسبوا سخط الله، وحرموا ثوابه.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ ولو أن اليهود عدلوا إلى الإيمان بالله وحافظوا على تقوى الله بدلاً من تعلم السحر والعمل به لكان أولى وأفضل ولأحرزوا الثواب العظيم من الله ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿١٠٤﴾﴾ كان اليهود يقولون للنبي حين يقرأ القرآن هذه الكلمة «راعنا»، ومعناها الظاهر: تأنَّ بنا لكي نسمع ونعرف ما تقول، وهي في الباطن سبة يسبون بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا من خبثهم، فأرشد الله المؤمنين إلى أن يتجنبوا هذه الكلمة في مخاطبة نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم وأن يقولوا بدلاً عنها: أنظرنا، أي: تأنَّ بنا.

﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ يعني انتظرنا وتأن بنا بدلاً عن تلك الكلمة اليهودية، ﴿وَاسْمَعُوا﴾ افهموا وامتثلوا، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿١٠٤﴾﴾ لليهود بسبب شتمهم وسبابهم هذا الذي كانوا يشتمون به النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني ما يتمنى ولا يرضى أهل الكتاب ولا المشركون أن ينزل على المسلمين الوحي والنبوة؛ حسداً منهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني النبوة يعطيها من يشاء، لا دخل لليهود ولا للمشركين في فضل الله ورحمته.

اعترض المشركون على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم حسداً منهم لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولبني هاشم على ما أولاهم الله من الشرف الرفيع الذي لا يمكنهم الوصول إليه، واليهود اعترضوا وقالوا: لماذا كانت في العرب؟ هذا ما لا يكون، ونحن أولى بها منهم، فقال الله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴿١٠٥﴾﴾، وليس لليهود ولا للمشركين أن يتحكموا على الله ويعترضوا عليه حين اختص محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالنبوة والرسالة.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ جعل الله لكل نبي آية تدل على صدقه وعلى نبوته، وكأن المسلمين أحبوا وتطلعوا إلى أن يأتي الله تعالى لنبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بمعجزة مثل معجزة موسى أو عيسى أو صالح، فقال الله: إنه قد نسخ تلك الآيات، وأتى بخير منها أو مثلها، والمراد بـ «ننسها»: نؤخرها ونأتي بآية أفضل منها، فأتاهم الله بآية تدل على صدق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حتى عرفوا وتيقنوا أنه نبي من عند الله.

واليهود قد آتاهم الله آيات تدل على صدقه غير القرآن، وذلك في التوراة، حتى عرفوا أنه نبي من عند الله كما يعرفون أبناءهم، والمشركون عرفوا أن القرآن حق وصدق من عند الله من خلال فصاحته وبلاغته، وأنه ليس تحت مقدور البشر أن يأتوا بمثله، فلم يكن هناك حاجة تدعوا إلى أن يأتي الله بآية أخرى لنبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ يأتي بآية مكان آية على حسب ما يقتضيه علمه وحكمته، وعلى حسب ما تستدعيه المصلحة وهو العالم بما يصلح من الآيات لكل أمة ولكل زمان.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ ألم تعلم أن الله هو المسيطر على ملك السماوات والأرض يتصرف في ملكه كيف يشاء، ويحكم ما يريد، ليس لأحد أن يقترح عليه ولا يعترض، بل عليهم أن يسمعوا ويطيعوا، ويرضوا بقضاء الله وحكمه وبخيرته، وليعلموا أنهم إن لم يستجيبوا لربهم فيما يريد فإنهم سيتعرضون لسخطه، ويحل عليهم غضبه، ولن يجدوا لهم منه مهرباً، ولا ناصراً يمنع عنهم ويحميهم.

ثم استنكر الله على المسلمين أن يصدر منهم من الاقتراح على نبيهم محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مثل ما صدر من بني إسرائيل من الاقتراح على نبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قالوا له:

﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣]، هناك ناس من المسلمين بدأوا في التعنت فطلبوا من النبي ﷺ أن يأتيهم بآيات أخرى مثل آيات موسى وعيسى وصالح، فاستنكر الله عليهم طلبهم واقتراحاتهم على نبيهم، وأنه لا يسعهم إلا السمع والطاعة لنبيهم ﷺ، وحذرهم تعالى من أنهم إن لم يتركوا التعنت على نبيهم ﷺ فإنهم سيقعون في الكفر والضلال ويستوجبون غضب الله وسخطه، ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يتمنى أهل الكتاب ويحرصون على أن يضلوا المسلمين عن دينهم، ويخرجوهم منه؛ حسداً منهم للمسلمين على ما آتاهم الله من شرف النبوة والإسلام من بعد ما عرفوا وتحققوا أن دينهم هو الدين الحق الذي بشر به موسى وعيسى عليهما السلام.

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ لا تؤاخذوا أهل الكتاب، ولا تقاتلوهم إلى أن يأذن الله لكم بمقاتلتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ فهو قادر على أن يمكن لنبيه في الأرض ويقوي سلطانه ويشد أركانه حتى يقهر بسيفه أهل الباطل ويجتث باطلهم من أصوله.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فلا تقربوهم، ولا تقاتلوهم، واعكفوا على الصلاة والزكاة والعبادة حتى يأذن الله لكم بالجهاد.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: طاعة قدمتموها تجدوا ثوابها عند الله ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة].

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ فلا يضيع عنده شيء، ولا يخفى عليه من أعمالكم شيء، وستلقون جزاء ذلك فلا تتهاونوا بصغير طاعة ولا صغير معصية فإن الله تعالى يحصي من أعمالكم كل صغير وكبير.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا اليهود، والنصارى قالت: لن يدخل الجنة إلا النصارى.

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ من عند أنفسهم بلا دليل، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴿١١١﴾﴾ إن كنتم صادقين فيما تدعون فهاتوا البرهان والدليل.

﴿بَلَى﴾ ليس الأمر على ما تقولون أيها اليهود والنصارى ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴿١١٢﴾﴾ كل أحد من بني آدم انقاد لله واستسلم وهو يعمل الصالحات يدخله الله الجنة ولا يلحقه العذاب ولا الخوف، والناس عنده سواء، لا فضل لأحد على أحد عند الله تعالى إلا بالإيمان والعمل الصالح، فمن كان من أهل الإيمان والعمل الصالح فقد فاز برضوان الله وثوابه، والأمن من عذابه.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ فاليهود تضلل النصارى، والنصارى تضلل اليهود.

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ فاليهود تتلوا التوراة، والنصارى تتلوا الإنجيل والتوراة، ولو أنهم اتبعوا ما دلهم الله عليه وأمرهم به في التوراة والإنجيل لما اختلفوا ولدخلوا في دين الإسلام.

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ والمشركون يقولون مثل هذا القول فيضللون اليهود والنصارى والمسلمين، ويقولون: نحن الذين على الدين الحق على ملة إبراهيم، ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴿١١٣﴾﴾ وسيتولى الله تعالى الحكم بينهم يوم القيامة، وحكمه أن يجازي كلاً بعمله، فيدخل أهل الباطل في جهنم، ويدخل أهل الحق في دار رحمته.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ هؤلاء هم المشركون، فلا أحد أظلم منهم؛ لأنهم منعوا من بيت الله الحرام: من الحج، ومن الطواف به، ومن ذكر الله فيه فكيف يدعون أنهم على

الهدىٰ دون غيرهم وهم أظلم الأمم بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم للأصنام في البلد الحرام، ويمنعون من ذكر الله وتوحيده في المسجد الحرام ومنعوا من أن يعمر بعبادة الله وحده.

﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ يعني من عمارتها بذكر الله ومن القيام فيها.

﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ قال الله: ما كان ينبغي للمشركين أن يمنعوا مساجد الله، وكان يفترض أن يشردهم الناس ويطردوهم، وأن لا يدخلوا المسجد الحرام إلا علىٰ خوف.

ذلك ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ فقد أخزاهم الله في الدنيا وقهرهم علىٰ يد رسول الله ﷺ، ودخل الإسلام بين أوساطهم، وحكم عليهم بالعذاب في الآخرة.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ هذه الآية نزلت كما قيل في ليلة مظلمة كان فيها سحاب؛ ولم يهتد الناس في هذه الليلة إلىٰ القبلة؛ فكل فريق صلىٰ إلىٰ جهة فانكشف من الصباح أنهم كانوا إلىٰ غير القبلة فسألوا النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ لا يضيق ولا يشدد علىٰ أحد، فإذا أدىٰ المرء جهده فقد أدىٰ ما عليه ولو أخطأ؛ فإذا تحرىٰ المرء فصلىٰ علىٰ ظنه كفاه ولو انكشف أنه ليس إلىٰ القبلة فالله يتقبل صلاته، لكن إذا علم والوقت باق أعاد الصلاة، فأما بعد خروج الوقت فلا إعادة؛ إذ لم يأمر النبي ﷺ أصحابه بالإعادة حين انكشف خطأ المصلين بعدما أصبحوا.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ هؤلاء هم النصارىٰ، ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزه وتقدس أن يكون له ولد، ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ لا ولد له، كل ما في السماوات والأرض ملك له، وهم منقادون لأمره، وخاضعون له.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أبدعها وأنشأها علىٰ غير مثال، ابتدأها من العدم.

﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝١١٧﴾ إذا أراد الله شيئاً حصل من غير واسطة شيء، فخلق عيسى عليه السلام من غير أب كما خلق آدم عليه السلام من غير أب وأم، فهو على كل شيء قدير.

و﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾: ضرب مثل لنا بما نفهم، وإلا فهو غير محتاج إلى قول: (كن)، إذا أراد شيئاً خلقه من غير واسطة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ المشركون ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ﴾ طلب المشركون من النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين دعاهم للإيمان والدخول في الإسلام أن يكلمهم الله ويشهد بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنه هو الذي أرسله ويأمرهم بتصديقه وإذا لم يستطع محمد صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك الطلب فيأتيهم بآية تشهد بصحة نبوته وصدق دعوته، قالوا ذلك تعنتاً منهم بعد معرفة الحق، وتحقُّقِ صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ووضوح حجته التي بهرت عقولهم، وقهرت شكوكهم؛ فلم يبق عندهم ريب ولا شك في صحة القرآن وصدق نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم إلا أنهم استكبروا وطلبوا ذلك الطلب.

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ وكذلك كان أهل الكفر من قبل يتعنتون على أنبيائهم.

﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أهل الكفر قلوبهم متشابهة، وأعمالهم متشابهة، ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝١١٨﴾ فالآيات الدالة على صدق النبي واضحة وبينة، لكن لمن يوقن، ولم يتعنت، ولم يكابر.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أرسلناك يا محمد بالدين الحق تبشر المؤمنين بالثواب وتنذر الكافرين بالعقاب. ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ۝١١٩﴾ فما عليك إلا التبليغ فقط، ولن نسألك لماذا كفروا حتى ولو لم يؤمن لك أحد؛ فما عليك إلا أداء الرسالة وقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حريصاً على أن يدخلوا في الإيمان وهم يأبون؛ فقال الله: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ۝١١٩﴾ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى:٤٨].

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ كان النبي ﷺ حريصاً على أن يهدي الناس جميعاً لأجل أن يدخلوا الجنة فأخبر الله نبيه أن اليهود والنصارى لن يستجيبوا لدعوتك ولن يدخلوا في دينك، فاقطع يا محمد طمعك من اليهود والنصارى فلن يدخلوا في الإسلام أبداً.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ فلا هدى إلا هدى الله الذي جاء به رسول الله في القرآن، أما اليهود والنصارى فليسوا على شيء من الهدى.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يا محمد الذي في أيديهم من التوراة والإنجيل، سماه الله أهواء لما فيه من التحريف والتبديل فلا تظنن لا يا محمد أنهم على شيء من الهدى.

﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ تحذير للنبي ﷺ، والمراد تحذير أتباعه من تصديق أهل الكتابين فيما يتلونه على المسلمين من التوراة والإنجيل؛ فإن لهم فيما أتى به النبي ﷺ من الوحي كفاية كافية، أما أهواء أهل الكتابين فلا تلتفتوا إليها ولا تغتروا بها ولا تصدقوها، ومن اتبع شيئاً من أهوائهم فقد أرصد الله له العذاب العظيم.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بعض أهل الكتاب الذين يتلونه حق تلاوته ولم يحرفوه أولئك يؤمنون بالقرآن، وبما جئت به، ويصدقونك، ولكنهم قلة قليلة.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ من يكفر بالقرآن وبالحق الذي في التوراة، فله من الله عذاب الخزي في الدنيا ونار جهنم في الآخرة وما أكبرها خسارة.

﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ يذكرهم الله بنعمه عليهم لعلهم يتراجعون من تعنتهم في كفرهم، ويؤمنون بالنبي، ويتركون التكبر على الله وعلى رسوله ﷺ؛ فإن الإنسان

إذا ذكر إحسان المحسن إليه لان قلبه على المحسن ومال إليه، واستولى عليه الحياء منه والرقة له، وعلى هذا جبلت القلوب البشرية، إلا أن قلوب بني إسرائيل لم تتأثر بما ذكرها الله به من عظيم إحسانه إليهم وسوابغ نعمائه عليهم، وكانت قلوبهم أشد قساوة من الحديد.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ يذكرهم بيوم القيامة وأنه سوف يعذبهم فيه على عصيانهم وتمردهم، ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ فلن ينفع أحد أحداً، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فدية ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ فلا أحد ينقذهم من العذاب بشفاعته، ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ فلن يدفع أحد عنهم عذاب الله وسخطه.

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ اختبر الله إبراهيم بتكاليف فأتمها إبراهيم على ما أمره الله، وقام بها أحسن قيام.

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قدوة يتبعونك ويهتدون بهداك، ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ قال إبراهيم: أريد أن يكون في ذريتي أئمة يقتدي الناس بهديهم، ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ فلا نصيب لمن يعصيني في الإمامة، وليست إلا للصالحين، وكان في ذريته صلوات الله عليه صالحون كإسماعيل وإسحاق ويعقوب و...، وآخرهم محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد].

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ يُذَكِّرُ الله بنعمه على الناس، ومن نعم الله على الناس أنه جعل البيت مثابة للناس يرجعون إليه ويجتمعون عنده لعبادته ولمنافع يكتسبونها عنده دينية ودنيوية.

﴿وَأَمْنًا﴾ وجعله الله آمناً من عهد إبراهيم إلى اليوم حتى عند المشركين من دخله كان آمناً من القتل والأذى، ومكان أمن للوحوش والطير فلا ينفر فيه طير ولا وحش إلا الخمس الفواسق.

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ أمر الله بالصلاة حيث قام إبراهيم عليه السلام، ومقامه عليه السلام عند الكعبة.

﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ أمر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأن يطهرا المسجد الحرام لأجل الطائفين والعاكفين فيه والمصلين من نجاسات الشرك ومن الأصنام ومن التعري فيه ومن الدماء، والأموال والأزبال، وأن لا يدخله حائض ولا جنب ولا قذر ولا أنجاس: قذر الجاهلية وقذر الأوساخ.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ كان إبراهيم أول من أسس البيت من بعد نوح بعد الغرق حيث لم يبق له أثر بعد الطوفان فهدى الله إبراهيم عليه السلام لمكان البيت وبناه، ودعا إبراهيم ربه بأن يجعله آمناً يأمن فيه الخائف والوحش والطير، ودعا عليه السلام لسكان المسجد الحرام بسعة الرزق وخص بدعائه المؤمنين بالله واليوم الآخر فقال: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ من ذريتك فسنرزقهم ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ أعطيه في الدنيا رزقاً يتمتع فيه، ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ ثم نخرجه من الدنيا كرهاً ونجره إلى عذاب جهنم ليذوق وبال كفره.

يُذَكِّرُ المسلمين والعرب بهذه النعمة التي أنعم بها عليهم حين جعل لهم الحرم والبيت والكعبة، وجعله بلداً آمناً، وأنه شرف كبير لهم؛ فالمفروض أن الله إذا دعاهم أن يسمعوا له وينقادوا، لا أن يتمردوا ويكفروا برسل ربهم إلا أن العكس هو الذي حصل فما شكروا نعمة ربهم ولا استجابوا لأمره وكفروا برسوله صلى الله عليه وآله وسلم وحاربوه وعاندوا وتكبروا.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ

رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴿١٣٢﴾﴾ يذكر الله تعالى قريشاً وغيرهم من المسلمين والكافرين بأن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هما اللذان بنيا البيت الحرام (الكعبة المشرفة) ذلك البناء الذي به شرفت قريش وذاع صيتها وعظم قدرها، ويذكرهم أيضاً بأنهما صلوات الله عليهما كانا يدينان بدين الإسلام، يعظمان الله وحده، ويتوجهون إليه وحده بدعائهم لا يشركون به غيره ولا يدعون معه أحداً، وأنهما رغبا إليه بالدعاء أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة تعبد الله وحده ولا تشرك به أحداً ودعوا ربهما أن يعلمهما معالم الدين وفرائضه فلم يأتيا بشيء من الدين من تلقاء أنفسهما.

وأنهما كانا يطلبان من الله التوبة والمغفرة والرحمة لعلمهما بعظمة الله وجلاله وما يستحق من العبادة والتعظيم.

وأن أحداً وإن بلغ أعلى منازل البشر محتاج إلى طلب التوبة والاعتذار عند الله من التقصير والتفريط في حق الله عز وجل.

وذكرهم الله تعالى بما كان عليه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من الرغبة في صلاح ذريتهما التي ستأتي فدعوا الله تعالى ورغبا إليه في أن يبعث فيهم رسولاً منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويطهرهم من أقذار الجهل والشرك.

ثم أخبرهم الله تعالى بعد ذلك أنه اختار من بين الناس بعلمه واصطفاه لحمل رسالته ودينه وجعله إماماً يقتدي به الناس ويهتدون بهديه ونوه بذكره في الدنيا وشهر فضله بين أمم الأرض ورفع منزلته بين الناس مع ما أعد له في الآخرة من الرفعة والأجر العظيم ؛ لذلك لا يعدل أحد عن ملة إبراهيم عليه السلام إلى غيرها من

الملل إلا ذوو النفوس الحقيرة الذين عدمت الكرامة في نفوسهم فلا تدعوهم نفوسهم إلى الرقي في مدارج الكرامة ولا يطمعون في معالي الأمور.

وإنما كان إبراهيم عليه السلام بتلك المنزلة عند الله والكرامة لديه لأنه انقاد لله واستجاب له حين دعاه إلى الإسلام واستقام عليه وحرص على التمسك به وأوصى بنيه بالتمسك بدين الإسلام والاعتصام بتوحيد الله وعبادته وحده لا يشركون معه غيره.

وكان نبي الله يعقوب عليه السلام كجده إبراهيم عليه السلام متمسكاً بالإسلام وتوحيد الله وعبادته وحده وحث أولاده بالتمسك بدين الإسلام وأوصاهم بالاعتصام به لأنه الدين الحق الذي اختاره الله لهم ورضي أن يتعبدوه به، وأوصاهم أن لا يموتوا إلا وهم على دين الإسلام ولا يلقوا ربهم يوم القيامة إلا بدين الإسلام.

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ فلم تكونوا حاضرين يا معشر اليهود عند احتضار يعقوب على فراش الموت وهو يوصي أولاده حتى تدعون أنه أوصى بالتمسك بما أنتم عليه من الديانة.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴿١٣٣﴾﴾ فلم يوص يعقوب بنيه إلا بتوحيد الله وعبادته وحده وبالاستسلام لأمره وبدين الإسلام الذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ في عهد إبراهيم وفي عهد يعقوب، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿١٣٤﴾﴾ لا يسألنا الله عن أعمالهم، ولسنا مكلفين بها؛ وكانت اليهود تقول: إن إبراهيم ويعقوب كانا على ملة اليهود، وإن يعقوب أوصاهم بها؛ فقال الله لهم: ما كنتم حاضرين يا معشر اليهود حين أوصى يعقوب بنيه وهو على فراش الموت فما بالكم تدعون عليه ما لا تعلمون؟ وذلك قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ والنصارى كانت تقول: إنه على دين النصرانية، وهذا كذب منهم، ولم تأت اليهودية والنصرانية إلا من بعده.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ فقالت اليهود: من يريد الهدى فليدخل في اليهودية، وقالت النصارى: من يريد الهدى فليدخل في النصرانية، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿١٣٥﴾﴾ فمن يرد الهدى فليتبع ملة إبراهيم؛ لأنه كان حنيفاً غير مائل إلى الباطل، وما كان من المشركين، بل كان على دين التوحيد والإسلام.

﴿قُولُوا﴾ إذا أردتم الهدى: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴿١٣٦﴾﴾ والأسباط هم الأنبياء الكائنين من ذرية يعقوب: أنبياء بني إسرائيل ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ نؤمن بهم جميعاً، لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ونحن منقادون لله مستسلمون له.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ فإن آمن اليهود بمثل ما آمنتم به أيها المسلمون فقد اهتدوا وكانوا مسلمين مثلكم.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ وإن أبوا عن الإيمان بمثل ما آمنتم به فاحذروهم فإنهم قد أعدوا عدتهم واصروا على الفتك بكم واستئصالكم وطمس دينكم، ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ سيدفع الله شرهم عنكم، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ فمن آمن مثل هذا الإيمان فقد اصطبغ بصبغة الإيمان وتحلى بحليته.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ كانوا إذا أراد أحد أن يدخل في النصرانية يغمسونه في ماء أصفر، ويصير نصرانياً بعد هذه الصبغة، ويسمى هذا الماء الأصفر المعمودية، فقال الله: إذا قلتم: آمنا بالله...إلخ فقد اصطبغتم بصبغة الله ودخلتم في دينه، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴿١٣٨﴾﴾ فما بالكم أيها النصارى تعدلون عما اختاره الله لكم من الصبغة ورضيه لكم من الديانة

ولنا ميزة نحن المسلمين نتميز بها ونختص بها في دين الإسلام وهي إخلاص العبادة لله وحده لا نشرك معه إلهاً آخر.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ۝١٣٩﴾ كيف تجادلوننا يا أهل الكتاب في الله وهو ربنا وربكم؟ فهو تعالىٰ مجمع علىٰ ربوبيته بيننا وبينكم، ونحن المسؤولون عن أعمالنا، وأنتم المسؤولون عن أعمالكم؛ فلا داعي للجدال في ذلك، ونختص نحن المسلمون بالإخلاص لله، وأنتم تشركون معه غيره.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ أنتم تقولون يا معشر اليهود والنصارىٰ: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق كانوا يهوداً، والنصارىٰ تقول: كانوا نصارىٰ.

﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ فمن هو أعلم أنتم أم الله، والله قد قال: ليسوا يهوداً ولا نصارىٰ فمن الأولىٰ بالتصديق.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ۝١٤٠﴾ فلا أحد أظلم منكم يا معشر اليهود لأنكم كتمتم شهادة الله التي كتبها في التوراة.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق والأسباط، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ۝١٤١﴾ لا تجادلوا أهل الكتاب واحذروهم، وتحرزوا من كيدهم، ودعوهم وما هم عليه من الضلال، فلستم مسؤولين عن أعمالهم، ولا هم مسؤولون عن أعمالكم، وقد أصروا علىٰ عداوتكم واستئصال شأفتكم وطمس دينكم.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ كان النبي ﷺ حين هاجر إلىٰ المدينة يتوجه في صلاته إلىٰ قبة الصخرة في الشام، فأخبره الله أن السفهاء سيعترضون علىٰ النبي ﷺ عندما يأمره بعد

ذلك أن يتوجه إلى الكعبة، فأمره الله أن يجيب عليهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ فله تعالى أن يتعبد عباده بالتوجه في صلواتهم إلى حيث يشاء فالجهات كلها له، وطاعة الله وعبادته هي في امتثال أمره والسمع والطاعة في كل ما أمر به.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ جعل الله تعالى أمة محمد ﷺ أفضل الأمم لما علم الله فيهم من أهلية الفضل واستحقاقهم له.

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ لأجل أن يشهدوا يوم القيامة أن النبي ﷺ قد بلغ اليهود والنصارى والمشركين؛ لأنهم سيحتجون فيقولون: يا رب لم يبلغنا أحد، ولم يأتنا الرسول، ولم تبلغنا رسالته، فعندئذ يشهد المسلمون عليهم بأن رسول الله ﷺ قد بلغهم رسالة ربه إليهم.

﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ وكذلك يشهد النبي ﷺ على أمته بأنه قد بلغهم رسالة ربه.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ جعل الله القبلة إلى بيت المقدس فتنة واختباراً للعرب الذين آمنوا معه هل سينقادون ويتركون قبلة آبائهم، ويصلون إلى قبلة اليهود والنصارى؟ فانقاد المسلمون وتوجهوا كما علمهم النبي ﷺ؛ وذلك لأجل أن يظهر الله بذلك الاختبار الذي يطيع النبي ﷺ ممن يعصيه.

﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ لما فيها من المشقة على المسلمين في تركهم للتوجه إلى قبلتهم التي يعظمونها، ثم يتوجهون إلى غيرها.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ حينما حولهم بعد ذلك إلى الكعبة بعدما مكثوا متوجهين إلى بيت المقدس حوالي سبعة عشر شهراً أخبرهم الله أنه سيكتب لهم أجر صلاتهم إلى بيت المقدس، ويثيبهم عليها.

وسألوا النبي ﷺ بعدما وجههم إلى الكعبة: كيف صلاتنا يا رسول الله تلك التي كنا نصليها إلى بيت المقدس؟ فقال: ((إن الله لن يضيع صلاتكم تلك، وسيثيبكم عليها)).

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ كان النبي ﷺ يتمنى أن يرجع ويتوجه إلى قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، وهو منتظر لأن يؤمر بذلك، ويتطلع إليه، ويرجو من ربه ذلك.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ فوعده الله تعالى بأنه سيوجهه إلى القبلة التي يحبها ويتمنى أن يتوجه لها، وهي البيت الحرام.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فتوجه إليه في صلاتك ودع التوجه إلى بيت المقدس، ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أينما كنتم فلا تتوجهوا إلا إلى الكعبة.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ فهم عارفون ويعلمون أن الله سيأمر النبي بالتوجه إلى بيت المقدس فترة ثم يحوله إلى الكعبة، وذلك مذكور في كتبهم، ومع علمهم أنه الحق يحتجون عليه، ويشككون في دينه.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ فلن يؤمن لك اليهود أبداً أبداً، مع أن هذه من الآيات الدالة على أنك نبي صادق؛ وذلك لأنه يوجد عندهم في التوراة أنه يتوجه إلى بيت المقدس ثم يؤمر بعد ذلك بالتحول إلى الكعبة.

﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ وأنت يا محمد لن تدخل في دينهم، ولن ترضى باتباعهم ولا ينبغي لك ولا لأمتك اتباعهم.

﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ اليهود لن يتبعوا النصارى، والنصارى لن تتبع اليهود.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴿١٤٥﴾﴾ إن اتبعت اليهود والنصارى فيما حرفوا وبدلوا، ويزعمون أنه الدين الذي جاءتهم الأنبياء به- فأنت ضال؛ ولذلك سمي هوى، وذلك لأنه لو كان الدين الحق لآمنوا بالنبي ﷺ؛ لأن التوراة فيها الإيمان بالنبي ﷺ، ومع أن الخطاب للنبي ففيه تحذير للمسلمين جميعاً من الميل إلى أهل الكتاب.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ فهم عارفون بالنبي وبدينه وأنه الحق كما يعرفون أبناءهم، ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴿١٤٦﴾﴾ علماء اليهود يعلمون صحة نبوة النبي ﷺ، وإنما يكتمونه على أتباعهم لئلا يتبعوه، فقد استحكم العلم بالنبي وتمكن في قلوبهم أشد تمكن، لا شك في ذلك عندهم، ولا ريب.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴿١٤٧﴾﴾ الدين الحق هو الذي جاءك من عند الله، فلا تتشكك فيه، ولا تشكوا أيها المؤمنون في دينكم وأنه الدين الحق.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ مع النصارى وجهة وهم سائرون فيها، ولليهود وجهة سائرون فيها، وأنتم أيها المسلمون سيروا في وجهتكم التي وجهكم الله إليها، واستبقوا الخيرات: وكونوا السابقين إلى الخير، وإلى العمل به لتفوزوا برضوان ربكم وحسن ثوابه.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿١٤٨﴾﴾ سيجمعكم الله جميعاً أنتم والنصارى واليهود يوم القيامة ويحكم بينكم فهو القادر على ذلك لا يعجزه شيء.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ توجه إلى الكعبة حيثما كنت من الأرض.

﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ إنه الدين الحق؛ وقد كان ناس يتشككون في الدين، ويسألون الرسول ﷺ: لماذا نصلي مرة كذا ومرة كذا؟ فوجه الله تعالى الخطاب إلى النبي ﷺ وهم المقصودون بالخطاب لإزاحة شكهم وتساؤلاتهم.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ۝١٤٩ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وهذا زيادة تأكيد ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ إن أهل الكتاب عالمون بأنه الدين الحق فلا حجة عندهم عليكم؛ لأنهم عارفون مما أوحاه الله لهم في التوراة ما حصل من التوجه إلى المقدس ثم التحول إلى الكعبة، إلا الذين ظلموا وليسوا من أهل العلم فلا تخشوهم ولا تسمعوا لهم فيما ينتقدون عليكم من استقبالكم للمقدس أولاً ثم الرجوع للكعبة.

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ۝١٥٠﴾ كان توجيه النبي ﷺ والمؤمنين إلى الكعبة نعمة عظيمة امتن الله بها عليهم، وأيضاً ليهتدوا إلى الدين الحق.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ إرسال الله تعالى محمداً ﷺ نعمة من نعم الله على العرب أن أرسل إليهم رسولاً منهم ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ۝١٥١﴾ وهذه من نعم الله على العرب حيث بعث فيهم رسولاً من أنفسهم، من قريش- يبين لهم آيات عظمة الله وربوبيته، وآيات رحمته ومننه، وآيات علمه وقدرته.

ويزكيهم: ويطهرهم من أدناس الجهل، وأرجاس الشرك، وينتشلهم من أودية الضلال، ويرفعهم إلى منازل الكرامة والعزة، ويعلمهم شرائع القرآن وأحكامه الحكيمة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمونه من المعارف الإلهية وغيرها.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي﴾ اشكروا نعمه عليكم، وشكر الله على نعمه هو في طاعته وتقواه، اذكروني بالتقوى والطاعة أذكركم بالمعونة والحفظ والنصر والتوفيق، وزيادة البصر والبصيرة، والثواب العاجل والآجل، ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴿١٥٢﴾﴾ بترك الشكر.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴿١٥٣﴾﴾ استعينوا على تجاوز العقبات والعراقيل التي تعرقلكم عن المبادرة إلى طاعة الله بالصبر والصلاة، فإن ذلك سيهون عليكم وستحضون بالمعونة من الله تعالى، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴿١٥٣﴾﴾ بمعونته وتوفيقه.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴿١٥٤﴾﴾ هم أحياء عند الله بأرواحهم، تتنعم أرواحهم (حياة روحية)، أما الجسد فلا يبعث إلا يوم القيامة، وذلك أنه يعرض عليه النعيم ويرى الجنة ومنزله فيها، ويرى الحور العين، ويكون في سرور دائم.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ يا معشر المسلمين ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾ من المشركين ومن اليهود ومن الأعداء ﴿وَالْجُوعِ﴾ سيأتي عليكم فقر وشدة ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾ تقل الأمطار ﴿وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ يأتي عليكم موت، وتنقص عليكم الثمرات ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴿١٥٥﴾﴾ على هذه النوازل التي تنزل بهم.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴿١٥٦﴾﴾ فنحن ملك له وراجعون إليه يتصرف فينا كيفما شاء، ونحن عبيده، فنحن راضون بما قضاه علينا.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ رحمة بعد رحمة في الدنيا بعد صبرهم، ورحمة عظيمة في الآخرة، وسيعوضهم في الدنيا.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴿١٥٧﴾﴾ إلى طريق رحمة الله ورضوانه.

ثم انتقل الله تعالى إلى موضوع ثان فقال: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ من معالم دينه التي أمرنا بتعظيمها.

﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ كان المسلمون يتحرجون من الطواف بين الصفا والمروة؛ لأنه كان يوجد صنم فوق الصفا وآخر فوق المروة، أحدهما اسمه أساف والآخر نائلة، فقال الله: طوفوا ولا حرج عليكم من وجود الصنمين في المطاف.

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴿١٥٨﴾﴾ من زاد في طاعة الله فالله سيعطيه ويثيبه، لا يخفى عليه شيء، ولا ينسى شيئاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴿١٥٩﴾﴾ الذين كتموا هم اليهود، كتموا العلم الذي عندهم في التوراة، نزلت في اليهود وتعم كل من كتم ما أنزل الله عند الحاجة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ رجعوا إلى الله. ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما قد أفسدوا، ﴿وَبَيَّنُوا﴾ ما كتموا، ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴿١٦٠﴾﴾ بهذه الشروط التي تقدمت وهي: التوبة، والإصلاح، والتبيين- يقبل الله توبة التائبين ويعود برحمته عليهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴿١٦١﴾﴾ من مات على الكفر بالله والخروج من أمره فقد أحاط به غضب الله وكان في لعنته يوم القيامة لا يجد له يوم القيامة شافعاً ولا ناصراً فملائكة الله تلعنه وتقول له: اذهب إلى لعنة الله يا عدو الله ليس لك اليوم إلا اللعن والطرد والخزي، والناس تلعنه.

ونعوذ بالله من غضبه، ونسأله التوفيق إلى طريق رحمته.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة في جهنم، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴿١٦٢﴾﴾ لا يمهلهم الله، ولا يؤخرهم.

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴿١٦٣﴾﴾ لا إله غيره المنعم بالنعم العظيمة والدقيقة، فهو الذي يستحق العبادة دون ما سواه.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ذكر الله في هذه الآية آياته الدالة على عظمته وقدرته وعلمه وإلهيته وربوبيته وعظيم قدرته فذكر تعالى خلق السماوات والأرض وما اشتملتا عليه من خلق الشمس والقمر والنجوم والجبال والنبات والحيوان و...إلخ.

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ تعاقبهما واختلافهما، وطول هذا مرة وقصره مرة أخرى وما تضمن من الحكمة والمصلحة.

﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ السفينة عندما يحملها الماء وهي تحمل أحمالاً ثقيلة، ﴿بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من الأحمال والأثقال، فمن هو الذي سخر البحر لحملها، وجعل الرياح تسوق السفن وتسيرها فيما ينفع الناس: في تجاراتهم وتنقلهم؟ ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ففي هذه آية عظيمة أن ينزل الماء من السماء فيحيي به الأرض فتخرج الفواكه والأثمار للناس وللدواب، والمنتفع بها هو الإنسان وحده بالأثمار وبالماء وبالدواب.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ في الأرض لمنفعة الإنسان ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ من آيات الله تصريف الرياح فمرة شرقية ومرة غربية وأخرى شمالية، وذلك لمصالح الناس: تسوق السحاب، وتسير السفن، وتلقح الأشجار وتلطف الهواء.

﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فمن الذي يوجده ويحدثه وينزل منه المطر لحاجة الناس.

﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴿١٦٤﴾﴾ حجج واضحة تدلهم على عظمته وقدرته، وعلى ربوبيته، وأنه الرب الذي يستحق العبادة، وأن يتوجهوا إليه في كل أمورهم، وينتفع بهذه الآيات من يتدبر بعقله، فيعرف أنها مسخرة لمصلحة الإنسان، وأنها بتقدير العليم الحكيم.

فلولا الشمس لما عاش الإنسان على الأرض، ولولا تصريف الرياح وكانت في اتجاه واحد لما سارت السفن إلا إلى اتجاه واحد، ولما ساقت السحاب من جهة إلى جهة، فالعاقل يعرف الحكمة، ويعرف أنها من عليم حكيم، وأنها نعمة عامة للناس جميعاً.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ بعض الناس يعبدون أرباباً من دون الله، ويتركون عبادة المنعم عليهم، والمسخر لهم كل ما في السماوات والأرض- استكباراً وعتواً، ويتخذون هذه آلهة يحبونها كما يحب المؤمنون الله تعالى.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ يحبون الله حباً شديداً أكثر من حب المشركين لآلهتهم، وحب الله ليس معناه الرقة التي تحصل في القلب، وإنما حبه أن تطيعه وتؤثر طاعته على طاعة أحب الأحباب إليك.

﴿وَلَوْ تَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ لو تراهم يا محمد عندما يحشرهم الله تعالى ويوقفهم على نار جهنم لرأيت شيئاً عظيماً لا يقدر بوصف من شدته وهوله، فهناك يعرف أن القوة لله جميعاً، لا للآلهة التي اتخذوها وعبدوها.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ الرؤساء الذين كانوا يضلون الناس ويغوونهم سيتبرأون من متبعيهم، ولكن لا تنفعهم البراءة سيدخلهم الله جميعاً النار، وتقطعت عليهم السبل فلا يجدون سبيلاً لخلاصهم من عذاب الله.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ لو كان لنا رجعة إلى الدنيا لتبرأنا منهم ولم نتبعهم كما تبرؤوا منا في هذا اليوم الشديد.

﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ يجمع الله بين الأتباع والمتبوعين في يوم القيامة لأجل أن يحصل عذاب الحسرة والندم في قلوبهم، وما هم بخارجين من النار.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴿١٦٨﴾﴾ كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً، ولا تحرموا شيئاً من تلقاء أنفسكم كما يفعل المشركون، فإنهم كانوا يحلون بعض الأنعام. وبعضها يحرمونها كما قصه الله في سورة الأنعام في السائبة والوصيلة والحام.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ﴾ الشيطان، ﴿بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴿١٦٩﴾﴾ ما أنتم عليه أيها المشركون إنما هو من أمر الشيطان يحل لكم الحرام ويحرم عليكم الحلال، وليس ذلك من عند الله كما تدعون.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ بين الله في هذه الآية عناد المشركين، حين دعاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإيمان بالله وإلى اتباع ما أنزل الله قالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من الدين، ولن نترك دينهم.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴿١٧٠﴾﴾ هل سيتبعونهم حتى ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولو كانوا ضالين يعني أنهم أصروا على اتباع دين آبائهم من غير نظر إلى خطأ آبائهم أو صوابهم، أو هل كانوا على هدى أم على ضلال.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني صفتهم حين دعاهم النبي إلى الإسلام مثل صفة من معه بقر أو إبل وهو يناديهم فهم لا يسمعون شيئاً ولا يفهمونه، وإنما يسمعون الصوت، يدعوهم النبي ولا يفهمون كلامه ولا يتدبرونه ولا يفقهون غير الصوت فقط.

وشبههم الله تعالى، فقال: ﴿كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ يعني أن المشركين صم عن سماع الحق، وعمي عن رؤية الحق وإدراكه، وبكم لا يتكلمون بالحق، فقد أصمهم الكفر، لا يفتحون مسامع قلوبهم للإصغاء إلى كلام الله وتدبره ولا يحدقون بأبصارهم إلى نور الإسلام الذي جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴿١٧٢﴾﴾ لا تصنعوا أيها المؤمنون مثل صنيع الكفار حتى حرموا بعض الأنعام وأحلوا بعضها، ولكن كلوا من الطيبات فهي طيبات كلها؛ وكأن المسلمين قد داخلتهم الشبهة من أكل بعض طيبات الرزق؛ لأن المشركين كانوا يجادلونهم فيقولون لهم: كيف تأكلون مما ذبحتم أنتم ولا تأكلون مما ذبح الله؟ ويريدون به الميتة.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ ما حرم الله عليكم إلا الميتة، ﴿وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ يعني ما ذبح على غير اسم الله تعالى كاللات والعزى، والإهلال هو رفع الصوت.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿١٧٣﴾﴾ من اضطر من مجاعة شديدة فلا حرج عليه أن يأكل من هذه الأشياء المتقدم ذكرها، وذلك عند الضرورة وهي الخوف على نفسه من الهلكة، وذلك أن يتناول ما يسد به جوعته، وهو المراد بقوله: ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: لا يعتدي ويزيد على ما يسد جوعته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ هم اليهود، كتموا ما أنزل الله في التوراة من صفات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ويتقاضون على ذلك أجوراً من أتباعهم على كتمه وتبديله، وذلك لأن درسة الكتاب هم ناس مخصوصون، وهذه الأجور التي يأكلونها تصليهم النار خالدين فيها.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿١٧٤﴾﴾ إن غضب الله تعالى يوم القيامة قد اشتد على الذين كتموا ما أنزل الله في التوراة واستحكم غضبه عليهم فلا يلقون يوم القيامة إلا عذاب الله العظيم في نار جهنم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴿١٧٥﴾﴾ هم أهل مدارس اليهود الذين كتموا العلم وحرفوا التوراة وصفهم الله بأنهم اشتروا الضلال ودفعوا الهدى ثمناً له، وكذلك أخذوا العذاب ودفعوا المغفرة، واشتروا غضب الله برحمته وأليم العذاب في جهنم بجزيل الثواب في الجنة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴿١٧٦﴾﴾ نزل الله تعالى القرآن وبين فيه حقائق الحق الذي اختلف فيه أهل الكتاب، وأخبر أن أهل الكتاب بعيدون عن الحق بُعْداً بعيداً، وأن الحق هو فيما أنز الله من القرآن.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴿١٧٧﴾﴾ ليس البر في التوجه إلى قبلة اليهود أو قبلة النصارى، ولكن البر الذي يرضاه الله هو الإيمان بالله والتصديق بيوم القيامة والتصديق بملائكة الله والإيمان بما أنزله الله تعالى من الكتب على أنبيائه ورسله عليهم السلام والإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، وإعطاء المال الغالي عند صاحبه لذوي القربى والأرحام الذين تصلهم بالمعطين قرابة النسب، وتخصيص اليتامى بالعطية وسد خلة المسكين وابن السبيل وإعطاء السائل والمعاونة في فك الرقاب المؤمنة من الرق والوفاء بالعقود والعهود والمواثيق والصبر على المكروه والصبر عند شدة الحرب ثم إقامة ما فرضه الله من الصلوات والزكوات فهذه هي أعمال البر التي تقرب إلى الله وينال بها رضوانه، وبها يقوم الذين صدقوا في إيمانهم وأذعنوا لله بالسمع والطاعة ورسخوا في تقوى الله تعالى.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ شرع الله تعالى لأهل الإسلام أن يقتل الحر بالحر، ويقتل العبد بالعبد، وتقتل المرأة بالمرأة، ولا يقتل الحر بالعبد، ولا الرجل بالمرأة.

وشرع تعالى برحمته العفو عن القصاص لمن أحب العفو، وجعل لولي الدم أخذ الدية بدلاً عن القصاص، وأرشد تعالى ولي القتل أن يأخذ الدية من القاتل بالمعروف من غير قساوة وغلظة كيلا تتأزم الأمور، وندب تعالى القاتل أن يدفع الدية بإحسان وتواضع وأدب كيلا تثار الحمية وتوغر صدور أولياء القتل.

﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أن يجعل بدل الاقتصاص الدية؛ لأنه كان في الشرائع السابقة لا بد من القصاص، وكذلك لا عفو وإنما القاتل يقتل، فوسع الله تعالى في شريعة هذه الأمة فخير تعالى بين القصاص أو الدية.

﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ فمن اعتدى بعد العفو وتسليم الدية ثم بعد ذلك يقتص من القاتل فهذا لا يقبل منه دية، ولا يعفى عنه، وإنما يقتل فقط لعظيم ذنبه عند الله.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ ففي شرع القصاص حياة عظيمة، ففيه حفظ أرواح الناس.

ولأن القاتل إذا عرف أنه يُقتل يمسك عن القتل ولا يقدم عليه- شرع الله القصاص؛ لأجل أن نتقي القتل.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ هذه الآية نزلت قبل آية المواريث في سورة النساء.

﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ إن كان معه تركة، ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ الوصية لهؤلاء، وهذه الآية قد نسخت، وقد أخبر الله كيف تقسم التركة في سورة النساء، وتولى قسمتها.

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿١٨١﴾﴾ أولئك الذين سمعوا الموصي يوصي، لا يجوز لهم أن يغيروا الوصية؛ فإن غيروا أثموا، وتحملوا وزر التغيير كله، وليس على الميت منه شيء.

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا﴾ إذا حضروا عند المحتضر وهو يوصي وخافوا منه الميل في وصيته أو أن يأثم فيها فالأحسن أن يصالحوه في الرجوع عن الحيف والميل، والجنف: الحيف والميل، والإثم: أن يضع المال في غير حق، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴿١٨٣﴾﴾ يعني فرضه عليكم أيها المؤمنون وشرعه مثل ما فرضه على من قبلكم فلا يكبر عليكم أيها المؤمنون فقد كتبه الله على من كان قبلكم من الأمم، فالصيام فريضة عامة في كل الشرائع، وبمعرفة عموم الفريضة يهون تحملها ؛ لأن المصائب إذا عمت هانت.

وشرعه الله لما يؤدي إليه من تقوى الله؛ إذ يخفف شهوة الإنسان، ويكسر هوى النفس، فهو يقرب إلى التقوى.

﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ وفريضة الصيام هي أيام قليلة بالنسبة لأيام الإفطار، ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ رخص الله في الإفطار للمريض والمسافر ثم يقضي ما أفطره بعد شهر رمضان.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ يعني لا يطيقونه إلا بشدة ومشقة.

والهادي قال: وعلى الذين لا يطيقونه من كبار السن وليس القضاء مأمولاً منهم فهؤلاء عليهم الفدية، وهي طعام مسكين عن كل يوم نصف صاع.

وبعضهم قال: إنها رخصة في أول الإسلام فالمرء مخير بين الصوم والفدية، وقد نسختها الآية التي بعدها.

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ إذا أراد الزيادة على طعام المسكين فهو أحسن ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴿١٨٤﴾﴾ يعني أن الصيام أفضل من الفدية، وأظن أن هذا هو القول الأحسن أن المسلمين كانوا مخيرين في أول الإسلام بين الصوم والفدية ثم نسخ التخيير وحتم الصيام.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ﴾ يعني أنزله الله إلى سماء الدنيا، وإلا فأول ما نزل في الثاني عشر من ربيع الثاني متفرقاً على ثلاثة وعشرين سنة، ولم ينزل دفعة واحدة؛ لأن النبي والمسلمين كانوا أميين فلا يحفظونه إلا في صدورهم، فأنزله الله دفعات لأجل أن يحفظه النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان:٣٢]، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴿١٠٦﴾﴾ يعني مفرقاً قليلاً قليلاً على وقت الحاجة على حسب الحاجة والحوادث.

﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ لأجل أن يهتدي الناس بهديه، ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ وبياناً وتوضيحاً لشرائع الإسلام، وفرقاناً بين الحق والباطل.

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن كان حاضراً ولم يكن مسافراً فيجب عليه الصيام، ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ لا يريد الله تعالى أن يضيق على عبيده، ويشدد عليهم، بل يريد لهم التخفيف؛ فرخص للمسافر والمريض في الإفطار، على أن يقضوا عند الإمكان وتيسر الصيام، وهذه الآية نسخت الأولى، وهي: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ فلم يرخص لمن شهد الشهر إلا للمريض والمسافر.

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ حين تقضون وذلك لأجل أن يتم صيام الشهر؛ لأنه أوجب صيام الشهر جميعه، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ يعني تشكرونه وتعظمونه لأجل هدايتكم إلى الصيام، ودلالتكم عليه.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿١٨٥﴾﴾ شرع لكم الصيام لأجل أن تشكروه؛ إذ أن الصيام نعمة ينبغي أن نشكره عليها إذ لا يكلفنا إلا بما فيه مصلحة، لنا وقد اكتشف الطب الحديث أن في الصيام منافع عظيمة للإنسان.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴿١٨٦﴾﴾ هذه آية الدعاء وسطها الله بين آيات الصيام دلالة على أن شهر رمضان شهر الدعاء؛ فينبغي للإنسان أن يكثر من الدعاء إلى الله والرجوع إليه.

قالت الصحابة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ يعنون: هل هو بعيد فنرفع أصواتنا بقوة، أم قريب فنكلمه بصوت ضعيف؟! فنزلت هذه الآية.

وإذا أرادوا أن أجيب دعوتهم ويبلغوا رشدهم ونجاح مطالبهم فليستجيبوا لي، ويطيعوني، ويمتثلوا أمري، فأما المعرضون عن طاعة وامتثال أمره فلا تستجاب دعوته ولا يصل إلى مطلوبه.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ حرم الله تعالى في أول الأمر مقاربة النساء من بعد صلاة العشاء في شهر رمضان وبعد أن ينام الرجل فلا يحل له أن يقرب زوجته، ثم إن الله تعالى نسخ هذا الحكم وخفف على المسلمين، فأحل لهم مقاربة النساء في ليالي رمضان.

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ كان هناك ناس من الصحابة يباشرون نساءهم وهو محرم عليهم، ثم نسخ هذا التحريم.

﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ فقد رخص لكم في ذلك في الليل كله، ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني قضاء الشهوة والوطر، وبعضهم قال: إنه الولد.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ يعني باشروهن وكلوا واشربوا طوال الليل إلى أن يتبين لكم بياض الفجر وهو المنتشر المعترض، أما النور الذي يطلع ولم ينتشر فيسمى الفجر الكاذب فيجوز الأكل والشرب والنكاح فيه ما لم ينتشر النور يميناً ويساراً.

﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ امضوا في الصيام إلى أن يدخل الليل وهو معروف.

﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ فإذا كان الصائم معتكفاً في المسجد فلا يحل له أن يقرب الزوجة لا في الليل ولا في النهار.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ فهذه حدود حدها الله لكم فلا تتجاوزوها وقفوا عندها.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾ لعلهم يتقون الوقوع فيما نهى الله عنه.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ بغير حق، ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨﴾ نهى الله تعالى المؤمنين أن يأكلوا حق بعضهم البعض بغير وجه حق، ونهاهم أن يجعلوا أموالهم أو شيئاً منها رشوة للحكام ليحكموا لهم ببعض أموال الناس بغير حق.

يفهم منه إذا أعطيت الرشوة لتستخرج حقاً لك أنه يصح ويجوز ولو كانت محرمة على الآخذ.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ سأل الصحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن الهلال عندما يبدو صغيراً ثم يكبر ثم ينقص بعد ذلك، فقال الله: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يعرفون بها الأوقات والسنين ومواعيد الديون ونحو ذلك، ﴿وَالْحَجِّ﴾ ومواقيت تعرف بها أوقات الحج.

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ البر هو في تقوى الله، وامتثال أمره، وليس البر فيما كان يفعله الناس في الجاهلية؛ فكانوا إذا أحرموا بالحج لا يدخلون البيوت من الأبواب، وإنما يدخلون من غير الأبواب.

﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ احذروه ولا تتجاوزوا حدوده، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿١٨٩﴾﴾ لأجل أن تظفروا بثواب الله ورضوانه.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ كان هذا في أول الإسلام أذن الله للذين يقاتلون في سبيل الله أن يقاتلوا من قاتلهم، ولا يقاتلوا أحداً لم يقاتلهم، ثم بعد ذلك قال الله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة:٣٦]، لأنهم مصرون على قتلكم وقتالكم، لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، فما داموا مصرين على قتلكم وقتالكم فقد أُذِنَ لكم بقتالهم جميعاً.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ هؤلاء المشركون الذين يقاتلونكم أيها المؤمنون اقتلوهم حيث وجدتموهم، والمراد بهم قريش.

﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أخرجوهم من مكة.

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ كان المشركون يفتنون المؤمنين يعني يعذبون المؤمن حتى يكفر، وذلك أن المشركين احتجوا على محمد حين قطع أصحابه الطريق على المشركين وقتلوهم وكان في أول رجب وهو من الأشهر الحرم ظناً منهم أنهم لا زالوا في آخر جمادى، فقالوا: إن محمداً قد انتهك حرمة الشهر الحرام، فقال الله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ يعني التعذيب للمسلم حتى يرتد.

ثم قال الله للمسلمين: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ فهو حرم محرم فلا تنتهك حرمته بقتل أو نحوه.

﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ أذن لكم بقتلهم عند المسجد الحرام إذا قاتلوكم فيه، ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴿١٩١﴾﴾.

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿١٩٢﴾﴾ وكفوا عن قتلكم وقتالكم فالله سيغفر لهم فباب التوبة مفتوح.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ إلزام من الله للمسلمين بقتال المشركين حتى ينتهي الشرك والمشركون، ولا يبقى له وجود.

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ۝١٩٣﴾ فلا تقربوهم إن كفوا عن قتالكم.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ حين انتقد المشركون على النبي ﷺ وأصحابه عندما قتلوا المشركين في الشهر الحرام، فقال الله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ فأنتم أيضاً قد قتلتم في الشهر الحرام، واحدة بواحدة، ولم ينتهك المسلمون حرمته وإنما هو قصاص وجزاء سيئة سيئة مثلها.

﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ قال الله للمؤمنين: إن اعتدوا عليكم فاعتدوا عليهم ولو في الشهر الحرام والبلد الحرام.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تعتدوا وتنتهكوا حرمة الشهر إلا إذا كان قصاصاً.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ۝١٩٤﴾ بنصره وتأييده فلا تنتهكوا حرمة الشهر الحرام ولا البلد الحرام، والله معكم بنصره وتأييده ما دمتم ملتزمين بتقواه وامتثال أمره.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تعاونوا على ذلك؛ لأجل أن تجاهدوا المشركين.

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فلا تتركوا الإنفاق؛ لأنه يؤدي إلى التهلكة.

﴿وَأَحْسِنُوا﴾ أنفقوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ۝١٩٥﴾.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ ذكر الله تعالى الحج فأمر من أحرم بالحج أو العمرة أن يتم ما أحرم به لا محالة، ولا يخرج منه، فليس كسائر النوافل، فإذا أحرم فقد وجب عليه أن يكمل ما دخل فيه من حج أو عمرة.

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ حال حائل بينكم وبين مكة، أو حبسكم مرض أو نحوه.

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ شاة أو بقرة أو جمل، يبعث به المحصر إلى مكة ينحر هناك، فإذا نحر خرج المحرم من إحرامه، وحلق أو قصّر.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ امكث على إحرامك بعد بعثك للهدي إلى أن تعلم أن الهدي قد ذبح، فإذا كان الإحصار عن حج فينتظر

إلى أيام منى، وإن كان عن عمرة فأي وقت يبعث به وقد علم أنه نحر فك إحرامه، وإن تعسر عليه إخراج الهدي فك إحرامه وبقي الهدي في ذمته، فإذا تيسر له الهدي بعث به إلى مكة فحلق أو لبس.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ مرض بعدما أحرم بحج أو عمرة.

﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ ألم في رأسه واحتاج إلى الحلق، أو إلى أن يلبس.

﴿فَفِدْيَةٌ﴾ تلزمه، وهي ﴿مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾: صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو يذبح شاة فدية عن الحلق أو عن اللباس.

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ من العدو ولم يقع إحصار، ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ إذا أراد أن يضع حجه على تمتع فيبدأ بعمرة ثم يحج بعد العمرة، وعليه ما تيسر من الهدي وأقله شاة.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ وقد حج تمتعاً، ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ آخرها يوم عرفة، ومن فاته صيام هذه الثلاثة الأيام فليصم يوم العيد وثانيه وثالثه، وهذا تدارك، وإذا فاتته هذه الثلاثة الأيام أيضاً فالواجب عليه شاة ولا يجزئ الصوم.

﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ عند عودته إلى أهله، ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ للمتمتع.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فالساكن في مكة لا يصح منه التمتع.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ١٩٦﴾ الزموا حدوده وتعليماته، واعلموا أن عقابه شديد لمن يتجاوز حدوده، ويخالف تعليماته.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ هي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة؛ فلا يحرم الحاج للحج إلا في أشهر الحج هذه وهي شهران وعشرة أيام، فلا يصح أن يحرم للحج في شهر رمضان مثلاً.

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ يعني أحرم بالحج في هذا الوقت.

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ والرفث: هو الكلام الذي يحصل بين الرجل وزوجته من مقدمات الجماع. والفسوق: أعمال الفسق. والجدال: هو المماراة والمشاجرة، والمراددة في الكلام الذي يوغر الصدور.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ من الذكر والتسبيح وقضاء حاجات الناس ونحو ذلك.

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ جهزوا لكم زاداً يكفيكم في الحج ويكفيكم حاجة الناس، وأما أفضل الزاد فهو التقوى؛ لأنها توصلك إلى الجنة.

والمفترض أن الحاج يتزود بما يكفيه من الزاد في الطريق إلى الحج إلى أن يعود، فهو غير مناف للتوكل.

﴿وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٧﴾ يعني احذروني واحذروا مخالفتي وتجاوز حدودي.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ في سفر الحج إذا أرادوا التجارة والبيع والشراء فلا حرج على فاعل ذلك.

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ عندما يفيض الحاج من عرفات إلى مزدلفة.

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ يعني في مزدلفة فلا يصلي المغرب والعشاء إلا هنالك.

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ۝١٩٨﴾ من قبل أن يعلمكم الله كنتم من الجاهلين بمناسك الحج ومعالمه فاذكروه بالطاعة له والشكر على هدايتكم إلى معالم دينكم ومناسك حجكم.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أمرهم الله أن يفيضوا من عرفات؛ لأن المشركين كانوا يفيضون من مزدلفة ولم يكونوا يدخلون عرفة؛ لأنهم كانوا يقولون: نحن أهل الله فلن نخرج من الحرم، فقال الله: ﴿أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ يعني قفوا في عرفة، وأفيضوا من عرفة ولا تفعلوا مثل ما فعلت قريش وإخوانها.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١٩٩﴾ استغفروا الله لأجل ما كنتم عليه في الجاهلية من الوقوف في مزدلفة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ يعني أكملتم أعمال الحج ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ كان المشركون حين يقضون مناسك حجهم يجتمعون فيذكر كل منهم مفاخره ومفاخر آبائه، فقال الله للمسلمين: أعلنوا ذكر الله وتكبيره وتعظيمه، وأثنوا عليه بما هو أهله كما كنتم تفعلون أيام الشرك من ذكر مفاخر آبائكم أو أشد من ذلك وأكثر.

والمشروع في أيام منى التكبير والتحميد والتمجيد لله.

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۝٢٠٠﴾ بعض الحجاج يطلبون الله متاع الدنيا فيعطيهم الله منها، وليس لهم في الآخرة نصيب.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝٢٠١ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٢٠٢﴾ فأما المؤمنون فهم يسألون الله الدنيا ويسألونه الآخرة ويتعوذون به من النار، فهؤلاء الذين يستجيب الله دعوتهم، ويتقبل أعمالهم، ويعطيهم من الدنيا والآخرة، وينجيهم من عذاب النار.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ أي: أيام منى: يوم العيد وثانيه وثالث ورابع والذكر في هذه الأيام هو تكبير الله وتعظيمه وتعظيم شعائره.

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فمن أراد التعجل رجم أول يوم، وثاني يوم، وثالث يوم، فإذا أراد أن يعود إلى أهله ويتعجل النفور فليتعجل.

﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ إلى اليوم الرابع ورمى في اليوم الرابع ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ الله ولم يتجاوز حدوده، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٠٣﴾ احذروا معصية الله فهو محاسبكم ومجازيكم على أعمالكم في يوم القيامة فاحضروا فإن الله يحصي عليكم أعمالكم الصغير منها والكبير.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴿٢٠٤﴾﴾ قال الله للنبي ﷺ: إن بعض الناس يكون كلامه حسناً لما فيه من البلاغة والفصاحة، ويدعي حالفاً أنه صادق فيما يقول، وهو العدو اللدود، فكونوا منه على حذر ولا تصدقوه.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴿٢٠٥﴾﴾ إذا ذهب من عندك أخذ في الإفساد والإيقاع بين الناس وغرس الفتن والمشاحنة بينهم، ويقال: إنه الأخنس بن شريق.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ فتأخذه الحمية والكبر، بفعل الإثم ويزيد في تمرده وعصيانه.

﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ يكفيه جهنم جزاءً على أعماله الخبيثة، ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴿٢٠٦﴾﴾ وما أشد ذلك الجزاء وما أعظمه، ففراشه من جمر جهنم الذي اشتد سعيره وتعاظم لهبه، فيتطاير شرره لشدة سعيره، ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴿٣٣﴾﴾ [المرسلات].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴿٢٠٧﴾﴾ بعد أن ذكر الله الذي تولى في الأرض ليفسد فيها- ذكر بعضاً من الناس آخر باع نفسه من الله؛ لأجل أن ينال رضوانه، وقد استسلم وسلم نفسه خالصة لله، وانقاد له أشد الانقياد، وترك هوى نفسه ودواعيها.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ يعني في دين الإسلام.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴿٢٠٨﴾﴾ ولا تسمعوا له وتتبعوا خطواته: من عبادة الأصنام، وأكل الميتة، وشرب الخمر، وقتل النفس التي حرم الله قتلها، والإفساد في الأرض، وأكل أموال الناس بالباطل ؛ فإن الشيطان لا يدعوكم إلى خير لعداوته لكم، وحنقه عليكم.

﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٢٠٩﴾﴾ إذا وقعتم في خطوات الشيطان بعد أن جاءتكم البينات من الله فاعلموا أن الله سيعاقبكم ويجازيكم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ قد أعد الله عذاب المجرمين المصرين على عصيان الله، ويوشك أن يحل بهم فلينتظروا نزوله عليهم من السماء.

﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ سينتهي أمرهم وشركهم وما هم عليه من الضلال والعناد بحلول عذاب الله بهم، ثم يرجعون بعد ذلك إلى الله فيعذبهم في جهنم خالدين، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴿٢١٠﴾﴾.

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ المعنى أن الله قد أعطى بني إسرائيل نعماً كثيرة وعظيمة، وأراهم الكثير من آياته البينات، فكان من المفروض أن يكونوا أول من يستجيب لرسل ربهم الذي أولاهم ذلك الفضل العظيم.

﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴿٢١١﴾﴾ فالنبي نعمة من الله على البشر وعلى اليهود، فمن يبدل هذه النعمة بالكفر، فسيلقى جزاء كفره الذي أعده الله للكافرين.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ الحياة الدنيا مزينة في قلب كل واحد، غير أن هؤلاء الكفار قد اغتروا بهذه الزينة التي في قلوبهم وألهتهم عما زينه الله لهم بالدين والثواب، وإلا فإن الله قد زين الدنيا في قلوب الناس جميعاً، وكذلك زين لهم الآخرة وثوابها، وزين لهم الحق وهاتان الزينتان تتصارعان في قلب ابن آدم فغلبت زينة الحياة الدنيا في قلوب الذين كفروا، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ...﴾ [آل عمران:١٤]، فحب الدنيا في قلب كل إنسان غير أن أولئك الكافرين غرتهم زينة الحياة الدنيا واتبعوها ومالوا إليها.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ويحتقرونهم ويستهزئون بهم، ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ والمتقون يوم القيامة فوق الذين كفروا في أعلى عليين، والكافرون في دركات الجحيم بين أطباق جهنم.

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ الرزق في الدنيا ليس ميزاناً فهو يرزق الذين كفروا ويعطيهم الرئاسة والوجاهة والأموال والأولاد ولا يدل ذلك على أنهم أفضل من المؤمنين حتى يحتقروهم ويستهزئوا بهم، فالله يعطي الرزق من يشاء بغير حساب.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قبل أن تبعث إليهم الأنبياء هم على ملة واحدة هي ملة الكفر.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ فبعث الله تعالى رسله إلى أهل الكفر يدعونهم إلى عبادة الله وحده وترك الكفر والشرك ويبشرون من يستجيب لدعوتهم ويؤمن بما جاءوا به بالثواب العظيم في جنات النعيم، وينذرون الكافرين بالله وبرسله بالعذاب العظيم في نار جهنم.

﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ مع كل نبي كتاب ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ ويكون مرجعاً لهم يرجعون إليه عند اختلافهم.

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ الذين نزل عليهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ بعدما وضح الحق لهم وعرفوه، ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً وعداوة لبعضهم البعض، مثل ما فعل اليهود عندما حسدوا النبي، وقالوا لماذا لم يأت منهم وأتى من العرب؟ وهم عالمون أنه حق من عند الله.

﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ حين يختلف الناس في الحق فالله يهدي المؤمنين لمعرفة الحق والهدى رحمة منه للمؤمنين.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ قال الله للمؤمنين: أتظنون أنكم ستدخلون الجنة بغير معاناة وتعب؟ كلا؛ بل لا بد من التمحيص والابتلاء والفتن حتى يتبين من هو الثابت على الإيمان، من المتزلزل فيه مثل ما جاء على الذين من قبلكم مستهم البأساء والضراء، وحصلت لهم شدائد زلزلتهم عن ثباتهم واستمرت وطالت ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ فاستبعدوا واستبطأوا النصر حتى قالوا: متى يأتينا النصر؟

﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ لا بد من النصر ولكنه لا يأتي إلا بعد محن وشدائد؛ لأجل أن يظهر الناس على حقيقتهم، ويتميز الصادق من الكاذب، وتبين مراتبهم في الدين.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ قالت الصحابة للنبي ﷺ ماذا ننفق؟ ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: خير تنفقونه ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ فليس المشكلة أن تنفقوا، ولكن المهم أين تضعون النفقة، فلم يخبرهم ماذا ينفقون؟ هل الذهب أم الفضة أم الخيل أم البقر؟ بل أخبرهم أين يضعونها.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ لا يضيع عند الله وإن كان شيئاً قليلاً.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ أوجب الله عليكم أيها المؤمنون القتال وألزمكم به وحتمه عليكم، وهو تكليف ثقيل عليكم تنفر أنفسكم عنه وتكرهونه، مع أن لكم في هذا التكليف مصالح عظيمة ومنافع كبيرة في دينكم ودنياكم وعاقبة أمركم.

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ فإنهم إذا قعدوا عن القتال فسيستولي عليهم العدو ويقتلهم ويسبي ذراريهم.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ فهو عالم بعواقب الأمور وما تصير إليه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ المشركون يسألون النبي ﷺ كيف القتال في الشهر الحرام؟ فقال الله للنبي ﷺ: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ القتال فيه معصية كبيرة عند الله، ولكن هناك شيء أكبر منه وهو: ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فهو أكبر ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ وأنتم تكفرون بالله وهو أكبر، ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وتصدون عن المسجد الحرام فتمنعون الحج والعمرة، ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ إخراج أهل الحرم عن الحرم وهو أكبر من القتال في الشهر الحرام فقال الله للمشركين: إن صدكم للناس عن الإسلام وصدكم لهم عن المسجد الحرام وإصراركم على الكفر بالله وبرسوله ﷺ وطردكم للنبي والمسلمين من المسجد الحرام كل ذلك هو أعظم وأكبر جرماً عند الله من القتل في الشهر الحرام الذي صدر من أصحاب النبي ﷺ خطأً.

﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ فتنتكم للناس عن الإسلام فمن أسلم عذبتموه حتى يكفر، فهذا أكبر من القتل في الشهر الحرام، يستنكرون على النبي ﷺ حين قتل أصحابُه الكفارَ في أول رجب وهو من الأشهر الحرم ظناً منهم أنهم في آخر جماد فرد الله عليهم بهذا الرد.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ قال الله تعالى للمسلمين إن المشركين لا يزالون يقاتلونكم لا ينفكون عن قتالكم ولا يبقون حيلة ولا وسيلة حتى يردوكم عن دينكم إن وجدوا إلى ذلك سبيلاً فاصبروا وأعدوا نفوسكم للثبات والاستقامة على دينكم ولا ترتدوا على أعقابكم بعد أن هداكم الله للدين الحق.

﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ حذر الله المسلمين من أن يرتدوا عن دينهم، ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ فمن ارتد منكم أيها المسلمون عن دينه ورجع إلى دين المشركين ولم يتب إلى الله ومات على ردته فإن الله سيدخله نار

جهنم خالداً فيها، ولا ينتفع بها كان له من الأعمال الصالحة التي عملها قبل ردته؛ لأنه قد ضيعها بردته وأحبطها بكفره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ يعني هاجروا مع النبي ﷺ من مكة إلى المدينة. ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٢١٨﴾ أما الذين استقاموا على الإيمان وهاجروا إلى الله ورسوله وجاهدوا فإنهم من أهل رحمة الله وثوابه ومن أهل جنته وهم الحقيقون بمغفرته.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ والميسر القمار، المسلمون يسألون النبي ﷺ عن حكم الخمر والميسر.

﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ فكان الجواب: أن في تعاطي الخمر والميسر إثم كبير ومفاسد عظيمة وفيهما أيضاً منافع للناس إلا أن إثمهما أعظم وأكبر من منافعهما وما يحصل من المفاسد أكبر مما يحصل من المنافع.

وقد نزلت هذه الآية في أول الإسلام حين كان الإسلام ضعيفاً فلما قوي الإسلام وتمكن الدين من قلوب المسلمين جزم الله بتحريم الخمر والميسر جزماً وأمر باجتنابهما.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ المسلمون يسألون النبي ﷺ ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ يعني الفضلة الفاضلة عن حاجتك، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩﴾ هكذا يبين الله للمسلمين أحكام دينهم ليتفكروا في رحمته بهم فيشكروه على ما هداهم.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ نزلت هذه الآية بعد نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء]، فخافوا خوفاً شديداً فسألوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن معنا أيتاماً تحت أيدينا فكيف نعمل بهم؟ فقال الله تعالى:

﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ إصلاح أموالهم، ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ وإذا خالطتموهم في الزاد فلا بأس فقدروا نفقتهم وضعوها بين نفقتكم وكلوا جميعاً ولا حرج عليكم بعد التحري والنظر فيما يصلح أموال اليتامى.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ والله عالم بنية كل واحد؛ فتمييز اليتيم وحده بأكله وشربه يورث في نفسه شيئاً وفي ذلك مشقة فاخلطوا نفقتهم مع نفقتكم وكلوا جميعاً فهم إخوانكم، والله هو عالم بنية المفسد والمصلح.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)﴾ لو أراد الله أن يوقعكم في المشقة والحرج لأوقعكم، ولكن يريد التيسير عليكم فجعلكم تخالطوهم.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ يعني لا تتزوجوا بالمشركات أبداً حتى يؤمنّ، ﴿وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ فالأمة المؤمنة أفضل من الحرة المشركة عند الله وفي واقع الأمر.

﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ لا تزوجوا المشركين بالمؤمنات حتى يؤمنوا، ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ والعبد المؤمن أفضل عند الله وفي واقع الأمر من الحر المشرك.

﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ فهذا هو السبب في عدم التزويج؛ لأنهم يدعون إلى النار فيدخل الفاسق لأنه يدعو إلى النار.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)﴾ وإن الله تعالى يدعوكم بشرائعه وأحكامه إلى ما يقربكم من رحمته ورضوانه ودار كرامته، ويبين لكم آياته التي ترشدكم إلى طريق الجنة والمغفرة.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ المسلمون سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الحيض يأتي النساء، فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ فلا تقربوهن فتتأذى صحتكم، وهو قذر يجب الابتعاد عنه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ من الحيض ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ اغتسلن بالماء بعد الحيض ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فقد جاز لكم وطؤهن؛ فلا بد أن تطهر المرأة من الحيض ثم تتطهر بالاغتسال.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ الذين لا يقاربون الأقذار، ومعنى يحب: يثيب، ويحب الذين يتوبون إلى الله بعد الزلة.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ مثل الجربة يزرع المرء فيها ويحصد الثمر وثمر المرأة الولد.

﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ كيف شئتم من وراء ومن قدام، المهم هو أن يأتي الحرث، ولا يأتي غيره.

﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ فإذا نوى المرء نية صالحة وأراد الولد الصالح فله الأجر في ذلك.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ لا تخالفوا تعليماته، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ يجازيكم على أعمالكم. وبشر المؤمنين الذين يعملون بتعاليم الله تعالى بالثواب العظيم.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ لها تفسيران: فلا ينبغي أن يحلف المرء كلما عرض له أمر، فيعظم الله بترك الحلف به، ولا يحلف به إلا للضرورة.

وبعضهم يفسره بأن يحلف المرء أن لا يعمل براً فيقول مثلاً: والله لا أصل رحمي أو لا أدخل المسجد أو نحو ذلك؛ فلا ينبغي له أن يترك عمل البر لأجل يمينه، والذي ينبغي له: أن يكفِّر ويعمل ذلك البر.

﴿أَنْ تَبَرُّوا﴾ أي: لا تجعلوا اليمين حاجزاً عن عمل البر، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ سميع لأقوالكم وعليم بأفعالكم.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ بعض الأيمان لا كفارة فيها وهي يمين اللغو، وهي: أن يحلف الإنسان ظناً منه أنه صادق في يمينه كأن يحلف أن فلاناً في البيت ظناً منه أنه في البيت ثم انكشف خلاف ذلك فهذه لا كفارة فيها.

﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ كأن يحلف لا أفعل ذلك الفعل ثم يفعل، وتسمى المعقودة، وفيها الكفارة.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴿٢٢٥﴾﴾ يتجاوز عن أخطاء عباده إذا أخطأوا، وهو عالم أن هناك زلات تصدر من المسلم، وأن الإنسان يخطئ، لكن لا يصر المرء على الذنب، ويتوب ويرجع إلى الله، ولا يستكبر من التوبة.

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴿١٤٤﴾﴾ [النساء]، لا تجعلوا لله عليكم حجة ظاهرة فجددوا التوبة كل حين، والإنسان محل الخطأ والنسيان لا يخلوا عن الزلات.

وهناك اليمين الغموس وهي: أن يحلف المرء بالله كاذباً وهو يعلم أنه كاذب في يمينه إما ليقتطع بها حق مسلم، وإما لسبب آخر، فهذه لا كفارة لها، وهي من كبائر الذنوب، وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار، وهي توجب سخط الله وعذابه، فلا بد أن يتوب المرء منها، ويرد الحق الذي أخذه بسببها.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٢٢٧﴾﴾ جعل الله مهلة للذي يحلف من زوجته أربعة أشهر بعد هذه اليمين، هذا إن طالبته عند الحاكم، وبعد الأربعة الأشهر إذا رافعته إلى الحاكم إما أن يرجع إليها ويكفر عن يمينه، أو يطلق؛ فيلزمه الحاكم باختيار أحد الأمرين.

وإن لم تطالبه فلا يلزمه الطلاق، لكنه يأثم؛ فمن حلف لا وطئ زوجته سنة -مثلاً- فله مهلة أربعة أشهر ثم تطالبه الزوجة، وإذا رجع إلى زوجته فإن الله غفور رحيم، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ المرأة تعتد من الطلاق ثلاث حيض إن كانت من ذوات الحيض، وإن لم تكن من ذوات الحيض فثلاثة أشهر كأن تكون ضهياء أو صغيرة لم يأتها الحيض أو كبيرة قد انقطع حيضها.

وإن كان منقطعاً كأن تكون مرضعة أو نحوه فتنتظر حتى يأتيها الحيض ثم تعتد به، ويلزم الزوج نفقتها حتى يأتيها الحيض وتعتد- بالغة ما بلغت.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فلا يحل للمطلقة كتم الحيض أو الولد، بل يجب عليها أن تخبر بحملها إن كانت حاملاً، وبوقت انقضاء الحيضة الثالثة.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ فزوجها أحق بمراجعتها في فترة العدة، وذلك إن أرادوا إصلاحاً لا لأجل أن يضيق عليها بأن ينتظر حتى قرب انتهاء العدة ثم يراجعها ثم يطلقها من أجل أن يطوِّل عليها العدة، فهذا لا يجوز للزوج، ولا يجوز له أن يراجعها إلا إذا كان ثمة رغبة في الرجوع إلى المعاشرة بالمعروف.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ لها من الحقوق على زوجها مثل ما عليها للزوج؛ فللزوج عليها حقوق، ولها عليه حقوق، ولكن حق الرجل أكثر من حقها ﴿عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ بما فضل الله بعضهم على بعض.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ فلا تخالفوا أمره فهو معاقبكم إن عصتموه فيما فصله لكم من شرائعه وأحكام دينه.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ الطلاق الذي يصح مراجعتها فيه مرتان، فأما الطلاق الثالث فقد بانت الزوجة وانقطعت الصلة فلا تصح المراجعة.

﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ فإذا أراد مراجعتها فلا يراجعها إلا إذا كان مريداً للمعاشرة بالمعروف بين الناس، وإلا فيسرحها بإحسان فلا يراجعها لأجل أن يضيق عليها.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ إذا أراد الإنسان أن يفارق زوجته فلا يحل له أن يأخذ من المهر شيئاً لأنه قد استوفى منها.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ إذا كانت الزوجة كارهة ولم تستطع أن تقيم حدود الله مع زوجها، ولا تؤدي حقوقه، والزوج محب لها، ولا يريد مفارقتها، فلا جناح عليها أن تفتدي نفسها بشيء مما أعطاها، لا أكثر من ذلك، فترد له ذهبه وملابسه التي قد أعطاها، وكل ما خسر.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴿٢٢٩﴾﴾ هذه التعاليم التي فصلها الله تعالى في تلك الآيات هي حدود حدها الله لكم أيها المؤمنون فالتزموا بها ولا تتجاوزوها ولا تخالفوها، ومن يخالف تعاليم الله وأحكامه فقد ظلم نفسه، وعرضها لسخط الله وعذابه.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ فإن طلق الزوج زوجته الطلقة الثالثة ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ هذا الزوج الأخير ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ فإن طلقها الزوج هذا، جاز للزوج الأول أن يتزوجها إذا عرف الزوجان أنهما سيقيمان حدود الله من حسن المعاشرة والمعاملة.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴿٢٣٠﴾﴾ هذه تعاليم الله يبينها لأهل العقول الذين يفهمونها ويعرفونها.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إذا شارفت المطلقة على انتهاء العدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ راجعوهن بمعروف، وذلك إذا أردتم الزواج والمعاشرة الحسنة.

﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أو اتركوا مراجعتهن إن لم يكن لكم رغبة فيهن، ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ فقد عصى الله وتعدى حدوده.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ فخذوا بآيات الله واعملوا بها بجد ولا تستهينوا بها، فمن ترك العمل بها فقد استهزأ وتهاون بها.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أنعم الله عليكم بأن أنزل عليكم تعاليم الإسلام، وأرسل إليكم نبياً رحمة بكم، وأعطاه القرآن فيه هداكم وتعاليم دينكم ودنياكم، فهذه نعم عظيمة من الله تعالىٰ فاذكروها بالشكر لله والثناء عليه وطاعته.

﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ مثل هذه التعاليم التي أتت في الطلاق والمعاشرة فإنها حكمة أنزلها الله عليكم لتعملوا بها، وتستضيئوا بأنوارها.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ احذروا معصية الله ومخالفة أمره، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٣١)﴾ لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالكم، فليكن الإنسان حريصاً علىٰ امتثال أمر الله فيما أمر ونهىٰ واعلموا أنه لا يخفىٰ علىٰ الله شيء من أعمالكم وسيحاسبكم علىٰ كل صغير وكبير.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ انتهت عدتهن ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ هذا خطاب لأولياء النساء، فلا تمنعها أيها الولي من الزواج إن أتاها زوج مناسب لها، والمراد ﴿أن ينكحن أزواجهن﴾ أي: اللائق بهن فأما غير المناسب فله المنع.

﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الذي ينتفع بهذه المواعظ ويعمل بها هو المؤمن بالله، والمصدق بالبعث والجزاء.

﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ يعني أن تزويجهن أزكىٰ وأطهر لكم أيها الأولياء لئلا يحصل من المرأة ما يلطخ الأعراض.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(٢٣٢)﴾ فهو عالم بعواقب الأمور وبما تصير إليه، وهو عالم أن هذا الفعل أحسن للإنسان وأشرف وأطهر.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ مدة الرضاعة ونهايتها هو سنتان، ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ لمن أراد أن يستكمل مدتها ويبلغ غايتها.

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ إذا كانت مطلقة فعليه نفقتهن والمولود له هو الأب، ثم إن لم يكن أب فوارث الطفل.

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فيعطي ما في وسعه وعلى حسب حاله في الفقر والغنى.

﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ على الأب أن لا يضارر الأم بولدها بأن لا يعطي لها أجرة كاملة لأجل أن يأخذ الولد منها ويعطيه لغيرها، بل عليه أن يعطيها مثل ما يعطي لغيرها، وكذلك هي لا تضارر فتطلب أجرة زائدة على إرضاعه، فليس لها ذلك، ولا يجوز لها أن تتعسر على الأب.

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ وعلى الوارث للولد من الأجرة مثل ما يلزم أباه، وذلك إذا لم يكن له أب فعلى وارثه أن يؤدي أجرة الحضانة والنفقة.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ إذا أراد الأب والأم أن يفصلا الرضيع قبل استكمال السنتين فلهما ذلك مع مراعاة مصلحة الرضيع.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ إذا أردتم أن تضعوا أولادكم عند المرضعات فلا حرج عليكم.

﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ إذا أعطيتم لأمه الأجرة المعروفة على إرضاعه فأبت، فللأب أن يأخذه منها ويعطيه غيرها.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فهو رقيب عليكم، ومحاسبكم، وعالم بما إذا كان الزوج يريد الضرر بزوجته.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ مطلع على أعمالكم فاحذروا أن تخالفوه وتعصوه فيما أمركم.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ إذا مات الزوج فتعتد المرأة أربعة أشهر وعشرة أيام، فلا تتزين، ولا تتعرض للخطاب في مدة التربص.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ تمت العدة، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فإذا أتمت العدة فاتركوها تتزين وتعرض نفسها للخطاب ولا تمنعوها إذا كان بالمعروف بين الناس، وهو أن يكون بشرف وحشمة.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴿٢٣٤﴾﴾ فلا تمنعوهن، وعليهن أن لا يتجاوزن الحدود، فالله مطلع عليكم، وشاهد على أعمالكم، وسيجازيكم إن خرجتم عن حدوده.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ فلا جناح عليكم أيها المسلمون إذا كان هناك امرأة توفي زوجها أن تلمحوا لها بالرغبة فيها، ولا حرج عليكم فيما سترتم في صدوركم من الرغبة في الزواج بالمتوفى عنها والعزم على خطبتها والزواج منها، والمراد بالتعريض: الإشارة فقط، ﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: نويتم في أنفسكم أن تتزوجوهن.

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ولكن لا يصرح لها بكلام سيء أو بما يرغبها، بل يقول قولاً معروفاً وهو التعريض، والتلميح فقط.

﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ لا تعقدوا على المتوفى عنها عقد النكاح حتى تستوفي أربعة أشهر وعشراً.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ لا تخالفوا أوامره وتعاليمه فهو عالم بالضمائر، وسيجازي من أسرف وتجاوز الحدود.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴿٢٣٥﴾﴾ فهو يغفر، لكن لمن له نية في طاعة الله.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ إذا تزوج الرجل بالمرأة وطلقها ولم يكن قد حدد لها مهراً ولا مسها فليس عليه مهر، ولا عليها عدة، ولكن لها متعة وهي: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴿٢٣٦﴾﴾ وهي لازمة، وأقلها كسوة مثلها.

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ إذا طلقها الزوج قبل أن يدخل بها، لكن قد حدد المهر فلها نصفه، ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ إلا أن تعفو الزوجة أو يعفو الزوج كأن يكون قد سلمها المهر كله، فيعفو عنها، أو لم تكن الزوجة قد استلمت شيئاً ثم تعفو.

﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ فهو أحسن إذا كان قد أداها فيعفو عنها، وإن لم تكن قد أخذت منه شيئاً فتعفو عنه، فذلك هو الأحسن عند الله.

﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)﴾ فلا تنسوا الإحسان فيما بينكم بأن تقولوا: قد انقطع فيما بيننا فلا أعفو عنها، وهي تقول كذلك، بل ينبغي أن لا يزال الإحسان بينهما موصولاً.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)﴾ أمرنا بالحفاظ على الصلوات الخمس، ومن ذلك المحافظة على: إسباغ الوضوء، وستر العورة، واستقبال القبلة، وتأدية أذكارها وأركانها.

«والصلاة الوسطى» قال الإمام الهادي عليه السلام: إنها صلاة الجمعة وفي باقي الأيام الظهر، وفيها مذاهب كثيرة، فبعضهم قال: صلاة العصر، وبعضهم: العشاء، وبعضهم: الفجر، ففيها مذاهب كثيرة قريباً من ثلاث عشرة رواية، ورواية الإمام الهادي هي أصح الروايات عندنا.

والوسطى تعني الفضلى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم:٢٨]، يعني أفضلهم، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣]، يعني أفضل الأمم.

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)﴾ القنوت له عشرة معان أو نحوها منها: الخضوع، والدعاء، والقيام، والمعنى: قوموا لله بتأدية ما فرضه عليكم مذعنين لأمره متواضعين لعظمته خاشعين لربوبيته.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ إذا حضرت الصلاة وأنتم في حال خوف بأن تكون الحرب قائمة، ﴿فَـ﴾ صلوا ﴿رِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ فصلوا وأنتم تقاتلون مترجلين أو راكبين على الخيل ولو لم يحصل استقبال، فيكفي التكبير وذكر الله تعالى إذا تعذر الركوع والسجود والاستقبال.

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴿٢٣٩﴾﴾ إذا ذهب الخوف فصلوا الصلاة التي أمركم الله بها وعلمكم إياها بكامل فروضها.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ هذه الآية منسوخة نسختها الآية السابقة: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، كان في أول الإسلام إذا مات الزوج تمكث الزوجة في العدة سنة كاملة، ينفقون عليها سنة كاملة، ثم نسخ الله هذا الحكم وجعل مكانه أربعة أشهر وعشرا.

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ فإذا تعرضن للخطاب بعد السنة فاتركوهن، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٢٤٠﴾﴾ وهذه الآية كما قلنا قد نسخت.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴿٢٤١﴾﴾ المتاع هذا عام، فمنه الكسوة مثل كسوة مثلها، ولها النفقة ينفق عليها ثلاثة قروء، وكذلك إذا لزمه المهر أو نصف المهر فاسمه متاع.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴿٢٤٢﴾﴾ يبين لكم أحكام دينكم ومعاملاتكم لأجل أن تفهموا عن الله وتعملوا بشرائعه وأحكام دينه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴿٢٤٣﴾﴾ هؤلاء قوم هربوا من الموت ثم إن الله أماتهم ليعلموا أنه لا مفر من الموت، وفي ذلك حث على الجهاد في سبيل الله، وأنه لا مفر من الموت.

وأخبرنا الله تعالى بقصة مضت في الأمم السابقة من بني إسرائيل، وهم أهل قرية خرجوا من ديارهم هرباً من الموت فلقيهم الموت وهم خارجون ثم إن الله تعالى أحياهم بعد موتهم، وهذه الآية مختصة ببني إسرائيل وهي الإماتة ثم الإحياء وذلك فضل من الله تفضل به عليهم، ونعمة لم يولها أحداً غير بني إسرائيل، وقد قص الله علينا هذه القصة ليعلمنا أنه لا مفر من الموت، وليحثنا على الجهاد في سبيله.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ أمر الله المسلمين بالقتال في سبيله، فهو العالم بأعمالكم وأفعالكم فاحذروه فسيجازيكم إن لم تمتثلوا لأمره.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ يعني بالقرض: الإنفاق في سبيل الله، وفي الجهاد، وفي تجهيز المجاهدين، وفسرناها بهذا إذ سيقت في سياق الجهاد في سبيل الله، وإلا فالإنفاق يضاعفه الله تعالى على أي وجه وقع إذا كان المراد به وجه الله تعالى، فالنفقة في سبيل الله تضاعف إلى سبعمائة ضعف لمن صدقت نيته، وخلصت لوجه الله.

﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ الله يبتليكم بالفقر والغنى، يعني يكلفكم بالنفقات لأجل أن يختبركم وإلا فهو قادر على أن يغنيكم جميعاً، وهذا الاختبار من الله تعالى لأجل أن يتميز ضعيف الإيمان من القوي وإلا فالله غني وقادر أن يغني الناس جميعاً، وأن يغني رسوله صلى الله عليه وآله وسلم عن معاونة المسلمين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كان في شرائع بني إسرائيل أن النبي ليس مسؤولاً عن القتال، وإنما يوحى إليه بأن ينصب ملكاً يتولى القتال والجهاد.

والملأ: هم الأشراف والوجهاء، أتوا إلى نبيهم فقالوا: نريد ملكاً نقاتل في سبيل الله، ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا

﴿أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كيف لا نقاتل، ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ والحال أن العدو قد دخل بلادنا واستولى عليها.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ فحصل منهم ما توقعه منهم نبيهم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ عالم بالذين تمردوا عن الجهاد وسيجازيهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ اختاره الله لكم قائداً يقودكم لقتال عدوكم.

﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ كيف يكون ملكاً علينا؟

﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ فهو فقير وليس من بيت الملك والقيادة ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ اختاره بعلمه وحكمته، وعلم أنه أهل للقيادة والولاية.

﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ وعنده علم ومعرفة بالأحكام الشرعية وعلم بإدارة الحروب وأساليب القتال، وأعطاه الله جسماً كاملاً يملأ القلوب مهابة.

﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فلا دخل لكم.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ فهو واسع ملكه، يختار من يشاء من أهل مملكته، وعالم بمن يصلح للملك والقيادة.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ التابوت: هو من بعد موسى وهارون. ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إذا رأيتموه تأتيكم طمأنينة في القلب، ويزول الخوف، وتستطيعون القتال بثبات، وقد جعل الله ذلك آية وعلامة تدل بني إسرائيل على أن طالوت هو القائد والملك الذي اختاره الله لقيادة الحرب.

﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَى وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ فيه آثار من بعد موسى وهارون والله أعلم ما هي؛ أهي صحف أم عصا موسى؟ لم يحددها الله، وهناك روايات إسرائيلية لا يوثق بها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴿٢٤٨﴾﴾ إن كنتم مصدقين فهذه علامة واضحة لكم على أن الله قد اختاره ملكاً عليكم، ولكن كان العنادُ عادتَهم، والتمردُ ديدَنهم.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ فلما خرج طالوت من البلاد هو والمقاتلون وسار بهم، ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ تخوضونه وتمرون من بينه في طريقكم، ويبتليكم بالعطش في هذا النهر، ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ اختباراً لهم لكي يبين الخبيث من الطيب؛ لأنه لا يريد أن يقاتل إلا بالأخيار، ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فهذا لا حرج عليه.

﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ فشرب أكثرهم من النهر، ولم يصبر منهم إلا القليل، قيل: إن عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر عدد أهل بدر.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ الذين لم يشربوا، ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ عندما رأوا الكثرة في عدوهم هابوا وخافوا وقالوا لقائدهم طالوت: لا طاقة لنا اليوم بقتال عدونا جالوت وجنوده لكثرة عددهم وقلتنا.

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴿٢٤٩﴾﴾ فقال أهل البصائر في الدين: كثيراً ما ينتصر القليل على الكثير فأخلصوا لله وارجوه واسألوه المعونة والنصر فإن الله يؤيد الصابرين بمعونته ونصره.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهذا هو المفروض: أن يلجأ المجاهدون إلى الله ويعتمدوا عليه لا إلى كثرتهم وقوتهم، فالنصر من عند الله فأنزل الله عليهم النصر والمعونة لالتجائهم إلى الله وإخلاصهم له.

﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ كان نبي الله داود عليه السلام أحد الجنود الذين خرجوا للقتال تحت إمرة القائد طالوت ولم يكن نبياً حين خرج مع طالوت، بل لم يكن له ذكر ولا شأن في ذلك الوقت، وقد وفق الله تعالى داود لقتل ملك عدوهم واسمه جالوت فشاع ذكر داود وارتفع شأنه ورمقته الأبصار، وكان ذلك بتدبير الله تعالى لما يريده الله سبحانه لداود من شرف النبوة والملك.

﴿وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ ثم إن الله تعالى أعطى داود عليه السلام شرف النبوءة وأوحى إليه بشرائع الدين وأحكامه التي أوحاها إلى موسى عليه السلام وأوحى إليه بالزبور زيادة على أحكام التوراة، وعلمه من أنواع العلوم التي ليست في التوراة ولا في الإنجيل من ذلك علم استخراج المعادن، وعلم صناعتها، ومع ذلك فقد أعطاه الله الملك والسلطان في الدنيا، وكان سلطانه في بلاد الشام.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ إن الله سبحانه يدفع شر بعض الناس ببعض بأن يغري بعضهم ببعض، ويسلط بعضهم على بعض؛ ليسلم أولياء الله من شرورهم وفسادهم.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ في تسليط بعضهم على بعض، وهذا فضل من الله ونعمة على أوليائه وعباده الصالحين.

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ هذه آيات الله يتلوها على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وهي حق وصدق.

﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ فلا يكبر عليك تكذيب قومك وتكذيبهم لك لا ينقص منزلتك.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ منازل رسل الله كلها رفيعة بل هي غاية ما تنتهي إليه منازل البشر في الرفعة عند الله تعالى، ورسل الله عليهم السلام وإن كانت منازلهم رفيعة فإنهم يتفاضلون في تلك المنازل

فبعضهم أرفع من بعض، وذلك التفضيل هو بفضل الله ورحمته وعلمه وحكمته، منهم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد اختصه الله تعالىٰ بفضيلة الكلام ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ١٦٤﴾ [النساء]، ومنهم عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد اختصه الله تعالىٰ بإحياء الموتىٰ وإبراء الأكمه والأبرص وكان يصور تمثال طير من الطين فينفخ فيه فيطير.

ونبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هو أفضل الأنبياء والرسل وأرفعهم منزلة لفضائل اختصه الله تعالىٰ بها، فمنها: أن الله تعالىٰ أرسله إلىٰ الناس كافة، ومن قبله من الأنبياء يبعث كل منهم إلىٰ قومه خاصة.

ومنها: أن أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خير الأمم.

ومنها: أن شريعته نسخت شرائع الأنبياء، وهي باقية لا تنسخ إلىٰ يوم القيامة.

ومنها: أن الله تعالىٰ أعطاه القرآن الذي لا يقدر المبطلون علىٰ تحريفه وتصحيفه وتغييره وتبديله ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٤٢﴾ [فصلت]، فهو باق كما أنزل إلىٰ أن تقوم الساعة.

ومنها: أن محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أكثر الأنبياء أتباعاً إلىٰ يوم القيامة.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ جاء من بعد الأنبياء أمم تتقاتل فيما بينها، ولو أراد الله لمنعها القتال، ولكنه خلاها وشأنها، وسيجازيهم يوم القيامة ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه.

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣﴾ تركهم وشأنهم، ووكلهم إلىٰ اختيارهم، وخلاهم، وسيجازيهم ولو شاء الله لمنعهم بالقهر، ولكن اختلفوا ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ وتقاتلوا فيما بينهم، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣﴾ من التخلية بين المكلفين ليرتب علىٰ ذلك الثواب والعقاب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ علىٰ الأقل الزكاة، ونفقة الأولاد والأبوين العاجزين، ونحوها.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ فلا بيع يوم الحساب ولا شراء، ولا صداقة، ﴿وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ يشفع أحد لأحد، ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴿٢٥٤﴾﴾ هم الذين ظلموا أنفسهم وبخسوها حظها، وأوبقوها في سخط الله.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حي قيُّوم، معناه: قائم بتدبير مخلوقاته في السماوات والأرض وما فيهما من الخلق والرزق والإماتة والإحياء، لا يغفل لحظة واحدة عن ملكوته.

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فلا تعتريه غفلة -خفقة نوم- ولا نوم، وهناك رواية لا أعلم بصحتها وهي أن موسى عليه السلام سأل ربه: هل ينام ربنا؟ فأمر الله موسى عليه السلام أن يمكث ثلاث ليالٍ لا ينام، وأمره بأخذ قارورتين وأن يقبضهما في يده، فأرسل الله عليه النوم فأفلتت من يده وتكسرت؟ وذلك لأجل أن يستيقن موسى عليه السلام من نفسه أن الله لا تأخذه سنة ولا نوم، فكيف يدير شؤون السماوات والأرض وينام؟ فلو حصل ذلك لحدث خراب وفوضى، ولاختل توازن الكون.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فكيف تأخذه السنة والنوم وله ما فيهما؟ إذاً لذهب كل شيء من تحت قدرته، ولتخلخلت أجرام السماوات والأرض وتهاوت وفسد الكون.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ لعظمته وجلاله وكبريائه لا أحد يشفع عنده ويطلبه إلا إذا أذن له في الكلام والشفاعة.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فهو عالم بما بين أيدينا وهو الوقت الحاضر، وما خلفنا وهو ما قد مضى.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ في المستقبل وهو محيط بهذه الأشياء علم الله محيط بكل ما حصل في الزمن الماضي، وما اشتمل عليه الزمن الحاضر، وما سيأتي في الزمن المستقبل ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ بما أوحى إلى أنبيائه وأخبرهم ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ وسع علمه السماوات والأرض وما فيهما.

﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ لا يثقله حفظ السماوات والأرض وما فيهما.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ العلي عن مشابهة المخلوقين فلا يسهو ولا يغفل ولا يتعب ولا يشغله شأن عن شأن، ولا يعجزه شيء ولا تخفى عليه خافية، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام].

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ الدين ليس بالإكراه، بعث الله الأنبياء تبلغ الناس دينهم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فمن أراد أن يتبع الرشد اتبعه، ومن أراد أن يتبع الغي اتبعه.

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ والطاغوت: هو كل ما عبد من دون الله، فمن يكفر به ويؤمن بالله فقد تمسك بالحبل الوثيق الذي لا ينقطع، والله سميع عليم يسمع أقوالهم، ويعلم أعمالهم، وسيجازيهم عليها.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ناصرهم، يهديهم ويخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإسلام والهدى.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ أما الكافرون فأنصارهم طواغيتهم التي يعبدونها من دون الله، يزينون لهم الضلال، ويجرونهم إلى ظلمات الباطل، وأودية الهلاك، ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ يصدونهم عن اتباع رسل الله وأنبيائه، وعن اتباع هدي القرآن.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ قص الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم قصة ملك بابل واسمه نمرود ليخفف عليه ألم الصدمة التي لقيها من قومه حين كذبوه وردوا دعوته وآذوه وصدوا عنه واستهزئوا به وتمردوا عليه ونصبوا له العداء، فذكر تعالى له صلى الله عليه وآله وسلم أن أباه إبراهيم عليه السلام لقي من قومه الذين أرسله الله إليهم مثل ما لقي.

وقد وفر الله تعالىٰ للملك نمروذ أسباب الملك فتجبر وتكبر، وادعىٰ الإلهية، فحاججه إبراهيم عليه السلام بالحجج القاهرة الدالة علىٰ عظمة الله وقدرته وعلمه وحكمته، وأبطل بحجته إلهية ما سواه، ولكن الملك استكبر وتعاظم ولم يستطع رد حجج إبراهيم القاهرة.

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ وذلك أنه كان عنده سجينان قتل واحداً منهما والآخر أطلق سراحه، فقال الملك: انظر يا إبراهيم فقد أمت واحداً وأحييت واحداً.

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ ولم يستطع جواباً ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ ألم تر إلىٰ الذي مر علىٰ قرية: وهي مدينة من مدن بني إسرائيل التي خربها بخت نصر، كان قد غزاها بخت نصر من العراق وقتل أهلها، وسبىٰ نساءهم وأطفالهم، وأخذهم إلىٰ العراق فمكثوا فيها سبعين سنة، وخرب بيوتهم، فقال هذا النبي -مستبعداً رجوعها علىٰ هيئتها الأولىٰ-: كيف يحيي الله هذه القرية بعد هذا الذي حصل؟ قال ذلك مستغرباً، كأن الله قد أوحىٰ إليه أنه سيعيدها.

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ نظر إليها وقد تخاوت سقوفها وتهدمت. ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ فقبض الله روح ذلك النبي بعدما نظر إلىٰ القرية التي تهدمت وتهاوت سقوفها وأجلي عنها أهلها إلىٰ العراق، وبعد مائة سنة أحياه الله وسأله: كم لبثت في رقدتك هذه؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم، قال الله: بل لبثت مائة سنة، وهذا طعامك وشرابك حسب عادته لم تغيره السنون.

﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ وكان لم يبق منه إلا العظم، ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ

وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٢٥٩﴾﴾ استيقن حينئذ بعدما رأى هذه الآيات، ورجع إلى القرية تلك فرآها قد رجعت على ما كانت عليه بعد هذه المدة، وجعل الله تعالى في هذه القصة آية دالة للناس على أن الله قادر على إحياء الموتى يوم القيامة.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ لم يكن إبراهيم ﷺ شاكاً في قدرة الله على إحياء الموتى، وإنما أراد إبراهيم عليه السلام أن يرى بعينه عجيب قدرة الله في إحياء الموتى ليزداد يقيناً إلى يقينه، وذلك أنه إذا اجتمعت رؤية العين مع تصديق القلب تمكن العلم في القلب وصار علماً ضرورياً فاستجاب الله تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام هذا الطلب.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ قال الله: فخذ يا إبراهيم من الطير واجمعهن إلى طرفك وتأملهن ثم اذبحهن وقطع لحمهن قطعاً قطعاً.

﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ بعد تقطيعها، ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ ترجع إليك بعد ذلك أحياء كما كانت من قبل، ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٢٦٠﴾﴾ واعلم يا إبراهيم أن الله قوي غالب لا يعجزه شيء، وحكيم لا يصدر عنه من الأفعال إلا ما تدعو إليه الحكمة.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ فالنفقة في سبيل الله ثوابها زائد على غيرها في تضاعف ثوابها أكثر من غيرها فتتضاعف إلى سبعمائة ضعف.

﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يزيد الله تعالى على ذلك لمن صدقت نيته وسريرته.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴿٢٦١﴾﴾ غني لا ينقصه العطاء، وعليم بمن يستحق الزيادة.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ الذين ينفقون ولا يتمنّنُون على من أعطوه، ولا يؤذونه بأن يقولوا: قد فعلنا لك وفعلنا وفعلنا.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ القول بالمعروف والتسامح مع من يطلبك ويسألك أفضل من إعطائك إياه صدقة ثم تؤذيه بعد ذلك.

﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ ليس محتاجاً للصدقة وإنما يختبر الناس بعضهم ببعض، وحليم لا يؤاخذ الناس بمنع الصدقة وبإتباعها المن والأذى.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ فإذا تصدق المرء فليسكت عنها ولا يتكلم بها؛ لأجل أن لا تبطل صدقته، ولا يؤذي المتصدق عليه بذكر ما أعطاه أو بالاستخفاف به وإهانته.

﴿كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ حذر الله تعالى المؤمنين من أن يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى، وأخبرهم بأن المتصدق الذي يتبع صدقته بالمن والأذى في حكم الله مثل المرائي بصدقته وإنفاق ماله أمام الناس وهو غير مؤمن بالله وباليوم الآخر، وهذا المرائي بصدقة ماله ليس له ثواب عند الله، وصفته مثل صفة من بذر حَبَّه على جبل مستوٍ عليه شيء من التراب ثم جاء المطر الغزير فأخذ التراب والبذر، فجاء الزارع فوجد الجبل أملس نظيفاً ليس عليه تراب ولا زرع، فذهب حبه وسعيه باطلاً، فهكذا المتصدق الذي يتبع صدقته بالمن والأذى لا يلحقه من صدقته إلا الحسرة والندامة.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني بنية صالحة ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ مثل بستان في مكان مرتفع ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ مطر كثير ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أخرجت أثمارها مضاعفة.

﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ إن لم يصبها مطر غزير أصابها مطر خفيف وتخرج ثمارها مع ذلك كما في البلدان الخصيبة.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ بمن ينفق بنية صالحة وغير صالحة، وسيجازي كلاً بعمله.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ كبر وعجز، ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ لا يقدرون على عمل شيء ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ لا يود أحد ذلك بل ينفر الناس عن مثل ذلك ويكرهونه أشد الكراهة، وغذا كان الناس ينفرون عن مثل هذه الحالة ويجزعون عند ذكرها فليعلموا أن حال المتصدق الذي يتبع صدقته بالمن والأذى كحال صاحب الجنة المثمرة التي احترقت في حال كبره وعجزه وله ذرية صغار لا يقدرون على العمل والتكسب لصغرهم وضعفهم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أنفقوا بعض ما كسبتم من طيبات الرزق، ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ وأنفقوا مما أخرجت لكم الأرض من الحبوب والثمار وقد حدد رسول الله ﷺ مقدار الواجب من الصدقة وذلك هو العشر من العثري ونصف العشر من المسنى.

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ لا تنفقوا الثمرة الفاسدة والرديئة وتتعمدوا إخراجها ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ أي: لو أن أحداً أعطاكم لم تأخذوه لرداءته إلا على وجه الحياء، وهو المراد بتغمضوا فيه، فهذا لا تتعمد إخراجه والتصدق به.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ ليس محتاجاً لصدقاتكم ونفقاتكم فأخرجوا لله من أموالكم ما تحبونه دون الخبيث.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ الشيطان يثبطكم عن الصدقة ويخوفكم الفقر فلا تطيعوه، ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ بالأعمال القبيحة.

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ والله تعالى يدعوكم إلى الإنفاق ويعدكم عليه بالمغفرة وبالبركة في أموالكم وبأن يخلف عليكم بأضعاف مضاعفة، ويتفضل عليكم بمواهب الإحسان في أموالكم وأولادكم وأعماركم

وفيما يصلح دينكم ودنياكم، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴿٢٦٨﴾﴾ ذو الملك الواسع والفضل العظيم، الذي يعطي ولا ينقصه الإعطاء، وهو عالم بمن يستحق أن يعطيه.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴿٢٦٩﴾﴾ يعطي الله سبحانه المعرفة والعلم أولياءه الذين استجابوا لدعوته واتبعوا رسله واتقوه وسمعوا له وأطاعوا فهؤلاء يعطيهم الله تنويراً في قلوبهم يهتدون به إلى مراشدهم ويميزون به بين ما يحسن وبين ما يقبح وبين ما يأتون وما يذرون من أعمال دينهم ودنياهم، ومن حظي من الله بهذا العطاء فقد فاز بالخير الكثير وظفر بأسباب السعادة الدنيوية والدينية، إلا أنه لا يعرف هذا العطاء وما يترتب عليه من الخير الكثير والفوز العظيم وسعادة الدنيا والآخرة إلا أهل العقول الزاكية التي لم تدنسها الأهواء والشهوات ولم تفتنها زينة الحياة الدنيا.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ أي: نفقة أنفقتموها صغيرة أم كبيرة أو نذر فالله مجازيكم عليها، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴿٢٧٠﴾﴾ يوم القيامة فلا يجدون يوم القيامة من يدفع عنهم عذاب الله.

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ تصدقوا أيها المؤمنون كيفما شئتم سراً أو جهراً فإنها مقبولة عند الله ولكم أجركم وثوابكم، ولكن صدقة السر أفضل.

﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ بالصدقة، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴿٢٧١﴾﴾ يثيبكم عليها يوم القيامة.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ يا محمد، فليس عليك أن يدخل الناس في الهدى ويستجيبوا لدعوتك ما عليك إلا أن تبلغ رسالة ربك، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ومن دخل في دينك واستجاب لدعوتك فإنما دخل بهداية الله وتوفيقه، وهداية الله وتوفيقه إنما تكون للمتواضعين لعظمة الله دون المتكبرين الظالمين.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ والله ليس محتاجاً لنفقاتكم وصدقاتكم، فأنتم المنتفعون بها وثوابها هو لكم وحدكم.

﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ ليرضى عنكم وتنتفعوا بثوابه، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴿٢٧٢﴾﴾ لا ينقص الله من ثوابكم شيئاً وسيوفيكم الله ثواب صدقاتكم ويضاعفها لكم.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كأنه قال: خصوا بالصدقة وتصدقوا على أولئك الفقراء الذين كانوا في زمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد حاصرهم المشركون في المدينة لا يستطيعون الخروج ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ لا يستطيعون السفر للتجارة وطلب الرزق.

﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ من زيادة عفتهم يظن الواحد أنهم أغنياء.

﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ قد أثر الفقر في صورهم، وقد ضعفت أبدانهم ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴿٢٧٣﴾﴾ أي: نفقة تنفقونها فإن الله يعلمها، وسيجازيكم عليها.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴿٢٧٤﴾﴾ مدح الله ناساً من المسلمين كانوا ينفقون أموالهم ليلاً ونهاراً، وسراً وعلانية، فأثنى الله عليهم فقال: (لهم أجرهم عند ربهم) ولا يلحقهم خوف ولا حزن، في سرور ونعيم دائم.

هذه الآيات التي مضت حث الله المسلمين فيها على الإنفاق، ونزلت آيات الإنفاق هذه في المدينة، وكان المسلمون فيها ينقسمون إلى قسمين: أهل المدينة وهم سكان البلاد الأصليون، وهم أهل التجارات والأموال والثراء.

والقسم الثاني: المهاجرون، وكانوا فقراء جميعاً لا يملكون شيئاً، فحث الله أهل الأموال على الإنفاق على فقراء المهاجرين، فقاموا به، وأنفقوا على الفقراء المهاجرين إليهم، وجهزوا الجيوش ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩].

ثم بعد ذكر الإنفاق قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ وهو الذي كلما قام خبطت به الجن، فهو مثل المصروع، وهذه علامتهم يوم القيامة يعرفون بها.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ وسبب ذلك أنهم يستحلون الربا، ويقولون: هو بيع حلال فأجاب الله عليهم فقال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ ليس الأمر كما تقولون فإن الله حرم الربا وأحل البيع.

﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴿٢٧٥﴾﴾ قال الله لأهل الربا: من جاءه موعظة من ربه فانتهى عن أخذ الربا والتعامل به، وتاب إلى الله ورجع إليه فله ما قد كسبه من الأموال عن طريق الربا فيما مضى لا يسأله الله تعالىٰ عنها ولا يحاسبه عليها، ولا يلزمه التصدق بها، والله يغفر له، وأما من عاد إلى أكل الربا والمعاملة به بعدما جاءه موعظة من ربه فهو من أهل النار خالداً فيها.

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ لا يبارك الله سبحانه وتعالىٰ في الربا ولو كانت أمواله تتضاعف، فالله يمحق بركته، وأما الصدقة فيربيها الله له، ويبارك فيها، ويزيد في حسناته، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴿٢٧٦﴾﴾ والله سبحانه لا يحب المصرين على الكفر المنغمسين في فعل المآثم من الربا والظلم والفساد في الأرض، فهؤلاء لا نصيب لهم في رحمة الله ولا في توفيقه وكريم ألطافه، وليس لهم عند الله إلا غضبه ولعنته وأليم عذابه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴿٢٧٧﴾﴾ وعد من الله للمؤمنين بتأمينهم من أفزاع يوم القيامة وأهوالها لا يلحقهم خوف ولا حزن، وهذا الوعد الحسن هو للذين صدقوا في إيمانهم بالله وبرسوله وبما أنزل الله على رسوله ﷺ، وحافظوا على ما أمرهم الله به من الأعمال الصالحة التي أوجبها

الله تعالىٰ عليهم وحافظوا علىٰ إقامة الصلوات المفروضات وعلىٰ أداء ما افترضه الله تعالىٰ عليهم من الزكاة.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴿٢٧٨﴾﴾ كان الناس في أول الإسلام يتعاملون بالربا فقال الله تعالىٰ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ عند الناس فلا تأخذوا إلا رؤوس أموالكم فقط، وذروا ما زاد عليها، فإذا كان قد أعطىٰ أحداً مائة دينار إلىٰ أجل علىٰ أن يردها وعشرين عليها فلا يأخذ إلا المائة، وهذا تسهيل من الله في توبة المرابين.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ وأبيتم إلا أخذ رأس مالكم مع الربا ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فاعلموا أن الله حرب عليكم مع رسوله ﷺ.

﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴿٢٧٩﴾﴾ فلا تأخذوا إلا رؤوس أموالكم إذا تبتم ورجعتم إلىٰ الله.

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ إذا كان المديون معسراً فأمهلوه إلىٰ أن يتيسر له القضاء، ولا تضيقوا عليه.

﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴿٢٨٠﴾﴾ إذا كان المديون فقيراً لم يستطع تسديد ما عليه فالمسامحة أفضل لكم عند الله، وسيعوضكم الله أكثر مما فات عليكم.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ يعني يوم القيامة، فهو يوم الحساب الدقيق علىٰ كل صغيرة وكبيرة.

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴿٢٨١﴾﴾ كل نفس ستلقىٰ جزاء كسبها ولا يظلم الله أحداً ولو مثقال ذرة فسيجازيه عليه ويحاسبه.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ هذه الآية تسمىٰ آية الدين، ذكر الله فيها أحكام تداين المسلمين فيما بينهم؛ وقد أمر الله المؤمنين بكتابة الدين وتحديد مدته وأجله؛ لأجل ألا تضيع أموالكم فاحفظوها بالكتابة والإشهاد.

﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ كان الكتبة في ذلك الوقت قليلاً، فأمر الله الكتبة أن يكتبوا، ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ الكاتب إذا دعي إلى كتابة الدين، ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ الذي عليه الدين يملل للكاتب وهو يكتب: عليَّ وفي ذمتي كذا..إلخ.

﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ ونهى الله تعالى من عليه الدين أن ينقص مما عليه شيئاً.

﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ الذي عليه الحق إن كان صغيراً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يتكلم فوليه الذي يملي عنه على الكاتب وليتحر الولي العدل فلا يزد ولا ينقص.

﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ على السند المكتوب، ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ وأمر الله بأن يشهد على السند رجلان من المؤمنين أو رجل واحد وامرأتان.

﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ إذا نسيت إحدى المرأتين فالثانية تذكرها.

﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ إذا استدعاهم أحد ليشهدوا عند الحاكم فعليهم الذهاب؛ لئلا تضيع الأموال.

﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ لا تتكاسلوا عن كتابة الدين والإشهاد عليه قليلاً كان الدين أم كثيراً.

﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أعدل ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ عندما يكون مكتوباً، فإذا كانت الشهادة غير مكتوبة فالدين معرض للضياع، ﴿وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أقرب إلى أن لا يحصل لكم ريبة ولا شك وذلك إذا كانت مكتوبة.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ إذا كانت نقداً وعدّاً، فلا داعي للكتابة.

﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ فعند البيع والشراء ينبغي الإشهاد عليه، وهذا في الأمور الكبيرة، وأما الصغيرة فلا يضر بدونها.

﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ فلا يجوز أن تلحق الضرر بالكاتب والشهيد، وكذلك الكاتب والشاهد لا يلحقا الضرر بالمشهود عليه والمكتوب له.

﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ مضاررة الكاتب والشهداء لغيرهم معصية عند الله تعالى، أو مضاررتهم، أي: إلحاق الضرر بهم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في العمل بتعاليمه، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿٢٨٢﴾﴾ يعلمنا الله كيف نتعامل في الدين فاعملوا بتعاليمه، وهو عالم بمصالحنا، وأنها التي ستحفظ المودة بيننا، وتمنع العداوة والشقاق.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ إذا تداينتم بدين وكنتم في سفر ولم تجدوا من يكتب بينكم فليضع المستدين رهناً عن الدين الذي عليه؛ لأجل أن يستوفي منه إن مطله المستدين.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ فإذا حصلت الثقة بين الطرفين فلا حرج في المداينة بدون كتابة وإشهاد أو رهن، وعلى المديون أن يقضي الدين ويؤديه إلى صاحبه، ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ في تأدية ما عليه من الدين.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴿٢٨٣﴾﴾ ثم إذا حصل تناكر فعلى الشهود أن يدفعوا ما عندهم من الشهادة ولا يحل لهم أن يخفوها، ومن كتمها عند الحاجة فإن الله سيؤاخذه على كتمها ويجازيه على سوء فعله.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملك السماوات والأرض لله.

﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ فهو عالم بكل شخص وما في نفسه؛ فليحذر فسيحاسبه الله على كل صغير وكبير.

﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٢٨٤﴾﴾ فيغفر الله تعالىٰ لأهل القلوب السلمية من النفاق ومن الخبث التي صدق فيها الإيمان والإخلاص ويعذب أهل القلوب التي تحمل النفاق والخبث ولا تؤمن بالله واليوم الآخر.

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ فقد آمنوا بالرسل كلهم، فلم يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض مثل اليهود حين آمنوا بموسىٰ عليه السلام وكفروا بعيسىٰ ومحمد عليهما السلام.

﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ السمع والطاعة لله تعالىٰ وامتثال أمره من أركان الإيمان، فلا بد أن ينضم ذلك مع الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله جميعاً وإلا لم يتم الإيمان.

﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴿٢٨٥﴾﴾ بعدما قالوا: سمعنا وأطعنا سألوا الله أن يغفر لهم ما سلف: من أعمالهم السيئة، ومن الشرك والظلم وغير ذلك، ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴿٢٨٥﴾﴾ اعترفوا بأنهم راجعون إلىٰ الله لحسابهم.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لا يكلف الله الإنسان إلا علىٰ قدر جهده ومقدرته، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من ثواب الأعمال الصالحة، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من جزاء الأعمال السيئة.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ هذا دعاء من النبي والذين آمنوا، ﴿إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ فالإنسان محل الخطأ والنسيان، وقد يعصي اللهَ المرءُ عن طريق الخطأ والنسيان وقد يحصل تقصير وغفلة عن طريق الخطأ لكن الله لا يؤاخذ بذلك.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ حمل الله اليهود أحمالاً ثقيلة وتكاليف شديدة في دينهم، فحين عبدوا العجل لم يقبل لهم توبة إلا بقتل أنفسهم، وفي دين الإسلام يكفي التوبة والاستغفار.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ من التكاليف، ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ العفو: هو عدم المؤاخذة بالذنب، والمغفرة: أن يمحو الله الذنب ويزيله من الوجود كأن لم يكن، والرحمة: هي عامة فيما يعطيه الله لعباده من خير الدنيا والآخرة.

﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أنت ناصرنا.

﴿فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ حكى الله إيمان الرسول والمؤمنين، وذكر رجوعهم إلى الله، وافتقارهم إليه، وتوسلهم إليه، ليحتذي المؤمنون حذوهم ويقتدوا بهم في ذلك.

تمت سورة البقرة

ويليها سورة آل عمران

❁❁❁❁❁

سورة آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الم۝١ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ۝٢﴾ افتتحت هذه السورة بحروف من حروف الهجاء، والسبب في ذلك أن المشركين كانوا يعرضون عن سماع القرآن فحين سمعوا هذه الحروف المقطعة، تعجبوا ودعاهم تعجبهم إلى الاستماع.

الإلهية لا تحق إلا لله وحده جل وعلا؛ لأنه هو وحد الذي يتصف بصفات الكمال، فهو الحي الذي يدبر شؤون السماوات والأرض وما بينهما من الخلائق.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ نزل القرآن متلبساً بالحق، والحق مصاحب له؛ فهو يتحدث عن آيات الله المبثوثة في السماوات والأرض وما فيها من بدائع الصنعة وما تحمل من آثار قدرة الله وعلمه وحكمته وما فيها من مظاهر رحمته بخلقه، وما اشتملت عليه من المصالح والمنافع، ويوجه العقول إلى النظر والتفكر في تلك الآيات، ثم إن العقل إذا نظر وتفكر فيما ذكره الله من آياته يجد الحق ظاهراً جلياً مكشوفاً فيذعن للإيمان بالله والتصديق بجلاله وعظمته ويخلص له العبادة ويترك ما سواه من المعبودات التي لا تنفع ولا تضر.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ القرآن مصدق للذي قبله من التوراة والإنجيل وليس مخالفاً لها.

﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ۝٣ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل أن ينزل القرآن، ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ أنزل الله التوراة والإنجيل هدىً للناس، ثم إن الله نزل القرآن مهيمناً على ما قبله؛ ليهتدي بأنواره العالمون.

﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ القرآن، وسمي فرقاناً لأنه يفرق بين الحق والباطل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ جزاءً وفاقاً على كفرهم بآيات الله، وتمردهم عن طاعة الله، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ۝٤﴾ فهو عزيز لا ينال، وهو منتقم من أعدائه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ۝٥﴾ فلا يفوته أحد، ولا يعجزه هارب فاعملوا ما شئتم أيها المشركون فإن الله يحصي عليكم جميع أعمالكم صغيرها وكبيرها وستلقون جزاءها.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ هو الذي يخلقكم في الأرحام من نطفة لا غيره مما تدعونه من الأصنام.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ۝٦﴾ فلماذا يعبدون الأصنام وغيرها ويتخذونها آلهة، وهو الخالق وحده، وهو المستحق للعبادة وحده؟ فهو العزيز والغالب، وأفعاله كلها حكمة، لا يخلق شيئاً عبثاً.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يا محمد، وهذا الذي أنزله ينقسم إلى قسمين:

﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ واضحات لا لبس فيها ولا غموض، ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ هن الأصل الذي يجب أن يعمل به الناس ويتبعونه.

﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ وهناك آيات في القرآن متشابهة تحتمل عدة معان بعضها حق وبعضها باطل، جعلها الله فتنة للناس واختباراً، فبعضهم يأخذ بالمعنى الحق، وبعضهم بالمعنى الباطل.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ المعنى المتشابه ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ لأجل أن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلوهم، ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ يفسرونه على حسب أهوائهم، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذا المعنى المتشابه، ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ يعلمونه كذلك، ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ يعلمون تأويله وكذلك يؤمنون به ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ المحكم والمتشابه.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ۝٧﴾ لا يفهم عن الله المراد إلا أهل العقول الزاكية.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ أولو الألباب يفهمون المعنى ولا زالوا يقولون ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ لأن المتشابه في القرآن فتنة واختبار من الله، فهم يدعون الله أن يوفقهم لفهم تفسيره، وألا يزيغوا عن الحق.

﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ تصحبهم رحمته لئلا يزيغوا عن اتباع الحق، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴿٨﴾﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴿٩﴾﴾ فهم يخافون من الله حين يجمع الناس ليوم الحساب، فهو ميعاد حق وصدق لا محالة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فلن تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، وهؤلاء هم مشركو قريش كانوا أصحاب أموال طائلة وتجارات، وأهل بنين وأولاد.

﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴿١٠﴾﴾ وسيعذبهم الله بذنوبهم. وحالة مشركي قريش مثل حالة آل فرعون والذين من قبلهم، وعاقبتهم ستكون مثل عاقبة أولئك، فكما أخذ الله أولئك بذنوبهم حين كذبوا رسله وأنبياءه كذلك هؤلاء، وهذا تحذير من الله للمشركين فقال: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴿١١﴾﴾ فقد عذبهم الله عذاب الاستئصال، فهو تحذير من الله لهم؛ ليعتبروا بهم؛ لئلا يحل بهم مثل ما حل بآل فرعون والذين من قبلهم.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴿١٢﴾﴾ أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول للكفار هذا القول، وحقاً فقد وقع بهم ذلك فغلبوا، وقهرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتغلب عليهم، ودخلوا في الإسلام وسيوف الإسلام على رؤوسهم، مغلوبين مقهورين مهزومين.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ يوم بدر، ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ وكان المسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً وليس معهم إلا خيل واحدة، وكان المشركون ذوي عدة وعتاد وقوة، وكانوا ألف مقاتل، وخيولهم كثيرة، وكانوا أهل قوة وأهل قتال، وكان المسلمون ضعافاً، وليسوا مستعدين للحرب، وإنما تفاجئوا بالحرب، فقال الله: قد كان لكم أيها المشركون

-لعلكم تعتبرون- آية حين ترون المسلمين وهم قلة قليلة ترونهم في أعينكم كثيراً، وحين حصل لكم خوف شديد من ملاقاة أولئك القلة.

﴿ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أيد الله المسلمين بنصره، وهذا نصر أن جعل المسلمين في أعين المشركين كثرة فانهزموا لذلك وولوا هاربين.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴿١٣﴾﴾ لذوي العقول الذين يعتبرون.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ جعل الله في قلوب الناس ميلاً ورغبة بطبيعتها إلى حب النساء والبنين.

﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلمة وقد حل محلها اليوم السيارات، ﴿وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ البقر والغنم والبساتين.

﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴿١٤﴾﴾ فعنده أفضل من هذا كله، عندما يرجع الناس إليه فلهم في جنات النعيم أفضل من هذا كله، لكن الإنسان يحب الشهوة العاجلة، فهو يريد أن يشبع رغبته عاجلاً ولا ينتظر إلى يوم القيامة.

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾ أفضل من هذا كله، ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴿١٥﴾﴾ فهذا أفضل من متاع الدنيا وزينتها وشهواتها ورغباتها، والله سبحانه تعالى يعطي الدنيا والآخرة جميعاً من أقبل إليه وإلى طاعته، فالدنيا تأتيه راغمة ولو لم يردها، فهي التي تطلبه وتأتيه بإذن الله وأمره قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء:١٣٤]، يعطيه الله خير الدنيا وثواب الآخرة، لا يفوته شيء من ثواب الآخرة وذلك إذا طلب الآخرة؛ لأن كليهما بيده: الدنيا والآخرة، يعطيهما من يشاء، وإذا منع الله الدنيا بعض الناس فذلك لحكمة ومصلحة لا يعلمها الإنسان، فبعض الناس لو أعطاه الله الدنيا لكانت شراً عليه ونكالاً، والله لا يريد ذلك.

فينبغي أن يرضى الإنسان بما قسم الله له، وأن العلم أنه لا يعطي ويمنع إلا لحكمة ومصلحة للإنسان لا يعلمها، فالله هو العليم الحكيم، وعليه أن يوطن نفسه على الصبر والرضا بما قسم الله له وأن يدفع الحسد والطمع عن نفسه، ولا ينظر إلى ما في أيدي الناس فيهلك نفسه في شيء ليس له، ويرضى بقضاء الله؛ ليجعل الله له غنى في قلبه، وينعم عليه ويجازيه، فالله يعطي أولئك المتقين الجنة، وهم: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ١٦﴾ كانوا يتوسلون إلى الله ليغفر ذنوبهم بالإيمان؛ فهو سبب لمغفرة الذنوب.

ووصفهم الله ثانية بأنهم: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ على قضاء الله، وعلى إقامة الواجبات، والانتهاء عن المحرمات، ويصبرون على ما ابتلاهم الله في أبدانهم وفي أنفسهم وفي أزواجهم وفي كل ما أصابهم من هموم الدنيا وغمومها، فهم صابرون وراضون بالقضاء.

﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ في إيمانهم وأعمالهم.

﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ المتعبدين لله والداعين له.

﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ جزءاً من أموالهم وهو الزكاة ولوازم النفقة على الأولاد والأبوين العاجزين، وعلى صلة الأرحام وإكرام الضيف.

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ١٧﴾ وقت السحور وهو قبيل صلاة الفجر، فهذه صفات المؤمنين الذين كانوا في زمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والمستغفرون بالأسحار بعد صلاة الليل كانوا يجلسون ويستغفرون إلى الفجر.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ شهد الله لنفسه بالوحدانية.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ كذلك شهدوا له وأنه لا رب غيره.

﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ وهم العلماء.

﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ قائماً بالحق والعدل، وهو قيوم السماء والأرض، يدبر أمر السماوات والأرض وما بينهما تدبيراً مبنياً على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ۝١٨﴾ لا إله غيره، وهو عزيز غالب، وأفعاله كلها مبنية على الحكمة والمصلحة.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ اليهود والنصارى، ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ بعدما جاءهم الحق من عند الله اختلفوا؛ فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ثم بعد ذلك تقاتلوا؛ حسداً منهم، واعتراضاً على الله في اختياره لأنبيائه.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ۝١٩﴾ فمن يكفر ويكذب بها فالله محاسبه ومعذبه كفره وتكذيبه.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ فإن جادلك اليهود ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ فقل لهم: إني قد استسلمت لله وانقدت له أنا ومن اتبعني، فلا يمكننا أن نتراجع عن ذلك بعد أن استوضحنا آيات الله واستقر في قلوبنا الإيمان.

﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ كذلك، قد استجابوا لله واستسلموا.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قل يا محمد لليهود والنصارى ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ وهم المشركون.

﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ أتسلمون؟ أما آن لكم أن تسلموا بعد أن استوضحتم الحق ودلائل الصدق.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ فإن دخلوا في الإسلام ودانوا بدينه فقد اهتدوا إلى الدين الحق، وإن أعرضوا وتولوا عن الدخول في الإسلام فدعهم في غيهم وضلالهم وما أوجب الله عليك يا محمد إلا أن تبلغهم رسالة ربك إليهم وتوضح لهم آياته البينات وتبين لهم طريق الحق، ولم يوجب عليك ربك أن تدخلهم في الإسلام.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ۝٢٠﴾ فهو سيجازيهم، فما عليك إلا أن تبلغهم الحجة، لئلا يأتي يوم القيامة فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير؛ لأن الله لا يعذب أحداً يوم القيامة إلا بعد أن تبلغه الحجة، فما دمت قد بلغتهم الحجة فقد أديت ما عليك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ المراد بهم اليهود، فقد كانت عادتهم وديدنهم قتل الأنبياء الذين يبعثهم الله إليهم، وأيضاً كان دينهم الكفر والتعنت والتمرد من عهد موسى عليه السلام إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وإلى آخر الدهر.

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ كانوا يقتلون الذي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ۝٢١﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ صحائف حسنات اليهود مطموسة لا يوجد فيها حسنة يعود عليهم نفعها في الدنيا أو في الآخرة بخلاف ما عليه بعض الكفار فقد يكون لهم حسنات تنفعهم في الدنيا لا في الآخرة كما جاء في الأثر: «إن القوم ليكونون كفاراً أو فجاراً فيتباذلون ويتواصلون فتنموا أموالهم وتزكوا ثمارهم وتغزر أنهارهم»، وهذا من الثواب العاجل.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ۝٢٢﴾ يتلفت اليهود يوم القيامة يميناً وشمالاً لعلهم يجدون من يدفع عنهم شيئاً من عذاب الله أو يشفع لهم عند الله فلا يجدون شافعاً ولا دافعاً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ المراد بهم اليهود ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ۝٢٣﴾ كانوا إذا دعاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليتحاكموا إلى كتاب الله (التوراة) يعرضون عنه، وسبب إعراضهم هو تهاونهم بمعاصي الله واغترارهم بما ادعوه على الله زوراً وكذباً من أنه لا يعذبهم على معاصيهم في جهنم إلا أياماً معدودة، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ ثم يخرجون من النار ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ۝٢٤﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴿٢٥﴾﴾ يعظم الله تعالى يوم القيامة ويهول ما يجري فيه من الحساب والجزاء على كل نفس حساباً حقاً وجزاءً عادلاً هنالك يلقى اليهود ما لم يكونوا يحتسبونه من جزاء كل صغيرة وكبيرة مما أحصاه الله عليهم بعلمه من كل ما جرى على قلوبهم من الخبث والمكر والنوايا السيئة والكبر والحسد والعداوة و...إلخ، وكل ما نطقت به ألسنتهم وكل ما عملته أيديهم، ورمزت به خائنة عيونهم، وكل خطوة نقلت فيما لا يرضاه ربهم.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ اعترضت اليهود على الله سبحانه وتعالى وقالت: لماذا جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم من العرب، ولماذا لم يأت منهم وهم معدن النبوة في زعمهم خاصة؟ فقال الله للنبي: قل يا محمد إن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء، وليس لليهود ولا لغيرهم الاعتراض على الله فيما يفعله.

﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ انتزعه من بني إسرائيل، ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ ترفعه في الدنيا، وتجعل له عزة وقيمة ووجاهة في الدنيا عند الله وعند خلقه.

﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ فإذا أراد الله أن يذل قوماً أذلهم وأهانهم وأخزاهم، مثل بني إسرائيل كانوا في عزة فأذلهم الله وأوهى سلطانهم وسلط عليهم جبابرة العراق برهة من الدهر، ثم سلط عليهم جبابرة النصارى، وقد سلط الله عليهم في الحرب العالمية الثانية (هتلر) قتلهم وأبادهم في أوروبا، فقد قتل نحواً من ستة ملايين يهودي، والآن قد جمعهم الله وجعل لهم دولة، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء:٨]، إذا عدتم إلى الفساد في الأرض عدنا عليكم فسلطنا عليكم من لا يرحمكم.

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ فهو بيدك تؤتيه من تشاء، ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٢٦﴾﴾ قادر على تحويل أمة أو شخص من حالة إلى حالة.

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ هذه من علامات قدرة الله تعالى، فيكون النهار طويلاً في أوقات، فلا تلبث إلا وقد دخل جزء من الليل في النهار فبعد أن كان خمس عشرة ساعة مثلاً قد صار عشر ساعات، وهذه آية من آيات قدرته.

﴿وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ كذلك.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ يخرج الدجاجة من البيضة ولم يكن بداخلها شيء.

﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ يخرج الولد وهو ميت من الحي.

وقد يكون هذا مثلاً ضربه الله، فقد يكون هناك شخص خبيث وفاجر ويخرج منه ولد صالح، وهكذا العكس.

﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ فهو الرازق سبحانه يعطي من يشاء من عباده عطاءً واسعاً.

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ نهى الله المؤمنين عن موالاة الكافرين؛ وذلك أنه كان في المدينة أناس كافرون، وكان بعض المؤمنين يناصحون الكافرين؛ فيطلعونهم على أسرار المؤمنين، ويوادونهم، ويحذرونهم إن علموا بمكروه عليهم، فنهى الله المؤمنين عن ذلك ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ ومن يناصح الكافرين ويطلعهم على أسرار المؤمنين فقد انقطعت صلته بالله فهو مع الكافرين، وليس له من الإيمان ولا من الله حظ ولا نصيب.

﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ إلا أن تخالقوهم لدفع شرورهم من غير مناصحة بالقلب، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: (كن في الفتنة كابن اللبون، لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب)، وذلك أن يظهر لهم المودة بلسانه دون قلبه من غير أن يطلعهم على أسرار المؤمنين أو يعينهم على باطلهم.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ فاحذروا الله فهو عالم بنياتكم وبما في صدوركم.

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ والمرجع الله وسيحاسبكم على أعمالكم فاحذروا أن تخالفوا ما أوصاكم به ربكم، أو أن تتجاوزوا حدوده.

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ فهو عالم بما في صدوركم فاحذروه وعذابه، وامتنعوا من موالاة الكافرين ومناصحتهم.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٢٩﴾﴾ فهذا تحذير من الله لينتبه الغافلون، وليحذروا أن يطلع الله على ما لا يرضاه من خفايا صدوركم أو أعمال جوارحكم.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ أخبر الله أنه عالم بما في ضمائركم وأنه سيجازيكم عليها في يوم، وذلك اليوم هو: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ يوم القيامة تتمنى كل نفس حين ترى أعمالها السيئة أن بينها وبين عملها أمداً بعيداً ومسافة بعيدة.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ كرر الله ذلك التحذير ليحذر الناس من موالاة الكافرين، وأنه تحذير في غاية الجد؛ لأن الكفار أعداء الله، ومن شأن المؤمن أن يقاطع أعداء ربه ولا يميل إليهم بمودة أو معاونة، ومن مال معهم بمودته ومعاونته فقد صار من جملتهم وكان عدواً لله مثلهم.

﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴿٣٠﴾﴾ لا يؤاخذ الناس ويجازيهم بسرعة، وإنما يمهلهم لعلهم يتوبون، ويناديهم إلى التوبة ويحثهم عليها.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿٣١﴾﴾ قل يا محمد للمسلمين الذين يناصحون الكافرين ويميلون إليهم بالمودة والمعاونة إن كنتم تحبون الله كما تدعون فاتبعوني فيما جئتكم به من عند الله؛ لأني المبلغ عن الله، فالذي يحب الله سيتبع أوامر الله جميعها، ومعنى: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ يغفر ذنوبكم ويثيبكم، ويظلكم في ظل رحمته.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴿٣٢﴾﴾ وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله فهم من أهل سخط الله وعذابه وليسوا بمؤمنين كما يدعون وإنما هم من جملة الكافرين الذين لا حظ لهم في ثواب الله ورحمته.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ۝﴾ يعني اختارهم لحمل دينه وتبليغه للناس، فهو يصطفي من الناس من أراد، وهو عالم بهم وعالم بمن هو أهل لأن يحمل الأمانة ولا يفرط فيها، ويبلغها الناس.

وآل إبراهيم: يعني إبراهيم والأنبياء من ذريته، وأنبياء بني إسرائيل هم من ذرية يعقوب عليه السلام، وأما إسماعيل فلم يأت نبي من ذريته إلا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فمحمد صلى الله عليه وآله وسلم من آل إبراهيم صلوات الله عليهم.

وآل عمران: وهم من ذرية إبراهيم عليه السلام، وأظن أنهم موسى وهارون والأنبياء من ذراريهم، وبين عمران أبي موسى وعمران أبي مريم حوالي ٨٠٠ سنة.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ۝ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ۝﴾ كان المشروع في بني إسرائيل أنه إذا ولد الولد الذكر ينذرون به للخدمة في بيت المقدس إن شاءوا دون الإناث، وامرأة عمران نذرت بما في بطنها وتكون خدمته خالصة لبيت الله فتفاجأت عند ولادتها بمولود أنثى.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ تأسفت وحزنت عندما كان المولود أنثى، واعتذرت إلى الله.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ الله عالم بما وضعت، يعني أن لهذا المولود الأنثى شأناً عظيماً عند الله، وإنما قالت ذلك[1] تأسفاً وتحزناً، ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ۝﴾ ومريم أنجبت عيسى، فهؤلاء هم آل عمران الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ۝﴾ [آل عمران].

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ تقبل الله ذلك المولود الأنثى، وأحاطها بعنايته وحفظه، وأحفها بلطفه وتوفيقه.

---

(١) – أي: قولها السابق: ﴿إني وضعتها أنثى﴾، وقولها الآتي: ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾.

﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّاءُ﴾ وجعل تعالى كفالتها إلى نبيه زكرياء يكفلها ويقوم عليها ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّاءُ الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴿٣٧﴾﴾ وأكرم الله مريم ورفعها في حال كفالة كرياء لها؛ لتكون محط أنظار الناس؛ وليكون ذلك تمهيداً لما يراد لها من الكرامة العظيمة بولادة نبي الله عيسى عليه السلام من غير أب.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّاءُ رَبَّهُ﴾ وهو نبي من أنبياء الله، وقد كان كبيراً في السن وعندما رأى مريم وتلك الذرية الطاهرة، عندها تحركت شهوة الولد والإنجاب في نفسه، واشتدت رغبته في ذرية صالحة، فدعا الله سبحانه وتعالى أن يرزقه ولداً صالحاً، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴿٣٨﴾﴾.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴿٣٩﴾﴾ استجاب الله تعالى دعاء نبيه زكريا عليه السلام وأرسل الملائكة الكرام إليه عليه السلام يبشرونه بولد اسمه يحيى له صفات عليا يتصف بها وهي:

١ - أنه سيؤمن بعيسى عليه السلام حين يبعثه الله نبياً ويتبعه.
٢ - أنه سيكون رفيع المنزلة في بني إسرائيل ذا قدر سام.
٣ - حصوراً لا يتزوج النساء لانقطاعه إلى عبادة الله تعالى.
٤ - وسيكون نبياً، والنبوة هي أعلى منازل الكرامة وذروة الشرف ونهاية الرفعة.
٥ - وسيكون واحداً من جملة الصالحين.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ قال زكريا عليه السلام حين بشرته الملائكة بالولد المبارك: كيف يولد لي ولد وقد بلغت منتهى الكبر والعجز وزوجتي قد طعنت في السن ويئست فلا يتأتى منها الولد، وكان استغراب زكريا عليه السلام هو في حصول الولد من أبوين هما على تلك الحال فكأنه طلب الكيفية هل سيحول الله الأبوين إلى حالة الفتوة والقوة أم أنه تعالى سيرزقهما الولد وهما على تلك الحال.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ۝٤٠﴾ فهو على كل شيء قدير، فلا تستغرب يا زكريا على قدرة الله شيئاً.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً﴾ أعرف بها متى سيحصل الحمل.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ سيصيبك الخرس فلا تستطيع تكليم الناس إلا بالإشارة.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ۝٤١﴾ أما ذكر الله فلا نخرس لسانك عنه؛ فلا تزال تسبح وتذكر الله وتصلي بالعشي والإبكار.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ۝٤٢﴾ بشرت الملائكة مريم بأن الله قد اختارها على نساء العالمين، يعني أنها أفضل النساء، وفي الأثر: كمل من النساء أربع فقط: مريم، وآسية امرأة فرعون، وخديجة، وفاطمة.

﴿يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أطيعي الله، واخضعي له ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ۝٤٣﴾ أمرها الله أن تتعبد له بالصلاة.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ هذه القصص قصة مريم وزكريا وطلبه للولد أخبره الله بأن ذلك من أنباء الغيب أوحيناه إليك، وهذه علامة على صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه لم يلتق بأحد من أهل الكتاب يخبره بهذه الأخبار.

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ لم تكن حاصلاً بينهم وقت خلافهم أيهم يأخذ مريم في كفالته حين تساهموا وخرجت مريم في قلم زكريا، أي في سهمه.

والأقلام هي القرعة، كانوا يأخذون أعواداً ويكتبون على كل عود اسم واحد منهم، ويلقون بها بين الماء، والعود الذي يطفو أولاً يكون السهم له.

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ۝٤٤﴾ ويتنازعون فيما بينهم أيهم يكفلها.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ بشر الله تعالىٰ مريم عليها السلام بمولود لها يكون له شأن عظيم اسمه عيسىٰ بن مريم، وأنه سيولد هذا الولد بكلمة من الله يخلقه في بطنها من غير أب.

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا﴾ ذا شرف في الدنيا وسيادة.

﴿وَالْآخِرَةِ﴾ كذلك له شرف عظيم في الآخرة، ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴿٤٥﴾﴾ إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴿٤٦﴾﴾ بأن ولدها سيكلم الناس بعد ولادته وهو في سن الرضاعة، وسيدعوهم إلىٰ الإيمان ودين الحق حين يبلغ أشده وتكتمل قوته، يبشر الله تعالىٰ بذلك مريم عليها السلام قبل أن تحمل بعيسىٰ لكيلا تصطدم وتفاجأ بالحبل من غير أب.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ استنكرت واستغربت أن يولد لها مولود من غير أب.

﴿قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴿٤٧﴾﴾ فإذا أراد شيئاً كان، وقد أراد الله أن يخلقه من غير أب ليكون آية للناس، وقد اقتنعت، ورضيت، وهي عالمة بما سيحصل لها من الأذىٰ من بني إسرائيل.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ جاءهم بآية من الله سبحانه وتعالىٰ تدل علىٰ نبوته، وهذه الآية هي: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ أشفيهم ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وقد كانت اليهود في ذلك العصر قد برعت في الطب وتمكنت فيه، فأتاهم بآية من ذلك الجنس؛ ليعرفوا أن ذلك من الله ولا قدرة للخلق علىٰ الإتيان به؛ لأنهم كانوا علماء بالطب وعالمين أنه لا مدخل للطب في إحياء الموتىٰ وإبراء الأكمه والأبرص.

﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ وكان عليه السلام يخبر بني إسرائيل بما يأكلون في بيوتهم وما يخبئونه ويدخرونه من المال.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴿٤٩﴾﴾ وقال عيسى عليه السلام: إني قد أتيتكم بآيات قاهرة وحجج واضحة تدل على صدق دعوتي.

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ ولم آتكم بشيء مخالف لما في التوراة بل بما يصدقها، ولم أت بما يخالف ما جاء به موسى عليه السلام.

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وجئتكم بالتخفيف وكان الله قد حرم أشياء على بني إسرائيل تشديداً عليهم فأحل لهم عيسى بعض ذلك.

﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ ولا تعبدوا غيره، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴿٥١﴾﴾ هذا هو الدين الحق من عند الله، فاتقوا الله ولا تتعرضوا لسخطه، وأطيعوني فيما جئتكم به من الحق والهدى فلا عذر لكم عند الله فقد جئتكم بالدليل الواضح والبرهان القاطع.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ فلما رأى عيسى عليه السلام إصرار بني إسرائيل على الكفر، وشدة التمرد على الله والتكذيب بدعوته ونبوته وإصرارهم على اتهامه وأمه بالزنا ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴿٥٣﴾﴾ بعدما رأى منهم ما رأى من الإصرار على التكذيب والكفر دعا المؤمنين به الذين استجابوا لدعوته وآمنوا برسالته ونبوته إلى الابتعاد عن بني إسرائيل والذهاب معه إلى الله في مكان بعيد عنهم، يعبدون الله فيه، فاستجاب لذلك الحواريون وهم قلة قليلة قيل إنهم اثنا عشر رجلاً فقالوا: نحن أنصار الله قد آمنا به وبرسوله واتبعناه فاشهد لنا يا نبي الله عند ربك أننا مسلمون لله مؤمنون به وبرسوله، ثم توجهوا إلى الله بالدعاء فقالوا: ربنا آمنا بما أنزلت على نبيك عيسى، واتبعنا رسولك

عيسى فيما جاءنا به من عندك فاكتبنا من الشاهدين الذين يشهدون لأنبيائك بتبليغ الرسالات، ويشهدون على قومهم بالتكذيب لرسلك وآياتك.

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ۝٥٤﴾ حين أحس عيسى من اليهود الكفر وأراد تركهم فعملوا الحيل لقتله، ولكن مكر الله كان فوق مكرهم، وذلك بأن ألقى الله شبه عيسى عليه السلام على رجل منهم فقتلوه ظناً منهم أنه عيسى عليه السلام، قال الله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧].

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أخبر الله تعالى نبيه عيسى عليه السلام بما يريد به من الكرامة فقال له: إني سآخذ روحك وأرفعها إلى منازل الكرامة، وسأطهرك من قذر بني إسرائيل ونجاستهم وكفرهم وأخفي جسدك عنهم فلا يرونه ولا يلمسونه.

والمراد بـ﴿مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني لا يتمكنون منك ولا يصلون إليك بسوء، بل ولا يلمسون جسدك حياً ولا ميتاً؛ تكريماً لك من رجسهم وقذارتهم.

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وبشر الله تعالى نبيه عيسى بأنه سيجعل أتباعه من النصارى متسلطين على اليهود بقوة الدولة والسلطان يستذلونهم ويمتهنونهم، ومتغلبين عليهم يقتلونهم إلى يوم القيامة، ويجعلهم فوقهم يحكمونهم، ويتحكمون فيهم؛ لقوة سلطانهم.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ جميعاً اليهود والنصارى ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ۝٥٥﴾ يحكم الله بينهم بالحكم الحق يوم القيامة، فيدخل أهل الباطل في دركات الجحيم، ويدخل أهل الحق في جنات النعيم.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا حكم الله يوم القيامة، ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ۝٥٦ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ۝٥٧﴾ فهذا هو حكم الله.

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴿٥٨﴾﴾ قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: ذلك الذي قصصناه عليك من قصة عيسى عليه السلام واليهود وما حصل بينهم -أي الذي نخبرك به- هو من آيات الله والذكر المحكم الصادق.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴿٥٩﴾﴾ فعيسى عندما خلقه الله من غير أب مثل آدم خلقه الله من غير أب ولا أم، فليس ذلك بغريب من قدرة الله.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا هو القول الحق، وهو من الله، فلا تلتفت لما تقوله النصارى في عيسى؛ لأن نصارى نجران كانوا يأتون إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويجادلونه بغير الحق، ويقولون إن عيسى ابن الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴿٦٠﴾﴾ فلا تكن من أهل الشك في عيسى بسبب ما سمعته من قول النصارى فإن الحق هو فيما تلوناه عليك.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ فإن عادت إليك النصارى ليجادلونك ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ من بعد أن أخبرناك بالخبر الحق والصدق، والحجج الواضحة النيرة، ولم يقبلوا ذلك؛ ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴿٦١﴾﴾ ثم إنهم عادوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليجادلوه، فدعاهم للمباهلة وتواعدوا لليوم الثاني للمباهلة، فتشاورت النصارى فيما بينهم بعدما طلبهم فقالوا: إن أتانا بأصحابه وبجيشه فليس بنبي، وإن لم يأت إلا بأهل بيته وخاصته فاحذروا ولا تباهلوه فهو نبي، فلما جاء اليوم الثاني خرج إليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فهربوا من المباهلة عندما جاءهم بخاصته وأهل بيته خوفاً على أنفسهم من الهلاك، ودعوه للمصالحة، وطلبوا منه أن يكتب بينهم عهداً، ويطلب ما أراد من الصلح.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ هذا الذي قصه الله تعالىٰ من شأن مريم وعيسىٰ، وأنه ولدها، وليس ابن الله، وأنه كمثل آدم، وأنه رسول الله هو القصص الحق، وأما ما تزعمه النصارىٰ من أن عيسىٰ ابن الله و..إلخ فهو باطل تعالىٰ الله عنه.

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ لا رب سواه وليس عيسىٰ إلا عبد لله ورسول أرسله إلىٰ بني إسرائيل خلقه بقدرته من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿٦٢﴾﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأبوا اتباع الحق والصدق ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴿٦٣﴾﴾ وسيجازيهم علىٰ تمردهم وإفسادهم في الأرض.

﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أمر الله تعالىٰ النبي ﷺ أن يدعو اليهود والنصارىٰ: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ يعني كلمة تكون وسطاً، يعني حقاً مجمعاً عليه بيننا وبينكم، نتبعها نحن وأنتم.

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ فهم معترفون بالله خالق الكون، ولكنهم يهربون من عبادته وحده وجميع أهل الكتاب اليهود والنصارىٰ وكذا المسلمون معترفون بربوبية الله وإلهيته.

﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فنحن جميعاً نكون بمنزلة واحدة، لا نعبد إلا الله، لا يعبد بعضنا البعض الآخر، ولا نعدل عن عبادة الله وحده إلىٰ عبادة غيره.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ ولم يسمعوا ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴿٦٤﴾﴾ اشهدوا بأنا مسلمون لله ومستسلمون ومنقادون له، لا نعبد غيره، ولا نشرك معه في العبادة أحداً غيره.

﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ لماذا تجادلون في إبراهيم.

﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ فكيف تقولون: إن إبراهيم صلى الله عليه وآله كان يهودياً، والنصارى يقولون: إنه كان نصرانياً ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴿٦٥﴾﴾ تفهمون وتعقلون أنه لا يصح أن يكون يهودياً أو نصرانياً ولم توجد بعدُ اليهودية والنصرانية فالديانة اليهودية إنما وجدت في عهد موسى وهارون، والديانة النصرانية إنما وجدت في عهد عيسى عليه السلام.

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أنتم هؤلاء جادلتم في شيء أنتم به عالمون فأنصفناكم بالحجاج ورددنا حجتكم بالحجة القاهرة؛ ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ لماذا تحاجون في إبراهيم وليس لكم بملته علم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴿٦٦﴾﴾.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ فلم يكن إبراهيم على الديانة اليهودية، ولا على النصرانية ولكن كان مائلاً عن الديانات الباطلة وتابعاً لدين الحق مسلماً لله وجهه ولم يكن من المشركين.

حنيفاً يعني مائلاً عن الشرك، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿٦٧﴾﴾.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ كان اليهود والنصارى يقولون: نحن أولى بإبراهيم؛ لأنا على دينه وهو على ديننا، فرد الله عليهم بأن أولى الناس به الذين اتبعوه وهذا النبي، يعني محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو أولى به ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ به فهم أولى به منكم أيها اليهود والنصارى، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴿٦٨﴾﴾ ناصرهم ومؤيدهم.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ كان أهل الكتاب حريصين على أن يضلوا المؤمنين، ويخرجوهم ويصدوهم عن دينهم إلى دين اليهود والنصارى فما نجحوا ولا أفلحوا، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴿٦٩﴾﴾ ولا يسعون في الواقع إلا في هلاك أنفسهم، وهم لا يعلمون.

﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴿٧٠﴾﴾ كان من المفروض على أهل الكتاب أن يؤمنوا بآيات الله؛ لأن دلالة صدق النبي ﷺ موجودة عندهم في كتبهم، فكيف يكفرون وهم يعلمون أن ما جاء به حق وصدق؟!

﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ كان اليهود يخلطون الحق بالباطل؛ لأجل أن يضيعوا الحق الذي عرفوه في التوراة، ويلبسوا على الناس؛ لئلا يهتدوا إلى الدين الحق.

﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴿٧١﴾﴾ يكتمون الحق وهو موجود عندهم في كتبهم، يعني محمداً وأوصافه، وما جاء به وتصديق دعوته، مع ما هم عليه من العلم بصدقه وصدق دعوته وكل ذلك حسداً وبغياً وتمرداً على الله.

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ -من اليهود- قالوا: سوف نعمل للمسلمين حيلة -وذلك لأجل أن يصدوا الناس عن الإسلام- كانوا يقولون لبعضهم البعض: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ﴾ اتفقوا فيما بينهم أن يذهب ناس منهم إلى النبي ﷺ أول اليوم فيؤمنوا به، ثم إذا كان آخر اليوم يقولون: تبين لنا أنه ليس الدين الحق، وأننا كنا نظن أنه الدين الحق، ثم تبين لنا أنه ليس به، وذلك لأجل أن ينفروا الناس عن الإسلام، ويبعدوهم عنه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴿٧٢﴾﴾ لأجل أن يتراجع الناس عن الإسلام، ويخرجوا منه.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ لا تعترفوا لأحد بحق إلا لمن اتبع دينكم فقط بأنه الحق وغيره الباطل.

﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ الهدى هو ما جاء به محمد ﷺ من عند الله، وليس على ما قالت اليهود ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ فلا تعترفوا لأحد بأنه قد أوتي مثل ما أوتيتم بأن تقولوا للمسلمين بأنه قد جاءكم الحق مثل ما قد جاءنا.

﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ وذلك إذا اعترفتم لهم بالحق فسوف يجادلونكم عند ربكم يوم القيامة بأنكم قد اعترفتم لهم وذلك لأجل إذا كان يوم القيامة لم يكن للمسلمين عليكم طريق ولا سبيل، ولا حجة يحتجون بها عليكم عند الله- يلقنون ذلك أتباعهم مثلما يلقن الرجل صاحبه إذا كان عليه خصومة كيف يفعل عند القاضي بأن يسكت؛ لأجل أن لا يفتح للخصم طريقاً عند القاضي.

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فلا تعترضوا على الله في اختياره أيها اليهود، وليس لكم أن تتحكموا عليه في اختياره وفضله.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴿٧٣﴾﴾ له أن يختار له نبياً من غيركم يا معشر اليهود، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴿٧٤﴾﴾ فلا يحق لكم الاعتراض على ما يريد ولا ينبغي لعظمة الله وجلاله وكبريائه وربوبيته.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ قال الله: إن بعض اليهود أصحاب أمانة إذا ائتمنته فلن يخونك، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ وبعضهم أهل خيانة حتى في الشيء اليسير فسيخونك فيه، ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ لم تفارقه وأما إذا تركته فسيخونك ويأخذه.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ أي: أنهم اعتقدوا من قبل أنفسهم أنه ليس عليهم في المسلمين، وفي قريش ومن ليس على دينهم حرج إذا أخذوا منه شيئاً، وأن أموالهم حلال لهم، وليس الحرام إلا أن يأخذ يهودي على يهودي فقط، وأما أموال غيرهم فهي حلال لهم.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴿٧٥﴾﴾ يكذبون على الله بأنه قال ليس عليهم حرج ولا مؤاخذة إذا أخذوا على الأميين شيئاً، وهم عالمون أنهم يكذبون على الله، وأنه سيؤاخذهم على ذلك.

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴿٧٦﴾﴾ قال الله: ليس القول ما قلتم بأنكم أهل الحق وغيركم أهل الباطل، بل من أوفى بعهده مع الله واتقاه فإن الله سيحبه، ولو لم يكن من اليهود.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٧٧﴾﴾ الذين ينقضون عهد الله ويحلفون الأيمان الفاجرة؛ لأجل حاجة تافهة من الدنيا- توعدهم الله بأن ليس لهم نصيب من رحمة الله يوم القيامة، ولا حظ لهم في ثوابه، وهو ساخط عليهم، فلا يكلمهم، ولا ينظر إليهم، وهذا على سبيل الكناية عن شدة غضب الله عليهم، ألا ترى إذا غضب أحد على شخص فإنه لا ينظر إليه ولا يكلمه- عبَّر الله عن غضبه بما نفهمه ونشاهده فيما بين المخلوقين.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ بل يحكم عليهم بأنهم فجار، ويدخلهم النار.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ يعني من اليهود ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴿٧٨﴾﴾ يقرؤون لهم على أنها التوراة، وليست هي، وإنما اختلقوه من عند أنفسهم، فيرتلونه على أنه من التوراة كذباً على الله، وهم مع ذلك يعلمون أنهم يكذبون عليه، ومتأكدون من ذلك.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لا ينبغي لأحد من البشر أن يبعثه الله نبياً، ثم بعد ذلك يأمرهم هذا النبي بعبادته، وذلك لأن النصارى كانت تدعي أن عيسى يأمرهم بعبادته، ثم رد الله عليهم بهذا.

﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ يأمرهم بعبادة الله والانقطاع إليه، واختصاصه بالخضوع، وذلك أن العابد المنقطع إلى الله يسمى ربانياً.

﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ۝٧٩﴾ بسبب أنكم من أهل العلم بالكتاب وأهل دراسته، فالمفروض أن تكونوا متعبدين لله وخاضعين له، ومطيعين ومنقادين له، ولا تتكبروا عليه بادعائكم الربوبية.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ لا يأمركم الله ولا أنبياؤه بعبادة الملائكة والأنبياء، ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ۝٨٠﴾ كيف يأمركم بالكفر بعد إذ كنتم مسلمين- استنكاراً من الله عليهم كيف يصدر من الله العلي الكبير أن يأمر بعبادة غيره ويأمرهم بالشرك به والكفر بربوبيته ووحدانيته.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ أخذ الله العهود والمواثيق على الأنبياء: موسى وعيسى وغيرهم- أنه متى جاءكم النبي محمد ﷺ أن تصدقوا به وتؤمنوا به، وعاهدوا الله على ذلك.

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ قال لهم: هل أنتم راضون وحاملون عهدي؟ قالوا: رضينا، فقال الله لهم: ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ۝٨١﴾ اشهدوا على أنفسكم بهذا العهد، ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ۝٨٢﴾ فمن نقض العهد، ولم يوف به- فهو من المتمردين الخارجين عن حدود الله.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ هل تريدون ديناً أيها اليهود والنصارى غير دين الله؟ فقد أنزل لهم القرآن مصدقاً لما بين يديه؛ فهل يريدون ديناً غير هذا الدين الذي هو دين الله؟

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ۝٨٣﴾ إن دين الله أحق بالاتباع من دين غيره؛ لأنه تعالى قد انقاد له واستسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً، وإليه سبحانه مصير الخلائق للحساب

والجزاء، فهو الذي تحق له العبادة دون غيره.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴿٨٤﴾﴾ أي: ونحن لله منقادون مستسلمون، لن نتأبى، ولن ننفر، ولن نرفض، بل ننقاد لله ونستسلم له، ونطيعه فيما أمرنا به ونهانا، وهذا هو الإيمان الصحيح.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴿٨٥﴾﴾ الذي يريد غير الإسلام ديناً فليس مقبولاً عند الله، بل هو من الخاسرين عند الله يوم القيامة.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿٨٦﴾﴾ يعني قد انقطع الأمل في رجوعهم إلى الإسلام، وقد دخلوا في الإسلام وآمنوا، وشهدوا أن الرسول حق، ورأوا حجج الله وسمعوها، ثم يكفرون بعد ذلك، فلا يرجى رجوع من كان كذلك إلى الهدى ودين الحق.

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴿٨٧﴾﴾ لأنهم كفروا عن بصيرة، بعدما سمعوا حجج الله واستيقنوها وعرفوها، ثم خرجوا بعد ذلك.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴿٨٨﴾﴾ ولن يمهلهم الله حين يأتيهم العذاب، ويطلبون التوبة والرجوع فلا يجابون فلا تطمعوا أيها المؤمنون في رجوعهم إلى الدين الحق.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿٨٩﴾﴾ هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم، ثم رجعوا عن كفرهم سيتوب الله عليهم، فباب التوبة مفتوح لمن تاب وأصلح ما أفسد في كفره وردته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ آمنوا ثم كفروا، ثم ازدادوا كفراً؛ فهؤلاء تستبعد منهم التوبة، وسيموتون على الكفر، ولا تنفعهم التوبة عند الموت، وفي يوم القيامة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ من مات وهو كافر فقد تورط، ولن ينفعه الفدية ولو بملء الأرض ذهباً مع أن الكافر لا يملك يوم القيامة شيئاً كيوم ولدته أمه.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ لا أحد ينصرهم يوم القيامة، ويدفع عنهم عذاب الله، فلا وسيلة ولا شفاعة.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال الله للمسلمين لن تفعلوا البر الذي أمر الله به إلا إذا أنفقتم مما تحبونه، أما إذا لم ينفق المرء إلا الشيء الرديء والدنيء- فلن ينال ثواب الصدقة.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ ولو لم يكن إلا قليلاً، فسيجازيكم عليه، ولو بشق تمرة.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ قال لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إن الله قد حرم عليكم كثيراً مما كان حلالاً لبني إسرائيل- عقوبة لكم وجزاءً على معاصيكم، فردوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا: كلا إن الذي حُرِّم علينا في التوراة كان محرماً علينا من قبل، ولم يجازنا، ولم يعاقبنا بتحريم شيء علينا، فقال الله لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ هاتوا التوراة وانظروا فستروا فيها أن الله حرم عليكم بعض ما كان حلالاً لبني إسرائيل عقاباً وجزاءً.

استدل عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم متمردون على الله حتى في عهد موسى، فحرم الله عليهم بعض الطيبات في التوراة جزاءً على تمردهم.

﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

قد افتريتم أيها اليهود على الله الكذب ونسبتم إليه غير ما أنزله عليكم في التوراة وأنتم تعلمون، فقد ارتكبتم بفعلتكم هذه ظلماً عظيماً.

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أنكم تكذبون عليه، وتفترون عليه، وأنه عاقبكم بأن حرم عليكم بعض ما كان حلالاً لبني إسرائيل.

﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿٩٥﴾﴾ ثم إن الله تعالى دعا أهل الكتاب إلى اتباع ملة نبيه إبراهيم عليه السلام فهي أحق بالاتباع إذ ليس فيها شرك وما كان من المشركين.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴿٩٦﴾﴾ يعني أول مسجد يتوجه إليه بالعبادة هو في مكة، وهو أول بيت وضع على وجه الأرض، وهو مبارك؛ ففيه بركة في الدين والدنيا، وهو محل هدى للعالمين، فبعث الله فيه نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالهدى ودين الحق.

﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال فيه آيات واضحات، وذلك: مقام إبراهيم حيث وضع رجله على حجر وهو يبني الكعبة فساخت في الحجر فبقي أثرها في الحجر على مقاس رجله، ولا زالت الحجر وأثر قدم إبراهيم فيها إلى يوم الناس هذا.

﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ جعل الله الحرم آمناً حتى للمشركين، ولو كان قاتلاً فهو فيه آمن حتى يخرج.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أوجب الله على الناس أن يحج المستطيع؛ لينال بركة البيت، ويرى آيات الله، ويذكر العهود السابقة، ويرى آثار الأنبياء والصالحين، ولترتبط العلاقة بهم وتتقوى فيه روابط الإسلام.

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴿٩٧﴾﴾ من أبى أن يحج فالله غني عنه، ولن يضر إلا نفسه.

﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ۝٩٨﴾ كيف تكفرون بآيات الله وهو يشاهد أعمالكم؟ وأنتم من أهل العلم والمعرفة، وأنه سيجازيكم على أعمالكم، ولكنهم كانوا أهل كفر وعناد شديد وتمرد فلم يستجيبوا لدعوة ربهم.

كان هناك رجل أسلم يوم أحد اسمه المخيرق، وكان يوم السبت، فلبس آلة الحرب وخرج فقال: يا معشر اليهود لا سبت لكم، قد علمتم أن هذا النبي هو الذي أخذ الله علينا العهد بالإيمان به، ثم أشهدهم أنه إذا أصيب فماله لمحمد؛ فخرج وقتل، وكان ذلك يوم أحد، وكان للجنة، ولم يكن قد سجد لله ولا سجدة واحدة.

﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ۝٩٩﴾ لم يكف أهل الكتاب أن يكفروا فقط، بل كانوا يصدون الناس عن الذهاب إلى الإيمان، ويردونهم عن الدخول في الإسلام ويتهمون النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه كذاب، وأنه ساحر، ويقولون: نحن أهل العلم والمعرفة، وأنه لو كان نبياً لكنا قد آمنا به وصدقناه، فنحن عارفون بالأنبياء، وعالمون بهم؛ لئلا يؤمن الناس به، يفعلون ذلك وهم على علم بصدقه ونبوته يعرفونه كما يعرفون أبناءهم والله رقيب عليهم قد أحصى أعمالهم بعلمه وسيلقون جزاءها جزاءً موفوراً.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ۝١٠٠﴾ هذا تحذير للمؤمنين الذين آمنوا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم حذرهم الله من أن يستزلهم اليهود عن دينهم بحيلهم ومكرهم.

كثرت الفتن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من اليهود ومن المنافقين، وكانوا يمكرون بالمؤمنين ويستزلونهم عن دينهم، ويريدون أن يخرجوهم منه، حتى عظمت الفتنة وكبرت، فقال الله للمؤمنين: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ وأسباب

الهدىٰ متوفرة بين أظهركم؟ فالنبي موجود، وآيات الله تتلىٰ عليكم، والقرآن ينزل عليكم؛ فلا تصدقوا اليهود والمنافقين وأعرضوا عنهم، وتمسكوا بالقرآن فمن المستبعد أن تكفروا وأسباب الهدىٰ موجودة بين أظهركم فأفيقوا أيها المغرورون واستيقظوا أيها الغافلون.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ فلا تجترُّوا إلىٰ تلك الفتن، وأسباب الشقاق التي يلقيها المنافقون واليهود بينكم، وارجعوا إلىٰ القرآن، فأنصتوا إلىٰ آيات الله، واتركوا أولئك، وكونوا أقوياء في دينكم واعتصموا بنبيكم ﷺ وارجعوا إليه وتمسكوا به وبما جاءكم به من الهدىٰ.

﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴿١٠١﴾﴾ الذي يستوثق بحبل الله ويرتبط به فهو الذي في الطريق المستقيم، والدين الحق.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴿١٠٢﴾﴾ تمسكوا بالإسلام بجد وبقوة، واعملوا بأوامر الله، وانتهوا عن نواهيه، واتقوه حق تقواه، ولا تساهلوا في دينكم، وتكونوا عرضة للمنافقين واليهود، فلا يأتيكم الموت إلا وأنتم علىٰ الهدىٰ والدين الحق والإسلام، لا يستزلنكم الشيطان، ولا المنافقون، ولا اليهود، وقد كان اليهود بين أظهر المسلمين، وكانوا أهل حيل وأهل مكر، وكانوا أغنياء متمكنين، وكانوا يحيكون الحيل ضد النبي والمسلمين ليلاً ونهاراً حتىٰ كادوا أن يفتنوا المسلمين ويستزلوهم عن دينهم.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ تمسكوا بحبل الله يعني بالقرآن وبدينه، ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ولا تختلفوا فيجد المنافقون واليهود فيكم ثغرة يدخلون منها عليكم فيستأصلونكم إذا تفرقتم واختلفتم؛ وقد كانت اليهود توصلت بحيلها ومكرها إلىٰ التفريق بين الأوس والخزرج إلا أن الله تعالىٰ تدارك ذلك برسوله ﷺ فأصلح بين الطرفين وأعادهم إلىٰ أخوة الإسلام وداوىٰ ما أفسده اليهود.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ كان الأوس والخزرج أعداءً قبل الإسلام، وكانت الحرب بينهم نحواً من مائة وعشرين سنة، ذهب فيها رجالهم وأشرافهم ومشائخهم، ولم يبق منهم إلا القليل؛ فأتى الإسلام فآخى بينهم، وأزال من بينهم الإحن والضغائن.

ثم قامت اليهود ثانية وأثارت الفتن بينهم حتى كادت الحرب أن تشتعل نيرانها بينهم، فجاء النبي ﷺ وأطفأها، ونزل القرآن.

﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ بنعمة الله حين بعث إليكم النبي ﷺ، وأصلح شأنكم، وآخى بينكم.

﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ يعني لو لم يستنقذكم النبي ﷺ بالإسلام لدخلتم النار بشرككم وكفركم.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴿١٠٣﴾﴾ يذكركم بنعمه ويحذركم من أعدائكم؛ لتكونوا مهتدين وباقين على طريق الهدى، فلا تخرجوا منها.

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿١٠٤﴾﴾ خاطب الله المسلمين بأن ينتخبوا طائفة منهم يتولون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإرشاد الناس وهدايتهم، وذلك أن المسلمين كلهم مسؤولون عن الإسلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولكن ذلك يتعذر من جميعهم؛ فأمرهم بجعل طائفة منهم يتولون هذه المهمة؛ لأن الإسلام سوف يضيع لو لم يفعلوا ذلك.

ويكون أولئك من الصالحين العارفين بأحكام الدين؛ لئلا يأمروا بمنكر، أو ينهوا عن معروف.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ لا تكونوا مثل اليهود والنصارى، وذلك أن الله كلما بعث لهم نبياً اختلفوا وتفرقوا، فقال الله: لا تفعلوا مثلهم، فاجْتَمِعوا، واعتصموا بحبل الله.

﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿١٠٥﴾﴾ أولئك اليهود حين تفرقوا واختلفوا.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يعني سيأتيهم عذاب عظيم يوم القيامة، وهو هذا اليوم الذي تبيض فيه وجوه المؤمنين، وتسود وجوه الظلمة.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴿١٠٦﴾﴾ وهذه علامة لأهل الشقاء، أي: الذين اسودت وجوههم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴿١٠٧﴾﴾ في يوم القيامة.

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴿١٠٨﴾﴾ هذه آيات الله وبيناته يتلوها على المؤمنين؛ لأجل أن يهتدوا بهديها، ويتمسكوا بها ويتعظوا بها.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴿١٠٩﴾﴾ يعني أن الله هو الذي تحق له الطاعة والعبادة، ونتمسك بحبله، ونطيع أوامره، وننتهي عن نواهيه، ولا نخاف إلا منه؛ فهو المالك لكل ما في السموات وما في الأرض، وسيرجع الناس إليه، ومصيرهم سيكون إليه، فيثيب من أطاعه، ويعذب من عصاه، فهو الحقيق بالطاعة، والحقيق بأن نخاف منه، لا من غيره.

وأن نراقب الله ونعتصم بحبله، ونتمسك بدينه، ونكون أقوياء في دينه، ولا نتضعضع أمام أعدائه ونخاف منهم، ونترك الدين ونميل إليهم، فلله ملك السماوات والأرض وما فيهما، وهما تحت قدرته وقبضته، وأحاط بهما علمه ومشيئته، ومصائر الخلق إليه فلن ينفعنا أولئك، ولن يستطيعوا مضرتنا، فلا نتضعضع أمام أولئك الذين يكيدون لنا، ويحاولون نسف ديننا، ومحو مذهبنا ومبادئنا.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خير أمة خرجت على ظهر الأرض فهم أفضل الأمم.

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ هذه أسباب الخيرية التي جعلتهم خير أمة؛ لأنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله؛ فإذا تركوا ذلك فليسوا خير أمة أخرجت للناس.

ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس واجباً على جميع الناس كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ..﴾ ولكن إذا كان هناك من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ فيجب على الباقين أن يعاونوهم ويعينوهم على ذلك، وعلى الأقل لا نقف في طريقهم، ويجدر بنا أن نرضى بما يعملون لنشاركهم في ثوابهم؛ لأن من رضي عمل قوم أشرك في عملهم.

ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعليم الناس معالم دينهم، وتوعيتهم ودعاؤهم إلى الله فهؤلاء القائمون بهذا العمل يجب علينا تأييدهم، ولا نقف في وجوههم.

فمن قام في طريق الداعي للناس والمعلم لهم معالم دينهم فقد عرض نفسه لعداوة الله وسخطه، وكان من الهالكين، غير أن الله حليم لا يؤاخذ الناس بساعتهم ووقتهم، وإنما يمهلهم.

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ لو آمن أهل الكتاب لكان أفضل لهم في الدنيا والآخرة؛ لأن كفرهم لم يكن إلا وبالاً عليهم، وإنما كُفْرُهم لأنهم تكبروا وقالوا: لو أننا آمنا لم نكن إلا أتباعاً، وستنقطع سيطرتنا في الدنيا، وشرفنا وعزنا، ولكنهم بسبب تكبرهم أخزاهم الله في الدنيا، وقتلهم المسلمون حتى إنه قد قتل المسلمون من بني قريظة ستمائة شخص في يوم واحد، وذلك أن المسلمين حاصروهم، وقتلوهم جميعاً، ولم يبقوا أحداً، والباقون من اليهود أجلوهم إلى الشام، وقد كانوا في المدينة مئات السنين منتظرين للنبي الموعود حتى يبعث؛ فلما بعث كفروا به، فأخزاهم الله، وقتلهم وشردهم، وأخذ المسلمون أموالهم، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [الأحزاب:٢٧].

﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ۝١١٠﴾ كان منهم قليل قد آمنوا وأكثرهم متمردون.

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ قال الله للمؤمنين: لا تخافوا جانب اليهود فلن يضروكم؛ لأن اليهود كانوا أهل غنى وثراء، كانوا أغنى من في جزيرة العرب، وأهل قوة وسلاح، والمسلمون خائفون منهم إذا قاموا عليهم؛ فطمأنهم الله بأنهم لن يضروكم إلا أذى.

﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ إذا قاتلوكم فسيفرون منكم ولن يستطيعوا أن يقفوا في وجوهكم وسيلقي الله في قلوبهم الرعب والخوف ولن يمكنهم منكم فهم مخالفون لأنبياء الله ورسله من أول تاريخهم وقد ألزمهم الله الذلة والمسكنة.

﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴿١١١﴾﴾ فلا تخافوهم أبداً أبداً، فلن يستطيعوا أن يقاتلوكم إلا من وراء جدر، يعني في حصونهم، أما فيما بينهم فبأسهم بينهم شديد.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ ألبس الله تعالى اليهود الذلة والهوان في الدنيا، فهم مقهورون في الدنيا، تتحكم فيهم السلاطين، وتدوسهم بأقدامها، لا يستطيعون أن يرفعوا رؤوسهم من الذلة، ولا يمكنهم أن ينتصروا لأنفسهم من المسكنة والصغار الذي أحاط بهم، وكل ذلك عقاب من الله عليهم، وسخط منه أحله بهم، جزاءً على فسوقهم عن أمر الله، وخروجهم عن طاعته.

﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ لا تستقيم لهم الحياة والعيش في الدنيا إلا في جوار غيرهم إما في ذمة الله أو في ذمة غيره لشدة ما هم فيه من الضعف والذلة.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ وغضب الله مصاحب لهم دائماً أينما كانوا.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ فلا يستطيعون رفع رؤوسهم في أي موقف، ولا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم، وإنما غيرهم يدافع عنهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴿١١٢﴾﴾ استحقوا كل ذلك الخزي والصغار بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء، وبسبب عصيانهم لله، وتجاوزهم لحدود الله وعدوانهم على الله ورسله، وفسادهم في الأرض.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي: أهل الكتاب، ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ غير أن هؤلاء المؤمنين الذين هذه صفاتهم قليل من أهل الكتاب كعبدالله بن سلام، وقليل معه يعدون بالأصابع، ومن النصارى طائفة من الحبشة نحوٌ من أربعين بعثهم أبرهة إلى النبي فسمعوا القرآن فأسلموا وآمنوا وحسن إسلامهم، وقد مدحهم الله وأثنى عليهم في القرآن: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة].

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ كل ما عملوا من حسنة فسيثيبهم الله عليها حتى أن الله تعالى سوف يعطيهم أجرهم مرتين لأنهم آمنوا بالكتاب الأول والكتاب الثاني، وهذا ترغيب من الله لهم لأجل أن يؤمنوا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ كان أهل الكتاب والمشركون أهل غنى وثراء وتجارة وأموال وأولاد؛ فقال الله للمؤمنين: لا تحتقروا أنفسكم لضعفكم وفقركم، فالذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً، فلا تتعاظموا أيها المؤمنون أموالهم؛ فلن تنفعهم، وليست إلا وبالاً عليهم.

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كان مشركو قريش كثيري الإنفاق لأموالهم، فيكرمون الضيف، ويطعمون الطعام، وكانوا يتبارون في هذا المجال ويتفاخرون، حتى إن بعضهم كان يكرم الحجاج جميعاً، فكانوا كثيري العطاء وأهل كرم، فقال الله: لن تنفعهم هذه الأموال التي ينفقونها، وما مثلهم إلا

كمثل الذي له مزارع وأثمار، فأصابتها ريح فيها ثلج فأحرقتها وأهلكتها بشؤم عصيانهم لله، فما انتفعوا من مزارعهم وثمارهم بشيء، فهكذا أولئك الكفار لا ينتفعون بأموالهم التي أنفقوها، وسيحبط الله ثوابها بسبب كفرهم.

﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ يعني فيها برد شديد، ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ۝١١٧﴾ فهؤلاء ليس الله هو الذي أحبط أعمالهم وحسناتهم، هم الذين أحبطوها بشركهم وكفرهم بالله.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ خاطب الله المؤمنين وذلك أنه كان هناك كثير من المؤمنين يوالون اليهود والمنافقين ويباطنونهم، فيعطونهم أسرارهم ويظهرون لهم المودة؛ فحذرهم الله من أن يتخذوا بطانة من غير المسلمين.

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ هؤلاء الذين توالونهم وتوادونهم لا يقصرون في إفسادكم -والخبال هو الفساد - وإبطال دينكم وهدم الإسلام، فهم ساعون أشد السعي في ذلك؛ فلماذا توالونهم وهم على هذا السعي الحثيث في إبطال أمركم وإفساد دينكم؟!!

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ يودون إبطال أمركم، وإلقاءكم في الشدائد والمهالك.

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ هؤلاء الذين توالونهم تسمعونهم يظهرون البغضاء لكم.

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ وما في قلوبهم فهو أشد وأعظم مما تسمعون منهم.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ۝١١٨﴾ وضحنا لكم عدوكم، وبيناه لكم إن كان لكم عقول تعي ما يقال لها.

ثم قال الله للمؤمنين: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ تؤمنون بالقرآن وبالتوراة والإنجيل، وهم لا يؤمنون بكتابكم؛ فلماذا تحبونهم وهم لا ينصفونكم ولا يبادلونكم الحب؟!!

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ﴾ أولئك المنافقون واليهود ﴿قَالُوا ءَامَنَّا﴾ وهم إنما يستهزئون بكم، ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ يعضون على أصابعهم من الغيظ عليكم من شدة عداوتهم لكم.

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴿١١٩﴾﴾ موتوا أيها المنافقون بغيظكم فلن تصلوا إلى ما تأملون من إفساد المسلمين وإبطال دينهم وسيحاسبكم الله على ما تكنونه في صدوركم من الخبث والتصميم والعزم على الكيد للإسلام والمسلمين.

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ إذا حصل لكم أيها المؤمنون نصر وغنيمة وظفر على العدو- ساءهم ذلك.

﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ إذا حصل عليكم نكبة- فرحوا؛ فلماذا توالونهم وهم على هذه الصفة؟!

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضِرْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ فإذا صبرتم واتقيتم الله فلن يصيبكم منهم شيء وهذا تأمين من الله لهم إذ هو عالم بعواقب الأمور. إن كنتم توالونهم مخافة منهم، فقد وعد الله بأنه لا يصيبكم منهم شيء إن اتقيتموه وامتثلتم لأوامره، وسيحبط الله حيلهم فيكم ومكرهم ويبطل مكائدهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴿١٢٠﴾﴾ قدرة الله محيطة بهم، ولن يمكنهم منكم أبداً فلا تبالوا بهم ولا تهتموا لعداوتهم فقد كفاكم الله المؤنة.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿١٢١﴾﴾ بدأ الله في هذه الآية بقصة أُحُد: خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من بيته يرتب صفوف المؤمنين وينظمها استعداداً للحرب، وتجهيز الجيش تحت قيادات منظمة، وتقسيم الأعمال بينهم.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴿١٢٢﴾﴾ حينما كان النبي يرتب جيشه للقاء المشركين، كان هناك طائفتان

من أهل المدينة هموا بالانسحاب، ولكن الله ثبتهم وشد عزائمهم ووفقهم، وقد فرح هؤلاء بهذه الآية، حيث أدركهم فضل الله ورحمته بالتوفيق، وجرهم بمنه إلى ولايته ولا يخفى أن المسلمين كانوا قد هابوا مواجهة قريش ولحقهم ما لحقهم من الخوف لكثرة عدد المشركين وبسبب ذلك همت تلك الطائفتان بالانسحاب وترك القتال.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ ذكَّر الله المؤمنين بأن لا يخافوا من لقاء قريش حين نزلوا أحداً، وكانوا حوالي ثلاثة آلاف، وكان المسلمون يومئذ قلة قليلة، إذ قد جمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم حوالي ألف من المقاتلين ثم انسحب ثلث هؤلاء عندما كانوا في طريقهم إلى الحرب، وهؤلاء هم المنافقون عبدالله بن أُبَيّ وأصحابه، فأخبرهم بأنه قد نصرهم في بدر وهم أذلة وقلة قليلة، وذكرهم بنعمه عليهم في ذلك اليوم ليشد عزائمهم ويجرئهم على لقاء العدو ومواجهته.

وكان أكثر المقاتلين من الأوس والخزرج ولم يكن من المهاجرين إلا القليل ولولا علي وحمزة من المهاجرين لم يكن للمهاجرين ذكر في حروب النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه لم يكن لهم أي دور في الحروب، فلم يكن إلا الأنصار أو قرابة النبي: علي وحمزة؛ أما الباقون فلم يكن منهم أي شيء يذكر في بدر، ولا في أحد، ولا حنين، ولا غيرها.

فقد ثبتهم الله في هذه الآية وحثهم على العزم في المضي.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢٣﴾ اتقوا الله أيها المؤمنون ولا تتعرضوا لسخطه بمخالفة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وبترك مواجهة عدوكم الذي نزل بساحتكم لاجتثاث أصلكم والقضاء عليكم.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ١٢٤﴾ وحين عرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن المسلمين خافوا من مواجهة قريش وتهيبوا من قتالهم أقبل إليهم يهدئ من روعهم ويقول لهم:

إن ربكم الذي نصركم ببدر سيمدكم في مواجهة قريش بثلاثة آلاف من الملائكة ينزلون من السماء مدداً لكم، وهذا المدد يصلكم عند أول المواجهة فإذا صبرتم لقتال قريش وثبتت في ميدان المعركة أقدامكم وحافظتم على تقوى الله وطاعة رسوله فسيمددكم بخمسة آلاف من الملائكة يحملون شعار القتال لنصركم وهزيمة عدوكم.

وما جعل الله الملائكة مدداً للمؤمنين إلا ليثقوا بنصر الله لهم ولتسكن قلوبهم من خوف العدو ومواجهته فإنهم إذا علموا بذلك المدد سيثقون بنصر الله لهم وتأييده، وأما القتال فلم تقاتل الملائكة.

ثم قال الله: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ يعني يأتي عليكم المشركون من ساعتهم هذه- سوف ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أمركم الله بقتال المشركين لأجل أن يقطع طرفاً منهم أي: يقتطع بعضهم بالقتل.

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ أو يهزمهم ويردهم خائبة آمالهم ومنكسرة نفوسهم؛ لأنهم إذا هزموا فالإسلام يزداد قوة، وتشتد هيبته وتزيد، وبهزيمتهم ستضعف معنوياتهم وتهون شكيمتهم.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الذي أوجبه الله عليك يا محمد أن تبلغ رسالة ربك وأن تطيعه فيما كلفك أما إسلام المشركين أو إصرارهم على الشرك أو التوبة إن تابوا أو تعذيبهم فذلك ليس إليك.

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إذا تابوا، أي: المشركين.

﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ إذا أراد الله تعذيبهم.

﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ إما أن يعذبهم الله بأيديكم أو باستئصالهم.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هو مالك للسماوات والأرض، وما فيهما.

﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٢٩﴾ فالملك ملك الله، والعبيد عبيده، وكل ما في السماوات والأرض ملكه ومنقادون له، وهو يغفر لمن يشاء، أي: لمن هو أهل للمغفرة، وليس للمصرين فلن يغفر لهم، والذي يشاء أن يغفر الله له- هم التائبون، والراجعون إليه.

ويعذب من يشاء، يعني به: الفاسقين والمتمردين عليه، وليست لهم في مغفرة الله نصيب ولا حظ.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٣٠﴾ حرم الله عليهم أكل الربا؛ لأن التجارة بالربا كانت شائعة بين المسلمين والمشركين، في مكة والمدينة، وبين اليهود وغيرهم؛ فنهاهم الله عن الربا وأمرهم بتركه؛ لأن الربا كان يتضاعف، وذلك كلما طالت المدة عند المديون تضاعف عليه الدين أكثر، حتى أن المائة قد تطول المدة عليها حتى تصير خمسمائة. فأطيعوا الله، واتبعوا أمره؛ لأجل أن تفوزوا بثوابه ورضوانه.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ١٣١﴾ احذروها فإذا عصيتم الله وتمردتم عليه فسيدخلكم النار بين الكافرين وهذا خطاب للمؤمنين.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٣٢﴾ وحافظوا على طاعة الله وطاعة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لتدخلوا في رحمة الله مع عباده الصالحين.

﴿سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بعدما قال: أطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون- أمرهم بالمسارعة إلى أسباب المغفرة، وأسبابها هي: طاعة الله وامتثال أوامره، والانتهاء عن نواهيه.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ فالمسارعة إلى الجنة هي بالمسارعة إلى الأسباب التي توصلهم إليها، والمتقون هم الذين لا ينتهكون حدود الله، ولا يتجاوزون تعاليمه، ويمتثلون أوامره، وينتهون عن نواهيه.

ثم وصف الله المتقين فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ يؤدون حقوق الله وما أوجب عليهم من النفقات، حتى في الأوقات العصيبة، والسنين المجدبة، وأوقات الفقر، فلا يقصرون ولا يفرطون فيما أوجب الله عليهم من الزكوات والنفقات.

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ يكتمونه في أنفسهم، والمراد كظمه عن المؤمنين؛ لأن الله تعالى يريد أن تبقى الأخوة بين المؤمنين والمودة؛ لأنه لو نفذ المغيظ غيظه لحصلت المشاكل بينهم، ووجد الشيطان عندئذ مدخلاً عليهم، فيكبرها في نفوسهم وتشتعل العداوة بينهم وتنهار عند ذلك الأخوة الإسلامية.

فالإنسان محل الخطأ والنسيان، ولا بد أن يقع منه الزلات: إما من كلام على غيره، أو زيادة أو نقص في حق غيره، فالمؤمن يكظم غيظه ويسكت، وحقه سوف يأتي له إن عاجلاً أو آجلاً.

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ يتجاوز عنهم وعن خطئهم عليه.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ١٣٤﴾ فالله يحب أهل هذه الصفات التي تقدم ذكرها.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ ومن صفات المتقين أنهم إذا زلت بهم أقدامهم في ارتكاب معصية أو فرطوا في طاعة الله تذكروا عظمة الله وجلاله وشدة غضبه وسخطه عليهم وامتلأت نفوسهم خوفاً من الله ومن عذابه ثم يبادرون إلى التوبة والاستغفار وطلب العفو من ربهم.

﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ فهؤلاء هم المتقون الذين أعد الله لهم الجنة.

﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥﴾ فلا يتباطؤون في التوبة ولا يقيمون على المعصية، وإنما يندمون عليها، ويرجعون بالتوبة، فلا يصرون عليها وهم عالمون أنها معصية لله، بل من حين يعرف أنه عصى الله، وأن الله ساخط عليه- يخاف الله ويتوب إليه.

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴿١٣٦﴾﴾ فهؤلاء لهم أجر عظيم، ونعم الأجر وما أعظمه من أجر أعده الله للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء، ويكظمون الغيظ، ويعفون عن الناس، ويرجعون بالتوبة إلى الله، ويخافونه، فالإنسان محل الزلل وكل ابن آدم خطاؤون وخير الخطائين التوابون.

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴿١٣٧﴾﴾ فقد مضت سنن الله فيمن قبلنا من الأمم التي كذبت برسالات ربها، فيجب علينا أن نعتبر بها، وهذا خطاب للمؤمنين أمرهم أن يسيروا في الأرض، وينظروا كيف كان عاقبة المكذبين، كانوا يسافرون إلى الشام -أي المسلمون وغيرهم- وكانوا يمرون على ديار صالح؛ فأمرهم أن ينظروا في آثارهم، وما بقي من بيوتهم، وأنهم قوم كانوا قد كذبوا نبيهم، فانظروا كيف أن الله استأصلهم وعاقبهم، وكانوا يمرون على قرى قوم لوط؛ فأمرهم الله أن ينظروا فيها، وأن يعتبروا بها، فلا تفعلوا مثل أفعالهم، فيلحقكم مثل ما لحقهم من عذاب الله.

ومعنى سنن الله في الأولين: أي: عادات الله في المكذبين.

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴿١٣٨﴾﴾ يبين الله لهم ويخبرهم بما قد مضى ليعتبروا ويعظهم الله بمواعظه ويهديهم بأنوار هداه، إلا أنه لا ينتفع بذلك إلا أهل التقوى الذين يخشون الله ويخافون عذابه.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴿١٣٩﴾﴾ عاد الكلام إلى ذكر غزوة أحد التي كان قد بدأ بذكرها في قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿١٢١﴾﴾، ثم فصل بوعظ وتذكير للمؤمنين، ثم عاد الكلام إلى قصة أحد فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا...﴾ وقع قتل كثير بين المسلمين في يوم أحد حوالي سبعين رجلاً وجرح الكثير منهم حتى لا يكاد يخلو واحد منهم إلا وأصابه جرح فيها حتى النبي ﷺ فقد أصيب

بعدة جراح وكسرت رباعيته، فقال الله لهم: «لا تهنوا» أي: لا تتضعضعوا ولا تضعفوا ويستولي عليكم الهوان، ولا يصيبكم الحزن بحيث تفترون عن الحرب، وأنتم الأعلون والفائزون، فالله سينصركم والله معكم ورسوله بين أظهركم وقد وعدكم الله النصر والظفر إن كنتم مصدقين.

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ فما لحقكم فقد لحق المشركين مثله في يوم بدر، قتل منكم سبعون في أحد، وهم قتل منهم سبعون في بدر.

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ والأيام دول يوم لك ويوم عليك.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ فما حصل لكم أيها المؤمنون في بدر من الهزيمة إنما هو محنة واختبار يظهر الله بها المخلصين من المؤمنين، ويظهر فيها الثابتين مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وأهل العزائم القوية، ويظهر من هو ضد ذلك، ولا يظهر هؤلاء إلا بهذه الشدائد، وهذه إنما هي كشف من الله لهم، سيظهر منازلهم في الإسلام ومراتبهم فيه لعموم الناس، وإلا فهو عالم الغيب والشهادة.

وفيها فائدة أخرى أيضاً وهي أن يتخذ الله منهم شهداء، وينيلهم الشهادة والدرجات العليا من الجنة التي لا ينالونها إلا بالشهادة.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ إن الله لا يحب أولئك الذين خذلوا النبي، وخذلوا الإسلام، وهربوا وعصوا الرسول؛ وتسببوا في حصول الهزيمة بسبب معصيتهم للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ومخالفتهم له.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهذه فائدة أيضاً من هزيمة المؤمنين وذلك ليختبر إيمانهم، وهل يثبتوا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وقد ثبت المخلصون وصدقوا في إيمانهم فثبتوا مع نبيهم وجالدوا بين يده ووقوه بأنفسهم.

﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ وبسبب تلك الفتنة افتضح المنافقون وظهر أمرهم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ

وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴿١٤٢﴾﴾ فهل تحسبون أنكم إذا قلتم آمنا بالله ورسوله تدخلون الجنة مباشرة؟ كلا، فلا بد أن يحصل لكم فتنة وتمحيص؛ ليتميز قوي الإيمان من ضعيفه، ولن يظهر ذلك إلا بسبب هذه الحروب والفتن، والهزائم التي تتكشف فيها حقائق الإيمان، وتظهر جواهره.

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴿١٤٣﴾﴾ هؤلاء الذين انهارت قواهم واستولى عليهم الضعف والجزع هم الذين أخرجوا النبي ﷺ، وأشاروا عليه بالخروج للقاء قريش في أحد، وألحوا عليه وأحوجوه إلى ذلك؛ وكان النبي ﷺ قد أشار عليهم باللبث في المدينة، وخوض الحرب مع المشركين فيها، فرفض أكثرهم وهم الذين فاتهم القتال يوم بدر، فأبوا وقالوا: يا رسول الله، الْقَ بنا العدو فنحن نريد الشهادة ونطلبها.

وكان قد أشار عليهم النبي ﷺ بأن الأفضل أن نقاتلهم بين بيوتنا، وعندنا ما يكفينا من الزاد والماء، والنساء والأطفال من فوق البيوت يرمونهم بالحجارة، وستكون بيوتنا ردءاً لنا إذا تعب المقاتل رجع إلى بيته حتى يستعيد نشاطه.

والمشركون إن صبروا فهم يصبرون وهم في مهانة وتعب ونصب، ونحن في بيوتنا وبين أهالينا ونهنأ النوم فيها؛ فأبى أولئك إلا الخروج، وهنا ذكرهم الله تعالى بخطئهم حين أصروا على الخروج للقتال في أحد، فخرجوا ولم يصبروا وضعفوا وحصل ما حصل من الهزيمة والقتل.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴿١٤٤﴾﴾ وذلك أنه قد صاح صائح بين المشركين يوم أحد بأنا قد قتلنا محمداً، وكان هناك رجل يشبه النبي يوم أحد، قتله واحد من المشركين -اسمه ابن قميئة- فصاح هذا وقال: قتلت محمداً، ظناً منه أنه النبي؛ فرد رجل من المسلمين وقال: كلا فهذا محمد لم يقتل؛ فأسكته النبي ﷺ لئلا يرجع عليه المشركون، وذلك لأنه لم يكن معه إلا خمسة من المسلمين يدافعون عنه، والباقون قد فروا وهربوا.

ثم إن بعض المسلمين هم بأن يتضعضع، ويطلب الأمان من أبي سفيان، وعزموا على طلب الصلح والارتداد عن الإسلام فقال الله لهم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ..﴾ فكيف إذا مات محمد، هل ستكفرون، وترجعون عن الدين؟! فمن أراد أن ينقلب فالله غني عنه.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ لا يموت الحي إلا عند نفاد أجله المكتوب عند الله وفي علمه، فإذا انتهى أجله توفى الله روحه، أما ما يحصل من قتل الناس بعضهم لبعض فإنما يكون بسبب تخلية الله بين القاتل والمقتول، ولا يحصل القتل إلا بتخلية الله بين المتقاتلين، وهذه التخلية هي الإذن في هذه الآية.

هذا، ولا يتم التكليف إلا مع حصول التخلية.

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ فمن أراد الدنيا سوف نعطيه منها، ومن أراد الآخرة سوف نعطيه منها.

قال أحد الصحابة: والله ما كنت أظن أن في أصحاب محمد من يريد الدنيا إلا في يوم أحد حين نزلت هذه الآية، ونزل القرآن بتوبيخهم، وعاتبهم بأن منهم من يريد الدنيا، وأن هناك ضعاف الإيمان، وأنهم قد هربوا وتركوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لحاله في وسط المعركة، وأسلموه للعدو.

ثم قال الله موبخاً للمؤمنين في يوم أحد: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ كم من نبي قاتل معه من أصحابه العباد والمؤمنون ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فلم يضعفوا ولم يجبنوا بسبب ما لحقهم من القتل والجراح مع أنبيائهم.

﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ مثلكم يا أصحاب محمد.

﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ يعني لم يستذلوا مثلكم ويجبنوا بل ما زالوا رافعين لرؤوسهم متمسكين بقوة إيمانهم مع قوة قلوبهم.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴿١٤٦﴾﴾ وقد صبر أولئك مع أنبيائهم، وأنتم لم تصبروا فانتعشوا أيها المسلمون من ضعتكم وسقطتكم وارفعوا رؤوسكم وتجلدوا لعدوكم وانصروا نبيكم.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴿١٤٧﴾﴾ يعني أصحاب الأنبياء السابقين عندما يلقون عدوهم كانوا يقولون هذا القول، وأما أنتم فلم تتذكروا أن تدعوا الله وتتوسلوا إليه، بل هربتم وتركتم نبيكم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في ساحة المعركة وأسلمتموه لعدوه.

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((لقد ذهبتم فيها عريضة)) يعني ذهبتم في الدنيا هاربين، وتشتتم فيها، ولم يبق منكم أحد في المعركة.

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴿١٤٨﴾﴾ يعني أصحاب الأنبياء السابقين أثابهم الله في الدنيا والآخرة، بالنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة وفازوا بمحبة الله ورضوانه.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴿١٤٩﴾﴾ يحث الله المؤمنين بأن يستمسكوا بدينهم، ولا يطيعوا المشركين، بل يستمروا على دينهم، والله سينصرهم، ويحذرهم ربهم من أن ينجروا إلى المشركين ويميلوا إليهم ويتركوا دين الإسلام، وكان هذا التحذير من الله بعد يوم أحد حين انتصر المشركون وهزم المسلمون، فضعفت نفوس كثير من المسلمين وحدثتهم أنفسهم بالعدول إلى المشركين خوفاً منهم ومن قوتهم وعدم ثقة بالمسلمين فحذرهم الله من أن يرتدوا عن دينهم.

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴿١٥٠﴾﴾ الله ناصركم وليس الكفار، فارجعوا إلى الله وأطيعوه، وهو الذي سينصركم وهو خير من ينصركم وينتصر لكم.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ وعد الله المؤمنين بأنه سيلقي في قلوب عدوهم من قريش والمشركين الخوف والجبن، فلا يجسرون على مواجهتكم في القتال، ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ بسبب شركهم بالله ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ وعدهم الله يوم أحد بأنه سينصرهم، وقد صدقهم وعده في أول المعركة.

﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ تقتلونهم بإذنه، قتلتم نحواً من أحد عشر نفراً وهم أهلُ الراية من المشركين، كان مَنْ أخذها قُتِل، وكانوا من صناديد قريش.

﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ بعدما بدأت المعركة وانتصر المسلمون ورأوا نصر الله قد نزل ظهر عليهم الفشل.

﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ وحصل بينهم الخلاف والتنازع.

﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ الله، وخالفوا النبي وأمره.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ أراهم الله نصره وتأييده، والظفر بالمشركين، ولكنهم بعدما رأوا ذلك تنازعوا وعصوا نبيهم وخالفوا أمره ووهت قواهم.

﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ كان البعض منهم يريد المغانم ولم يهمهم أمر الله ورسوله، والبعض يريد طاعة الله ورسوله، ولم ينظروا إلى الدنيا ومتاعها.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ بعد المعصية والفشل ومخالفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، والميل منهم إلى الدنيا رفع الله عنهم النصر ليتميز المخلص من غيره.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ بعد عصيانكم للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ومخالفتكم لأوامره- عفا الله عنكم، فانتبهوا واحذروه.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ هربتم وأبعدتم في الفرار ولم تنظروا لمن تركتم خلفكم على أرض المعركة والسيوف تتهاوى عليهم والعدو محيط بهم.

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ ورسول الله ﷺ يناديكم: هلموا إلي عباد الله، واصبروا على القتال، وجالدوا عن نبيكم، ولكنهم أوغلوا في الهروب ولم يجبه أحد.

﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ عاقبهم الله بالغم بسبب الغم الذي تسببوا به للنبي ﷺ.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا﴾ بعد ابتلائهم بالغم رحمهم الله وأبدلهم بالغم أمنة رحمة للمؤمنين التائبين الذين ندموا بعد ذلك، وغشيهم النوم ليذهب عنهم الخوف.

﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ غشي النوم طائفة وهم المؤمنون، وأما الأخرى فلم يغشهم النوم وهم المنافقون الذين كانت أنفسهم أهم عندهم وأولى من أوامر النبي ونداءه وطاعته.

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ هؤلاء المنافقون الذين أهمتهم أنفسهم كانوا غير مصدقين بوعد الله للمؤمنين بالنصر والظفر وبالفتح وقهر المشركين.

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ تكذيباً منهم لوعد الله ورسوله بالنصر يقولون: إن ما يعدنا محمد من النصر وعد باطل.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أخبرهم يا محمد بأن النصر بيد الله، وإنما اقتضت حكمته الابتلاء للناس والاختبار لهم؛ لأجل أن يتميز صادق الإيمان من غيره.

﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ يخفون تكذيبهم للنبي فيما أخبرهم به من النصر والغلبة، ويظهرون له خلاف ذلك.

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ كانوا يقولون: لو كان صحيحاً ما كان يخبرنا به النبي ﷺ من وعده بأن الإسلام سينتصر،

وسيستولي على جزيرة العرب، وعلى جميع الدنيا، وسيهزم كسرى وقيصر، ويفتح بلادهم؛ فلو كان هذا صحيحاً ما قتلنا هاهنا.

فأمر الله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن يقول لهم: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ أما أولئك الذين قد كتب عليهم القتل والقتال- فلا بد أن يخرجوا فيقاتلوا ويقتلوا.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني ابتلاكم يوم أحد، وحصلت فيه الهزيمة للمسلمين؛ لأجل أن يظهر الله المنافقين، وما في صدورهم.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وليختبر ما في قلوبكم من الإيمان والنفاق.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴿١٥٤﴾﴾ فهو عالم بما في صدور الناس من الإيمان والنفاق، وقد اقتضت حكمته ورحمته أن يظهر ذلك بالاختبار والتمحيص.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ الذين هربوا ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ يعني أغواهم الشيطان، وزين لهم الفرار ففروا، وذلك بسبب ذنوبهم وعصيانهم للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴿١٥٥﴾﴾ تجاوز عنهم لسعة رحمته.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فلا تحزنوا وتتحسروا أيها المؤمنون وتقولوا إنهم لو لم يذهبوا إلى القتال لم يقتلوا، فالمفروض أن يسترجع المؤمن عند المصيبة، ولا يتحسر ويتحزن ويقول: أن ما أصابه لم يكن إلا من سوء التدبير؛ أما المنافقون فإن الله تعالى يريد أن يملأ قلوبهم حسرة وأسفاً جزاءً على كفرهم بربهم.

﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴿١٥٧﴾﴾ فمن قتل في سبيل الله فقد فاز وظفر بمغفرة الله، وسيناله برحمته وكرامته أفضل مما يجمعه أهل الدنيا من التجارات والأموال، فما عند الله هو أفضل مما فاته من الدنيا فلا تتحسروا على من قتل في سبيل الله ولا تحزنوا عليه.

﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ۝١٥٨﴾ فليس من مات من المؤمنين أو قتل في سبيل الله قد ذهب وفاته كل شيء بل إنما ذهب إلىٰ ربه وسيحشر إليه ويستوفي ثوابه وينال منازل الشهداء ويرافق النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في جنات النعيم.

ثم قال الله للنبي: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ يعني أن الله لَيَّن طبيعتك يا محمد، ووسع فيها، ومنحك خلقاً عظيماً، وليناً في جانبك، ورحمة وتواضعاً حتىٰ تقارب الناس منك وأقبلوا عليك وأطاعوك، وإلا فالعرب قوم أجلاف قساة وأهل بذاءة؛ فبسبب خلقك العظيم والتواضع الذي منحك الله إياه- اجتمع الناس عليك والتفوا حولك وأحبوك واتبعوك.

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ ولو كانت طبيعتك قاسية لما اجتمعوا حولك، ولما نصروك، ولما دخلوا في الإسلام ولنفروا عنك وتركوك.

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ فاعف عمن عصىٰ من أصحابك، وحصلت منه زلة- فاعف عنه، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ادع الله أن يغفر لهم ذنوبهم؛ لأنهم أهل قساوة في الطبع، فترفَّق بهم وإن حصل خطأ منهم عليك، أو سوء أدب- فاعف عنهم، ولا تؤاخذهم بما صدر منهم من إساءة إليك، وادع الله أن يغفر لهم زلاتهم وإساءتهم إليك.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ واجعلهم مقربين عندك، واستشرهم في الأمور والنوازل، واستمع لآرائهم وتدابيرهم، واجعل لهم قيمة ورغبهم في القرب منك.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ بعد المشاورة في الحروب ونحوها من الأمور التي تهم الإسلام والمسلمين؛ فإذا ثبتم علىٰ رأي فتوكلوا علىٰ الله، ولا ترجع إلىٰ الوراء بعد المشاورة، ولكن امض فيما اتفقتم عليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ۝١٥٩﴾ عليه، والمطيعين أمره.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فتوكلوا على الله، واعتمدوا عليه، وفوضوا أموركم إليه، وأطيعوا أوامره؛ فإنه إذا نصركم فلا غالب لكم من الناس.

﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ولن يستطيع أحد أن ينصركم إذا فاتكم نصر الله فاحرصوا على الاستقامة على طاعة الله ورسوله لتحظوا بنصر الله.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴿١٦٠﴾﴾ فالمؤمنون يعتمدون على الله، لا على غيره، ولا يلتفتون إلى من سواه.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ سرقت قطيفة في يوم بدر، فقال أحد الصحابة: يمكن أن يكون النبي هو الذي أخذها؛ فغضب الله لهذه المقالة والتهمة التي وجهت إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم؛ فأنزل الله هذه الآية، وأخبرهم أن هذه ليست من أخلاق الأنبياء، ولا عاداتهم.

مع أن لنبي الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يأخذ ما شاء من الغنيمة، قال الله تعالى: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال:١]، فالأنفال والغنائم هي لله وللرسول يفعل بها ما أراد، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يأخذ شيئاً، ولا يستأثر بشيء على المسلمين.

﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الذي يخون في الغنيمة، ويسرق منها ولو إبرة- يحاسب به يوم القيامة، ويدخل بسببه النار.

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴿١٦١﴾﴾ توفى كل نفس جزاء كسبها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر يوم القيامة، لا ينقص الله من ثواب المؤمنين، ولا يزيد في عذاب الكافرين جزاءً عادلاً.

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴿١٦٢﴾﴾ أخبر الله بأنهم ليسوا سواء، فالذين يتبعون رضوان الله لهم الثواب العظيم في جنات النعيم، والذين يسيرون في معاصي الله وما يسخطه لهم عذاب جهنم وبئس المصير.

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ۝١٦٣﴾ المتبعون لرضوان الله، والسائرون في سخطه هم درجات، بعضهم أرفع من بعض، وكل ناس في مرتبة وهو عالم بأعمالهم، وسيعطي كل واحد على قدر عمله، ويضعه في الدرجة التي يستحقها من النعيم أو الجحيم.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ۝١٦٤﴾ أنعم الله على المؤمنين بنعمة عظيمة حين بعث فيهم رسولاً عربياً منهم، يفهمون خطابه ويعلمهم آياته، ويطهرهم من القبائح والفواحش والأقذار، ويعلمهم العلم والقرآن بعدما كانوا من قبل في جهل مطبق، وضلال عن الحق والهدى.

ثم رجع الله إلى ذكر أهل أحد يستنكر عليهم الوهن الذي لحقهم، وتحطم نفسياتهم ومعنوياتهم، وهزيمتهم في أنفسهم فقال: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ فما بالكم تستنكرون حين حصل عليكم مصيبة قد أصبتم من المشركين مثلها مرتين من القتل والأسر؟ وحين حصلت عليكم هذه قلتم: أنى هذا؟ يعني: من أين أتت علينا هذه المصيبة؟ وما هو السبب؟

ثم قال الله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ بسبب معصيتكم، وليست من الله، ولا من النبي ﷺ، أنتم الذين جررتم الهزيمة على أنفسكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ۝١٦٥﴾.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يوم التقى المسلمون والمشركون في ساحة القتال فقد حصل بعلم الله وبتخليته بينكم وبين المشركين حين رفع النصر عنكم بسبب معصيتكم، ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ۝١٦٦﴾ ففيما حصل عليكم ونزل بكم مصلحة لكم أيها المؤمنون؛ لأنه سيعرف المؤمنون من المنافقين، وستكشف الحقائق، ويتبين الرجال الصادقون من غيرهم.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ وليظهر بسبب ذلك أهل النفاق، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ لأنه انكشف يوم أحد أناس كثيرون كبيرهم عبدالله بن أُبَيّ، فقد انسحب بثلث الجيش، وقالوا: لو نعلم أنكم ستقاتلون عدوكم في خروجكم هذا لقاتلنا معكم، ولكنه لن يكون قتال، ثم أخبر الله المؤمنين عن هؤلاء المنسحبين بأنهم بعيدون عن الإسلام والإيمان وأقرب إلى الكفر فلا تتوقعوا منهم أن ينصروكم.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ يدعون الإيمان وليسوا كذلك، والله عالم بما يخفونه في قلوبهم من الكفر، وقد أراد الله تعالى أن يظهر ما في قلوبهم من الكفر والنفاق فأظهره يوم أحد.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا﴾ وهم عبدالله بن أبي وأصحابه الذين انسحبوا من جيش النبي صلى الله عليه وآله وسلم انهزموا ورجعوا إلى بيوتهم، أخذوا يُنَدِّمون المؤمنين، ويُحَسِّرُونهم فقالوا لهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ لو رجعوا وانسحبوا معنا لما قتلوا، وعبدالله بن أبي هذا كان رأيه من رأي النبي وهو البقاء في المدينة، والتصدي للمشركين فيها، لكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج لمواجهة قريش، ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ لا تفرحوا أيها المنافقون حين انسحبتم من الجيش ورجعتم إلى بيوتكم ولم تقاتلوا وسلمتم من القتل فإن سلامتكم من القتل والموت ليست بسبب حسن تدبيركم كما تتوهمون بل إن الموت والحياة بتدبير الله وعلمه وحكمته وقد جعل تعالى لكل أجل كتاب فلا تقدرون أن تقدموا أجلاً ولا تؤخرونه.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ وهذه حياة لا ندركها، وهي حياة الروح، وذلك مثل ما يحلم النائم، فالروح هي التي تحلم، وترى في المنام فهي تخرج من الجسد عند النوم

وترى الأشياء وتبصر، غير أنها في الشهداء أقوى وأبلغ مما تراه الروح في المنام، فهي تخرج من أجسادهم وتذهب إلى نعيم الله، تطوف على منازلها في الجنة، وما أعد لها في جنات النعيم، وليس نعيماً جسدياً، يأكل وينكح وغير ذلك، بل هو نعيم روحي لا غير.

والكافرون كذلك فأرواحهم هي التي تعذب قبل يوم القيامة، وتشاهد ما أعد الله لها من العذاب، وترى مقاعدها ومنازلها في جهنم؛ فيحصل بذلك الخوف الشديد، والهم والغم والحزن، وأما العذاب ففي يوم القيامة فقط، قال الله في آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴿٤٦﴾﴾ [غافر]، فسيدخلون النار في يوم القيامة، وأما في الدنيا فإنما يعرضون عليها ويشاهدون ما أعد الله لهم في النار، وعلى مقاعدهم في جهنم.

فالذين قتلوا في سبيل الله ليسوا أمواتاً كما ترون، بل أرواحهم لا زالت حية تتنعم في جنة المأوى، وهي موجودة الآن تتنعم فيها أرواح المؤمنين إلى يوم القيامة.

﴿فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مبتهجين بما أعد الله لهم من النعيم والدرجات الرفيعة في الجنة، وما أعد لهم من الكرامة؛ لأنهم يرونها ويبصرونها ويحسون بها.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴿١٧٠﴾﴾ وكذلك يفرحون لمن يأتي من بعدهم من إخوانهم الذين يستشهدون في سبيل الله وما يصيرون إليه من النعيم لما يرون من فضل الله عليهم ونعيمه، وما أعد لهم، وبأنه لا يلحقهم أي خوف ولا حزن.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ ولا يزالون يتلقون البشرى وتتابع لهم البشائر وتتكرر بما يعظم من فضل الله ونعمه وثوابه.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴿١٧١﴾﴾ واطمأنوا إلى أن الله لا يضيع أجور المؤمنين وأنهم يصلون إلى أجورهم وثوابهم المضاعف ويوفون جزاء كل ركعة وكل سجدة وكل تسبيحة، وكل خطوة خطاها المؤمن إلى صلاة أو صلة رحم أو في سبيل الله، وكل نفقة أنفقها، وأن الله لا يضيع لا صغيرة ولا كبيرة، ولا أي عمل صغير أو كبير في الدنيا، وما أعد له من الثواب على ذلك، وروحه مع هذا تطوف على ذلك كله، وما أعد له من الجنان الواسعة إلى يوم القيامة.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴿١٧٢﴾﴾ رجع المؤمنون يوم أحد إلى بيوتهم فبلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن أبا سفيان سوف يرجع إلى حرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه قد ندم أنه لم يستأصل المسلمين في أحد ويلحقهم إلى المدينة ليقضي على بقيتهم، ثم إنه رجع مريداً للمدينة؛ فدعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين إلى الخروج، وأمرهم بأن لا يخرج إلا من حضر في المعركة بالأمس، فخرج المؤمنون واستجابوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم في جراحاتهم، حتى إن بعضهم خرج حبواً لقتال أبي سفيان، فنالوا باستجابتهم لنبيهم صلى الله عليه وآله وسلم رضوان الله ووعده الحسن بالأجر العظيم.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴿١٧٣﴾﴾ خرج هؤلاء المستجيبون لنبيهم وهم في جراحهم للقاء أبي سفيان، فلما علم أبو سفيان بخروجهم من المدينة لقتاله أرسل إليهم من يخوفهم بأن أبا سفيان قد جمع لقتالهم واستئصالهم جموعاً كثيرة فلا تواجهوهم فلا طاقة لكم بهم، يريد أبو سفيان أن يثبط المسلمين بذلك ويردهم إلى المدينة، وكره أن يلقاهم للقتال، فلم يلتفت المؤمنون إلى ذلك التخويف بل ازدادوا إيماناً وثقة بالله وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ فخرجوا وانقلبوا بنعمة من الله وفضل ولم يمسسهم سوء، فخاف أبو سفيان عندما لم تنفع حيلته

هذه في المسلمين، وما رأى من عزيمتهم على القتال خاف منهم، وأضرب عن لقائهم، ورجع إلى مكة.

وكان قد عزم أبو سفيان أن يلقاهم في مكان ويقاتلهم فيه، فذهب المسلمون إلى ذلك المكان، وخيموا فيه مستعدين للقائه، ولكن أبا سفيان تخلف ولم يذهب لمقاتلتهم، وانهزم راجعاً إلى مكة.

كان للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عيون يتجسسون على أبي سفيان لينظروا ما سيفعل، فأخبرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنهم إن امتطوا الإبل فهم ذاهبون إلى مكة، وإن رأيتموهم ركبوا خيولهم فهم ذاهبون إلى قتالكم؛ فأخبروا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنهم قد ركبوا الإبل وتركوا الخيل؛ فأمرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يرجعوا إلى بيوتهم، ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ أي: لم يقاتلوا أبا سفيان.

وأرسل أبو سفيان إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: بأن ميعادنا للقتال في بدر في مثل هذا اليوم من العام القابل؛ لأنه كان قد شاور أصحابه فاتفقوا بأن هذه سنة مجدبة لا يوجد مرعى للإبل والخيل، فسنعود لديارنا هذه السنة، ونواعد النبي للعام القابل، ولكن أبا سفيان ومن معه حينما أتت السنة تكاسلوا، ولم يذهبوا لقتال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴿١٧٤﴾﴾ هؤلاء الذين خرجوا أثنى عليهم الله تعالى بأنهم أطاعوا الله ورسوله، وخرجوا للحرب فنالوا رضوان الله وعظيم ثوابه.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴿١٧٥﴾﴾ عندما خوفهم أبو سفيان حين أرسل إلى المسلمين بأن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فقال لهم الله: إن ذلك من الشيطان يخوف أولياءه، فلا تخافوهم وإنما يخاف أولياء الشيطان.

ثم قال الله للنبي ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ فلا يحزنك يا محمد أولئك الذين يخرجون من الإيمان ويدخلون في الكفر، فلا تحزن يا محمد على خروجهم من الدين والنبي ﷺ كان حريصاً على بقاء الناس على الإسلام، وكان يستاء ويحزن على أولئك الذين يخرجون من الإسلام ويدخلون في الكفر، فقال له الله: لا تحزن فما عليك إلا أن تبلغهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم الكفر فدعهم واختيارهم.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ أولئك الذين ارتدوا إلى الكفر فلن ينالهم نصيب من رحمة الله يوم القيامة، ولهم عذاب عظيم في نار جهنم بسبب اختيارهم للكفر، وتركهم للإيمان والهدى والله تعالى يريد ثواب الآخرة لأهل طاعته دون أهل معصيته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ خروج المرتدين عن الإسلام ورجوعهم إلى الكفر غير ضار وغير مؤثر في نشر الإسلام وتمام الدعوة، فلا تحزن يا محمد على خروجهم فما ضروا إلا أنفسهم والله متم نوره ولو كره الكافرون.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ إن الله تعالى يمهل الكافر ولا يعجل بمؤاخذتهم على ذنوبهم، وينعم عليهم، ويزيد في أعمارهم؛ فلا يحسبوا أن ذلك خيراً لأنفسهم إنما يزدادون كفراً كلما زاد الله في إمهالهم، وكلما زادوا من كفرهم ازداد العذاب عليهم أكثر؛ لأن من كفر بالله سنة فعذابه أقل ممن كفر به سنتين، ونحو ذلك؛ فالإمهال وزيادة العمر إنما هو زيادة عذاب عليهم فلا يظنوا أن التمهيل أفضل لأنفسهم.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ لن يترك الله المؤمنين على ما هم عليه، فلا بد من الاختبار والفتنة حتى يتبين وينكشف الخبيث من الطيب ويتميز المؤمن من المنافق.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ اقتضت حكمة الله ألا يخبرنا بما يعلمه من الغيب المحيط بما في صدور الناس وما تكنه قلوبهم من الإخلاص والنفاق، وقد اقتضت حكمته أن يمتحن الناس بشدائد البلوىٰ كما حصل يوم أحد، فإنه ظهر في ذلك اليوم الشديد كل واحد من المسلمين علىٰ ما هو عليه من الإيمان والنفاق وضعف الإيمان، فثبت أهل الإيمان الصادق مع نبيهم لم يتزلزلوا ولم يتزحزحوا عن مواقفهم، وأما أهل النفاق وضعاف الإيمان فهربوا وأوغلوا في الهروب وتركوا نبيهم في ساحة المعركة والسيوف تتهاوىٰ عليه والنبي يناديهم فلم يسمعوا لندائه، ويدعوهم للإقبال إليه فلم يستجيبوا لدعائه.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ولكن الله تعالىٰ يطلع من يشاء من رسله علىٰ شيء من علم الغيب.

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾ أولئك الذين يبخلون بأموالهم فلا ينفقونها في سبيل الله، ولا يخرجون زكاة أموالهم، فلا يظن أولئك أنهم مصيبون في حفظ أموالهم، وإنما هو شر لهم، وأموالهم ليست إلا وبالاً عليهم وبخلهم بما أوجب الله عليهم من النفقات من أموالهم سيكون سبباً لغضب الله عليهم ودخول جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ سيكون بخلهم طوقاً في أعناقهم يوم القيامة ليس لهم فكاك منه، وسيجازيهم الله عليه.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ فهو غني لا حاجة به إلىٰ أحد، وإنما يختبر الناس بالتكاليف ليتبين المطيع من العاصي.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ سنكتب قولهم هذا، وسنجازيهم عليه يوم القيامة وأهل هذا القول هم من يهود المدينة.

﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وسنكتب قتلهم أنبياء الله الذين بعثهم إليهم فقتلوهم بغير حق، فسنجازيهم على ذلك.

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ١٨١﴾ وسيدخلهم الله جهنم جزاءً على أعمالهم.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ١٨٢﴾ أي: دخولكم جهنم بسبب أعمالكم التي عملتموها بأيديكم جزاءً عليها، والله لم يظلمكم بإدخالكم جهنم، وإذاقتكم حريقها فهذا هو الجزاء العادل.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ هؤلاء الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، قالوا حين دعاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإيمان: إن الله عهد إليهم في التوراة ألا يصدقوا رسولاً أبداً حتى يأتيهم بقربان تأكله النار، وهو أن يذبح الذبائح ويتركها على الأرض حتى تنزل عليها نار من السماء فتحرقها وتأخذها، فلا يصدقوه إلا إذا حصل هذا، وهذا زور وبهتان وافتراء على الله، فالله لم يعهد إليهم بهذا العهد لا في التوراة، ولا على لسان أنبيائهم، وإنما قالوا ذلك من تلقاء أنفسهم.

﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٨٣﴾ أمر الله النبي بأن يخبرهم بأنه قد جاءكم رسل من قبلي بالمعجزات والآيات الواضحات وبالذي قلتم فأبيتم الإيمان بهم وقتلتموهم.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ فلم يصدقوك ويؤمنوا بك، ويقبلوا منك، ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فلست الوحيد، فقد لقي الرسل من قبلك مثل ما لقيت من التكذيب والاستهزاء والعناد والتمرد والكفر، ولحقهم مثل ما لحقك من الخوف والأذى والحرب والحصار والقتل والقتال، وطال عليهم ذلك مثلما طال عليك فاصبر كما صبروا، يسلي الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ويخفف عليه من شدة الصدمة بما لقي من قومه وبما سيلقى، فإن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذا علم أن رسل الله عليهم السلام لقوا من التكذيب مثل ما لقي فإنه سيهون ما به من الضيق ؛ لأن المصائب إذا عمت هانت.

﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴿١٨٤﴾﴾ قد أتوا بآيات الله الواضحات النيرات، وقرؤوها على أقوامهم، فكذبوهم ولم يؤمنوا بهم، فقد فعلوا بأنبيائهم مثل ما فعلوا بك يا محمد.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الدنيا ليست دار جزاء يثاب فيها المؤمن، ويعاقب فيها المكذب والعاصي، ولا يكون ذلك إلا بعد الموت في يوم القيامة؛ فاصبر يا محمد فستلقى أجرك وثوابك العظيم، وسيلقى المكذبون جزاءهم الأليم في جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴿١٨٥﴾﴾ والفائز هو من يسلم من عذاب جهنم يوم القيامة، ويدخل الجنة، وفيها حث للناس بأن يسعوا إلى طاعة الله التي هي طريق الجنة.

وعبر بالزحزحة ليصور للإنسان أنه مائل إلى جهنم ومهوٍّ إليها، والمؤمن إنما يدفع نفسه عنها دفعاً، ويدافع نفسه بشدة لكي لا يسقط فيها، وذلك تشبيه بالحجر الموضوعة في منحدر فإنها ستهرول، ولكي تبقى تحتاج إلى مدافعة ومماسكة لكي لا تسقط، وكذلك حال الإنسان فالشيطان والهوى وملذات النفس وشهواتها كلها تقوده إلى جهنم، فلا تركنوا إلى الحياة الدنيا فليست إلا غروراً للإنسان يلهو فيها ويلعب، فيفاجئه الموت وهو على غير استعداد ليوم المعاد يوم توفى كل نفس جزاء عملها.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ يخاطب الله النبي والمؤمنين بأنه ستحل بهم مصائب وتنزل عليهم نوازل من البلاء تتلف أموالهم وتأخذ من نفوسهم وسيلحقهم قتل ومخاوف، وأنهم سيسمعون من أهل الكتاب والمشركين أذىً كثيراً.

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴿١٨٦﴾﴾ إذا صبرتم وثبتم على دينكم، وعلى تقوى الله- فإن ذلك من الأمور العظيمة التي لا يحملها إلا الرجال الأشداء ذوو العزائم القوية.

يخاطبهم الله بذلك قبل أن يحصل؛ لأجل أن يوطنوا أنفسهم ويعدوها؛ لئلا يتفاجئوا بها عند حصولها، ويصطدموا بها؛ لأن الإنسان إذا أعد نفسه للمصائب واستعد لها قبل نزولها كان ذلك أهون عليه.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ أخذ الله العهد والميثاق على اليهود أن يبينوا ما أنزل الله في التوراة ولا يكتموها، فنكثوا وأبوا أن يبينوا ما أنزل الله فيها من صفات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وأنه النبي الحق، وأخفوا ذلك، وحرفوا التوراة.

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فنبذوا العهد والميثاق ونسوه وتركوه، ولم يعملوا به، وهو عهد قد أخذه الله عليهم على ألسنة أنبيائهم فحملوا العهد، ولكنهم لم يوفوا به.

﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أخذوا الرشوة على كتمه وإخفائه.

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴿١٨٧﴾﴾ اشتروا الضلالة والكتم بدل الوفاء بالعهد فخسروا في صفقتهم.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿١٨٨﴾﴾ فرح اليهود حين نجحوا في كتم ما أوحاه الله إليهم من دلائل نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ واستراحوا لذلك، ومع ذلك يريدون حمد الناس لهم والثناء عليهم بأنهم أهل العلم والحكمة؛ فلا تحسبهم يا محمد ولا يظن أحد أنهم ناجون من عذاب الله فقد حكم الله عليهم بالعقاب، وسيعذبهم على أعمالهم هذه من الكتمان ونقض العهود في عذاب أليم في دركات الجحيم خالدين فيها.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿١٨٩﴾﴾ فهو الله القادر على كل شيء، وعلى تعذيب اليهود والكافرين، فهم في قبضته وتحت قدرته وسلطانه، ولا مهرب لهم منه أبداً، وكل واحد سيلقى عمله وجزاءه.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴿١٩٠﴾﴾ خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات بينات على عظمة الله، وعلى قدرته، وعلى جلاله وسلطانه، إذا تفكر الإنسان فيها ونظر وتأمل- فسيعرف الله حق معرفته ويعرف قدرته على كل شيء، وأنه مالك كل شيء حين يرى آثار قدرته في ذلك ومظاهر رحمته وآيات علمه وحكمته.

ولو تفكرت في الذرَّة أو البعوضة ذلك المخلوق الضعيف غير السماوات والأرض، فلو نظرت فيها وتأملت في تكوينها من الأجهزة كالجهاز الهضمي والعصبي والتناسلي والتنفسي والدماغ والقلب والشرايين بالرغم من صغرها، فانظر في قدرة الله أين وصلت في ذلك المخلوق الضعيف؟

فلو نظرت فيها لما استطعت أن ترى الدماغ فيها الذي هو محل الإحساس والإدراك، ولو فتشت فيها وشرَّحتها لما استطعت أن ترى شيئاً مع كثرة ما تحمل بداخلها من أجهزة، وكيف تهتدي لمصالحها، ولها من الإدراك والإلهام ما تتحير عنده الأفهام.

انظر إلى النمل كيف يأوي إلى مساكنه قبل هطول المطر، من أعلمه بذلك؟ فقبيل نزوله لن ترى نملة على الأرض؛ من ألهمه بذلك الإلهام؟ فسبحان من عظمت قدرته!!

وإلى دقة قدرة الله، كيف وصلت إلى ذلك المخلوق الضعيف؟ وكيف تولّى حفظه وتشغيل جميع أعضائه بدقة ونظام بديع وعجيب؟ لا يغفل عنها -بالرغم من صغرها- لحظة واحدة، ولا يغيب علمه عنها، ولا يشغله الاهتمام بذرة دون أخرى، بل يحيط بها ذرّةً ذرّة، فعلمه محيط بكل حيوان في البر وفي البحر، وقدرته وتدبيره يسير بها كل حيوان في البر والبحر.

وانظر إلى قلبك كيف يضخ الدم، ولا يهدأ لحظة واحدة، بلا وقود ولا كهرباء، بل بقدرته، لا حول لنا في ذلك ولا قوة.

بل ولو اجتمع علماء الكون كله على تشغيل قلب إنسان بما مكنهم الله من الوسائل الحديثة، والطب المتقدم لما اهتدوا إلى ذلك.

وأينما نظر المرء وتفكر فإنه يرى آيات الله، وآثار قدرته وعظمته، ففي كل شيء آيات واضحات وبينات، لكن لأهل العقول؛ أما أولئك الذين لا يتفكرون فليسوا من أهل العقول، قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ [الفرقان:٤٤].

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ هؤلاء هم أولو الألباب، وهم الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فذكر الله في قلوبهم في كل وقت، فعظمة الله قد ملأت قلوبهم وحلت فيها حتى ولو لم يتكلموا وينطقوا بألسنتهم، ومهابة الله قد ملأت قلوبهم، وعرفوا أنه على كل شيء قدير، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً، وأنه الذي رزق وخلق، وأنعم ودبر، وأنه سيثيب ويعاقب- والذكر هو: ذكر القلب، ولو لم تنطق ألسنتهم؛ فإن حياة الإيمان هي في القلب، فعظمة الله وقدرته و...إلخ على بالهم لا يغفلون عنها لحظة واحدة.

ومن ذكر الله هذا الذكر تستبعد منه المعصية بسبب امتلاء قلبه من الإيمان والمخافة، فهو يخاف أشد الخوف عند رؤية المعصية؛ لأنه غير غافل عن الله في أي لحظة، وإذا تحركت شهوة نفسه لفعل أمر فيرده خوفه من الله.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأيضاً هذا وصف لأولي الألباب، فهم متوجهون بأفكارهم إلى عجائب الآيات التي بثها الله في السماوات والأرض.

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴿١٩١﴾﴾ ثم إنهم يتوجهون إلى الله تعالى بعد أن جالت عقولهم في آيات السماوات والأرض

يقولون: يا ربنا إنك ما خلقت هذا الكون وآياته إلا لأمر عظيم، هو البعث والجزاء والجنة والنار، وننزهك يا رب ونقدسك عن أن تخلق ذلك لغير غرض يترتب عليه فإنك عليم حكيم غني حميد تتنزه عن ذلك، ثم سألوا الله تعالى بعد ذلك أن يقيهم عذاب جهنم.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ هذا من دعاء أولي الألباب.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ۝١٩٢﴾ من مات وهو ظالم وعاصٍ فليس له من ينصره ويدفع عنه عذاب الله، فهو في نار جهنم خالداً مخلداً، وهذا عدل وحكمة من الله تعالى، فهو لا يعذب إلا الأشرار، وقد جعل النار سجناً لهم، ولن يدخل الله جهنم إلا أولئك المتمردين عليه، الذين قال فيهم: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]، بسبب تمردهم وتجرؤهم على الله سبحانه وتعالى.

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ المنادي هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقالوا: إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان فآمنا به، أي: بالنبي والقرآن.

﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ۝١٩٣﴾ دعوه بهذا الدعاء. وأفضل الدعاء هو الدعاء بالمغفرة كما ورد؛ فإذا دعا الإنسان بالمغفرة فقد طلب الخير كله، وثواب الاستغفار خير الدنيا وخير الآخرة، قال نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ بسبب استغفاركم ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ بساتين يأتيكم منها الرزق، ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا۝١٢﴾ [نوح]، تشربون منها، وتسقون أنعامكم وبساتينكم.

شكا رجل إلى الإمام الحسن بن علي عليهما السلام أنه لم يخلف أولاداً ذكوراً- فدله الإمام الحسن على الاستغفار والإكثار منه، واستدل عليه بهذه الآية.

فأفضل الدعاء الاستغفار، والمستغفر قد طلب خير الدنيا والآخر، فإذا قبل الله منه فسيعطيه خير الدنيا والآخرة: الأموال والأولاد في الدنيا، وفي الآخرة الجنة.

ودعوه أيضاً بأن يتوفاهم مع الصالحين المرضيين عند الله تعالىٰ.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴿١٩٤﴾﴾ اعطنا يا ربنا ما وعدتنا من الخير على ألسنة رسلك، وهو الجنة ونعيمها، ولا تخزنا في العذاب الأليم فإنك لا تخلف الميعاد وننزهك ونسبحك عن إخلافه.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ حين دعاه أولو الألباب وتوسلوا إليه- استجاب الله دعاءهم، ووعدهم بأنه لا يضيع عمل عامل منهم من ذكر وأنثىٰ، فسيثيبهم ويوفيهم أجورهم، ويزيدهم من فضله.

﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ الرجال والنساء بعضهم من بعض فأبوهم جميعاً آدم وأمهم حواء وسيوفى الرجال والنساء أجورهم.

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ يعني هاجروا إلى المدينة مع النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وتركوا أموالهم وبيوتهم وبلادهم وذهبوا إلى بلاد الغربة؛ فراراً بدينهم إلى الله ورسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ بسبب إيمانهم حين طردهم المشركون؛ فخرجوا خوفاً منهم.

﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ لحقهم الأذىٰ في سبيل الله بسبب إيمانهم بالنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ قاتلوا مع النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقتلوا في سبيله ونصرة دينه ونبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وعدهم الله بغفران ذنوبهم ونحوها من صحائف أعمالهم.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ثم أكد لهم أنه سيدخلهم جنات النعيم جزاءً على أعمالهم هذه، من الإيمان والهجرة، والقتال والقتل، والصبر على الأذىٰ في سبيل الله.

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ۝١٩٥﴾ لا يعطي ذلك الثواب العظيم في دار النعيم المقيم إلا الله تعالىٰ وحده ولا يقدر عليه سواه.

ثم قال الله مخاطباً للنبي ﷺ وللمؤمنين: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ۝١٩٦﴾ كان النبي ﷺ والمؤمنون في فقر وشدة حين هاجروا، وكان المشركون في ثراء وغنىٰ وتجارات، وأمن وأمان، يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين، والمؤمنون محاصرون في المدينة، خائفون من المشركين، فقال الله لهم: لا تغتروا عندما ترون المشركين في هذه الحالة من الأمن والأمان والتجارات والروح والراحة، مع ما هم عليه من الكفر ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ فلن يتمتعوا في الدنيا إلا متاعاً قليلاً.

﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مرجعهم إليها، ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ۝١٩٧﴾ وإذا كان مصيرهم إلىٰ جهنم والخلود في عذابها فلا تكبر في أعينكم النعم التي هم فيها.

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أما المؤمنون فجزاؤهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ضيافة لهم من عند الله، أعدها لهم يتنعمون فيها خالدين في نعيمها وسرورها لا يخرجون منها ولا يتحولون عنها، قد رضي الله عنهم ورضوا عنه.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ۝١٩٨﴾ ما عنده من الثواب الذي أعده لهم في الجنة أفضل من هذا الذي أعطاه المشركين في الدنيا من التجارة والثراء والعافية والأمن؛ لأن متاعهم في الدنيا قليل، وأما نعيم أهل الجنة فهو دائم وأبداً.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هذه السورة والتي قبلها كلها تقريباً تحدثت عن أهل الكتاب اليهود والنصارىٰ، وذكرت تمردهم وكفرهم وطغيانهم وعنادهم لله ولرسوله ﷺ وفيهم قلة قليلة آمنوا بالله وآمنوا بما أنزل الله علىٰ موسىٰ عليه السلام، وآمنوا بما أنزله الله علىٰ رسوله ﷺ وكانوا

متواضعين لله عز وجل فسمعوا لله وأطاعوه وآمنوا برسله، لم يحرفوا ولم يغيروا في التوراة كما بدل إخوانهم اليهود.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴿١٩٩﴾﴾ وهذا وعد من الله تعالى للذين آمنوا من أهل الكتاب بالأجر والثواب في جنات النعيم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿٢٠٠﴾﴾ اصبروا أيها المؤمنون على ما نزل بكم من البلاء، ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران:١٨٦]، فاصبروا على دينكم وصابروا إذا كنتم في المعركة ليرى المشركون شدة مصابرتكم، فلا تكونوا أضعف منهم.

ورابطوا في الثغور يعني اربطوا خيولكم في المتارس ومواقع القتال؛ لأجل أن تصدوا العدوا وتخيفوهم، ولا تخالفوا أوامر الله، وخذوا بتعاليم الله في الصبر والمرابطة؛ لأجل أن تنتصروا وتفوزوا وتظفروا بالنصر في الدنيا والآخرة.

تمت سورة آل عمران

ويليها سورة النساء

❁❁❁❁❁

سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ يعني لا تتعرضوا لسخطه وعقابه وعذابه بفعل ما نهاكم عنه، فتوقفوا عند حدوده وأطيعوه؛ فإذا خالفتموه فلم تتقوه، والتقوىٰ هي: أن يطاع الله فلا يعصىٰ، ويذكر فلا ينسىٰ، ويشكر فلا يكفر.

﴿الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهي آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ خلق حواء من جنسه وهو أن الله خلقهما جميعاً من شيء واحد وهو الطين.

وقول من يقول: إنها ولدت منه وخرجت منه- كلام غير مقبول.

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ من آدم وحواء، وهنا إشارة إلىٰ أن بين البشر عامة أواصر رحم يجب أن توصل، فلا يقطع أحد هذه الأواصر، وصلتُهم هي أن يرشدهم ويعلمهم، ويحاول أن يدخلهم في الهدىٰ، ويبذل النصح لهم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَّاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ كان المشركون يقولون: أسألك بالله وبالرحم، وكانوا يخافون من قطيعة الرحم، وفي يوم بدر قبل بدء المعركة صاح المشركون فدعوا وقالوا: اللهم أقطعنا للرحم فأَحِنْه اليوم؛ ظناً منهم أن النبي ﷺ هو الذي قطع رحمهم، ومعنىٰ: أحنه اليوم: اجعل حينه وموته هذا اليوم- وحصلت الهزيمة في أبي جهل وبقية قريش؛ فخاطبهم الله بهذا الذي يراعونه: اتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام؛ لأنهم كانوا إذا سئل أحدهم بالرحم خاف وامتثل وسمع.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ①﴾ فاتقوه واتقوا قطيعة الرحم فهو رقيب علىٰ أعمالكم، وسيجازيكم عليها.

﴿وءَاتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ خاطبهم ثانياً وأوصاهم بحفظ أموال الأيتام، فلا تأكلوا أموالهم، واحفظوها حتىٰ يبلغوا رشدهم، ثم ردوها لهم.

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ لا تأكلوا أموال الأيتام، فكلوا الطيب الذي هو مالكم، واتركوا الخبيث الذي هو حق للأيتام، فإنه مأكل خبيث.

والمراد بالخبيث الحرام الذي هو مال الأيتام. والطيب هو: المال الحلال.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ لا تجمعوا بين أموالكم وأموالهم وتأكلوها جميعاً.

﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا۝٢﴾ فأكل أموال اليتامى معصية كبيرة توجب لصاحبها الخلود في عذاب جهنم.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ كانوا يكفلون بناتاً يتامى، وكانوا يتزوجونهن لأجل أموالهن، فإذا خفتم ألا تعدلوا فيهن، فلا تتزوجوا بهن لأجل أموالهن فقط، بأن تتزوجها ولا تعاشرها بالمعروف، فاتركها لتتزوج ممن يرغب في معاشرتها بالمعروف.

﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ فتزوجوا ما طاب لكم من غير أولئك اليتامى، مثنى وثلاث ورباع؛ لأن الرجل كان يتزوج بقريبته هذه وهي اليتيمة التي تحت ولايته، ويأبى أن يزوجها؛ لأجل مالها، ولا يتزوجها هو رغبةً فيها، وإنما في مالها.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ فإذا خاف الشخص الحيف وعدم العدل إن تزوج بأكثر من واحدة، فلا يتزوج إلا واحدة.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أو يكتفي بما ملكت يمينه من الإماء.

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا۝٣﴾ ذلك أقرب إلى أن الإنسان لا يجور ولا يظلم.

﴿وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ أعطوهن مهورهن نحلة، يعني عطية طيبة بها أنفسكم.

﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا۝٤﴾ إذا تنازلت الزوجة عن شيء من مهرها طيبة به نفسها، فهو حلال لكم.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ لا تعطوا السفهاء، وهم: الأيتام الذين لا زالوا قاصرين عن الرشد، فلا تعطوهم أموالهم؛ لأنهم سيضيعونها؛ لأنهم ليسوا أهلاً لحفظ أموالهم ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ لأن الحياة تقوم بالأموال، وهم سيضيعون المال الذي به قوام الحياة، وتستمر به المعيشة.

﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا۝﴾ أنفقوا على الأيتام من أموالهم واكسوهم منها وقولوا لهم قولاً معروفاً تطيبون به أنفسهم وتدخلون به عليهم الفرح والسرور ولا تغلظوا لهم في الكلام إذا طلبوا أموالهم وهم دون سن الرشد.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ يعني مرنوهم وعلموهم كيف يديرون أموالهم، وكيف يتعاملون مع الناس إلى أن يبلغوا النكاح، حتى لا يبلغ اليتيم ذلك المبلغ إلا وقد تمرن، وعرف كيفية التعامل؛ لئلا يتفاجأ حينها بقبض ماله ويتحير في تنميته وحفظه.

﴿فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ وهو بلوغهم سن الخامسة عشرة ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ إذا عرفتم أنهم سيتمكنون من حفظ أموالهم، فأدوا إليهم أموالهم، هذا إذا عرفت منه القدرة على ذلك مع بلوغه، وإلا لزم التأني حتى يعرف منه الكفاءة على حفظ ماله.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ قد يؤدي الطمع بولي اليتيم إلى المبادرة إلى أكل ماله، والإسراف في التصرف فيه، فلا يكبر اليتيم إلا وقد استهلكه وليه وقضى عليه بالأكل والإسراف؛ فنهاهم الله عن هذا التصرف الظالم.

﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ الذي ليس محتاجاً فلا يأكل منها أي شيء.

﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أما الفقير إذا كان تحت يده مال ليتيم فليأكل بالمتعارف بين الناس، وعلى حسب ما يفعلون، وإذا كانت تجارة فليشتغل بها مضاربة، ولا يتجاوز الحد الذي اعتاده الناس، وتعارفوا به من الأجرة.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا۝٦﴾ عندما يكبر اليتيم فليؤدِّ إليه وليه ماله، ويتخذ شهوداً على ذلك عند التسليم؛ دفعاً لوقوع التخاصم والنزاع، وهذا تعليم من الله لنا في كيفية التعامل مع الناس وتوثيق المعاملات.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا۝٧﴾ كان الرجل إذا مات وعنده بنات وزوجة وابن عم مثلاً لا يعطون بناته وزوجته شيئاً مما تركه الرجل، ولا يورثون إلا من يركب الخيل، أو يحوز الغنائم، ويحمي البلاد، ولا يعطون النساء شيئاً؛ فأخبرهم الله بأن هذا خطأ، وأن للرجال نصيباً مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيباً، فكل واحد لا بد أن يأخذ نصيبه مما قل أو كثر من مال الميت فريضة مفروضة من الله تعالى.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا۝٨﴾ فإذا قسمتم التركة وحضر القسمة أحد هؤلاء فأعطوهم منها، وقالوا: يعطى هؤلاء من خرثي[1] المتاع كالفراش والأواني والثياب ونحو ذلك مما تطيبون به أنفسهم، ولا تغلظوا عليهم بالقول، ولينوا لهم في الكلام، وطيبوا أنفسهم بشيء من أموال التركة؛ لأنكم إذا أغلظتم عليهم فقد يورث ذلك عداوة وحسداً عليكم.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا۝٩﴾ هؤلاء المتنصحون الذين عند الموصي ينصحونه بأن يوصي ويتصدق ويفعل ويفعل. خاطبهم الله تعالى بأن يخشوه ويخافوه، فكيف بكم أيها المتنصحون لو شارفتم الموت ولكم أولاد ضعاف تخافون عليهم الضياع والحاجة فهل تحبون أن تبددوا أموالكم وتتركوهم بغير شيء؟ أم

---

(١) –الخُرْثِيُّ، بالضم: أثاثُ البيتِ، أو أرْدَأُ المَتَاعِ والغَنائِم. قاموس.

تحبون أن تتركوا أموالكم لأولادكم الضعاف؟ لا شك أنهم سيتركون أموالهم لأولادهم ولا يوصون بشيء منها، فليتق الله هؤلاء المتنصحون ولا يتعرضوا لسخطه بحمل الميت على تبديد ماله وتضييع تركته على ورثته ولا ينصحوه إلا بالحق وبما يرضي الله تعالى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ فلا يظن أولئك أنهم قد فازوا وربحوا بأكلهم أموال اليتامى، فليس إلا وبالاً وناراً.

في الآيات السابقة ذكر الله المواريث على سبيل الجملة، ثم استطرد ذكرها على سبيل التفصيل، فقال:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ فللذكر مثل نصيب أنثيين.

﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ إن كان أولاده جميعاً إناثاً، ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ إذا كن اثنتين فأكثر فلهما الثلثان.

﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ وإن كانت ابنة واحدة فلها نصف تركته.

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ إذا كان للميت أبوان وله أولاد- فللأب السدس وللأم السدس وما بقي فلأولاده.

وأما إذا خلف ابنة واحدة فقط- فلها النصف، وللأبوين لكل واحد السدس، والباقي منها وهو السدس يرجع للعصبة وهو الأب؛ فكان السدس الأول بالفريضة، والسدس الباقي بعد الفريضة رجع له بالتعصيب.

﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: الميت ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ فقط ﴿فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾، ولأبيه الثلثان.

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ إذا مات الميت وله إخوة- فنصيب الأم من تركته السدس، وأما الإخوة فليس لهم شيء، والخمسة الأسداس الباقية تكون للأب.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ على الورثة أن يخرجوا الدين أولاً، ثم الوصية، ثم يقتسمون الباقي على ما فرض الله.

﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴿١١﴾﴾ تولى الله تعالى قسمة المواريث، وأعطى كل واحد قسمه، وأما أنتم فلا تدرون كيفية قسمتها لو وكلها الله إليكم، ومن هو الذي يستحق الأكثر، هل الأب أم الابن أم الأم؟ ولكن الله قد أعطى كل واحد ما يستحقه، وهذا الذي فرضه الله واجب فرضه عليكم بعلمه وحكمته التي اقتضت أن تكون على هذه الصفة.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ إذا ماتت الزوجة وليس لها ولد- فللزوج نصف ما تركته.

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ إذا كان لها ولد سواء ذكراً أو أنثى- فللزوج ربع ما تركت.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ من بعد إخراج وصيتها ودينها.

﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ إذا مات زوجها فلها الربع بشرط ألا يكون له أولاد.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ إذا كان للزوج ولد سواء ذكراً أم أنثى- فلها الثمن، وسواء كانت زوجة أو أكثر.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ بعد إخراج الوصايا والديون.

﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ إذا مات الرجل وليس له ولد، ولا ولد ابن، ولا أب، ولا جد، وهذا هو الكلالة؛ فإن كان له إخوة من الأم- فلكل واحد منهم السدس، والإخوة من الأم لا يرثون إلا إذا مات الميت على هذه الصفة، ويستوي في ذلك الذكور والإناث لكل واحد السدس.

وإذا كان له أكثر من ذلك، بأن كان له أكثر من أخ لأم ذكر أو أنثى، اثنين فما فوق- فهم شركاء في الثلث.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ قَيَّد هنا الوصية بعدم المضارة ؛ لأن الميت الذي لا ولد له ولا والد مظنة لأن يضار في وصيته.

﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ فلا تعتدوها، أخبر الله تعالى بأن هذه تعاليمه وحدوده فلا تعتدوها، ولا تجاوزوها والتزموا بها.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ إن المطيعين لله ورسوله والملتزمين بتعاليمه وحدوده- يثيبهم الله تعالى ويدخلهم الجنة خالدين فيها وأدركوا الفوز العظيم.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ ومن خالف تلك الأوامر والحدود التي حدها الله تعالى- فسيدخله ناراً خالداً فيها أبداً.

وهذه الآية خطاب للمؤمنين الذين يشهدون ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا خالف هؤلاء أوامره وتعاليمه- فسيخلدهم الله في النار.

وفي هذه الآية رد على القائلين بعدم الخلود لمن يشهد ألا إله إلا الله؛ لأن هذه الآية كما قلنا خطاب للمؤمنين، وتهديد لهم إن خالفوا أوامره، وتعدوا حدوده.

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ التي تأتي بالفاحشة -وهي الزنا- من نسائكم أيها المؤمنون، فأشهدوا على ذلك أربعة شهود منكم، فإذا شهدوا عليها بذلك، قال الله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ وامنعوهن من الخروج، كان هذا في أول الإسلام، وقد نسخت هذه الآية بآية سورة النور.

﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ فامنعوهن من الخروج إلى أن يمتن أو يجعل الله لهن مخرجاً من ذلك، ثم نزلت بعد ذلك آية ثانية بالجلد لمن يرتكب جريمة الفاحشة.

﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴿١٦﴾﴾ والرجال كذلك إذا أتوا الفاحشة وهي الزنا فآذوهما أي: ألحقوا بهم الأذى والذل، إما بحبس أو ضرب أو جلد، أو غير ذلك، وهذا يسمى التعزير، وإذا حصلت التوبة- فكفّوا عن ذلك واتركوهم.

وهذه الآية قد نسخت بآية الجلد في سورة النور.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴿١٧﴾﴾ التوبة المقبولة من الله للذين يعملون المعاصي بجهالة، وكل من عمل معصية فقد عملها بجهالة، ولو كان يعلم أنها معصية، ثم يتوبون قبل الموت، وقبل أن يروا ملائكة الموت، فسوف يقبل الله توبتهم، وهو المراد بقوله: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ أي: يتوب قبل حضور الموت وقبل معاينة ملائكته.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ أما هؤلاء فليس لهم توبة، فلن تقبل توبتهم ما داموا مصرين على عمل الأعمال السيئة حتى حضور ملائكة الموت لأخذ أرواحهم، وعند رؤيتهم لملائكة الموت لا تنفعهم التوبة ولا الندم.

﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ ولا الذين يموتون على الكفر فليس لهم توبة.

﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴿١٨﴾﴾ إن الذين يعملون السيئات إلى أن يأتيهم الموت وهم على عملها والذين يأتيهم الموت وهم على دين الكفر فإنهم من أهل العذاب الأليم في دركات الجحيم الذي أعده الله لهم، ولا مفر لهم من عذاب الله، ولا خلاص لهم منه خالدين فيه أبداً.

فإن قيل: ما حكم المحكوم عليه بالقصاص؟ هل تقبل توبته وقد حكم عليه بالموت لا محالة، ولا مفر له منه؟

والجواب: أنه تقبل توبته إذا صدقت نيته في التوبة إلى الله والندم، وهذا قبل أن يقعد لضرب عنقه.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ كان الرجل قبل أن تنزل تعاليم القرآن إذا مات قريبه كأخيه وابن عمه يذهب فيلقي ثوبه على زوجته؛ فإذا فعل ذلك فإنه يكون أولى بها من غيره، ولو عن غير رضا منها، فنهاهم الله عن ذلك، وجعل تعالى للمرأة الحرية والسلطان على نفسها.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ نهى الله الأزواج عن العضل، وهو عدم تطليقها؛ لتتضرر من ذلك، وتضطر إلى أن تفتدي نفسها وترد له المهر الذي كان قد أعطاها؛ فلا يجوز للرجل ذلك، وأن يدعي عليها أنها الكاره لأجل أن ترد له المهر، ولا يطلقها إلا بعد أن تنفذ له ذلك؛ فالله هو الرقيب عليكم، ولن تنفعكم الحيل، وهو المطلع على ما في الضمائر.

أما إذا كانت هي السبب في ذلك بأن كانت عاصية له ومتمردة عليه، وهذا هو المراد بالفاحشة المبينة؛ وليس المراد بها الزنا كما قيل، وإنما المراد بها عصيان زوجها ونشوزها عنه.

والمراد بالمعاشرة بالمعروف: أن تفعل أيها الزوج كما يفعل الناس من المعاملة الحسنة، ولا يكلفها أكثر من ذلك، ولا ينقصها مما جرى به العرف بين الأزواج، وهي عليها كذلك مثل ما تفعل نساء بلادها، وكل بلاد بحسب عرفها.

﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ⑲﴾ فإذا كرهتم النساء فاصبروا عليهن فعسى أن يكون في ذلك خيرٌ كثيرٌ، بأن يرزقكم الله منهن الذرية الصالحة، وقد عاينا ذلك في كثير من الناس.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا﴾ قد يكون مع الرجل زوجة ويريد أن يتزوج بالثانية، ثم يقوم فيضغط على الأولى

لأجل أن ترد ما أعطاها من المهر، ثم يطلقها لأجل أن يتزوج بهذه الثانية، ويعطيها ذلك المهر الذي ردته الأولى؛ فأخبر الله تعالى بأنه لا يجوز أن يأخذ من هذه الزوجة شيئاً على هذه الصفة لأجل هذا الغرض ولو قد أعطاها قنطاراً، والقنطار هو: ملء جلد الثور ذهباً.

﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا۝٢٠﴾ أخبر الله تعالى أن صنيعهم ذلك صنيع منكر، وذنب عظيم وأخذ بغير حق.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ فكيف تأخذه أيها الزوج، وقد استوفيت منها بدخولك عليها.

﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا۝٢١﴾ على الوفاء والاستيفاء وقد أوفتك أيها الزوج بما عليها فلا تمنعها ما عليك وهو المهر.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ حرم الله أن يتزوج الرجل بزوجة أبيه بعد أن يموت، أو بعد أن يطلقها.

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ إلا ما قد مضى في الجاهلية فإن الله غفور رحيم، فيما قد فعلتموه غير عالمين بتحريمه، وحتى في الجاهلية كان مستنكراً، وكانوا يسمونه نكاح المقت، فكانوا يمقتون من يفعله ويحرمونه، ولكن بالرغم من ذلك كانوا يفعلونه، وكان إذا ولد لمن تزوج امرأة أبيه كانوا يسمون هذا الولد المقيت.

﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا۝٢٢﴾ العقول تستقبحه وتستفحشه حتى في الجاهلية، ويسمونه المقت.

ثم قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ تحرم على الرجل أمهاته ما علون: أم أمه، وأم أبيه ما علون.

﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ ما سفلن: بنت الابن، وبنت البنت ما سفلن.

﴿وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ ما تناسلوا: بنت بنت الأخ، وبنت بنت الأخت ما تناسلوا.

﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ حكمها حكم الأم من النسب سواءً.

﴿وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ وتحرم أم الزوجة.

﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ وهذه هي بنت الزوجة من غيرك، ولكن بشرط أن تكون قد دخلت بهذه الزوجة، أما إذا لم تكن قد دخلت بأمها فهي حلال، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ بأن قد حصل العقد، ولكن لم يحصل دخول.

﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ يعني زوجة الابن من صلبك، وقيدها بهذا لأجل زوجة الابن بالتبني، وهذا كانوا يفعلونه في الجاهلية (الابن بالتبني)؛ فإنه يصح أن يتزوج بزوجة ابن التبني، وقد تزوج النبي ﷺ بزينب بنت جحش، وكانت تحت زيد بن حارثة.

﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ ولو من الرضاعة، فلا يجوز أن يتزوج الرجل بأختين من النسب أو من الرضاعة، ولا يجمع بين المرأة وبين ابنت أختها كذلك؛ لما سيحصل بينهما من العداوة، وقطيعة الرحم، والله لا يريد ذلك.

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ إلا ما فعلتم فيما مضى، وذلك قبل نزول التحريم.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴿٢٣﴾﴾ فلا يؤاخذكم بما قد فعلتموه، والواجب على الرجل إذا قد فعل أن يفارق إحداهما.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ وهذه محرمة وهي التي تحت زوج؛ فإنه يحرم نكاحها.

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ إلا ما سبيتم في الحروب فهي حلال لكم، ولو كانت مزوجة؛ لأنه ينفسخ نكاحها بسبيها، ولكم وطؤهن بملك اليمين.

﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾ حرم الله تلك الأشياء التي عددها، وأحل ما كان غير ذلك.

﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ﴾ أحل الله تعالى ما أحل من النساء بعد ذكره المحرمات- من أجل أن يقصد إليهن من أراد الزواج وتحصين نفسه كما شرعه الله من العقد والولي والشهود والمهر والتراضي.

﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ لا تفعلوا فاحشة الزنا.

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ إذا تزوجتم فأعطوهن مهورهن، وسمى الله تعالى المهر أجراً؛ لأنه في مقابلة الاستمتاع.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴿٢٤﴾﴾ إذا تراضى الزوج والزوجة بعد ذلك بالزيادة في المهر، أو النقص منه، كأن تقول الزوجة: إن المهر الذي أمهرتني قليل، وأنا أريد الزيادة، ورضي الزوج بالزيادة؛ فلا بأس ولا حرج، وكذلك الزوج إذا قال: لقد أعطيتك من المهر فوق الذي تستحقين، وأنا أطلب منك أن تردي لي شيئاً منه، ورضيت بذلك؛ فلا بأس ولا حرج.

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ فإذا لم يستطع الرجل أن يتزوج حرة محصنة مؤمنة- فله أن يتزوج بأَمَةٍ من المؤمنات.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ فما عليك إلا أن تعمل بالظاهر فإذا كانت في الظاهر مؤمنة فانكحها.

﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أيها المؤمنون، ولو كانت أمة فإن الإيمان ودين الإسلام قد ربط بينكم.

﴿فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ يعني تزوجوا بهن بمراضاة المالكين لهن.

﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وادفعوا المهور.

﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ فلا تتزوجوا من الزانيات.

﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ ولا تتزوجوا من الإماء التي لهن أصحاب في السر.

﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ يعني تزوجتم بهن.

﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾ يعني زنت هذه الأمة بعد أن تزوجت.

﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ فاجلدوهن خمسين

جلدة وهو نصف ما يلزم من الجلد على الحرة التي لم تتزوج.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ فلا تتزوجوا بالإماء أبداً إلا إذا خشيتم الوقوع في الحرام، وذلك لأن أولاده منها سيكونون عبيداً تبعاً لأمهم، وملكاً لسيد الأمة، وعفتهن قليلة -بالنسبة للحرة - فهي معرضة للزنا أكثر من الحرة.

﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فهو أفضل لما يترتب على فعل ذلك من تعريض ذريته للرق، ونحو ذلك، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿٢٥﴾﴾.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ فالله يريد أن يبين لنا أحكام ديننا، ويعلمنا ويشرِّع لنا شرائع الإسلام، وكيفيتها.

فقد ذكر في سورة البقرة الطلاق وكيفياته مفصلاً، وهنا فصل لنا من يحرم نكاحها، ومن يحل نكاحها، ونكاح الإماء، وحرم العضل للنساء، وأوجب المهور، وغير ذلك من تفاصيل أحكام النساء.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وبين لنا سبحانه وتعالى شرائع الأمم السابقة، وهدانا إليها مع تفضل به لأهل هذه الملة من التخفيف والتيسير والسماحة.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ يريد الله تعالى من عباده أن يعملوا بشرائعه وأحكام دينه؛ ليتوب عليهم ويرجع عليهم برحمته ومغفرته ويدخلهم جنته.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٢٦﴾﴾ كل ما شرعه الله لنا من الأحكام والشرائع صادر عن علمه وحكمته، ولولا فضل الله علينا ورحمته بنا لما اهتدينا إلى شرائع دينه، الموصلة لأهلها إلى رضوان الله وإلى دار السلام.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ يعلمكم أحكام دينكم فيتوب عليكم إن عملتم بها.

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴿٢٧﴾﴾ فهم يريدون أن تمكثوا على جاهليتكم، وعلى أعمال الجاهلية، وما شرَّعوه في جاهليتهم من أحكام النكاح والطلاق وغيرها التي شرعوها في شركهم، ويريدون أن يمكث

الناس عليها بالرغم من بطلانها، فكانت المرأة من نسائهم قد يدخل بها أكثر من واحد فتحمل، ثم حين تلد تدعو كل من أتاها من الرجال فإذا حضروا عينت من تشاء منهم وتقول: أنت أب هذا المولود، ويكون القول قولها في ذلك، والحكم حكمها، فتُلْحِقُه بمن شاءت، ولا يستطيع رد قولها.

فالله يريد أن يعلمنا أحكام شريعتنا بكل أبوابها على وفق الحكمة والمصلحة.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴿٢٨﴾﴾ فالله رحيم بعباده لا يكلفهم ما لا يطيقون وما شرع لنا فهو مبني على التخفيف والتيسير، فالله عالم بالإنسان وضعفه، وهو الذي خلقه فهو عالم بما يطيقه، وبما لا يطيقه.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ فلا يأكل بعضكم أموال بعض بغير حق، وبغير عوض، وبغير طيبة نفس.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ فلا بأس ما دام الطرفان متراضيين على التبادل عن طريق البيع والشراء.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴿٢٩﴾﴾ فلا يقتل بعضكم بعضاً.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴿٣٠﴾﴾ فمن قتل نفساً عدواناً وظلماً، فهو من أهل النار، ومصيره إليها خالداً فيها.

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴿٣١﴾﴾ إذا اجتنب المكلف المسلم الكبائر، فسيكفر الله عنه صغائر الذنوب ما دام غير مصر عليها؛ لأنه محل الزلل والخطأ، ولا يخلوا منها، وقد يكون باستطاعته الاحتراز عنها ومجانبتها، ولكن الله لرحمته قد خفف عنا فيها ما دمنا غير مصرين عليها، ولا قاصدين لفعلها ولا متعمدين لمعصية الله بها.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فيدافع الإنسان الطمع فيما في أيدي الآخرين ولا ينظر لذلك، وليزرع الإنسان في نفسه القناعة بما قسم الله له.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ فيأخذ كل واحد نصيبه الذي قد جعله الله له، وهذا في المواريث، ولا ينظر لنصيب غيره، ولا يطمع فيه، ويقنع بما كتبه الله له منها.

﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إذا رأيت أن ما معك من النصيب قليل- فاسأل الله من فضله، فهو مالك السماوات والأرض، وهو الذي بيده خزائنهما، وهو الذي يعطي ويمنع، واترك النظر لما في يد غيرك، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا۝٣٢﴾ لا يخفى على الله خافية، فهو عالم بما يصلح عباده، ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:٢٧].

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ قد جعلنا لما ترك الوالدان والأقربون ورثة يرثونهم، فكل واحد يأخذ نصيبه، والموالي هم الورثة.

﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ هذه الآية كان حكمها في أول الإسلام، ثم نسخت بعد ذلك، كان الرجل يتعاقد مع الرجل على أن ينصر كل واحد منهما الآخر ويرثه؛ فأمر الله أن يوفوا بهذا العقد على ما اتفقوا عليه، وقد نسخت هذه، وذلك لأن المسلمين في أول الإسلام كانوا في حاجة إلى هذا التحالف والمؤاخاة لكثرة أعدائهم؛ فأمرهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن يتآخوا ويتناصروا.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا۝٣٣﴾ فهو شاهد ومراقب لكل أحد، فينبغي أن يُعْطَى كل وارث نصيبه، وأوفوا الذين عاقدتم بما عاقدتموهم عليه، وهذا قبل أن تنسخ شرعية هذه الآية.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الرجال هم الولاة على النساء، فقد جعل الله لهم سلطاناً وولاية على النساء بسبب أن الله فضل الرجال على النساء في خلقهم وطبعهم وجبلتهم.

﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ وبسبب ما أنفقوا من أموالهم على النساء، فقد فضلهم الله بسبب هاتين الخصلتين لما آتاهم الله من القوة وزيادة العقل، والقدرة على تدبير الأمور، وغيرها كثير.

﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ النساء الصالحات.

﴿قَانِتَاتٌ﴾ يعني مطيعات لأزواجهن.

﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ يحفظن أزواجهن إذا غابوا؛ فالزوجة تحفظ نفسها أولاً، وتحفظ مال زوجها، وبيته، وأولاده؛ فهذه صفة الصالحات.

﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ خطاب للأزواج، وإرشاد لهم إلى الأساليب التي يعالج بها الأزواج زوجاتهم إذا تمردن عن طاعتهم، وعن القيام بحقوقهم؛ فأول الأسباب هو أن يعظ الزوج زوجته، فقال سبحانه: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ أي: ذكروهن بالله، وبما أمرهن الله به من طاعة الأزواج.

﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ إذا لم ينفع الوعظ فيهن فاهجروهن، فلعل ذلك يردعهن ويردهن إلى الصواب وطاعة الزوج، وهذا هو السبب الثاني، ثم قال تعالى مبيناً السبب الثالث: ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ فآخر الدواء الكي إن لم ينفع ما سبق والمراد بالضرب ضرب التأديب، وهو معروف.

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ فإن رجعت المرأة إلى طاعة الزوج، وقامت بحقوقه؛ فلا يجوز له أن يؤذيها بهجران، أو ضرب.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴿٣٤﴾﴾ فقدرة الله فوق قدرتكم، فلا تظلموهن؛ فيلحقكم الله بجزاء ظلمكم.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ هذا الخطاب لولاة الأمور، وللساعين في الصلح بين الزوجين؛ فإذا رأيتموهما متنافرين فيما بينهما، والعلاقة متوترة بينهما- فابعثوا حكماً من أهله، وحكماً من أهلها ليتدخلوا في القضية، ويصلحوا بينهما.

﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ إذا كان الحكمان ساعيين للصلح بنية سليمة وصحيحة- فسيوفق الله بينهما، وهذا وعد من الله إذا أخلص الحكمان النية؛ فإن الله سيوفق ويؤلف بسببهما بين الزوجين.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴿٣٥﴾﴾ فهو الذي خلق الرجل والمرأة، وهو عالم بما يصلحهما، وبما يفرق بينهما.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أخلصوا له العبادة وحده، ولا تشركوا معه أحداً، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فلا بد من طاعتهما، والإحسان إليهما، وفي إقران الله تعالى الوالدين بعبادته دلالة على عظيم حقهما.

﴿وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ أمر الله بتعهد هؤلاء أيضاً بالإحسان والصلات والبر.

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ للجار حق سواء قربت داره من دارك أم بعدت، وسواء أكان قريب النسب أم بعيداً.

﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ زميلك إما في السفر، أو في عمل، أو في تجارة، أو نحو ذلك- فله حق زائد على غيره، وقد أمر الله بالإحسان إليه.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ عابر السبيل.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد، فكل هؤلاء الذين عدد الله- لهم حقوق خاصة تجب مراعاتها والمحافظة عليها، واعلم أن أقل الإحسان وأدناه هو كف الأذى وهذا أقل درجات الإحسان.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴿٣٦﴾﴾ فهو يبغض من كان معجباً بنفسه، ويظن أنه من فوق الناس، وأنهم دونه، والمعجب بنفسه مشغول بما يرى في نفسه من العظمة لذلك فإنه لا يلتفت إلى الإحسان إلى من أوصى الله بالإحسان إليه، وإذا نظر إليهم فإنما ينظر نظر احتقار وازدراء، ومن هنا استحق المعجب بنفسه أن يحرمه الله من فضله وإحسانه والجزاء من جنس العمل.

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وصف الله أهل الخيلاء والفخر بأنهم أهل بخل لا يؤدون ما أوجب الله عليهم في أموالهم، ويأمرون الناس بالبخل، ويكتمون العلم الذي أنزله عليهم، وهذه الصفات هي صفات اليهود.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴿٣٧﴾﴾ أعد الله تعالى لأهل هذه الصفات عذاباً مهيناً في جهنم خالدين فيها أبداً.

ثم ذكر الله بقية صفاتهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ فإذا أنفقوا شيئاً فإنما يريدون به المفاخرة وليثني عليهم الناس وليذكروهم بالكرم.

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ومع ذلك فهم في الحقيقة غير مصدقين بالله ولا باليوم الآخر، ولو كانوا مؤمنين بالله وباليوم الآخر لما اتصفوا بتلك الصفات التي توعد الله أهلها بالعذاب المهين.

﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴿٣٨﴾﴾ وذكر الله بأن هؤلاء تحت سيطرة الشيطان، وأنهم قرناؤه وهو الذي يزين لهم الخيلاء والفخر والبخل والكفر بالله وباليوم الآخر.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي نقص سيحصل لهم في الدنيا لو آمنوا بالله واليوم الآخر؟ فلماذا يتهربون من ذلك ويحاربونه ويسعون في إبطاله؟!

قلت: ولعل السبب في ذلك أنهم خافوا إذا آمنوا بالنبي ﷺ وصدقوا به وبالقرآن أن تنقص مراتبهم في الدنيا، وتنتكس عزتهم وشرفهم، ويقل سلطانهم في الدنيا، وسيطرتهم؛ فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ ولو فعلوا ذلك فإنهم سينالون رضوان الله، وسيصلح لهم دينهم، ويرفعهم في الدنيا؛ لأن الكرامة هي في طاعة الله والتقوى، وهكذا العزة والشرف والرفعة كل ذلك في طاعة الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴿٣٩﴾﴾ لا يخفى على الله جل جلاله شيء من أعمال اليهود، ولا شيء من أسرارهم، وما يخفونه في أنفسهم من التكذيب، ومن النيات الخبيثة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فهو عدل حكيم، وليس له حاجة في ظلم أحد من عبيده، من عمل صالحاً فسيجازيه، ولا ينقص من ثوابه مثقال ذرة، ومن عمل

سيئة فلا يزيد على عقابه عليها مثقال ذرة، فسيعطي كل نفس ما تستحقه.

﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴿٤٠﴾﴾ أما أهل الحسنات فلا ينقصهم، بل يضاعف لهم الأجر، ويعطي بدل الحسنة عشر حسنات ويضاعفها إلى سبعمائة ضعف وإلى ما شاء من الأضعاف، ويؤتي من لدنه أجراً عظيماً، وأضعاف مضاعفة بغير حساب.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴿٤١﴾﴾ كيف يكون موقف هؤلاء الذين كفروا بالله وبرسله، واستهزئوا بالقرآن، وكذبوا بآيات الله، كيف سيكون موقفهم يوم القيامة؟ يوم يجمع الله الشهداء (الأنبياء)، وكل نبي يشهد على أمته؛ لأن الأمم ستنكر يوم القيامة بعث أنبيائها إليها ظناً منهم أنه ينفعهم الإنكار: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة:١٩]، وسيقولون ذلك اليوم لم ينذرنا يا رب أحد بمجيء الحساب والعقاب، فعند ذلك سوف تأتي الأنبياء وتشهد على أممها بأنا قد أنذرناهم، وبلغناهم حججك يا رب، وأنذرناهم عقابك، وأخبرناهم بثوابك، وبالبعث بعد الموت.

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴿٤١﴾﴾ سوف يأتي الله تعالى بمحمد ﷺ ليشهد على أمته عندما ينكرون أنه لم ينذرهم ولم يبلغهم شرائع الله، وأحكام دينه.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ إذا شهد الرسول ﷺ يوم القيامة على الذين كفروا وكذبوا برسالته وردوا ما جاءهم به من عند الله حينئذ يستولي عليهم الندم ويتمنون أنهم من تراب الأرض ولكن لا ينفع يومئذ السف والندم والتمني.

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴿٤٢﴾﴾ ولا يستطيعون أن يكتموا على الله شيئاً من أعمالهم وسيئاتهم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ كان الناس عند بعث النبي ﷺ مدمنين على شرب الخمر، فحرمه

الله عليهم، ولكن لم يحرمه عليهم دفعة واحدة، وإنما حرمه عليهم بالتدريج؛ لأنه لو حرمه عليهم دفعة واحدة لامتنعوا وأبوا، ولعصوا الرسول وخالفوه، فحرمه عليهم أولاً وقت الصلاة، فنهاهم عن الصلاة وهم سكارىٰ حتىٰ يعلموا ما يقولون، ثم حرمه تعالىٰ بعد ذلك علىٰ الإطلاق في سورة المائدة.

﴿وَلَا جُنُبًا﴾ ولا تقربوها وأنتم جنب.

﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ إلا إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا ماءً فتيمموا وصلوا؛ لأنهم في السفر مظنة أن لا يجدوا الماء؛ لأن بلاد العرب أكثرها صحراء فهو مظنة ألا يجد المسافر الماء في سفره، فأخبره كيف يفعل إذا انقطع عن الماء ولم يجده بأن يتيمم ويصلي ولو كان جنباً.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ فهؤلاء رخص الله لهم أن يتيمموا إذا لم يجدوا الماء صعيداً طيباً، أي: تراباً طاهراً أما المريض الذي يضره استعمال الماء فيتيمم ولو كان واجداً للماء.

﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ وهذه كيفية التيمم مسح الوجه واليدين إلىٰ المرفقين فقط.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ فالله سبحانه يخفف علىٰ عباده، ولا يحرج عليهم، وشريعته سمحة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ اليهود هم الذين آتاهم الله نصيباً من الكتاب، لكنهم لم يعملوا به، واستبدلوا به الضلال، وتركوا الهدىٰ الذي في التوراة، ويريدون مع ذلك أن تضلوا معهم، وتدخلوا في الضلال، وهم ساعون جهدهم كي يضلوا المؤمنين ويدخلوا معهم في جهالتهم، وجهالتهم هذه ليست من التوراة كما يزعمون؛ لأن التوراة لا يوجد فيها إلا الهدىٰ والنور، ولو عملوا بها لكانوا مع النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ يحذر الله النبي ﷺ والمؤمنين بأن هؤلاء اليهود هم ألد أعدائكم، فانتبهوا لهم، واحذروهم؛ فهم يريدون أن يضلوكم ويخرجوكم عن دينكم.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ فتمسكوا بالله وبدينه، والله هو وليكم وناصركم، فيكفيكم أن يكون الله ناصركم ومتوليكم؛ فإن تولاكم الله فلا غالب لكم، ولن يلحقكم بأس من اليهود، ولا من المشركين، ولا من النصارى.

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أخبر الله بأن من اليهود فريق ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ يحرفون التوراة ويخرّجون للناس آيات من عندهم، وليست من التوراة في شيء، أخبر الله عن أعمالهم وخبثهم الذي وصل إلى تحريف كتاب الله.

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ يقولون للنبي ﷺ حين يدعوهم إلى الإسلام: سمعنا وعصينا، وهذا تحذير من الله للنبي ﷺ من كيدهم ومكرهم.

﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ يقولون ذلك للنبي ﷺ، وهذا دعاء منهم على النبي ﷺ، يعني: اسمع لا سمعت.

﴿وَرَاعِنَا﴾ وهذه سبة منهم للنبي ﷺ، وظاهرها: تمهل بنا، وتأنَّ بنا كي نفهم ما تقول، وفي الواقع هم يريدون بها معنى آخر يشتمون به النبي ﷺ.

﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ يعني به يحرفونها عن معناها إلى معنى آخر الذي هو سب وشتم للنبي ﷺ.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بدل قولهم سمعنا وعصينا.

﴿وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا﴾ وتركوا ذلك الذي هو دعاء على النبي ﷺ في مرادهم، وهو قولهم: اسمع لا سمعت، وبدل راعنا أن يقولوا: انظرنا.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ لو أنهم تواضعوا للنبي ﷺ، وسمعوا لكلام الله وقبلوه، وتركوا التمرد والتكذيب والاستهزاء والخبث– لكان أفضل لهم، ولكنهم تكبروا عن سماع كلام الله، فلعنهم الله، وسلبهم التوفيق، فلا تتوقعوا منهم الإيمان أبداً إلا إيماناً قليلاً.

والمراد بالإيمان القليل هو إيمانهم بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم، وهو هذا الذي يصانعونكم به وينافقونكم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ خاطب الله اليهود ﴿ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ دعاهم الله إلىٰ الإيمان بالقرآن الذي هو مصدق للتوراة، ولم يأت بشيء يخالفها.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ من قبل أن ينزل الله عليهم غضبه ويطمس وجوهكم، وطمس الوجه: أن يجعل الله وجهه مثل قفاه.

﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ وهو أنه مسخهم قردة، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ إذا أراد أن ينزل غضبه فسينزله عليهم، وقد أنزل عليهم سخطاً ثانياً وهو القتل بأن قتل النبي ﷺ بني قريظة جميعاً في يوم واحد بالذبح، وكانوا ستمائة وخمسين، ولم يترك أحداً منهم إلا الذي لم يحتلم منهم، وسبىٰ نساءهم وأطفالهم.

وأهل خيبر وبني قينقاع وأهل فدك وبني النضير أجلاهم النبي ﷺ إلىٰ بلاد الشام، وأخرجهم من ديارهم وأموالهم، ولم يتركهم يأخذوا معهم شيئاً منها، واستولىٰ عليها المسلمون.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ الشرك هو أكبر المعاصي لا يغفره الله تعالىٰ ولا يتجاوز عنه أبداً، بخلاف سائر المعاصي فقد يقع الإنسان في الزنا مثلاً عن طريق الخطأ ولا يؤاخذه الله عليه، ولكن الشرك إذا وقع فيه المرء ولو عن طريق الخطأ أو الجهل- فلا يتجاوز الله عنه بخلاف غيره من المعاصي إذا فعله المرء عن طريق الخطأ والجهل- فقد يؤاخذه الله عليها، وقد يعفو عنه.

وأما الشرك فلا يعذر فيه أحد ولو جاهلاً؛ لأن الله تعالىٰ قد خلق العقل، وقد جعل فيه قوة وطاقة يستطيع المرء من خلالها أن يعرف ويميز أن الشرك والكفر

قبيح، ويستنكر أشد الإنكار على اتخاذ إلهٍ غير الله كالحجارة وغيرها.

وما فعله أولئك من عبادتها إنما هو استكبار منهم وتعصب لمذهب آبائهم وأجدادهم، واتِّباع لأهوائهم، وأما تصديقهم بربوبيتها من ناحية العقل- فذلك مستحيل، ولو اجتمع أهل الدنيا جميعاً على إقناع العقول بذلك فلن تصدق أبداً أبداً.

والعقل لن يخطئ أبداً؛ لأن الله قد فطره على ذلك، ولن يغتر؛ ألا ترى لو أخبرك مخبر أن واحداً زائد واحد يساوي عشرة؛ فهل ستصدق بذلك؟ لن يقبل العقل ذلك أبداً.

وقد جعل الله في العقول دواعي تدعوه إلى الله، وإلى البحث عمن خلقه من وقت الصغر، فترى الطفل من حين يبدأ الكلام لا ينفك يسأل والديه: من خلقني؟ ومن خلق هذا؟ ومن أوجد هذا؟ ومن سيّر هذا؟ ومن أين أتى؟ وكيف هو الذي صنعه؟

فلو أخبرته أن هذا الحجر هو الذي صنع هذا الشيء لاستنكر ولم يصدق، ولو أخبرته أن الشمس صنعت نفسها لرأيته يتعجب من ذلك ويضحك، وما ذلك إلا أن هناك دواعي في داخله تدعوه إلى غير ذلك، وأن الذي أوجده غير ذلك: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]، فطرهم على معرفته، وعلى الإيمان والتصديق به لا بغيره، ولن تستقر وتهدأ الفطرة إلا حين تصادف الصدق والحق.

وبعض المفسرين يفسر قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ بأن المرء يكفيه أن يؤمن بالله ويصدق به، وما سوى ذلك فسيغفره الله، من الزنا والسرقة وسائر المعاصي ما دام لم يشرك بالله. وتفسيرها على هذا الوجه خطأ، وتفسيرها الصحيح هو ما قدمنا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾ هذا تعجيب من الله للرسول صلى الله عليه وآله وسلم في شأن اليهود: انظر يا محمد

كيف يزكي هؤلاء أنفسهم، ويقولون بأنهم أهل الجنة، وأنها لم تخلق إلا لهم!! وأنهم أكرم البشر عند الله، وأنهم أهل طاعته، ولن يدخل الجنة إلا هم!! وأن الله لن يعذبهم بذنوبهم، فقال الله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴿٤٩﴾﴾ فمن حكم الله له بأنه من أهل الجنة فهو كذلك وليست لمن حكم لنفسه بها، ولن يظلم الله أحداً والفتيل هو: ذلك الخط الذي في التمرة (في النواة) مثل الفتلة؛ فلن يظلم أحداً، لا اليهود ولا غيرهم.

﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴿٥٠﴾﴾ انظر يا محمد كيف تفتري اليهود على الله الكذب، ويحرفون التوراة على ما يريدون.

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن ينظر ويتعجب من صنيع اليهود، وإلى أين وصل بهم خبثهم وجرأتهم على الله، والتوراة لم تكن موضوعة بأيدي اليهود جميعاً، وإنما بأيدي ناس مخصوصين من العلماء الذين في بيت المدارس، فلا يفسرها إلا هؤلاء، فهؤلاء هم الذين يحرفون ويبدلون، ويفسرونها لرؤسائهم وكبرائهم على ما يشتهون ويريدون.

وأما أتباعهم فلا يعرفون شيئاً مما ينزل، ولا يفعلون إلا ما يريده أولئك، وعلى حسب ما يخرجونه لهم، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨].

ثم ذكر الله تعالى تعجيباً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني اليهود.

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴿٥١﴾﴾ عندما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكة ذهب المشركون إلى اليهود يسألونهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعن صفته؛ لأن أهل الكتاب كانوا أهل علم، وعندما سألهم المشركون اشمأزوا وامتعضوا حين عرفوا خبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه ليس منهم؛ فأجابوهم بأنه كذاب، وليس بنبي، وأن دينكم هو الدين الحق، وهو إيمانهم بالجبت

والطاغوت، والجبت والطاغوت هو عبادة الأصنام.

وأجابوهم أيضاً بأنهم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً؛ فشهدوا لهم بذلك افتراءً على الله، وبشهادتهم لهم بذلك، وأن إيمانهم بالجبت والطاغوت هو الدين الحق- دخلوا معهم في الكفر وصاروا كافرين.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: اليهود الذين تقدم وصفهم.

﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴿٥٢﴾﴾ فمن قد لعنه الله فليس له ناصر يدفع عنه لعنة الله وسخطه وعذابه.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴿٥٣﴾﴾ يريد اليهود أن يتحكموا على الله، ويعترضوا عليه: لماذا لم يرسل نبياً منهم؟ ولماذا جعله الله من العرب؟ فرد الله عليهم: هل لكم نصيب من ملك السماوات والأرض حتى تعترضوا، ويكون لكم حق في الاعتراض؟ لأنه لا ينبغي الاعتراض إلا للشريك، وما داموا ليسوا بشركاء فلا دخل لهم في الاعتراض على الله تعالى.

ووصفهم الله بالبخل الشديد في قوله: ﴿فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ لو أن الله آتاهم نصيباً في ملك السماوات والأرض؛ فإنهم لن يؤتوا الناس نقيراً، وهو ذلك الغطاء الرقيق الذي على نواة التمرة التي لا تسمن ولا تغني شيئاً، وهذا مثال لشدة حسدهم وغلهم، وأنهم لا يريدون أن يؤتى أحد شيئاً دونهم، وأن كل شيء يكون لهم.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهو حسدهم للعرب حين كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم منهم، ولماذا لم يأت منهم؟ وكذلك حسدهم لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم حين أرسله الله نبياً، وهذا من فضل الله فكيف يعترضون على الله.

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴿٥٤﴾﴾ وهذا ليس شيئاً غريباً من صنع الله، فقد آتى الله آل إبراهيم الكتاب والحكم والنبوة، فلماذا يعترضون على محمد صلى الله عليه وآله وسلم حين أعطاه الله ذلك، مع أنه من آل إبراهيم، وكذلك اليهود هم من آل إبراهيم؛ فليس لكم أن تعترضوا، فالله يختص برحمته من يشاء.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ وهم آل إبراهيم آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة؛ فبعضهم قبل، وبعضهم صد واعترض.

﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴿٥٥﴾﴾ للصادين عن الحق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ وهذا في سياق اليهود أيضاً؛ لأنهم وقفوا في وجه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وفي وجه الإسلام والمسلمين، وصنعوا المكائد، ودبروا الحيل للصد عن دعوته مع قوتهم وكثرتهم وتمكنهم وغناهم، ولم يمنع عن ذلك إلا تأييد الله لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وإلا فقد صنعوا كل ممكن، واتخذوا كل وسيلة لولا تأييد الله لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ونصره له، وما ألقى في قلوبهم من الرعب.

﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴿٥٦﴾﴾ إن الله تعالى قد أعد لأولئك الكافرين من اليهود وغيرهم ناراً عظيمة يصليهم فيها كلما حرقت جلودهم ردها الله وهكذا أبد الآبدين ليتذوقوا حريق نار جهنم جزاءً على كفرهم وتكذيبهم، والله سبحانه عزيز غالب لا يعجزه شيء فما توعد به المتمردين الكافرين فلا يخلف وعده وهو تعالى علي حكيم لا يعذب إلا من يستحق العذاب ولا يظلم مثقال ذرة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴿٥٧﴾﴾ كلما ذكر الله أهل النار والعذاب قرن به ذكر أهل الجنة ليرغب المؤمنين في نعيمها.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ عندما دخل المسلمون مكة يوم الفتح أخذ أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ مفتاح الكعبة من عند آل أبي شيبة حين استقر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بمكة، وحين أسلم أهل مكة فنزلت هذه الآية؛ فأخذ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ المفتاح من يد علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ورده إلى آل أبي شيبة، وما زالوا إلى الآن يتداولونه بينهم أباً عن جد، وهذا حق لهم ليس

لأحد أن يأخذه عليهم إلى يوم القيامة.

وهذه الآية خطاب للمؤمنين فمن صارت إليه الولاية والحكم بين الناس فلا بد من أن يعدل حتى ولو على عدوه، وقد حكم شريح لليهودي على أمير المؤمنين ولم يعترض على ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴿٥٨﴾﴾ فنعم ما وعظكم الله به، فهو لا يعظكم إلا بالحق ولا يأمركم إلا بالحق.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ خاطب الله المؤمنين آمراً لهم بأن يطيعوا الله، والرسول، والذي يلي الأمر منكم، ممن ولاه الرسول عليكم: من نحو قائد السرية، ووالي الصدقة، وغيرهما؛ لأن هؤلاء الذين يوليهم عليكم يمثلون النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فكأن رسول الله هو الآمر، وطاعتهم لهم طاعة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكان علي عليه السلام من أولي الأمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوليه، ولا يولي عليه.

وليس المراد بأن من تولى تجب طاعته كيفما كانت جهة توليته؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴿٥٩﴾﴾ إذا اختلفتم أيها المؤمنون في أمر فتحاكموا إلى الله، وإلى الرسول يعني: إلى القرآن وإلى سنة الرسول؛ فما حكما به فيجب عليكم العمل به.

فإذا حصل الاختلاف بيننا- فالحل في القرآن، وما حكم به، وإلى ما حكم به النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سنته المجمع على صحتها بين المختلفين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هنا يُعَجِّبُ الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من اليهود حين آمنوا في الظاهر يعني إيمان نفاق: ألم تنظر إليهم يا محمد، قد زعموا أنهم آمنوا بما أنزل إليك، وما أنزل من

قبلك، ويريدون عند ذلك أن يتحاكموا عند الطاغوت، وهم المشركون والكهنة ونحوهم، ولا يريدون أن يتحاكموا إلى الله وإلى ورسوله، مع أنهم قد زعموا أنهم قد آمنوا، ومع أن الله قد أمرهم أن يكفروا بالطاغوت.

والمقصود بذلك تحذير النبي ﷺ من هؤلاء، وأنهم منافقون، وأن إيمانهم إيمان نفاق.

﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا۝٦٠﴾ فهم من قرناء الشيطان، وهم إخوان الشياطين، وهم في طاعة الشيطان وحبائله، ومنغمسون في الضلال.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا۝٦١﴾ وهم أولئك الذين يزعمون أنهم آمنوا؛ فإذا دعوا إلى حكم الله وقيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله صدوا وامتنعوا، ونفروا عن حكم الله، ولا يريدون أن يتحاكموا إلا إلى الطاغوت.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا۝٦٢﴾ كيف يكون حالهم لو أن الله عاقبهم على بعض ذنوبهم هذه، وعلى بعض نفاقهم إذاً لجاءوا إليك معتذرين قائلين لك: لا نريد يا رسول الله إلا الإصلاح، ولا نريد إلا الإحسان، تنصلاً منهم عما أتوا من النفاق، وقصداً منهم لإقناع النبي ﷺ بأن صنيعهم ذلك إنما هو لأجل الإصلاح بين الناس، فلو أن الله أنزل بهم بعض عقابه على نفاقهم وصنيعهم هذا لأتوا إلى النبي ﷺ واعتذروا إليه بذلك.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فهو عالم بما في قلوبهم من النفاق وسوء النية وفساد الطوية.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ لا تؤاخذهم ولا تجازهم، واسكت عنهم.

﴿وَعِظْهُمْ﴾ ذكرهم بآيات الله.

﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا۝٦٣﴾ حذرهم عذاب الله وسخطه،

وعلمهم آيات الله وحججه - لعل وعسى أن تصادف قلباً يعيها ويسمعها.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يخاطب الله اليهود والمنافقين بأنا لا نرسل الأنبياء والرسل إلا ليطاعوا، لا ليعصوا؛ فما بالكم أيها اليهود والمنافقون لا تستجيبون، ولا تطيعون، ولا تلين قلوبكم لآيات الله وحججه؟

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ يبين الله تعالى أنه كان الأفضل لهم مكان التمرد والعصيان أن يأتوا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ويعتذروا إليه، ويستغفروا الله، ويستغفر لهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ إذاً لو فعلوا ذلك لغفر الله لهم ذنوبهم، وأدخلهم في رحمته، وسعدوا في الدنيا والآخرة.

﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴿٦٤﴾﴾ لغفر لهم ذنوبهم وما ارتكبوا من مخالفة الرسول، ولكن المعصية لا تهمهم إذا فعلوها، ويستصغرونها ويحتقرونها، ولا يحسون في أنفسهم بالذنب حتى يستغفروا ويطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أخبر الله تعالى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنهم لن يؤمنوا إلا إذا تحاكموا عندك، وتركوا المحاكمة إلى الطاغوت؛ فإذا تحاكموا إلى الطاغوت - فاعلم أنهم ليسوا بمؤمنين.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴿٦٥﴾﴾ ولا يتضايقون من حكمك فيما بينهم ويقبلونه بكل ارتياح؛ فهذا شرط في إيمانهم، وهو أن يقبلوا حكمك بارتياح ورضاً وتسليم.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أخبر الله تعالى المسلمين والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بقدر إيمانهم لو أن الله كتب على المنافقين: ﴿أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ يعني لما امتثلوا أمر الله لو أمرهم بهذا.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ كانوا متمردين على الله تعالى فكلما أمرهم الله ورسوله بأمر أو نهاهم عن شيء - تمردوا عليه وخالفوه وعصوه

واستهزأوا به، فلو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان أفضل لهم من التمرد والعصيان، ولصار لهم قدر عند الله ولعلا شأنهم، وارتفعت درجاتهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا۝٦٦﴾ ولكانوا أرسخ إيماناً، ولكانوا ثابتين على الهدى، ولما تزلزلوا، ومالوا من يمين إلى شمال، ولما هاجت بهم الفتن، ولكنهم لما لم يؤمنوا كانوا على هذا الحال مضطربة قلوبهم خائفة قلقة، ومنتظرين ماذا ينزل عليهم من الغضب والسخط.

﴿وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا۝٦٧﴾ ولو أطاعوا الله ورسوله ﷺ لأعطاهم الله ثواب الدنيا وثواب الآخرة، وكانوا من الشرف الرفيع.

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا۝٦٨﴾ ولدللناهم على طريق الحق.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا۝٦٩﴾ وسيجعل الله أهل الطاعة في صف هؤلاء الأنبياء والصديقين والشهداء، ويدخلهم الله مداخلهم في جنات النعيم.

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا۝٧٠ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أمر الله المؤمنين بأن يأخذوا حذرهم من أعدائهم؛ لأن أعداء الإسلام كانوا محيطين بالمدينة من كل مكان اليهود، والمشركون، وكان المنافقون بين أوساطهم، وكلهم فاتحون أفواههم لالتهام الإسلام والمسلمين، ومتحينون للفرصة لاستئصالهم، والقضاء عليهم؛ فنبه الله المؤمنين بأن يكونوا على حذر شديد من أعدائهم، وفي غاية اليقظة والاحتراز.

﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا۝٧١﴾ إذا دعاكم النبي ﷺ إلى النفار في سبيل الله فانفروا وحداناً أو جماعات.

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ أيها المؤمنون، إن بين أظهركم أناساً يثبطون الناس عن النفار في سبيل الله، وهم المنافقون وضعيفو الإسلام.

﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾ أولئك المثبطون إذا حصل على المسلمين هزيمة أو قتل قال: الحمد لله قد أنعم الله علي حين لم أكن معهم فأقتل.

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ غنيمة وظفر على المشركين.

﴿لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ يتأسف ويتحسر على ما فاته من الغنيمة، وقد كان بوسعه أن يظفر منها بنصيب؛ لأنه من المسلمين الذين دعاهم النبي ﷺ إلى النفور في سبيل الله، إلا أن نفاقه وضعف إيمانه حبسه عن الاستجابة لدعاء النبي ﷺ.

﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ بالغنيمة والأموال فيكثر التأسف على ما فاته من الغنيمة والنصر والشرف.

وقوله: ﴿كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ معناها أنه يقول ذلك القول وهو: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً- كقول الذي يتمنى وهو ليس من المسلمين، أي: أن حال هذا الضعيف الإسلام كحال الذي ليس بمسلم، مع أنه ليس ممنوعاً من الذهاب معهم، والحصول على الغنيمة ما دام يدعي الإسلام.

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أمر الله أولئك الموقنين بثواب الآخرة بالقتال في سبيله، وهم الذين يستجيبون لأمر الله ويأتمرون بأمره أما المنافقون فلا يستجيبون.

﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ يعني في الحالين سوف يؤتيه الله أجراً عظيماً، سواء قتل أو انتصر.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ تثاقل المسلمون حين دعاهم النبي ﷺ للنفير في سبيل الله واستنقاذ المستضعفين في مكة من الرجال والنساء والولدان الذين لم يستطيعوا

الهجرة من تحت سلطان قريش وقهرهم وتعذيبهم بسبب إيمانهم فعاتبهم الله على تثاقلهم واستنكر عليهم تباطؤهم على نبيهم ﷺ وهو يدعوهم للنفير ويحثهم على الخروج في سبيله.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ وقد كان مستضعفو المسلمين في مكة يدعون الله أن يستنقذهم من أهل مكة وأن يخرجهم من بين أظهرهم.

﴿وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا۝٧٥﴾ أي: اجعل لنا من عندك ناصراً يا رب يستنقذنا من أيدي المشركين.

يحث الله المسلمين هنا؛ لأجل أن يتنشطوا ويهتموا ويذهبوا إلى القتال في سبيله، وفي استنقاذ إخوانهم المحاصرين في مكة.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ فالمؤمنون يقاتلون لإعلاء كلمة الله، وأولئك اليهود والمشركون يقاتلون لإعلاء كلمة الطاغوت، والطاغوت: هو كل ما عُبِد من دون الله.

﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ أمر الله المؤمنين بقتال أنصار الباطل وجنود إبليس.

﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا۝٧٦﴾ أخبرهم الله بذلك لأجل أن يتشجع المسلمون وتزيد عزائمهم؛ فإذا رأى المشركون منكم صدق العزم على القتال- خافوكم وكفوا عن مضايقتكم وضعفوا عن مقاتلتكم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ في أول الإسلام أمر الله المسلمين أن يكفوا عن القتال، وأن يصبروا، ومكثوا على ذلك فترة طويلة، وكانوا يتمنون القتال حينها، ثم إن الله أمرهم بعد ذلك بالقتال، فحين أمرهم به تراخوا عنه بعدما كانوا يتمنونه، وأصبحوا يخشون الناس والقتال أشد من خشية الله.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ معترضين على الله حين أمرهم بالقتال وشرعه لهم وقد كانوا من قبل يطلبون الإذن لهم بالقتال.

﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وقالوا: لو أنك يا ربنا أخرت الأمر بالقتال إلى وقت قريب، يقولون ذلك تهرباً من الجهاد والقتال في سبيل الله لضعف إيمانهم.

﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧﴾ أمر الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن يقول لهم بأن الحياة الدنيا والعيش عليها قليل، والأفضل لكم أن تطلبوا الحياة الآخرة بطاعة الله وطاعة رسوله، والامتثال لأمر الله، ولن يظلمكم الله شيئاً، وسيوفيكم أجوركم على الجهاد، لا ينقصكم عليه شيئاً حتى على الخطوة تخطونها: ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [التوبة:١٢٠].

وكان سبب أمرهم بالكف عن القتال- هو أنهم كانوا في أول الإسلام قلة قليلة، فلو أمرهم الله بالقتال وهم على هذه الحال من القلة لاستأصلتهم سيوف المشركين؛ فاستبقاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأجل أن ينشروا الإسلام، ويعلموا الناس، ولم يأمرهم بالقتال إلا حين كثروا وازدادوا حتى لو قتل منهم من قتل فالإسلام في مأمن، ولا زال هناك من يحمله ويبلغه إلى الناس وينشره.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾ فلن ينفعكم القعود والتهاون عن القتال.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ كان المنافقون وضعاف الإيمان إذا أصابهم خير ونعمة قالوا: هذه من عند الله، وإذا أصابتهم المصائب من نقص الأموال والأنفس والثمرات قالوا: هذه بسبب شؤم محمد، ولم نر هذا إلا من حين جاءنا محمد ونزل بلادنا، وبسبب شؤمه، وهذا هو المراد بالحسنة والسيئة هنا.

﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فهو الذي يأتي بالخير والشر.

﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴿٧٨﴾﴾ فما علة هؤلاء القوم لا يفهمون ولو بالغنا في تفهيمهم، ولا يتنبهون ولو واصلنا لهم التنبيه؟

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ ما وصلك من خير فهو من الله.

﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ وما لحقك أيها الإنسان من مكروه فهو بسبب معصيتك، ولو أطعتم الله لأرسل لكم خيرات السماء، وفجر لكم بركات الأرض، ولكنكم استرسلتم في عصيان الله فأصابكم ما أصابكم من المصائب بسبب ذنوبكم؛ جزاءً من الله وعقاباً.

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴿٧٩﴾﴾ ولم نرسله لكم ليأتيكم بالبلاء والوباء كما تزعمون، وهو تعالى مطلع على أعمال الناس جميعاً خيرها وشرها، وسيجازي كلاً على عمله، والله شاهدٌ على أعمالكم أيها الناس ويجازيكم عليها.

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ فطاعته من طاعة الله.

عانى النبي والمسلمون من المنافقين وغيرهم، وكانوا لا زالوا قلة لولا تأييد الله لدينه ونصره لنكبوا الدعوة ولقضوا على الرسالة، وكان المنافقون هم الأغلبية في الساحة، وكلما أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالقتال بدأ هؤلاء بتثبيط المؤمنين وحط عزائمهم.

﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴿٨٠﴾﴾ فمن لم يطعك منهم فاتركه ولست المسؤول عنه فيكفيك أن تبلغهم والله سيجازيهم.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ إذا جمعهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمرهم قالوا: نحن مستعدون ومطيعون وسنفعل وسنفعل.

﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: خرجوا.

﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ قالوا كلاماً غير ذلك الذي قالوه عندك.

﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ وسيجازيهم على نفاقهم.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فلا تؤاخذهم، وتجاهَلْهم، وعاملْهم يا محمد مثلما تعامل المسلمين والله سيؤيد دينه وسينصره.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ والجأ إلى الله وهو الذي سينصرك، فلا تهتم لكيد المنافقين فالله كافيك كيدهم. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا۝٨١﴾ فمن توكل عليه كفاه.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ﴾ استنكر الله تعالى على المنافقين إعراضهم عن التدبر للقرآن، فلو أنهم نظروا فيه وتدبروه لزالت عنهم الشكوك، ولذهب الريب، ولتبين لهم الحق واستوضحوا سبله.

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا۝٨٢﴾ فلماذا لا تنظرون فيه وتدبرونه حتى تستيقنوا أنه كلام الله.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ إذا خرجت سرية للمسلمين أو نحوها- قاموا بالإرجاف في المدينة، وتخويف الناس، وأنه قد حصل على المسلمين، وحصل...، وحصل...

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي: الخبر هذا الذي أذاعوه لو تركوه للرسول ولأهل البصائر- لعرفوا كيف مصدر الخبر هذا ومصداقيته.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا۝٨٣﴾ يُذَكِّر الله المسلمين: لولا فضل الله عليكم، وإرساله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إليكم يعلمكم شرائع دينكم- لكنتم في الشرك والكفر، والجهل والضلال.

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ فقاتل يا محمد فلست مسؤولاً إلا عن نفسك؛ فإذا أمرك الله بالقتال فقاتل؛ خرج معك من خرج، والله هو الذي سيؤيد دينه وينصره، أما أولئك المنافقون فما ضروا إلى أنفسهم.

﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وحثهم على القتال.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فالله هو الذي سيمنع قوة الكافرين وبأسهم وقتالهم، ولا حول لكم أيها المؤمنون ولا قوة إلا بقوة الله وتأييده ونصره.

﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴿٨٤﴾﴾ أشد بأساً من المشركين، فتوجهوا بطاعتكم إليه وأسندوا ظهوركم إليه واعتمدوا عليه فقوته فوق كل قوة.

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ فمن سعى في عمل خير، حصل له قسطه من الثواب حتى أنه لو دل عليه فقط وغيره هو الذي عمله- لحصل له ثوابه.

ومن سار في مضرة على المسلمين وسعى فيها، ولو لم يفعل شيئاً- لحصل له قسطه من العذاب، والنصيب والكفل معناهما واحد.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴿٨٥﴾﴾ شهيداً على كل شيء وحسيباً ورقيباً يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وسيلقى كل مكلف جزاء عمله.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴿٨٦﴾﴾ فإذا أكرمك أحد بكرامة فجازه بمثلها أو بأكثر منها، وفسروها بأنه إذا قال: السلام عليكم، فرد بـ(عليكم السلام ورحمة الله وبركاته) أو بـ(عليكم السلام)؛ بمثلها أو بأحسن منها.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴿٨٧﴾﴾ فسيجمع الله المؤمنين والمنافقين وأهل الكتاب والمشركين يوم القيامة، وسيحكم بينهم، وسيأخذ كل امرئ جزاءه، ولا بد أن يقع هذا، لا ريب فيه ولا شك.

كان هناك منافقون خارج المدينة قد أسلموا في مكة وأبوا أن يهاجروا، وهم متمكنون من الهجرة، وهم غير المنافقين الذين كانوا في المدينة، وقد اختلف المسلمون في أمرهم فناس يقولون بأنهم مؤمنون، وناس يقولون إنهم منافقون

فقال الله تعالىٰ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ ما لكم اختلفتم في المنافقين إلىٰ فئتين؟ استنكر الله عليهم ذلك الاختلاف، ولماذا لا تكون الكلمة واحدة، ويقولون جميعاً إنهم منافقون، وهم كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ وقد تركهم الله في الكفر بسبب ذنوبهم.

﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أتنسبونهم إلىٰ الهدىٰ وهم ضالون، ولو كانوا مؤمنين لبادروا إلىٰ طاعة الله ورسوله ﷺ.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾ فمن حكم الله عليه بأنه ضال ومنافق- فلن تجد له طريقاً إلىٰ الهدىٰ.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أي: أولئك المنافقون الذين في مكة يتمنون أن تكفروا وتصيروا مثلهم.

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ واعتبروهم أعداءً حتىٰ يلحقوا بكم إلىٰ المدينة مهاجرين.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأبوا الهجرة؛ ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ فلا زالوا كفاراً لم يسلموا فاقتلوهم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ إلا إذا وصلوا عند ناس بينكم وبينهم صلح فلا تقتلوهم حرمة للعهد الذي بينكم وبين القوم.

﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ أو أتوا إليكم مستسلمين ضائقة صدورهم، وقد جبنوا عن قتالكم، وعن قتال قومهم- فاتركوا قتالهم فقد كفيتم شرهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ وهؤلاء هم المنافقون؛ لكن الله قد ألقىٰ في قلوبهم الرعب فجبنوا عن قتال المسلمين، وعن قتال الكافرين؛ لأنهم كانوا في الوسط بين الإيمان والكفر.

﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ استسلموا، وقالوا: لسنا مقاتلين لكم، ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴿٩٠﴾﴾ فاتركوهم لشأنهم ولا تتعرضوا لهم بما يؤذيهم من قتال أو غيره.

ثم خاطب الله المسلمين فقال: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ من هؤلاء المنافقين ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ يريدون أن تتركوهم وكذلك يريدون أن يتركهم قومهم أيضاً.

﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ كلما دُعُوا إلى الشرك أشركوا؛ لأن إيمانهم كان ضعيفاً.

﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ أي: هؤلاء القوم إن لم يعتزلوا قتالكم.

﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ ولم يأتوا إليكم مستسلمين.

﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ فأينما وجدتموهم فاقتلوهم.

﴿وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴿٩١﴾﴾ فقد سلطناكم عليهم فاقتلوهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ ما ينبغي لمؤمن أن يقتل مؤمناً، ولا يُتَوَقع ذلك منه ولا يتأتى؛ لأن المؤمنين إخوة، ودم المسلم على المسلم حرام إلا على جهة الخطأ.

فإذا حصل قتل الخطأ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ يعتقها القاتل كفارة لذلك.

﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ إلا إذا سامحوا وعفوا عنها.

﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ إذا قتل المسلم مسلماً على سبيل الخطأ لكن ذلك المسلم المقتول لا زال بين الكفار، ولا زال أهله كفاراً لا يصح أن يعطيهم الدية لأجل كفرهم- فيكفي تحرير رقبة مؤمنة وتسقط الدية.

﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ عهد وصلح وسلم، ولو كان من اليهود أو من النصارى أو من المشركين.

﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ فأما هؤلاء فلا بد من الدية وتحرير رقبة مؤمنة؛ لأجل العهد الذي بيننا وبينهم، ولأجل حرمة العهد والميثاق؛ لأن دمه قد صار محرماً بسبب العهد.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ رقبة يعتقها كما في وقتنا هذا.

﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ لا بد من التتابع بدل الرقبة.

﴿تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴿٩٢﴾﴾ شرع الله هذا الشرع وأمرهم بهذا لأجل حكمة في ذلك منه جل وعلا؛ لأنه عليم حكيم فهو عالم بما يصلح عباده؛ لأن الفاعل على هذا الوجه إذا علم ما الذي سيحصل عليه إن فعل ذلك- تحرز عن الأسباب التي يحصل قتل الخطأ بسببها كتخفيف السرعة في السيارات مثلاً وغير ذلك.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴿٩٣﴾﴾ فهذا لا كفارة عليه؛ لأنه قد خرج من ولاية الله، واستحق غضب الله وسخطه.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ خاطب الله المؤمنين إذا خرجتم للجهاد في سبيل الله ولقتال المشركين- فلا تقتلوا أحداً حتى تتبينوا وتتثبتوا حتى لا تقتلوا أحداً، ثم ينكشف أنه كان مؤمناً.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إذا أقبل أحد إليكم يريد الإيمان، فلا تقولوا: إنه إنما أقبل إلينا خوفاً منا أن نقتله ونأخذ أمواله، وإنه لم يؤمن حقيقة، وإنما آمن خوفاً من القتل؛ فاقبَلُوا منه ولو كان إنما يقول ذلك نفاقاً؛ كأن ينهزم المشركون مثلاً وبقي منهم ناس بأموالهم لم يفروا وآمنوا- فاقبلوا منهم، ولا تقولوا إنهم إنما آمنوا للسلامة من القتل.

ومثل ما حصل من زيد بن حارثة حين قتل رجلاً وكان قد قال قبل أن يقتله: لا إله إلا الله؛ فقال زيد: إنما قالها خوفاً من السيف، فغضب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك وقال: ((هل فتشت على سويداء قلبه، فكيف وقد قال: لا إله إلا الله؟!!)) فإذا قد نطقها فكف عنه، ولو لم يقلها إلا ليدفع عن نفسه.

﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ فسوف يعطيكم الله من عنده فلا تفعلوا وتقتلوا هذا الذي قد قال: لا إله إلا الله؛ لأجل تغنم أمواله.

﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ كنتم مشركين مثلهم ولم تدخلوا في الإسلام إلا بقولكم: لا إله إلا الله، ولم تحصنوا أموالكم وأنفسكم إلا بها.

كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يأمرهم إذا بعث سرية أو نحوها للغزو بأنهم إذا مروا بأهل قرية فلا يبيتوهم، وتريثوا علهم يسمعون أذاناً أو شيئاً يدل على إسلامهم، ويتبينوا حتى يتضح لهم أمرهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ عالم بأعمالكم مطلع على نواياكم؛ فأطيعوا الله في السر والعلن.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا بعث جيشاً أو سرية لا يبعث الناس جميعاً، وإنما يترك أناساً منهم لئلا يترك المدينة بغير من يحميها، فقال: ليس سواء من يخرج للقتال، ومن يقعد بل يفضل الله ﴿الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ وهم جميعاً من أهل الصلاح عند الله، والمثوبة عند الله، ولم يدعُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم الناس جميعاً للغزو إلا في يوم أحد، وجيش العسرة في غزوة تبوك، وأما بقية الغزوات فلم يَدْعُ إلا بعضهم لا جميعهم.

﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ غير المعذور أما المعذور فأجره كأجر المجاهد إذا كان لم يمنعه إلا عذره من الخروج.

﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ فهم مفضلون درجات على أولئك القاعدين ولهم مغفرة ورحمة ليس للقاعدين مثلهما.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ تحدث الله عن أولئك المؤمنين الذين امتنعوا عن الهجرة ومكثوا في مكة، وسماهم بقعودهم ظالمين لأنفسهم؛ إذا كان قعودهم لغير عذر، وإنما أقعدهم ضعف الإيمان؛ لأن الله كان قد أمر المؤمنين بالهجرة من مكة عن بكرة أبيهم إلا أهل الأعذار- فقعد ناس منهم وليسوا من أهل الأعذار؛ فإذا توفتهم الملائكة ولم يهاجروا بعد فستسألهم الملائكة: ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سوف يعتذرون بهذا العذر، فتقول لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ فتفروا بدينكم من بين أظهر المشركين.

﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٩٧ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨﴾ إلا هؤلاء الذين هم ضعاف ولا يعرفون طريقاً، ولا يهتدون لها، ويهلكون لو خرجوا بسبب خروجهم، ولا يدرون إلى أين يأوون، فهم معذورون عن الهجرة.

والهجرة واجبة في زمان النبي ﷺ وبعده، ولها تفاصيل؛ إذا خاف المكلف الفتنة على دينه فتجب، أو أن يرغمه أحد على معصية فتجب.

﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٩٩﴾ أي: هؤلاء المستضعفون هم من أهل الرخصة، وقعودهم عن الهجرة معفو عنه.

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ يؤمنهم الله تعالى من الضياع؛ لأن بعضهم كان يدور بفكره أنه إذا خرج من مكة سوف يضيع وسيلحقه فقر وحاجة فأمنهم الله تعالى بأن من خرج مهاجراً سوف يجد ما يرغم به أنوف أعدائه من الرزق والسعة وحسن المعيشة.

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٠٠﴾ سوف يكتب الله له ثواب المهاجرين، نزلت في رجل كان قد سمع الأمر بالهجرة، وكان مريضاً؛ فأبى إلا أن يخرج، فحملوه على ناقته؛ فما لبث أن مات بعدما خرج من مكة؛ فنزلت.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴿١٠١﴾﴾ إذا كنتم مسافرين في غزو وواجهتم العدو، وحضرت الصلاة وخفتم إذا صليتم أن يباغتكم العدو- فلا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة؛ فيصلي نصفكم مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، والنصف الآخر يبقى للحراسة.

فيصلي الأولون ركعة مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ فإذا قام إلى الركعة الثانية طوَّل فيها حتى يكمل من خلفه صلاتهم، ويأتي الآخرون ليأتموا به في الثانية بعد أن يأخذ الأولون مكانهم في وجه عدوهم.

لأن الصحابة كانوا يتنافسون على الصلاة مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وكانوا حريصين على ألا تفوت عليهم الصلاة معه، وإلا فإنه يصح وقت الفرض أن يصلي كل شخص فرادى، وهذا هو قصر صلاة الخوف وهو غير القصر للرباعية.

لأن الكافرين يتحينون الفرصة عليكم فإذا رأوا الغفلة منكم باغتوكم.

ثم أخذ الله تعالى في تفصيل كيفية صلاة الخوف كما ذكرنا فقال: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ إذا قاموا معك للصلاة- فليكونوا متأهبين بأسلحتهم.

﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ لأن وقت السجود وقت غفلة فانتبهوا خاصة وقت السجود، ثم يطوّل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في الثانية حتى يتم هؤلاء صلاتهم.

﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا﴾ وهم أولئك المرابطون الذين لم يصلوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في أول ركعة.

﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ يلحقوا فضيلة الجماعة معك في الركعة الثانية.

﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ فهم يترقبون الغفلة منكم.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ وقت الصلاة.

﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ وكونوا متحذرين من المشركين ومنتبهين، ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴿١٠٢﴾﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ إذا خرجتم من الصلاة فأكثروا من ذكر الله؛ لأن هذا الموطن من مواطن الذكر قال الله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال:٤٥]، واستنزلوا النصر بذكر الله، والدعاء له وطلبه، وسينصركم.

﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾ ذهب الخوف والعدو.

﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وائتوا بها كاملة بأذكارها وأركانها كما علمكم الله.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴿١٠٣﴾﴾ فرضاً مفروضاً من الله عليكم فلا تُخِلُّوا بها وتقصروا فيها؛ فأتموها على جميع صفاتها من الأذكار والأركان.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ لا تضعفوا في طلب عدوكم وقتالهم.

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ فلا يكونون أقوى منكم؛ فإنه يلحقهم من الأذى مثل ما يلحقكم فلا يكونوا أصبر منكم.

﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴿١٠٤﴾﴾ وأما أنتم فلكم زيادة وهو أنكم ترجون من الله ثوابه ونعيمه وزيادة الدرجات في الجنة بخلافهم؛ فلا رجاء لهم فرأس مالهم الحياة الدنيا، فإذا قتلوا ذهب عليهم كل شيء، ودخلوا جهنم خالدين فيها.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ فكل ما قصه الله حق، وكل ما أمر به وافترض فيه حق مبني على الحكمة، وعلى ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ لتحكم بينهم يا محمد بما علمك الله في القرآن.

﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴿١٠٥﴾﴾ ولا تكن يا محمد في جانب الخصم الخائن تناصره وتدافع عنه، بل اتركه.

قيل: كان هناك شخص سرق كيس دقيق من أحد البيوت، وهرب بعد أن تركه في أحد البيوت، ثم حصل التنازع بسببه، واتهم الشخص الذي وضع الكيس عنده، ثم إن الله حذر نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن لا يقف مع السارق ليبريه، أو أن يوجه التهمة لمن وجد الكيس عنه.

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴿١٠٦﴾﴾ أمر الله نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يستغفر؛ لأن أهل المدينة كانوا يريدون أن يقف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مع صاحبهم ذلك الذي سرق، ويلحقوا التهمة بذلك الذي أودع الكيس عنده؛ فأمره الله بالاستغفار لأنه كاد أن يقف مع ذلك الشخص السارق ويبرئه.

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴿١٠٧﴾﴾ فلا تدافع عن ذلك السارق الذي لا يبالي بانتهاك محارم الله.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ هذه صفة السارق ومن كان على شاكلته من المنافقين والخائنين.

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴿١٠٨﴾﴾ فهو مطلع على أعمالهم وعالم بخيانتهم، وسيجازيهم على ما اقترفوا، ويجازيهم على أعمالهم التي يخفونها.

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴿١٠٩﴾﴾ فعلى فرض أنكم برأتموهم في الدنيا بجدالكم عنهم، فمن يدافع عنهم يوم القيامة، والله مطلع على الضمائر، وهو الحكم بينهم، وهذا تحذير عن القيام مع ذلك الخائن، والجدال عنه.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴿١١٠﴾﴾ وهذا ترغيب من الله لأولئك الخونة والسرق ونحوهم، بأن باب

التوبة مفتوح لمن أراد الرجوع إلى الله.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴿١١١﴾﴾ الذي يرتكب المعاصي فلم يضر إلا نفسه لا غير والله عليم حكيم لا يعاقب إلا من يستحق العقاب.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴿١١٢﴾﴾ يريد به ذلك السارق الذي سرق وأراد أن يلصق التهمة بغيره.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ كانت طائفة من المسلمين قد همت أن تضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتدفعه بالقيام مع ذلك الخائن، غير أن الله كان مؤيداً لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم؛ فأوحى إليه ألا يفعل ويقف مع ذلك الخائن.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ فلا قدرة لهم؛ لأن الله مؤيد لك وعاصمك، وما سعوا إلا في مضرة أنفسهم حيث استحقوا بسبب ذلك سخط الله وعذابه.

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴿١١٣﴾﴾ يذكر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بما أعطاه من الفضل العظيم حيث اختاره واصطفاه لحمل الرسالة؛ فأنزل إليه القرآن العظيم، واختصه بالحكمة، وعلمه ما لم يعلم.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ حين استقر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة، وكثر المسلمون وتوسع الإسلام، وصار للإسلام دولة وهيبة- حينها كان المنافقون يعقدون الاجتماعات فيما بينهم، ويعقدون الخطط، كيف يكيدون للإسلام؟ وكيف يصدون عن دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ فأخبر الله تعالى أن تجمعهم هذا لا خير فيه، وإنما هو إثم ومعصية.

وأما إذا كان التجمع والتناجي في عمل بر من صدقة، أو إصلاح بين الناس، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر- فهذا هو الذي ينبغي أن يجتمعوا عليه؛ لأنه طاعة وخير وثواب.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴿١١٤﴾﴾ من يفعل هذه الأشياء ابتغاء رضوان الله، لا لغرض يعود على نفسه، وإنما خالصاً لله تعالى- فهذا سيعطيه الله أجراً عظيماً، وهو الثواب في الآخرة.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴿١١٥﴾﴾ يتوعد الله أولئك الذين يتناجون بالإثم والعدوان والكيد على الإسلام والمسلمين.

ومعنى يشاقق الرسول: أن ينحاز في شق مناصباً للرسول ومكايداً له، ومشاققتهم هذه كانت من بعدما دخلوا في الإسلام، وعرفوا أنه الحق والهدى، فهؤلاء الذين يتبعون طريقاً غير طريق المؤمنين، فسوف يتحملون إثم فعلهم هذا، وتبعاته عليهم من دخول جهنم، والعذاب الدائم فيها.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴿١١٦﴾﴾ المنافقون الذين يعقدون المؤامرات على الإسلام فهم في جانب الشرك، ويبتغون بفعلهم هذا رجوع الجاهلية والشرك، وأما اسم الإسلام فهم متمسكون به؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لما هاجر إلى المدينة أسلم أهل المدينة جميعاً، وأسلم معهم هؤلاء مضطرين في الظاهر، وأما قلوبهم فلا زالت على الشرك والكفر.

فأخبر الله أنه لن يغفر لهم أبداً، وأما ما كان دون الشرك- فالله سيغفره، كالذي لم تبلغه الدعوة ونحوه، كمن يقع في معصية على طريق الخطأ أو النسيان؛ بخلاف الشرك فلا يعذر أحد عليه ولو جهلاً أو خطأً.

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ المشركون كانوا لا يعبدون مع الله تعالى إلا إناثاً؛ لأنهم كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، ويتوجهون بعبادتهم إلى غير الله، وفي الواقع فإن المشركين إنما يعبدون الشيطان فهو الذي دعاهم إلى عبادة الملائكة وزين لهم أن يصوروها ويعبدوا صورها.

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: الشيطان، أي: طرده من رحمته.

﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾ أقسم إبليس على نفسه أنه سيقتطع قطعة من عباد الله ويدخلهم في عبادته، ولا بد أن يأخذ منهم نصيباً، وفعلاً فقد أخذ النصيب الأكبر من الناس؛ فالمؤمنون قلة، والباقون هم أتباع الشيطان.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أقسم إبليس على نفسه أن هؤلاء الذين يعبدونه سيضلهم، ويخرجهم عن الحق ويرمي بهم في سبل الضلال.

﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ سأصرفهم عن الدين الحق، وأجعلهم يتعلقون بالأماني والأوهام.

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ زين الشيطان للمشركين تحليل بعض الأنعام وتحريم بعضها، وكانوا يقطعون أذن ما حرموه ليعرف أنه حرام.

وصاروا يدينون بهذا من عند أنفسهم، وما أنزل الله بها من سلطان.

وتبتيك آذان الأنعام هو تقطيعها لتكون علامة للناس.

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ فغيروا أحكام الله فحرموا ما أحله الله، واختلقوا لهم ديناً من عند أنفسهم، وزين لهم الشيطان ذلك.

﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ من يتخذ الشيطان إلهاً ويطعه- فقد خسر خسراناً ظاهراً، وباء بسخط الله.

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ الشيطان ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ والله إذا وعد مغفرة فوعده صدق وسيغفر له، وإذا وعد بالجنة فلن يخلف وعده، وأما وعود إبليس فليست إلا أماني وأكاذيب، وسينصب له منبر يوم القيامة وينادي: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم:٢٢]، شامتاً بهم.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴿١٢٢﴾﴾ فهذا جزاء من عمل الصالحات، ولم يطع الشيطان، ووعد الله حق وصدق ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴿١٢٣﴾﴾ كان اليهود والمسلمون يتجادلون فيما بينهم فاليهود تقول: نحن أبناء الله وأحباؤه، والجنة لنا، وقد اختارنا الله، وفضلنا على العالمين، ولن يعذبنا، وإذا عذبنا فليس إلا أياماً معدودة وسنخرج.

والمسلمون يجيبونهم: بأنا نحن الأولى بالثواب منكم، فقد آمنا بموسى وعيسى ومحمد، ولن يعذبنا الله، فقال لهم الله جميعاً: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فالناس سواسية عند الله؛ فمن يعمل سوءاً فلا بد أن يلقى جزاءه، ولن يدفع عنه من الله أحد.

فلينتبه المرء ويتثبت ويتحقق في أمور دينه، ويطلبها من منابعها فلن ينفعه أحد، وقد علمنا من الذي ينبغي أن نتبعه، ومن سيدلنا على طريق الهدى والطريق المستقيم، والقرآن يتهدد ويتوعد أن الله لن يتنازل لأحد عن وعده، ولن تنفع عنده شفاعة أحد فليتحر كل امرئ لأمور دينه، ويبحث وينظر؛ فلا بد أن يتوصل إلى الحق والصواب بعقله إن أحسن النظر، وتجرد عن الأهواء.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴿١٢٤﴾﴾ من آمن سواء كان ذكراً أو أنثى، وعمل الصالحات وهو مؤمن فجزاؤه الجنة عربياً كان أم أعجمياً، يهودياً أم نصرانياً، ولا دخل للعناصر في الجزاء والحساب إنما هي الأعمال.

والنقير: هي النقرة التي في ظهر نواة التمر.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

﴿حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾ أخبر الله أن الدين الحق هو دين من أسلم وجهه، واستسلم وانقاد لله مع عمل الصالحات، واتبع ملة إبراهيم التي هي ملة محمد ﷺ؛ لأن الله تعالىٰ قد بعثه علىٰ ملة إبراهيم.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ۝١٢٦﴾ فكل ما فيهما ملك له سبحانه وتعالىٰ، وكل ما تعبدونه وتدعونه آلهة كلها ملك لله تعالىٰ؛ فلا تعبدونها واعبدوا مالكها الذي هو مالك السماوات والأرض، فهو الذي تحق له العبادة.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ أخبر الله النبي ﷺ بأن المسلمين سيستفتونك في أمر النساء.

﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ سيخبركم الله بأمرهن وشأنهن، وكذلك القرآن سيخبركم، وقد تلا أمرهن في أول السورة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء:٣]، وهذا جواب الاستفتاء، وهو الإذن من الله للرجل في الزواج باليتيمة إذا وثق من نفسه بحسن العشرة لها؛ فإن لم يثق من نفسه بحسن العشرة فليتزوج غيرها ولا يتزوجها.

﴿يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾: لا توفوهن حقوقهن، وإنما تتزوجون بهن لتأخذوا أموالهن.

﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ وزواجكم بهن ليس زواج رغبة، وأما إذا كان عن رغبة ومحبة فلا بأس فيه.

﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ يعني سيفتيكم الله في أمرهم؛ لأنهم كانوا لا يورثونهم، وكان عندهم أنه لا يرث إلا من حاز الغنيمة، وركب الخيل، وحمل السيف؛ فرد الله عليهم بأن للرجال نصيباً مما اكتسبوا، وللنساء نصيباً مما اكتسبن، وللذكر مثل حظ الأنثيين، وقد أفتاهم الله في أمرهم في أول السورة.

﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ وقد تقدم في أول السورة كيفية ذلك بأن يحيطوا أموال اليتامى بالحفظ، ويحافظوا عليها حتى يبلغوا سن الرشد، وأن على الولي أن يعلمه كيفية المحافظة على ماله، وإن كان الولي غنياً فليستعفف، وإن كان فقيراً فليأكل بالمعروف.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴿١٢٧﴾﴾ حثهم الله على أن يحسنوا إلى اليتامى وإلى المستضعفين.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ حدثت قصة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أنه تصالح هو وإحدى نسائه، وهي سودة بنت زمعة بن المطلب بن الأسود؛ وكانت قد أسنت وكبرت، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم كان قد أراد أن يطلقها، فخافت ذلك فقالت: يا رسول الله أنا متنازلة عن حقوقي مقابل أن تبقيني في نسائك، وسأهب ليلتي لعائشة؛ لأنها أحبت أن تموت وهي تحت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فرضي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك.

فإذا خافت المرأة الطلاق وأرادت أن تصالحه كذلك- فالصلح أحسن من الطلاق وأفضل.

﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ النفوس مجبولة على البخل والشح، فهي لا تسمح بأن تتنازل عن حقوقها إلا بتعب وشدة، ولكن الأفضل لها أن تتنازل عن حقوقها، ولو لم ترد ذلك لتفادي ما هو أعظم مما تنازلت عنه.

﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴿١٢٨﴾﴾ والأفضل ألا يطلقها، ويحسن إليها ولا يفارقها، وهذا هو الحل الأفضل أن تتنازل عن حقوقها مقابل بقائها تحته، والزوج ينبغي له أن يقبل هذا العرض ويرضى به.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ فالإنسان ولو حرص على أن يعدل فلن يستطيع، ولا بد

من الميل، والمراد به: في الحب، والجماع؛ فإذا كان الأمر كذلك- فاعدلوا في البيتوتة بينهما والنفقة اللذين هما تحت قدرة المرء واستطاعته، ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالتي ليست متزوجة ولا مطلقة.

﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩)﴾ وتعدلوا بينهن ولا تطلقوا.

كان النبي ﷺ يعدل بين نسائه ويقول: ((هذه قسمتي فيما أملك، فلا تؤاخذني بما تملك ولا أملك))، فالحب غريزة مطبوعة من الله.

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)﴾ إذا تفرق الزوجان وطلقها الزوج فسوف يغني الله كل واحد، وعداً منه؛ فلا يظن أحدهما أنه قد انتهى كل شيء، فسوف يعوض الله كلاً منهما.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فهو مالك لهما وهما في قبضته، فسوف يغني كل واحد منهما من فضله.

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١)﴾ أخبر الله المؤمنين بأنه قد وصاهم، وقد أوصى أهل الكتاب بتقواه وعدم مخالفة أوامره، وإن لم تطيعوه ولم تتقوه فله ملك السماوات والأرض ووبال كفركم عائد عليكم، والله غني عن طاعتكم وتقواكم لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه من أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها، وهو المحمود الذي تنطق بحمده أجرام السماء والشمس والقمر والرياح والسحاب والمطر، وحتى جوارحكم أيها العصاة المتمردون فإنها تنطق بعظيم فضل خالقها وكريم نعمته وجميل منته.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢)﴾ فكل ما في السماوات والأرض ملك الله وهو المهيمن والرقيب والشاهد على كل ذلك أحاط بها علماً وأحصاها عدداً وغمرها برحمته وحفظها بقدرته، وهو محيط بأعمالهم، وعالم بها، وسيحاسبهم.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴿١٣٣﴾﴾ فهو قادر على أن يذهب الناس جميعاً من وجه الأرض، ويستبدل بهم غيرهم؛ فاحذروه ولا تتمردوا عليه وسارعوا إلى سبل رضوانه.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴿١٣٤﴾﴾ من أراد خير الدنيا فالله عنده خير الدنيا والآخرة؛ فلماذا لا تطلبون ثواب الدنيا والآخرة، وتقبلون إليه؛ لتنالوا الدنيا والآخرة، ولستم في حاجة إلى أن تعصوه لتحصلوا على الدنيا، فهي بيد الله، وستحصل لكم الدنيا في طاعته، وطاعته من أسباب الرزق قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق]، بالإضافة إلى نيل ثواب الآخرة.

ولا رزق في الواقع إلا ما احتاجه الإنسان أما ما جمعه، ولم يأكله فليس رزقاً، وإنما طمع الإنسان وحرصه يدفعه إلى ذلك، والله قد تكفل برزق الإنسان، وسيعطيه ما يسد حاجته وحاجة من يعوله، وما زاد على ذلك فليس له، وإنما هو حساب ووبال في الآخرة إذا اكتسبه من غير طرقه، وفي الدنيا هو عليه تعب وعناء.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أمر الله المؤمنين بالقول بالحق، وبأن يقيموا الشهادة الحق، ولو على أنفسهم أو أقاربهم، فريضة من الله أوجبها عليهم بأن ينطقوا بالحق ويشهدوا به ولا يكتموه.

﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ فلا تترك الشهادة لأجل أن المشهود عليه فقير فالله أولى بالفقير منك، أو لأجل أن المشهود غني فالله أولى بالغني والفقير منك، أو لأجل طمعك فيما في يد الغني، فاشهد ولو أقمت الشهادة على فقير فالله أولى به، وكذلك لو أقمتها على غني أو قريب.

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ تحروا الحق والشهادة بالعدل ولا تعدلوا بالشهادة وتميلوا بها مع هوى أنفسكم.

﴿وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ إذا لويتم في الشهادة وغيرتموها عن وجه الحقيقة، أو أعرضتم عن الشهادة وأبيتم إقامتها فالله سيجازيكم على ذلك، وهو مطلع على أعمالكم، وعلى ما في ضمائركم؛ فلا تعرضوا أنفسكم لسخط ربكم وعذابه فإنه يعلم سرائركم وضمائركم وجميع أعمالكم ومرجعكم إليه للجزاء.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ دعا الله تعالى الذين آمنوا بألسنتهم إلى الإيمان بالله ورسوله حق الإيمان، والتحقق بالتصديق الصادق.

﴿وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ وآمنوا بالقرآن؛ لأنه قد كثر الذين آمنوا بألسنتهم في المدينة من المنافقين؛ فأمرهم الله بالتصديق وحثهم على صدق الإيمان بالله وبرسوله ﷺ وبالقرآن وبما أنزل الله على عيسى وموسى عليهما السلام والذي يراد منهم هو الإيمان الذي يصدقه العمل، فمن صدق إيمانه حسن عمله وسمع وأطاع لله ولرسوله ﷺ، وحافظ على أوامر الله وفرائضه واجتنب معاصي الله وخشع وتواضع لله.

﴿وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ التوراة والإنجيل.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ فقد توغل في الضلال وابتعد عن الحق وهوى في الهلكة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ أراد به أولئك المنافقين الذين في المدينة دخلوا في الإيمان، ثم نقضوا إيمانهم بالنفاق، ثم آمنوا، ثم كفروا وازدادوا كفراً؛ فهؤلاء لا حظ لهم في مغفرة الله، ولا نصيب لهم في هدايته.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لأنهم جمعوا بين الكفر وكيد الإسلام والمسلمين من داخله، فكانوا أضر من الكفار، قال تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤].

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كانوا يوالون اليهود ويناصحونهم ويزعمون أنهم مؤمنون، وهذه صفات المنافقين.

﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴿١٣٩﴾﴾ ما هي علة المنافقين؟ وما هو السبب الذي دعاهم إلى موالاة الكافرين ومناصحتهم؟ أيطلبون بذلك أن يتقووا بهم ويعتزوا؟ فإذا كان ذلك مطلبهم فقد أخطأوا طريق العزة والقوة، فليس للكافرين عزة ولا قوة، ولا بأيديهم شيء من ذلك، والعزة كلها لله وبيده يعطيها لأوليائه المؤمنين.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ كان المنافقون يجالسون اليهود والكفار، ويسمعونهم يستهزئون بالقرآن وبالنبي ﷺ، ولا ينكرون عليهم، فأخبرهم الله تعالى بأنه قد أنزل عليهم في الكتاب قبل هذه الآية ألا يقعدوا معهم، وأنهم إن فعلوا ذلك فهم مثلهم في الكفر.

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴿١٤٠﴾﴾ لا خير في المنافقين وإيمانهم مدخول، وهم عند الله من أهل جهنم، فلا تركنوا إليهم أيها المؤمنون.

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أمر الله تعالى المؤمنين أن يبتعدوا عن المنافقين وأن يحذروهم لأنهم ليسوا بمؤمنين، وليسوا من المسلمين، وإنما دخلوا في الإسلام ليتحصنوا به من سيوف المسلمين، وليتمكنوا من كيد الإسلام والمسلمين، وأخبر الله هنا أن المنافقين منتظرون لهلاك النبي والمسلمين، وفي سعي جاد في التخطيط لنسف الدين وأهله واستئصاله من جذوره فاحذروهم أيها المؤمنون، ولا تميلوا إليهم ولا تدافعوا عنهم، ولا توالوهم، وابتعدوا عنهم كل البعد.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ حصل لكم نصر أيها المؤمنون.

﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ فأعطونا نصيبنا من الغنائم فنحن معكم.

﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ وإن كان النصر للكفار ذهبوا إليهم وقالوا: ألم نحصنكم ونحرسكم ونمنعكم من المؤمنين، يتوددون إليهم ويستعطفونهم لكي يعطوهم مما حازوه وليأمنوا شرهم.

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أيها المؤمنون والمنافقون، وسيثيب المؤمنين ويعذب المنافقين.

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴿١٤١﴾﴾ وعد الله المؤمنين وبشرهم بأن مساعي المنافقين ومكائدهم ستذهب باطلاً، ولن يصل إليهم من مكائدهم ومصائدهم شيء، فلتطمئن قلوب المؤمنين وليذهب روعهم.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ يظن المنافقون أنهم في خير العمل، وأنهم قد تمكنوا من مخادعة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ونجحوا في مكيدتهم ونفاقهم؛ فهم فرحون بذلك حيث نجحوا في مخادعة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين، إلا أن مكر الله فوق مكرهم، وسلطانه فوق سلطانهم، وقوته فوق قوتهم؛ فلا يفرحوا فإن الله غالبهم ومعذبهم بما عملوا.

﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ لأنهم غير مصدقين بثواب ولا عقاب، فليس في قلوبهم من الإيمان ما يدفعهم إلى الصلاة ويزعجهم إليها ويبعثهم عليها.

﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ فلا يصلون إلا ليراهم المسلمون.

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴿١٤٢﴾﴾ وهو الذكر الذي يقولونه لكم بألسنتهم ليراهم الناس، أما قلوبهم فخالية من ذكر الله، ليس فيها إلا الكفر والنفاق.

﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ المعنى أنهم فريق متوسط بين المؤمنين والكافرين.

﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ لا من المؤمنين ولا من الكفار، فهم في الوسط بينهما.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ يظن المنافقون أنهم قد أحسنوا الاختيار حين أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر، ولو كانوا من أهل العقول لاختاروا دين الإسلام ودانوا به؛ لأن فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، ولكنهم توغلوا في الضلال لسوء اختيارهم؛ فحكم الله عليهم بأنهم ضالون ولا سبيل لهم إلى الهدى، ولا يصح أن يقال: إنهم من أهل الهدى والثواب.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يحذر الله المنافقين: يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم لا تتخذوا الكافرين أولياء وانصبوا لهم العداء.

﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ فلا تجعلوا لله عليكم سلطاناً في تعذيبكم فهل تريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة وتفتحوا على أنفسكم أبواب الشقاء وأسباب العذاب فما دمتم قد حصنتم أنفسكم من سيف الإسلام وحفظتم أموالكم وحصنتموها من تغنم المسلمين بإظهار الشهادتين فلا تفتحوا على أنفسكم باب القتل وتغنم الأموال وسبي النساء والأطفال.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ فهم في أشد عذاب جهنم، ولا شافع لهم، ولا دافع عنهم من عذاب الله.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ ما قد أفسدوا ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ يخاطب الله المنافقين بأنه ليس محتاجاً لتعذيبكم، ولا يريد أن يعذبكم؛ فارحموا أنفسكم أيها المنافقون، ولا تجعلوا لله عليكم سلطاناً بتسببكم في هلاك أنفسكم، والله شاكر عليم، فمن شكره وأطاعه- أثابه وضاعف له الثواب، لا يخفى عليه ما ظهر من أعمالكم وما بطن.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ لا يحب الله أن يتكلم أحد بالكفر والباطل إلا على سبيل الإكراه،

فقد عفا الله عما أكره عليه المسلم، رحمة من الله وترخيصاً لعباده المؤمنين.

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ فهو عالم بما في قلوبكم وسيحاسبكم، ومن تكلم بكلمة الكفر وهو مكره- فالله عالم بما في قلبه ومطلع عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ أهل هذه الصفة هم اليهود آمنوا بموسى، وكفروا بعيسى ومحمد ﷺ، وهم بذلك يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله بإيمانهم ببعض وكفرهم ببعض، ويريدون أن يتخذوا ديناً وسطاً، وهذا لا يصح، وإنما الواجب الإيمان بكل أنبياء الله ورسله وكل كتبه، وهؤلاء الذين هذه صفاتهم كفار خالصون، لا ينفعهم الإيمان ببعض الأنبياء مع كفرهم بالبعض الآخر.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ آمنوا بهم جميعاً بخلاف إيمان أولئك، ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ ثواب الله ورضوانه خاص بمن آمن بالله وبجميع أنبيائه ورسله، ولم يكفروا بأي منهم.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ سأل اليهود النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء خاصاً بهم؛ تعنتاً منهم، وتمرداً على الله.

﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ وسؤالهم هذا إنما هو تعنت منهم وتمرد، وليس طلباً للحق وبحثاً عنه.

﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وعادتهم التمرد على الله سبحانه وتعالى.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ عذبهم الله بسبب ظلمهم، وكان هؤلاء الذين سألوا ذلك سبعين رجلاً، ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ

﴿الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ يعني أن اليهود عبدوا العجل من دون الله، ثم تاب الله عليهم حين تابوا، وهؤلاء غير أولئك الذين سألوا موسى أن يريهم الله جهرة؛ لأن اليهود انقسموا قسمين، فقسم منهم ذهبوا يكتبون التوراة مع موسى عند الجبل، وهم أولئك السبعون، والباقون مكثوا عند هارون، وهؤلاء هم الذين عبدوا العجل.

فأما أولئك فقد أخذتهم الصاعقة بسؤالهم الرؤية، وأما الباقون فتابوا فعفا الله عنهم بعد أن شدد الله عليهم في التوبة حيث أمرهم بقتل أنفسهم.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴿١٥٣﴾﴾ أعطاه الله حجة ظاهرة، ومعجزة قوية.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ رفع الله الجبل فوق اليهود حين تمردوا عن أحكام التوراة؛ لأجل أن يأخذوا الميثاق، وهو أن يعملوا بأحكام التوراة، فلم يعملوا بها إلا حين رفع الله الجبل فوقهم كأنه ظلة، مثل المظلة فوقهم لأجل أن يعاهدوا ويعملوا بالتوراة، وهذا من شدة تمردهم على الله وعتوهم. أخبر الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن تمرد اليهود قديم، وأنهم متمردون من عهد موسى عليه السلام.

﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ وعصوا عند ذلك، وخالفوا عند دخولهم.

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ نهاهم الله تعالى عن الاعتداء في السبت ولكنهم عصوا واعتدوا.

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴿١٥٤﴾﴾ ولم يفوا به ونكثوا وعصوا.

يعدد الله على اليهود أفعالهم، وأخبر أنه جازاهم بسبب كثرة تمردهم فذكر تعالى بعضاً من ذلك فقال:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ بسبب نقضهم ميثاقهم.

﴿وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وبسبب كفرهم بآيات الله.

﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وبسبب قتلهم لأنبياء الله بغير حق.

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ بسبب ذلك وهو أن الله يبعث إليهم الأنبياء

لينذرونهم؛ فيقولون: قلوبنا مغطاة ولا نفهم ما تقولونه.

﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴿١٥٥﴾﴾ ليست غلفاً كما يزعمون، وإنما قد غطتها الذنوب.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴿١٥٦﴾﴾ بسبب كفرهم، وبسبب قولهم على مريم إنها زانية.

وبسبب قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وإنما شبه لهم، وليس هو عيسى الذي قتلوه وصلبوه.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴿١٥٧﴾﴾ فقد اختلف الأمر عليهم واشتبه عليهم هل المقتول هو أو غيره؟

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴿١٥٨﴾﴾ توفاه ورفعه، وكان رفعه لحكمة منه تعالى ومصلحة يعلمها فأفعاله صادرة عن الحكمة والمصلحة.

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴿١٥٩﴾﴾ أخبر تعالى أنه لا بد أن يؤمن بعيسى عليه السلام كل واحد من أهل الكتاب عند الاحتضار للموت ويصدق بنبوته ورسالته ولكنه لا ينفعه إيمانه عند حضور الموت، وسيشهد عيسى عليه السلام على اليهود في يوم القيامة عند الحساب فيشهد أنه بين لهم حجة الله وبلغهم رسالته وتلا عليهم آياته، وأنهم عرفوها وتحققوها وتمردوا وكفروا وأصروا على التكذيب.

وسوف يبعث الله تعالى عيسى يوم القيامة ليشهد عليهم أنهم كفروا وتمردوا وعصوا الله، وأنهم قد سمعوا آيات الله، وكفروا بها بعدما تحققوا منها وعرفوها.

﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ بسبب ظلمهم ومعاصيهم تلك التي عددها الله تعالى.

﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ حرمنا عليهم أشياء كانت حلالاً لهم.

﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴿١٦٠﴾﴾ وبسبب صدهم عن سبيل الله.

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ بسبب أفعالهم هذه، وكانوا كلما عصوا معصية حرم الله عليهم شيئاً، وكان الله تعالى يبعث إليهم نبياً بعد نبي.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا۝١٦١ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أخبر الله تعالى بأنه لا زال فيهم فريق ليسوا على تلك الأوصاف، وأنهم مؤمنون، وهؤلاء هم من الراسخين في العلم.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا۝١٦٢﴾ وأنه لا زال من اليهود قلة قليلة كعبدالله بن سلام ونفر معه كانوا سبعة أنفار في عهد النبي ﷺ، وقد آمنوا بالله وصدقوا بالنبي ﷺ وما جاء به.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى من قبلك من الأنبياء، ونبوتك لا غموض يعتريها، ولا عذر لأحد في جهلها؛ إذ حجتك واضحة ونيرة، وعدم إيمان اليهود والنصارى وغيرهم؛ ليس لأجل غموض فيها أو خفاء في حجتها ودلائل صحتها.

﴿وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا۝١٦٣ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ وأعطاه من الآيات الواضحة والحجج مثل ما أعطاهم، وفي قوله: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا۝١٦٣﴾ أشاد الله تعالى بفضل نبيه داود عليه السلام، وفضل كتابه المنزل عليه وهو الزبور.

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا۝١٦٤﴾ وقد فضل الله تعالى نبيه موسى عليه السلام بالتكليم، فسمع كلام الله تعالى من غير واسطة جبريل.

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا۝١٦٥﴾ فهم مبشرون ومنذرون بالثواب والعقاب؛ لئلا

يكون للناس على الله حجة يوم القيامة.

﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ إذا أبى المشركون الإيمان بك، وتمردوا عليك، وكذلك اليهود والنصارى؛ فإذا لم يشهد لك هؤلاء- فالله سيشهد لك بالنبوة والرسالة، وبأن ما جئت به حق وصدق من عند الله.

﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴿١٦٦﴾﴾ وسوف تشهد لك الملائكة بأنك نبي، وأنك رسول من عند الله، وأن دعوتك هي دعوة الحق، ويكفيك شهادة الله عن كل شهادة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴿١٦٧﴾﴾ إن الكافرين الصادين عن الدين الحق قد أوغلوا في الضلال، وابتعدوا عن الحق؛ لذلك فرجوعهم إلى الإسلام ودين الحق بعيد، فلا تطمع يا محمد في إيمانهم.

وصدهم عن سبيل الله هو منع الناس عن الإيمان، وعن سماع القرآن والحجج، ومحاصرتهم لرسول الله ﷺ الحصار الشديد في مكة، وكانوا يقفون في طريق الحجاج يحذرونهم محمداً، وعن القرب منه وأنه يفرق بين الأب وابنه، وأنه يسفه أديانكم، وغير ذلك مما ينفرهم عنه، ويعرضون عن الاستماع له، وإذا رأوه هربوا منه لئلا يقابلوه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ فهم من أهل عذاب الله، بعيدون عن مغفرته، ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴿١٦٩﴾﴾.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ الإيمان بالرسول ﷺ، وبما جاء به من الحق الواضح خير لكم أيها الناس من التمرد والكفر.

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴿١٧٠﴾﴾ فهو غني عنكم غير محتاج لإيمانكم، فهو مالك السماوات

والأرض، وقد اقتضت حكمة الله وعلمه أن يبعث رسله عليهم السلام إلى الناس ليدعوهم إلى عبادة الله وحده والالتزام بطاعته وتقواه، وجعل تعالى بعلمه وحكمته هذا التكليف مبنياً على الاختيار فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ هؤلاء هم النصارى، قالوا إن عيسى ابن الله غلواً فيه إذ جعلوه في درجة الربوبية، فنهاهم الله عن ذلك.

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ هذا رد من الله تعالى عليهم أنه ليس برب، وإنما هو رسول من عند الله فلا ترفعوا منزلته إلى منزلة لا يستحقها.

﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ خلق الله عيسى بأمره ومشيئته من غير أب إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ وهو روح وضعها الله في بطن مريم، وكذلك كل شخص هو روح وضعها الله في بطن أمه، ولكن الفرق بيننا وبين عيسى أننا بسبب من الزوج بخلاف عيسى عليه السلام فقد خلقه الله بغير سبب.

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ فلا تقولوا: إن الآلهة ثلاثة: الله، وعيسى، ومريم.

﴿انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ اتركوا هذه المقالة الباطلة، قبل أن يلحقكم عذاب الله وسخطه.

﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ تعالى وتقدس أن يكون له ولد.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لا شريك له، وعيسى من ضمن ما يملكه الله تعالى، لا كما تدعون فليس لله شريك في السماوات والأرض فالكل خلقه.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ فالله رقيب على السماوات والأرض، وما فيهما وعلمه محيط بكل شيء.

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ خاطب الله النصارى بأن المسيح لن يستكبر أن يكون عبداً لله، فلماذا استكبرتم وقلتم: إنه لا يصح أن يكون عبداً لله، وكذلك الملائكة المقربون لن يستكبروا عن العبودية لله تعالى فهم معترفون أنهم عبيده.

﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴿١٧٢﴾﴾ ومن استكبر من عباده عن عبادة الله وجعل له مزية الربوبية؛ فإن مرجعه إلى الله، وسيحاسبه ويجازيه، وهذا تهديد منه جل وعلا.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴿١٧٣﴾﴾ هذا مصير الذين سيحشرهم الله إليه في قوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴿١٧٢﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴿١٧٤﴾﴾ يخاطب الله الناس بأنه قد جاءكم حجة واضحة منه على لسان نبيه ﷺ وهو المعجزات، والقرآن وفيه برهان واضح على أنه حق من عند الله.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ وبالنور الذي أنزله.

﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴿١٧٥﴾﴾ من صدق وآمن بالله ورسله.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ استفتى الصحابة النبي ﷺ عن الكلالة، وقد نزل في الكلالة آيتان إحداهما في الشتاء والأخرى في الصيف.

فالآية المذكورة في أول السورة تفيد أنه حين يموت الميت ولا ولد له، ولا أب، ولا جد- فهذا اسمه كلالة ، ويرثه ناس غيرهم، فإذا كان للميت إخوة من الأم فلهم الثلث، وإذا كان له أخ واحد فله السدس.

﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ وهذه الآية تفيد أن الميت إذا لم يكن له ولد ولا والد فإنه يرثه أخوه فيأخذ جميع ماله، وإن ترك أختاً واحدة فلها النصف، وإن كانتا اثنتين فأكثر فلهن الثلثان، وإن كانوا ذكوراً وإناثاً فللذكر مثل حظ الأنثيين.

﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ يرث كل مالها.

﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ مات الميت وله إخوة وأخوات فنصيب الذكر مثل حظ الأنثيين.

﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٧٦﴾ يبين لكم تعالى أحكام المواريث لأجل أن لا تضلوا عن هدى الله وشرائعه الحكيمة.

تمت سورة النساء

ويليها سورة المائدة

❁❁❁❁❁

سورة المائدة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ العقود التي في المعاملات بين الناس من بيع وشراء أو صلح أو غير ذلك - فالواجب الوفاء بها سواء كانت مكتوبة أم لا.

﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ وهي ثمانية أصناف: من الضأن اثنين، ومن البقر اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين؛ فهذه أحلها الله تعالىٰ لنا، وقد كان المشركون حرموا بعض ذلك.

﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ استثنىٰ الله تعالىٰ أشياء فهي محرمة، وسيأتي ذكرها مفصلة في هذه السورة.

﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ فإذا كنتم محرمين فالصيد محرم عليكم، سواء كنتم في حرمة الحرم، أو في حرمة الإحرام.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ فقد حكم بهذه الأحكام فالواجب الامتثال والطاعة.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ لا تستحلوا شعائر الله وعظموها، وهي شعائر الحج، فإذا كان الحاج أو المعتمر قد أهدىٰ هدياً فلا يستنفع منها بشيء، فلا يركب، ولا يحمل، ولا يحلب.

وشعائر الله: هي معالم دينه، ولكن المراد بها هنا شعائر الحج فهي في سياقه.

ولا تستحلوا حرمة الشهر الحرام.

ولا تستحلوا ما أهديتم للبيت أو ما قلدتموه من القلائد؛ فعظموها إلىٰ أن تصل إلىٰ محلها ثم اذبحوها، والقلائد هي من الهدي، وإنما يجعل عليها قلادة، وهي علامة لتتميز بأنها قد صارت لله، وأنها قد صارت هدياً للبيت.

وكذلك لا تعترضوا القاصدين البيت الحرام، وهم القاصدون للحج والعمرة ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ حال من: ﴿ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ أي: أن مرادهم طاعة الله وتعظيم بيته الحرام، فلا تتعرضوا لهم بمنع أو أذى.

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ فإذا حللتم من الإحرام وخرجتم من حرمة الحرم المحرم فالصيد حلال لكم.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ لا يحملكم بغض أولئك الذين صدوكم عن المسجد الحرام فيما سبق- أن تمنعوهم اليوم عن المسجد الحرام كما فعلوا بكم فيما سبق، بل اتركوهم إذا أتوا قاصدين البيت الحرام.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ حث من الله تعالى على التعاون على أعمال البر والتقوى، ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ۝٢﴾ لا تتعرضوا بمعاصيكم لسخط الله وشديد عذابه.

ثم بدأ في تفصيل ما استثناه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ كانوا يأكلون الدم في الجاهلية، فكانوا يسحبون من دم الناقة أو البهيمة، وينضجونه بالنار ويقدمونه للأكل فحرم الله ذلك.

﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ كانوا يقولون: باسم اللات أو: باسم العزى، أو: باسم هبل، أو نحوه مما ذكر غير اسم الله عليه عند الذبح، فحرم الله تعالى ما ذكر على ذبحه غير اسم الله تعالى.

﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ وهي التي انخنقت كأن تلتوي بحبل وتموت.

﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ وهي التي ضُرِبت في رأسها وماتت منها.

﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي سقطت من شاهق.

﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ التي ماتت نطحاً.

﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ هي الفريسة التي افترسها السبع من ذئب أو كلب أو نحوه.

﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إلا ما لحقتم ذكاته، وذبحتموه حال حياته.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ وحرم الله تعالىٰ ما ذبح للأصنام.

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ كان أهل الجاهلية يقتسمون الجزور بما يشبه القرعة؛ فبعضهم يربح، وبعضهم يخسر، فنهىٰ الله تعالىٰ عن هذه القسمة التي يكون فيها بعضهم رابحاً، وبعضهم خاسراً.

﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ هذه الأشياء خارجة عن حدود الله فلا تقربوها.

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ وأصبح الإسلام قوياً، وقد انتشر علىٰ الساحة، وصار له هيبة؛ فلا تخافوا المشركين مثل ما كنتم تخافونهم من قبل علىٰ دينكم حين كنتم في مكة.

ولا تخافوا إذا خالفتم شرائعهم وما شرعوه في البهائم ونحوها، وهذا بعد فتح مكة؛ لأن هذه السورة من آخر ما نزل.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أكمل الله دينه بعد فتح مكة، وأصبح المسلمون يحجون آمنين مطمئنين، وقد أطبق الإسلام علىٰ الجزيرة العربية، وقد بلغ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جميع ما أمره به ربه، وحينها نصب النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من بعده علياً ليبلغ عنه الشرائع بعد موته صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ويعلم الناس أحكام دينهم فحتىٰ لو مات النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقد كمل دينكم وقد وضع لكم من يهديكم من بعده.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٣﴾ إذا اضطر الإنسان في شدة ومجاعة شديدة – فلا بأس عليه أن يأكل من تلك الأشياء التي قد حرمت، ولا يأكل إلا ما يبقي علىٰ حياته، وهو المراد بقوله: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾.

ويفهم منها أنه إذا طالت الشدة كالحصار ونحوه فإنه يباح أن يأكل منها ويشبع لأنه لا يرجو أن يرىٰ غيرها يسد به جوعته، أو يأكل منها ما يبلغه إلىٰ مكان الزاد والطعام، ولو ملأ بطنه إذا كان يظن أنه لن يبلغه إلا بهذا القدر.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ يسألون النبي ﷺ ومرادهم ماذا أحل من الصيد، والسائلون أناس من طيء كانوا أهل صيد.

﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ الذي تستطيبه نفوسكم ولا تستخبثه- فهو حلال لكم.

﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ كانوا يروضون الكلاب على الصيد فما أمسك الكلب من الصيد عند الاسترسال فهو حلال، ومحل التسمية هنا عند الإرسال، وكل ما قَبِل التعليم من الجوارح فصيده حلال.

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ أعطانا الله الطريقة في كيفية تعليم الكلاب ونحوها الصيد، وذلك نعمة من الله على عباده يلزم شكره عليها، حيث هدانا إلى تسخير الجوارح لمصالحنا.

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ فهو حلال.

﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند الإرسال.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ فلا تجاوزوا تعاليمه والتزموا حدوده.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ الطيبات هي كل ما تستطيبه النفوس وتتلذذ به وتميل إليه، وطيبات الرزق معروفة ومتميزة عن المآكل الخبيثة، وكانت العرب تستطيب بعض الأشياء، فكل ما استطابته فهو حلال، وعلى العكس كل ما استخبثوه فهو حرام.

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ طعام اليهود والنصارى حلال للمسلمين وطعام المسلمين حلال لهم.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فهن حلال لكن من أسلم منهن؛ لأن المسلمين كانوا يستنقصون من أسلم من اليهود والنصارى، ولا يتزوجون منهن أنفة وترفعاً،

وقد ذهب بعض الأئمة إلى جواز نكاح الكتابية، والمسألة اجتهادية.

﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أحل الله نكاح أهل الكتاب من الطريق المشروعة، وحرم نكاحهن عن طريق الزنا.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ۝﴾ فلا تتزوجوا منهن، أي: من هؤلاء الذين كفروا، وخسروا الدنيا والآخرة، وهناك مذاهب صحيحة تحل الزواج من الكتابيات اللواتي لا زلن على اليهودية الصحيحة، ولكن الآن لا يوجد من هؤلاء أحد.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ وقد دخل في غسل الوجه المضمضة والاستنشاق، وغسل الفرجين لم يذكره الله لنا؛ لأن غسلهما قد أوجبته الفطرة، وكل ما كان مستقبحاً ومستقذراً فالواجب التخلص منه والتنزه عنه.

والله تعالى قد عدد لنا الذي لا نعلمه، وأما ما قد علمناه فعلمنا به قد أغنانا عن ذكره.

والكعبان هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق من القدم.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ والمراد غسل جميع الجسم، والغسل يغنيه عن الوضوء، وهو مذهب قوي.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ ويكفيه تيممه هذا ولو كان جنباً، ولا بد لكل صلاة من تيمم، والمراد بالصعيد الطيب: التراب الطاهر.

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ فهو لا يريد أن يضعكم في حرج ومشقة، ولا يريد أن يكلفكم ما يشق عليكم.

﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ بما شرع لنا من الشرائع، وبما فرضه من الأحكام، ففي كل فريضة فرضها الله علينا مصالح لا تحصل إلا بذلك.

﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ۝٦﴾ والواجب علينا هو التلقي لهذه النعم بالشكر لما لنا فيها من المصالح العظيمة.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ۝٧﴾ أمر الله المؤمنين بأن يذكروا نعمته عليهم، وهي إرسال الرسول، وإنزال القرآن، وتعليمهم الشرائع، وتأييده لهم، وإعلائه لدينهم، وقهره لعدوهم، واذكروا مواثيق العهود التي وثقت عليكم بالسمع والطاعة لله ورسوله ﷺ، فإن في ذكركم لذلك ما يبعثكم على الإخلاص لله، والجد في طاعته والاستقامة على تقواه، واحذروا معصية ربكم؛ فإنه مطلع على ما في ضمائركم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ انصبوا أنفسكم لقول الحق وقوموها عليه ولو على أنفسكم.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ ولا تحملكم عداوتكم لقوم وبغضكم لهم على عدم العدل بل أنصفوا حتى أعدائكم؛ لأن الإسلام عندما قويت شوكته دخل فيه الناس جميعاً مكرهين وغير مكرهين، وقد كان وقع بينهم وبين المسلمين قتل وقتال؛ فأمرهم الله هنا بالإنصاف والعدل، ولو كنتم كارهين لهم، وقولوا بالحق لكم أو عليكم.

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولا تخالفوا أوامر الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ۝٨﴾ فهو مطلع على أعمالكم، وهو مجازيكم عليها، ولا يخفى عليه منها شيء؛ فاحذروه.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ۝٩﴾ وهو لا يخلف الميعاد.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ۝١٠﴾ وعيد منه للكفار بعذاب جهنم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ يذكر الله المسلمين بهذه النعمة العظيمة؛ لأجل أن يشكروه ويطيعوه؛ لأن المشركين اجتمعوا على المسلمين يوم الأحزاب وحاصروهم في المدينة، قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠]، وكان المشركون في عشرة آلاف مقاتل واليهود نقضوا العهد حينها مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وانضموا مع المشركين، واستعدوا للحرب معهم.

وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قد خندق على المدينة بإشارة من سلمان الفارسي، وخيم المشركون حوله يومين أو ثلاث، ثم إن الله تعالى أرسل عليهم رياحاً أعمت عيونهم وأطفأت نيرانهم وأخذت خيامهم، وقد قتل منهم عمرو بن عبد ود ورجل آخر حين تجاوزوا الخندق وطلبوا البراز، وكانوا من صناديد المشركين؛ فحصل الرعب من قتلهما، لأن عمرو بن عبد ود كان يقال إنه يعادل ألف مقاتل، وكان يأكل جملاً كاملاً لوحده.

والذي قتله هو أمير المؤمنين عليه السلام، وحين برز إليه قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((قد برز الإسلام كله للشرك كله))، وحينها صاح أبو سفيان بالمشركين: بأن لا مقام لكم فارجعوا.

وأما اليهود فلم يتنبهوا إلا وقد أصبحوا لحالهم في الساحة، فصاح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالمسلمين بأنه ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة)) وأمر بمقاتلة اليهود؛ فذهبوا من وقتهم وحاصروهم وأخذوهم وذبحوهم وكانوا ستمائة يهودي.

فأمر الله المؤمنين بأن يذكروا هذه النعمة العظيمة عليهم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ اذكروا نعمته، وما أسبغ عليكم من النعم، وجعل لكم من النصر في الدنيا، ومن شفائه لغيظكم في الدنيا، وما أورثكم من أرضهم وديارهم وأموالهم، وهذا نصر عظيم للمؤمنين، فإن تذكره سبب داعٍ إلى التقوى والاستقامة على طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴿١١﴾﴾ فعليه وحده فليتوكلوا ولا يعتمدوا على غيره، ولو اجتمع عليهم أهل الأرض، وفي يوم الأحزاب مع قلة المسلمين انكشفت عداوة المنافقين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقاموا بخداع المسلمين، وأفصحوا عما في صدورهم فقالوا: النبي يعدنا بملك كسرى وقيصر، والرجل منا يخاف أن يذهب لقضاء حاجته!! ورموه بالكذب، وبأنه ليس بنبي، ورجعوا إلى بيوتهم وقالوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب]، وتركوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع قلة قليلة كانوا معه، ثم إن الله تعالى نصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه حين توكلوا عليه.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ وأخذ الله ميثاق بني إسرائيل، قيل: إنهم كانوا اثني عشر سبطاً، وذلك أن يعقوب كان له اثنا عشر ولداً، وكل ولد كانت ذريته قبيلة، وجعل الله على كل قبيلة نقيباً، وعاهد هؤلاء النقباء الله تعالى على يدي موسى عليه السلام أن يوفوا بالعهد، ويقيموا الصلاة، وما أمرهم الله به، فقال الله تعالى:

﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ إذا وفوا بعهدهم هذا وآمنوا برسله الذين سوف يبعثهم الله إليهم ونصروهم، وكان هذا العهد في زمن موسى عليه السلام، ولكنهم لم يفوا بعهودهم هذه، وقتلوا أنبياءهم، كلما بعث لهم نبي قتلوه، وكفروا بعيسى ومحمد صلى الله عليهما.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ

مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴿١٢﴾﴾ ثم إن بني إسرائيل لم يفوا بهذه العهود فقال تعالى:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ بسبب نقضهم ميثاقهم لعناهم وسلبناهم التوفيق والتنوير، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ حرفوا التوراة وغيروها ولم ينالوا بمعصية الله وسخطه لقساوة قلوبهم.

﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ تركوا كثيراً مما أمرهم الله به ولم يعملوا به.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴿١٣﴾﴾ خاطب الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنك يا محمد لا تزال ترى منهم خيانة ونقضاً للعهود، ولكن اعف عنهم واصفح، ولا تؤاخذهم إلى أن يأذن الله لك في قتالهم، وهو إلى أن يصبح للإسلام شوكة، والله يحب الصفح والإحسان ولو على العدو المجاهر بعداوته.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أخذ الله تعالى ميثاق النصارى مثلما أخذ ميثاق اليهود على أن يعملوا بأحكامه وشرائعه التي شرعها لهم في الإنجيل، ثم إنهم لم يعملوا بها فقال تعالى: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾، ومعنى نسيانهم هو الترك.

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فعاقبهم الله تعالى بأن سلط بعضهم على بعض، فتناحروا وتقاتلوا إلى يوم القيامة.

﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴿١٤﴾﴾ سيخبرهم الله بأعمالهم السيئة ويجازيهم عليها في جهنم.

﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهي التوراة التي أنزلت على موسى، والإنجيل الذي أنزل على عيسى، سوف يبين لكم ويخبركم بالصدق الذي جاءت به التوراة والإنجيل؛ لأنهم كانوا قد حرفوه وبدلوه؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبين لهم الحق الذي أخفوه، والحق الذي اختلفوا فيه.

﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ من فضل الله تعالى على عباده ترك مؤاخذتهم على الكثير من ذنوبهم في الدنيا.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ١٥﴾ لا عذر لكم أيها المتمردون عند الله فقد أرسل الله إليكم رسوله بالهدى والنور والكتاب المبين.

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ يهتدي بالنور والكتاب المبين أهل القلوب النظيفة الذين يريدون رضوان الله ويخافون سخطه وعقابه، وسبل السلام هي: الطرق التي توصلهم إلى دار السلام والسعادة في الدنيا والآخرة.

﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٦﴾ ويستنقذ الله بذلك النور والكتاب المبين أولياءه من ظلمات الشرك وأدناس الجاهلية إلى نور الهدى والإسلام ويهديهم به إلى الدين الحق.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ فجعلوه أولاً رباً ثم قالوا بعد ذلك: إن الله اتحد بالمسيح فصار إياه، وتجسد حينئذ بعد إذ لم يكن كذلك.

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فمن يستطيع أن يمنع الله إذا أراد أن يهلك المسيح وأمه ومن في الأرض؟ ليس هناك قوة في السماوات والأرض تحول بين ما يريد الله فعله؛ فلو أراد تعالى أن يهلك عيسى وأمه، أو إهلاك أهل السماوات والأرض لفعل؛ فإذاً هو تعالى الرب وحده لا شريك له، وكل ما سواه فمربوب مقهور.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من البشر والجن والإنس والملائكة وعيسى ومريم، فهو المالك الذي تحق له الربوبية.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ يخلق بشراً من غير أب وأم، ويخلق بشراً منهما، ويخلق بشراً من أم دون أب، فلماذا حين خلق عيسى قالوا إنه ابنه، وآدم لماذا لم يقولوا فيه مثله وقد خلقه من غير أب ولا أم، وحينئذ فخلق عيسى من غير أب دليل على قدرة الله، وليس في ذلك دليل على ربوبية عيسى عليه السلام.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهو قادر على أن يخلق من غير أب.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ قالت اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقالت النصارى: لا بل نحن أبناء الله وأحباؤه، كل منهم يدعي ذلك، ومرادهم أنهم أقرب الناس إلى الله مثلما أن الابن أقرب الناس لأبيه، ولم يريدوا البنوة الحقيقية.

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ لو كنتم كما تزعمون يا معاشر اليهود والنصارى لما عذبكم بالصواعق تارة والمسخ أخرى، وبعذاب الخزي والذلة والمسكنة وتسليط عدوكم عليكم و..إلخ.

﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ فأنتم بشر كبقية البشر، لا مزية لكم على غيركم.

﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يغفر لمن أطاعه، ويعذب من عصاه كائناً من كان، فلا مفر لكم من الجزاء على معاصيكم.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ وأنتم من أهل مملكته ومن عبيده، وليس لكم مزية على غيركم، وكل من كان في طاعة الله فهو أقرب عند الله؛ فمن أطاعه فهو من المقربين، ومن عصاه فهو من المبعدين.

﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ وهو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ العلم الحق والهدى الذي جاء به موسى في التوراة وعيسى في الإنجيل.

﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ على انقطاع لأنه قد مر فترة من الزمن من غير أنبياء بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم حوالي ستمائة سنة، فالمفروض أن تكونوا متلهفين لحصوله بعد هذه المدة الطويلة.

﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ لأجل ألا تقولوا يوم القيامة يا رب لم يأتنا لا بشير ولا نذير.

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ فلا عذر لكم عند الله ولا حجة يوم القيامة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ أمرهم موسى عليه السلام أن يتذكروا نعمته عليهم لأجل أن يطيعوه ويشكروه، فمن المفروض أن المرء إذا استشعر نعم المحسن إليه وكثرتها عنده اندفع إلى تعظيم المحسن وشكره والثناء عليه، وتحرز عن كل ما يسوءه ويؤذيه.

﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أخرج موسى بني إسرائيل من مصر، واستنقذهم من سيطرة فرعون الذي كان مستعبداً لهم ومستذلاً لهم، وأنعم الله عليهم بأن فلق لهم البحر، وكلمهم الله، وأظلهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وفضلهم على العالمين، وجعل الملك فيهم والأنبياء منهم، وقول موسى لهم: ﴿يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يريد به تعالى أن يبعثهم على الامتثال لأمره في قوله تعالى: ﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ وكانت بعدما خرجوا من مصر، وأصبحوا في الشام في فلسطين؛ فأخبرهم بأن الله كتب عليكم أن تدخلوا الأرض المقدسة، وهي أورشليم، وتستوطنوا وتتمركزوا فيها، وأن تكون مقراً لأنبيائهم وملوكهم، وعاصمة للدين، ولكنهم أبوا ذلك، ولم يندفعوا وكفروا النعم ولم يشكروها، ولم يطيعوا موليها.

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ فلا تعصوا الله بعدم استجابتكم لأمره، ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ فلن ندخلها ما داموا فيها.

﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ تمرداً منهم، وكان فيها ناس من العماليق من ذرية عمليق بن إبراهيم، وهو أخو إسحاق وإسماعيل.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ كان بين اليهود رجلان من العماليق أنعم الله عليهما بالإيمان بموسى، فأخبر هذان الرجلان اليهود بأن يدخلوا عليهم الباب فإنكم إذا دخلتم عليهم الباب فإنكم غالبون لهم، وسيفشل العمالقة في قتالكم، ولن تحتاجوا إلى قتل وقتال.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴿٢٣﴾﴾ توكلوا على الله واعتمدوا عليه وادخلوا.

﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴿٢٥﴾﴾ تمرد بنو إسرائيل عن طاعة نبيهم موسى عليه السلام، وحاول موسى أن يردهم إلى طاعة الله وامتثال أمره فأعيوه وما استجابوا له، وأصروا على التمرد والعصيان؛ فلما أيس منهم توجه إلى الله بشكواه فقال: يا رب لم يستجب لأمرك إلا أنا وأخي هارون، أما بنو إسرائيل فقد فسقوا عن أمرك وأصروا على العصيان، فاحكم بيني وبينهم وأذقهم جزاء فسوقهم في الدنيا.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ هذا حكم من الله على بني إسرائيل. استجاب الله دعوة موسى عليه السلام فعاقبهم بالتيه يتيهون في الأرض فلا يهتدون سبيلاً إلى ما يريدون، فمكثوا في التيه يسيرون على غير هدى أربعين سنة.

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴿٢٦﴾﴾ فلا تحزن يا موسى لما حل بقومك؛ لأن الله قد حكم عليهم بهذا الحكم، فهم يستحقونه وأكثر منه.

وقد كان موسى وهارون عليهما السلام مع قومهم في التيه يبلغونهم الأحكام والشرائع، وماتا في التيه، ثم بعد الأربعين السنة دخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم بعدما رفع الله عنهم التيه، وكان قد بعث الله لهم يوشع بن نون نبياً.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ ءَادَمَ بِالْحَقِّ﴾ أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن يتلو على اليهود وبني إسرائيل قصة ابني آدم، وأنها حقيقة وقد وقعت.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ والذي لم يتقبل الله قربانه حسد الآخر وقتله، وكانت هذه القصة لا يعرفها إلا بنو إسرائيل؛ فأمره الله تعالى أن يخبرهم بها لتكون معجزة له، أنه نبي من عند الله.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ۝٢٧﴾ فأنا لا ذنب لي عندما لم يقبل الله قربانك؛ لأنك لست من المتقين، والله إنما يتقبل من المتقين، ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ۝٢٨﴾.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ۝٢٩﴾ فلا أريد أن أتحمل إثم قتلك، فاحمله أنت بقتلك لي لأني لو قتلتك لتحملت إثم قتلك ولكني لا أفعل؛ فتحمّل الإثمين أنت إثم قتلي وإثم فجورك وعصيانك الذي كان سبباً في عدم قبول قربانك.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ۝٣٠﴾ لأنه قد تحمل ذنباً عظيماً بقتله لأخيه، واستحكم عليه سخط الله وحق عليه عذابه.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾ كان هذا المقتول أول مقتول على وجه الأرض؛ فتحير القاتل كيف يصنع بجثة أخيه المقتول، فبعث الله غراباً قتل صاحبه فحفر حفرة في الأرض ودفن صاحبه؛ من أجل أن يفعل القاتل بجثة أخيه مثل ما فعل الغراب.

﴿قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي﴾ فسأفعل مثل هذا الغراب، فلست عاجزاً عن ذلك.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ۝٣١﴾ وندمه هذا إنما كان على عجزه عن كيفية التخلص من جثة أخيه؛ لأنه كان يحمله معه أينما ذهب إلى أن تعفن وتحللت جثته، ولم يكن ندمه هذا على قتله لأخيه؛ لأنه لو كان ندمه على ذلك لكان ندمه هذا توبة.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾، أوحى الله سبحانه وتعالى إلى بني إسرائيل: أن من قتل نفساً بغير حق فهو كما لو قتل الناس جميعاً، وجزاؤه القصاص، وهذا جزاؤه عندهم، ولا دية فيه عندهم بخلافه في شريعتنا؛ فإنه يصح أن يعفو ولي المقتول عن القصاص ويأخذ الدية، وهذا تخفيف من الله في شريعتنا، أما في شريعة بني إسرائيل فليس للقاتل إلا القتل.

وهذا إذا لم يكن ذلك المقتول قد قتل أو كان مفسداً في الأرض، وهو المراد بقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي: أنه يكون حكمه كمن قتل الناس جميعاً، إذا لم يكن المقتول كذلك.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ إذا أنقذ نفساً فأجره عند الله كمن أحيا الناس جميعاً.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ جاءت اليهود رسل الله وأنبياؤه وبينوا لهم حرمة النفس عند الله، وقبح إزهاقها بغير حق، وما أعد الله للمسرفين في الدماء من العذاب العظيم في الدنيا والآخرة.

﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ۝٣٢﴾ فلم ينفع فيهم إرسال الله الرسل إليهم، وإنما أسرفوا في الدماء والقتل والفساد في الأرض.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣﴾ فهذا جزاء المفسدين في الأرض، وهو من واجبات ولاة الأمور.

فإذا كان هذا المحارب لله ورسوله إذا أدركه الإمام وقد كان قتل- فجزاؤه القتل والصلب، وإذا لم يكن قد قتل وكان مفسداً في الأرض وقد حصل منه شيء، فتقطع يده اليمنى ورجله اليسرى.

وإذا كان قد اعترض في طريق المسلمين ولم يكن قد حصل منه شيء- فجزاؤه أن ينفى من الأرض إما بسجن أو مطاردته حتى لا يستقر في مكان.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿٣٤﴾﴾ إذا تاب المفسد في الأرض- فلا شيء عليه ولو كان قد قتل، ولا يلزم برد شيء من الأموال، ويجب على الإمام أن يؤمنه، وأن يمنع منه، ولكن إذا كانت توبته قبل أن يقدر عليه الإمام، وهذا ترغيب من الله لهم في التوبة؛ لأجل أن يقل الفساد في الأرض، وعوض المجني عليه يكون على الله تعالى، أو الدولة تتحمل ذلك إذا كانت هذه الدولة تراعي مصالح المسلمين.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تفعلوا فعل اليهود من الفساد في الأرض، ونقض المواثيق والعهود.

﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ انظروا ما هي الوسائل التي تقربكم إلى الله تعالى واعملوها وهي كثيرة كقراءة القرآن والصدقة والحج والاستغفار وغيرها كثير فكل واحد من هذه يسمى وسيلة، فليتقرب كل امرئ إلى الله تعالى بها، وينوي بكل عمل يعمله القربة إلى الله تعالى.

﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿٣٥﴾﴾ لأجل أن تفوزوا وتظفروا بثوابه ومغفرته وجنته، ومن الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله تعالى والإصلاح بين الناس وتعليمهم أمور دينهم.

والقتال لا يكون إلا عندما تدعوا إليه الضرورة، فلم يقاتل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ المشركين إلا حين وقفوا في وجهه، وصدوا الناس عن الإسلام، وحالوا بينه وبين تبليغ الدعوة وحاصروه، وأقصوه وطردوه.

وإلا فالمهمة للأنبياء هي تبليغ الناس حجج الله وبيناته، وتعليمهم أمور دينهم.

ولم يأمر الله المسلمين بقتال المشركين إلا حينما هموا بقتل المسلمين وإبادتهم: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة:٣٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٣٦﴾ فلا ينفعهم شفاعة حينها ولو بملء الأرض ذهباً.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ٣٧﴾ حكم الله على أهل النار بالخلود في العذاب الذي لا ينقطع.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٣٨﴾ أمر الله تعالى بقطع كف السارق وكف السارقة جزاءً من الله تعالى على إقدامهما على أخذ مال الغير، وبقطع أيديهما يرتدع غيرهما من الإقدام على مثل ما أقدما عليه، فتعظم المصلحة العامة، وتشريع الله لهذا الحكم هو صادر عن حكمة ومصالح مترتبة عليه.

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣٩﴾ فمن تاب وأصلح ما قد أفسد من السارقين والسارقات- فتوبته مقبولة، وسيغفر الله له ما قدم، ويدخله في رحمته.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٤٠﴾ إن الله تعالى غني عن العالمين غير محتاج إليهم، لا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضره معصية من عصاه، وله ملك السماوات والأرض وبيده خزانتهما فهو سبحانه يعذب العصاة جزاءً على عصيانهم، ويغفر للمؤمنين التائبين جزاءً على إيمانهم وطاعتهم.

﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ فلا تأسف على أولئك الذين كانوا قد آمنوا، ثم رجعوا إلى الكفار؛ فإنهم في الواقع غير مؤمنين.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ كان علماء اليهود قد حرفوا التوراة، ويملونها على أتباعهم بناءً على أنها من التوراة، وليس من التوراة، وإنما يملون عليهم الكذب على الله وعلى موسى وعلى التوراة، وكانوا يتقبلون ذلك.

﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ يسمعون لكبار اليهود ورؤساؤهم، ويأخذون منهم الآراء والحيل، وأسباب المكر والخديعة؛ ليكيدوا الإسلام ونبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ يسمعون لمن هذه صفتهم أي: الذين يحرفون التوراة، وكانوا يسألونهم عما يريدون من أمر دينهم، فيجيبونهم على خلاف ما جاء في التوراة، ثم يأمرونهم بأن يذهبوا ويسألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ فإن أجابكم بمثل ما أجبناكم فصدقوه، وإلا فهو كذاب فاحذروه ولا تصدقوه فيما قال، ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾.

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ ولن تستطيع أن تهديهم يا محمد؛ لأنهم قد تمردوا وعاندوا وزادوا في تمردهم وعنادهم، وقد أنزلنا عليهم التوراة فحرفوها وبدلوها؛ فلا سبيل إلى هدايتهم وردهم إلى الحق والهدى، فاقطع طمعك منهم، ولا تتعب نفسك في ملاحقتهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ قد استحكم غضب الله عليهم، وحق عليهم عذابه في الدنيا والآخرة.

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ وصف الله اليهود بأنهم يسمعون لأولئك الذين يحرفون التوراة، ويذهبون يجادلون النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ الرشوة والربا.

﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فأنت مخير بين الأمرين.

﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ إذا رفضت الحكم بينهم فلن يصلوا إليك بضر فلا تخف منهم.

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ واحكم بينهم بالحق إذا أحببت أن تحكم بينهم.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ يستبعد منهم أن يحكموك، فلا تتوقع ذلك منهم، فهم يعلمون حكم الله إن أرادوه، فهو موجود في التوراة، فإذا أتوك ليحكموك؛ فإنما يقصدون المكر بك والخديعة لك، فكن منهم على حذر.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ وإذا حكمت بينهم؛ فإنهم لن يقبلوا حكمك إلا إذا صادف أهواءهم.

﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ۝٤٣﴾ وهم بعيدون من الإيمان ومن أحكام الدين.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ فيها شرائع وأحكام من الله تهديهم إلى الطريق المستقيم، وتنور لهم سبل السلام.

﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ أنزل الله التوراة لأجل أن يحكم بها الأنبياء الذين انقادوا لله تعالى، واستسلموا له.

﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ يحكم بها الأنبياء بين اليهود.

﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ ويحكم بها العلماء؛ والربانيون: هم علماء اليهود، والأحبار: علماء النصارى.

﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ بسبب ما حفظهم الله وعلمهم من التوراة وأحكامها، وجعلهم حفظتها وحملتها.

﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ فهم شهداء الله على اليهود وعلى أممهم أنهم قد بلغوهم أحكام التوراة.

﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللمسلمين بأن لا يخشوا اليهود؛ فليقولوا الحق، ويصدعوا بأحكام الله، وإن رغم اليهود.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ويحتمل أن تكون خطاباً لليهود نهاهم الله أن يخشوا الناس، ونهاهم أن يحرفوا التوراة مقابل الثمن القليل.

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ۝٤٤﴾ من لم يحكم من اليهود بما أنزله الله تعالىٰ في التوراة وحكم بغيره فقد كفر وتوغل في كفره وهكذا غيرهم من أهل الملل إذا حكموا بغير ما أنزل الله إليهم فقد كفروا.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ في التوراة.

﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ فليس له إلا أن يقتص أو يتصدق وليس في شريعتهم العفو والدية ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ۝٤٥﴾ ومن تجاوز حكم الله الذي أنزله في كتبه فقد بلغ الغاية في الظلم.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى ءَاثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ موسىٰ أتىٰ بالتوراة وبعث الله بعده أنبياء يجددونها؛ لأن بني إسرائيل كانوا يحرفونها، ثم بعث الله بعد ذلك عيسىٰ بكتاب غير كتاب موسىٰ، وهو الإنجيل.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ أتىٰ بكتاب مصدق لما جاء في التوراة، ولم يخالف في شيء منها إلا ما كان تخفيفاً.

﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ ويصدق ما فيها من الأحكام.

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ۝٤٦﴾ وفيه هدىً وموعظة لمن ينتفع بها، ولن ينتفع بها إلا المتقون.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ۝٤٧﴾ أمر الله تعالىٰ النصارىٰ أن يحكموا بما أنزل الله في الإنجيل، وإلا فهم خارجون من طاعة الله وفاسقون عن أمره.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أنزلنا إليك يا محمد القرآن.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ مصدقاً للتوراة والإنجيل.

﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ فهو المسيطر على التوراة والإنجيل فإذا اختلفوا في حكم من الأحكام فالمرجع إلى القرآن وهو الحاكم على جميع الكتب.

﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أمر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أن يحكم بين الناس جميعاً اليهود والنصارى والمسلمين بما أنزل الله في القرآن.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ فإذا أخبرك أولئك اليهود والنصارى بحكم الله فلا تصدقهم؛ لأنهم قد حرفوا وبدلوا.

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ فمعك يا محمد شريعة، وموسى معه شريعة، وكذلك عيسى معه شريعة.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ولو شاء الله لجعلكم على شريعة واحدة.

﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾ ولكنه خالف بين شرائعكم ليختبر طاعتكم وانقيادكم لربكم.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أمر الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه أن يكونوا السابقين إلى الخيرات، وأن يكونوا أول من يعمل بأحكامه، والخيرات هي الإيمان بالله وبرسوله وبكتبه وبملائكته وباليوم الآخر والسمع والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، والعمل بشرائع الدين وأحكامه، والاستقامة على ذلك، والالتزام بالتقوى.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ يرجع اليهود والنصارى والمسلمون إلى الله يوم القيامة، فيجازي كلاً بذنبه الذي يستحقه، وهناك يتبين المحق من المبطل، وتتكشف حقائق الناس، ويحكم الله يومئذ بين أهل الحق وأهل الباطل فيما اختلفوا فيه.

﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أكد الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يحكم بين اليهود والنصارى بما أنزل الله عليه في القرآن الكريم.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ وهو ما يحكمون به من عند أنفسهم مدعين أنه في التوراة فلا تصدقهم فيما أخبروك به من أحكام التوراة.

﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فلا تترك الحكم بينهم بما أنزل الله إليك، وتذهب إلى الحكم بما ادعوا أنه في التوراة؛ لأنهم قد حرفوها وبدلوها.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ إن رفضوا حكمك فاعلم أنه قد استولى عليهم غضب الله وسوف يعذبهم الله في الدنيا ببعض ذنوبهم.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴿٤٩﴾﴾ الغالب على البشر التمرد على الله والخروج عن طاعته، وما يقال في قوله: ((عليكم بالسواد الأعظم)) فلا يراد به الكثرة وإنما المراد به (جماعة الحق وإن قلوا) لأنه الأعظم عند الله، ولو لم يكن إلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحده.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ تعجيب من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم من اليهود حيث طلبوا حكم الجاهلية ومالوا إليه مع أنهم من أهل العلم وحملة التوراة.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴿٥٠﴾﴾ لو كنتم يا معشر اليهود من أهل اليقين، والإيمان بالله وبما أنزله في التوراة- لما عدلتم عن أحكام التوراة وطلبتم أحكام الجاهلية؛ لأن أهل الإيمان واليقين لا يرضون بغير حكم الله.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿٥١﴾﴾ كان المسلمون في المدينة مختلطين باليهود، ومجاورين لهم، وكانت بينهم أحلاف وصُحَب من زمن الجاهلية، ولا يريدون أن يقطعوا الود الذي بينهم وبين اليهود مريدين بذلك نصرتهم إذا هجم عليهم عدو في المدينة، أو أصابتهم بلوى أو نحو ذلك، وهؤلاء هم أكثر أهل المدينة، وقلة قليلة هم الذين تركوا هذه الأحلاف والصحب بعد الإسلام؛ فأخبر الله تعالى بأن من يتولهم منكم؛ فإنه منهم، فمن أصر على مؤاخاة اليهود والاستمرار على محالفتهم ومناصرتهم

ومصاحبتهم؛ فإنه ليس بمؤمن، وهو عند الله وفي حكمه يهودي.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ سترى يا محمد أهل النفاق مسارعين إلى مؤاخاة اليهود ومناصرتهم، وتوثيق العلاقات بهم، معتذرين إليكم بحاجتهم إليهم لدفع الأعداء، ودرء نوائب الدهر.

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴿٥٢﴾﴾ هذا وعد من الله بنصر عظيم من الله لنبيه وللمؤمنين، وأنه سيكون لهم قوة وسلطان وغلبة، وسيندم أولئك عندما يرون هذا النصر والتمكين، ويتمنون أنهم انضموا إليكم، وتركوا موالاة اليهود ومناصرتهم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴿٥٣﴾﴾ يتعجب المؤمنون من هؤلاء الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فانكشف أخيراً أنهم مع اليهود بموالاتهم ومناصرتهم ومناصحتهم ومؤاخاتهم، وقد كانوا يحلفون بأبلغ الأيمان وأغلظها إنهم معكم أيها المؤمنون بسرهم وجهرهم ثم انكشف بعد ذلك كذبهم، وبذلك حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين في الدنيا والآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ يخبر الله تعالى المسلمين الذين دخلوا في الإسلام بأنه غني عنهم غير محتاج إليهم لنصر دينه ومؤازرة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنهم إن ارتدوا عن دينهم أو ارتد بعضهم فسيأتي سبحانه بقوم يتحققون بحقائق الإيمان ينصرون دين الإسلام، ويؤازرون نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يعوقهم عن ذلك عائق، ولا يردهم عن جهادهم راد.

وقد سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن هؤلاء الذين سيبدلهم الله بهم؛ فأجاب بأنهم أهل اليمن.

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم متواضعون للمؤمنين.

﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قساة عليهم وليسوا مثلكم متوددين لليهود وموالين لهم ومناصحين.

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ ليسوا مثلكم، لا يجبنون عن لقاء العدو، ولا يفرون عند شدة الحرب، وليسوا مثلكم يتهربون من الجهاد، ويتحذرون من أن يصدر منهم ما يسيء إلى الكافرين.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴿٥٤﴾﴾ فوجود أناس على هذه الصفات فضل من الله تفضل بها عليهم، وفي هذه الآية دليل على أنه يوجد أناس أفضل من الصحابة في عصرهم وفي غير عصرهم؛ لأن بعضهم يقول بأن الصحابة الأفضل على الإطلاق.

ثم خاطب الله المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الذي يفترض بكم أن تطيعوهم وتوالوهم فلا تذهبوا لا إلى اليهود ولا إلى النصارى لتعتزوا بهم، فليس لكم في موالاتهم إلا الخزي في الدنيا والآخرة؛ إنما العزة والقوة والسلطان لله ورسوله فاطلبوها من ثَمَّة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴿٥٥﴾﴾ فهؤلاء هم الذين ينبغي أن تتولوهم وتعتزوا بهم.

وقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ نزلت في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه؛ فالمفترض أن يرجعوا إلى الله، وإلى رسوله، وإلى علي بن أبي طالب، ويؤيدوهم ويناصروهم، ولا يخافوا من اليهود والنصارى.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴿٥٦﴾﴾ زيادة تأكيد لهم بأن حزب الله هم الغالبون، وأن العاقبة لمن كان في حزبه، فانضموا إليهم واتركوا أولئك اليهود والنصارى.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كرر الله عليهم للتأكيد.

﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ فلا توالوا الذين يستهزئون بدينكم من أهل الكتاب والكفار.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ۝٥٧﴾ إذا كنتم صادقين في إيمانكم؛ فلا تعصوا الله وتخالفوا أوامره، واقطعوا حبال المودة بينكم وبين اليهود والكفار.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ فلماذا توالونهم وتناصرونهم وتناصحونهم، وهم يسخرون منكم ومن دينكم وقد سمعتموهم يسخرون ويستهزئون إذا سمعوا النداء إلى الصلاة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ۝٥٨﴾ ولو نظروا بعقولهم لعلموا أن ما جاء به الرسول ﷺ من الدين حق، ولسارعوا إلى اتباعه ونصرته، ولكنهم لم ينظروا بعقولهم، فكفروا بالإسلام ودينه واستهزئوا به لضياع عقولهم.

﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ۝٥٩﴾ فلا تنقمون منا يا معاشر اليهود إلا لأنا آمنا بالله ونبيه ﷺ وبالقرآن، وآمنا بما أنزل من قبل وهو التوراة والإنجيل، وليس هذا سبباً يبعثكم على حربنا ويدعوكم إلى عداوتنا، ولأجل أن أكثركم فاسقون ومتمردون، ولا تبالون بما فعلتم بنا من العداوة.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا تستهزئوا يا معاشر اليهود بدين الإسلام وبأتباعه؛ فأنتم أهل الشر ومنتهاه وغايته، حيث لم يلحقكم فيه لاحق، ولم يسبقكم إليه سابق، ولكم عند الله أوفر نصيب من عذابه، وقد لعنكم الله في التوراة والإنجيل والقرآن، وغضب جل جلاله عليكم، وجعل منكم -لعظم شركم وعظيم جرمكم- القردة والخنازير، ومع ذلك فقد عدلتم عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطواغيت.

﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ وهم اليهود فهم أشر؛ لأنهم يطيعون طواغيتهم، ويحرفون التوراة لأجلهم.

﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ۝٦٠﴾ فهم لذلك ولما ذكره الله أشر الناس وأبعدهم عن الهدى، فهم لذلك أهل السخرية والاستهزاء.

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ﴾ وكذلك هم منافقون ومراوغون، وأهل حيل؛ فإذا جاءوا إليكم ﴿قَالُوا ءَامَنَّا﴾ مخادعة منهم ومكايدة.

﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ عندما أتوا إليكم قائلين لكم آمنا فالحقيقة أنهم قد جاءوكم مصطحبين للكفر، وخرجوا من عندكم وهم كافرون، وقولهم ذلك إنما هو بألسنتهم فلا تصدقوهم ولا تركنوا إليهم واقطعوا ما بينكم وبينهم.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ۝٦١﴾ فهو عالم بما في أنفسهم من الحيل والمكايد، واعتقاد الكفر بدين الإسلام ونبيه ﷺ وبما تكنه صدورهم من العداوة والحقد والحسد لكم أيها المؤمنون.

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ سوف ترى يا محمد هؤلاء القوم يسترسلون في معاصي الله وعدوانهم على العباد من غير مبالاة منهم بعصيان الله.

﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ۝٦٢﴾ ويسترسلون في أكل الربا والرشوة والمال الحرام، فهم لذلك أسوأ الناس أعمالاً؛ فلو نظروا إلى سوء أعمالهم وما هم عليه من الضلال- لما استهزئوا بدين الله وبرسوله ﷺ.

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ۝٦٣﴾ ثم أخبر تعالى عن توغل اليهود في الشر والضلال فقال: إن علماءهم الذين هم الربانيون والأحبار لا يستنكرون على قومهم قول الإثم والباطل؛ فإذا سمعوهم يكفرون بالله وبرسوله، ويستهزئون بشرائعه

وأحكامه- سكتوا ولم يستنكروا ولم ينهوا، وإذا رأوهم يأكلون الربا والرشوة والسحت لا يغيرون عليهم، ولا يستنكرون ذلك منهم؛ لذلك فهم مثلهم في الشر والجريمة والعقاب.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، يخبرنا الله بقبائح أقوالهم وأفعالهم، والمعنى أن اليهود يقولون: إن الله بخيل.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ رد الله تعالى على اليهود أولاً بما لهم عنده من الجزاء على هذه المقولة المستنكرة، وذلك الجزاء هو الأغلال وجهنم التي هي مكان لعنة الله؛ فمن لعنه الله وطرده من رحمته أدخله جهنم خالداً فيها.

ثم رد عليهم ثانياً بما هو عليه من سعة الإعطاء وسعة الرحمة، إلا أنه تعالى يعطي على حسب مقتضى علمه ورحمته وكما يريد لا كما تريد اليهود عليهم لعنة الله.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ فكلما نزل عليك آية من آيات الله ازدادوا في طغيانهم وكفرهم وتمردهم، بعد أن كان المفترض أن يزدادوا هدى ونوراً وإيماناً.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ جعل الله العداوة والبغضاء بين اليهود جزاءً على أعمالهم؛ فلن يرضى بعضهم على بضع أبداً ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر:١٤]، مختلفة متعادية.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ فإذا أضرموا ناراً للحرب ضد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وضد الإسلام- يطفئها الله.

وتسلطهم الآن على المسلمين بسبب أن المسلمين تركوا العمل بشرائع الإسلام، وابتعدوا عنه؛ فلم يبق لهم من الإسلام إلا الاسم.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)﴾ طبيعة اليهود هي الفساد في الأرض والسعي في إفساد الحق والدين ومصالح الناس في دنياهم حسداً منهم وبغياً.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴿٦٥﴾﴾ لو أنهم آمنوا بالله وبرسوله وبالقرآن- لسعدوا في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ لأعطاهم الله السعادة والعزة التي يطلبونها في الدنيا والآخرة.

﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴿٦٦﴾﴾ هناك قلة قليلة أجابوا داعي الله وآمنوا به، ودخلوا في دين الله.

﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَاتِهِ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴿٦٧﴾﴾ حين آمنت قريش ودخلوا في الإسلام- هاجروا إلى المدينة ولكنهم ما زالوا مليئين بالحقد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى أمير المؤمنين، وهم عالمون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا مات فلا يبقى من يأخذون ثأرهم منه إلا علي عليه السلام؛ فمن هنا أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلغ بالولاية في علي عليه السلام؛ لأن قريشاً كانوا الكثرة في المدينة بعدما أسلموا، وأصبحت الكلمة لهم في المدينة؛ فخاف النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أذى قريش إذا نصب علياً؛ لما يعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من كراهتهم له.

وكان يؤخره من وقت إلى وقت؛ فأوحى الله إليه بضرورة التبليغ، وكان ذلك التأخير من النبي صلى الله عليه وآله وسلم خوفاً على نفسه، وعلى علي عليه السلام من الغدر؛ لأن قريشاً كان لها ثأر عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعند علي فإذا مات النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلن يبقى لهم إلا علي عليه السلام؛ لأن حمزة كان قد مات، والعباس كان في مكة ولم يهاجر إلا مع قريش، وبقية بني هاشم كانوا من جملة قريش؛ فلم يبق إذاً ممن ناصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا علي؛ فخاف عليه حينئذٍ؛ فشدَّد الله تعالى الأمر على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في تبليغ الناس ما أمره الله تعالى بتبليغه من ولاية علي عليه السلام من بعده في يوم غدير خم حيث قال: ((من كنت مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله)).

﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لستم يا معاشر اليهود والنصارى على دين كما تدعون، بل أنتم عند الله من أهل الضلال، ومن أصحاب النار، وليس لكم في ولاية الله نصيب، لنبذكم أحكام التوراة والإنجيل وراء ظهوركم، ولكفركم بما أنزل الله إليكم على لسان النبي الأمي الذي تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، ولن تكونوا من أهل ولاية الله، ومن أهل دينه إلا إذا أقمتم أحكام الله التي في التوراة والإنجيل والقرآن.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝٦٨﴾ أخبر الله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه لا يزيد اليهود ما أنزل إليك من ربك إلا كفراً، فلا أمل في إيمانهم ودخولهم في الهدى فلا تأس عليهم حين أبوا الإسلام، ولا تتعب نفسك في ملاحقتهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٩﴾ ليس الأمر على ما كان يقوله اليهود: إن الجنة خاصة بهم، وإنها لهم وحدهم؛ فرد الله عليهم بأنها لمن آمن، سواء كان من اليهود أو من النصارى أو غيرهم.

والصابئون قد يكونون أمة أُرْسِل لهم نبي، ونُزِّل عليهم كتاب، ولكن ضيعوه مع طول الزمان، فعبد ناس منهم النار، وناس غيرها، أي: أنهم صبأوا عن دينهم.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ في أن يعملوا بالتوراة.

﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ أرسل الله إليهم بعد موسى رُسُلاً كثيرين رسولاً بعد رسول.

﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ أخبر الله تعالى أن لليهود عادة معتادة

وسنة مطردة هي التكذيب برسل الله، والقتل لهم؛ فلا تستنكر ذلك يا رسول الله منهم، ولا يكبر عليك ذلك منهم.

جَدّ اليهود وسعوا في إبطال أمر محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وهم يظنون أنهم في مأمن من عذاب الله وسخطه؛ لكونهم من أهل التوراة، ومن أتباع نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد استهواهم الغرور والعجب بما هم عليه من الذنب، وبكثرة نعم الله عليهم، مع ما جبلوا عليه من طبيعة الحسد والبخل؛ لذلك لم يبصروا الهدى الذي جاءهم به النبي الأمي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ولم يسمعوا الرشاد الذي دعاهم إليه.

﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ كانوا في عهد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كلما وقعوا في فتنة عصوا الله وتمردوا عليه ثم يتوبون بعد ذلك، فمن ذلك: حين عبدوا العجل، ثم عصيانهم عندما أمرهم بالسجود عند دخول المدينة وغير ذلك، وكذلك بعد موسى حتى عهد النبي محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ابتلاهم الله به وامتحنهم؛ فكذبوا به وعاندوه، وكفروا به.

﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ في آخر فتنة وهي امتحانهم بمحمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ فعموا وصموا وأبوا أن يتوبوا وهم الكثرة، والتائبون إنما هم قلة قليلة من اليهود الذين كانوا في المدينة.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ فهو عالم بأعمالهم وسيجازيهم عليها صغيرها وكبيرها.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وسبب كفرهم هو مقالتهم هذه.

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَاءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ فهم يدعون له الربوبية وهو حي لم يمت بعد؛ فأنكر عليهم ذلك، ونهاهم عنه، وأمرهم بأن يتوجهوا في عبادتهم إلى الذي خلقهم وخلقه، وحذرهم من الشرك

بالله، وأنهم إذا أصروا على مقولتهم بإلاهيته فإنهم عند الله مشركون لا يدخلون الجنة ومصيرهم إلى النار، وقد اختلف فيه اليهود والنصارى فقالت اليهود: إنه ابن زنا وكذاب وساحر، وقالت النصارى: إنه ابن الله؛ فتجاوزوا الحد فيه إلى مقام الربوبية.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هم النصارى فقالوا: إن الله اتحد بعيسى فصار إياه، وبعضهم قال: إن الله ثالث ثلاثة وهم: عيسى، وأمه، والله هو الثالث.

﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ تهديد من الله تعالى للنصارى بسبب مقالتهم هذه.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ تعجيب من الله لنبيه في عدم توبتهم مع أن باب التوبة مفتوح، وأمر عيسى وأنه خلق ووجد أمر معقول ومحسوس؛ فلماذا يدعون له الربوبية؟ وهم يعلمون أن الله تعالى ليس مخلوقاً، وأن الحدوث منافٍ للربوبية.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ وليس رباً كما تقولون أيها النصارى.

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ قد مضت من قبله الرسل.

﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ مؤمنة، والمراد به: كثيرة التصديق بالله وبرسله وبكتبه.

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ وطبيعتهما كطبيعة البشر من الأكل والشرب وقضاء الحاجة وغيرها، ولا شيء فيهما من صفات الربوبية.

﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ انظر كيف نبين لهم أن عيسى كان بعد أن لم يكن، وأنه وجد من العدم، وأنه من أكلة الطعام التي هي من صفات البشر، وليس فيه صفة من صفات الربوبية، ثم انظر إلى عصيانهم وتمردهم عن هذه الآيات التي بينها الله لهم.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿٧٦﴾﴾ يستنكر عليهم كيف أنهم يعبدون غير الله مع أنه لا يستطيع معبودهم أن يفعل لهم شيئاً، لا حياة ولا موتاً ولا رزقاً، وليس بيده شيء من ملك السماوات والأرض.

﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ فلا تتجاوزوا الحد في أمر عيسى، وتدَّعوا له الربوبية، وقفوا عند الحق، والتزموا بحدوده.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ فلا تصدقوا أولئك الذين قالوا إنه رب؛ لأن قولهم هذا إنما هو بأهوائهم، وليس حقاً وصدقاً، وقد عرف ضلالهم من قبل، فليسوا بأهل للأخذ عنهم وتصديقهم.

﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أضلوا غيرهم معهم.

﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴿٧٧﴾﴾ ضلوا عن الحق.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ لعنهم الله على ألسنة أنبيائهم، أي: الذين كفروا بأنبيائهم وعصوهم وقتلوهم، واستهزئوا بدين الله، وتمردوا عليهم؛ فهؤلاء لعنهم الله على لسان داود وعيسى بن مريم.

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴿٧٨﴾﴾ لعنهم بسبب عصيانهم لله وتمردهم عليه وعدوانهم المتواصل.

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴿٧٩﴾﴾ لا ينهى بعضهم بعضاً عن المنكر.

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يوالون أعداء الله ويناصحونهم وينصرونهم.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴿٨٠﴾﴾ بئس ما فعلوا وقدموا لأنفسهم في صحائفهم لأنهم لم يقدموا في صحائفهم إلا سخط الله وغضبه.

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ لو كانوا يؤمنون بالله حقاً، وبالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وما أنزل إليه ما اتخذوا الكفار أولياء، ولعادوهم؛ لأن الله يأمر بمعاداة أعدائه.

﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ۝٨١﴾ خارجون عن الإيمان.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يخبر الله نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنك يا محمد سترى أشد الناس عداوة للمؤمنين اليهود والمشركين، وهم قريش ومن تبعهم؛ لأنهم كانوا المتزعمين للمشركين، وبقية العرب تبع قريش، فحين آمنت به قريش دخل البقية في دين الله أفواجاً، وكان إسلام الناس في سنة يقال لها عام الوفود، وذلك لما كانوا عليه من الزعامة، وكانوا سكان الحرم، وفعلاً فإن الذين وقفوا في وجه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وفي وجه دعوته- هم المشركون بزعامة قريش، ثم اليهود الذين كانوا في المدينة.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۝٨٢﴾ أقرب الكفار مودة للمؤمنين هم النصارى؛ لما فيهم من طبائع اللين والتواضع، وسبب ذلك أن فيهم علماءً وعباداً، وكانوا غير متكبرين.

ويمكن أنها نزلت في ناس من نصارى الحبشة من قوم النجاشي، وكان قد أسلم سراً؛ فأرسل وفداً منهم إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نحواً من أربعين، وكانوا من أهل العلم؛ فوصلوا إليه وأسلموا عنده، قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ فحين عرفوا الحق تواضعوا له وانقادوا.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ﴾ هذا من كلام النصارى الذين آمنوا ﴿بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ۝٨٤﴾ وما الذي يمنعنا من الإيمان بالله بعدما عرفناه، فليس معنا أي حجة أو مبرر بعد أن سمعنا الحق وعرفناه، وهي رغبتنا أن نعرف الحق، وندخل في طاعة الله مع الصالحين.

والنجاشي هذا كان إسلامه سراً، وسبب إسلامه أنه عندما هاجر إليه نفر من المسلمين بعد مضايقة قريش لهم، والتجئوا إليه فآواهم؛ فخرج عمرو بن العاص أرسلته قريش ومعه نفر لأجل أن يشي بهم عنده، ويؤلبه عليهم؛ فقالوا للنجاشي: إن هؤلاء يدعون في عيسى أنه عبد وليس رباً؛ فاستدعاهم الملك وكان كبيرهم جعفر بن أبي طالب، فسألهم الملك، وتحاوروا عنده، ثم اقتنع النجاشي بما احتجوا به، وأسلم من حينه.

﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ أي: هؤلاء النصارى الذين أتوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأسلموا.

﴿جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴿٨٥﴾﴾ بسبب إيمانهم أثابهم الله جنات النعيم، التي أعدها الله للمحسنين.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴿٨٦﴾﴾ أما الكافرون الذين كذبوا بآيات الله فلا نصيب لهم في ثوابه، وليس لهم عنده إلا عذاب الجحيم خالدين فيها.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴿٨٨﴾﴾ عندما سمع ناس من المسلمين القرآن ومواعظ النبي صلى الله عليه وآله وسلم - اجتمعوا فحلف بعضهم ألا يأكل النهار وأنه سيصوم أبداً، وحلف بعضهم ألا يفترش فراشاً في الليل وأنه سيتعبد إلى الصباح، وحلف بعضهم ألا يطأ زوجة وأنه سينقطع إلى عبادة الله؛ فنزلت هذه الآية تنهاهم عن تحريم الطيبات، وقال لهم تعالى: كلوا ولا تجاوزوا الذي حده الله لكم، وأخبرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ((أنا أنكح النساء وأتزوج، وأصوم وأفطر، وأنام وأعبد الله)) فلا تتعدوا سنتي، وكلوا وتزوجوا وناموا.

وكانوا قد حلفوا وأقسموا على ذلك فقال تعالى يعلمهم كيف يتخلصون من أيمانهم فقال:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ واليمين المعقودة هي هذه اليمين التي حلفها هؤلاء، ويلزم فيها الكفارة.

واللغو: كأن تحلف أن زيداً في البيت معتقداً لذلك فانكشف خلافه، فلا كفارة عليها.

﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ فكفارة هذه اليمين المعقودة إطعام عشرة مساكين في كل يوم وجبتان، أو إعطاء كل مسكين نصف صاع من بر بدلاً عن الوجبتين.

﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ وهو وجبتان لكل مسكين، ويكون من أفضل ما تطعمون أهليكم، وإن أراد تمليكهم أعطى كل واحد نصف الثماني براً لكل مسكين، ولا يصح أن يصرفها لواحد، ولا بد أن تكون لعشرة تقسم بينهم، وإذا كان لهذا المسكين أولادٌ فيصح أن يقبل عنهم ويستنفع بها، والكيس البر أربع كفارات، فإن كان قيمته ستة آلاف مثلاً فالكفارة الواحدة ألف وخمسمائة.

﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ أن يكسي عشرة مساكين ما يستر أكثر بدنه كالثياب ونحوه، والكسوة أفضل من الإطعام، وذلك لأنه يستمر ثوابها ما دام يستنفع بهذا الثوب، وكل يطعم بحسب ما يأكل إن كان غنياً أو فقيراً.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ يعتقها.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ إذا لم يجد أي هذه الأصناف في ملكه فصيام ثلاثة أيام متتابعة ولا يجوز تفريقها.

﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ واتركوا الأيمان، أو يكون المراد بها كفروا، أي: أخرجوا الكفارة إذا حلفتم.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿٨٩﴾﴾ والمراد به شكر الله على ما عرفنا من كيفية التخلص من الذنوب؛ لأن الحلف على شيء والحنث فيه ذنب، والكفارة تجبر هذا الذنب.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿٩٠﴾﴾ وهي آخر آية نزلت في الخمر، وقد نزل قبلها آية في سورة البقرة وآية في سورة النساء.

والميسر: القمار. والأنصاب: هي التي يذبحون فوقها لأصنامهم، والأزلام: هي التي كانوا يستقسمون بها.

والمراد بقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أي: الخمر.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ يبين الله هنا الحكمة في تحريم الخمر والميسر فذكر تعالى أنهما سبب لإثارة العداوة والبغضاء، فإذا حصلت العداوة والبغضاء حصل الفتك وسفك الدماء وفساد الحرث والنسل وضاع الأمن، وفسدت الحياة الدنيا.

﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴿٩١﴾﴾ وتسبب الخمر والميسر أيضاً في إبعادكم عن ذكر الله وترك الصلاة فانتهوا أيها المؤمنون عن الخمر والميسر، وكانت هذه هي الآية الثالثة في تحريم الخمر وهو تحريمه البتة؛ لأن تحريمه أولاً كان حال الصلاة، فنهاهم عن الصلاة حال السكر.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴿٩٣﴾﴾ سأل أناس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقالوا له: يا رسول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا في بدر مثلاً وهي في بطونهم؟ فأنزل الله بيان رفع الجناح عنهم إذا كانوا من أهل التقوى والإيمان، واستمروا على التقوى والإيمان والاستقامة والأعمال الصالحة، والمراد ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ فيما مضى من شربهم الخمر قبل أن ينزل التحريم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ كان العرب أهل صيد، وكانوا

مولعين به، وكانت متعتهم فيه؛ فابتلاهم الله بتحريم الصيد عليهم حال الإحرام، وأخبرهم بهذه المقدمات؛ لئلا يتورطوا عند إحرامهم بالحج؛ لأنها ستكون سهلة المنال اختباراً من الله لهم في الحرم وحال الإحرام، وذلك مثل ما ابتلى الله أصحاب السبت وليظهر المتقي من غيره، وقد دعا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جميع المسلمين في ذلك العام للحج ليعلمهم مناسكه وكيفيته.

﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٩٤﴾﴾ بعدما أخبره الله تعالى وأنذره ونهاه عنه.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ نهي من الله للمحرم بحج أو عمرة أو من كان داخل الحرم عن قتل الصيد.

﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ يلزمه جزاء ويكون جزاؤه أن يذبح مثل ما قتله من البقر أو من الإبل أو الغنم؛ فإذا كانت نعامة فجزاءه جمل، وإن كان بقراً وحشياً أو حماراً وحشياً فجزاؤه بقرة، وإن كان غزالاً فشاة.

﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ يحكم بالجزاء اثنان من أهل العدل.

﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ يكون هدية للكعبة، أي: يذهب بها أو يرسل بها إلى الحرم، ويأكلها الفقراء في مكة، ولا يلزم في منى إلا إذا كان في الحج: فقيل: في منى، وذكر سيدي مجدالدين في منسكه: أن الحرم محله سواء كان في الحج أو في العمرة.

﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ بدل الجمل فيطعم مائة مسكين أو إذا كان يلزمه شاة فعشرة أو بقرة فسبعين.

﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ فبدل إطعام مائة مسكين يصوم مائة يوم، وهكذا.

﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ ليذوق عاقبة عصيانه بقتله للصيد، ويكفي صرفها في فقير واحد عند بعضهم.

﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ فما مضى مما تصيدتم وقتلتم عفا الله عنكم.

﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴿٩٥﴾﴾ ومن عاد إلى قتله بعد بيان تحريمه فسينتقم الله منه.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ صيد البحر حلال لكم أيها المحرمون فتصيدوه وكلوه وتزودوا منه في سفركم.

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أما صيد البر فهو محرم عليكم ما دمتم محرمين، وكذلك أكله ولو قتله غيركم، وأما العسل فليس صيداً، وله أخذه وهو المذهب، وأما النحل فهي صيد فلا يصح تصيدها، وأما البيض فيلحق بالصيد.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴿٩٦﴾﴾ فلا تخالفوا أوامره.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ جعل الله الكعبة التي هي البيت الحرام الذي يطوف الناس حوله قياماً للناس تقوم عليه مصالح دينهم ودنياهم.

وكذلك الشهر الحرام جعله الله قياماً للناس؛ لما يحصل فيه من الأمن والأمان، وما يحصل للخائف من الأمن فيه من مصالح التجارة والضرب في الأرض لطلب الرزق.

﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿٩٧﴾﴾ ما يحصل لكم من المصالح هذه، وما اطلعتم عليه فيه، وما يحصل لكم من المنافع الدينية والدنيوية- تعلمون من خلاله أن الله حكيم عليم لم يشرع لكم من الدين إلا ما فيه قيام منافعكم ومصالحكم الدينية والدنيوية.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿٩٨﴾﴾ أخبركم الله بتعاليمه؛ فاعلموا أنكم إذا تجاوزتموها فإن الله شديد العقاب وسيعاقبكم، وإذا استجبتم وعملتم بما أرشدكم إليه فهو غفور رحيم، فكونوا على حذر من أن يلحقكم الله تعالى بعذابه، وبادروا إلى العمل بأسباب الفوز والظفر بمغفرته ورحمته.

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وليس على الرسول ﷺ إلا تبليغكم فقط، وليس عليه منعكم من المعاصي، ولا إدخالكم في الطاعات.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴿٩٩﴾﴾ والله سبحانه هو الذي سيجازيكم، فهو عالم بما أسررتم وما أعلنتم.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿١٠٠﴾﴾ الخبيث هو الكفر وأهله، والطيب هو الإيمان وأهله؛ فلا تميلوا إلى الخبيث وأهله، وتوجهوا إلى الطيب وأهله، ولا تفتتنوا بكثرة الخبيث وأهله، وضعف الطيب وأهله وقلتهم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴿١٠١﴾﴾ كان بعض المسلمين يسأل النبي ﷺ سؤال تعنت، ويسألون عن أشياء لا شأن لهم بها، كما ورد أنه كان بعضهم يسأل النبي ﷺ عن أبيه من هو؟ لأن نكاحهم كان نكاح جاهلية، وقد تكون أمه جاءت به من رجل غير الذي يدعى هذا السائل إليه؛ فالإسلام يريد الستر عليه، وهو يريد أن ينبش على المستور.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴿١٠٢﴾﴾ اقترحوا على أنبيائهم أحكاماً، ثم كفروا ولم يعملوا بها، والنبي ﷺ يريد أن ينتظروا إلى أن ينزل القرآن فيشرع لهم أحكاماً يعملون بها، ويتركون الاقتراحات في تكاليف دينهم؛ لأن في ذلك حرجاً عليهم.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴿١٠٣﴾﴾ نزلت هذه الآية رداً على المشركين وهي خاصة في بهائم الأنعام، فقالوا: هذه لله، فلا يحل لأحد أن يقربها، أو يمنعها من مرعى، أو يحلب منها، أو يركبها، أو يحمل عليها.

والبحيرة: فهي الناقة من الإبل، كانت إذا ولدت خمسة أبطن، فنُتِجَتْ الخامس سَقْبًا -وهو الذكر- ذبحوه فأهدوه للذين يقومون على آلهتهم، وإن كانت أنثى استبقوها، وغذوها، وشرموا أذنها، وسموها بحيرة.

والسائبة: فهي من الإبل، كان الرجل منهم إذا مرض فشفي، أو سافر فأُدي أو سأل شيئا فأُعطي- سَيَّبَ من إبله ما أراد أن يُسَيِّبَهُ؛ شكراً لله، ويسميها سائبة، ويخليها تذهب حيث شاءت مثل البحيرة، ولا تمنع من كلأ، ولا حوض ماء، ولا مرعى.

والوصيلة: فهي من الغنم، كانوا إذا ولدت الشاة خمسة أبطن عندهم، وكان الخامس جَدْيًا- ذبحوه، أو جديين ذبحوهما، وإن ولدت عَناقَين استحيوهما، فإن ولدت عناقا وجديا تركوا الجدي ولم يذبحوه من أجل أخته، وقالوا: قد وصلته؛ فلا يجوز ذبحه من أجلها.

والحام: فهو الفحل من الإبل، كان إذا ضرب عشر سنين، وضرب ولد ولده في الإبل- قالوا: هذا قد حمى ظهره؛ فيتركونه لما نتج لهم، ويسمونه حامًّا، ويخلون سبيله، فلا يُمنَع أينما ذهب، ويكون مثل البحيرة والسائبة، فلا يجوز في دية، ولا يحمل عليه حمل.

فشرائعهم هذه في الأنعام باطلة، وهي كذب وافتراء على الله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ كانوا إذا قال لهم النبي ﷺ تعالوا واستمعوا إلى ما قال الله وقال الرسول، قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا من الدين.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ كان المشركون مصرين على اتباع دين آبائهم وأجدادهم ولو كانوا من أهل الجهل تعصباً منهم لهم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أنتم مكلفون بأنفسكم.

﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ فوثقوا صلتكم بالله والتزموا بطاعته،

ولا بأس عليكم ولو ضل أهل السماوات والأرض.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ سترجعون جميعاً إلى الله يوم القيامة وسيحكم بينكم بالحق.

﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴿١٠٥﴾﴾ وسوف يجازي كل واحد بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وهذا بعد تبليغهم الحجة وإبلاغ الجهد في الدعوة لهم إلى الهدى، وبعد هذا لا يضركم من ضل، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة:٩٩]، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فلا يلزمكم إدخالهم في الدين.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ اثنان يشهدان على وصيته؛ لأجل أن تنفذ، ولا بد أن يكونا عدلين لتقبل شهادتهما.

﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ اثنان ولو من أهل الكتاب لكن بشرط: إذا كنتم مسافرين، وحضر الموت ولم تجدوا من يشهد من المؤمنين.

﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ يشترط في هذين اللذين من أهل الكتاب أن تقبضوهما بعد صلاة العصر فتحلفوهما.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ قائلين: إذا شككتم في صدق شهادتنا على الوصية: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴿١٠٦﴾﴾ يكون تحليفهم على هذا، وأنهم سيقولون الحق.

هذا، وإنما يجب الإشهاد إذا خاف أن يضيع الحق، وأما إذا كان هناك من ينفذ الوصية ويؤدي الحقوق التي عليه، أو لم يكن عليه شيء وهو عالم أنهم سينفذونها بدون إشهاد- فلا يلزمه.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ إذا انكشف أن هؤلاء الشهود لم يشهدوا بالحق، وكتموا وخانوا- فليقم شاهدان من أهل الميت يحلفان بالله:

أن الشاهدين الأولين شهدا بغير الحق، وأن شهادتنا هي الحق، وما تجاوزنا الحق فيما شهدنا به؛ فإذا حلفوا- أخذوا ما حلفوا عليه.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ اثنان من أهل الميت يقومان ويحلفان أن أولئك الشاهدين قد خانا وسرقا، ثم يأخذونه بعد ذلك.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝١٠٧ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾.

﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يخافون أن تأتي أيمان بعد أيمانهم وهي أيمان أهل الميت، وذلك لأن ما شرعه الله هنا من الأيمان سبب لأن يتحرى الشاهدان الأولان شهادة الحق وقول الصدق.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾ ولا تخالفوا أوامره ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝١٠٨﴾.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ يوم القيامة في عرصات المحشر.

﴿فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ يسألهم الله: كيف كان جواب قومكم حين أرسلتكم إليهم؟ ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝١٠٩﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ ثم يسأل الله تعالى عيسى بن مريم وهذا السؤال ليس لأجله، بل لأجل أتباعه؛ ليعلموا أنهم كانوا على باطل في ادعائهم ربوبيته، ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بجبريل.

﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ والكهل من حين بلوغ سن الرابعة والثلاثين يسمى الرجل كهلاً.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ وتعليمه الكتاب المراد به جنس الكتب وهي كتب الأنبياء قبله، وقد خص التوراة والإنجيل لشرفهما وعظمهما، وإلا فقد شملهما اسم الكتاب.

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ تبعثهم من قبورهم أحياءً.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ولم يتمكنوا منك، وقد كانوا أرادوا قتلك، وقد ظنوا أنهم قتلوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧].

﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴿١١٠﴾﴾ رموه بالسحر حين رأوا هذه المعجزات منه، ذكر الله تعالى في هذه الآيات نعمه العظيمة التي أنعم بها على نبيه عيسى بن مريم عليه السلام- ليعلم أتباعه أنه ليس بإله، وأنه بشر أنعم الله عليه بنعم عظيمة.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ وهم أصحاب عيسى وخاصته وأنصاره.

﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴿١١١﴾﴾ وقد أوحى الله إليهم على لسان عيسى عليه السلام.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴿١١٢﴾﴾ فلا تسألوا هذا السؤال، وما ينبغي لكم.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ قالوا ذلك حين شاهدوا آيات الله، وعرفوا أنهم على الحق، وأنهم أصحاب نبي الحق لتطمئن قلوبهم بالإيمان وتستقر عليه.

﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴿١١٣﴾﴾ لأجل أن نتيقن أننا على الحق، ويشهدوا على نزول هذه المائدة، ويخبروا من بعدهم بهذه الآية العظيمة الدالة على نبوة عيسى عليه السلام وعظيم منزلته عند الله.

تلك المحاورة التي بين عيسى وبين الله تعالى- يوم القيامة، يوم جمع الله الرسل، وأتباع عيسى يسمعونها، وهم حاضرون هذا الحوار؛ لأجل أن يعرفوا أنهم كانوا على الباطل، وأنهم ليسوا على دين عيسى، وأنه لم يدَّعِ الربوبية وإنما هو عبد، وأنه إنما يحيي الموتى بإذن الله وإرادته وأمره، فيبهتون هنالك ويعلمون أنهم كانوا على الباطل.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ هذا دعاء من عيسى عليه السلام لأجل أن يتخذوا هذا اليوم عيداً يشكرون الله فيه على هذه النعمة التي فضلهم بها، وأنزلت عليهم فيه المائدة، وهذا العيد لأول النصارى إلى آخرهم إلى يوم القيامة يجتمعون في هذا اليوم ويشكرون الله تعالى على نعمه.

﴿وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴿١١٤﴾﴾ وآية تطمئن بها قلوبنا أننا على الحق.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ فمن كفر بعد أن يعطيهم الله هذه النعمة ويريهم هذه الآية، ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وذلك الخطاب في يوم القيامة والنصارى يسمعون هذا الخطاب كما ذكرنا، وقد كانت النصارى حرفت الإنجيل عما أنزل الله، ولم يبق فيه شيء مما أنزل الله على عيسى.

والأناجيل التي تعترف بها النصارى هي أربعة أناجيل وكل إنجيل مخالف للآخر.

﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أنزهك يا رب عن الشريك.

﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ ما ينبغي لي أن أدعي شيئاً لا حق لي فيه.

﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فهذا هو الذي قلت لهم.

﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ وكنت أسمع ما يقولونه ما دمت حياً بينهم.

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴿١١٧﴾﴾ فأنت تعلم بأعمالهم وما يقولونه لا يخفى عليك شيء.

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿١١٨﴾﴾ فلن تعذب إلا من يستحق، ولن تغفر إلا لمن يستحق المغفرة؛ لأنك عزيز حكيم، وهذا من الحكمة.

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴿١١٩﴾﴾ وهو يوم القيامة، وفيه يسأل الله الرسل والمرسل إليهم: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴿٦﴾﴾ [الأعراف]. فيسألون: بماذا أجبتم رسل الله حين دعوكم؟ وكذلك الرسل: ماذا فعلتم في أممكم؟ وهل بلغتموهم؟

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿١٢٠﴾﴾

ختم الله هذه السورة بهذه الآية، وتفسيرها هو: إن الله تعالى وحده هو المختص بملك السماوات والأرض وما فيهن، ليس له شريك في ذلك، وهو سبحانه المختص بالقدرة ونفاذها في كل مقدور، فهو لذلك الرب الذي يستحق العبادة والطاعة ليس لأحد نصيب في الملك، لا عيسى ولا غيره مع ما هم عليه من الضعف فلا يستحقون العبادة.

تمت سورة المائدة

ويليها سورة الأنعام

❁❁❁❁❁

سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنعام تتكلم عن المشركين من كفار قريش الذين كانوا يعبدون الأصنام، والسور التي قبلها تتحدث عن المؤمنين واليهود وأهل الكتاب.

يعلم الله المسلمين هناك شرائع الإسلام من الصلاة والوضوء والتيمم والحج وأحكامه، والأيمان والصيد، وأحكام النكاح والطلاق والمواريث.

وفي هذه السورة لأهل مكة يخبرهم الله بآياته، ويستدل عليهم بالحجج الدالة على إلهيته وعظمته.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ۝١﴾ بعدما عرفوا أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض- عدلوا عن عبادة الله، وكفروا به، وعكفوا على عبادة الأصنام.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يخبرهم تعالى بآياته فلعلهم يؤمنوا ويتركوا ما هم فيه من الشرك إذا عرفوا ما يتلى عليهم من آيات الله وحججه.

﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ خلقكم من طين ثم جعل لكل منكم أجلاً يموت فيه.

﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ وهناك أجل مسمى عند الله لا يعلمه إلا هو لا تعلمونه، يبعثكم فيه يوم القيامة.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ۝٢﴾ ولا زلتم في شككم ورفض الإيمان بيوم البعث، وهو حق لا بد من وقوعه.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ۝٣﴾ وهو الله المسيطر بسلطانه على السماوات والأرض فهو عالم بما في نفوسكم وما تعملونه، وسيحاسبكم عليه؛ فلا تظنوا أنه بعيد عنكم فهو حاضر معكم.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ۝٤﴾ يعني

قريشاً فكلما جاءتهم آية دالة على وحدانيته، وعلى صدق نبيه ﷺ- أعرضوا عنها ولم يقبلوا.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ كذبوا بالقرآن مباشرة من دون نظر في صدقه، وإنما تمرداً منهم، وعناداً واستكباراً.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ۝٥﴾ سوف تأتيهم الأخبار التي أخبرهم الله بها في القرآن فاستهزأوا بها من البعث والحساب والجنة والنار، وسيرون صدق ذلك وسيرون ما توعدهم الله به من النكال في الدنيا.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ۝٦﴾ كان المشركون يعلمون بما جرى من قصة صالح وإخراجه الناقة لقومه، وذلك لأن بلاد نبي الله صالح كانت قريبة منهم شمال المدينة، ما بين تبوك والمدينة، وكانوا يتناقلون قصتهم وما جرى منهم، فيما بينهم.

وهم عالمون بقصة هود وما جرى في قومه، وما جرى في قوم لوط بسبب عصيانهم له؛ فلذا قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني أنهم يعلمون ذلك علماً يقيناً، فأمرهم الله أن ينظروا في أولئك، وكيف مكنهم الله في الأرض أكثر مما مكن قريشاً، وكانوا أهل غنى وأهل أموال وزراعات، وكيف أن الله أهلكهم واستأصلهم بسبب ذنوبهم وأبادهم، ولم يبق لهم أثر ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ۝٨﴾ [الحاقة]. ثم أنشأ في بلادهم قوماً غيرهم، فكان من المفروض أن يكون علمهم بحال أولئك وما جرى عليهم بسبب تكذيبهم لأنبيائهم سبباً رادعاً لهم عن التكذيب بنبيهم ﷺ، وعبرة لهم تمنعهم من التمرد على الله والعصيان له.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ۝٧﴾ قال الله تعالى لنبيه ﷺ: اقطع طمعك في إيمانهم

فلن يؤمنوا أبداً، ولو أنزل الله عليهم قرطاساً من السماء وهم يشاهدون نزوله عليهم، ولمسوه بأيديهم- لما صدقوك، ولما دخلوا في دينك، ولما آمنوا برسالتك؛ فلا تتعب نفسك في ملاحقتهم.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ قال المشركون للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مقترحين عليه: لو أنزل معه ملك، يشهد له أنه صادق، وأنه نبي من عند الله، قالوا هذا تمرداً وتعنتاً.

﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ⑧﴾ لو أنزلنا ملكاً يأتي معك لانتهى أمر الحياة الدنيا، ولماتوا جميعاً، ولما أمهلهم الله تعالى إذا لم يؤمنوا بعد مشاهدتهم هذه الآيات.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ⑨﴾ لو أنزلنا معك ملكاً لجعلناه في صورة رجل لتتم المخاطبة والتفاهم إلا أنه لا يرتفع الإشكال والشبهة، فسيقولون: وما يدرينا أنك ملك، وسيبقى الإشكال كما هو.

وإنما لزم أن يجعله الله على صورة رجل؛ لأنه يتعذر الخطاب والمفاهمة إذا كان على صورته الحقيقية؛ لأن جنس الملائكة غير جنس البشر، وكان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ينزل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في صورة رجل، وإلا لما تحمل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رؤيته على صورته الحقيقية.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⑩﴾ أخبر الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن يهون على نفسه فالرسل الذين قبلك كانت أممهم تفعل بهم من التكذيب والاستهزاء والأذى مثلما يفعل قومك، وقد عذب الله تعالى أولئك المستهزئين بسبب استهزائهم، وسيلقى المكذبون بك من النكال مثل ما لقي المكذبون من قبلهم.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ⑪﴾ أمر الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن يأمر قومه بأن يسيروا في الأرض لينظروا كيف كان عاقبة المكذبين

وكيف عذبهم الله واستأصلهم؛ لعلهم يعتبرون فيتركون التكذيب والاستهزاء.

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ وقل لهم يا محمد لمن ملك السماوات والأرض وما بينهما، وهم يعلمون أنها لله، ولكنهم قالوا: إنما نعبد الأصنام لتقربنا إلى الله.

﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ يعني أنه لا يعذب أحداً إلا بذنبه، وأنه لا يريد أن يعذب أحداً: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ [النساء:١٤٧].

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ سوف يجمعكم جميعاً يا محمد أنت وأصحابك ومن كذبوك يوم القيامة، وسوف يلقى كلٌّ جزاء عمله في يوم القيامة، الذي يكذبون به وهو حق لا ريب فيه.

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴿١٢﴾﴾ احسم طمعك يا محمد منهم فلن يؤمنوا. وهم كفار قريش، وإيمانهم يوم فتح مكة لم يكن إيماناً قال أمير المؤمنين عليه السلام: (والله ما أسلموا ولكن استسلموا)، ولن يدخل الإسلام في قلوبهم أبداً أبداً.

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿١٣﴾﴾ فهو ملك لله، وليس للآلهة التي تعبدونها نصيب في ملك السماوات والأرض.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أمر الله نبيه بأن يقول لهم: أتريدونني أن أتخذ رباً غير الله أيها المشركون، والله هو فاطر السماوات والأرض، وهو الذي يرزق الناس، لا من تدعونه إلهاً أيها المشركون؛ فكيف أعدل عن عبادة الخالق الرازق إلى عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أمره الله بأن يخبرهم بأنه أول من آمن بالله، واستسلم لعظمته، وانقاد لعزته.

﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴿١٦﴾﴾ السلامة من عذاب يوم القيامة هو الفوز العظيم.

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿١٧﴾﴾ فإذا مس الله الإنسان بضر فلن يرفع الضر غير الله، وإن مس الإنسان بخير فلن يستطيع أحد أن يرده عنه.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ بقدرته وسلطانه.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴿١٨﴾﴾ حكيم يعني أن أفعاله كلها حكمة ومصلحة وهو خبير يضع كل شيء في موضعه على أكمل وجه، فهذا هو الذي ينبغي أن نتوجه إليه بعبادتنا.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ما هو أكبر شيء يشهد أني على الحق، وأنكم على الباطل؟ فأمره أن يجيب بأن الله هو الذي يشهد بأني نبي صادق، وأنكم على الباطل، وشهادة الله هي بآياته التي أرسله بها.

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْءَانُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ لأجل أن ينذر قريشاً ومن بلغه القرآن من سائر الناس إلى يوم القيامة.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَى﴾ يستنكر الله تعالى على المشركين ما هم عليه من الشهادة للأصنام بأنها آلهة مع الله وعبادتهم لها.

﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ فلا أشهد معكم أن مع الله آلهة أخرى.

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴿١٩﴾﴾ قل لهم يا محمد ليس الأمر كما تدعون أيها المشركون من وجود شركاء مع الله في الإلهية إنما هو إله واحد وهو الله رب العالمين، أما آلهتكم التي تعبدونها فأنا بريء منها لا أرضاها ولا أؤمن بها.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ أهل الكتاب يعرفون أن محمداً صادق من عند الله معرفة مستحكمة لا لبس فيها ولا غموض، معرفة مثل معرفتهم لأبنائهم.

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴿٢٠﴾﴾ وهم المشركون لن يؤمنوا بك

يا محمد أبداً.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴿٢١﴾﴾ فلا أحد أظلم من المشركين الذين يفترون على الله الكذب، ويكذبون بآيات الله.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴿٢٢﴾﴾ يوم يحشر الله المشركين سيسألهم: أين آلهتكم التي كنتم تعبدونها؟ لماذا لا تدعونها لتنفعكم؟ فأنتم الآن في أشد حاجة إليها.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴿٢٣﴾﴾ لم يكن جوابهم إلا أن أنكروا وجحدوا شركهم الذي كانوا عليه؛ لشدة ما يرونه يوم القيامة من أهوال العذاب وشدة الحساب وغضب رب الأرباب.

﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴿٢٤﴾﴾ انظر يا محمد وأنت أيها الناظر إلى حيرة المشركين يوم الحساب وما كان منهم من إنكارهم أنهم كانوا مشركين، وكيف ضاعت آلهتهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ومن المشركين ناس يستمعون القرآن.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يستمعون إلى القرآن لكنهم لا يفهمونه، وإنما سماعهم كسماع الأنعام؛ فلا يعون ما تقوله يا محمد ولا يفهمونه؛ لأن قلوبهم قد غطاها الكفر فلا تفقه شيئاً واستولى عليها الكبر والكفر والتمرد.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لأنهم قد أجمعوا على عدم اتباعه وعزموا على ذلك، وأنه مهما أتى به فلن يؤمنوا فلا تتوقع منهم يا محمد الإيمان والتصديق وليس كفرهم لضعف ما جئتهم به من الآيات والبينات بل عدم إيمانهم لشدة كبرهم وتعاليهم وقوة حميتهم وعصبيتهم للكفر و...إلخ.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ۝٢٥﴾ يأتون إلى النبي ﷺ ويجادلونه فيقولون: إن ما أتى به ليس إلا خرافات وخزعبلات من قصص الأولين وحكاياتهم.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ ينهون عن النبي ﷺ أن يقربه أحد ويصدونهم عنه، ويبتعدون عنه بأنفسهم.

﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ۝٢٦﴾ فهم يسعون في هلاك أنفسهم، ويظنون أنهم في خير العمل.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ۝٢٧﴾ لو تراهم يا محمد يوم القيامة وهم واقفون على شفير جهنم- لرأيت أمراً عظيماً من الحسرة والندم الذي هم فيه، وكيف يتمنون أنهم لو يردون إلى الدنيا، ويعملون الأعمال الصالحة.

﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ والذي بدا لهم: سيئات أعمالهم، وعاقبة تكذيبهم واستهزائهم باليوم الآخر وبالجنة والنار، وفي الحقيقة إنهم إنما جحدوا النبي ﷺ، وكذبوا به- تعنتاً منهم وتمرداً عليه، وإلا فهم عارفون بصدقه، وأنه نبي صادق من عند الله.

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ۝٢٨﴾ فلو ردهم الله إلى الحياة الدنيا لعادوا إلى التكذيب والكفر، والاستكبار والعلو في الأرض، وهم كاذبون في قولهم ذلك.

﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ۝٢٩﴾ فأنكروا البعث والحساب، وقالوا: ليس محمد إلا ساحراً وكذاباً.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ لو ترى يا محمد حين يقفون للحساب بين يدي الله لرأيت أمراً عظيماً من خوفهم وجزعهم وفزعهم، وجواب «لو» محذوف هو ما ذكرنا؛ فحينها لا يسعهم الإنكار.

﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴿٣٠﴾﴾ قالوا: بلى إنه لحق وصدق، فيقال لهم: ذوقوا العذاب بسبب كفركم.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ خسروا أنفسهم بدخولهم جهنم خالدين فيها أبداً جزاءً على تكذيبهم بلقاء الله في يوم الحساب.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ يتحسر المشركون يوم يبعثهم الله في يوم القيامة بسبب تفريطهم وعدم إيمانهم، وذلك عند معاينتهم البعث والحساب والجنة والنار.

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ فكل امرئ حامل ذنبه على ظهره.

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴿٣١﴾﴾ تعجيب من سوء أوزارهم وتعظيم لما يحملون من ذنوبهم الموبقة.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ فلا يغترن بها أحد، فليست إلا كلعبة الأطفال عندما يتسلون ويلعبون ساعة، ثم يتركون ما في أيديهم من اللعبة.

﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴿٣٢﴾﴾ فهي أفضل من الحياة الدنيا لأهل التقوى، ولو عقل أهل التكذيب وتفكروا، وتركوا العناد والاستكبار لرجعوا إلى الهدى وسلكوا الطريق التي ستوصلهم إلى نعيم الجنة.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴿٣٢﴾﴾ لأن العقل لا يختار إلا الأفضل، ومن شأن العقلاء أن يختاروا الحياة الدائمة والنعيم الباقي على المتاع الفاني والمنقطع.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أخبر الله نبيه ﷺ بأنا نعلم أنه يحزنك يا محمد تكذيب المشركين، واستهزاؤهم بك وتمردهم.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴿٣٣﴾﴾ فهم عالمون أنك نبي صادق، وأن ما جئت به هو الصدق والحق، ولكنهم يجحدون هذا الذي يصدقون به في أنفسهم وينكرونه بألسنتهم عتواً وكبراً ونفوراً منهم عن الحق.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ فقد لحق الرسل الذين من قبلك مثل ما لحقك فلا تحزن؛ يريد الله أن يهوِّن على نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قد استاء وحزن عندما رفضوا دعوته، ولم يستجيبوا له، واستخفوا به وآذوه؛ فأراد الله تعالى أن يخفف على نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من شدة صدمة قومه له بالتكذيب والكفر والتمرد فأخبره بما لقيه المرسلون من قبله فإذا علم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن المصيبة قد عمت جميع الأنبياء- هانت عليه مصيبته.

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ فلا تستبطئ يا محمد النصر، فقد وعدك الله النصر، ولا مبدل لكلماته.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴿٣٤﴾﴾ لقد قص الله عليك يا محمد أخبار المرسلين من قبلك فقد لقوا من أممهم مثل ما لقيت ولحقهم مثل ما لحقك فاصبر كما صبروا، وانتظر العاقبة الحسنى كما انتظروا وسيأتيك النصر كما أتاهم.

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴿٣٥﴾﴾ كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حريصاً على إيمان قريش أشد الحرص، وقد أتعب نفسه في طلب هداهم وإيمانهم، فما لقي منهم إلا التكذيب والإعراض عن دعوته، فتمنى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يعطيه الله تعالى آية عظيمه تذعن لها قريش، ولا تستطيع ردها ؛ فأنزل الله تعالى عليه هذه الآية تخبره بأن الله تعالى قد صَرَّف لهم آياته، وضرب لهم الأمثال، ونَوَّع الدلالات، فلم يبق لهم عذر عنده تعالى، فاحْسِمْ طمعك يا محمد من إيمانهم، فلن يؤمنوا أبداً.

فإن بقي لك مطمع في إيمانهم فابحث لهم عن آية في باطن الارض أو في عنان السماء فافعل، ولكن ذلك ليس تحت قدرتك، والقدرة هي لله تعالى وحده، فلو شاء أن يدخلهم في الإيمان كرهاً لأدخلهم ؛ لأنه على كل شيء قدير، غير أن الله تعالى قد قضت حكمته بأن يترك الاختيار إلى عبيده، فمن شاء فليؤمن باختياره، ومن شاء فليكفر، فلا تطمع يا محمد فيما ليس فيه مطمع.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ۝٣٦﴾ لا يستجيب لدعوتك يا محمد ولا ينتفع بها إلا الذين يسمعون، أما قومك من قريش فهم كالأموات لا ينتفعون بدعوتك وموعدهم القيامة للحساب والجزاء.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ۝٣٧﴾ إن قومك يا محمد قد تعنتوا وتمردوا بعدما سمعوا دعوتك وتحققوا ما تلوت عليهم من آيات ربك، ولزمتهم الحجة، ومع ذلك طلبوا منك يا محمد على جهة التعنت والتكبر أن تأتيهم بآية لعدم اعتدادهم بما جئتهم به من الآيات التي فيها ما يكفي من الحجة والبرهان، فقل لهم يا محمد: إن الله على كل شيء قدير، لا ينزل آياته إلا على قدر ما تقتضيه حكمته ومصالح عباده، وقد أتاكم فيما أنزل عليكم ما يكفي من الحجة والبرهان، ولكنكم أيها المشركون تجهلون حكمة الله تعالى.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ۝٣٨﴾ إنكم أيها المشركون تكذبون باليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء على الأعمال، ولو كنتم تخافون عذاب الآخرة لما تعنتم في الكفر، ولما تمردتم على الله تعالى، وهو وعد حق فما من دابة في الأرض تدب على رجليها، ولا طائر يطير في السماء إلا ويبعثه الله تعالى يوم القيامة كما يبعثكم ؛ فانظروا لأنفسكم أيها المشركون قبل أن يحل بكم هذا اليوم الذي لا ريب فيه، فقد أعذر الله تعالى إليكم.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ۝٣٩﴾ صور الله تعالى لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ صورة المكذبين ليحسم طمعه في إيمانهم، وليهون على نفسه من ملاحقتهم، فذكر له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنهم كالصم الذين لا يسمعون، والبكم الذين لا يفقهون، ومع ذلك فهم في ظلمات لا يبصرون، فكيف يقدر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مع ذلك على إسماعهم؟!!

وقد أراد الله تعالىٰ لأولئك المكذبين المتمردين أن يمنع عنهم ألطافه وأنوار هداه ؛ لأنها لا تجدي فيهم، فهم عنده ضُلَّال لا يتأتىٰ رجوعهم إلىٰ طريق الرشاد، أما من استجاب لدعوة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فإن الله تعالىٰ قد أراد أن يمدهم بألطافه وتوفيقه، ويمدهم بأنوار هداه.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ۝٤١﴾ أخبروني أيها المشركون المكذبون لو أن الله تعالىٰ أتاكم بعذاب من عنده في الدنيا هل تستغيثون بأصنامكم وتطلبونها رفع العذاب عنكم؟ أم أنكم تدعون الله ربكم الذي خلقكم، وتسألونه كشف العذاب عنكم؟

حقاً إنكم لا تدعون إلا الله تعالىٰ، ولا تلتفتون إلىٰ أصنامكم ؛ لعلمكم أنها لا تقدر علىٰ دفع الضر عنكم، فإذا سألتم الله ربكم فإنه يكشف عنكم عذابه حين دعوتموه؛ لعلمكم أنه وحده الذي بيده دفع الضر عنكم، فما بالكم أيها المكذبون تعرضون عمن يملك النفع والضر، وتتوجهون إلىٰ الأصنام التي لا تملك لكم ضراً ولا نفعاً؟

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ۝٤٢ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ۝٤٣﴾ لا يكبر في نفسك يا محمد تكذيب قومك، ولا يتعاظم كفرهم لديك فأمم الأنبياء من قبلك قد كذبوا كما كذب قومك، وتمردوا علىٰ أنبيائهم كما تمرد قومك، وقلبنا تلك الأمم في الخير والشر، والعسر واليسر ؛ لعلهم يتذكرون، فلم ينفع فيهم ذلك، ولم يتنازلوا عن تمردهم وكفرهم، بل أصروا وازدادوا عتواً ونفوراً، كما ترىٰ من قومك، فما لقيت من قومك يا محمد فقد لقي مثله الأنبياء من قبلك.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ۝٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۝٤٥﴾ فأسبلنا النعم على تلك الأمم الخالية، ثم أخذناهم بعذابنا واستأصلناهم بنقمتنا.

فاصبر يا محمد حتى يأتي أمر الله تعالى وعذابه على المكذبين من قومك، فسيقطع الله تعالى دابر المكذبين كما قطع دابر تلك الأمم المكذبة، وبقطع دابر القوم الظالمين تتم نعمة الله تعالى على أنبيائه وعلى المؤمنين، فإذا حصل ذلك فأكثروا من الحمد لله والثناء عليه.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ۝٤٦﴾ أخبروني أيها المشركون لو أن الله سبحانه وتعالى أخذ سمعكم فلا تسمعون، وسلب أبصاركم فلا تبصرون، هل تقدر تلك الأصنام التي تعبدونها أن ترد عليكم أسماعكم وأبصاركم؟ أم أنه لا يقدر على ذلك إلا ربكم الرحمن، الذي خلقكم وجعل لكم السمع والأبصار؟ فما بالكم تعرضون عن عبادة خالقكم الذي أنعم عليكم بالأسماع والأبصار، وتُقْبِلون على عبادة الأصنام التي لا تقدر على نفعكم ولا ضركم؟

فاعجب يا محمد من سخافة عقولهم كيف نوضح لهم آياتنا ثم يعرضون؟!

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ۝٤٧﴾ إن عذاب الله تعالى إذا نزل فلا يصيب به إلا القوم الظالمين، أما المؤمنون الذين استجابوا لربهم فهم في منجاة وأمن لا يلحقهم شيء من ذلك العذاب.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴿٤٩﴾﴾ إن الله تعالى يرسل رسله إلى عباده ليخبروهم بما أعده الله من الثواب للمؤمنين الذين يعملون الصالحات في جنات النعيم، وليخبروا الظالمين المتمردين بما أعد الله تعالى لهم إن أصروا على كفرهم وتمردهم من العذاب الأليم.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴿٥٠﴾﴾ قل يا محمد لقومك المكذبين إنما أنا واحد منكم وبشر مثلكم لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا أملك شيئاً من خزائن السماوات والأرض، ولست ملكاً من الملائكة، وأن الله تعالى أوحى إلي بالرسالة لأبلغكم إياها وأقرأها عليكم فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأديت رسالة ربي إليكم فلا عذر لكم عند الله تعالى يوم القيامة، ولكنه لا ينتفع بتذكيري ورسالتي إلا ذوو البصر والبصيرة، أما العمي فإنهم لا يبصرون ولا يهتدون، فما لكم أيها المشركون لا تتدبرون رسالتي إليكم، ولا تتفكرون فيما أوحاه الله تعالى إليكم.

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴿٥١﴾﴾ توخى يا محمد في تذكيرك المؤمنين الذين يخافون الآخرة فإنهم هم الذين ينتفعون بتذكيرك ويصغون إلى تلاوتك؛ لأنهم مؤمنون بالله تعالى ولا يشركون به غيره ويؤمنون بأنه ليس مع الله تعالى شريك، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه.

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ

مِنَ الظَّالِمِينَ﴿٥٢﴾﴾ واحذر يا محمد أن تستجيب للمشركين فيما دعوك إليه من طرد المساكين عن مجلسك وإبعادهم عن قربك، وإنما طلب المشركون طرد المساكين تعنتاً عليك وتمرداً على الله تعالى، وحسابك وحسابهم على الله تعالى، فكل منكم مسؤول يوم القيامة عن عمله، وسيلقى جزاءه.

وأنك إن طردتهم ستكون عند الله تعالى من جملة الظالمين، وهذا التحذير موجه للنبي ﷺ والمراد به المشركون، فإنهم إذا سمعوا هذا التحذير اقتنعوا وأيسوا من استجابة النبي ﷺ فيما طلبوا.

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴿٥٣﴾﴾ إن الله تعالى بعلمه وحكمته رفع بعض الناس على بعض في الدنيا، وفضل بعضهم على بعض من أجل أن يختبرهم ليتبين المطيع من العاصي.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿٥٤﴾﴾ إذا أقبل إليك يا محمد المؤمنون فاستبشر بإقبالهم، وادع لهم بالسلامة والتوفيق، وانبسط إليهم، وبشرهم بما أعد الله تعالى لهم من رحمته الواسعة، ومن عفوه ومغفرته، وأنه تعالى يغفر لأهل الذنوب إذا تابوا وأصلحوا ورجعوا إليه، ولا يؤاخذهم بها، رحمة منه تعالى بهم وإحساناً إليهم.

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴿٥٥﴾﴾ إن الله سبحانه وتعالى قد فصل للناس فيما أوحاه إلى رسوله ﷺ من القرآن آياته وبينها وأوضحها؛ لأن يهدي بها عباده ويوصلهم بها إلى دار ثوابه، ومن أجل أن تستوضح طرق الضلال ؛ ليحذرها الناس.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴿٥٦﴾﴾ كان المشركون يحاولون أشد

المحاولة لرد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى دينهم، وترك ما جاء به من الرسالة، فأمر الله تعالى رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يقول للمشركين: إن ما تريدونه أيها المشركون مني لا يكون أبداً؛ لأن الله تعالى نهاني أن أعبد الأصنام التي تعبدونها، ولا أتبع شرائعكم التي شرعتموها بأهوائكم ؛ لأن من اتبعها في ضلال عن الهدى.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ۝٥٧ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ۝٥٨﴾ وقل لهم يا محمد: إنك على طريق واضح من الهدى قد بينه الله تعالى لك وأوضحه بالبراهين القاطعة والحجج المنيرة، وكذبتم به مع وضوح الحجة والبرهان، فكيف تطلبون مني أن أترك ذلك، وأعدل إلى دينكم الذي افتريتموه من تلقاء أنفسكم ليس عليه حجة بينة ولا آية واضحة؟

وقد كان المشركون طلبوا من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يعجل لهم العذاب الذي أنذرهم به وحذرهم حلوله بهم؛ تعنتاً منهم وتكذيباً، فأمره الله تعالى أن يجيب عليهم بأن تعجيل العذاب ليس بيده، ولا تحت مقدرته، وأن أمر ذلك إلى الله تعالى وحده، وتحت مشيئته وسلطانه، وهو القادر عليه وحده، والحكم له وحده، وسيحكم بيني وبينكم بحكمه الحق، وهو خير الحاكمين، لا يظلم مثقال ذرة، ولو كان العذاب في يدي أيها المكذبون لأخذتكم به وعجلته لكم، وقضيت عليكم وعلى شرككم، والله سبحانه وتعالى هو عالم بما تستحقونه من العذاب، وسينزله بكم في وقته.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ۝٥٩﴾ يختص الله سبحانه وتعالى بعلم الغيب فهو عالم

سبحانه وتعالىٰ بما تجهلون أيها الناس من الأمور المستقبلة الذي يأتي بها الزمان المستقبل، وعالم بما غاب في السماوات، وبما غاب في باطن الأرض، وبما غاب في البحار، وما غاب في صدور الناس، وبما غيبته الحجب والأستار، وبما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار، وعالم بما غاب في القرون الماضية، وهو عالم سبحانه بما كان، وما سوف يكون، وما هو كائن، لا تخفىٰ عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماوات، ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن فيما مضىٰ وفي الحال وفي الاستقبال إلا وهو عالم به، ولا تسقط ورقة من شجرة إلا وهو عالم بسقوطها ومكان سقوطها وبمصيرها، ولا حبة في ظلمات الأرض إلا وهو عالم بها، ولا يخفىٰ عليه رطب ولا يابس في السماوات ولا في الأرض إلا وهو عالم به، لا يغيب عن علمه شيء.

﴿وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٦٠﴾﴾ إن الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي يحفظكم في الليل وأنتم نائمون في مراقدكم لا تملكون لأنفسكم نفعاً ولا ضراً، ويعلم سبحانه وتعالىٰ ما تعملونه بجوارحكم في النهار، وبقدرته تعالىٰ وبعلمه وحكمته بعثكم من نومكم، ورد إليكم أرواحكم ليمتعكم في الحياة الدنيا إلىٰ أن يحين أجل الموت الذي كتبه لكم، فإذا حضر الأجل أخذ أرواحكم، ثم بعد ذلك يبعثكم من قبوركم للحساب والجزاء الذي أنذركم به، وحذركم من القدوم عليه، وهناك سيلقىٰ كل مكلف جزاء عمله.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴿٦٢﴾﴾ إن الله سبحانه وتعالىٰ هو القاهر بقدرته لجميع مخلوقاته، فلا يظن المشركون أنهم في مأمن من أخذه، وملائكته

تحفظ عليهم أعمالهم وتحصي حركاتهم وسكناتهم، وكل ما نطقت به ألسنتهم ؛ فإذا جاءت آجالهم التي كتبها الله تعالىٰ علىٰ كل واحد منهم انتزعت ملائكة الموت أرواحهم كما أمرهم الله تعالىٰ لا يفرطون ولا يقدمون ولا يؤخرون، ثم يردون بعد الموت إلىٰ ربهم الحق الذي كانوا يشركون به ليحاسبهم علىٰ كل صغير وكبير من أعمالهم، وهو الحاكم وحده يوم القيامة، والأمر له كله.

ولا تستبعدوا ذلك أيها المشركون فإنه حين يحل بكم ستعلمون أنه قريب، وتقولون: ما أسرع قدوم هذا اليوم الذي كنا نستبعده، وكأنهم لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ؛ وقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام: كيف يحاسب الله تعالىٰ الخلائق يوم القيامة في وقت واحد؟ فأجاب عليه السلام: (كما يرزقهم في وقت واحد كذلك سيحاسبهم).

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ۝٦٣ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ۝٦٤﴾ إنكم أيها المشركون تعلمون أن الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي ينجيكم من المهالك التي تلقاكم وأنتم علىٰ ظهر البحر والأمواج تحيط بكم، وينجيكم من المهالك التي تلقاكم في متاهات البر، ويخلصكم منها، تدعونه حينئذٍ فيجيبكم، فما هو الذي صرفكم عن عبادته إلىٰ عبادة الأصنام التي لا تنفعكم؟ وتعلمون أنها لا تملك النفع لكم، ولا تستطيع دفع المهالك عنكم.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ۝٦٥﴾ تظنون أيها المشركون أنكم إذا خرجتم من مهالك البحر وأمواجه إلىٰ البر أنكم قد أصبحتم في مأمن، فعدتم إلىٰ

الشرك بعد إخلاص الدعاء لله تعالىٰ في البحر، فلا تظنوا ذلك فإن قدرة الله تعالىٰ محيطة بكم حيثما كنتم، فهو القادر علىٰ أن يبعث عليكم عذاباً من السماء يستأصلكم به، أو يخرج عليكم عذاباً من باطن الأرض يأخذكم به، أو يسلط بعضكم علىٰ بعض بالقتل حتىٰ يستأصلكم ؛ فتعجب منهم يا محمد، وانظر إلىٰ سخافة عقولهم كيف وضحنا لهم الحق، وكشفنا لهم عن سبيله، وبيناه بالحجج والبراهين من أجل أن يعرفوا الحق ويفهموه، ولكنهم مع كل ذلك أعرضوا وتمردوا، بعدما استحكمت معرفتهم به.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ۝٦٦ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ۝٦٧﴾ إن قومك يا محمد قد كذبوا بما جئتهم به من عند الله تعالىٰ مع أنه حق واضح لا غموض فيه ولا التباس، فلا عذر لهم عنده تعالىٰ، وقد بلغت رسالة ربك إليهم أكمل تبليغ، وما عليك إلا البلاغ، وليس عليك أن يهتدوا ويستجيبوا لدعوتك ورسالتك، وقل لهم أنك لست موكلاً عليهم تحصي عليهم أعمالهم، وتحاسبهم عليها.

وما جاءكم به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من أخبار القيامة والجزاء والحساب، وما وعدكم به من العذاب سيتحقق علىٰ حسب ما أخبركم به، وستعلمون صدقه حين لا ينفعكم العلم والتوبة.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ۝٦٨﴾ لا تجلس يا محمد عند القوم الذين يكذبون بآيات الله تعالىٰ ويستهزئون بدينه، ولا تقعد عندهم في حال حديثهم وابتعد عنهم واهجرهم ما داموا في حديث التكذيب والاستهزاء والسخرية من الدين، فإذا دخلوا في حديث آخر ليس فيه استهزاء ولا تكذيب بالدين فلا حرج عليك في القعود معهم والجلوس عندهم، وإذا نسيت ما أمرناك به من

الابتعاد عن الخائضين في التكذيب فقعدت معهم فإذا ذكرت أمر ربك ونهيه لك فابتعد عنهم وأعرض عنهم.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴿٦٩﴾﴾ وليس على الذين يطيعون الله تعالى فيما أمرهم، ويتقون ما نهاهم عنه، ويجتنبونه أي ذنب ما داموا مطيعين لله تعالى ومتقين له، ولا تتعدى ذنوب المكذبين إلى المتقين ولا تتجاوزهم إليهم، ولكن الله تعالى يذكر عباده المتقين وهو عالم بأنهم سيتذكرون ويطيعون.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴿٧٠﴾﴾ لا يهمنك يا محمد ما تراه من استرسال قومك في التكذيب والاستهزاء والتمرد على الله تعالى فقد بلغتهم ما أمرك الله بتبليغه من الرسالة، وليس عليك أن يؤمنوا، فدعهم فيما هم فيه، وربك هو الذي سيتولى جزاءهم.

وذكر بآيات القرآن وبما أوحى الله تعالى إليك إعذراً وإنذاراً قبل أن يقعوا في الهلكة، ويحيط بهم العذاب، يوم لا ينفع مال ولا بنون، ولا تنفع الشفاعة ولا الفدية، هنالك يسلمون إلى الهلكة، ويستولي عليهم عذاب الله تعالى وسخطه في عذاب جهنم خالدين، شرابهم الحميم جزاءً على كفرهم وتكذيبهم بآيات الله تعالى ورسوله.

﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٧١﴾﴾ كيف تدعوننا أيها الكفار إلى عبادة الأوثان التي لا تنفع ولا تضر؟

ونترك عبادة الله تعالى الذي خلق السماوات والأرض وخلقنا، وبيده حياتنا وموتنا، وهو على كل شيء قدير ؛ أتريدون أن نترك الهدى بعد أن دخلنا فيه واستوضحت لنا سبله؟ فنكون كالسائر في التيه، تستغويه الشياطين وتبعده عن الطريق، فهو في ضلاله متحير، وله أصحاب ينادونه ليرجع إلى الطريق فلا يقدر أن يهتدي إليها.

واعلموا أيها المشركون أن الهدى الحق هو الهدى الذي أرسلني به الله تعالى إليكم دون ما أنتم عليه من الشرك، وقد أمرنا الله تعالى أن نستجيب لطاعته، ونستسلم لأمره، فلا يسعنا الخروج عن طاعة الله وهداه، ولا تطمعوا في ذلك منا.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴿٧٢﴾﴾ وأمرنا سبحانه وتعالى بإقامة الصلاة، وأن نحذر مخالفته وعصيانه، وأخبرنا بأن مرجعنا إليه في يوم القيامة للحساب والجزاء.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴿٧٣﴾﴾ إن الله تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما لغرض عظيم وحكمة بالغة وذلك ليرتب على خلقهما الثواب والعقاب في يوم القيامة، وليس الأمر كما تظنونه أيها المشركون أن الحياة الدنيا تنتهي بالموت وليس بعدها لا جزاء ولا حساب، ولا بعث ولا نشور، وذلك وعد من الله تعالى حق لا ريب فيه وليس بعسير عليه تعالى، فإنه إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، وكل ما أتاكم الله تعالى به من الوحي والقرآن فهو حق وحقيقة فسيبعث الله تعالى الناس جميعاً، ويحشرهم يوم القيامة لا يغادر منهم أحداً، ولا ينسى ؛ لأنه عالم الغيب والشهادة، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، بذلك قضت حكمته، وهو المطلع على ما ظهر وما بطن.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴿٧٤﴾﴾ لا يكبر في نفسك يا محمد ما تلقاه من المشركين من التكذيب لآيات الله تعالىٰ والكفر به فقد لقي أبوك إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مثل ما لقيت من التكذيب والعناد حتىٰ من أقرب أقاربه وهو أبوه، حين دعاهم إلىٰ الإيمان بالله تعالىٰ وترك عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، وبيَّنَ لهم طريق الهدىٰ والدين الحق، وبيَّن أن ما هم عليه من الشرك ضلال مبين، فلم يستجيبوا له، وكذبوا به، وتمردوا عليه، ثم أجمعوا علىٰ تحريقه بالنار.

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴿٧٥﴾﴾ إن الله سبحانه وتعالىٰ وضح لإبراهيم وأراه آيات عظمته وجلاله، وآيات قدرته وعلمه، ودله علىٰ سبل المحاججة وقوة البيان، وتماماً كما فصل الله سبحانه وتعالىٰ من بيان محاججة إبراهيم لقومه في هذه الآيات ؛ ليحمله رسالته إلىٰ قومه، ولينذرهم بما أوحاه إليه، وليكون إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ يقين من دينه وإيمانه.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿٧٩﴾﴾ يبين الله سبحانه وتعالىٰ في هذه الآيات طرق الحجاج الحكيمة التي علمها لنبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك أن قومه كانوا يعبدون الأصنام التي ينحتونها ويصورونها بأيديهم ثم ينصبونها للعبادة، فدعاهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ ترك عبادتها؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، ودعاهم إلىٰ عبادة رب السماوات والأرض وما بينهما.

فلما دخل الليل رأىٰ كوكبا لامعاً في السماء ودعا قومه إلىٰ النظر إليه، وقال: هذا أكبر من الأصنام وأعلا منها وأعظم، فهو أحق بالعبادة، ثم لما كان آخر الليل غاب ذلك النجم، ثم رجع إبراهيم إليهم قائلاً: إن رب السماوات والأرض لا ينبغي أن يغيب عن ملكه فلذلك لا يصلح للربوبية.

فلما كانت الليلة الثانية طلعت القمر وكانت أعظم من ذلك النجم، وقال لقومه: هذه القمر أعظم منه وأكبر، وأعظم من الأصنام التي تنحتونها، وهي أحق بالربوبية، ثم لما غابت القمر قال إبراهيم: لا يصح أن يغيب الرب عن مملكته.

ثم طلعت الشمس في اليوم الثاني فقال لقومه: هذه أعظم وأكبر من الأصنام ومن النجم ومن القمر، وهي أحق بالربوبية والعبادة، ثم لما غربت الشمس أظهر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ التحير وقال: لا ينبغي أن تكون الشمس رباً؛ لأنها غابت، والرب لا يغيب عن ملكه، فلنطلب لنا رباً غير الأصنام والنجوم والقمر والشمس، وما هو إلا الذي خلق السماوات والأرض والنجوم والشمس والقمر وخلق الأحجار والجبال والحيوانات، فهذا هو الرب الذي ينبغي أن نميل إلىٰ عبادته، ونستسلم لعزته، ونترك عبادة ما سواه.

فقد أرىٰ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بحسن محاججته لقومه كيفية الوصول إلىٰ معرفة الله سبحانه وتعالىٰ، وإبطال ربوبية ما سواه بما علمه الله تعالىٰ، وأراه من آياته الدالة عليه.

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ۝٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ۝٨١﴾ ثم رجع قوم

إبراهيم إلى محاجته بعدما بين لهم الحق بالحجج الواضحة والبراهين النيرة، ولكنهم تعنتوا واستكبروا وتمردوا بعد وضوح الحجة وبيان المحجة، وخوفوه آلهتهم، وحذروه أن يناله منها ما يكره، فقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: أتطمعون بمحاجتكم لي أن تردوني عن الهدى، وقد بصرني ربي أنواره، وهداني إليه، واستقر علمه في قلبي، واستيقنته نفسي، وكيف تخوفوني أصنامكم؟!! وهي لا تقدر على الضر والنفع، ولا تملك ذلك، وإنما هي حجارة لا حياة فيها، ولا قدرة ولا علم، وأنتم تعرفون ذلك، وأنتم الذي صنعتموها بأيديكم، فكيف أخافها؟!!

وكيف لا تخافون أنتم من غضب رب العالمين حين أشركتم به، وعبدتم سواه، وهو يدعوكم إلى عبادته، وترك عبادة من سواه، فأنتم أحق أن تخافوا من رب العالمين؛ لأنه على كل شيء قدير، وهو بكل شيء عليم، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فأنتم لذلك أحق بأن تخافوا الله تعالى، أما الأصنام فليس بيدها قدرة ولا علم، فكيف أخافها ولا دليل لكم على ربوبيتها؟ فمن هو الأحق بالأمن أنا أم أنتم؟

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴿٨٢﴾﴾ قال إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لقومه: إن من آمن ولم يخلط إيمانه بشرك هم الآمنون من غضب الله سبحانه وتعالى وعذابه، وكان قومه قد خوفوه من الأصنام بأنها ستصيبه بغضبها، وتُلْحِق به الأذى عندما يعاديها.

ثم أخبرهم بأن الذين هم أحق بالأمن هم الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ أورد إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ على قومه الحجج الواضحة والقاطعة عند مجادلته لهم حتى اضطروا إلى أن يُسَلِّموا له بأنه الذي على الصدق، غير أنهم بعد ذلك رجعوا إلى شركهم وضلالهم.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء﴾ رفع الله سبحانه وتعالى إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بالعلم

عندما حاججهم وأبطل حججهم، واضطرهم إلى القول بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يستحق العبادة وحده.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فلا يرفع درجات أحد إلا وهو عالم بأنه يستحق ذلك، وأنه أهل للرفعة، ولحمل العلم ونشره وتبليغه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا﴾ أنعم الله سبحانه وتعالى على نبيه عليه السلام بإسحاق وبيعقوب وجعلهما أنبياء، وهذا من ثواب الدنيا لنبيه إبراهيم عليه السلام.

﴿وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ وذكر الله سبحانه وتعالى نبيه نوحاً عليه السلام، وهو قبل إبراهيم عليه السلام وأخبرنا أنه هداه بالوحي والرسالة والنبوة.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ وهدينا من ذرية إبراهيم عليه السلام هؤلاء وجعلناهم أنبياءً ورسلاً يحملون هدى الله للناس.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ هذا جزاء لإبراهيم عليه السلام حيث بارك في ذريته وجعلهم أنبياء ورسلاً يحملون العلم والحكمة والهدى للناس.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً﴾ وكذلك إسماعيل هداه الله سبحانه وتعالى وهو من ذرية إبراهيم، ولوطاً ليس ابنه، ولم يؤمن من قوم إبراهيم إلا هو وحده، وهاجر معه إلى الشام.

﴿وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ هؤلاء الذين عددهم الله سبحانه وتعالى اصطفاهم الله سبحانه وتعالى في الدنيا، وفضلهم على العالمين، ورفع درجاتهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ وغير هؤلاء الذين تقدم ذكرهم من آبائهم وذرياتهم ومن إخوانهم، قد هداهم الله سبحانه وتعالى، وفضلهم على العالمين، وجعلهم أنبياءً.

﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ اختارهم الله سبحانه وتعالى، وهداهم إلى الدين الحق.

﴿ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فالله سبحانه وتعالى هو الذي هداهم؛ لما علم أنهم يستحقون ذلك.

﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴿٨٨﴾﴾ ولو أشرك هؤلاء لحبطت أعمالهم، ولعذبهم الله مع المشركين.

﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن هؤلاء هم الذين أعطاهم الله الكتاب والعلم والحكمة والنبوة واختارهم على العالمين.

﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ﴿٨٩﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه بأن قريشاً إن كفرت بما جئت به من الحكمة- فالله ليس محتاجاً لهم، وسيحمل دينه غيرهم إن هم كفروا ولم يقبلوا منك، فعندما لم تستجب قريش للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وتمردت عليه هيأ الله سبحانه وتعالى لدينه قوماً غيرهم، فنصروا دينه وحملوه وبلغوه، وقاتلوا دونه.

﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن هؤلاء هم الذين هداهم الله سبحانه وتعالى، فاقتد بهديهم يا محمد، والمراد بهم الأنبياء.

﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴿٩٠﴾﴾ قل يا محمد لقريش: إني لم أطلب منكم أجراً على تبليغ الرسالة حتى تتهربوا، والقرآن لم آت به إلا لأذكر الناس بالحق ومعالم دينهم وبما أعد الله من الثواب العظيم في جنات النعيم وما أعده للمجرمين من العذاب الأليم في نار الجحيم.

﴿وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ سأل المشركون اليهود عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعن أمره وصحة نبوته- فأجابتهم اليهود: بأن الله سبحانه وتعالى لم ينزل عليه شيئاً، ولم يوح إلى بشر، وليس نبياً وإنما هو كذاب؛ خوفاً منهم -إن هم أخبروا المشركين بالحقيقة- على مراكزهم ومكانتهم.

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى محمداً ﷺ بأن يسألهم: من نزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس، تجعلونها -أيها اليهود- قراطيس فلا تنتفعون بها؟

﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ يعني أن اليهود لم ينتفعوا بها، وإنما هي في أيديهم مثل القراطيس، وقد أخفيتم كثيراً مما جاء في التوراة؛ فتحرفونه من عند أنفسكم، وعلى حسب أهوائكم، وقد كان اليهود فرقوا التوراة في كراريس كثيرة فكانوا يبدون بعضها ويخفون الكثير منها قصداً منهم إلى تضييع الحق المنزل في التوراة فكانوا إذا سئلوا عن صفة محمد ﷺ في التوراة أخرجوا بعض الكراريس وقالوا هذه هي التوراة ليس فيها ما تسألون عنه.

﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ﴾ علمهم الله سبحانه وتعالى في التوراة ما لم يعلموه هم ولا آباؤهم، فقد أنزل الله سبحانه وتعالى علماً وحكمة في التوراة إلا أنهم قابلوا ذلك بالكفران.

﴿قُلِ اللّهُ﴾ أخبرهم يا محمد بأن الذي أنزله هو الله سبحانه وتعالى، وهذا هو جواب قوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾.

﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ۝٩١﴾ اتركهم يا محمد يخوضون في باطلهم وغيهم وتكذيبهم، والمراد بهم اليهود والمشركون.

﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ أي: القرآن فيه الكثير من المنافع والمصالح للناس في الدنيا والآخرة.

﴿مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مصدق لما سبقه من التوراة والإنجيل.

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أنزل الله سبحانه وتعالى إليك القرآن أيضاً لتنذر أهل مكة ومن حولها.

أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ في أول الأمر أن يخص أهله بالدعوة إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء]، ثم بعد ذلك أمره الله سبحانه وتعالىٰ بتبليغ الناس جميعاً وإنذارهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف١٥٨].

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ الذين يؤمنون بالحساب والعقاب ويخافون الله سبحانه وتعالىٰ سيؤمنون بالقرآن.

﴿وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فهؤلاء هم الذين سيؤمنون ولا يتوقع الإيمان من غيرهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ﴾ كان المشركون واليهود قد بلغوا النهاية في الظلم والتمرد وفعل المعاصي، ولم يبق شيء من المعاصي إلا وقد فعلوه، وكانوا يفترون علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ الكذب ويحلون ويحرمون ما أحبوا ثم يقولون إن الله هو الذي حرم وأحل- كذباً وافتراءً عليه، وكذلك يدعي بعضهم النبوة ويقول: إن الله سبحانه وتعالىٰ قد أنزل عليه الوحي كذباً وافتراءً عليه، ومنهم من قال: سأنزل مثل القرآن الذي أنزله الله، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ قد تحدىٰ بالقرآن أفصح فصحاء العرب بأن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، وهيهات أن يستطيع أحد ذلك.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ لو ترىٰ يا محمد، وكذلك أنت أيها الرائي- وقت نزول الموت بالكافرين، وكيف حالهم عند نزع الملائكة أرواحهم، كيف يكون موقفهم وحالهم بين أيدي الملائكة، لاحول لهم في ذلك الوقت ولا قوة، قد استولت عليهم الحسرة والندم وسيطت عليهم الحيرة واليأس وأيقنوا بالعذاب الدائم في جهنم.

ومعنى ﴿بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أن الملائكة قد بدأت في مزاولة انتزاع أرواحهم، قائلة لهم ومخاطبة: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ تقول لهم الملائكة بأنكم أيها المجرمون قد جئتمونا فرادى ليس معكم شيء مما قد جمعتموه في الدنيا.

﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ﴾ كما جئتمونا حال ولادتكم، تاركين ورائكم ما قد أعطاكم الله سبحانه وتعالى في الدنيا من الأموال والأولاد، ولم تأخذوا معكم شيئاً.

﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء﴾ أين شركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم في الدنيا من دون الله.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ الآن قد انقطع ما بينكم وبينهم من الصلات.

﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴿٩٤﴾﴾ ضاع من بين أيديكم أولئك الذين كنتم تزعمون أنهم سينفعونكم، وضلوا من بين أيديكم، ولن يغنوكم شيئاً الآن.

﴿إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ فهو سبحانه الذي خلق الحبة وأخرج منها الزرع، وهو الذي فلق النوى -وهي العجمة التي بداخل التمرة- وأخرج منها الشجر الكبار، وليست الأصنام التي تعبدونها هي التي فعلت ذلك، فلماذا تعبدونها وتتركون عبادة الله سبحانه وتعالى الذي يفعل ذلك كله وحده لا يستطيع أحد أن يفعل مثل فعله، وهيهات أن يستطيع؟

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ بقدرته هو الذي فلق الحب والنوى، وأخرج منها الزرع والشجر التي فيها مطعمكم ورزقكم، وبقدرته هو وحده يخرج الحي من الميت، فيخرج الدجاجة من البيضة وهي ميتة، ويخرج الإنسان وهو حي من النطفة وهي ميتة.

﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ يخرج بقدرته البيضة من الدجاجة ونحوها.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ فهو المعبود الحق الذي ينبغي أن تتوجهوا إليه بعبادتكم.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴿٩٥﴾﴾ فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأصنام؟ وما هو الذي صرفكم؟ كيف تصرفون عن عبادته -مع هذه الدلائل الدالة على إلهيته وعظمته وقدرته- إلى عبادة تلك الأحجار التي تنحتونها بأيديكم وتعبدونها؟

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ هو سبحانه وتعالى الذي يخرج نور الفجر عن ظلمة الليل بقدرته، وليست الأصنام التي تعبدونها من دون الله.

﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً﴾ جعل الله سبحانه وتعالى بقدرته الليل ليرتاح فيه الإنسان، وتهدأ جوارحه وأعصابه، حتى لا يأتي صباح اليوم الثاني إلا وقد ذهب تعب اليوم الذي سبقه.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً﴾ جعلهما الله سبحانه وتعالى معالم للناس يعرفون بها أوقاتهم ومواعيد زراعتهم، وهناك حساب للشمس وحساب للقمر، فالسنة الشمسية تحسب بها منازل الزراعة، وتعرف بها الشهور الميلادية، وحساب القمر تحسب به الشهور الهجرية، ومواعيد الصيام والحج.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴿٩٦﴾﴾ حساب السنة الشمسية والقمرية تقدير من الله سبحانه وتعالى قدره إذ هو الغالب لكل شيء، والعالم بكل شيء، قدرها سبحانه وتعالى بعلمه حساباً دقيقاً في منتهى الدقة.

﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ للعرب زيادة اختصاص من بين سائر الناس بمعرفة النجوم، والاهتداء بها في أسفارهم؛ لأن بلادهم كانت صحراء، وكانوا أهل سفر، وكانوا لا يعرفون الطريق في أسفارهم إلا بها، وهذه نعمة عظيمة، وكذلك في البحر يعرف بها السائرون فيه طرقهم.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴿٩٧﴾﴾ وضح الله سبحانه وتعالى الآيات الدالة على عظمته وقدرته، وعلى إلهيته وعلمه وحكمته- لأجل أن يعلمه ويعرفه الناس فيعبدوه ويتركوا عبادة الأصنام.

﴿وَهُوَ الَّذِىَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ بقدرته أنشاكم من نفس آدم عليه السلام، وهو أصل البشر.

﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ جعل الله سبحانه وتعالىٰ بقدرته مستقركم في أصلاب الرجال، ومستودعكم في أرحام النساء، والمراد به أن التوالد يكون من الأصلاب والأرحام، تستقر النطف في الأصلاب، ثم تودع في الأرحام، وهكذا علىٰ هذا المنوال.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴿٩٨﴾﴾ وضح الله سبحانه وتعالىٰ لهم الآيات الدالة علىٰ قدرته؛ لأجل أن يعلموها.

﴿وَهُوَ الَّذِىَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ بقدرته أنزل المطر، يخبرهم الله سبحانه وتعالىٰ بآياته ويفصلها لهم؛ لأجل أن يعبدوه، وتركوا عبادة الأصنام، وكانوا معرضين عنه سبحانه وتعالىٰ؛ فكرر الله سبحانه وتعالىٰ لهم آياته الدالة علىٰ قدرته وإلهيته- لعلهم يرجعون عن شركهم إليه، وليستنقذهم من كفرهم وتمردهم، الذي بسببه يدخلون النار إلىٰ جنته التي أعدها لمن أطاعه واتقاه.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أخرج الله سبحانه وتعالىٰ بالمطر أنواع النباتات.

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً﴾ وهو أول مراحل النبات يخرج إلىٰ الأرض فيزينها بخضرته.

﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً﴾ ثم بعد ذلك يخرج من هذا النبات الأخضر الحب في سنابله مرصوصاً حبة فوق حبة.

﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ وأخرج الله سبحانه وتعالىٰ بقدرته لهم من طلع النخل هذا المطو الذي يخرج التمر فيه، فيقطفها الإنسان عند دنو نضجها سهلة المجتنىٰ.

﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ وأخرج الله سبحانه وتعالىٰ بقدرته لكم من الماء النازل من السماء بساتين من أعناب.

﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ وأخرج لكم منه أشجار الزيتون.

﴿وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ هذه الأصناف متشابهة وغير متشابهة، فالأعناب: منه الأبيض ومنه الأسود ومنه الأحمر، والعنب الأبيض منه أنواع كثيرة، وكل نوع له طعم ونكهة تميزه، فسبحان من خالف بينها.

﴿انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ حثنا الله سبحانه وتعالى على النظر والتفكر في كيفية نضجه وصلوحه وحلاوته بعدما كان شديد الحموضة، من أين اكتسب هذه الحلاوة؟ فإذا نظرنا عرفنا أن كل ذلك لم يحصل إلا بقدرة قادر حكيم، وهو الله سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴿٩٩﴾﴾ في هذا الذي عدده الله سبحانه وتعالى آيات للذين يؤمنون بالله سبحانه وتعالى تدل عليه إذا تفكروا فيها ونظروا، فستسوقهم إلى صانعها ومدبرها الحكيم، أما أولئك المشركون والمعرضون عن الله سبحانه وتعالى فلا حظ لهم في ذلك؛ لأنهم قد أعرضوا عن الله سبحانه وتعالى.

﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى بأنهم يعرفونه ويعرفون آياته ولكنهم أعرضوا وتمردوا، وجعلوا معه آلهة أخرى مشاركةً له في إلهيته، وكانت العرب تعبد الجن مع الله سبحانه وتعالى.

﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ والله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الجن.

﴿وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ اختلقوا لله سبحانه وتعالى البنين والبنات افتراءً عليه وكذباً، قالوا ذلك عن غير علم منهم.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴿١٠٠﴾﴾ تقدس وتعالى عن أقوالهم هذه فيه وتنزه عما أضافوه إليه من البنين والبنات.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فهو الذي خلق السماوات والأرض وابتدعهما بقدرته وعلمه وحكمته ابتداءً على غير مثال، وإنما من العدم.

﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ كيف يكون له ولد من دون زوجة.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وهو الذي خلق كل شيء، فليس محتاجاً للأزواج والأولاد.

﴿وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿١٠١﴾﴾ علمه محيط بكل شيء.

﴿ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴿١٠٢﴾﴾ صانع كل هذه الأشياء وفاعلها ومبتدعها، وهو الذي يستحق الإلهية وأن يعبد؛ لأنه المتفرد بهذه الصفات، لا يشاركه فيها أحد، فاعبدوه دون هذه الأصنام التي لا نفع فيها ولا ضرر، وقد أحاط علمه بكل شيء؛ فسيحاسبكم وسيجازيكم.

﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ ليس مما يدرك بالأبصار، فليس من جنس المبصرات؛ لأنه ليس جسماً، لأنه لو أدرك لكان مخلوقاً مثلنا، لأن البصر لا يدرك إلا الأجسام المخلوقة.

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ يحيط بها جميعاً ويعلمها.

﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴿١٠٣﴾﴾ لطُف عن أن يُدْرَكَ بالأبصار؛ لأن اللطيف هو الذي لا يُدْرَكُ، وهو خبير وعليم بكل شيء، ويُدْرِكُ كل شيء.

﴿قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ قد أتيناكم بآيات بينات تبصركم وتدلكم على الهدى، وتدلكم على الإله الحق.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ فمن أراد أن يهتدي إلى طريق الحق فقد أحسن إلى نفسه، ومن عمي عن الحق فلن يضر إلا نفسه.

﴿وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴿١٠٤﴾﴾ قال النبي ﷺ للمشركين: لست بحفيظ عليكم أحصي أعمالكم وأحاسبكم عليها، فمن أراد أن ينفع نفسه فقد أحسن إليها، ومن أراد خلاف ذلك فلن يضر إلا نفسه، والله سبحانه وتعالى هو الذي سيحاسبكم، وما عليَّ إلا أن أبلغكم.

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾ نوضح الآيات ونبينها لكم فتكون حجة عليكم؛ لئلا يأتي يوم القيامة فتقولون: ما جاءنا من بشير ولا نذير.

﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ عندما تقرأ عليهم القرآن يا محمد سيقولون إنك درست وتعلمت عند الكهنة، ولم ينزل عليك من عند الله شيء، فلم يتأملوا ويتفكروا فيها ولم ينتفعوا بها، بل قالوا: إنما درس هذه الآيات عند الكهنة وتعلمها عندهم.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴿١٠٥﴾﴾ يصرف الله سبحانه وتعالى الآيات ويبينها ويوضحها لأولئك الذين سيستفيدون منها، ولن يستفيد منها إلا أولئك المؤمنون.

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بأن يتبع ما نزل إليه من الوحي ويعمل به.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴿١٠٦﴾﴾ اتركهم ولا تستمع إليهم، وكان النبي ﷺ كان قد صدم بتكذيب قومه له، وقلت معنوياته حين دعاهم وبالغ في دعوتهم سنة بعد سنة ولم ير منهم أي استجابة، وإنما يزدادون طغياناً وكفراً كلما بلغهم، فأمره الله سبحانه وتعالى بأن يعرض عنهم، ولا يستمع لاستهزائهم به وبآيات الله سبحانه وتعالى، فأمره بأن يتبع ما يوحى إليه ويتوجه إلى عبادة الله وحده وأن يعرض عن المشركين ويتركهم وما هم فيه من الباطل والشرك.

﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ﴾ لو أراد الله سبحانه وتعالى أن يمنعهم من الشرك لمنعهم، ولكنه أراد أن يكون ذلك الأمر باختيارهم- لأجل أن يجازيهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ تحفظ أعمالهم وتجازيهم عليها وتحاسبهم، وما عليك إلا تبليغهم فقط.

﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴿١٠٧﴾﴾ تحصي عليهم أعمالهم، فإذا بلغتهم فقد أديت ما عليك وسنتولى الباقي.

﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن سب الأصنام؛ لأنه يؤدي إلى أن يسبوا ربكم

ويتجرؤوا على ذمه، فلا تثيروهم فيسبوا الله سبحانه وتعالى.

﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ۝١٠٨﴾ زين الله تعالى لكل الناس الدين الحق على ألسنة رسله يبعث الله سبحانه وتعالى لكل أمة رسولاً يزين لهم الحق، ويخبرهم به، ويدلهم عليه بالحجج والبراهين الواضحة، ويخبرهم بالكفر والمعاصي، فمنهم من يتبعه، ومنهم من يكذبه، ثم يحشرهم الله سبحانه وتعالى إليه يوم القيامة فيخبرهم بأعمالهم، ويحاسبهم عليها، ويجازيهم كلاً بما عمل.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أقسم المشركون لمحمد ﷺ بأنه لو جاءهم بآية لآمنوا بها، قالوا ذلك للنبي ﷺ ليعلموه بأن ما جاءهم به من الآيات ليس بشيء ولم تطمئن إليه قلوبهم، فإن كنت رسولاً من عند الله كما تدعي فأتنا بآية مثل آية الرسل الذين كانوا قبلك، وإنما قالوا ذلك تعنتاً وتمرداً واستكباراً، وإلا فقد عرفوا واستيقنوا بأنك رسول من عند الله وأن ما جئتنا به حق من عند الله، عرفوا ذلك وتحققوه بسبب ما آتاك الله من الآيات البينات والحجج الواضحة.

﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ﴾ لأنهم كانوا يسألون النبي ﷺ أن يأتيهم بآية ليؤمنوا، فأمره الله سبحانه وتعالى بأن يخبرهم بأن الآيات من عند الله، وليست إلي ولا تحت قدرتي وما أنا إلا رسول مبين أبلغكم رسالة ربي.

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ۝١٠٩﴾ كأن المؤمنين قد توسموا صدق المشركين، وأن النبي ﷺ لو جاءهم بآية لآمنوا؛ فهموا بسؤال النبي ﷺ بأن يأتيهم بآية، فقال الله لهم: وما أدراكم أنهم سيؤمنون إذا جاءتهم آية، فلا تصدقوهم فلن يؤمنوا أبداً ولو جاءتهم كل آية.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ۝١١٠﴾ عندما لم يؤمنوا به أول مرة فلن تنفع فيهم الآيات؛

فقد عميت قلوبهم وأبصارهم، ولن يؤمنوا أبداً، وسيظلون على كفرهم وتمردهم؛ فالشخص إذا آمن واستجاب عند أول داعٍ يدعوه إلى الإيمان فسيزيده الله سبحانه وتعالى هدىً ونوراً في قلبه، وسيزيده بصيرة، والذي يعاند من أول ما يأتيه الحق فيعرفه ويتمرد فيقسو قلبه ويزداد عمىً في قلبه، ويسلبه الله سبحانه وتعالى ألطافه وهداه، ويتركه الله سبحانه وتعالى في ضلاله وطغيانه.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ﴾ أراد الله سبحانه وتعالى أن يحسم طمع نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وطمع المؤمنين في إيمان المشركين، وأنهم لن يؤمنوا أبداً أبداً، وعندما أسلموا يوم الفتح بقوة الإسلام والسيوف على رؤوسهم فلم يكن إسلاماً وإنما كان استسلاماً، فقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنهم لن يؤمنوا أبداً، ولن يدخل الإيمان في قلوبهم، ولو نزلت الملائكة تخبرهم بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صادق فيما جاء به، وكذلك لو بعث الله سبحانه وتعالى لهم أهل القبور يشهدون لهم بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صادق فيما جاء به- لما آمنوا، وكذلك لو حشر الله سبحانه وتعالى لهم كل شيء ويرونه علانية من الأموات والأحياء جميعاً، وجاء لهم بكل الآيات- لما آمنوا، ولما صدقوا محمداً ورسالته؛ فاحسم طمعك من إيمانهم فلن يؤمنوا، ولن يؤمنوا إلا إذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يدخلهم في الإيمان مكرهين وملجئين، ولكنه لم يرد ذلك، وجعل ذلك موكولاً إلى مشيئتهم واختيارهم.

وإسلامهم يوم الفتح إنما كان خوفاً واستسلاماً، ولم يسلموا في الحقيقة، وكانوا قد طردوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مكة وشردوه هو ومن معه، فلما قويت شوكة الإسلام، وصارت له هيبة ودولة عندها فتح النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكة ودخلها عنوة، فحينئذٍ استسلموا وانقادوا مكرهين، وهذا ليس إسلاماً؛ لأنهم إنما أسلموا بألسنتهم فقط، وهذا كما أخبر الله سبحانه وتعالى أنهم لن يؤمنوا أبداً.

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ يظن أكثر المسلمين أن المشركين سيؤمنون إذا طلبوا النبي ﷺ أن يأتيهم بآية ولكن الله سبحانه وتعالى رد عليهم بأن الأمر ليس كما تظنون فلن يؤمنوا أبداً.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى النبي ﷺ بأنه لم يبعث نبياً إلا ويكون له أعداءٌ من أمته، وكذلك أنت يا محمد لك أعداء من شياطين الإنس والجن، قائمون في وجه دعوتك، ومحاربون لك، ومستهزئون بك وبمن معك.

وليس المراد بالجعل هنا أنه الذي صيرهم كذلك، وإنما اقتضت حكمته تعالى التخلية بين الناس، وجعل ذلك متوقفاً على مشيئتهم وإرادتهم، ولما كان الأمر كذلك انقسم الناس قسمين: فمنهم من آمن باختياره، ومنهم من كفر باختياره، واقتضت حكمته أن يخلي بين هذين القسمين؛ ليصح التكليف، وما يترتب عليه من الثواب والعقاب، وكذلك هو ابتلاء منه سبحانه وتعالى وامتحان ليتميز المحسن من المسيء، فهذا هو معنى الجعل.

﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ يتعاونون فيما بينهم، ويعلم بعضهم الآخر كيف يدخلون الشبه على الناس، ويلبسون عليهم في دينهم، وكيف يأتون بأقوال مزينة ومزخرفة يكون ظاهرها على ما يوافق الشرع، ولكنها في باطنها ليست إلا هدماً وتخريباً للدين، فيغتر بها ضعاف الإيمان ويصدقونها، وكذلك يزينون لهم التكذيب بالنبي ﷺ ويزينون لهم الباطل.

﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ لو شاء الله سبحانه وتعالى أن يمنعهم من التلبيس والتشكيك على الناس في دينهم لفعل، ولكن مشيئته سبحانه وتعالى اقتضت التخلية؛ لما يترتب عليها من التكليف والثواب والعقاب.

﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ اتركهم وباطلهم وافتراءهم وتكذيبهم وزخرفتهم الباطل.

﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ الذين لا يؤمنون بالآخرة هم الذين يستمعون لأولئك الذين يزخرفون الباطل ويزينونه.

﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ يميل الكافرون بآذانهم إلى استماع الباطل وما زخرفه الشياطين ويحبونه ويرضونه وتطمئن قلوبهم إليه.

﴿وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴿١١٣﴾﴾ ثم يتوجهون إلى اقتراف الجرائم من الكفر بالله والشرك به والتكذيب بآياته والاستهزاء برسوله صلى الله عليه وآله وسلم و...إلخ.

﴿أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾ إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يرضى بغير حكم الله ولن يتوجه إلى حكم سوى الله فلا تتوقعوا منه غير ذلك.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ كيف يطلب حكماً غير الله سبحانه وتعالى وهو الذي أنزل الكتاب مفصلاً ومبيناً فيه الحق والباطل.

رفض المشركون أن يحتكموا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأرادوا أن يحتكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى شريعتهم الباطلة وحكم الجاهلية، وأن يدخل في دينهم فنزل القرآن برفض مطلبهم.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴿١١٤﴾﴾ لا يغرك يا محمد تكذيب أهل مكة ومن حولها بالقرآن، وبما جاءك من عند الله سبحانه وتعالى، فلا تظنن أن القرآن ليس حقاً عندما ترى ذلك وترى عدم إيمانهم وتصديقهم، فعلماء أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من عند ربك، وأنه حق وصدق، فلا يداخلك الشك يا محمد. والله سبحانه وتعالى وجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمراد به أصحابه؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم منزه عن ذلك، وعن أن يخالجه الشك في الله تعالى وفي القرآن.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿١١٥﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن لا يدخلكم -أيها المؤمنون- الشك في وعد الله سبحانه وتعالى لكم بالنصر؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد وعد نبيه صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين بأنه سيظهر دينه على جميع الأديان ولو كره

المشركون، وسيورثهم الأرض، وسيقهر الشرك والمشركين، وسيسيطر الإسلام على الدنيا، وسيكون للإسلام دولة وكيان، وسيقهر المسلمون كسرى وقيصر، ويستولون على ممالكهم.

ومع طول المدة والابتلاء كأن المؤمنين قد دخل في قلوبهم الشك في وعد الله سبحانه وتعالى لهم بذلك، فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بأنه قد تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، وهو وعد حق ولا بد أن يقع، فانتظروا واصبروا فالفرج لا يكون إلا بعد شدة، وهو عالم بما ينزل عليكم من المشركين، وسيثيبكم على صبركم، وسيعاقب أولئك على كفرهم.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ﴾ كان الشك يدخل في قلوب المؤمنين عندما يرون قلة أهل الحق وكثرة أهل الباطل، وبدأوا يشكون في دعوة النبي ﷺ هل هي حق؟ ويتساءلون كيف يمكن أن يكون أهل الكثرة على الباطل؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى: بأنك يا محمد إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴿١١٦﴾﴾ لأنه ليس معهم في قلوبهم إلا أوهام يتوهمونها، ولا أدلة لهم ولا حجة في عبادتهم الأصنام وادعائهم إلهيتها، وإن هم إلا يكذبون فيما يدعونه فلا تغتروا بكثرتهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴿١١٧﴾﴾ فهو عالم سبحانه وتعالى من هم الضالون، ومن هم المهتدون، فأنت يا محمد ومن معك الذين على الهدى، وأولئك على الضلال.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴿١١٨﴾﴾ كان المسلمون يتشككون في أنهم على الحق، وأن المشركين هم الذين على الحق، والسبب في ذلك أن المشركين كانوا يدخلون الشبه على المسلمين، ومنها أنهم كانوا يستنكرون على المسلمين كيف تأكلون مما ذبحتم، ولا تأكلون مما ذبحه الله؟!!

ومرادهم بذلك الميتة، فبدأ الشك يدخل في قلوب المسلمين؛ لأن المشركين كانوا يأكلون الميتة ويقولون: إنها ذبيحة الله، فكانوا يجادلون المؤمنين في ذلك، ويدخلون عليهم الشبه، ويزينون باطلهم بذلك ويزخرفونه؛ فأخبرهم الله سبحانه وتعالى وأمرهم أن يأكلوا مما ذبحوه بأيديهم، وليس حراماً كما يزعم المشركون.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ﴾ كان أصحاب النبي ﷺ يداخلهم الشك فلا يأكلون مما ذبحوه بأيديهم، فاستنكر عليهم الله سبحانه وتعالى ذلك.

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ قد فصل الله سبحانه وتعالى ووضح لكم ما حرمه عليكم كالميتة والدم ولحم الخنزير والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، فلا تأكلوا من الميتة إلا إذا حصلت الضرورة، فلا بأس أن تأكلوا منها.

﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ كثير من الناس يضللون على غيرهم، ويلبسون عليهم دينهم بغير حجة، ليس معهم حق ولا دليل ولا برهان.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴿١١٩﴾﴾ فهو عالم بالذين يعتدون فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله.

﴿وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يتركوا ظاهر الإثم، وهو: ما كان واضحاً يعلمه المرء من المعاصي، وباطنه: هو الإثم الذي لا يتضح للمرء إثمه وقبحه، وقد بعث الله سبحانه وتعالى أنبيائه ليبينوا للناس هذه الأشياء المحرمة.

فالظاهر إذاً هو الذي يعلمه المرء، ويعلم بفطرته قبحه وخبثه، ولا يحتاج فيه إلى من يخبره بذلك، كالبول والغائط فالإنسان بعقله وفطرته يستقبحه ويستخبثه وينفر عنه، وكالميتة المتعفنة فإن العقل ينفر منها بفطرته، وهو يعلم أنه لا يجوز أكلها، وما أشبه ذلك.

وأما الإثم الباطن فكالميتة حديثة الموت فإن الإنسان لا يعلم بفطرته أنها خبيثة وأنه لا يجوز له أكلها، فاحتاج إلى من يخبره بذلك وكالدم ولحم الخنزير.

والله سبحانه وتعالى لا يحرم علينا شيئاً إلا لمصلحة لا نعلمها، ويعلمها هو.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ۝١٢٠﴾ الذين يفعلون المآثم ويقدمون على فعلها؛ فسيجزيهم الله سبحانه وتعالى بذلك.

﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ المذبوح الذي لم يذكر اسم الله سبحانه وتعالى عليه نهى الله سبحانه وتعالى عن الأكل منه، كالميتة وذبائح المشركين؛ لأنه فسق وخروج عن أمر الله.

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ يوحي الشياطين إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوكم أيها المؤمنون لماذا لا تأكلون مما ذبحه الله.

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ۝١٢١﴾ إذا رضيتم لهم في قولهم هذا وأطعتموهم- صرتم مشركين مثلهم.

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ۝١٢٢﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه لا يستوي من كان ميتاً ثم أحياه الله بالإسلام فاهتدى وآمن، هو والذي في ظلمات الجهل ولم يهتدِ، والشيطان وأولياؤه هم الذين يزينون للمشركين الباطل والشرك وعبادة الأصنام وأكل الميتة.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ۝١٢٣﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن كل قرية بعث فيها نبياً فإن أكابر أهلها يقومون في وجوه أنبيائهم، ويحاربونهم ويمكرون بالمؤمنين، وكذلك هؤلاء الذين بعثت فيهم يا محمد يمكرون بالإسلام وبأهله، ويستهزئون بهم، ويحاربون الدين، ويصدون الناس عنه، ولكنهم بهذا لا يضرون إلا أنفسهم، وذلك باستحقاقهم سخط الله سبحانه وتعالى وعذابه، والله سبحانه وتعالى

سيظهر دينه ولو كره المشركون، ولو أراد الله سبحانه وتعالىٰ أن يمنعهم من ذلك لفعل، ولكن حكمته اقتضت التخلية فيما بين خلقه ليترتب علىٰ ذلك الجزاء، والجعل هنا هو التخلية بين الأنبياء والمجرمين.

﴿وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ﴾ كان المشركون أهل تكبر يحبون الرياسة والوجاهة والتعالي علىٰ الناس؛ فإذا جاءتهم آية تدل علىٰ صدق نبوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كذبوا بها، وقالوا: لن نؤمن حتىٰ نؤتىٰ مثل ما أوتي أنبياء الله ورسله، فرد الله سبحانه وتعالىٰ فقال: ﴿اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ فلا يؤتيها إلا لمن يستحقها، ومن علم أنه أهل لحملها وتبليغها.

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴿١٢٤﴾﴾ أكابر المجرمين الذين تكبروا وتمردوا سيجازيهم الله سبحانه وتعالىٰ من جنس أعمالهم، فسينالون بدل الرياسة والشرف والكبر في الدنيا الصغار والهوان. وقد نزلت هذه الآية في أكابر قريش ورؤسائها.

﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾ الذي آمن واستجاب من أول ما بلغته الدعوة فهذا هو الذي أراد الله سبحانه وتعالىٰ أن يهديه، ومن أراد الله سبحانه وتعالىٰ أن يهديه شرح صدره ووسعه، وجعل له راحة في صدره.

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء﴾ إن من أعرض عن دعوة أنبياء الله ورسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وكذب بها حين وصلته سيحرم من الألطاف والتنوير وسيتركه الله لشأنه جزاءً علىٰ تكذيبه وكفره وبحرمانه من رحمة الله وألطافه تضيق به الدنيا وتكثر في صدره الهموم فلا يتسع صدره بعد ذلك للإسلام والهدىٰ.

﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴿١٢٥﴾﴾ يجعل الله سبحانه وتعالىٰ هذا الضيق علىٰ هذا الذي رفض الهدىٰ عندما جاءه ولم يؤمن به.

﴿وَهَـذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً﴾ الدين الذي جاء به محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هو

الصراط المستقيم والدين الحق الذي لا عوج فيه.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴿١٢٦﴾﴾ وضحنا الآيات لمن أراد أن يذكرها، فمعرفة الله سبحانه وتعالى ووحدانيته وإلهيته موجودة في العقل، وقد فطره الله سبحانه وتعالى على ذلك، والله سبحانه وتعالى يفصل آياته لمن تذكرها وعقلها، وبحث في عقله وفكر فيها، فآيات الله سبحانه وتعالى تثير العقل وتجعله ينظر فيها، وهي مطابقة لما ركزه الله سبحانه وتعالى في عقله إذا تأمل فيها وتفكر.

فالأوهام والعادات التي نشئوا عليها في الجاهلية قد غطت عقولهم واستولت عليها، فأنزل الله سبحانه وتعالى آياته لتزيل هذه الأوهام والعادات، إذا تفكروا فيها وتذكروها.

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ هؤلاء الذين يتذكرون آيات الله سبحانه وتعالى ويستجيبون لها؛ فلهم الجنة.

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴿١٢٧﴾﴾ فالله سبحانه وتعالى ناصرهم بسبب أعمالهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ المشركون والكفار. وعند حشرهم يخاطبهم الله سبحانه وتعالى فيقول: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ﴾ قد اقتطعتم في صفكم أكثر الإنس.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ استمتعنا بالجن في الدنيا، واستنفعنا بهم فيها وتمتعنا، وهم قد استمتعوا بنا.

﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِىَ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ الأجل الذي كتبته لنا، وهو القيامة.

﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ليس معناه أنهم سيخرجون من النار؛ لأن المسلمين قد أجمعوا على عدم الخروج من النار، والمراد بقوله: ﴿إِلاَّ مَا شَاء اللَّه﴾ غير ما شاء الله من زيادة أنواع العذاب التي قد أعدها الله سبحانه وتعالى لهم غير النار، كالحيات والعقارب والبرد، فهذا هو المراد بقوله: ﴿إِلاَّ مَا شَاء اللَّه﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ۝١٢٨ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ۝١٢٩﴾ يسلط الله سبحانه وتعالىٰ بعض الظالمين علىٰ بعض بسبب أعمالهم وذنوبهم.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ يناديهم الله سبحانه وتعالىٰ ثم يخاطبهم قائلاً: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ يخبرونكم بآيات الله سبحانه وتعالىٰ وبيناته.

﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا﴾ ويحذرونكم يوم القيامة والبعث والحساب.

﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا﴾ قالوا: نعم نحن نقر بأنه قد جاءتنا الرسل فكذبنا بها.

﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ۝١٣٠ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ۝١٣١﴾ اقتضت سنة الله سبحانه وتعالىٰ وحكمته ألا يؤاخذ أهل القرىٰ بمعاصيهم وكفرهم، وهم غافلون عن شريعة الله سبحانه وتعالىٰ، ولم يكونوا قد علموا بها، ولم تكن قد بلغتهم دعوة الرسل.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ۝١٣٢﴾ الثواب والعقاب درجات متفاوتة، وكل امرئ علىٰ حسب عمله في الدنيا، وكل سينال علىٰ قدر عمله، لا يخفىٰ علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ شيء مما عمل.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ فليس محتاجاً إلىٰ المشركين، وهو غني عنهم، غير أن الله سبحانه وتعالىٰ رحيم بعباده حين يناديهم لأجل أن يدخلهم في رحمته التي وسعت كل شيء.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ۝١٣٣﴾ فهو غني عنكم، ولو أراد أن يستأصلكم، ويخلق بدلاً منكم قوماً آخرين مثلما خلقكم وأنشأكم من ذرية قوم آخرين لفعل.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴿١٣٤﴾﴾ أكد الله سبحانه وتعالىٰ لهم بأن ما وعدهم الله سبحانه وتعالىٰ على لسان رسوله في القرآن لا بد أن يقع، ولن يعجزوا الله، ولن يستطيعوا الهرب من قبضته.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴿١٣٥﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأن يقول لقومه: اعملوا جهدكم في كفركم وباطلكم، وأنا سأعمل جهدي في تبليغ رسالتي، وسوف تعرفون من الذي هو على الحق؟ ومن ستكون العاقبة الحسنة له؟ وأنتم تعلمون عاقبة الظالمين بأنهم لا يفوزون في نهاية الأمر، وأن عاقبتهم تكون الخسران والبوار.

﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ كان المشركون أهل رعي، وأصحاب إبل وبقر وغنم وماعز؛ فقسموا هذه الأصناف، فجعلوا لله سبحانه وتعالىٰ نصيباً من أنعامهم، وللأصنام نصيبا.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ﴾ فلا يعطون الله منها شيئاً.

﴿وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ﴾ فيجعلون نصيب الله سبحانه وتعالىٰ لأصنامهم.

﴿سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴿١٣٦﴾﴾ فهذا الحكم باطل، وبئس الحكم.

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن الشياطين زينت للمشركين ووسوست لهم أن يقتلوا بناتهم، فكان من ولدت له بنت يقتلها، زينت لهم الشياطين ذلك؛ ليوقعوهم في سخط الله سبحانه وتعالىٰ وغضبه وعذابه؛ لأن الشياطين عالمة بالحق وعارفة له، ولكنهم قد تمردوا على الله سبحانه وتعالىٰ، وكفروا وضلوا عن سواء السبيل.

﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ لو شاء الله سبحانه وتعالىٰ أن يمنعهم لمنعهم عن التزيين والوسوسة، ولكن مشيئته اقتضت التخلية.

﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴿١٣٧﴾﴾ أعرض عنهم يا محمد، واتركهم وافتراءاتهم وكذبهم، ما عليك إلا تبليغ دينك، فلا يهمك أمرهم وما هم فيه.

﴿وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴿١٣٨﴾﴾ كان مع المشركين مذاهب وأحكام في التحليل والتحريم، وكان لهم أحكام وتشريع في الحرث والأنعام.

وهذه الأنعام والحرث لا يطعمها إلا أناس مخصوصون، ولهم أيضاً حكم في الأنعام إذا بلغت حدا قد حددوه، ووقتا قد بلغته، فإنه يحرم ركوبها، ونوع من الأنعام جعلوا ذكر الله سبحانه وتعالىٰ عليها عند ذبحها محرماً.

وسوف يجازيهم الله سبحانه وتعالىٰ بسبب أعمالهم هذه التي افتروها عليه.

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ بعض الأنعام جعلوا الحمل الذي تحمله في بطونها حلالاً للذكور وحرام علىٰ الإناث.

﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء﴾ وإذا خرج هذا الحمل ميتاً فهو حلال لذكورهم وإناثهم.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ﴿١٣٩﴾﴾ سيحاسبهم علىٰ ما عملوه من التحريم والتحليل؛ لأن أمر التحريم والتحليل إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وحده.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وهذا من تفاهة عقولهم وسخافتها عندما يقدمون علىٰ قتل الأولاد من دون علم.

﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴿١٤٠﴾﴾ حرم المشركون بعض ما أعطاهم الله من الرزق من تلقاء أنفسهم ونسبوا ذلك زوراً وكذباً إلىٰ الله فضلوا وما أصابوا حكم الله ولم يهتدوا إلىٰ الحق فيما فعلوا.

﴿وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ إن الله سبحانه وتعالى هو الذي أنشأ وخلق الجنات المعروشات وغير المعروشات، فالمعروشات مثل العنب الذي يحتاج إلى شيء يعتمد عليه ويتمدد فوقه، وغير المعروشات هي التي بخلاف ذلك كالرمان وما أشبهها.

﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ﴾ الله سبحانه وتعالى هو الذي أنشاها بقدرته، وجعلها متفاوتة في طعمها.

﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ فهو وحده الذي أنشاها، وخالف بينها.

﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ فكلوا وتمتعوا بما أنعم الله عليكم من الفواكه والأثمار.

﴿وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أخرجوا زكاتها عند حصادها. والآية قد نزلت في مكة ولم تكن الزكاة قد شرعت، غير أن هناك حقوقاً يعرفها الناس كإعطاء الفقراء والمساكين، فكانوا يخرجون جزءاً من أموالهم للفقراء ونحوهم من قبل أن تنزل آية الزكاة.

﴿وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ لا تحرموا بعض هذه الأشياء من عند أنفسكم، وتحللوا بعضها؛ لأن حقيقة الإسراف: هو مجاوزة الحد فيما أنزله الله وحدَّه في كتابه ومن حرم ما أحله الله فقد جاوز حدود الله.

﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾ خلق الله سبحانه وتعالى من الأنعام حمولة، وهي: الأنعام التي تحمل الأمتعة ونحوها، والفرش: هي الحيوانات الصغار التي لا تركب ولا يحمل عليها كالأغنام.

﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ﴾ فهي حلال لكم كلها فلا تحرموا شيئاً منها من تلقاء أنفسكم، كما فعل المشركون.

﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ لا يستغوينكم الشيطان بزخارف باطله.

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ خلق الله سبحانه وتعالىٰ للناس ثمانية أزواج من بهيمة الأنعام.

﴿مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ فكل واحد من هذين الصنفين زوجان ذكر وأنثىٰ.

﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يسأل المشركين: ما الذي حرمه الله سبحانه وتعالىٰ أهو الذكر أم الأنثىٰ؟

﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ﴾ أم حرم الله سبحانه وتعالىٰ ما تحمله إناث الضأن والمعز؛ أراد الله سبحانه وتعالىٰ أن يحيرهم في الجواب ويعجزهم.

﴿نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿١٤٣﴾﴾ أخبروني ما هو الذي حرمه الله سبحانه وتعالىٰ من هذه الأشياء؟ وما هو الدليل علىٰ ذلك.

﴿وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ﴾ ذكراً وأنثىٰ. ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ أن يسأل المشركين ذلك كما في المعز والضأن سواء.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَـذَا﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يسأل المشركين هل كنتم حاضرين عندما شرع الله سبحانه وتعالىٰ هذه التشريعات؟ وسيكون جوابهم بـ: لا، لم يكن شيء من ذلك، وإنما سمعنا آباءنا كذلك يقولون.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً﴾ لقد توغلتم في الظلم بافترائكم الكذب علىٰ الله وادعائكم عليه أنه حرم بعض الأنعام.

﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿١٤٤﴾﴾ فمن أظلم من هذا الذي يفتري علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ الكذب- ليدخل الناس في الضلال، فهؤلاء لن يوفقهم الله سبحانه وتعالىٰ؛ لأنهم قد بلغوا غاية الظلم ونهايته.

﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ لم أجد في الوحي الذي أنزل علي محرما إلا

الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير، فهذا الذي وجدته محرماً.

﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ﴾ وكذلك المذبوح لغير الله سبحانه وتعالى فإنه محرم، كأن يقول: باسم اللات، ونحو ذلك.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١٤٥﴾﴾ من ألجأته الضرورة إلى أكل الميتة أو لحم الخنزير أو نحو ذلك- فهو جائز له، لكنه لا يتجاوز الحد، فلا يأكل منها أكثر من سد جوعته، ومن أكثر من ذلك فهو باغ، وأما من أكل قبل أن تلجئه الضرورة فهو عادٍ.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ما هو الذي حرمه على اليهود، فقال: ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ كل حيوان له ظفر فهو محرم على اليهود.

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ شحم الكلية، والذي على الظهر، ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ وهي المباعر، ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ واسمها الثربة عندنا (الإلية).

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ﴿١٤٦﴾﴾ لم نحرم هذه الأشياء إلا عقوبة لهم على معاصيهم.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يا محمد في قولك لهم: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ ومن رحمته ألا يجازيكم في العاجل، وإمهاله لكم سنة بعد سنة، وهو قادر على أخذكم، أليس في هذا رحمة لكم؟ فهو يمهلكم لعلكم تتوبون وترجعون إليه.

وهذا من رحمته سبحانه وتعالى لهم أن أمهلهم في الدنيا، ومتعهم بالصحة والعافية، وأنعم عليهم بالمال والولد، وأمد في أعمارهم؛ لعلهم يتوبون، وهو سبحانه وتعالى لن يفوته أحد منهم، فمتى أراد أن يقبضه قبضه.

وكذلك ليقطع عليهم العذر في يوم القيامة.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر٣٧]، فمن أراد أن يتذكر فقد جعل الله سبحانه وتعالى له مدة العمر يمكنه أن يرجع إليه في هذه المدة.

﴿وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴿١٤٧﴾﴾ ولن يستطيع أحد أن يرد عذابه إذا نزل، ولا بد أن يقع بهم.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ سيجادل المشركون النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويقولون له: لو شاء الله سبحانه وتعالى ألا نشرك به لم نشرك، ولو شاء لما حرمنا شيئاً، ولكن الله قد شاء ذلك، وهذا هو دينه ومراده، ونحن أهل الله وسكان حرمه.

وهذا هو نفسه ما تقوله المجبرة، وقد تحير الرازي عند هذه الآية، وهو من أكابر علماء المجبرة، ولم يستطع جواباً عليها.

﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن الكفار الذين كانوا قبلهم كانوا يقولون مثل قول المشركين هذا، وينسبون أفعالهم إليه جل وعلا. ﴿حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾ إلى أن نزل بهم عذاب الله سبحانه وتعالى واستأصلهم.

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يسأل المشركين من قريش: هل لكم دليل على هذا الذي تدعونه على الله سبحانه وتعالى في المشيئة؟ فهاتوا الدليل إن كان؛ لأن من ادعى دعوى لا بد من برهان عليها، وإلا لم تقبل دعواه عند أي أحد.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴿١٤٨﴾﴾ فلا حجة لكم على دعواكم هذه، وإنما تتبعون أوهاماً، وتكذبون على الله سبحانه وتعالى، وتفترون عليه.

﴿قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ الدليل مع نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الذي يأتيكم بالحجج البالغة القاطعة التي يقتنع العقل عندها؛ لأن العقل لا يقتنع إلا بالصدق، وقد فطره

الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ هذا، وهو من أكبر الحجج، والنبي ﷺ قد جاءهم بما يوافق العقل ويطابقه.

﴿فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴿١٤٩﴾﴾ لو شاء الله سبحانه وتعالىٰ أن يلجئكم إلىٰ الإيمان لفعل، ولكنه لم يشأ ذلك كما ذكرنا؛ لما يترتب علىٰ ذلك من الثواب والعقاب، إذ لو كان كذلك وألجأهم إلىٰ الإيمان لما صح ثواب ولا عقاب، ولبطلت دعوة الرسل، وكان ذلك كما قال الشاعر:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

ألا ترىٰ أنك ستحكم عليه بالظلم لو عاقب هذا المكتوف الذي ألقاه بين الماء؟ فكذلك الله رب العالمين لو كان هو الذي يفعل المعصية ثم يعاقب عليها ماذا ستحكم عليه؟ فكل عاقل يحكم عليه بأنه ظالم إذ يعاقب المرء علىٰ شيء لم يفعله.

ويثيب الآخر علىٰ فعل لم يفعله؛ فهل يستحق هذا الثواب؟ طبعاً سيحكم العقل بأنه لا يستحقه.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَـذَا﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يسأل المشركين أن يأتوا بشهود يشهدون أن الله سبحانه وتعالىٰ قد حرم هذا الذي ذكرتموه.

﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ إذا جاؤوك بشهود فهم شهود زور؛ فلا تشهد معهم لأنهم ليسوا صادقين.

﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ لا تصدقهم فيما قالوه فليست إلا أهواء، ولا دليل لهم علىٰ ذلك ولا حجة.

﴿وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴿١٥٠﴾﴾ يعدلون به إلىٰ عبادة الأصنام.

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يقول للمشركين: تعالوا أخبركم ما هو الذي حرمه ربكم عليكم وهو: ﴿أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً﴾ هذه هي الأولىٰ، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ هذه الثانية،

﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ﴾ لا تقتلوهم خوف الفقر والعار، وهذه الثالثة، ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ قد تكفل الله سبحانه وتعالىٰ برزقكم وإياهم فلا تقتلوهم خوفاً من الفقر.

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ والفواحش هي التي يستقبحها العقل ويستفحشها، وهذه الرابعة، ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ۝١٥١﴾ هذه الخامسة؛ فهذه الأشياء قد وصاكم بها في كتابه.

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وهذه السادسة مما حرمه الله سبحانه وتعالىٰ، فلا تقربوا أموال اليتامىٰ إلا بنية إصلاحها والقيام عليها وتنميتها، ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ حتىٰ يبلغوا مبالغ الرجال ثم أدوا إليهم أموالهم.

﴿وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ فهذه هي السابعة، فالله سبحانه وتعالىٰ لا يكلف النفس إلا بما تتحمله وتطيقه.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أمرهم الله سبحانه وتعالىٰ بالعدل في الشهادة ونحوها، ولو علىٰ القريب ولو علىٰ النفس، وهذه الثامنة.

﴿وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ۝١٥٢﴾ إذا عاهدوا الله سبحانه وتعالىٰ بشيء فعليهم أن يوفوا به، وهذه هي التاسعة.

﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ وهذا من بقية ما أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يتلوه علىٰ قومه، وهو أن يتبعوا دينه؛ لأنه الدين الحق.

﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ ولا تتبعوا غير هذه السبيل التي أنا فيها وأدعوكم إليها، فإنكم إذا اتبعتم غيرها ابتعدتم عن الحق وطريقه.

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ۝١٥٣﴾ وصاكم الله سبحانه وتعالىٰ بهذا لتكونوا في زمرة المتقين.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ﴾ أنزل الله سبحانه وتعالىٰ التوراة

على نبيه موسى عليه السلام؛ لأنه كان أهلاً لأن يحمل رسالة الله سبحانه وتعالى ويبلغها.

﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴿١٥٤﴾﴾ وفي هذا الكتاب تفصيل لأحكام دين اليهود من الحلال والحرام وغيرهما، وكذلك في التوراة هدى لهم ورحمة، وكل ذلك لأجل أن يؤمنوا بالله سبحانه وتعالى ويرجعوا إليه.

﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ أي: القرآن أنزله الله سبحانه وتعالى وفيه المنافع الكثيرة للناس.

﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿١٥٥﴾﴾ اتقوا مخالفته لتنالوا رحمة الله سبحانه وتعالى.

﴿أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴿١٥٦﴾﴾ لأجل ألا تقولوا أيها المشركون يوم القيامة عند دنو العذاب: إن الكتاب قد أنزل على اليهود والنصارى ونحن لا كتاب لنا، فلماذا تعذبنا؟ فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه أنزل لهم القرآن ليقطع عليهم الأعذار وليكون حجةً عليهم.

﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى﴾ وبالفعل كانوا يقولون قبل نزول القرآن عليهم: لو كان معنا كتاب لكنا أهدى من اليهود والنصارى.

﴿فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ فقد نزل إليكم القرآن فيه بيان كل شيء، وفيه هدى ورحمة لمن اهتدى به.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ فلا أحد أظلم من هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن عندما أنزله الله سبحانه وتعالى رحمة لهم فأعرضوا عنه. ومعنى صدف: أعرض.

﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴿١٥٧﴾﴾ سينيلهم الله سبحانه وتعالى العذاب الشديد بسبب إعراضهم عن كتابه.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن قريشاً ومن معهم من المشركين قد تمردوا على الله سبحانه وتعالى واستحقوا عذابه، ولم يبق إلا أن تأتيهم الملائكة بعذاب الله سبحانه وتعالى.

﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ يأتي بعذابه: إما في غمام، أو حجارة من السماء.

﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾ فلن ينفع الإيمان عند نزول الملائكة أو إتيان العذاب؛ لأن التكليف قد انقطع بحصول الموت ودنوه، وقد ارتفع الحجاب حينئذٍ؛ لأن المرء في الدنيا وحال التكليف قد أمره الله سبحانه وتعالى بأن يؤمن بالغيب ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة٣]، والغيب: هو البعث والحساب والجنة والنار والإيمان بالله سبحانه وتعالى، وهذه أمور غيبية، والمرء مختار في أن يؤمن بها أو لا يؤمن، وعند حصول آيات الله سبحانه وتعالى أو بعض آياته، وهو نزول العذاب ودنو الموت يكون المرء مضطراً إلى الإيمان وملجأً إليه؛ لأن نزول العذاب به سيضطره إلى الإيمان.

﴿قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴿١٥٨﴾﴾ انتظروا -أيها المشركون- سخط الله سبحانه وتعالى فهو نازل بكم، ونحن منتظرون لذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴿١٥٩﴾﴾ كل الفرق الذين تراهم يا محمد، والذين قد صاروا أحزاباً من اليهود، والنصارى، والمجوس، والمشركين، وعبدة الشمس، وعبدة النار، وعبدة الجن؛ فدينك يا محمد بريئ من هذه الأديان، وأنت على الحق، وهم على الباطل.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ﴾ وهو الذي سيتولى جزاءهم.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴿١٥٩﴾﴾ سوف يخبرهم الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بأعمالهم الباطلة ويجازيهم عليها.

﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴿١٦٠﴾﴾ فالحسنة سيضاعفها له، والسيئة جزاؤها بمثلها، والسيئات ولو كنا نراها صغاراً عندنا فهي عند الله سبحانه وتعالى كبيرة، ألا ترى إلى قوله: ﴿مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ [المائدة٣٢]، من عهد آدم إلى أن تقوم الساعة بما فيهم الأنبياء جميعا، فانظر إلى عظم هذا عند الله سبحانه وتعالى، وكذلك بقية المعاصي هي هكذا عند الله سبحانه وتعالى.

وكذلك من زنى، انظر إلى عظم معصيته هذه وفظاعتها، فهو بسبب الزنا سيخلط بين الأنساب ويجعل هذا رحماً لهذا، ويدخل نسبه بين أولئك، ويجعل هذا وارثاً لهذا؛ فانظر ما خلفته هذه المعصية من الآثار، وانظر إلى كبرها عند الله سبحانه وتعالى ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور١٥].

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هدى الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالوحي والقرآن إلى الدين الحق.

﴿دِيناً قِيَماً﴾ ديناً مستقيماً لا عوج فيه.

﴿مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ بعث الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بدين إبراهيم صلى الله عليه وآله الذي كان حنيفاً، أي: مائلاً عن الباطل.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿١٦١﴾﴾ لأن قريشا كانت تدعي أنها على ملة إبراهيم ودينه وإبراهيم عليه السلام لم يكن مشركاً.

﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿١٦٢﴾﴾ قل يا محمد للمشركين: إن الله أمرني أن أجعل صلاتي ونسكي -وهي الذبيحة- ومحياي ومماتي، كل هذه- لله رب العالمين؛ لأن المشركين كانوا ينسكون للأصنام فيقولون: باسم اللات وباسم العزى وباسم هبل، وكانت صلاتهم لغير الله سبحانه وتعالى. وقل لهم يا محمد: إني سأسخر حياتي كلها لله سبحانه وتعالى وطاعته.

﴿لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أمرني ربي بالتوحيد، وأن أعبده لا شريك له.

﴿وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴿١٦٣﴾﴾ محمد هو أول من آمن واستسلم لله سبحانه وتعالىٰ، وأول من انقاد له.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبّاً﴾ هل تريدون أيها المشركون أن أطلب رباً غير الله سبحانه وتعالىٰ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهو الذي خلق كل شيء.

﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا﴾ كأن المشركين كانوا يقولون لمحمد ﷺ: تعال إلينا، ونحن ستتحمل ذنبك ووزرك؛ فقال لهم النبي ﷺ ما أنزله الله سبحانه وتعالىٰ عليه: إن كل نفس سيكون وزرها عليها، ولن يحمل أحد ذنب أحد.

﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فلا أحد يحمل ذنب أحد.

﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ المؤمنون والمشركون جميعا.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴿١٦٤﴾﴾ يحكم بينكم بالحق فيثبت المحق ويعذب المبطل.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١٦٥﴾﴾ خاطب الله سبحانه وتعالىٰ الناس جميعاً المسلمين والكافرين: أنه هو الذي جعل الناس خلائف يخلف بعضهم بعضاً في هذه الحياة الدنيا تموت أمة ويخلفها أمة، وهو الذي رفع بعضكم علىٰ بعض في الدنيا فجعل هذا غنيا وهذا فقيرا، وهذا شريفاً وهذا وضيعا، وهذا مريضا وهذا صحيحاً، وكل هذا اختبار منه جل وعلا، فالغني هل سيشكر أم سيكفر، وهل سيبخل أم سينفق؟ وهذا الفقير هل سيصبر؟ وهذا الشريف هل سيتواضع؟ وهو سبحانه وتعالىٰ سريع العقاب لمن عصاه وتمرد عليه، وغفور رحيم لمن تاب إليه ورجع واستجاب له.

تمت سورة الأنعام

ويليها سورة الأعراف

❁❁❁❁❁

سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿المص۞﴾ جعل الله سبحانه وتعالى هذه الأحرف المقطعة في أول السورة ليلفت أسماع المشركين إليها، ولأجل أن يتساءلوا ما هذا الكلام الغريب الذي نسمعه، مما يجعلهم يستمعون له، ويصغون له آذانهم.

﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ سمى الله سبحانه وتعالى هذه السورة كتاباً.

﴿فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ فلا تضق نفسك يا محمد بالقرآن ذرعاً؛ وكان تبليغ الرسالة وتلاوة القرآن على المشركين مع تكبرهم وإعراضهم عنه قد شق عليه صلى الله عليه وآله وسلم، فأمره الله سبحانه وتعالى أن يصبر ولا يضيق صدره، ويستمر في تبليغ رسالة ربه.

﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ لأجل أن تنذر به المشركين.

﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ۞﴾ ولتذكر بآياته المؤمنين.

﴿اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يأمر المشركين أن يتبعوا القرآن. ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء﴾ لا تتبعوا أرباباً غير الله سبحانه وتعالى. ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ۞﴾ لم ترض قريش أن تتذكر، وإنما عاندت واستمرت على عنادها وإعراضها.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى قريشاً بأنه كم من قرية قد أهلكها؛ لأجل تكذيبهم بأنبيائهم وتمردهم عليهم، وقص الله سبحانه وتعالى هذا عليهم ليعتبروا وليحذروا أن يحل بهم عذاب الله كما حل بمن قبلهم من أهل القرى.

﴿فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ۞﴾ أتاها عذاب الله سبحانه وتعالى في الليل وهم نائمون، أوفي وقت قيلولتهم وراحتهم، وهو وقت الظهر عند عودتهم للراحة من حر الشمس.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴿٥﴾﴾ عند نزول العذاب بأهل القرى الذين كذبوا بأنبيائهم ينادون بويلهم، ويعترفون بظلمهم، ويتندمون على ما قدموا من كفر وعناد وتكذيب واستهزاء.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴿٦﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه يوم القيامة سيسأل الأمم الذين أرسل إليهم رسله: هل صدقوا رسله أم كذبوهم؟ وماذا فعلوا معهم؟ وكيف عاملوهم؟ وسيسألهم الله سبحانه وتعالى أسئلة دقيقة، وكذلك سيسأل الأنبياء الذين أرسلهم إليهم: هل بلغتموهم، وكررتم عليهم التبليغ؟

وسيخبر الله سبحانه وتعالى الأمم والرسل بما فعل كل واحد منهم؛ لأنه مطلع عليهم بعلمه.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ حساب دقيق كل امرئ على قدر عمله من الثواب والعقاب ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف٤٩].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿٨﴾﴾ الذي عمل الأعمال الصالحة في الدنيا، واستغرق عمره في طاعة الله سبحانه وتعالى وذكره؛ فهذا هو المفلح.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ﴿٩﴾﴾ والذي ضيع عمره في المعاصي واتباع الأهواء والشهوات فهذا قد خسر الآخرة، وسيدخل النار بسبب أعماله هذه.

ولا ميزان في الحقيقة، وإنما عبر الله سبحانه وتعالى به؛ لأنه لما كان حسابه في منتهى الدقة، ولا يضيع عنده شيء مما عمله المرء في الدنيا، ومطلع على كل صغير وكبير، لا ينقص من عمل أحد مثقال ذرة- عبر حينئذٍ بالميزان ليصور لنا دقة الحساب ومنتهى العدل.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ قد مكنا لكم أيها المشركون في الأرض وجعلنا لكم فيها سلطة.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ أسبغنا عليكم النعم، وبسطنا لكم في الأرزاق.

﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ۝١٠﴾ ولكنكم لم تشكروا الله سبحانه وتعالى عليها، وكفرتم وتمردتم عليه.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ۝١١﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى المشركين بأنه قد كرمهم في الدنيا، ورفع من أقدارهم، ونَوَّه بشرفهم بأنه قد خلقهم في أحسن الصور، وجعلهم مشرفين من بين سائر الخلق، وأمر الملائكة بالسجود لآدم أبيكم، وكفى بهذا تعظيماً، فلماذا تتمردون على ربكم، ولا تشكرونه؟

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن شأن إبليس حين استكبر عن السجود لآدم وقال: كيف أسجد لبشر- ألم يعلم بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي أمره بالسجود؟ وليس آدم هو الذي أمره، فالمفروض أن يمتثل لأمر الله سبحانه وتعالى، فلماذا استكبر عن أمر الله سبحانه وتعالى؟

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ قال الله سبحانه وتعالى لإبليس: لماذا لم تسجد وتمتثل لأمري، وأنا الذي أمرتك؟

﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أنا أفضل من آدم. ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ۝١٢﴾ والنار أشرف من التراب.

تعزز إبليس واستكبر عن السجود، وتكبره هذا يعتبر تكبراً على الله سبحانه وتعالى وليس على آدم، فالمفروض أن يتواضع لله سبحانه وتعالى ويطيعه، ولا يتكبر عن الامتثال لأمر ربه.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ اخرُج من الجنة، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ۝١٣﴾ ما ينبغي أن تمكث فيها وأنت متكبر على الله سبحانه وتعالى، ومتمرد عليه.

والجنة هذه هي بستان كبير من بساتين الأرض، خلق الله سبحانه وتعالىٰ فيه أنواع الثمار، وأظن أنها كانت في الهند، وقد خلق الله سبحانه وتعالىٰ آدم فيها، وأمره أن يمكث ويتنعم فيها، ولكن بشرط ألا يطيع إبليس، وأن يحذر منه؛ لأنه إن أطاعه سيخسر، وقد أمر الله سبحانه وتعالىٰ الملائكة بالسجود لآدم في هذه الجنة؛ فعندما استكبر إبليس طرده الله سبحانه وتعالىٰ منها، وصغره وحقره، فهذا جزاؤه عندما تكبر، والجزاء من جنس العمل.

وقد جعل الله سبحانه وتعالىٰ هذا السجود امتحاناً واختباراً للملائكة وإبليس، وجعل آدم عليه السلام قبلة لهم يتوجهون بسجودهم إليه، لا أن يقصدوا بسجودهم له؛ لأنه لا ينبغي السجود إلا لله سبحانه وتعالىٰ وحده.

﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴿١٤﴾﴾ طلب إبليس من الله سبحانه وتعالىٰ أن يمهله إلىٰ يوم القيامة.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴿١٥﴾﴾ أجاب الله سبحانه وتعالىٰ إبليس فيما طلبه وسيمهله، وهذا الإمهال له وحده، وليس لجميع جنس الشياطين.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴿١٦﴾﴾ قال إبليس: سأقابل حكمك علي بالضلال والغواية بإغواء ذرية آدم وسأقعد علىٰ طريق الحق وأزين لهم الخروج منها إلىٰ طرق الضلال.

﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴿١٧﴾﴾ سأقف لهم بالمرصاد في هذه الطريق، وسأدخل عليهم من جميع المداخل: من اليمين ومن الشمال، ومن خلف ومن قدام، وكل مدخل أجده سأدخل عليهم منه لأصرفهم عن الهدىٰ، وأجرهم إلىٰ الضلال والهلاك.

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً﴾ اخرج من الجنة مطروداً ملعوناً.

﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴿١٨﴾﴾ ومن تبعك فسأدخله معك جهنم.

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام بعدما طرد إبليس أن يسكن في الجنة.

﴿فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴿١٩﴾﴾ وكلا من حيث شئتما من أثمار الجنة وعين الله تعالى لهما شجرة وحذرهما من الأكل منها وأخبرهما أن الأكل منها معصية، وكان منع الله سبحانه وتعالى لآدم عليه السلام وزوجته- امتحاناً منه واختباراً وابتلاءً.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ وكانت هذه أول تجربة لإبليس لعنه الله في الوسوسة والإغواء، فانخدع آدم عليه السلام وزوجته بوسوسته؛ لأنهم لم يجربوا بَعْدُ وسوسَتَه، وكانت أول مرةٍ، ووسوسته هذه لأجل أن يظهر قبائحهما من المعاصي والأخطاء.

﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴿٢٠﴾﴾ قال لهما إبليس في وسوسته: إن الله لم ينهكما عن هذه الشجرة إلا لأجل ألا تكونا من الملائكة، ولئلا تكونا من الخالدين.

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴿٢١﴾﴾ وحلف لهما إبليس في وسوسته، ولم يكونا يريانه.

﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ اغترا بوسوسته، وبدآ بالأكل من الشجرة، ولم يأكلا منها إلا وفي نيتهما أن يتقربا إلى الله سبحانه وتعالى، وينالا درجة الملائكة في طاعة الله سبحانه وتعالى.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ عندما بدآ بالأكل من الشجرة عرفا عندها أنهما قد وقعا في الخطأ والمعصية لله سبحانه وتعالى.

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ ليستظلا بما خصفا من حر الشمس.

ومعنى ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾: ظهرت لهما سيئات أعمالهما بعد أن أكلا من الشجرة، وعرفا أنهما قد وقعا في الخطيئة.

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴿٢٢﴾﴾ قال الله لهم ذلك موبخاً لهما.

﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴿٢٣﴾﴾ آدم وحواء عندما عصيا الله سبحانه وتعالى قالا هذا القول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾.

لم يكونا يعلمان كيف يستغفران من خطئهما ومعصيتهما؛ فعلمهما الله سبحانه وتعالى كيف يتوبان عندما علم منهما إرادة التوبة، وأن يقولا هذا القول: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴿٢٣﴾﴾، فغفر الله سبحانه وتعالى لهما وقبل توبتهما.

﴿قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ اخرجا من الجنة جزاءً على عصيانكما، اخرجا إلى الأرض مع الشيطان وقد عرفتم عداوته لكما ولذراريكما.

﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴿٢٤﴾﴾ فلكم في الأرض وقت محدود، فتمتعوا فيها إلى أن تبلغوا ذلك الوقت.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴿٢٥﴾﴾ أخبرهم الله سبحانه وتعالى أن بني آدم سيعيشون على ظهرها، وسيموتون ويقبرون فيها، وسيبعثون منها يوم القيامة إلى الحساب والجزاء.

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً﴾ خاطب الله سبحانه وتعالى جميع بني آدم، وتمنن عليهم- بأنه قد خلق لهم لباساً يستترون به، وخلق لهم أيضاً لباساً يتزينون به بين الناس.

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ ثم دلهم الله سبحانه وتعالى على ما هو الأفضل لهم من اللباس، وهو التقوى فإنها زينة وجمال في الدنيا والآخرة.

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴿٢٦﴾﴾ اللباس آية من آيات الله سبحانه وتعالى خلقها لنا لنعرف قدرته وفضله علينا ونعمته.

﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ حذرنا الله سبحانه وتعالى من إبليس ومن مكايده، وحذرنا من فتنته وإغوائه، كما فعل بأبينا آدم عليه السلام.

﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ فاحذروا عداوته؛ فقد سبق لكم تجربته في آدم عليه السلام وزوجته حواء، وكيف نزع عنهما لباسهما بسبب معصيتهما، وكيف ارتفعت نعمة الله عنهما حين عصيا وأخرجهما إلى الأرض يتكسبان فيها ويتعبان، بعدما كانا يأكلان في الجنة من دون تعب ولا مشقة، وكيف احتاجا إلى أن يتعلما في الأرض كيف يغزلان وينسجان، وكيف يخيطان، وكذلك كيف يحرثان الأرض، ثم يزرعانها، ثم كيف يحصدان، ثم يطحنان، ثم يخبزان.

﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن الشياطين يروننا ويراقبوننا، ويترصدون لإضلالنا وإغوائنا في كل طريق، ويحاولون الدخول علينا من كل باب يستطيعون الدخول علينا منه لنأخذ حذرنا من مكائده.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴿٢٧﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن الشياطين مسلطون على الكافرين بما جعله الله تعالى من التخلية بين الشياطين وبين بني آدم يرمون بهم في أودية الضلال ويقحمونهم في ارتكاب العظائم والجرائم، وأما المؤمنون الذين قد خلص إيمانهم فالشيطان عاجز عن الدخول فيهم وإضلالهم، ولا يجد مدخلاً يدخل عليهم منه، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً...﴾ [آل عمران١٣٥].

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ إن أولياء الشياطين الذين قد تسلطت عليهم، وقد أصبحوا تحت أيديهم وسيطرتهم إذا فعلوا معصية- يختلقون الافتراءات على الله سبحانه وتعالى، ويقولون: هو الذي أمرهم بها، وقد رضيها لهم.

﴿قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴿٢٨﴾﴾ كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ينهى المشركين عن عبادة الأصنام، وعن فعل الفواحش، وكان المشركون يقولون: إنا وجدنا آباءنا يفعلون ذلك، والله هو الذي أمرنا بها؛ فرد عليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إن الله سبحانه وتعالى لا يأمر بالفحشاء، وإن كان يأمر بها فما هو دليلكم؟ وهاتوا حجة على ما تزعمون؟ ولن يستطيعوا دليلاً عليه؛ لأنهم إنما قالوا ذلك من عند أنفسهم واتباعاً لأهوائهم.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ قل يا محمد لقريش: إن الله سبحانه وتعالى لم يأمر إلا بالحق والعدل.

﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وأمركم بعبادته والصلاة والسجود له.

﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ واعبدوا الله سبحانه وتعالى وحده مخلصين له الدين، فلا تشركوا معه أحداً في عبادتكم.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴿٢٩﴾﴾ مثلما خلقكم على الدنيا ستعودون إليه يوم القيامة، فكما خرجتم من بطون أمهاتكم، ولا شيء معكم، ولا حول لكم ولا قدرة ولا قوة - أيضاً ستعودون إليه كذلك.

وظاهر هذه الآية أن الناس سيحشرون يوم القيامة إلى ربهم عراة كما خرجوا من بطون أمهاتهم، وأما الإمام الهادي عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: إن المرء سيحشر يوم القيامة في كفنه؛ لأنه قبيح على الله سبحانه وتعالى أن يحشرهم عراة وهو قول قوي.

﴿فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ﴾ انقسم بنو آدم قسمين: فريق دخلوا في الهدى وآمنوا بالله سبحانه وتعالى وبرسله، واستجابوا وأطاعوا، وفريق ضلوا عن الهدى، ودخلوا في الضلالة.

﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴿٣٠﴾﴾ السبب في أنهم استحقوا الضلالة هو أنهم أطاعوا الشياطين واتبعوهم وعبدوهم من دون الله سبحانه وتعالى، وهم مع ذلك ظانون أنهم على الحق، وأنهم في الهدى.

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴿٣١﴾﴾ كان المشركون يطوفون بالكعبة وهم عراة؛ لأجل ألا يعبدوا الله سبحانه وتعالى في زعمهم في ثياب قد عصوه فيها، وكانوا يأمرون من يأتي حاجاً أو معتمراً بذلك، وجعلوه شرعاً شرعوه من عند أنفسهم، فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية، وأمرهم بلبس الثياب عند إرادة الصلاة والعبادة سواء في المسجد الحرام أو في غيره، والطواف عبادة.

وأقل الزينة ستر العورة؛ لأن ستر العورة زينة، وسمى الله سبحانه وتعالى، والثوب زينة؛ لأنه يستر العورة التي هي قبيحة، والثوب يستر هذا القبح، ويزين المرء، فسمي زينة من هذه الناحية.

﴿وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴿٣١﴾﴾ فكلوا واشربوا من نعم الله سبحانه وتعالى التي أنعم بها عليكم، ولا تحرموا بعضه؛ وقد كان المشركون يحرمون أشياء من عند أنفسهم، ومن جملة ما حرموه اللباس عند الطواف. والإسراف هو: تحريم ما أحل الله سبحانه وتعالى، وتحليل ما حرمه.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف٣٢]، أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يسأل المشركين: من حرم زينة الله سبحانه وتعالى، وطيبات الرزق؟

ولم يحرمها إلا المشركون من تلقاء أنفسهم كتحريم اللباس عند الطواف، وتحريم بعض الأنعام التي تقدم تفصيلها في سورة الأنعام؛ فحرموها من دون دليل ولا حجة، لا من نبي ولا من كتاب.

﴿قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قل يا محمد: إن زينة الله سبحانه وتعالى وطيبات الرزق في الدنيا للذين آمنوا بالله سبحانه وتعالى وبما جاء به.

﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وتكون خالصة لهم يوم القيامة دون المشركين؛ لأنهم في الدنيا مشتركون فيها هم والمؤمنون، وأما يوم القيامة فهي للمؤمنين خالصة،

وأيضا تكون للمؤمنين في الدنيا باستحقاق، دون المشركين فليست لهم باستحقاق يستحقونها، وإنما يستحقونها بشرط الإيمان، وإلا قاتلهم المسلمون إلى أن يسلموا، فإن أسلموا فقد استحقوها حينئذٍ، وإلا قتلوهم وأخذوا أموالهم وتغنموها.

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ۝٣٢﴾ يوضح الله سبحانه وتعالى آياته وما هو الحلال وما هو الحرام لقوم يفهمونها ويعقلونها، وأما أولئك المشركون الذين هم كالأنعام أو أضل منها- فلن يفهموها ولن يعقلوها، وسيموتون على باطلهم، ما داموا على عاداتهم وعادات آبائهم مصرين، وما داموا رافضين تعاليم الله سبحانه وتعالى التي أنزلها في كتابه.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ كل ما حرمتموه أيها المشركون فليس محرماً في الحقيقة؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يحرم إلا الفواحش، وهي الأشياء التي يستفحشها العقل ويستقبحها، والفواحش: منها ما هو ظاهر فحشها للعقل كالظلم والكذب وما أشبههما، ومنها ما هو خفي، وقد بين الله تعالى القسمين جميعاً في كتابه وعلى لسان رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وحرم ربي فعل الإثم وحرم البغي والعدوان على الناس.

﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ﴾ وحرم الشرك.

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ وأن تشركوا بالله سبحانه وتعالى شيئاً ليس عليه دليل ولا حجة، فلا دليل لهم على ربوبية الأصنام، وإنما يعبدونها من دون حجة ولا دليل.

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ۝٣٣﴾ وحرم ربي أن تقولوا عليه أشياء لم يقلها، فتقولوا: حرم الله هذا، وأحل هذا كذباً وافتراءً عليه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ۝٣٤﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن لكل أمة من الأمم التي

كذبت بأنبيائها ميعاداً قد جعله لوقت هلاكها؛ لأنه كان قد لحق النبي ﷺ من الأذى من المشركين ما لا يقدر قدره، واستمروا على أذاه زماناً طويلاً، والنبي ﷺ منتظر للفرج ولنصر الله سبحانه وتعالى أن ينزل، فأخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن لكل أمة أجلاً، ولن يهلكها إلا عند حصول ذلك الوقت الذي قد قدره لهلاكها، لا يستأخرون ساعة عن ذلك ولا يستقدمون.

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ۝٣٥﴾ خاطب الله سبحانه وتعالى بني آدم وناداهم الله سبحانه وتعالى بأنه إذا بعث إليهم رسولا يبلغهم آياته ورسالته فمن آمن واتقى وأصلح فسينال رضوانه، وسيأمن من عذابه، وسيدخله في رحمته.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ۝٣٦﴾ والذي لم يستجب لدعوة الرسل والأنبياء واستكبر عن الإيمان فهو من أصحاب النار خالداً فيها مخلداً.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه ليس أحد أظلم من قريش فقد بلغوا الغاية في الكفر والعصيان لله سبحانه وتعالى؛ لأنهم افتروا على الله سبحانه وتعالى الكذب، ونسبوا إليه التحريم والتحليل كذباً وافتراءً، وكذبوا بآيات الله سبحانه وتعالى، وبالقرآن الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه ﷺ.

﴿أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ سينالون نصيبهم مما كتبه الله سبحانه وتعالى في كتابه من العذاب للمكذبين، وأن لهم حصة من العذاب قد كتبها الله لهم وخصها بهم.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ۝٣٧﴾ إذا جاءت ملائكة الموت يتوفون هؤلاء الذين كذبوا من قريش فستسأل هذا الكافر الذي

قد نزلت تقبض روحه: أين هؤلاء الذين كنت تعبدهم من دون الله؟ فناد عليهم ليأتوا يخلصوك، فأنت الآن في أشد الحاجة لهم، وهم في هذه الحالة يُرُونهم ما قد أعده الله سبحانه وتعالىٰ لهم من العذاب؛ فيجيبونهم: بأنهم قد ضاعوا عنا، فحينئذٍ يقرون ويعترفون أنهم كانوا متمردين علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾ عندما تأتي ملائكة الموت لنزع أرواح أولئك المكذبين بآيات الله سبحانه وتعالىٰ وبعد إقرارهم واعترافهم أنهم كانوا مكذبين بآيات الله سبحانه وتعالىٰ ستقول لهم حينئذٍ: ادخلوا –في جملة الأمم التي قد كفرت قبلكم– في نار جهنم.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ كلما دخلت أمة إلىٰ التي قبلها في النار لعنتها؛ لأنها تسببت في ضلالها.

﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً﴾ اجتمعوا فيها جميعاً.

﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ﴾ والأخرىٰ هم التابعون، والأولىٰ هم المتبوعون.

﴿رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا﴾ ينادون الله سبحانه وتعالىٰ بأن هؤلاء هم الذين دعونا إلىٰ الضلال، وتسببوا في ضلالنا وهلاكنا.

﴿فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ﴾ فضاعف لهم العذاب يا ربنا؛ لأنهم تسببوا في هلاكنا وضياعنا ودخولنا جهنم.

﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴿٣٨﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن العذاب مضاعف للتابع والمتبوع، وأنهم يستحقون ذلك؛ لأن لهم عذاباً بسبب ضلالهم وعذابا بسبب إضلالهم، لأنه سيلحقهم وزر الذين أضلوهم، وهذا بالنسبة للمتبوعين.

﴿وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ﴾ وقال الرؤساء والمتبوعون قالوا للتابعين: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ نحن وأنتم سواء؛ فلماذا يخفف الله عنكم العذاب دوننا، ونحن في الضلال سواء؟

﴿فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ۝٣٩﴾ فذوقوا العذاب مثلنا؛ فنحن سواء في استحقاق العذاب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ۝٤٠﴾ يهددهم الله سبحانه وتعالى، ويؤيسهم من رحمته جزاءً على استكبارهم وتكذيبهم، فلا نصيب لهم في رحمته ولا في مغفرته ولا في ثوابه، ولن يدخلوا الجنة أبداً أبداً، حتى يلج الجمل في سم الخياط، وهذا من المستحيل.

والجمل المراد به الحبل الذي تربط به السفينة عند إرسائها، وليس الحيوان المعروف.

وكل مجرم سواءً كان مسلماً أم غير مسلم سينال هذا الجزاء، ولن يدخل الجنة أبداً ولا نصيب له فيها أبداً، ولن يرفع لهم عمل، ولن يقبل الله سبحانه وتعالى منهم براً، ولن يستجيب لهم دعوة ولو كانوا يعملون أعمال البر ما داموا مكذبين بآيات الله سبحانه وتعالى ومستكبرين عنها، ولا يتواضعون لأوامر الله سبحانه وتعالى ولا يمتثلون لها، وقد أرسل الله لهم الرسل، ومن عليهم بالنعم والأرزاق، ومتعهم بالصحة والعافية والأمن، وكرمهم من بين سائر الخلق، ثم بعد ذلك يعرضون عن آياته ويستكبرون عنها، أفلا يستحق هؤلاء غضب الله سبحانه وتعالى وسخطه؟

إذاً فهم يستحقون عذابه وسخطه ولو عملوا أعمال البر مع ذلك.

والمشركون كان لهم أعمال بر يعملونها، وكانوا يتنافسون فيها، فكانوا يطعمون الطعام، ويكرمون الضيف، ويحمون الجار، ويغيثون الملهوف، ويعدون ذلك من الشرف، ولكن الله سبحانه وتعالى أخبرهم أنه لن يقبل منهم شيئاً من ذلك ما داموا مكذبين بآياته ومستكبرين عنها.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراشهم من نار جهنم، ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ ولهم من فوقهم نار تغشاهم بسعيرها. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ۝﴾ وسينال هذا الجزاء كل ظالم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ۝﴾ أما المؤمنون بالله سبحانه وتعالى والمصدقون به، ومع ذلك يعملون الأعمال الصالحة- فسيدخلون الجنة خالدين فيها أبداً، والله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، فهو عالم بضعف الإنسان، وأنه لا يخلو من الزلات والأخطاء والنسيان، وأنه يقع في المعصية ثم يستغفر منها، وهو عالم بطبيعة الإنسان وطاقته وقوته، وعالم أنه لا بد أن يقع منه الزلل، وليس معصوماً إلا أنبياؤه ورسله، فما دام غير مصر على معاصيه بل إذا وقعت منه معصية سارع إلى الاستغفار والندم فسيغفر الله سبحانه وتعالى له مثلما فعل آدم عليه السلام عندما أخطأ وتاب، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّه فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّه وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران١٣٥].

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ ينزع الله سبحانه وتعالى من صدور أهل الجنة طبائع الغل والحقد التي كانت في الدنيا، وستزول طبائع الشر التي كانت في الدنيا؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد جعل هذه الطبائع في الدنيا ابتلاءً منه واختباراً، وقد أمرنا بمجاهدة هذه الطبائع وعدم الاستجابة لها، وهي موجودة في كل شخص، فعند كل خصلة خير في الإنسان خصلة شر، والمؤمن إن لم يجاهد نفسه ويدافع طبائع الشر خرج عن اسم الإيمان وهذا لأجل التكليف، فلا بد أن يذكر المرء نفسه بالله سبحانه وتعالى في كل وقت، وإلا ساقته نفسه إلى هذه الطبائع والأهواء والشهوات، فلا بد أن يقهر نفسه ويجاهدها لإزالة هذه الطبائع؛ لأن النفس قد جبلت على حب الشهوات والأهواء،

فإذا جاهد نفسه وقهرها أدخله الله سبحانه وتعالى الجنة بسبب تغلبه على نفسه وأهوائها وشهواتها، واستجابته لدعوة الله سبحانه وتعالى، وعصيانه لما تدعوه إليه نفسه. فهذه الأشياء سيزيلها الله سبحانه وتعالى يوم القيامة؛ لأنه لم يجعلها في الدنيا إلا للتكليف، أما في الجنة فستذهب طبائع لأنه لا تكليف في الجنة.

﴿وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ﴾ حمدوا الله سبحانه وتعالى على هدايته لهم لدخول الجنة؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي هداهم وليست هدايتهم من عند أنفسهم، ولولا هو لما عرفوا الطريق التي توصلهم إلى الجنة، فهو الذي بعث لهم الأنبياء والرسل يدلونهم عليها، ولو أراد الإنسان أن يهدي نفسه للجنة لما استطاع أن يهتدي إليها، ولما عرف الطريق التي توصله إليها.

﴿لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ بعد قولهم: الحمد لله يقولون: قد جاءت رسل ربنا بالحق والصدق، وها نحن قد وصلنا إلى ما وعدنا بسببهم.

﴿وَنُودُواْ﴾ تناديهم الملائكة أو يسمعون نداءً من عند الله سبحانه وتعالى ﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٤٣﴾﴾ هذه الجنة التي دخلتموها قد استحققتموها بسبب أعمالكم في الدنيا وهي جزاء لكم، وهذا من تفضل الله سبحانه وتعالى أن جعلها جزاءً على الأعمال.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ﴾ ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار لأجل أن يشمتوا بهم، ويدخلوا عليهم الغيظ والضيق: انظروا هذا ما وعدنا ربنا قد وجدناه وقد تحقق، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم؟ فيجيبونهم: نعم قد وجدناه.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴿٤٤﴾﴾ أذن بين أهل الجنة مؤذن باللعنة على الظالمين، واللعنة: هي استحقاقهم النار، وهاهم قد أصبحوا فيها.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ﴾ كانوا يمنعون الناس عن الإيمان.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ لا يحبون الحق ولا يريدون الصراط المستقيم وإنما يريدون الباطل ودين الشرك وما تدعوهم إليه شهواتهم وأهواؤهم.

﴿وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴿٤٥﴾﴾ وهم منكرون للآخرة وللبعث فبسبب ذلك كله استحقوا دخول النار.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ بين أهل الجنة وأهل النار حجاب.

﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ﴾ والأعراف مكان مرتفع مشرف على الجنة وعلى النار، وعليه رجال مؤمنون وهؤلاء الرجال يرون من يدخل الجنة ومن يدخل النار، ويعرفون كل شخص باسمه وبصفته.

﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ ينادي أصحاب الأعراف أهل الجنة بالسلام عليهم والتهنئة لهم بالفوز العظيم ودخول جنات النعيم.

﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴿٤٦﴾﴾ وأصحاب الأعراف واقفون على الأعراف ينادون أهل الجنة وأهل النار قبل أن يدخلوا الجنة وسيدخلون الجنة بعد أن يهنئوا أهل الجنة ويوبخوا أهل النار ويشمتوا بهم وأهل الأعراف هم من المؤمنين.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴿٤٧﴾﴾ وإذا نظر أصحاب الأعراف إلى أهل النار تعوذوا بالله وسألوه أن يجيرهم من حال أهل النار ومن نار جهنم، ومن هول ما يرونه فيها من أصناف العذاب، أجارنا الله منها.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴿٤٨﴾﴾ ونادى أصحاب الأعراف رجالاً كانوا يعرفونهم في الدنيا فقالوا لهم لم تنفعكم أموالكم التي جمعتموها في الدنيا ولم ينفعكم تعاليكم في الدنيا واستكباركم فيها، يقولون لهم ذلك ليزيدوهم حسرة مع حسراتهم وضيقاً مع ضيقهم وألماً مع آلامهم.

﴿أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّه بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴿٤٩﴾﴾ كان المشركون يحلفون أن المؤمنين لن يدخلوا الجنة لِما كانوا يرونه فيهم من الضعف والفقر، وكانوا يظنون أنهم هم الذين يستحقون الكرامة عند الله سبحانه وتعالىٰ، فيقول أصحاب الأعراف لهم: انظروا إلىٰ هؤلاء الذين كنتم تستهزئون بهم في الدنيا، وتقسمون أنهم لن ينالوا رحمة الله سبحانه وتعالىٰ، انظروا أين صاروا اليوم وأنتم أين قد صرتم.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فقد حرمهما الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ أولئك الذين كانوا يتخذون دينهم هزواً ولعباً ويسخرون به ويستهزئون، والذين قد اغتروا بالدنيا وزينتها.

﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه في ذلك اليوم سيتركهم من الثواب والرحمة بسبب نسيانهم لهذا اليوم وعدم استعدادهم له وكفرهم به.

﴿وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴿٥١﴾﴾ وبسبب جحدهم بآياتنا في الدنيا وكفرهم بها.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴿٥٢﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن المشركين الذين كفروا بالنبي ﷺ واتخذوا دينهم سخرية وهزؤاً ولعباً بأنه قد جاءهم بكتاب نزله بعلمه، وهو حق، وفيه هدىٰ ورحمة للمؤمنين، وليس موضع سخرية واستهزاء.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾ فسيحصل هذا الذي كانوا يكذبون به في الدنيا وسيتفاجؤون عند حصوله إذا حصل.

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ حين يبعث الله الأموات ويحشرهم علىٰ أرض المحشر للحساب.

﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ فسيقول أولئك الذين تركوه في الدنيا، وكانوا يستهزئون به: ﴿قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ سيقولون حينئذٍ: قد جاءت رسل ربنا بالحق، وأخبرتنا بالصدق.

﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا﴾ يبحثون في يوم البعث عمن يشفع لهم عند الله سبحانه وتعالى ليسلموا من عذابه، ولكن حين لا تنفع الشفاعة ولا يجدون لهم ناصراً ولا مدافعاً.

﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أو هل يمكن أن نرد إلى الدنيا فنعمل الأعمال الصالحة بدلاً من تلك التي كنا نعملها.

﴿قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴿٥٣﴾﴾ قد انتهى الأمر وقد خسروا أنفسهم، ولا شفيع لهم، ولن ينفعهم الندم، فقد كان أمر خلاصهم بأيديهم عندما كانوا في الدنيا، وأما اليوم فقد انتهى كل شيء ولم يبق إلا الحصاد لما بذروه في الدنيا.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأنها قد ضاعت عنهم تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، ويقولون: إنها ستشفع لهم، وستقربهم إلى الله سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ثم يذكرهم الله سبحانه وتعالى بأنه الذي خلق السماوات والأرض، وليست تلك الأصنام والأحجار التي تعبدونها من دونه، فتوجهوا إليه واعبدوه واتركوا عبادة الأصنام.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ بعد أن خلق الله سبحانه وتعالى السماوات والأرض وما بينهما أخبر أنه سيطر على ملك السماوات والأرض وما فيهما واستولى على ذلك.

وهذا هو معنى الاستواء: أنه خلق السماوات والأرض، وهما ملكه، ثم سيطر على هذا الملك، ولم يذهب من تحت قدرته وسيطرته، وما زالت إدارة هذا الملك بيده، وهو الذي يدبر الأمر.

﴿يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ وهذا من تدبيره أن الليل يغطي بظلمته النهار على طول الزمان، لا يتغير هذا النظام ولا يختلف.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ تجري هذه الأشياء في منازلها التي قد قدرت لها، لا تختلف عن ذلك منذ أن خلق السماوات والأرض وما بينهما إلى أن تقوم الساعة، وكل ذلك بأمره وإرادته وتدبيره وحكمته.

﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ الخلق كله له، وهو مالكه، وتدبير شؤون السماوات والأرض وما فيهما بيده، أحاط علمه بكل شيء، واستولى بقدرته على كل شيء.

﴿تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴿٥٤﴾﴾ إشارة إلى كثرة منافعه، تباركت منافعه للناس، والشمس والقمر والنجوم من منافعه، وغير ذلك كثير من المنافع التي يصعب تعدادها.

﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴿٥٥﴾﴾ توجهوا بالدعاء والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى، واطلبوه متذللين كحال المسكين عندما يتذلل ويخضع لمن يطلبه، وأظهروا فقركم لله سبحانه وتعالى وحاجتكم؛ فويل لمن ظن أنه غير محتاج إلى الله سبحانه وتعالى فذلك من المتكبرين، وادعوه أيضا خفية فهو يسمعكم، وهو بغير حاجة إلى رفع أصواتكم، والإخفاء أدعى إلى الإخلاص له سبحانه وتعالى وأقرب إلى استجابة الدعاء.

﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴿٥٥﴾﴾ فادعوه ولا تدعوا غيره.

وقد يقال: إن رفع الصوت من العدوان وفي الحقيقة إنه لا يسمى عدوانا، ولا مَنْ رفع صوته معتدياً؛ وذلك أن الإسرار بالدعاء ليس إلا تأدبا، والمتأدب إنما ترك الأحسن، وتارك الأحسن لا يسمى متعدياً؛ فالعدوان إنما هو دعاء غير الله سبحانه وتعالى.

﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ قد أصلح الله سبحانه وتعالى الأرض، وأراد لها أن تكون صالحة، فلا تفسدوا فيها بالبغي والعدوان، وتحريم ما أحله الله، وتحليل ما حرمه الله سبحانه وتعالى.

﴿وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وكونوا في دعائكم لله سبحانه وتعالىٰ خائفين منه، وطامعين في رحمته، ومعظمين له في قلوبكم، وكونوا في دعائكم عارفين أن بيده الضر والنفع، والخير والشر، وأنه قادر علىٰ عقابكم إن تمردتم، واعلموا أن ثوابكم وعقابكم بيده، وكونوا خائفين في دعائكم من نقمته وعذابه وسطوته، وكونوا راجين لمغفرته ورحمته وفضله، والله سبحانه وتعالىٰ إنما يستجيب للمؤمنين، وهم الذين يعملون الأعمال الصالحة.

﴿وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ يذكر الله سبحانه وتعالىٰ الناس هنا بآياته وقدرته وبرحمته، فذكر هنا الرياح التي هي من رحمته ومن آياته الدالة علىٰ عظمته وقدرته وربوبيته.

﴿نُشُراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ﴾ يرسلها الله سبحانه وتعالىٰ قبل أن يأتي المطر وهو المراد بقوله ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ﴾ أي قدام نزول المطر.

﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً﴾ هذه الرياح تحمل السحاب المحمل بالماء وتسير به.

﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ ساقها الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ بلد قد أخذه الجفاف وييبست أشجاره.

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء﴾ ثم ينزل المطر من هذا السحاب.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ فينبت الله سبحانه وتعالىٰ به الأشجار، ويخرج الثمار.

﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فلا تستبعدوا قدرة الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ بعثكم بعد الموت وإحيائكم، فكما يستطيع بقدرته أن يحيي البلد الميت الذي قد أخذ في اليباس والجفاف كذلك يستطيع إحياء الموتىٰ، فحالكم كحال البلد الميت سواء سواء.

وهذه آية بينة لنا لنعلم قدرته على إحياء الموتى، تأمل إذا نظرت في بلاد قد يبست وقد تأخر عنها المطر سنين؛ فانظر إلى عروق أشجار نبات هذه البلد كالزيل ونحوه كيف يكون قد تفتت وتهشم، فإذا ما نزل عليه المطر فانظر كيف سترى الحياة تدب في هذه الأرض من جديد، والخضرة كيف تبدأ تخرج من تلك العروق التي قد يبست وتفتتت، فكذلك سيحيي الله سبحانه وتعالى بقدرته العظام التي قد هشها الزمان وفتتها.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً﴾ إذا أرسل الله سبحانه وتعالى المطر على الأرض وصادف أرضاً خصبة صالحة للنبات فانظر لجودة نباتها وصحته وصلاحه، وإذا وقع في أرض سبخة غير صالحة فانظر كيف يكون نباتها وكيف رداءته، فكذلك يكون حال بني آدم، فمنهم من إذا سمع المواعظ والتذكير بآيات الله سبحانه وتعالى كيف تثمر في قلبه وتنفع فيه المواعظ ويتعظ ويؤمن، ومنهم من هو كالبلد الخبيث لا تثمر فيه المواعظ، ولا تنفع فيه آيات الله سبحانه وتعالى وتذكيره شيئاً.

﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴿٥٨﴾﴾ يبينها الله لهم ويوضحها، ولكن لا ينتفع بآيات الله إلا المؤمنون الشاكرون لله.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ والمؤمنين، وقص عليهم أخبار الأنبياء السابقين؛ ليعرفوا ما مضى عليهم من أممهم من التكذيب والاستهزاء، وما قاسوه من أممهم.

﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ كان قوم نوح عليه السلام مثل قريش يعبدون الأصنام فدعاهم نبيهم نوح عليه السلام إلى عبادة الله وحده، وأخبرهم أنه ليس لهم رب سواه أما الأصنام فليست آلهة ولا يستحق العبادة لأنها لا تنفع ولا تضر.

﴿إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ۝٥٩﴾ إذا أصررتم على عبادة الأصنام فإني أخاف أن يأتيكم عذاب عظيم يستأصلكم فلا يبقي على أحد منكم، وهذا في الدنيا.

﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ۝٦٠﴾ الملأ: هم كبار القوم ورؤساؤهم وأشرافهم، وهم الذين صدوا عن دعوة نوح عليه السلام، وبقية القوم تابعون لهم؛ لأن الكلمة هي كلمة كبير القبيلة والباقي تابعون له.

فقال الملأ لنوح: لست في صواب، ولست على حق، ولا على الهدى، ونحن الذين على الحق.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ﴾ لست في ضلال، ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أرسلني الله سبحانه وتعالى إليكم لأبلغكم رسالاته ودينه، وأنصحكم وأستنقذكم من الهلاك الذي ينتظركم إن لم تتوبوا وترجعوا إلى الحق الذي جئتكم به.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ۝٦٢﴾ فأنا عالم بأن الله سبحانه وتعالى سيعذبكم بذنوبكم، وأنا نذير لكم من عذاب الله سبحانه وتعالى وسخطه.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ۝٦٣﴾ أعجبتم عندما جاءكم رسول منكم؟! وكانوا قد تعجبوا وتساءلوا: كيف يصح أن يبعث الله رسولاً من البشر، وعندهم أنه لا يصح رسول إلا أن يكون من جنسٍ غير جنسهم؛ إما من الملائكة أو نحو ذلك، فهل تتعجبون أن يأتي رجل منكم ينقذكم من عذاب الله سبحانه وتعالى وسخطه؟

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فكذبوه وأصروا على تكذيبه فأخذهم الله سبحانه وتعالى بالعذاب واستأصلهم.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أنجى الله تعالى نوحاً والمؤمنين، وذلك أن الله سبحانه وتعالى أمره أن يصنع سفينة يركب فيها هو ومن آمن معه لينجوا

من الغرق، فركبوا فيها؛ نوح والمؤمنون.

﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ ثم أغرق الله تعالى قومه بالطوفان العظيم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ﴿٦٤﴾﴾ لأنهم كانوا متعامين عن الحق، ورافضين أن ينزلوا عند حكمه وينقادوا له، وكان نوح عليه السلام قد لبث يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولم يكن في الأرض ذلك الوقت إلا هم، فكان عليه السلام يدعوهم ويلاحقهم في كل مكان، فيذهب إلى أماكن تجمعاتهم يذكرهم بالله سبحانه وتعالى، وكذلك يلاحقهم في بيوتهم يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى، كل واحد في بيته، فتارة يدعوهم جماعة وتارة وحداناً، وتارة سراً وتارة علانية.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴿٩﴾﴾ [نوح]، ولم تبق وسيلة إلا وقد جربها فيهم، ومع كل ذلك لم يستجيبوا له حتى بعض أولاده كانوا من جملة من كفر، وكذلك إحدى زوجاته لم تؤمن به ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود٤٠].

هذا، وذرية بني آدم الذين على وجه الأرض من بعد نوح إلى اليوم هم متناسلون من ذرية نوح الناجين، قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء٣].

﴿وَإِلَى عَادٍ﴾ أرسلنا إلى قوم عاد رسولاً، وعاد: هي قبيلة في جنوب اليمن في أرض حضرموت أرض يقال لها الأحقاف، ومعنى الأحقاف: أرض الكثبان الرملية.

﴿أَخَاهُمْ هُوداً﴾ أرسلنا إليهم رجلا من قبيلتهم، واسمه هود عليه السلام.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴿٦٥﴾﴾ فدعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام وقال: لماذا لا تتقون الله سبحانه وتعالى وتخافونه وهو القادر القهار الذي بيده ملكوت كل شيء فهو الحقيق بأن يتقى.

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ﴾ وهم كبار القوم وأشرافهم، وكانوا هم الذين يتصدرون للجواب على رسل الله صلوات الله عليهم ويردون دعوتهم ويحملون

الناس على التكذيب والاستهزاء ولو أنهم استجابوا لأنبياء الله لاستجاب بقية القوم؛ لأن الكلمة تكون لكبار القوم والباقون لهم تبع.

﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ في خفة عقل وليست دعوتك دعوة حق. ﴿وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ۝٦٦﴾ وليس ما تدعو إليه حقا وإنك لتكذب على الله.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ۝٦٨﴾ فرد عليهم هود عليه السلام رداً جميلاً فقال لهم: أنتم تعلمون أني من أوفركم عقلاً وأبعدكم عن الجهالة والخفة، وليس لي شيء من السفاهة ولكني رسول من رب العالمين الخالق لكل شيء أرسلني إليكم لأبلغكم رسالاته فاستمعوا لرسالات الله وأصغوا بأسماعكم إليها وما زلت لكم ناصحاً وبكم شفيقاً لا أخفي عليكم شيئاً من النصيحة، ويريد عليه السلام أن يستنقذهم من عذاب الله سبحانه وتعالى وسخطه؛ لأنهم بكفرهم بالله وبعبادتهم الأصنام قد استحقوا عذاب الله سبحانه وتعالى وسخطه.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ استنكر عليهم من تعجبهم حين أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم رسولاً منهم وقالوا: كيف يكون رسول من عند الله وهو من البشر؟ واستبعدوا ذلك أشد الاستبعاد.

﴿وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ اذكروا نعمة الله سبحانه وتعالى عليكم حين استخلفكم بعد قوم نوح عليه السلام الذين استأصلهم وأبادهم؛ لأجل تكذيبهم بنبيهم وكفرهم بربهم.

﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ وفضلكم ربكم على من قبلكم بزيادة القوة وكمال الأجسام.

﴿فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ﴾ اذكروا نعمه التي أنعم بها عليكم حين استخلفكم وزادكم قوة وطولاً في أجسامكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ۝٦٩﴾ إذا تذكرتم نعمه عليكم فستفلحون وتظفرون

بالفوز في الدنيا والآخرة.

﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّه وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أتريد أن نترك ما يعبده آباؤنا ونعبد الله وحده؟ كيف يكون ذلك؟!! استنكروا عليه طلبه هذا، وقالوا: هذا ما لا يكون.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴿٧٠﴾﴾ إن كنت صادقاً فيما تدعيه فأتنا بعذاب الله وأنزله بنا.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ قد كتبه الله سبحانه وتعالى عليكم، وسينزله بكم عما قريب، فتداركوا أنفسكم قبل نزوله إن أردتم. عبَّر الله سبحانه وتعالى عنه بالوقوع؛ لأنه لما كان متحققاً وقوعه، وأنه واقع بهم لا محالة- جعله بمنزلة الواقع.

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ كيف تجادلونني في هذه الأصنام التي سميتموها آلهة، فتقولون: هذا الصنم إله وهذا إله وهذا.. وهذا..، فهذه كلها إنما هي أسماء سميتموها بأفواهكم، ولا تحمل من صفات الإلهية شيئا، ولا دليل لكم على إلهيتها ولا حجة.

﴿فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴿٧١﴾﴾ انتظروا سخط الله سبحانه وتعالى وغضبه الذي سينزله الله سبحانه وتعالى بكم.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أنزل الله سبحانه وتعالى عليهم العذاب، واستأصل الله سبحانه وتعالى قوم عاد جميعاً، ولم يبق منهم أحد إلا نبيه هود عليه السلام والذين آمنوا معه، قال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴿٨﴾﴾ [الحاقة]، واستأصلهم جميعا.

والذراري التي في اليمن هي من ذريته عليه السلام، وأما بقية قومه فلم يبق منهم أحد.

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ أبادهم الله سبحانه وتعالى عن آخرهم.

﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴿٧٢﴾﴾ وكانوا من الجاحدين الكافرين المتمردين.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ أرسل الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ قوم ثمود صالحاً عليه السلام، وهو من نفس القبيلة، وكان في شمال المدينة، ولا زالت مساكنهم باقية إلىٰ الآن تسمىٰ مدائن صالح، وآثارها موجودة إلىٰ اليوم، وكانوا ينحتون في الجبال بيوتاً، قال تعالىٰ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً﴾ [الشعراء١٤٩].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عندما أخبرهم أنه نبي من عند الله سبحانه وتعالىٰ وأمرهم بعبادة الله سبحانه وتعالىٰ وحده، عندها طلبوا الدليل علىٰ صحة نبوته، وطلبوا أن يأتيهم بآية تدل علىٰ ذلك، فأعطاه الله سبحانه وتعالىٰ آية واضحة تدل علىٰ صحة نبوته، وهي الناقة التي أخرجها لهم من الجبل.

﴿هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٧٣﴾﴾ أرسل الله سبحانه وتعالىٰ لهم هذه الناقة من الجبل آية تدل علىٰ صدق نبوة نبي الله صالح، وأمرهم أن يتركوها تأكل وترعىٰ، ونهاهم عن منعها من ذلك، وأخبرهم أنهم إذا مسوها بسوء فسينزل بهم عذابه وسخطه، وكان قوم صالح هؤلاء رعاة، وكانت هذه الناقة كبيرة الحجم حتىٰ أنها تستهلك مثل ما يستهلكه جميع أنعام بقية قوم صالح، ولهذا قسم الله سبحانه وتعالىٰ الماء والمرعىٰ بينهم وبينها، فجعل لها يوماً ولهم يوماً، قال تعالىٰ: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء١٥٥]، ونهاهم أن يرعوا ويستقوا في وردها.

﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أمر نبي الله صالح عليه السلام قومه أن يتذكروا نعمة الله سبحانه وتعالىٰ عليهم حين جعلهم خلفاء في الأرض من بعد عاد، ومكنهم في الأرض، وجعلها مستقراً لهم.

﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً﴾ السهول تبنونها قصوراً، والجبال تنحتونها بيوتاً.

﴿فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ﴾ اذكروا نعمه عليكم ولا تكفروا به.

﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴿٧٤﴾﴾ ولا تكثروا الفساد في الأرض فالمفروض بكم أن تقابلوا نعمه بالشكر والإيمان والطاعة، والامتثال لما أمركم به، ولا تقابلوها بالكفر والفساد.

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ﴾ وهم الكبار من قومه والزعماء.

﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ قالوا لأولئك الضعاف المؤمنين.

﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴿٧٥﴾﴾ والذين قالوا: إنا مؤمنون- هم المستضعفون من قومه.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴿٧٦﴾﴾ وهؤلاء الذين قد استكبروا هم كبار قومه وزعماؤهم ووجهاؤهم.

﴿فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ عزموا على قتل الناقة وقتلوها، واعتدوا على ما أمرهم الله سبحانه وتعالى في شأن الناقة من عدم المساس بها، واستكبروا عليه وخالفوه.

﴿وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴿٧٧﴾﴾ تحدوا الله سبحانه وتعالى أن ينزل عليهم عذابه الذي قد وعدهم به إن مسوا الناقة، وهذا يدل على شدة استكبارهم وعتوهم وتمردهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴿٧٨﴾﴾ نزل عليهم عذاب الله سبحانه وتعالى، وهو الرجفة فما أصبح الصباح عليهم إلا وكل واحد منهم قد جثم على وجهه ميتاً، ولم يبق على أحد منهم، وأبادهم جميعا كبارهم وصغارهم، نساءهم ورجالهم.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ رحل نبيهم صالح عليه السلام عن تلك البلاد، وكره المقام في المكان الذي كانوا فيه ورحل إلى حضرموت.

﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴿٧٩﴾﴾ تألم في نفسه عند رؤيته لهم على هذه الحالة وقال مسلياً نفسه:

لكني قد نصحتكم، وأبلغت جهدي في هدايتكم، وأخبرتكم ما الذي سيحل بكم إن عصيتم وتمردتم، فلن أندم بعد ما قد فعلت لكم كل هذا، خاطبهم بكل هذا وهم أموات مسلياً على نفسه وعلى المؤمنين معه.

﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ۝٨١﴾ أرسل الله سبحانه وتعالى لوطاً عليه السلام إلى قومه فأنذرهم سوء أعمالهم التي يعملونها والتي لم يسبق أن فعلها أحد من العالمين؛ لشدة فحشها وقبحها، وهو اللواط، فقد انتشر بينهم بشكل عام، وقد أسرفوا وتجاوزوا الحد في الكفر والعصيان.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ۝٨٢﴾ كان قوم لوط عليه السلام يتراودون فيما بينهم ويتآمرون على نبي الله لوط عليه السلام بأن يطردوه من بينهم هو وأهله؛ لأنهم كانوا يتنزهون عن أعمالهم هذه القبيحة.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ۝٨٣﴾ أنجاه الله سبحانه وتعالى وأهله إلا امرأته؛ لأنها كانت كافرة فأهلكها الله معهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ۝٨٤﴾ أمطر الله سبحانه وتعالى على قرى قوم لوط حجارة من السماء، وقلب الله سبحانه وتعالى عاليها سافلها، وأما الذين كانوا بعيداً منهم عن بيوتهم فقد رماهم الله سبحانه وتعالى بالحجارة وأبادهم جميعاً، وهذه القرى هي في بلاد الأردن.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾ أرسل الله سبحانه وتعالى إلى قبائل مدين شعيباً عليه السلام وهو من نفس قبيلتهم، ومدين تقع على خليج العقبة شرقاً بين الأردن والسعودية، ولا زالت آثارهم باقية إلى اليوم.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كانوا يعبدون الأصنام فأنذرهم شعيبٌ، ونهاهم عن عبادة الأصنام،

وأخبرهم أنه قد أنزل الله سبحانه وتعالىٰ لهم حجة واضحة علىٰ صدق رسالته، وأنه رسول من عند الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ﴾ كانوا أهل تجارة وبيع وشراء، وبلاد الشام بشكل عام في ذلك الزمان كانت سوقاً تجارياً يقصده الناس من جميع البلاد، فأمرهم أن يوفوا في الكيل والوزن، وأن يعطوا الحق، ولا ينقصوا منه شيئا.

﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿٨٥﴾﴾ أن تكونوا من أهل الوفاء والإصلاح في الأرض هو الأفضل لكم في الدنيا والآخرة من عبادة الأصنام، والفساد في الأرض.

﴿وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ كانوا يقعدون للناس في كل طريق، وكل من أراد الذهاب إلىٰ شعيب عليه السلام والسماع منه كانوا يصدونه عن ذلك، ويتوعدونه ويتهددونه بالقتل وغيره، ويمنعونه من الذهاب؛ لأنهم لا يريدون الحق، فيصدونهم عنه إلىٰ الباطل.

﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾ اذكروا نعمة الله سبحانه وتعالىٰ عليكم إذ كثركم بعد أن كنتم قليلي العدد.

﴿وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴿٨٦﴾﴾ اعتبروا بأولئك الذين رفضوا الإيمان والانقياد لأنبيائهم ومكثوا علىٰ فسادهم وضلالهم كقوم لوط وصالح وهود وغيرهم كيف كان مصيرهم أن أنزل الله سبحانه وتعالىٰ عليهم عذابه، واستأصلهم عن آخرهم.

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴿٨٧﴾﴾ إذا كان أناس منكم قد آمن، وأناس لم يؤمنوا وظلوا علىٰ كفرهم- فانتظروا واصبروا إلىٰ أن ينزل حكم الله سبحانه وتعالىٰ علينا، وهو أن يعذب الكافرين، وينجي المؤمنين.

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ﴾ وهم كبار قوم شعيب ورؤساؤهم وزعماؤهم.

﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ فإما أن ترجع إلى ما نحن عليه، أو لنطردنك ولنخرجنك ومن معك.

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴿٨٨﴾﴾ هل تريدون أن نرجع إلى ملتكم، ولو كنا كارهين للرجوع فيها؟

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا﴾ لو رجعنا إلى ملتكم لكنا من المفترين على الله سبحانه وتعالى الكذب، فهل تريدون أن نعود إليها وقد نجانا الله سبحانه وتعالى منها، وهدانا إلى الحق؟

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾ ما ينبغي أن نعود إليها أبداً بعد أن عرفنا الحق والهدى.

﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ رَبُّنَا﴾ إلا إذا أراد الله سبحانه وتعالى أن تقتلونا وتعذبونا إلى أن نتكلم بما تريدون، فحينئذٍ لا حرج إن تكلمنا؛ لأننا في هذه الحال مكرَهون، وقلوبنا مطمئنة بالإيمان؛ لأننا لم نتكلم إلا لنتقي شركم.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ أحاط علمه بكل شيء سبحانه وتعالى.

﴿عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ سنصبر على ديننا، وسنتوكل على الله سبحانه وتعالى إلى أن ينصرنا.

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴿٨٩﴾﴾ دعا نبي الله شعيبٌ عليه السلام ربه بعد أن توكل عليه بأن يحكم بينه وبين قومه بالحق وهو خير الحاكمين، وحكم الله: أن يعذب المبطل وينجي المحق.

﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴿٩٠﴾﴾ قال أشراف قومه وأعيانهم لأفراد القبيلة: إنكم إذا اتبعتم شعيباً وآمنتم به كنتم خاسرين حينئذ وضائعين.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴿٩١﴾﴾ عندما طال عصيانهم وتمردهم، ولم تنفع فيهم دعوة نبي الله شعيب، ولا الحجج التي جاءهم بها- عذبهم الله سبحانه وتعالى حينئذ بالرجفة، فبادوا عن آخرهم.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾ وكأن أحداً لم يكن قد عاش في تلك البلاد التي نزل بها عذاب الله سبحانه وتعالى وسخطه.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ﴿٩٢﴾﴾ لقد حق عذاب الله على قوم شعيب الذين كذبوه فأبادهم الله تعالى بعذابه فخسروا الدنيا والآخرة فأصبحوا هم الخاسرين.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ هاجر من تلك البلاد بعد نزول العذاب بها. ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴿٩٣﴾﴾ قال ذلك تسلية لنفسه، وكان قد داخلها الأسى والحزن لما نزل بقومه من العذاب وكان شديد الشفقة عليهم يريد أن يستنقذهم من سخط الله ويردهم إلى رحمته فخاطبهم وهم أموات عندما رأى نزول العذاب بهم: لقد نصحتكم وبالغت في نصحي لكم، وحذرتكم بأس الله وعذابه، فكيف أحزن عليكم وأنتم الذين تسببتم على أنفسكم بما نزل بكم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴿٩٤﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لم يرسل نبياً إلى أمة إلا ويبتليهم ببلاء شديد من الفقر والجدب والأمراض لعلهم يرجعون ويتضرعون إليه.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ ثم يبدل الله سبحانه وتعالى السراء والضراء عندما يرفضون الإيمان والرجوع؛ يبدل ذلك بالخير فينزله عليهم.

﴿حَتَّى عَفَواْ﴾ إلى أن يرجعوا إلى حالتهم الأولى التي كانوا عليها قبل أن يأخذهم بالبأساء والضراء.

﴿وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء﴾ قالوا: هي عادة الزمان وتقلبه، فتارة يكون الناس في خير، وزماناً في شر، ولم يلتفتوا إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ويقولوا: إن الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي أبدلهم وغير أحوالهم ولم يشكروه علىٰ ذلك.

﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴿٩٥﴾﴾ يرسل الله سبحانه وتعالىٰ نبيه إلىٰ أمة فيبتليهم بالشر بعدما كانوا في خير لعلهم يرجعون إليه ويدعونه، ثم يبدلهم الله سبحانه وتعالىٰ مكان الشر الخير لعلهم يرجعون إليه ويشكرونه؛ فإذا رفضوا ذلك أخذهم الله سبحانه وتعالىٰ حينئذٍ بالعذاب والسخط، واستأصلهم وأبادهم علىٰ حين غرة وهم في أمن وطمأنينة لا يتوقعون أن ينزل بهم عذاب الله.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ﴾ لو أنهم آمنوا برسالة أنبيائهم، واستجابوا لدعوتهم إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وصدقوا وتركوا الكبر والفساد، ﴿وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾- لأغدق الله سبحانه وتعالىٰ عليهم نعمه، وأرسل لهم بركات السماء من المطر، وبركات الأرض من الشجر والثمر.

﴿وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴿٩٦﴾﴾ ولكنهم كذبوا وتمردوا- فجازاهم الله سبحانه وتعالىٰ بسبب تكذيبهم بالمصائب والبلايا.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ﴿٩٧﴾﴾ استنكر الله سبحانه وتعالىٰ عليهم كيف يأمنون عذاب الله سبحانه وتعالىٰ وسخطه أن يأتيهم وهم نائمون.

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴿٩٨﴾﴾ واستنكر عليهم كيف أنهم يأمنون بأسه وعذابه أن ينزل عليهم نهاراً وهم في لهوهم ولعبهم ومعاصيهم في النهار.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴿٩٩﴾﴾ يعجب الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ كيف أنهم يأمنون مكر الله سبحانه وتعالىٰ وعذابه ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴿٩٩﴾﴾ فلا يأمن عذاب الله سبحانه

وتعالىٰ وسخطه إلا أولئك الذين كفروا بالله سبحانه وتعالىٰ وتمردوا عليه.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴿١٠٠﴾﴾ هؤلاء الذين أورثهم الله سبحانه وتعالىٰ الأرض من بعد أولئك الذين أخذهم الله سبحانه وتعالىٰ بعذابه- استنكر الله سبحانه وتعالىٰ عليهم لماذا لا يتعظون ويعتبرون بأولئك القوم الذين أهلكهم الله من قبلهم حين كفروا وردوا دعوة أنبيائهم، ولماذا لا يهتدون لأجل أن لا يصيبهم ما أصاب أولئك، ويعلمون أن الله سبحانه وتعالىٰ سيصيبهم بسبب ذنوبهم مثلما أصاب أولئك، فلماذا يأمنون؟

ولكن قلوبهم قد غطاها الكفر، وغطتها المعاصي واتباع الأهواء فلم يتعظوا ولم يعتبروا.

ثم قال الله سبحانه وتعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأخبار تلك القرىٰ التي قد أخذها بسبب ذنوبهم وتكذيبهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴿١٠١﴾﴾ أتتهم رسلهم بالبينات والحجج فلم يؤمنوا ولم يصدقوا، فهم والذين أرسلناك إليهم يا محمد علىٰ طريقة واحدة.

وفيما قص الله سبحانه وتعالىٰ من أنباء الأمم السابقة وأخبارها، وما حصل عليها- كل ذلك تسلية للنبي ﷺ عندما كذبت به قريش ولم يؤمنوا به؛ لأنه كان قد اصطدم من فعل قومه، وقد أصابه الإحباط؛ فأخبره الله سبحانه وتعالىٰ بذلك لأجل أن يصبر، ولأجل أن يخفف عنه ما أصابه من الهم والحزن علىٰ تكذيبهم.

وجميع الأمم السابقين لم يؤمنوا بأنبيائهم إلا قوم يونس من بين كل هؤلاء فإنهم تراجعوا وندموا وآمنوا عندما رأوا نزول العذاب بهم.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴿١٠٢﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن جميع الأمم لا عهد لهم ولا ذمة ولا وفاء، وإنما هم متمردون على الله سبحانه وتعالى.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ ثم بعث الله تعالى نبيه موسى عليه السلام بعد تلك الأمم التي قد قصها الله سبحانه وتعالى إلى فرعون وكبار دولته وأشرافها.

﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ فكفروا بموسى وعاندوا بعد أن رأوا الآيات التي تدل على صدقه فيما ادعى.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴿١٠٣﴾﴾ انظر يا محمد إلى عاقبة أمرهم كيف كانت، وكيف أغرقهم الله سبحانه وتعالى جميعاً في البحر، وذلك عندما خرج موسى عليه السلام ومن معه من بني إسرائيل هاربين من فرعون وبطشه، وكيف لحق بهم فرعون فغرق في البحر هو ومن معه.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴿١٠٤﴾﴾ عندما أمره الله سبحانه وتعالى أن يذهب إلى فرعون وينذره قال له: يا فرعون، إني رسول الله إليك، وقد أمرني ربي أن أدعوك إلى الإيمان به، وأن تترك تعذيب بني إسرائيل، وأن تسلمهم لي؛ لأنهم كانوا في المهانة والذلة عند فرعون، يعذبهم ويستعبدهم، ويقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم فأراد الله تعالى أن يستنقذهم من ظلم فرعون على يد موسى عليه السلام.

﴿حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ وهذا من قول موسى لفرعون، وقد كان فرعون عارفاً لموسى حق المعرفة، وأنه من أهل الصدق، ومن الموثوق فيهم؛ لأنه تربى عنده وفي بيته، ولكن نزعة الكبر أخذت فرعون واستولت عليه، وقد عرف أن موسى يقول الحق.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ومع معرفة فرعون بصدق موسى أكد له

صدقه بما جاء به من الحجة الواضحة.

﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴿١٠٥﴾﴾ أخرجهم من تحت يدك ومن ظلمك لهم، وهاتهم معي لأخرجهم من مصر إلى الشام.

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴿١٠٦﴾﴾ إذا كان معك دليل أنك نبي مرسل من عند الله سبحانه وتعالى فهاته إن كنت صادقاً.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ﴿١٠٨﴾﴾ وهاتان معجزتان أتاهم بهما موسى لعلهم يؤمنون ويرجعون عن كفرهم وضلالهم ويصدقونه فيما ادعاه من النبوة والرسالة.

﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴿١٠٩﴾﴾ حين جاء موسى بالحجة الواضحة اتهم أشراف القوم وكبارهم الذين كانوا عند فرعون بالسحر مع أنهم قد عرفوا أن ما اتهمه به ليس من السحر في شيء، وأنه من عند الله سبحانه وتعالى، وكان السحر في ذلك العصر قد راج عندهم وانتشر في مصر، وكثر فيه علماء السحر.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴿١١٠﴾﴾ قالوا: يريد موسى أن يسيطر على البلاد بسحره، ويحتلها بعد أن يخرجكم منها، فقال لهم فرعون طالباً للمشورة: ماذا تقترحون وما رأيكم؟

﴿قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴿١١٢﴾﴾ قالوا لفرعون: أخره وأعطه ميعاداً، وابعث الرسل في البلاد يستدعون السحرة ليأتوا إليك ليبطلوا بسحرهم سحر موسى.

﴿وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْواْ إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴿١١٤﴾﴾ أتى السحرة إلى فرعون، واجتمعوا عنده مع موسى، وطلبوا الأجرة إن هم غلبوا موسى وسحره، فأجاب عليهم سأعطيكم الأجرة وأقربكم إن غلبتموه، وأجعلكم في مجلسي تدخلون وتخرجون متى شئتم.

﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴿١١٥﴾﴾ بعدما اجتمع السحرة بموسى في ميدان يجتمع فيه الناس في المناسبات، وحضر الناس جميعاً ليشاهدوا؛ قالوا لموسى: إما أن تبدأ أو نبدأ نحن؟

﴿قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴿١١٦﴾﴾ قال لهم موسى: ابدؤوا أنتم، فلما ألقوا بحبالهم وعصيهم خاف الناس مما رأوا من السحرة وعصيهم، حتى موسى خاف من هو ما رأى من صنيع السحرة.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴿١١٧﴾﴾ ألقى موسى عصاه فانقلبت ثعباناً ضخماً الْتَهَمَ جميع ما ألقاه السحرة.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴿١١٨﴾﴾ ظهر الحق عند إلقائه بعصاه وبطل سحرهم، فعصا موسى قد انقلبت ثعباناً حقيقياً التهم السحر الذي جاءوا به وجعلوا الناس يرونه ثعابين قد ملأت الساحة في نظر عيونهم، وأما في الحقيقة فليست شيئاً، وهذا بخلاف عصا موسى فقد كانت ثعباناً حقيقياً أكل ما ألقاه السحرة.

﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴿١٢٠﴾﴾ عند أن أكلت عصا موسى ما ألقاه السحرة علموا وتيقنوا أن الذي جاء به موسى ليس سحراً وأنه آية عظيمة من عند الله تعالى، فآمنوا بموسى وسجدوا لله سبحانه وتعالى؛ لأنهم عرفوا أن الذي جاء به آية من آيات الله سبحانه وتعالى.

﴿قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴿١٢٢﴾﴾ فآمن السحرة وخروا سجداً لله سبحانه وتعالى من ساعتهم تلك، واستيقنوا بأن موسى نبي صادق، وأنه مرسل من عند الله.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ﴾ استنكر فرعون على السحرة لماذا آمنوا قبل أن يأذن لهم.

﴿إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قال لهم فرعون: إنها مؤامرة بينكم وبين موسى قد فعلتموها قبل خروجكم إلى الميدان لتفعلوا هذا، قال فرعون

ذلك أمام المشاهدين لأجل أن يخدعهم، ولأجل ألا ينخدع الحاضرون بما حصل ويصدقوا بموسى كما صدق السحرة وآمنوا، وهو في الحقيقة قد عرف أن ما جاء به موسى هو الحق والصدق، وإنما قال هذا القول أمام الجماهير خوفاً أن يؤمنوا بموسى عليه السلام، ويسيطروا على البلاد.

﴿لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴿١٢٣﴾﴾ سوف أجازيكم على هذا الذي فعلتموه أنتم وموسى لتستولوا على البلاد.

﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴿١٢٤﴾﴾ توعد فرعون السحرة الذين آمنوا بقطع أيديهم وأرجلهم اليد اليمنى والرجل اليسار وبتسميرهم على جذوع النخل ونفذ فيهم ذلك التهديد الظالم.

كان الكهنة قد تحدثوا لفرعون أنه سيولد لبني إسرائيل مولود يكون هلاك ملك آل فرعون على يديه، وسيسيطرون على البلاد، ويستولون على الدنيا، ويطردون فرعون ويأخذون مملكته، فكان فرعون يذبح المولود الذي يولد من بني إسرائيل إذا كان ذكراً خوفا مما أخبرته الكهنة.

﴿قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴿١٢٥﴾﴾ قال السحرة بعدما آمنوا: نحن لا نخاف منك ومن بطشك، فسنرجع إلى الله سبحانه وتعالى، وسيجازينا ويثيبنا، ويعاقبك ويعذبك، فقد استحكم الإيمان في قلوبهم، وثبتوا على دينهم، وأخلصوا لله سبحانه وتعالى.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا﴾ الذي كرهته ونقمته علينا هو أننا آمنا بالله سبحانه وتعالى، والإيمان بالله سبحانه وتعالى لا يعد جريمة، فافعل ما بدا لك.

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴿١٢٦﴾﴾ يدعون الله سبحانه وتعالى أن يثبتهم على دينه، ويعينهم على الصبر على تعذيب فرعون، وفعلاً قد عذبهم فرعون وصلبهم وقتلهم، وقد صبروا وثبتوا رحمة الله عليهم.

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ﴾ وهم وزراؤه وندماؤه وأهل مجلسه.

﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ هل ستترك موسى وبني إسرائيل يدعون الناس إلى دينهم، ويفسدون في الأرض، ويتركون دينك وآلهتك.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِـي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴿١٢٧﴾﴾ قال فرعون: سأستمر على القتل فيهم، ومن ولد له مولود منهم فسأقتله، وسأسبي نساءهم، وهذا حين عرف من الكهنة أنه سيولد مولود من بني إسرائيل يكون هلاك فرعون على يديه.

فمكث على القتل بعد الذي حصل بين موسى والسحرة ليوهم الناس أن موسى ليس إلا ساحراً، وليس هو المولود الذي ذكر الكهنة أن هلاك آل فرعون على يديه؛ لأنه كان قد اشتهر بين الناس قصة الكهنة مع فرعون، وما سيحصل له؛ لأنهم إذا عرفوا أنه موسى فسيؤمنون به ويتركون فرعون

فسنقتلهم لأنهم تحت سيطرتنا ونحن قاهرون لهم ومتمكنون منهم.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴿١٢٨﴾﴾ أمر موسى قومه أن يطلبوا العون من الله سبحانه وتعالى، وأن يصبروا على البلاء الذي يلحقهم من فرعون، فالعاقبة ستكون لهم، وأخبرهم أنهم سيرثون الأرض في آخر الأمر، وأن النصر سيكون حليفهم، فما عليكم إلا أن تصبروا والفرج لا يأتي إلا بعد الصبر.

﴿قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ قالت بنو إسرائيل لموسى شاكية إليه: نحن تحت سيطرة فرعون وظلمه من قبل أن تأتينا يا موسى ومن بعدما جئتنا.

﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ قال موسى هذا القول لبني إسرائيل لأن الله سبحانه وتعالى قد وعده بأنه سينصره وسيهلك فرعون ومن

معه، وقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالىٰ أن النصر والظفر لا يأتي للأنبياء إلا بعد ابتلاء وتمحيص وطول مدة.

﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴿١٢٩﴾﴾ سيهلك الله تعالىٰ عدوكم فرعون، وستخلفونه في الأرض؛ ليختبركم كيف سيكون حالكم عندما يمكنكم فيها؟ هل ستطيعونه، أم ستعصونه وتفعلون مثل فرعون ومن سبقه، ممن تمردوا وعاثوا في الأرض فساداً؟

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴿١٣٠﴾﴾ بعد قصة موسىٰ والسحرة استمر فرعون في قتل أبناء بني إسرائيل وظلمهم وقهرهم، ثم إن الله سبحانه وتعالىٰ ابتلاه بالجدب وقلة الأمطار- لعلهم يتراجعون عن كفرهم وتمردهم ويرجعون إليه سبحانه.

﴿فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ﴾ عندما أرسل الله سبحانه وتعالىٰ موسىٰ إلىٰ آل فرعون وقد مكث في دعائهم إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ نحواً من أربعين سنة فكانوا إن أصابهم خير وأمطار قالوا: لم ينزل علينا هذا الخير إلا لأنا نستحقه ونحن أهل لذلك، وإن أصابهم جدب أو مرض أو نقص في الأمطار والثمار قالوا: هذا من شؤم موسىٰ وأصحابه.

﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴿١٣١﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن شؤمهم من عند الله سبحانه وتعالىٰ، وأنه إنما يجازيهم علىٰ سوء أعمالهم، وهم يظنون مع ذلك أنهم في خير العمل.

﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴿١٣٢﴾﴾ قال آل فرعون لموسىٰ: لن نصدقك مهما أتيت به من الآيات، ولن نؤمن بك، فلا تتعب نفسك.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴿١٣٣﴾﴾ أرسل الله عليهم هذه الآيات

لأجل أن يذكَّروا ويرجعوا إليه، فأرسل الله سبحانه وتعالىٰ عليهم الطوفان وهو فيضان ماء النهر؛ فأفسد مزارعهم ولحق ضرره ببيوتهم وحيواناتهم، ثم أرسل عليهم الجراد تأكل مزارعهم وثمارهم؛ وأهل مصر كانوا أهل زراعة، وكانوا علىٰ طرف النيل، ثم أرسل عليهم القمل يؤذيهم ويقلقهم، ثم أرسل الضفادع فكثرت عليهم، ثم أرسل عليهم الدم، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بكيفية تعذيبهم بالدم، وقد يكون النزيف عن طريق الأنف.

وهذه الآيات التي أرسلها الله سبحانه وتعالىٰ عليهم كانت كل واحدة تلو الأخرىٰ، فلا يخرجون من محنة إلا وتبعتها الأخرىٰ، ولكنهم استكبروا علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ولم تنفع فيهم هذه المصائب، ولم يتواضعوا لربهم ويعلموا أنه قادر عليهم متىٰ أراد، ومكثوا علىٰ كفرهم وتمردهم وإجرامهم وعصيانهم له سبحانه وتعالىٰ.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ كلما وقع عليهم من تلك التي قد ذكرها الله سبحانه وتعالىٰ وقصها في الآية السابقة قالوا لموسىٰ: ادع لنا الله سبحانه وتعالىٰ أن يكشف عنا هذه المحنة، ونحن سنؤمن لك، وسنعطيك بني اسرائيل تأخذهم معك.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ بمجرد أن يرفع الله سبحانه وتعالىٰ عنهم البلاء والمحنة يرجعون إلىٰ حالتهم التي كانوا عليها، وينكثون العهد الذي قد قطعوه لموسىٰ، وينقضونه ويرجعون علىٰ ما كانوا عليه من الكفر والعصيان، وقد أرسل الله سبحانه وتعالىٰ آياته هذه عليهم في مدة دعاء موسىٰ لهم، وهي سنون كثيرة.

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ ثم لما لم تنفع فيهم هذه الآيات انتقم الله سبحانه وتعالىٰ منهم، وأغرقهم في البحر.

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴿١٣٦﴾﴾ أهلكناهم بالغرق بسبب تكذيبهم بآياتنا وغفلتهم عنها، ويسمى المكان الذي غرقوا فيه خليج السويس من البحر الأحمر.

وذلك أن موسى عليه السلام عندما هرب ببني إسرائيل نحو الشام سار بهم إلى أن وصلوا عند البحر، فصار البحر من أمامهم وفرعون وجنوده من ورائهم يطاردونهم، ثم إن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى نبيه أن يضرب بعصاه البحر فانفلقت له طريق في وسطه، وسار بقومه، ثم إن فرعون لحق به فما إن توسط البحر هو وقومه انطبق عليهم، وغرق هو ومن معه بعد أن نجى الله سبحانه وتعالى موسى ومن معه، وكان المفترض بفرعون عندما رأى هذه المعجزة لموسى عليه السلام وانفلاق البحر أن يؤمن عند رؤيته لذلك، ولكن الكبر قد غطى قلبه، والمعاصي قد تمكنت فيه، وبقي على كفره، فعذبه الله سبحانه وتعالى بالغرق هو ومن معه.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ وهم بنو إسرائيل كانوا مستضعفين تحت سيطرة فرعون، وكان مستعبداً لهم.

﴿مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ المغارب هي أرض الشام، وقد بارك الله سبحانه وتعالى في أرضها فكانت أرضاً خصبة، ومشارقها هو ما يلي أرض الشام من العراق، وهي مخططة لليهود في توراتهم، ولا يزالون يدَّعون أنها لهم من عهد موسى.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ حصل وعد الله سبحانه وتعالى لهم بالنصر والظفر والتمكن في الأرض والاستخلاف فيها، وذلك بسبب صبرهم على ما نزل عليهم من البلاء والظلم من فرعون، وصبرهم على إيمانهم، ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ [يونس٨٣]، يعني أن هؤلاء هم الذين آمنوا بموسى، وصبروا معه، وبشرهم الله سبحانه وتعالى بالنصر والظفر حتى أنهم لم يؤمنوا لموسى إلا بتعب ومشقة؛ لأنهم كانوا خائفين من فرعون وبطشه.

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴿١٣٧﴾﴾ أهلك الله سبحانه وتعالى فرعون ودمر مملكته ودمر أرض مصر وأهلك زرعها وثمرها وبخس خيراتها، وقد كان أهل مصر أصحاب صناعة وكانت الصناعة رائجة ومتطورة في ذلك العصر والدليل على ذلك هو ذلك العجل الذي صنعه لهم السامري، وكان لهذا العجل خوار وصوت، وكذلك الأهرامات التي بناها الفراعنة تدل على أنهم كانوا أهل حضارة وأهل تقدم وتطور.

وذهبت مملكة فرعون وانتهت، وقوله ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴿١٣٧﴾﴾ فيه دلالة على أنهم كانوا يزرعون العنب؛ إذ كانوا يعرشون أغصانه على قواعد يجعلونها تمتد عليها، ويزيد ذلك دلالة قوله تعالى في أهل مصر: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف٤٩]، يدل أيضا على أنهم كانوا يعتمدون في معيشتهم على زراعته.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ يعني به لما خرجت بنو إسرائيل من البحر.

﴿فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ مروا في طريقهم على قوم يعبدون الأصنام.

﴿قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ طلبوا من نبيهم موسى عليه السلام أن يصنع لهم إلهاً يعبدونه مثل أولئك القوم، قالوا ذلك وأرجلهم لا زالت خضراء من ماء البحر كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴿١٣٨﴾﴾ فقال لهم موسى عليه السلام أنتم أهل جهالة عظيمة وكبيرة، كيف تقولون هذا القول وأنتم لم تخرجوا إلا هذه اللحظة؟ ولا زلتم قريبي العهد بمشاهدة آيات الله ومعجزاته التي تدل على قدرته وعظمته وربوبيته، ووبخهم موسى عليه السلام أشد التوبيخ على طلبهم هذا، وعنفهم على قولهم هذا.

﴿إِنَّ هَـؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴿١٣٩﴾﴾ وهؤلاء القوم

إنما هم في باطل، ودينهم هذا ليس دين حق وإنما هو دين ضلال وكفر، وعبادتهم هذه باطلة.

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴿١٤٠﴾﴾ أتريدونني أن أدلكم على إله غير الله تعبدونه، وقد فضلكم واصطفاكم على العالمين؟ استنكر موسى عليهم من قولهم ذلك، وكيف يتخذ لهم إلها غير الله سبحانه وتعالى يعبدونه؟! الذي أنقذهم من ظلم فرعون وشق لهم البحر وفضلهم على العالمين.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴿١٤١﴾﴾ اذكروا نعمة الله سبحانه وتعالى عليكم هذه، وهي أن الله سبحانه وتعالى قد أنجاكم من آل فرعون كانوا يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وأي نعمة أكبر من هذه التي أنعم الله سبحانه وتعالى بها عليكم؟

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ مدَّد الله سبحانه وتعالى المهلة لموسى إلى أربعين ليلة ليذهب موسى والسبعون الذين معه من بني إسرائيل إلى الطور؛ ليسمعوا كلام الله سبحانه وتعالى الذي هو التوراة، ويكتبوه في هذه المدة، وهؤلاء السبعون قد اختارهم موسى عليه السلام من خيار بني إسرائيل؛ وذلك ليكونوا شهوداً عند بقية بني إسرائيل على أنهم قد سمعوا كلام الله سبحانه وتعالى، وأن موسى عليه السلام قد جاء به من عند الله سبحانه وتعالى، وكان موسى عليه السلام قد اختارهم لأنه كان يعلم أنهم سينكرون فيما بعد أنه من عند الله سبحانه وتعالى، وأنه إنما يفتري عليهم الكذب، لأن عادتهم التمرد والجحود.

﴿وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴿١٤٢﴾﴾ أمر موسى أخاه هارون بأن يلبث بين بني إسرائيل ليخلفه فيهم، ويقوم عليهم ويرعاهم في غيبته، ويصلح أمورهم إلى أن يرجع بعد أن يكتب التوراة.

﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾ طلب بنو إسرائيل موسى أن يريهم الله سبحانه وتعالى عياناً، وإلا فلن يؤمنوا، فسأل موسى عليه السلام ربه هذا السؤال، وطلب أن يريه الله سبحانه وتعالى نفسه فأجاب الله تعالى فقال: ﴿لَن تَرَانِي﴾.

ولم يسأل موسى هذا السؤال إلا لأجل أن يتأكد بنو إسرائيل أنها لا تصح ولا تجوز الرؤية عليه، وليتيقنوا أنه لا يمكن ذلك، وأما في نفسه فهو يعلم علم اليقين أنه لا يصح، وأن الرؤية لا تجوز عليه سبحانه وتعالى، وسؤالهم هذا من أكبر الكبائر، قال تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً﴾ [النساء١٥٣].

﴿وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ انظر إلى ذلك الجبل فإن ثبت مكانه- فسوف تراني.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً﴾ توجه إليه بقدرته، وأراد أن يدك هذا الجبل فدكه، وحين رأى موسى ذلك خر مغشياً عليه، ومات جميع قومه عندها، ولكن الله سبحانه وتعالى قد بعثهم بعد ذلك وأحياهم من جديد، نعمة أنعم بها عليهم وخصهم بها.

﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴿١٤٣﴾﴾ فلما أفاق موسى عليه السلام من صعقته قال: أنزهك يا الله عن الرؤية وجوازها عليك، وأنا تائب إليك من طلبي هذا لأنه معصية، وأنا أول من آمن بك فتب علي.

توسل موسى عليه السلام إلى ربه بأن يقبل توبته؛ لأنه أول من آمن به ونزهه.

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي﴾ بعدما أفاق موسى من الصعقة أوحى الله سبحانه وتعالى إليه بأنه قد اصطفاه واختاره لحمل الرسالة ولتكليمه.

﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴿١٤٤﴾﴾ نفذ ما أمرتك به على أحسن

وجه، وكن من الشاكرين لهذه النعمة العظيمة التي أنعمت بها عليك.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ كتب موسى والسبعون الذين معه التوراة في الألواح في مدة الأربعين الليلة، وفيها الشرائع والأحكام والمواعظ والعلم والحكمة، ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فيها تفصيل كل الأحكام والشرائع، ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ اعمل بها بجد واجتهاد، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴿١٤٥﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام أن يأمر قومه بأن يعملوا ويأخذوا بالأحسن منها؛ لأنه كان في شريعته الرخص والعزائم، والعزيمة أفضل من الرخصة، فأوحى إليه الله سبحانه وتعالى أن يأمرهم بالأفضل، وكان قد أنزل على موسى عليه السلام أنه سيأمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، فأخبر الله سبحانه وتعالى هنا أنه سيريهم هذه الأرض، وسوف يدخلونها ويسكنونها، وهي أرض العمالقة.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فالمتكبرون عن الحق لن يفهموا الأحكام التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على نبيه موسى عليه السلام، ولن يفهموا شرائعه، وسيصرفها الله سبحانه وتعالى عنهم؛ لأنه لا يوفق لفهم آياته وأحكامه إلا أولئك المتواضعون له ولما جاء به.

﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ لشدة عنادهم وتمردهم وشدة كبرهم إذا رأوا الآيات كفروا بها.

﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ إذا رأوا الحق وعلموا أن هذه هي طريقه انصرفوا عنه ورفضوا الدخول فيه.

﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ فهذه أوصاف المتكبرين الذين سيصرف الله سبحانه وتعالى عنهم آياته وفهمها.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴿١٤٦﴾﴾ ابتعاد المتكبرين عن آيات الله وفهمها والعلم بها هو بسبب تكذيبهم بها وتوغلهم في اتباع الأهواء

والشهوات فهم لذلك يسلكون سبيل الغي ويتركون سبيل الرشاد لأجل تكذيبهم بآيات الله سبحانه وتعالىٰ وغفلتهم عنها.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ فهؤلاء ولو عملوا أعمال البر فلن تقبل منهم، ولن يقبل الله سبحانه وتعالىٰ منهم أي بر ما داموا مكذبين بالله وبآياته ومستكبرين عنها.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴿١٤٧﴾﴾ فالله سبحانه وتعالىٰ لن يظلمهم عندما يعذبهم؛ لأنهم قد استحقوا العذاب بسبب أعمالهم، وليس إلا جزاءً عليها.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ﴾ عندما ذهب موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لميقات ربه إلىٰ الطور ليكتب التوراة لبني إسرائيل- قام بنو إسرائيل بصنع تمثال علىٰ هيئة العجل ليعبدوه، ويتخذوه إلهاً من دون الله سبحانه وتعالىٰ، وادعوا أنه إلههم وإله موسىٰ، فانظر لشدة تمردهم علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ؛ فما إن غاب نبيهم عنهم حتىٰ رجعوا إلىٰ الكفر والشرك، وحنُّوا إلىٰ عاداتهم القديمة، وهذا مع معرفتهم بصدق نبوة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وصدق ما جاءهم به، ومعرفتهم بالله سبحانه وتعالىٰ وآياته وحججه، ففي هذا أكبر دليل علىٰ أنهم يستحقون أن يعذبهم الله سبحانه وتعالىٰ أشد العذاب، وهذا العجل الذي اتخذوه وصنعوه كان له صوت مثل صوت البقرة.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ وإنما يصدر منه الخوار فقط، فلا ينفعهم ولا يضرهم بشيء، ولا يملك من صفات الإلهية شيئاً.

﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ﴿١٤٨﴾﴾ كانوا ظالمين بسبب عبادته من دون الله سبحانه وتعالىٰ؛ وذلك لأن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وهم قد وضعوا العبادة لمن لا يستحقها، فسماهم الله ظالمين بسبب هذا.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فَى أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴿١٤٩﴾﴾ هؤلاء الذين عبدوا العجل تابوا وندموا،

وذلك بعد أن رجع إليهم موسىٰ ووبخهم ووعظهم، وأحرق هذا العجل، وطرد السامري، فعند ذلك علموا بخطئهم فندموا عليه.

معنىٰ ﴿سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾: رأوا وعلموا سوء فعلهم.

فحين تابوا تاب الله سبحانه وتعالىٰ عليهم وقبل توبتهم، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ لم يقبل توبتهم إلا بشرط أن يقتلوا أنفسهم.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفاً﴾ رجع من ميقات ربه من جبل الطور، ورأىٰ منهم ما كبر في نفسه، وامتلأ غيظاً وغضباً من فظاعة ما رآه منهم.

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ بئس هذا العمل السيئ الذي فعلتموه حين ذهبت من عندكم.

﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ لماذا استعجلتم ولم تنتظروا إلىٰ أن آتيكم بحكم الله سبحانه وتعالىٰ وأمره الذي غبت عنكم هذه المدة لأجله؟ والمراد به التوراة.

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ من شدة الغضب ألقىٰ من يده الألواح التي قد ذهب لكتابتها في الطور ولم يلقها استهانة بها، وإنما ألقاها لحدوث ما هو أعظم من الاهتمام بها.

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ ظنًّا منه أنه قد فرط في وصيته له بإصلاح بني إسرائيل ودفع المفاسد عنهم.

﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾ قال هارون لأخيه موسىٰ: لم أفرط فيهم، ولم أتركهم، وقد حاولت في منعهم، ولكنهم قد استضعفوني، ولم يستمعوا إلي حتىٰ كادوا يقتلونني.

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ لا تفعل بي ما يبعث عدوي علىٰ الشماتة بي.

﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ لا تحكم علي بالعصيان؛ فقد رفضت عملهم هذا، ونهيتهم عنه، ولكنهم لم ينتهوا.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ۝١٥١﴾
دعا موسى عندما عرف براءة أخيه هارون لنفسه ولأخيه هارون فقط دون بقية القوم؛ لأنهم كانوا قد ضلوا جميعاً السبعون الذي ذهبوا معه إلى الطور لكتابة التوراة والذين تركهم عند أخيه هارون عليه السلام كلهم ضلوا وفسقوا عن أمر الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ۝١٥٢﴾ سيجازيهم الله سبحانه وتعالى حتى في الدنيا بسبب عصيانهم وتمردهم وكفرهم؛ لأنهم كانوا قد بلغوا الغاية في ذلك، وهذا بعد أن رأوا آيات الله الواضحة وحججه المنيرة، فقد استحقوا غضب الله سبحانه وتعالى وسخطه في الدنيا والآخرة.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ۝١٥٣﴾ مهما عمل الإنسان من المعاصي فباب التوبة مفتوح له، وهذا من رحمته جل وعلا بعباده.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ۝١٥٤﴾ لما هدأ موسى وسكنت أعصابه، وعندما انتهى من قضية العجل- أخذ الألواح بعد أن كان قد ألقاها من يده، وبدأ يلقنهم ويعلمهم ما شرع الله سبحانه وتعالى لهم فيها من الأحكام والشرائع التي فيها هداهم، إلا أنه لا ينتفع بها إلا الذين يخافون ربهم ويخشونه.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا﴾ كان موسى عليه السلام قد سأل الله سبحانه وتعالى الرؤية، ولم يكن سؤاله هذا لشك في نفسه تجاه ربه، وإنما السفهاء من بني إسرائيل كانوا قد ألجأوه إلى ذلك وألحوا عليه؛ لأنه عليه السلام كان يعرف الله سبحانه وتعالى حق معرفته، وأنه ليس من جنس المرئيات، وأنه ليس كمثله شيء، وإنما أراد بذلك أن يقتنعوا من عند الله سبحانه

وتعالى بعدم صحة رؤيته؛ لأنه قد حاول إقناعهم ولكنه لم يفلح في ذلك؛ فأجابهم الله سبحانه وتعالى بالرجفة ودك الجبل وبصاعقة أنزلها بهم؛ ليعرفوا أن ما سألوه معصية كبيرة؛ لأن طلب رؤيته سبحانه وتعالى كفر، ولذا عذبهم الله سبحانه وتعالى بما عذب به الكافرين الذين سبقوهم من قوم هود وصالح وغيرهم بالصاعقة.

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء﴾ عندما سمعوا كلام الله سبحانه وتعالى افتتنوا في أنفسهم، وكان ذلك اختباراً منه جل وعلا لهم؛ لأنهم لما سمعوا كلامه قالوا: ما دمنا قد سمعنا كلامه فيصح أن نراه ونشاهده، هكذا توهموا فطلبوا رؤية ربهم.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴿١٥٥﴾﴾ ندم موسى على سؤاله لربه هذا السؤال، وطلب منه التوبة والمغفرة.

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَـا إِلَيْكَ﴾ وهذا من بقية دعاء موسى عليه السلام بعد نزول الصاعقة، دعا ربه بالمغفرة والرحمة وتوسل إليه.

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى بأن هذا هو عذابه يعذب به من يشاء، وهو سبحانه لا يعذب إلا من استحق العذاب.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ورحمة الله التي وسعت كل شيء هي خاصة للدين يتقون معصية الله سبحانه وتعالى ويخافون منه، والضمير في «سأكتبها» عائد على الرحمة، والرحمة من الله سبحانه وتعالى معناها التوفيق والتسديد والهداية والدلالة على الخير والألطاف والسعة في الرزق والعافية وطول العمر والبركة في المال والأولاد، والمغفرة والثواب والجنة، فهي عامة لخير الدنيا والآخرة.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴿١٥٦﴾﴾ فهؤلاء هم الذين يستحقون رحمة الله سبحانه وتعالى دون أولئك.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ لا يعطي رحمته إلا لأهل هذه الصفات، وهم مأمورون باتباع الرسول ﷺ من عهد موسى، وكان ذلك مما قرأه عليهم فيها وأمرهم به وبالإيمان به متى بعثه الله سبحانه وتعالى لذلك خرج اليهود من الشام مهاجرين إلى يثرب (المدينة المنورة) فسكنوا فيها وحولها منتظرين بعث النبي محمد ﷺ ليؤمنوا به وينصروه ويقاتلوا بين يديه فلما بعثه الله كفروا به.

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ كان الله سبحانه وتعالى قد كلف بني إسرائيل بتكاليف شاقة جزاءً على معاصي اقترفوها، فأخبر الله سبحانه وتعالى بأنه سيبعث نبياً هذه صفته، وأمرهم بالإيمان به واتباعه لينالوا رحمته، وأخبرهم بصفاته، ومنها أنه سيحط عنهم هذه التكاليف التي قد شدد الله عليهم فيها بسبب ذنوبهم.

﴿وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ يعني بها الأثقال التي قد حملهم إياها الله سبحانه وتعالى، وهي التكاليف.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ آمنوا بالنبي ﷺ، وعزروه ونصروه. كلمتان مترادفتان.

﴿وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِىَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿١٥٧﴾﴾ فهؤلاء هم الذين سيفوزون ويظفرون برحمة الله سبحانه وتعالى وثوابه في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يخبر جميع الناس العرب منهم والعجم، واليهود والنصارى، وأهل الأديان جميعاً، وكذلك المشركين وغيرهم بأنه نبي مرسل إليهم من الله سبحانه وتعالى.

﴿الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـى وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أمرهم بأن يؤمنوا بالله سبحانه وتعالىٰ وبالنبي الذي هذه صفته، وهي أنه يؤمن بالله وبجميع ما نزل من عنده.

﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴿١٥٨﴾﴾ لتدخلوا في سلك المهتدين، ولن تسموا مهتدين إلا إذا اتبعتموه.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴿١٥٩﴾﴾ كان قد بقي قلة قليلة من بني إسرائيل في عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يعرفون الحق والهدىٰ ولم يكن الحق قد انطمس تماماً بين اليهود.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ كانت اليهود اثنتي عشرة قبيلة، وكل قبيلة منفصلة عن الأخرىٰ؛ لأن نبي الله سبحانه وتعالىٰ يعقوب -وكان اسمه إسرائيل- كان له اثنا عشر ولداً، وكل واحد منهم ترك ذرية.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ أوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما طلب منه بنو إسرائيل الماء- أن يضرب الحجر بعصاه، فضربها فتفجرت من هذه الحجر اثنتا عشرة عيناً.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ فكان لكل قبيلة من هذه القبائل عين يشرب منها؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ قد علم أنهم سيتقاتلون ويتنازعون إذا اجتمعوا علىٰ الماء؛ لأنهم أهل عناد وشقاق واختلاف، فأخرج لهم هذه الاثنتي عشرة عيناً، لكل قبيلة عين يستقي منها، فقسمها موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بينهم، ونهاهم أن يعتدي أحدهم علىٰ الآخر.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ مكثوا في التيه أربعين عاماً؛ فجعل الله سبحانه وتعالىٰ لهم الغمام يظلهم من حر الشمس؛

لأنهم بعد أن خرجوا من مصر أمرهم الله سبحانه وتعالى أن يدخلوا الأرض المقدسة التي جعلها وطناً لهم وبلاداً يسكنونها، فرفضوا أمر الله سبحانه وتعالى، واعتلوا بأن فيها قوما جبارين، وقالوا لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، فحينئذ حرم الله سبحانه وتعالى هذه البلاد عليهم أربعين سنة فلا يدخلونها، إلا بعد مضي هذه المدة، وضرب عليهم التيه، وهو الضياع والضلال في الأرض، فلا يهتدون إلى طريق، ويسيرون على غير هدى، يمسون حيث يصبحون، ويصبحون حيث يمسون، وعلى هذا؛ لمدة أربعين سنة، والأرض هذه التي تاهوا فيها أرض صحراء على طريقهم إلى أورشليم، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى لهم المن والسلوى وهم في أرض التيه، وهو طعام ينزله الله سبحانه وتعالى وهو جاهز للأكل، والمن هو اللحم المشوي، وقد قيل: إنه من طير يقال له: السمن، والسلوى: شراب على صفة العسل، فبالرغم من عصيانهم وتمردهم لا زال الله سبحانه وتعالى يقلبهم بين نعمه، مما يدل على عظيم كرمه وغناه، فهو سبحانه يمهل ولا يهمل.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿١٦٠﴾﴾ بتمردهم وعصيانهم، وإنما ظلموا أنفسهم وضروها.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ وهي التي كتبها الله سبحانه وتعالى لهم، ويقال لها: أورشليم، وقد دخلوها بعد انتهاء مدة التيه التي ضربها الله سبحانه وتعالى عليهم، وفي مدة التيه مات موسى وهارون فبعث الله سبحانه وتعالى بعدهما يوشع بن نون، وهو الذي أمرهم بالدخول، ودخل بهم، وكان يقال له: فتى موسى لأنه كان صاحبه الخاص، وأشد الناس قرباً منه.

﴿وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴿١٦١﴾﴾ أمرهم الله سبحانه وتعالى بدخول القرية، وشرط عليهم أن يستغفروا حال دخولهم، وأن يقولوا: يا الله، حط عنا ذنوبنا،

وهذا معنى: ﴿حِطَّةٌ﴾، وأمرهم أن يدخلوها وهم متواضعون وخاضعون لله سبحانه وتعالى، ولا يدخلوها دخول المستكبرين، بل متذللين خاضعين شاكرين نعمة الله سبحانه وتعالى عليهم، وسائلين له أن يحط عنهم ذنوبهم، وأن يلتزموا بأوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه.

ورسول الله ﷺ حين دخل مكة فاتحاً كان في أشد الخضوع والتذلل لله سبحانه وتعالى، وكان يكثر من الدعاء بالمغفرة والرحمة، شاكراً لله سبحانه وتعالى على ما منحه من النصر والظفر.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ فبدلوا الاستغفار حين دخولهم بكلام فيه السماجة والسخرية والاستهزاء.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴿١٦٢﴾﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالى أنزل عليهم العذاب بسبب عصيانهم هذا، وتمردهم واستهزائهم ومخالفتهم لما أمرهم الله به.

ذكر الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ أفعال بني إسرائيل بأنبيائهم؛ وقد كانوا يقولون للنبي ﷺ: نحن شعب الله المختار، ونحن صفوة الله من خلقه، والمفضلون على جميع العالمين، والجنة لهم، ولن يدخلها أحد غيرهم، فأخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأعمالهم هذه ليطلعه على حقيقة أمرهم.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه فقال: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ كان اليهود يخفون هذه الحادثة والقصة، ولا يطلعون أحداً عليها لشدة شناعتها وفظاعتها؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى كان قد مسخهم قردة بسبب ما فعلوه، فأمره الله سبحانه وتعالى أن يسألهم عنها، وكانت على ساحل البحر.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ﴾ كان يوم السبت يوم عيد لهم قد حرم الله سبحانه وتعالى عليهم فيه أي عمل يعملونه من شؤون الدنيا.

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴿١٦٣﴾﴾ وهذا اختبار من الله سبحانه وتعالىٰ لهم، فكانت الحيتان في يوم السبت تظهر علىٰ وجه الماء، وعلىٰ طرف الساحل، وفي غيره من الأيام تذهب وتختفي، وقد جعل الله سبحانه وتعالىٰ هذا الامتحان والابتلاء جزاءً علىٰ أعمالهم القبيحة التي كانوا يعملونها، فقد سلبهم ألطافه؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ لا يمنحها إلا لأوليائه وعباده المؤمنين، ويجنبهم مثل هذه المحن والفتن التي تعرض لها بنو إسرائيل ثم إنهم خرجوا لاصطيادها في يوم السبت واستمروا علىٰ ذلك وكانت طائفة منهم ينهونهم ويعظونهم ويحذرونهم من عصيانهم، ولا زالوا يحذرونهم ويعظونهم ولكنهم لم يقلعوا ولم ينتهوا.

﴿وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ كان هناك قوم يقولون لهؤلاء الناهين عن المنكر: لماذا تعظونهم، والله تعالىٰ سيعذبهم لا محالة وسيهلكهم؟ ولماذا تنهونهم ما داموا قد استحقوا ذلك؟ فأجابهم هؤلاء الناهون عن المنكر: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ فقالوا: ليكون ذلك عذراً لنا عند الله سبحانه وتعالىٰ، وتبليغاً للحجة التي نحن مأمورون بتبليغها، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴿١٦٤﴾﴾ عسىٰ أن ينفع وعظنا لهم فيرجعوا إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾ فلما لم يؤثر فيهم ما ذكرهم به أولئك، فلم يسمعوا ولم ينزجروا.

﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ عذبهم الله وأنجىٰ أولئك الذين كانوا ينهون عن المنكر.

﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴿١٦٥﴾﴾ عذب الباقين وهم الذين كانوا يذهبون للصيد، والساكتين الذين لم يأمروا بمعروف ولم ينهوا عن منكر.

﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ۝١٦٦﴾ عندما تركوا الرجوع والانتهاء وتكبروا على الله سبحانه وتعالى- مسخهم الله سبحانه وتعالى فأصبحوا قردة، ومكثوا على هذه الحال -كما قيل- ثلاثة أيام ثم ماتوا بعد ذلك.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أعلن الله سبحانه وتعالى على ألسنة رسله وأنبيائه أنه سيبعث على بني إسرائيل من يلحق بهم الأذى والعذاب، وسيسلط عليهم من يعذبهم إلى يوم القيامة، وسينكل بهم ويذلهم بسبب معاصيهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ إذا أراد أن يعذب قوماً فلا راد لعذابه.

﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ۝١٦٧﴾ لمن رجع إليه وتاب وندم.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالى مزقهم في الأرض وشتت شملهم، وفرقهم في البلاد بأن سلط عليهم من يقصدهم بالقتال في بلادهم، فهربوا وتشردوا عن بلادهم -وهي الشام- وتشتتوا في كل بلاد، ولم يجتمعوا إلا بعد الحرب العالمية الثانية، فحينها رجعوا إلى القدس، وجعلوها وطناً لهم.

﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ قلة منهم صالحون، والباقي على خلاف ذلك.

﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ۝١٦٨﴾ يبتليهم الله سبحانه وتعالى تارة بالخير وتارة بالشر، يقلبهم في ذلك- لعله ينفع فيهم فيرجعوا إليه.

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ تركوا ذراري بعدهم.

﴿وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـذَا الأدْنَى﴾ ورثوا عنهم التوراة فحرفوها، وكانوا يأخذون الرشوة على ذلك، فيفتون من يدفع لهم على حسب ما أراد، وعلى حسب ما يدفعه، فحرفوا كتاب الله سبحانه وتعالى وبدلوه.

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ كانت لهم أماني يختلقونها، فكانوا يقولون: نحن أهل التوراة وأهل الله وخلفاؤه في أرضه، وسيغفر الله سبحانه وتعالى لنا؛ لأنا أهل المغفرة وأحباب الله وأهل كرامته.

﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ أصبحت الرشوة طبيعة لهم، فكانوا يأخذونها باستمرار، ويغيرون ويحرفون ويبدلون التوراة على حسب ذلك.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ استنكر الله تعالى عليهم لماذا لا يحكمون بالحق وبما جاء في التوراة وقد عاهدوا الله سبحانه وتعالى على ذلك وقد أخذ عليهم المواثيق والعهود على أن يقيموا أحكام التوراة.

﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ وهم مع ذلك عالمون بما جاء في التوراة، وهم أهل بصيرة وعلم.

﴿وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴿١٧٠﴾﴾ الذين تمسكوا بالتوراة وما نزل فيها ولم يضيعوها، وعملوا بما جاء فيها- فسيوفيهم الله سبحانه وتعالى أجورهم.

﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴿١٧١﴾﴾ عندما رجع موسى عليه السلام من ميقات ربه بالتوراة وقرأها عليهم، وأمرهم أن يعملوا بما فيها- حينها رفضوا ذلك وتمردوا عليه، ثم إن الله سبحانه وتعالى رفع فوقهم جبل الطور كأنه ظلة فوقهم، مهدداً لهم به إن لم يمتثلوا ما جاءهم فيها، ويعطوا العهود والمواثيق على ذلك ليوقعنه عليهم.

يذكر الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يهود المدينة الذين في زمانه أن يتذكروا هذه القصة التي قد مضت على آبائهم، وكيف عاهدوا على العمل بالتوراة؛ لعلهم يؤمنون به إذا تذكروا ذلك، وكان من ضمن ما نزل في التوراة ذكر أوصافه صلى الله عليه وآله وسلم، وأمرهم بالإيمان به ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف١٥٧].

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴿١٧٢﴾﴾ بنو آدم يتناسلون

نطفاً من أصلاب الرجال، فتصبح هذه النطفة إنساناً سوياً؛ فأخذ الله سبحانه وتعالى العهد على هؤلاء الذين قد صاروا بشراً يعقلون، وليس كما يقول البعض: إن الله سبحانه وتعالى أخرج بني آدم كالذر من ظهر أبيهم آدم، وأخذ العهد عليهم في تلك الحال.

والمراد أن الله سبحانه وتعالى قد ركز في العقول، وجعل فيها قوة يستطيع الإنسان من خلالها أن يعرف الله سبحانه وتعالى، ويعرف وحدانيته وربوبيته، وقد فطره على ذلك، وليس المراد بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى﴾ أن الله سبحانه وتعالى خاطبهم فأجابوه، بل المراد من ذلك هو الذي ذكرناه في العقل، وما قد ركز الله سبحانه وتعالى فيه؛ إذ أن كل مَنْ خلق الله سبحانه وتعالى له عقلاً فهو معترف بالله سبحانه وتعالى.

وذلك لأنه سبحانه وتعالى قد هيأه لذلك، فإذا نظر في السموات والأرض وما فيهما فحتماً سيوصله ذلك إلى العلم اليقين بأنه لا بد لهذا الخلق من خالق، وهكذا إلى أن يتوصل إلى أن هذا الخالق ليس من جنس هذه المخلوقات، ولا يشبهها، فانظر إلى الطفل ما إن يكبر قليلاً حتى يبدأ يتساءل ويسأل والديه من أين جاء؟ ومن الذي أوجده؟ ومن الذي خلق هذا؟ وخلق ذاك؟ وعلى مدى الأيام يظل كذلك إلى أن توصله فطرة عقله إلى الحقيقة التي تسكن لها نفسه، وتطمئن إليها غريزته، وهو أن هذا الفعل لا بد له من فاعل أوجده، وصانع صنعه، وأنه لم يوجد من العدم، وأن كل ما يشاهده في هذا الكون من التغيرات كسير الشمس والقمر، وتقلب الليل والنهار، ونزول الأمطار، ووجود النبات وكيفية إنباته أنه لا بد لهذه الأشياء من فاعل فعلها، ومدبر قائم عليها، وأنه ذو قدرة عظيمة، وحكيم وغني، وأنه لا يصح عليه النوم ولا الغفلة، و..و..و. إلخ، وأنه ليس كمثله شيء.

هذا، وقد جعله الله سبحانه وتعالىٰ حجة علىٰ الإنسان حتىٰ إذا جاء يوم القيامة سيسأله الله سبحانه وتعالىٰ لماذا كذبت ولم تؤمن؟ ولماذا كفرت وجحدت مع أني قد جعلت لك عقلاً تعرفني من خلاله، وتعرف أني الإله الحق الذي تحق له العبادة والطاعة؟ قال تعالىٰ: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴿١٧٢﴾﴾ فكل عاقل لا بد أن يفكر، ولا بد أن يوصله تفكيره إلىٰ معرفة الله سبحانه وتعالىٰ وربوبيته.

فعُبَّاد الأصنام، والذين يعيشون بينهم، والذين يعيشون في بلاد الكفر حالهم كحال غيرهم في معرفة الله سبحانه وتعالىٰ، غير أن الأوهام التي قد ملئوا عقولهم بها، والخرافات التي يحكونها لهم قد غطت علىٰ الحقيقة التي في عقولهم، وكذلك الهوىٰ الذي في أنفسهم قد منعهم عن إنصاف النظر، وداعي الفطرة لايزال يدعوهم إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وأنه الإله الحق الذي يستحق الربوبية والعبادة، ويعرف أيضا أن هذه الأصنام التي يعبدها لا تستحق شيئا من هذا الذي يعطيها غير أنه يغالط نفسه، ويعرض عن هذه الحقائق كلها، فيستجيب لدواعي الشيطان والهوىٰ والضلال من حوله، نعوذ بالله من ذلك كله.

﴿أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴿١٧٣﴾﴾ فلن ينفعكم أن تعتذروا بأن آباءكم كانوا مشركين وقد فعلتم مثلهم عندما رأيتموهم، فهذه أعذار واهية وساقطة، ولن تنفعكم؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ قد جعل لكم العقول التي تجعلكم تميزون بين الحق والباطل إذا استعملتموها، فما إن ينظر العاقل في الآيات التي قد بثها الله في السماوات والأرض حتىٰ يتوصل إلىٰ معرفته حق المعرفة؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ قد فطره علىٰ ذلك، وعلىٰ التفكير الذي يوصله إلىٰ ذلك.

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴿١٧٤﴾﴾ يفصل الله سبحانه وتعالىٰ ويوضح آياته للمشركين ولبني إسرائيل عسىٰ أن تنفع فيهم ليرجعوا إليه.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِىَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ قص عليهم يا محمد قصة ذلك الرجل الذي أعطاه الله سبحانه وتعالىٰ علم التوراة فانسلخ منها، وتركها وترك العمل بما فيها، وكان ذلك الرجل في عهد موسىٰ عليه السلام.

﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴿١٧٥﴾﴾ ثم إن الشيطان سيطر عليه، وتمكن منه، ومن إدخاله في الكفر والضلال.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ لو شاء الله لرفعه علمه هذا الذي أعطاه الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ولكنه مال إلىٰ هوىٰ نفسه وشهواتها، وبسبب ذلك لم يستحق أن يرفعه الله سبحانه وتعالىٰ في الدنيا.

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ فحاله كحال الكلب إن طردته يلهث، وإن تركته يلهث، وهذا الرجل اسمه بلعام بن باعوراء، فلما لم يعمل هذا الرجل بعلمه، واتبع شهواته وهوىٰ نفسه أسقط الله سبحانه وتعالىٰ قدره في الدنيا، فصار حاله كحال الكلب في الخسة.

﴿ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ فبنو إسرائيل حالهم كحال هذا الرجل الذي هو كالكلب حين لم يؤمنوا بك يا محمد، وقد عرفوا أنك نبي صادق من عند الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴿١٧٦﴾﴾ لعلهم يتفكرون ويرجعون عن كفرهم وتمردهم وضلالهم.

﴿سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴿١٧٧﴾﴾ هذا المثل السيئ قد انطبق عليهم، وقد استحقوا المذلة والهوان والصغار بسبب تكذيبهم بآيات الله سبحانه وتعالىٰ، وقد جنوا علىٰ أنفسهم بسبب تكذيبهم هذا وظلموها، واستحقوا العذاب بما جنته أيديهم.

﴿مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴿١٧٨﴾﴾ من هداه الله سبحانه وتعالىٰ وأخبر أنه مهتدٍ فهو المهتدي بحق، ومن أخبر أنه ضال

فقد استحق الضلال والخسران، وبنو إسرائيل لن ينفعهم قولهم بأنهم هم المهتدون وغيرهم في ضلال، بل من حكم الله سبحانه وتعالىٰ بهداه فهو المهتدي، ومن حكم بضلاله فهو الضال والخاسر.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ ذرأهم الله سبحانه وتعالىٰ في القبور، وهو الذرء الثاني، وأما الذرء الأول فهو الذي يكون في أرحام النساء، فبعد أن يذرأهم الله سبحانه وتعالىٰ في القبور سينبتون يوم القيامة كالحبة يضعها المزارع في الأرض، فتنبت بعد ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ۝٧٩﴾ [المؤمنون]، أي: الذرء الثاني، وسيذرأهم الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ جهنم وبئس المصير.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ خلق الله سبحانه وتعالىٰ لهم قلوباً يستبصرون بها ويعرفونه من خلالها، ولكنهم لم ينتفعوا بها، والمراد بالقلوب: العقول.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ لا يبصرون بها مراشدهم، ولا يبصرون بها الحق وأنوار الهدىٰ ويسيرون فيها، بل مكثوا علىٰ ضلالهم وغيهم وباطلهم.

﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أعطاهم الله سبحانه وتعالىٰ السمع فلم يسمعوا إلىٰ الحق ويتبعوه، بل ضلوا كالأصم الذي لا يسمع شيئا.

﴿أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ۝١٧٩﴾ فأولئك الذين ذرأهم الله سبحانه وتعالىٰ لجهنم هم أهل هذه الصفات فهم كالأنعام، بل وأضل من الأنعام، فهؤلاء هم الغافلون عن ذكر الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ تمدح الله سبحانه وتعالىٰ بأن له هذه الصفات والأسماء، وهي خاصة به، وقد أمرنا بتسميته بها، كقادر وعظيم وعالم...إلخ، وليس للأصنام من أسمائه الحسنىٰ نصيب بل هو الله تعالىٰ المختص بها.

﴿وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَآئِهِ﴾ اتركوا أولئك الذين يسمون بأسماء الله سبحانه وتعالىٰ غيره من الأصنام، فيميلون بأسمائه إلىٰ غيره.

﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ۝١٨٠﴾ سوف يجازيهم الله سبحانه وتعالى على أعمالهم هذه، وعلى تسمية غيره بأسمائه.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ۝١٨١﴾ وهم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا اختلفت الأمة وصارت أحزاباً وفرقاً شتى- فلا بد من فرقة بينهم تكون على الحق، وكل الأمم كذلك على مر العصور، فلا بد لكل أمة في كل زمان من الاختلاف والتفرق، وفرقة واحدة هي التي تكون على الحق، وبنو إسرائيل كذلك قد اختلفوا، وكان منهم فرقة على الحق كباقي الأمم.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ۝١٨٢﴾ يقربهم إليه ثم يأخذهم، وذلك بأن يسبغ عليهم نعمه، ويتركهم يسرحون ويمرحون في الأرض ويتمتعون فيها، ألا ترى لو فرت عليك بهيمة من بين بهائمك فإنك تتحيل لها الحيل لكي تمسك بها، فتضع العلف أمام عينيها، وتتلطف لها إلى أن تطمئن وتتمكن منها ثم تأخذها، ويسمى هذا الاستدراج، وليس معنى ذلك في حق الله سبحانه وتعالى أنه غير متمكن إلا بالاستدراج، وإنما على سبيل التمثيل والتفهيم.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ۝١٨٣﴾ يمهلهم الله سبحانه وتعالى ويمد لهم في الأعمار، ويبسط لهم في الأرزاق، ويتركهم في غيهم وضلالهم، ولا يعاقبهم؛ فيظنون عند رؤية ذلك أنهم في خير العمل، وأنهم على الطريق المستقيم حتى يباغتهم ويأخذهم فجأة، فهذا هو الكيد من الله سبحانه وتعالى.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ يحث الله سبحانه وتعالى المشركين واليهود على النظر والتفكر في شأن محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمره، وكانوا يتهمونه بالجنون والسحر، وأنهم لو نظروا وتفكروا في أمره حق التفكر لعرفوا أنه ليس كما يتهمونه.

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ۝١٨٤﴾ وله علامات واضحة وصفات تدل على صدق ما يدعي، وأنه نبي مرسل من عند الله سبحانه وتعالى، وليس فيه ما يدل على ما يتهمونه به من الجنون والسحر.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ﴾ لم يأت بشيء غريب فانظروا وتفكروا في ملكوت السماوات والأرض وسوف تعرفون صدق ما جاءكم به، وأنه نبي مرسل من عند الله سبحانه وتعالىٰ، وستعرفون الله سبحانه وتعالىٰ حق معرفته، وأنه الإله الحق الذي يستحق العبادة والربوبية وحده، وستعرفون أن هذه الأصنام لا تملك من صفات الإلهية شيئاً، يحثهم الله سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية علىٰ النظر والتفكر لعلهم يؤمنون.

﴿وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ فلماذا لا تخافون من الله سبحانه وتعالىٰ وتؤمنون به، فلعل أجل عذابكم قد اقترب وأوشك علىٰ الحلول بكم، أليس من شأن العاقل أن يتحذر إذا أخبره مخبر بأنه قادم علىٰ أمر خطير؟ أليس من شأن العاقل أن يأخذ حذره ويستعد بما أمكنه لدفع الخطر، فكل عاقل سيحذر هذا الأمر المحتمل لا محالة، فما دام الأمر هكذا فكيف إذا كان الذي أخبركم بهذا الأمر الخطير الذي أنتم قادمون عليه هو محمد ﷺ؟ وأتىٰ بأدلة واضحة، وبمعجزات خارقة تؤيد صدق ما يقول، وهذا مع ما قد عرفتموه من صدقه وأمانته، فلماذا لا تحذرون ما قد أنذركم به وتستعدون له؟ أين عقولكم عن كل هذا؟ لماذا لا تطلبون لأنفسكم سبيل النجاة؟

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٥﴾ فإذا لم يؤمنوا بهذا الحديث الحق، ويصدقوا به وهو بهذه الصفات الجامعة لكل صفات الصدق والحق، فلا يتوقع منهم أن يصدقوا بحق ولا صدق.

﴿مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾ من أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه ضال وحكم عليه بالضلال فلن يحكم بهداه أحد.

﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٨٦﴾ فمن كان من أهل الضلال فالله سبحانه وتعالىٰ سيتركه في ضلاله وطغيانه، وسيمهله ويستدرجه، فإما أن يتوب، وإما أن يزداد في طغيانه وكفره، فيتضاعف عليه العذاب.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ يسألون النبي ﷺ متى ستقوم القيامة؟ ومتى سيحين وقتها؟

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ فهو وحده يعلم متى وقتها، ولا أحد غيره يعلم ذلك، لا من الملائكة، ولا من البشر، ولا من الجن.

﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾ لن يظهرها إلا الله سبحانه وتعالى وحده.

﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ عظم خبرها في أهل السماوات وفي أهل الأرض، وكبر شأنها في نفوسهم، فلا يعلمون من أمرها شيئاً.

﴿لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ على غير استعداد لها وإنما ستباغتهم.

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يسألونك يا محمد كأنك قد ألححت على الله سبحانه وتعالى حتى أطلعك على أمرها، وكأنك تكثر عليه في السؤال عنها وتتابع أخبارها، ويظنون أن جواب ما يسألون عنه عندك.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴿١٨٧﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يخبرهم بأنه لا يعلم من شأنها وأمرها شيئاً، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي قد اختص بعلمها.

﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ فلن أستطيع أن أجلب لنفسي نفعاً، ولا أن أدفع عنها ضراً، فالنفع والضر بيده وحده، وتحت مشيئته، ولو كنت أعلم الغيب لاستطعت أن أتجنب أسباب كل ما يضرني، ولرتبت جميع أموري حتى لا يبقى مجال لأي شر أو ضر، ولتجنبت كل ما علمت أنه سيضرني، ولجلبت كل ما أجد أنه سوف ينفعني.

﴿إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴿١٨٨﴾﴾ لست إلا رسولاً من عند الله سبحانه وتعالى أنذر المجرمين عذاب الله وسخطه، وأبشر المؤمنين بما أعده الله سبحانه وتعالى لهم من النعيم، وأما علم الغيب فلا نصيب لي فيه، ولا أعلم منه شيئاً.

﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ خلقكم من نفس آدم، وخلق لآدم زوجة من جنسه؛ ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ لأنهما إذا كانا من جنس واحد فستسكن النفس وتطمئن وتستأنس كل نفس إلى أختها، بخلاف ما لو كانا من جنسين مختلفين.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى عن طبيعة البشر في كيفية التوالد والتناسل والحمل، وليس المراد به آدم حين تغشى حواء.

﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا﴾ فمن حين بلوغها نحواً من الشهر السابع في الحمل يبدآن باللجوء إليه سبحانه وتعالى والتضرع والإخلاص في الدعاء له.

﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ۝١٨٩﴾ عهداً يعاهدان الله سبحانه وتعالى به.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا﴾ فحين أتاهما المولود معافى سليماً صحيحاً جعلاه عبداً لصنم أو نحوه، وجعلوا للأصنام نصيباً فيه، أو يجعلانه من سدنة هذا المعبد وخادماً لهذه الآلهة، ونسياً ذلك العهد الذي قطعاه على أنفسهما لله سبحانه وتعالى.

﴿فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ۝١٩٠﴾ بعدما دعوَا الله سبحانه وتعالى أن يأتيهما بهذا المولود الصالح، وبعد أن استجاب الله سبحانه وتعالى لدعائهما رجعا إلى الأصنام، ونسيا ما كانا عاهدا الله سبحانه وتعالى عليه، والله جل جلاله منزه عن الشركاء.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ۝١٩١﴾ كيف يشركون هذا الصنم في العبادة، وهو لا يستطيع فعل أي شيء، ولا تملك الأصنام من صفات الإلهية شيئاً، بل هي في أنفسها مخلوقة.

﴿وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ۝١٩٢﴾ فلا يستطيعون أن يدفعوا عنكم أي مكروه أو ضرر، ولا يجلبون لكم أي منفعة، حتى أنفسهم لا يستطيعون أن يدفعوا عنها شيئاً.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ﴾ إذا ناديتم الأصنام أن تأتيكم فلن تستطيع ذلك.

﴿سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴿١٩٣﴾﴾ فلن يستطيعوا أن يأتوا دعوتموهم أم لم تدعوهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ ينحتون الحجر على صورة شخص ثم يعبدونها، ألا تعلمون أن هذا الذي تعبدونه ليس إلا مخلوقاً مثلكم؟

﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿١٩٤﴾﴾ ادعوهم فانظروا هل سيستجيبون لكم؟ فإن أجابوكم حينئذٍ، وأعطوكم ما تطلبونه منهم- فقد صدقتم في ادعائكم أنها آلهة.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ كلا، ولن يستطيعوا ذلك، وإنما هي تماثيل مصورة على هيئة شخص أو نحوه، فادعوا هذا التمثال، وانظروا هل يستطيع أن يمشي إليكم برجليه؟

﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ وإنما هي صورة فقط، ولا تستطيع فعل أي شيء لكم، لا تبصر بعيونها، ولا تسمع بآذانها؛ لأنها صور ولا تحرك يديها.

﴿قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ﴿١٩٥﴾﴾ ادعوا هؤلاء الذين تعبدونهم، وافعلوا جهدكم معهم، ولا تمهلوني وافعلوا بي ما شئتم أنتم وأصنامكم التي تخوفونني من بأسها وتحذرونني من نقمتها.

﴿إِنَّ وَلِيِّـيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴿١٩٦﴾﴾ فالله ناصري ومؤيدي؛ لأنه سبحانه ناصر الصالحين ووليهم.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ أما هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله سبحانه وتعالى فلا يستطيعون فعل شيء لكم.

﴿وَلا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴿١٩٧﴾﴾ ولا حتى أنفسهم لا يستطيعون لها شيئاً.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴿١٩٨﴾﴾ فإذا دعوتموهم لا يسمعونكم، وإذا وقفت أمامهم رأيت أعينهم ناظرة إليك، ولكنها لا تبصرك؛ لأنها ليست إلا صورة فقط، فكيف تعبدون من هذه صفاتها؟!!

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يعفو عنهم، ولا يؤاخذهم بما لحقه من الأذى بسببهم وباستهزائهم به، بل أمره أن يصبر وأن يعفو عنهم، ولا يجازيهم أبداً أبداً.

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أخبرهم بالحق وبسبيل نجاتهم، ومرهم بالمعروف، وانههم عن المنكر، وبالغ في النصح لهم، وحذرهم أن عذاب الله سبحانه وتعالى نازل بهم إن لم يقلعوا عن كفرهم وضلالهم.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴿١٩٩﴾﴾ وكانوا يسلطون سفهاءهم على النبي ﷺ يسبونه ويؤذونه؛ فأمره الله سبحانه وتعالى بأن يعرض عنهم، ولا يلتفت إليهم، وأن يكون كأنه لم يسمع شيئاً ولا يجازهم.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٢٠٠﴾﴾ إذا غضبت وزاد غضبك وفار دمك بسبب ما يوجهونه إليك، وهممت بالرد عليهم- فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، فإنما هي نزغة من نزغات الشيطان، والله سبحانه وتعالى سيعينك على الصبر، وسيسمع دعاءك وسيستجيب لك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴿٢٠١﴾﴾ من صفات المؤمنين أنهم إذا وقعوا في معصية أو هموا بها تذكروا الله سبحانه وتعالى، وتملكهم الخوف منه ومن سخطه وعقابه- فيرجعون إلى الله ويستغفرونه.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴿٢٠٢﴾﴾ وأما المشركون فإذا أغوتهم الشياطين وأوقعتهم في المعاصي فإنهم يستمعون إليهم، ويصغون آذانهم

لهم، فيمكثون في غيهم وضلالهم ومعاصيهم، ولا يتذكرون الله سبحانه وتعالىٰ وبأسه، ولا يتخلصون منها، بل يمكثون عليها وعلىٰ إصرارهم.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا﴾ كان المشركون يقولون للنبي ﷺ: لو أتاهم بآية تدل علىٰ صدقه لآمنوا به ولصدقوه؛ فعندما لا يأتيهم بآية استنكروا عليه، وقالوا: لو كان قد جاءنا بآية لآمنا، غير أن الله سبحانه وتعالىٰ قد علم بتمردهم وكذبهم، وأنه لو جاءهم بكل آية أو نزل إليهم الملائكة أو حشر عليهم كل الأموات لما آمنوا به ولما صدقوه.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ الإتيان بالآيات ليس بيدي، وليس تحت قدرتي، وإنما أمر ذلك إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وأما أنا فما أنا إلا رسول من عنده أتبع ما أوحىٰ به إلي.

﴿هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ۝٢٠٣﴾ يأتيهم الله سبحانه وتعالىٰ بآيات بينات واضحات تبصرهم طريق الحق وتضيئه لهم، وفيها الهدىٰ والنور، ولكنه لن ينتفع بها إلا المؤمنون الذين يخافونه، ويحذرون عقابه.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ۝٢٠٤﴾ ثم خاطب الله سبحانه وتعالىٰ المؤمنين بأن ينصتوا عند سماعهم كلام الله سبحانه وتعالىٰ، وأن يعملوا بما جاءهم ليدخلوا في رحمته؛ لأنهم إذا سمعوه عرفوا أحكام الله سبحانه وتعالىٰ التي أنزلها عليهم وشرعها لهم وعملوا بها، فاستحقوا ثواب الله سبحانه وتعالىٰ حينئذ ورحمته.

وقد يكون الاستماع والإنصات واجباً، وذلك حال خطبة الجمعة، وحال الصلاة، وأما ما سوىٰ ذلك فمستحب.

والواجب علىٰ المرء أيضاً أن يؤمن بكل ما جاء فيه، وأن يؤدي الفرائض التي أوجبها الله سبحانه وتعالىٰ فيه، وأن ينتهي عن النواهي التي نهاهم عنها فيه، ويجب عليه أيضا أن يسأل عن الأحكام التي أمر الله سبحانه وتعالىٰ بها في القرآن

ويعمل بها؛ لأنه يتعذر أن يعلم الناس جميعاً أحكامه وفرائضه، وأن يكونوا جميعاً علماء، ولكن يكفي أن يكون فيهم علماء يرجعون إليهم ويسألونهم عما أشكل عليهم.

وتعلمه فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، فإذا لم يكن فيهم متعلم يرجعون إليه- فحينئذ يلحقهم الإثم جميعا حتى يكون فيهم من يتعلم، ولا يجوز لهم أن يتركوا العلم حتى لا يبقى بينهم عالم؛ فإذا فعلوا ذلك أثموا جميعا.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ ينبغي لكل امرئ أن يذكر الله سبحانه وتعالى في نفسه، ويكون حال ذكره متذللاً بين يدي الله سبحانه وتعالى، مظهراً لفقره وحاجته إلى الله سبحانه وتعالى، وأن يكون سؤاله لله سبحانه وتعالى سؤال مذلة ومسكنة، وأن يكون خائفاً منه، وألا يرفع صوته زيادة على المعتاد، وقوله: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ فيه دلالة على زيادة الفضيلة في هذين الوقتين.

﴿وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ۝٢٠٥﴾ فيه حث للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على الدعاء لله سبحانه وتعالى، والإكثار منه ومن التضرع إليه، ولا يكون مثل المشركين في غفلتهم عنه، بل يكون ذاكراً له في كل أوقاته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ۝٢٠٦﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى عن الملائكة، وكيفية عبادتهم وخضوعهم له جل وعلا غير مستكبرين عن ذلك، بل متذللين خاضعين، بخلاف ما عليه أهل الأرض من الأنفة والكبر عن عبادته، وكيف عبدوا الأصنام من دونه.

تمت سورة الأعراف
ويليها سورة الأنفال

❁❁❁❁

سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾ الأنفال هي الغنائم. سأل المسلمون النبي ﷺ عنها، وذلك يوم بدر اختلف المسلمون فيما بينهم؛ وكانوا قد انقسموا قسمين: فقسم مكثوا بجنب النبي ﷺ ليحموا ظهره، وقسم في مواجهة العدو يقاتلون، فقال هؤلاء الذين في وجه العدو: نحن الذين قتلنا وأسرنا وغنمنا، فما غنمناه فهو لنا، وقال الآخرون: قد حمينا الرسول ﷺ وحرسناه من العدو، فلنا نصيب فيها، فاختلفوا وتنازعوا فيما بينهم، فذهبوا إلى النبي ﷺ محتكمين إليه في شأن الغنيمة التي غنموها، فنزلت هذه الآية.

﴿قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ما حصل من الغنائم فهو لله سبحانه وتعالى وللرسول يضعها النبي ﷺ حيثما شاء، ولا شأن لكم بها.

﴿فَاتَّقُواْ اللّهَ﴾ اتركوا طلب شيء ليس لكم، واعلموا أنها للنبي ﷺ يضعها حيث يشاء.

﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ﴾ واتركوا التنازع والاختلاف، وتسامحوا فيما بينكم وتصافوا.

﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ۝١﴾ ائتمروا بأوامر الله سبحانه وتعالى ورسوله وامتثلوها، وإن كنتم مؤمنين بحق وصدق كما تزعمون فاتركوا النزاع والاختلاف، وتآخوا فيما بينكم، وفي قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بعث على الحماسة في قلوبهم، كقولك لشخص: إن كنت رجلاً فافعل كذا، تريد بذلك أن تزيده حماسة، فأراد الله سبحانه وتعالى بذلك أن يزيدوا من تمسكهم بإيمانهم ودينهم، وأن يرضوا بما حكم به الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه ﷺ في جميع أمورهم.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ۝٢﴾ ليس كل من نطق الشهادتين مؤمناً، ولا يسمى مؤمناً ويستحق اسم الإيمان إلا الذي إذا ذكر الله سبحانه وتعالى عنده تذكر وخاف، وامتثل لأوامره، وانتهى عن مناهيه، وإذا زجره أحد وقال: له اتق الله انزجر وخاف، فهذه هي صفة المؤمن.

وقد يقال: إن علامة المؤمن هو من إذا سمع القرآن يتلى بكت عيناه، بدليل هذه الآية.

والجواب عليه: ليس المراد بالآية هذا، وإنما المراد بها أن المؤمن إذا ذكَّره أحد بالله سبحانه وتعالى تذكر.

وهؤلاء الذين سألوا النبي ﷺ عن الأنفال إذا كانوا قد امتثلوا لما أمرهم به نبيهم ﷺ في شأنها- فقد استحقوا هذا الاسم، وانطبق عليهم.

ومن علامة المؤمن هو التوكل والاعتماد على الله سبحانه وتعالى، وإذا أمرهم بأمر مضوا فيه من دون تردد، متوكلين عليه غير خائفين من أحد كائناً من كان، ولا متراجعين عنه مهما كان الثمن، فهذا ممن يستحق اسم الإيمان.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ۝٣﴾ يقيمون الصلاة كما أمر الله سبحانه وتعالى، ويخرجون نصيباً من أموالهم إلى مستحقيها، والمراد بها الزكاة.

﴿أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً﴾ فمن كان على هذه الصفات المذكورة فهم الذين يستحقون اسم الإيمان بحق.

﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ۝٤﴾ يرفع الله سبحانه وتعالى منازلهم في الآخرة؛ لأن الجنة درجات ومراتب كحال الدنيا في مراتب أهلها، فهذا في رتبة وزير، وهذا عقيد، وهذا ضابط وهكذا، فكذلك درجات الجنة تكون على حسب الرتبة والمنزلة التي يستحقها كل شخص بما قد عمله في الدنيا، وأما الأكل والشرب فهم فيه على سواء. والمراد بالدرجات هو ذلك

المعنى الذي هو التشريف والتعظيم بسبب الاستحقاق، والرزق الكريم المراد في الآية: هو النافع الذي لا وباء فيه ولا ضرر.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ۝٥﴾: جعل الله تعالى الغنائم التى غنمها المسلمون يوم بدر للنبى صلى الله عليه وآله وسلم دون المسلمين، وذلك لأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم خرج لملاقاة المشركين وحربهم وقتالهم راضياً بخروجه دون المؤمنين الذين خرجوا معه فقد كانوا كارهين لملاقاة المشركين وحربهم وقتالهم فخصه الله تعالى لذلك بالغنائم.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ وعد من الله سبحانه وتعالى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه عند خروجهم إلى بدر، وعدهم الله سبحانه وتعالى أنهم لن يعودوا من خروجهم هذا إلا بأحد شيئين: إما أن يأخذوا تجارات قريش وأموالهم العائدة من الشام في قافلة بقيادة أبي سفيان، وكانت جميع تجارات قريش وأموالها محملة في هذه القافلة، وإما أن تظفروا بقتل المشركين فتقتلوهم وتأسروهم.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ كان المسلمون طامعين في أموال قريش وتجاراتهم يأخذونها من دون قتال، وكانوا يتملصون عن مواجهة المشركين وقتالهم مع أن الله سبحانه وتعالى قد وعدهم بالنصر والظفر.

﴿وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ۝٧﴾ ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يحق الحق، وأن يضرب المشركين ضربة موجعة؛ لأن جميع كبار قريش كانوا قد اجتمعوا للخروج على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه، وقد أعدوا العدة لذلك، وكبار قريش هؤلاء هم الذين وقفوا في وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بداية الدعوة، وكذبوا به وحرضوا عليه واستهزئوا به وبمن معه، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يضربهم في هذه الغزوة ضربة قاصمة، ويقطع دابرهم، وينكس كبرهم؛ انتقاماً لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

قال النبي ﷺ للمسلمين: إن هذه قريش قد أتتكم بأفلاذ أكبادها، يريد به زعماءها ووجهاءها، والله سبحانه وتعالى قد أراد أن يقطع دابرهم، وأن يذلهم، ويعز الإسلام وأهله، ويجعل له هيبة وصيتاً بين قبائل العرب، ويزرع الرعب والخوف في قلوبهم، فإذا انتصر المسلمون في هذه المعركة حصل للإسلام والمسلمين العز والهيبة الذي أراده الله سبحانه وتعالى للإسلام.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ۝٨﴾ يريد الله سبحانه وتعالى أن يحق الحق ويعز أهله، ويذل الباطل ويقمع أهله، وما أراده الله سبحانه وتعالى فهو كائن لا محالة.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ۝٩﴾ خرج المسلمون من المدينة متوجهين إلى وادي بدر وتوقفوا هنالك على غير علم منهم بأن المشركين قد عسكروا في الجانب الثاني للوادي، فإذا بهم في وجوههم على غير ميعاد ولا استعداد، وتفاجأ المسلمون بذلك، ومع أن المسلمين كانوا يتهربون من هذه المواجهة، ويتثاقلون على النبي ﷺ عند ذكر القتال، ولكن الله سبحانه وتعالى كان قد دبر ذلك، وأراد أن يلتقوا بهم لمصلحة كان يعلمها للإسلام والمسلمين، وأما المسلمون فلما رأوا ذلك وعلموا أنه لا مناص لهم عن قتال المشركين لجأوا عندها إلى الدعاء والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى والانقطاع إليه بأن يمدهم بالعون من عنده، وأن ينجز لهم ما كان قد وعدهم، وأن يظفرهم بعدوهم، فاستجاب لهم دعاءهم، وأمدهم عندها بألف من الملائكة مردفين، أي: يردف بعضهم بعضاً.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ جعل الله سبحانه وتعالى نزول الملائكة مع المؤمنين بشارة بشرهم بها؛ ليعلموا أنه معهم، ولتطمئن قلوبهم، ويذهب عنهم الخوف؛ لأنهم إذا اطمأنوا زاد ذلك من عزائمهم وشد من قواهم.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللَّه عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿١٠﴾﴾لستم الذين تصنعونه ولا الملائكة، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي ينصركم.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أنزل الله سبحانه وتعالىٰ عليهم النوم ليطمئنوا؛ لأن المرعوب لا ينام في العادة، فإذا ناموا هدأت نفوسهم واطمأنت، وزال عنها التوتر والقلق.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴿١١﴾﴾ كان جانب الوادي الذي عسكر فيه النبي ﷺ والمؤمنون لا ماء فيه، وقد أراد المسلمون أن يغتسلوا ويصلوا، فلم يجدوا الماء؛ فدخل الشيطان عندها علىٰ قلوبهم ووسوس لهم كيف تكونون علىٰ الحق، ولا ماء عندكم لتغتسلوا فيه من الجنابة وتتوضئوا للصلاة، فكيف تقاتلون وأنتم علىٰ هذه الحالة؛ فأنزل الله عند ذلك المطر، ولم يصبحوا إلا وقد نزل الفرج علىٰ المسلمين، وأذهب رجز الشيطان ووسواسه، وكذلك ليثبت أقدامهم؛ لأن الأرض التي كانوا عليها رملية دهسة لا يستطيعون الثبات عليها عند القتال، فتصلبت الأرض بنزول المطر عليها. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ ورجز الشيطان هو الجنابة؛ لأن بعضهم كان قد اجتنب، وكذلك لتقوىٰ به قلوبهم؛ لأن المسلمين إذا رأوا نزول رحمته عليهم عرفوا عنايته بهم، فيشد ذلك من عزائمهم، فقد هيأ الله سبحانه وتعالىٰ للمسلمين جميع أسباب النصر، رحمة منه بالمسلمين عندما علم منهم صدق النية والإخلاص له.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ أوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ الملائكة الذين نزلوا لتثبيت المسلمين وأن يشجعوهم علىٰ القتال، ويعلموهم أن الله سبحانه وتعالىٰ معهم، وأنه سيؤيدهم بنصره وتأييده وعونه، أخبر النبي ﷺ المسلمين بذلك بعد أن انتهت المعركة.

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ﴾ سيثبت المؤمنين، ويبث الرعب في قلوب المشركين، ويزرع الخوف في قلوبهم.

﴿فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ انتقل الله سبحانه وتعالى بعد خطاب الملائكة إلى خطاب المؤمنين، فأمرهم بشد العزم، وأن يفعلوا جهدهم في ضرب المشركين، فهو معهم وناصرهم.

﴿وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴿١٢﴾﴾ يشجعهم الله سبحانه وتعالى ويزيد من عزائمهم ويحثهم على القتال، مخبراً لهم بأنه قد أيدهم بالملائكة وبنصره، وقد ربط على قلوبهم، وأزال الشكوك التي كان قد وسوس لهم الشيطان بها، وأنه قد ألقى في قلوب المشركين الرعب مع أن الذين كانوا يقاتلونهم من أشجع شجعان العرب وأشدهم بأساً وقتالاً.

وكان من الذين خرجوا مع قريش لقتال المسلمين عمرو بن عبد ود العامري، وكان يقال: إنه لألف، ولكن عندما رأى المشركون ما رأوه من صلابة المسلمين وقتالهم قتالاً شديداً لم يشهدوا بمثله من قبل خافوا عند ذلك، وولوا هاربين منهزمين، ونصر الله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ومن معه.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ استحق المشركون القتل والذلة والخزي يوم بدر بسبب أنهم وقفوا في شق وجانب غير شق وجانب الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ومعاداتهم لله ورسوله، ووقوفهم في صف الباطل، وفي وجه دعوة الله سبحانه وتعالى ودعوة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قد أخبر المسلمين وبشرهم بهذه البشائر من الوعد بإحدى الطائفتين، وتقوية قلوبهم، ونصرهم على أعدائهم.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴿١٣﴾﴾من يقف في صف الباطل- فإن الله سبحانه وتعالى سيعاقبه، وينزل به أشد العقاب.

وفي هزيمة قريش هذه الهزيمة النكراء في بدر، وقتلهم وإذلالهم عقابٌ شديدٌ لهم؛ لأن هذه المعركة كانت ضربة قاصمة لظهور المشركين، فقد قتل من كل بيت من بيوت قريش كبيرٌ من كبارها، وقتل جميع صناديدهم، ولم يبق من كبار قريش إلا أبو سفيان، فإنه لم يكن حاضراً في معركة بدر، وكان في العير التي خرجت للتجارة إلى الشام، وكان فيمن قتل ولده حنظلة بن أبي سفيان، فهذا هو العذاب الذي قد توعدهم الله سبحانه وتعالى به إن لم يؤمنوا، عذبهم الله سبحانه وتعالى على أيدي المؤمنين.

وقتلى الحرة الذين قتلهم يزيد بن معاوية كانت ثأراً لقتلى بدر، فقد قتل يزيد أهل المدينة يوم الحرة قتلاً ذريعاً ثأراً لما كان حصل لآبائه في بدر من الأنصار.

﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴿١٤﴾﴾ هذا العذاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على المشركين يوم بدر هو العذاب الذي كنا نتوعدكم به ونحذركم منه؛ فتجرعوا مرارته أيها الكافرون، ولكم بعد ذلك عذاب النار خالدين فيها- جزاءً على كفركم بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴿١٥﴾﴾ نهى الله سبحانه وتعالى المسلمين عن الهروب عند مواجهة المشركين، يريد الله للمسلمين أن يكونوا أهل عز وقوة، وأن يكونوا هم الأعلون دائماً.

﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴿١٦﴾﴾ من فعل ذلك وولاهم دبره، وهرب بعد أن واجههم فقد استحق سخط الله سبحانه وتعالى وغضبه، إلا إذا كان هروبه حيلة دبرها لكي يستدرج عدوه، ثم يعطف عليه، أو كان هروبه إلى فئة متمركزة لكي يستقوي بها ويجدد من نشاطه وقوته، فلا بأس بذلك، نحو ما كان من المسلمين في غزوة مؤتة بعد أن قتل جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة، ثم أخذ بعد ذلك الراية خالد بن الوليد وانسحب بالمسلمين

وانهزم بهم عائداً إلى المدينة، وكانوا خجلين من فعلهم هذا وانهزامهم حتى أنهم عند دخولهم المدينة في أثناء عودتهم دخلوا متسللين فرداً فرداً إلى بيوتهم، وكانوا يذهبون إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويقولون له: نحن الفرارون يا رسول الله؛ فيجيبهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((بل أنتم الكرارون، وأنا فئتكم فقد هربتم إلى فئة، ولا ضير عليكم في ذلك))، وكان هروبهم هذا عندما عرفوا أنهم سيقتلون عن آخرهم، وأن الدائرة عليهم، وما داموا هكذا فلا بأس أن يهربوا إلى فئتهم ومركزهم؛ ليستعيدوا قواهم ويبنوا صفوفهم من جديد، ويتهيئوا للكرة بعد الفرة؛ ولهذا ذم الله سبحانه وتعالى الذين فروا يوم أحد عندما فروا وهربوا وتركوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنهم لم ينحازوا في هروبهم هذا إلى فئة، بل هربوا متشتتين في البلاد.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿١٧﴾﴾ لستم الذين قتلتم قريشاً أيها المسلمون، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي قتلهم بتدبيره لأسباب النصر والظفر لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وأسباب الهزيمة والقتل للمشركين.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ أخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم حفنة من التراب خلال المعركة ورمى بها في وجه العدو، وقال: ((شاهت الوجوه))، فلم يبق أحد منهم إلا أصابه في عينه من هذا التراب، والله تعالى هو الذي هيأ ذلك ودبره، وألقى الرعب في قلوب المشركين، وما فعله من تقليل المشركين في أعين المسلمين، والعكس على أعين المشركين عندما تصافوا للقتال، وهذا من تدبير الله سبحانه وتعالى، فما إن ابتدأت المعركة إلا والمشركون يرون المسلمين على خلاف ما كانوا يرونهم من قبل، وكثروا في أعينهم حتى ملأوا ساحة المعركة، فولوا عند ذلك هاربين مفزوعين.

﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ قتل الله سبحانه وتعالى المشركين، وأيد المؤمنين بنصره وتأييده لأغراض ومصالح يعلمها، ولأجل أن ينعم على المؤمنين بالنصر والظفر عندما أطاعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأخلصوا معه في المعركة، وفي

دعائهم لله سبحانه وتعالى، وكان النبي ﷺ لم يشاورهم عند خروجهم من المدينة، وإنما أمرهم بأن يخرجوا لما وعدهم الله سبحانه وتعالى من السيطرة والاستيلاء على إحدى الطائفتين فلما رأى النبي ﷺ أنه لا بد من مواجهة المشركين ذوي الشوكة، وأنه لا بد من القتال فحينئذ جمعهم النبي ﷺ للمشاورة، وطلب منهم المشورة في القتال لينظر حالهم هل سينصرونه على المشركين؛ لأنهم كانوا قد عاهدوه عند بيعة العقبة عندما طلبوا منه الهجرة إلى المدينة على أن يجيروه ويحموه مما يحمون منه أنفسهم وأموالهم وأولادهم، ولا يسلموه إلى عدو أبداً وسيقاتلون معه، فبعد المشاورة قام رؤساء الأوس والخزرج سعد بن عبادة وسعد بن معاذ وقالوا له: لقد علمنا أنك رسول الله، فامض بنا إلى حيث أمرك الله سبحانه وتعالى، وأنك لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ولقتلنا دونك، ولن نقول مقولة اليهود لنبيهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة٢٤]، فحين علم الله سبحانه وتعالى صدق إيمانهم وعزيمتهم وإخلاصهم أيدهم بنصره وتأييده.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴿١٨﴾﴾ ذلكم الذي حصل من قتل المشركين؛ ليوهن كيدهم، ويضعفهم، ويكسر شوكتهم.

ثم خاطب الله سبحانه وتعالى المشركين فقال: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴿١٩﴾﴾ عندما تصاف الفريقان للقتال وهموا ببدء المعركة، صاح من بين المشركين صائح يدعو الله سبحانه وتعالى قائلا: اللهم أقطعنا للرحم فأحنه الساعة، أي: اجعل هذه الساعة نهايته، فأمَّنَ المسلمون والمشركون جميعاً، وكان المشركون يدَّعون على النبي ﷺ أنه قد قطع رحمهم وسفه آلهتهم، وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لهذه الدعوة، وأخبرهم بأنه قد جاءهم الفتح، وأهلك أقطعهم للرحم، فقتل الله المشركين وهزمهم شر هزيمة.

ثم أخبرهم بأنهم إن ينتهوا عن كفرهم فهو خير لهم، وقد علمتم أيها المشركون من هو الذي قطع رحمه، وقد رأيتم وقوع القتل فيما بينكم فأقلعوا عن عداوة النبي والإسلام، واعلموا أيها المشركون أنكم إن لم تنتهوا وعدتم إلى عداوة الإسلام ومكايدته- فسنعود عليكم بالانتقام، ولو رجعتم إلى من رجعتم، ولو استنصرتم من استنصرتم على حرب الإسلام وأهله فلن ينفعكم ذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى مع المؤمنين بنصره وتأييده، والله غالب على أمره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ خاطب الله سبحانه وتعالى المؤمنين فأمرهم بطاعته وطاعة رسوله إذا دعاهم إلى أمر من الأمور.

﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴿٢٠﴾﴾ لا تتهربوا منه عند سماعكم لدعائه لكم.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴿٢١﴾﴾ لا تكونوا مثل اليهود عندما قالوا لأنبيائهم: سمعنا وعصينا، بل اسمعوا وامتثلوا ما سمعتموه.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴿٢٢﴾﴾ كان المخلصون في إيمانهم قلة قليلة، وأما الباقون فكانوا ضعيفي الإيمان، ولم يكن قتال بعضهم إلا حمية وليس لأجل الإسلام.

وكانوا في خروجهم مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يوم بدر متثاقلين أشد التثاقل، ولم يدفعهم إلى الحرب إلا الحمية وداعي القبلية، فنزلت هذه الآيات تحثهم على صدق الإيمان، وطاعة الله ورسوله، وألا يعملوا أعمال اليهود والمشركين في عصيانهم وتمردهم، ولكنهم بعد ذلك عزموا على القتال مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأخلصوا نياتهم لله سبحانه وتعالى، ولجأوا إليه بالدعاء والتضرع، فأيدهم الله سبحانه وتعالى بنصره. وقد شبه الله سبحانه وتعالى الذين لا ينتفعون بما قرأه عليهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ولم يعملوا به وكذبوا بما جاءهم به بالذي هو أصم لا يسمع وأبكم لا يتكلم، وأخبر أن من حاله هكذا فهو شر خلقه.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ۝٢٣﴾ حتى ولو سمعوه وعقلوه في قلوبهم لأعرضوا عنه وعن العمل به.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يستجيبوا لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إذا دعاهم لما فيه عزهم في الدنيا والآخرة، وهو الإيمان والجهاد؛ لأن الإيمان يعز المرء، ويرفع قدره في الدنيا والآخرة.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ۝٢٤﴾ أراد الله سبحانه وتعالى أن يطلع الناس على عظيم قدرته وإحاطته بهم- ليخافوا منه وليحذروه؛ لأن قدرته محيطة بهم ولن يستطيعوا أن يفروا من تحت يده ومن عقابه وسخطه، فهو قادر على أن يحول بينك وبين ما تريد فيمنعك من شيء قد نويت أن تفعله، وقد سأل رجل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: بم عرفت ربك يا أمير المؤمنين؟ فأجابه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: (عرفته بفسخ العزائم، فالرجل ينوي في الليل مثلا أن يعمل كذا وكذا عندما يصبح ويرتب أموره على ذلك ويجهز لذلك فإذا أصبح غير رأيه مما كان قد نواه وحول عن ذلك، فمن الذي أزال هذا عنه وصرف نيته هذه؟) وفسخ العزائم: هو قطع النية التي قد عقدها المرء في نفسه، ويمكن أن يقال في تفسير الآية إن الله تعالى حث المسلمين على المبادرة والمسارعة إلى طاعته وطاعة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قبل أن يأتيهم الموت الذي يقطع الآمال ويحول بين المرء وبين ما ينويه من الأعمال.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ۝٢٥﴾ اتقوا أسباب الفتن؛ لأنه يتعذر أن يتقي المرء الفتنة، وقد وقعت، فعلمنا من هذا أنه أراد الأسباب التي توقع في الفتنة، وإذا وقعت فلن تصيب الظالمين فقط، بل ستعم الناس جميعاً.

وأسباب الفتنة هي معصية الرسول، فأمرهم الله سبحانه وتعالى أن يتقوا معصيته، ويمتثلوا لأوامره؛ فإذا فعلوا ذلك وعصوه وقعوا في الفتنة، وعمتهم المصيبة في أموالهم وأنفسهم وأولادهم ونسائهم.

أراد الله سبحانه وتعالى أن يقوي عزائمهم على طاعته وطاعة رسوله؛ لأنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يذكِّر الله سبحانه وتعالى المؤمنين نعمته عليهم وقت أن كانوا قلة قليلة مستضعفين لا حول لهم ولا قوة، تحت سيطرة المشركين في مكة وذلك قبل أن يهاجروا إلى المدينة، والمشركون قاهرون لهم بتكبرهم وسلطانهم وقوتهم حيث لم يكن للمسلمين أي سلطان على وجه الأرض، بل كانوا أذلاء أهل مسكنة تحت رحمة أعدائهم.

﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ لضعفكم وقلتكم، ﴿فَآوَاكُمْ﴾ هيأ لكم مكاناً تأوون إليه وتسكنونه بعيداً عن قبضة المشركين وسيطرتهم، وأسكنكم المدينة وجعلها مأمناً لكم ومستقراً.

﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أمدكم بنصره وتأييده، وأغناكم بعد الفقر والذلة، فحين أن وصل المهاجرون إلى المدينة أشركهم أهلها في أموالهم إلى أن فتحت خيبر، فغنموا منها أموالاً طائلة أغنتهم، فقد قسمها النبي ﷺ بينهم وجعل حصة المهاجرين هي الأكثر، ولم يعترض أهل المدينة على ذلك، ورضوا بقسمة رسول الله ﷺ مع أنهم قد أبلوا معه وقاتلوا أكثر مما قاتل المهاجرون، وكان لهم النصيب الأكبر في أسباب الفتح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ نزلت في رجل من أهل المدينة، وذلك أن النبي ﷺ عندما حاصر بني قريظة وطلبوا منه الصلح خايرهم بأن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فسألوا الرسول ﷺ أن يبعث إليهم بأبي الدرداء يستنصحونه

ويطلبون منه المشورة وكانوا على حلف معه، فأرسله إليهم؛ فطلبوا مشورته في تحكيم سعد بن معاذ فأشار إلى رقبته بالذبح بمعنى أنكم إن نزلتم على حكم سعد بن معاذ فإنه سيحكم بذبح رجالكم و...إلخ، فقال أبو الدرداء: والله ما برحت من مكاني حتى علمت أني خنت الله ورسوله فنزلت هذه الآية فيه؛ لأن نصيحته لليهود خيانة لله ولرسوله.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴿٢٨﴾﴾ بعض المسلمين ينصح مع أعدائه لأجل أن يلجأ إليهم إذا حصل للإسلام والمسلمين نكبة أو نحوها، ويظن بعمله هذا أنه قد ضمن ماله وأولاده إذا فعل ذلك؛ فحذر الله سبحانه وتعالى المسلمين عن الوقوع في مثل هذه الفعلة، وحثهم على أن يتمسكوا بالله ورسوله، وألا يركنوا إلى أحد سوى الله سبحانه وتعالى، فهو وحده الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وهو وحده الذي يعطي ويمنع.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴿٢٩﴾﴾ إذا أطاعوا الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وامتثلوا لأوامره ونواهيه فسيجعل الله سبحانه وتعالى في قلوبهم نوراً يفرقون به بين الحق والباطل، وبصيرة يميزون بها بين الحق من الباطل، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويغفر ذنوبهم، وفضل الله عظيم ليس له حد فاتقوا الله لتنالوا ما عند الله.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه بأن يذكر وقت أن مكر به المشركون ودبروا لقتله، وذلك ليلة أمره بالهجرة من مكة إلى المدينة، وحين نزول جبريل عليه يخبره بأن المشركين قد تآمروا على قتلك يا محمد، ويريدون قتلك الليلة، فاخرج الساعة، فخرج محمد صلى الله عليه وآله وسلم من مكة من حينه.

﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ تآمر المشركون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إما أن يأسروه ويربطوه، وإما أن يقتلوه، وإما أن ينفوه إلى بلاد بعيدة.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ۝٣٠﴾ دبروا الحيل لقتل النبي ﷺ، ولكن الله سبحانه وتعالى كان فوقهم بتدبيره وقوته، ونجى رسوله ﷺ من بين أيديهم وخرجوا خائبين، فقد أمر جبريل النبي ﷺ بأن يضع عليًّا عليه السلام مكانه في فراشه ويخرج؛ لأنهم إذا نظروا فلم يروا أحدا على الفراش فسيلحقون به ويقتلونه، فوضع عليًّا عليه السلام مكانه موهماً لهم أنه هو، فرقد علي عليه السلام على فراشه ممتثلاً لأمر الله ورسوله، وفادياً لنبيه بنفسه، وكان المشركون يرجمونه بالحجارة وهو يتضور بين الفراش من شدة الألم من غير أن يكشف نفسه لهم؛ لئلا يفتضح أمر النبي ﷺ فيلحقوا به، وفي آخر الليل بدأت الشكوك والتساؤلات عند المشركين كيف يظهر التألم وقد عرفوا عنه أنه لا يظهر تألمه أمام أحد، ولم يعرفوا أن شكهم هذا كان في محله إلا عند الصباح عندما كشفوا عن وجهه، فإذا هو علي، فعندها أخذوا في استنفار الناس إلى الخروج والبحث عنه ﷺ.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ۝٣١﴾ كان النبي ﷺ إذا تلا القرآن على المشركين قالوا: قد سمعناه ولو أردنا أن نفعل كلاماً مثله لفعلنا، وليس إلا خرافات من قصص الأولين.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ۝٣٢﴾ قال مشركو قريش: إن كان هذا الذي جاء به محمد حقاً فنسأل الله أن يقتلنا، فلو أنهم قالوا: اللهم إن كان هو الحق فاهدنا إليه لكان ذلك هو الأحسن والأفضل لهم في الدنيا والآخرة، ولكن الكبر قد أعمى بصائرهم وغطى على قلوبهم، ولن يرضوا بأن يقبلوا الحق أبداً أبداً.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ۝٣٣﴾ فما دام النبي ﷺ بينهم فلن يعذبهم؛ لأن المشركين قد دعوا الله سبحانه وتعالى أن يعذبهم إن كان ما جاء به محمد ﷺ حقاً وصدقاً،

فرد الله عليهم بهذا الرد، ومن سنة الله سبحانه وتعالىٰ أن لا يعذب قوماً وبينهم من يتضرع إلىٰ الله بطلب المغفرة.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿٣٤﴾﴾ قد استحقوا العذاب، غير أن الله سبحانه وتعالىٰ ترك تعذيبهم الآن لكون محمد ﷺ بينهم وسيعذبهم من بعد، فما داموا يصدون الناس عن الحج وعن الإسلام فقد استحقوا العذاب، فلماذا يصدون عن البيت الحرام وليسوا الولاة عليه لأنهم مشركون، ولا يصح أن يتولاه ويقوم عليه إلا المتقون.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ المكاء: الصفير، والتصدية: الصياح والتصفيق.

أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن المشركين بأن صلاتهم عند البيت ليست إلا صياحاً وتصفيقاً؛ فكيف تسمىٰ هذه صلاة، وكانوا أيضا يطوفون بالبيت وهم عراة، ويمنعون الناس عن الطواف لابسين فكيف يكونون أولياء لبيته الحرام وهم علىٰ هذه الصفة والحالة.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴿٣٥﴾﴾ وحقاً قد أذاقهم الله سبحانه وتعالىٰ العذاب يوم بدر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كانوا ينفقون أموالهم للصد عن دعوة النبي ﷺ، ولقتل النبي ﷺ ومن آمن به.

﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ بأنهم سوف ينفقون أموالهم في الصد عن دين الله وسيكون فراقهم لأموالهم حسرة تبقىٰ في قلوبهم مع أن ذلك لا يجدي شيئا في صد الدعوة، ولن يستطيعوا أن يقفوا في وجهها ووجه الإسلام ثم يصيرون بعد ذلك إلىٰ الهزيمة والخيبة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ۝٣٦﴾ سيخسرون أموالهم في الدنيا، وفي الآخرة سيكون مصيرهم إلى النار وبئس المصير خسروا الدنيا والآخرة.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ۝٣٧﴾ سيحشرهم الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ويدخلهم جهنم، وحكمة الله سبحانه وتعالى من البعث والجزاء لأجل أن يميز فيه الكافر من المؤمن، ويعطي كلاً ما يستحقه، فيجمع الله سبحانه وتعالى الخبيث جميعاً فيجعله في جهنم، والمؤمنون إلى رحمته ونعيمه في الجنة.

﴿قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ قل للمشركين يا محمد أن كل ذنب أذنبوه سيغفره الله سبحانه وتعالى لهم إن تابوا وندموا ورجعوا إليه.

﴿وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ۝٣٨﴾ إذا رجعوا وعادوا إلى الصد عن سبيل الله سبحانه وتعالى فهم يعلمون بما فعله الله سبحانه وتعالى فيمن مضى قبلهم من الأمم السابقة من العذاب والاستئصال عندما كفروا به وصدوا عن دعوة أنبيائهم، وعلموا بما لحقهم من عذاب الله يوم بدر، فإن عادوا فسيعود الله عليهم بعذابه وخزيه.

ثم خاطب الله سبحانه وتعالى المؤمنين فقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بقتال أهل الشرك والكفر حتى ينتهوا وينتهي الشرك من على وجه الأرض.

﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه﴾ حتى لا يبقى معبود سوى الله سبحانه وتعالى في جزيرة العرب.

﴿فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللَّه بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ۝٣٩﴾ إن أقلعوا عن شركهم وضلالهم- فالله سبحانه وتعالى مطلع على الضمائر، وسيجازي كل امرئ بعمله.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّه مَوْلاَكُمْ﴾ إن رفضوا التوبة فاعلموا أيها المؤمنون أن الله سبحانه وتعالى ناصركم ومؤيدكم على عدوكم.

﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ۝٤٠﴾ فاعتمدوا أيها المؤمنون على الله وتوكلوا عليه ولا تخافوا عدوكم ولا تستعظموه فإن الله تعالى أكبر وأعظم وهو على كل شيء قدير.

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ۝٤١﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى المسلمين عن كيفية قسمة ما غنموه، فأول ما ينبغي أن يفعلوه هو أن يخرجوا الخمس فليس لهم، فيعطوه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يضعه أينما شاء، فكان صلى الله عليه وآله وسلم يقسمه على قرابته من بني هاشم الذين هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر، وكذلك يعطي بني المطلب حصة منه، وبنو المطلب ليسوا من أبناء هاشم؛ لأن المطلب وهاشم كانا أخوين، وقال عنهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام))، وهذا الخمس واجب على المسلمين إخراجه، والأربعة الأخماس التي هي باقي الغنيمة تقسم بين باقي المسلمين.

والمراد باليتامى والمساكين وابن السبيل وذي القربى كما ورد عن علي بن الحسين: يتامى بني هاشم ومساكينهم وقرباهم وأبناء سبيلهم، فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقسمها بين قرابته أغنيائهم وفقرائهم، وكان يزيد في حصة هؤلاء المذكورين في الآية، وقد شدد الله على المسلمين في إخراج خمس الغنائم فربطه بالإيمان بالله وبالإيمان بالقرآن الذي أنزله على نبيه يوم الفرقان يوم التقى المسلمون والمشركون في بدر.

والمراد بـ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: هو النصر الذي أنزله يوم بدر على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن يوم الفرقان هذا هو

اليوم الذي كان المسلمون فيه على حافة الوادي التي تلي المدينة، والمشركون على الحافة الأخرى من الوادي والتي تلي مكة، والمراد بالركب: هو قافلة التجارة التي كانت لقريش، أسفل منكم على ناحية ساحل البحر؛ لأن أبا سفيان كان قد جاءه النذير ينذره بأن محمداً قد قطع الطريق عليه يريد أن يستولي على هذه القافلة، فحول طريقه على طريق أخرى التي هي طريق الساحل.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن ما حصل يوم بدر كان بتدبيره ومشيئته، وأنكم لو تواعدتم معهم على هذا اللقاء لما حصل مثل هذا الذي حصل، ولاختلفتم في الميعاد، ولما تهيأ لكم كل هذا.

﴿وَلَـكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ كل هذا ليتم ذلك الأمر الذي قد أراده الله وقضاه، ولا بد أن يقع ما أراده.

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٤٢﴾﴾ ليظهر الله سبحانه وتعالى الحق ويبطل الباطل، ولن يتم ذلك إلا إذا حصل مثل هذه الوقعة العظيمة التي من شأنها أن تخلف وراءها صدى يسمعه جميع الناس في البلاد العربية، فتكون شاغلة لمجالسهم؛ لأنهم إذا عرفوا بهذه الواقعة وتحدثوا عنها سيجعلهم يتساءلون عن محمد وعما جاء به، وينظرون في حقيقة أمره، فيؤدي بهم ذلك إلى معرفة الإسلام وحقيقته، ويتيقنون أنه الدين الحق، فإذا آمنوا كان إيمانهم على بصيرة؛ لأنه لا بد أن يتساءلوا عن القرآن وينظروا فيه ويتفكروا، فإذا فعلوا ذلك حصلت لهم القناعة بأنه الدين الحق.

ولكون قريش من أعظم قبائل العرب خطراً وهيبة، وكونهم المنظور إليهم فإذا حصل لهم مثل هذه الهزيمة، وما قتل فيها من كبارهم وزعمائهم فسيكون ذلك أدعى إلى أن يتساءل بقية العرب عن الإسلام، ويتخبروا عنه وعما جاء به هذا النبي ﷺ، وسيكون أدعى إلى الالتفات والتمعن فيما جاءهم به.

وأما هيبتهم ومكانتهم عند قبائل العرب فقد حصلت لهم من بعد وقعة الفيل، فعندها ذاع صيتهم بين القبائل، وارتفع شأنهم وعلا قدرهم؛ وذلك أن أبرهة الأشرم خرج على رأس جيش جرار متوجهاً إلى مكة يريد هدم الكعبة؛ فلم يستطع أحد أن يقف في وجهه أو يمنعه من وجهته، وهو مع ذلك متحدٍّ لكل من قابله في طريقه بأنه ذاهب لهدم كعبتهم، ومكان تعبدهم ومحجهم، فعندما وصل إلى طرف منى في وادي محسر الواقع ما بين منى ومزدلفة- توقف الفيل هنالك ولم يستطع أن يتقدم، وقد سمي وادي محسر؛ لأن الفيل كان قد تحسر في ذلك المكان، ولم يستطع أن يتقدم خطوة واحدة بمشيئة من الله سبحانه وتعالى وتدبيره، فعندها أرسل الله سبحانه وتعالى عليهم طيراً من السماء قتلتهم جميعاً، ولم تبق على أحد منهم، فبعد هذه الواقعة ذاع صيتهم بين جميع قبائل العرب، وصار لهم هيبة وعزاً وشرفاً يسيرون آمنين في جميع بلاد العرب، مع أن جميع العرب كانوا خائفين لا يستطيع أحد أن يسير لكثرة الثارات التي بينهم والتناحر فيما بينهم.

حتى أن من خرج من بلاده فسيقتل وينهب، أو سيؤسر، وأما أولئك فكانوا آمنين يسيرون دون أن يعترضهم أحد، وكانوا يقولون عنهم بأنهم أهل الله وسكان بيته، فهم تحت حماه.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ أرى الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ في المنام أن قريشاً ليسوا إلا قلة- ليطمئن الذين خرجوا معه، ويشجعهم على قتال المشركين، وكان ذلك قبل وصوله إلى أرض المعركة.

﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾ فأخبرهم النبي ﷺ بهذه الرؤيا وكان عندهم مصدقاً لما عهدوا عنه من الصدق، وتحقق كل ما أخبرهم به، ولأن كل ما يأتيهم به فهو من عند الله سبحانه وتعالى، ولا يأتيهم بشيء من تلقاء نفسه ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى۝٤﴾ [النجم].

﴿وَلَـٰكِنَّ اللَّه سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ۝٤٣﴾ فلم يره إياهم في كثرة بل قللهم، فحين أخبرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بقلة المشركين أمنوا حينئذ واطمأنوا.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ۝٤٤﴾ ثم أرى الله سبحانه وتعالى المسلمين مرة ثانية قلة المشركين في أعينهم تصديقاً للرؤيا التي أخبرهم بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الله سبحانه وتعالى عالم بما هو الذي سيشجعهم على القتال، وما هو الذي سيجبنهم عنه، وأرى الله تعالى المشركين قلة المسلمين ليتشجعوا على الإقدام عليهم - ليكون ما أراده الله من قتل المشركين وقهرهم وإذلالهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّه كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ۝٤٥﴾ حث الله سبحانه وتعالى المؤمنين على الثبات عند مواجهة العدو والصبر ذاكرين الله سبحانه وتعالى، ولاجئين إليه، وداعين له بالنصر والظفر، وسينصرهم عند ذلك.

﴿وَأَطِيعُواْ اللَّه وَرَسُولَهُ﴾ وكونوا عند ملاقاة عدوكم مطيعين لله سبحانه وتعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فلا بد مع الذكر والدعاء من الطاعة والامتثال لأوامره، فلن يستجيب دعاءكم مع العصيان.

﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ لا تختلفوا فيما بينكم لأن ذلك يؤدي إلى الفشل.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّه مَعَ الصَّابِرِينَ۝٤٦﴾ إذا تنازعتم واختلفتم فلن تنتصروا، يحث الله المسلمين هنا على الأخذ بهذه الأسباب لكي يتحقق لهم النصر التي هي: الثبات وذكر الله سبحانه وتعالى وطاعة الله ورسوله وعدم التنازع والاختلاف والصبر.

﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ۝٤٧﴾ لا تكونوا مثل قريش الذين خرجوا من مكة لغرض إظهار قوتهم وما هم فيه من العدد والعدة، كافرين

لنعمة الله عليهم، وليحاربوا الحق وأهله، ولكن اخرجوا متواضعين لله تعالىٰ، قاصدين بخروجكم إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالىٰ.

كانت قريش في أول الأمر إنما خرجت لتؤمِّن القافلة المقبلة من الشام التي فيها تجاراتهم وأموالهم، فوصلهم الخبر بأن يرجعوا؛ لأن أبا سفيان قد غير طريقه، وقد صارت القافلة في أمان، فقالوا: والله لن نرجع، وسنخرج لقتال محمد حتىٰ تسمع عنا جميع قبائل العرب، وسنأخذ معنا القيان تغني لنا وتعزف في طريقنا، وسنشرب الخمر، وننحر الجزور حتىٰ تسمع عنا وعن ما فعلنا جميع القبائل فيعرفوا قدرنا وقوتنا ومن نحن، عرضاً لقوتهم أمام العرب، وكان بعض وجهائهم -وهو عتبة بن ربيعة- قد نصحهم بأن يرجعوا؛ فما الفائدة من الخروج وقافلتهم في أمان، وقال لهم: إن كنا نحارب رب محمد فما لنا به من طاقة، وإن كنا نحارب محمداً فليس إلا واحداً منا، فإن انتصر وتم أمره فهو من قريش وعزه لكم، وإن قتله غيركم فقد كفيتم شره، وكان عتبة هذا من أهل الرأي المشهود له برجاحة العقل.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ زين الشيطان لقريش خروجهم هذا وحربهم للنبي ﷺ والصد عن دينه.

﴿وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ ووسوس لهم علىٰ لسان أحد زعماء العرب ومشائخها وكبارها، كان قد لقيهم في طريقهم، فكان يحث قريشا علىٰ الخروج، ويؤمنهم بأنهم ذو كثرة وقوة وعدة وعدد، ولن يستطيع أحد أن يقف في وجوههم، زاعماً أنه ناصح لهم، وأنه سيدعمهم ويمدهم بالرجال والسلاح، فأجابه عتبة بن ربيعة: إنا إن كنا نحارب محمداً فنحن كثير، وليس بنا من قلة فنحتاج إليك، فاذهب فما لنا إليك من حاجة، وإن كنا نحارب رب محمد فلا طاقة لنا به لا نحن ولا أنت.

﴿فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ عندما تواجه الفريقان واصطفوا للقتال وإبليس كان حاضراً ساحة المعركة ولكنه لما رأى الملائكة مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين، ورأى أن النصر قد نزل على المسلمين خاف عند ذلك وهرب، ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴿٤٨﴾﴾ فعندما رأى ما رأى خاف أن يلحقه من ذلك العذاب الذي قد أنزله الله سبحانه وتعالى ذلك اليوم على المشركين.

فإن قيل: لماذا يخاف والله سبحانه وتعالى قد وعده بأن يمهله إلى يوم القيامة؟ ومِمَّ يخاف مادام قد أمن على نفسه الموت؟

قيل له: هناك شيء غير الموت يخاف منه وهو أن ينزل عليه شيء يؤلمه ويوجعه.

فإن قيل: لماذا قال: إني أخاف الله مع أن من المعروف عنه خلاف ذلك؟

فيجاب عليه: المراد به خوف عقابه؛ لأنه لما رأى عقاب الله سبحانه وتعالى عندما نزل على المشركين خاف أن يلحقه من ذلك العقاب الذي أنزله عليهم، لأنه عرف أن هذا الموطن قد نزل به سخط الله سبحانه وتعالى وعذابه، وخاف إن قعد فيه أن يلحقه شيء من العذاب؛ فهرب مع محبته لأن يشاهد المعركة، ويشارك فيها بمكائده، فهزيمة المسلمين أمر يهمه، ولكن الخوف جعله يهرب من هول ما رأى.

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـؤُلاء دِينُهُمْ﴾ كان منافقو المدينة يوم بدر يتحدثون فيما بينهم عن المسلمين بأنهم قد أصابهم الغرور، فكيف يذهبون لقتال قريش وهم يعلمون أنها ليست بالهينة ومع معرفتهم بقوتهم وشجاعتهم وبأسهم وكثرتهم، فانظروا إلى هؤلاء البلهاء كيف يصدقون محمداً ويذهبون معه، وهكذا يكون المنافقون في كل زمان يثبطون الناس عن الجهاد، ويخوفونهم ملاقاة العدو.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللَّه عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٤٩﴾﴾ فأهل بدر عندما توكلوا

على الله سبحانه وتعالىٰ وطلبوا منه النصر متيقنين أن النصر لا يكون إلا بيده نصرهم الله وأيدهم؛ لأنه العزيز الغالب.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴿٥٠﴾﴾ لو ترىٰ يا محمد، أو لو ترىٰ أيها المخاطب وقت نزول الملائكة لأخذ أرواح الكافرين، كيف يكون حالهم عندما يضربون وجوههم وأدبارهم وقت انتزاع الروح؟ وكيف يتوعدونهم بعذاب النار؟ لرأيت أمراً فضيعاً ومرعباً.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴿٥١﴾﴾ قائلين لهم وقت نزع الروح: ذلك بسبب كفركم، وما قدمتم من الأعمال، فأنتم الذين جنيتم على أنفسكم وظلمتموها.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴿٥٢﴾﴾ عادة قريش في كفرهم وتمردهم كعادة آل فرعون ومن سبقهم ممن كفروا وتمردوا، فكما أن الله سبحانه وتعالىٰ قد أخذهم بذنوبهم وتكذيبهم بآيات الله وعذبهم، كذلك قريش أخذهم الله يوم بدر بذنوبهم وعذبهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٥٣﴾﴾ غيَّر الله سبحانه وتعالىٰ على آل فرعون، وعلىٰ كفار قريش بسبب تغيرهم في أنفسهم بأن بدلوا شكر الله سبحانه وتعالىٰ بالكفر والشرك، فلا يغير تعالىٰ نعمته على قوم إلا إذا تسببوا في تغيير النعم بارتكاب ما يسخط الله تعالىٰ من الكفر والفسوق والعصيان.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ﴿٥٤﴾﴾ فحال قريش كحال هؤلاء الذين كذبوا بأنبيائهم، كقوم نوح وقوم صالح وقوم هود وغيرهم عندما كذبوا أهلكهم الله سبحانه وتعالىٰ بذنوبهم.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴿٥٥﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن الكافرين شر الدواب التي تدب على الأرض، فما من دابة تسير على الأرض إلا وهؤلاء الكافرون شر عند الله منهم.

والدابة في اللغة: اسم لكل ما يدب على الأرض، ثم أطلقه أهل العرف على ذوات الأربع، وقد استعمله في الآية على أصل اللغة.

﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ﴿٥٦﴾﴾ إذا حصل بينهم وبين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عهد وهدنة وصلح- نقضوا ذلك لأنهم ليسوا من أهل الوفاء، ولا يتقون نقض العهود.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴿٥٧﴾﴾ إذا تمكنت منهم في حرب فافتك بهم واقتلهم حتى يعتبر بهم الذين من خلفهم، فيكفوا عن التعرض للإسلام وأهله.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴿٥٨﴾﴾ إذا خفت يا محمد أي ضرر من المشركين؛ فإن كان بينكم أي عهد فأعلن بين الناس أنك بريء مما بينك وبينهم من عهد وصلح، وانقض العهد الذي بينك وبينهم على مسمع من جميع الناس؛ لئلا يلحقك مذمة من أحد إن قتلت منهم أو نحو ذلك فيقولوا: نقض محمد العهد والميثاق، فاحرص أن يعلم جميع الناس.

وقد أرسل محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عليًّا بهذه البراءة يعلن بها في الناس يوم الحج الأكبر: أن الله بريء من المشركين ورسوله، فسمعت بهذه البراءة جميع قبائل العرب؛ فإذا كان كذلك، فلن يجد أحد طريقا إلى اتهام محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بنقض العهود والمواثيق، لأن نقض العهد خيانة، والله سبحانه وتعالى لا يحب الخائنين.

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴿٥٩﴾﴾ لا تظنن يا محمد بأن الذين كفروا قد فاتوا على الله سبحانه وتعالى فهو ليس بعاجز عن أخذهم،

وسيلحق بهم متى ما أراد، وكان النبي ﷺ قد ظفر بالكثير منهم، وبعضهم قد هرب، فأخبره الله سبحانه وتعالىٰ بأنهم لن يفوتوه، بل سيلحقهم وليس بعاجز عن ذلك.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ المؤمنين بالاستعداد للمشركين بكل ما استطاعوا من قوة.

﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ وبأن يجهزوا الخيول ويربوها.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ فإن المشركين إذا رأوا ما قد أعددتم لهم خافوا منكم، وكذلك أناس غير هؤلاء الذين هم ظاهرون أمامكم علىٰ الساحة من اليهود والمشركين إذا رأوا ذلك- خافوا منكم وحسبوا لكم ألف حساب، ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن صفة هؤلاء الآخرين فقال: ﴿لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ والمراد بهؤلاء الآخرين: المنافقون؛ لأنهم كانوا موجودين في المدينة بين أظهر المسلمين يتحينون الفرصة للنبي ﷺ ومن معه، فإذا رأوا قوة المسلمين خافوا وانزجروا.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴿٦٠﴾﴾ فأي نفقة تنفقونها في هذا السبيل الذي هو إعداد العدة ورباط الخيل؛ فاعلموا أن الله سبحانه وتعالىٰ سيوفيكم أجر ذلك، ولن ينقص من أجوركم شيئا.

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿٦١﴾﴾ إذا مال عدوكم إلىٰ السلم، وطلبوا الهدنة- فاقبلوا ذلك؛ فإن حصل منهم أي خيانة فأعلن بين الناس بنقض ذلك العهد كما أخبر الله سبحانه وتعالىٰ في الآية السابقة.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴿٦٢﴾﴾ إذا طلب المشركون منك السلم والصلح وهم في الواقع مضمرون لك الخديعة فاعلم بأن الله سبحانه وتعالىٰ سيكفيك شرهم وسينصرك عليهم.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فقد أيدك الله سبحانه وتعالى بالمؤمنين الذين آمنوا بك، وهو الذي ألف بينهم.

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٦٣﴾﴾ وهم الأوس والخزرج جمع الله سبحانه وتعالى بينهم، وزرع الألفة بين قلوبهم؛ فتآخوا بعد أن كانوا أعداءً قبل ذلك، وكانت العداوة قد استحكمت بينهم زماناً طويلاً، وصار بينهم قتل وقتال وثارات على مدى مائة وعشرين عاماً، وعندما جاء الإسلام جمع بين هاتين القبيلتين وذهب ذلك الذي كان بينهم، وأصبحوا إخوة متآلفين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴿٦٤﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن في هؤلاء الذين قد آمنوا معه الكفاية للقيام بأمر الجهاد معه مع تأييد الله سبحانه وتعالى ونصره، والوقوف في أوجه أعداء الإسلام من المشركين واليهود والمنافقين وغيرهم، وسيحمون الإسلام، وفيهم الكفاية لنشره في الأرض، ولن تحتاج إلى أحد غيرهم؛ فتوكل على الله سبحانه وتعالى، وامض بهم لما أمرك الله به.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ يحث الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على تحريض المؤمنين على القيام بأمر الجهاد.

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴿٦٥﴾﴾ نزلت هذه الآية في أول الإسلام وهو أن الفرد الواحد من المسلمين مقابل عشرة من المشركين، وذلك لأن المسلمين في أول الإسلام كانوا قلة قليلة، فأمرهم الله سبحانه وتعالى بأن يثبتوا على القتال إذا كان الأمر كذلك، وألا يفروا، ثم بعد ذلك كثر المسلمون وصاروا أهل كثرة، فحينها خفف الله سبحانه وتعالى عنهم هذا التكليف بقوله: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن

مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴿٦٦﴾ خفف الله سبحانه وتعالىٰ على المسلمين عندما أصبحوا كثرة من العشرة إلىٰ الاثنين لكل واحد.

ومعنىٰ ذلك: أنه لا يجوز لهم أن يفروا أو يتراجعوا عن مواجهة المشركين في حال كهذه، وهو ما داموا مثل نصف المشركين، وأن القتال قد وجب عليهم، والله سبحانه وتعالىٰ سيؤيدهم بنصره.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٦٧﴾﴾ في يوم بدر أسر المسلمون من جيش المشركين سبعين أسيراً، وقتلوا منهم سبعين من صناديد قريش وكبارهم، والله سبحانه وتعالىٰ كان يحب قتل هؤلاء الأسرىٰ وكذلك نبيه ﷺ؛ وكان من المتعارف أن من أسر أسيراً فهو له: إن شاء أخذ الفدية، وإن شاء قتله، فنصحهم النبي ﷺ ألا يقبلوا فيهم فدية وأن يقتلوهم، فشكوا إلىٰ النبي ﷺ الضعف والحاجة إلىٰ المال لأجل أن يستقووا به علىٰ الأعداء وينفقوا منه في سبيل الله، وينفقوا منه علىٰ أهاليهم وأولادهم ما دام قريش أصحاب أموال طائلة فسيدفعون في أسراهم أموالاً كثيرة؛ فإن رأيت أن نطلب الفدية؟

فأخبرهم النبي ﷺ بماذا سيحصل لهم إن أخذوا الفدية، وأنه سيقتل مقابل كل أسير يأخذون فديته رجل من المسلمين، ولكنهم ألحوا عليه في ذلك حتىٰ أشفق عليهم، ووافق علىٰ مطلبهم هذا بعد أن حذرهم عواقبه، وأخبرهم أيضاً أن الله سبحانه وتعالىٰ يريد لهم القتل، وأنه ما ينبغي لنبي أن يأسر ويأخذ الفدية إلا بعد أن تمتلئ الأرض من قتلىٰ المشركين ودمائهم، وأنه ينبغي أولاً أن يبني المسلمون هيبة الإسلام، ولن يكون له هيبة حتىٰ يفعلوا ذلك ويقتلوهم، فإذا استقوىٰ الإسلام، وصار له كيان ودولة- كان لهم حينئذ أن يأخذوا الفدية.

ومعركة بدر هذه كانت أول معركة في الإسلام مع المشركين، ففي أخذهم الفدية إظهار للضعف أمام المشركين؛ ولذلك عاتبهم الله سبحانه وتعالىٰ بهذه الآية ووبخهم، وأخبرهم بأنهم قد أخطئوا في فعلهم هذا، وأنهم لو قتلوهم لكان ذلك أشد وقعاً علىٰ المشركين، وأوجع لهم وأعز للإسلام وللمسلمين، ولكنكم أيها المسلمون آثرتم عرض الدنيا، وهو أخذ الفداء، والله سبحانه وتعالىٰ يريد أن يقوي جانب الحق، ويزيد من هيبته، وذلك لن يحصل إلا بقتلهم.

﴿لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿٦٨﴾﴾ لولا أن الله سبحانه وتعالىٰ قد كتب في كتابه أنه لن يعذب أحداً حتىٰ يبين لهم ما يتقون- لعذب المسلمين علىٰ أخذهم الفدية، فالله سبحانه وتعالىٰ غير مريد لهم أن يأخذوا الأسرىٰ، وإنما أراد أن يقتلوهم في الحال، فما إن استفدت الأسرىٰ أنفسها حتىٰ بدأت تعد العدة للانتقام من المسلمين، وأخذ الثأر منهم علىٰ ما حصل عليهم.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٦٩﴾﴾ أباح الله سبحانه وتعالىٰ الأكل من الغنائم، وأما الأسرىٰ فما كان ينبغي أن يستفدوهم وإنما كان جزاؤهم القتل.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٧٠﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يسأل الأسرىٰ إذا كانوا يريدون الإيمان، ويسألهم إن كان قد دخل في قلوبهم، وأن الأولىٰ بهم أن يؤمنوا، وسيعوضهم الله سبحانه وتعالىٰ بدل الفدية التي دفعوها بخير منها؛ لأن المسلمين كانوا يستبقون الأسير بينهم إلىٰ أن يأتي أهله ليستفدوه، فأمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يوعظ هؤلاء الأسرىٰ لعلهم يؤمنون.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٧١﴾﴾ كان المسلمون بعد أن يأخذوا الفدية عن الأسير لا يسرحونه إلا بعد أن يأخذوا منه العهود على عدم قتال النبي ﷺ أو التعرض للإسلام والمسلمين، فإذا أرادوا بعد عهدهم هذا الخيانة- فالله سبحانه وتعالى فوقهم، ولن يفلتوا منه؛ وقد جربوا عندما خانوا قبل ذلك، عندما رفضوا أن يؤمنوا به ويوفوا بعهده كيف مكن المسلمين منهم ومن أسرهم، فإن هم هموا بالخيانة ثانية فسيحصل لهم ما قد حصل لهم من قبل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾ المؤمنون الذين هاجروا إلى المدينة، وجاهدوا مع النبي ﷺ، وكذلك الذين آمنوا من أهل المدينة من الأوس والخزرج الذين آووا إخوانهم المهاجرين إليهم، ونصروا الإسلام والنبي ﷺ- أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بأن بعضهم أولياء بعض؛ فينبغي أن يجتمعوا جميعاً، ويتناصحوا فيما بينهم، وألا يناصحوا الكفار واليهود، ولا يوالوهم، وأن يقطعوا كل ما بينهم من صلات.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ﴾ الذين آمنوا في مكة ورفضوا الهجرة مع النبي ﷺ إلى المدينة، ومكثوا بين المشركين؛ فهؤلاء لا يجوز لكم موالاتهم ولا مناصرتهم، ولا إطلاعهم على شيء من أسرار الإسلام والمسلمين، واتركوهم فإن حكمهم حكم المشركين في المعاملة الدنيوية، وأما فيما بينهم وبين الله فذلك إليه تعالى.

﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ أما إذا طلبوا منكم أن تنصروهم في الدين فانصروهم على أعدائهم.

﴿إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴿٧٢﴾﴾ إذا استنصروكم على قوم بينكم وبينهم عهد وصلح- فلا تنصروهم عليهم.

﴿وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾ فلا تناصروهم ولا توالوهم، واتركوهم يتناصرون فيما بينهم.

﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴿٧٣﴾﴾ إذا واليتم أيها المؤمنون الكفار وناصرتموهم وأطلعتموهم على أسرار الإسلام والمسلمين- فسيؤدي ذلك إلى فساد في الأرض وفتنة تعمكم جميعاً.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴿٧٤﴾﴾ فالمؤمنون الذين هاجروا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجاهدوا معه، وكذلك الذين آووهم ونصروهم من أهل المدينة، ولم يوالوا الكفار ولم يناصحوهم؛ فهؤلاء هم الذين يستحقون اسم الإيمان والمغفرة، والرزق الكريم في جنات النعيم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ﴾ فقد أصبحوا منكم، وقد صاروا لكم أولياء.

﴿وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللَّه بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿٧٥﴾﴾ فالرحم أولى برحمه في الميراث والنصرة والنفقة ونحو ذلك، وهذا حُكْمٌ حَكَمَ به الله وأنزله في كتابه.

تمت سورة الأنفال

ويليها سورة التوبة

❁❁❁❁❁

سورة التوبة

﴿بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ۝١﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يعلن في الناس نقض العهد الذي بينه وبين المشركين وأن الله تعالى بريء ورسوله ﷺ من كل عهد وذمة بين المشركين وبين رسول الله ﷺ.

﴿فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ وأمهلهم أربعة أشهر، يسيرون في الأرض، ويتنقلون فيها آمنين، فإذا انقضت الأربعة الأشهر فالله ورسوله بريئان منكم، وقد كانت هذه البراءة بعد فتح مكة.

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ۝٢﴾ أخبرهم يا محمد أنهم لن يستطيعوا الفرار من الله سبحانه وتعالى، فهو متمكن منهم أينما ذهبوا.

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ والمراد به أن يعلن النبي ﷺ بين الناس يوم الحج الأكبر في منى؛ لأن الناس يكونون فيه مجتمعين، فأمره الله سبحانه وتعالى أن يعلن في هذا اليوم بانقطاع العهد الذي بينه وبين المشركين.

﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ﴾ أعلن النبي ﷺ يوم الحج بهذا الكلام وهو: إن تبتم أيها المشركون كان هذا أسلم لكم، وإن توليتم فاعلموا أنكم قد عرضتم أنفسكم للهلاك، ولن تعجزوا الله سبحانه وتعالى بالفرار منه.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ۝٣﴾ وهذا من جملة ما أعلن به النبي ﷺ في نص البراءة.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً﴾ استثنى الله سبحانه وتعالى منهم الذين يوفون معكم بعهودهم، ولم ينقضوا لكم عهداً.

﴿وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً﴾ لم ينصروا أحدا عليكم ﴿فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّه يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴿٤﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ألا يتبرأ من هؤلاء الذين عاهدوا ووفوا بعهودهم، وأن يوفوا بعهودهم إلىٰ أن تنقضي المدة المحددة لذلك، المذكورة في بنود العهد التي قد كتبتموها، وأما البراءة فليست إلا من أولئك الذين هم أهل غدر وخيانة.

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد بعث أمير المؤمنين عليه السلام بهذه البراءة لمصلحة في ذلك؛ لأنه إذا كان كبير القوم أو مبعوثه المقرب إليه هو الذي أعلن نقض العهد أخذه السامعون مأخذ الجد.

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ وهي الأربعة الأشهر التي قد أمهلهم بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وسميت بالحرم لحرمة العهد؛ فإذا انتهت هذه المدة ﴿فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ فقد أباح الله سبحانه وتعالىٰ للمسلمين قتلهم وأسرهم، وضرب الحصار عليهم، والترصد لهم في كل طريق.

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٥﴾﴾ فقد أصبحوا إخواناً لكم؛ لأن الإسلام يجب ما قبله.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴿٦﴾﴾ إذا استجار بك أحد من المشركين يا محمد، وطلب الأمان منك أو من أحد المسلمين فآمنه ثم أسمعه كلام الله سبحانه وتعالىٰ، فإن هو قبل وآمن وإلا فاردده إلىٰ حيث يأمن، وكذلك لو أجاره واحد من المسلمين كائناً من كان ولو امرأة أو عبداً ولو بإشارة تدل علىٰ ذلك- فقد حرم قتله وحقن دمه، ووجب علىٰ المسلمين جميعا أن يؤمنوه، ثم يسمعوه كلام الله؛ فإن هو آمن وإلا فالواجب أن يردوه إلىٰ المكان الذي يصير آمنا فيه.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ فهم أهل غدر وخيانة ولن يوفوكم بعهد أيها المسلمون أو ذمة.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إلا قبيلة من المشركين كانوا قد عاهدوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عند المسجد الحرام؛ فليسوا من أهل الخيانة، وهم أهل وفاء، فأتموا لهم العهد الذي بينكم وبينهم، وأما بقية المشركين فلن يوفوا لكم بعهد أبداً، فألغوا ما بينكم من العهود، وليكن ذلك على مسمع أكثر الناس، وذلك عند اجتماعهم في منى يوم الحج الأكبر، وقد بعث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أمير المؤمنين عليا عَلَيْهِ السَّلَامُ ينادي بهذه البراءة التي هي فسخ العهود التي بينه وبين المشركين.

﴿فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾ فما داموا لم ينقضوا لكم عهداً واستمروا على الوفاء- فاثبتوا على العهد والصلح الذي بينكم وبينهم ما داموا كذلك.

﴿إِنَّ اللَّه يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ۝٧﴾ إن الله يحب الذين يتقون الخيانة والغدر، ونقض العهود.

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ كيف يكون للمشركين عهد، وهم أهل غدر وخيانة فلو أنهم تمكنوا منكم، وصارت لهم قوة يستعينون بها عليكم- فلن يراعوا فيكم أي قرابة ولا رحم ولا أي عهد، ولقتلوكم واستأصلوكم وأبادوكم.

﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ يرضونكم في ظاهر الأمر، وأما قلوبهم فهي تغلي عليكم أيها المسلمون، وهي مليئة بالحقد والغل، ولو وجدوا أي مدخل يدخلون به عليكم لأبادوكم واستأصلوكم.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ۝٨﴾ لا يراعون الحدود التي تراعى عند المشركين كالوفاء والصدق وعدم نقض العهود.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ۝٩﴾ ترك المشركون الإيمان بالله سبحانه وتعالى والتصديق بنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وآثروا الثمن القليل الذي هو متاع الحياة الدنيا؛ لأنهم كانوا يظنون أنهم لو آمنوا

وصدقوا لفاتت عليهم مصالحهم في الدنيا من الزعامة والوجاهة والثراء، فهذا هو المراد بالاشتراء.

﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ منعوا الناس عن الإيمان فمن أراد أن يذهب إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليسمع منه- حذروه وهددوه.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ۝٩﴾ فهم بعملهم هذا قد سلكوا طريق الباطل وطريق إبليس.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ۝١٠﴾ إذا تمكنوا من المؤمن ورأوا مدخلاً عليه- فلا يراعون فيه لا قرابة ولا عهداً؛ لأن طبيعتهم العدوان.

يخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية عن السبب والعلة والمبررات التي تدعوا إلى نقض العهود والمواثيق بينهم وبين المسلمين، وهي عدم مراعاة القرابة والعهد في أي مؤمن، وكذلك طبيعتهم التي انطبعوا عليها وهي العدوان على المؤمنين وعلى غيرهم.

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ۝١١﴾ فإن تابوا ورجعوا إلى الله سبحانه وتعالى وعملوا الأعمال الصالحة فهم من جملتكم أيها المؤمنون لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم.

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ۝١٢﴾ إذا نقض أولئك الذين قد عاهدوا العهود وأبرموها وحلفوا عليها- فقد أبيح لكم أيها المسلمون قتلهم وقتالهم، فما داموا قد نكثوا فلا وفاء لهم، فقاتلوهم حتى لا يعودوا إلى نقض أي عهد مرة ثانية.

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ يحث الله سبحانه وتعالى المسلمين على قتال الذين ينكثون عهودهم.

ومعنى الاستفهام: الاستنكار عليهم في عدم مقاتلتهم للمشركين، كأن

المسلمين كانوا متقاعسين عن مقاتلتهم.

﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ وقد سبق منهم سوابق ومنها أنهم هموا بإخراج الرسول ﷺ من مكة أو قتله، لولا أنه هرب وهاجر من بين أيديهم.

﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فقاتلوهم لأنهم قد بدأوا قتالكم من قبل، وذلك أن قريشاً قد خرجت في بدر إلى قتال النبي ﷺ ومن آمن معه- تريد إبادتهم واستئصالهم.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ استنكر الله سبحانه وتعالى عليهم لماذا يقعدون عن قتالهم؟ هل ذلك عن خوف منهم؟

﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴿١٣﴾﴾ فأطيعوا الله سبحانه وتعالى فهو أحق لأنه الأقوى والأعظم من قريش، إن كنتم مؤمنين حقاً.

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بقتال المشركين؛ لأنه يريد أن ينزل عليهم العذاب بأيديكم أيها المؤمنون.

﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ ويريد الله سبحانه وتعالى أن يلحق بهم الخزي والذلة في الدنيا.

﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴿١٤﴾﴾ ويريد أن ينصركم عليهم؛ فإذا قاتلتموهم فسيعذبهم الله سبحانه وتعالى بأيديكم ويخزيهم في الدنيا وينصركم أيها المؤمنون، ويذهب غيظ أولئك الذين قد لحقهم أذى وقهر من المشركين فإذا رأوا عدوهم مقهورين مذلين فستنشرح قلوبهم.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ إذا قتلتم المشركين سيذهب الغيظ الذي في قلوبهم مع موتهم؛ لأنهم ما داموا أحياءً فسيمكثون على أذيتكم وخيانتكم وقتالكم؛ لأن قلوبهم مليئة بالغيظ على الإسلام وأهله.

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿١٥﴾﴾ إذا قاتلتموهم فهناك أناس منهم سيتوبون ويرجعون- فيتوب الله سبحانه وتعالى عليهم ويقبلهم، فهو عالم بعواقب الأمور ومصائرها.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿١٦﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أنه لا يصح أن يترككم على هذه الحالة حتى يختبركم ويمتحنكم ويبتليكم بالجهاد؛ لأجل أن يظهر كل واحد، ويتميز الخبيث من الطيب، ولتتبين مراتبهم ومنازلهم في الإيمان من خلال ذلك؛ فالمؤمن الصادق سيثبت وسيصبر.

لأن حكمة الله سبحانه وتعالى قد اقتضت أن يتميز صادق الإيمان من غيره، وسوف يظهر أولئك الذين كانوا لا يزالون على صلاتهم مع المشركين، وعلاقاتهم لا زالت وثيقة بهم.

والمراد بـ﴿وَلِيجَةً﴾ هي الطريق التي يدخلون منها إليهم، فبالحرب سيظهر أولئك الذين لا زالت لهم طريق إلى المشركين، ومصالح تربطهم بهم، فهم قد أسلموا، ولكنهم قد استبقوا لهم خط رجعة يرجعون منها إليهم إذا احتاجوهم، وهؤلاء هم المنافقون.

وأما الله سبحانه وتعالى فهو عالم بهم وبأعمالهم، ومطلع على ضمائرهم، ولكن حكمته اقتضت ألا يعاقب أحداً إلا بعد أن يظهر ذلك المرض الذي في باطنه، فعند ذلك يبتليه ويختبره؛ فمن خلال ذلك سيظهر المرض الذي بداخله.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴿١٧﴾﴾ يستحث الله سبحانه وتعالى المؤمنين هنا على قتال المشركين، فقال: إنه لا ينبغي أن يسيطر المشركون على المسجد الحرام، ولا أن يعمروه بمعاصيهم، والمفروض أن المؤمنين هم الذين يسيطرون عليه ويعمرونه بالصلوات وبذكر الله سبحانه وتعالى وبعبادته.

فما ينبغي لهم ذلك وهم شاهدون، ومصرحون على أنفسهم بالكفر، وذلك بعبادتهم الأصنام؛ لأن عبادتها تعتبر إعلاناً وتصريحاً بالكفر.

وأعمال البر التي يعملها المشركون لن تقبل منهم، ولن يثيبهم الله سبحانه وتعالى عليها كسقاية الحاج، وإطعامهم وإكرام الضيف وإغاثة الملهوف، وإيواء الجار، ونصرة من استنصر بهم، وقد كانوا يتنافسون في مكارم الأخلاق، ويتبارون فيها، فأخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أن أعمالهم الخيرية هذه ستذهب هباءً منثوراً، ولن يتقبلها منهم، وإنما جزاؤهم نار جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ الله سبحانه وتعالى لم يحكم بعمارة المسجد الحرام إلا لهؤلاء المذكورين في هذه الآية، فهم الذين يستحقون أن يعمروها باستحقاق منه، ولم يجعل ولاية بيته الحرام إلا لأهل هذه الصفات.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ كان المشركون يزعمون أنهم أفضل من المؤمنين، ويذكرون مفاخرهم التي يستحقون الفضل لأجلها، كسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام التي هي سدانته والولاية عليه، والسدانة هي: تولي فتح الكعبة وكنسها وتنظيفها؛ فأنكر الله تعالى زعمهم ذلك، وأخبرنا بأنهم ليسوا من الفضل في شيء، وأن الفضل عند الله هو لمن آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد في سبيل الله.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ فهؤلاء هم الذين ظفروا بثواب الله سبحانه وتعالى، وفازوا به، واستحقوا الدرجات الرفيعة عند الله سبحانه وتعالى، وأما أولئك الذين يتفاخرون بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام- فلا حظ لهم ولا نصيب في ثواب الله ورحمته، وأولئك هم الخاسرون.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ يبشر الله أولئك الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، ويعدهم برحمة عظيمة، ورضوان كبير منه.

﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ۝٢١ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ نعيم دائم لا ينقطع ولا ينتهي.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٢﴾ لأولئك المؤمنين بالله سبحانه وتعالى والمجاهدين في سبيله.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٢٣﴾ فاقطعوا أيها المؤمنون ما بينكم وبين آبائكم وإخوانكم من صلات وعادوهم في الله سبحانه وتعالى، ولا تواصلوهم وتخبروهم بأسرار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وأسرار الإسلام والمسلمين، واتركوا مناصحتهم ومخالطتهم، ما داموا على الكفر والشرك، ومن تولاهم أو نصح لهم فهو من الخاسرين.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ كان في المسلمين منافقون ضعيفو الإيمان، وكانوا يميلون بمحبتهم ومناصحتهم إلى أقربائهم المشركين وعشائرهم الكافرة من أجل سلامة أموالهم وتجاراتهم، وسلامة مساكنهم وأولادهم، أي من أجل ألا يتعرض لها المشركون، ويتركون طاعة الله تعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ويتركون الجهاد في سبيل الله؛ فأخبر الله تعالى هؤلاء المنافقين بسوء اختيارهم، وأنه قد أرصد لهم عذابه على عملهم ذلك، وهو واقع بهم، فلينتظروه.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى على المسلمين عدم مواصلتهم للجهاد مع علمهم بأنه قد نصرهم في جميع المواطن التي تقدمت، وهذه عادة الله وسنته فيكم فقد نصركم فيما مضى، وسينصركم

فيما يستقبل فلماذا تتباطؤون عن الجهاد، وتتكاسلون عنه.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ وكذلك نصركم في غزوة حنين، ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن حالتهم في ذلك اليوم، وأنهم أعجبوا بكثرتهم، وأنهم أظهروا ذلك الإعجاب وتحدثوا به، وكانوا نحواً من اثني عشر ألف مقاتل، فعندما رأوا كثرتهم هذه اغتروا بها، وظنوا أنه لن يستطيع أحد أن يغلبهم، وقد انضم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم للقتال ألفين من الذين أسلموا من مكة بعد فتحها، وكانوا قبل ذلك عشرة آلاف مقاتل؛ فلما رأوا ما بهم من الكثرة أعجبوا بأنفسهم، وداخلهم الغرور والخيلاء.

﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴿٢٥﴾﴾ فلم تنفعكم كثرتكم هذه التي أعجبتم بها، ففررتم هاربين حتى أن الأرض لم تسعكم من شدة الخوف والجبن حال هروبكم.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بقي قلة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثابتين معه، لا يتجاوزون العشرة منهم علي والعباس والحارث بن المطلب وأيمن ابن أم أيمن، وهو من الموالي، ومن كان مع النبي من عبيده يحرسونه، ويضربون بسيوفهم يذودون عنه؛ فأخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم حفنة من تراب فألقاه في أوجه المشركين وعند ذلك أنزل الله سبحانه وتعالى نصره على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، والثابتين معه فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم العباس بأن ينادي في الأنصار: يا أهل بيعة الشجرة ويا أهل بيعة كذا، وكان العباس جهوري الصوت حتى قيل عنه إن الحبلى كانت إذا سمعت صوته أخدجت وسقط ما في بطنها من شدة صوته، وعندما ناداهم رجعوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم حينئذ، ولكن لم يرجعوا إلا بعد أن أنزل الله سبحانه وتعالى نصره.

والسكينة هي الطمأنينة في القلب أنزلها الله سبحانه وتعالى على النبي والذين ثبتوا معه.

﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهي الملائكة، ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ۝٢٦﴾ عذب الله سبحانه وتعالىٰ الكافرين بالقتل، وجعله جزاءً لهم علىٰ كفرهم.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ۝٢٧﴾ وهم أهل الطائف الذين خرج النبي ﷺ لغزوهم وقتالهم في حنين، وقد هزم الله سبحانه وتعالىٰ الكافرين، وعذبهم بالقتل علىٰ أيدي المسلمين وبالأسر لنسائهم وتغنم أموالهم، وأما بعضهم فقد أتوا إلىٰ النبي ﷺ بعد ذلك وأسلموا عنده فتاب الله عليهم، وأما من بقي علىٰ تكبره وإصراره فلن يغفر الله سبحانه وتعالىٰ له.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وكان هذا الحكم عليهم بعد أن نادىٰ أمير المؤمنين بالبراءة من المشركين ونقض ما بينهم من العهود، وكانت في السنة العاشرة، قال بعد أن قرأ عليهم براءة: ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومنعهم عن ذلك.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ۝٢٨﴾ إن خفتم علىٰ تجاراتكم من النقص والضعف عند منع المشركين من الحج- فاعلموا أن الله سبحانه وتعالىٰ هو الرزاق، وسيفتح لكم باب رزق من غيرهم؛ وكأن المسلمين اغتموا لذلك وخافوا علىٰ تجاراتهم وأرزاقهم، فأزال الله ذلك الخوف بوعده لهم بالغنىٰ من فضله الواسع.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ۝٢٩﴾ ثم بعد الانتهاء من أمر المشركين أمر الله سبحانه وتعالىٰ المسلمين بقتال اليهود والنصارىٰ إلىٰ أن يخضعوا لهم ويعطوا الجزية ويكونوا تحت رحمتهم، صاغرين ذليلين مقهورين، أو يؤمنوا.

فبعد أن فتح النبي ﷺ خيبر ودخلها صالحه أهلها على أن يبقوا في أرضهم على أن يصلحوا أموالها وأن يعطوا النبي ﷺ نصف ما تغله، فأجابهم النبي ﷺ إلى ذلك: على أنا متى شئنا أن نرحلكم منها رحلناكم، فمكثوا على ذلك الصلح، ولم يخرجوا منها إلا بعد موت النبي ﷺ أخرجهم عمر إلى الشام، كما فعل مثل هذا بغيرهم من أهل الكتاب.

والمراد بـ﴿يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ۝٢٩﴾: هو أن يدفعوا الجزية عداً ونقداً لا أجل فيها ولا مهلة، ومع ذلك يؤدونها وهم صاغرون، وذلك بأن يمسك المسلمون الذمي بتلابيبه إلى صندوق دفع الجزية حتى يضع ما في يده، ويكون ذلك في رأس كل سنة: الفقير يعطي اثني عشر درهماً، ومتوسط الحال أربعة وعشرين، والغني ثمانية وأربعين درهماً، وليست إلا على الرجال الذين يستطيعون حمل السلاح، أما النساء والصبيان وكبار السن الذين لا يستطيعون القتال فلا شيء عليهم.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ قول اختلقوه من عند أنفسهم، ولا أصل له في الصحة، وليس إلا كذباً وافتراءً.

﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ ادعت اليهود والنصارى بنوة عزير وعيسى عليهما السلام لله سبحانه وتعالى ودعواهم هذه الباطلة مشابهة لقول الذين كفروا من قبلهم.

﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ قاتلهم الله: أي لعنهم الله، فكيف يصرف هؤلاء عن الحق والتوراة والإنجيل بين أيديهم فيهما حكم الله، وفيهما الهدى والنور، ويذهبون إلى تلك الأقوال التي تؤدي إلى الكفر والبهتان العظيم، وما هو الذي صرفهم عن الهدى والنور الذي بين أيديهم؟

يُعَجِّبُ الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ هنا من شدة كفرهم بالله سبحانه وتعالىٰ وتمردهم، بالرغم من وجود التوراة والإنجيل بين أيديهم.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن اليهود والنصارىٰ بأنهم جعلوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً لهم من دون الله، والمراد بهذا أنهم كانوا يمتثلون لما أمروهم به، وينتهون عما نهوهم عنه، حتىٰ ولو أدىٰ ذلك إلىٰ معصية الله سبحانه وتعالىٰ، وجعلوا أوامر الله سبحانه وتعالىٰ ونواهيه وراء ظهورهم.

والأحبار هم علماء اليهود، والرهبان هم علماء النصارىٰ، وأخبر الله سبحانه وتعالىٰ عنهم بأنهم قد اتخذوا المسيح ابن مريم إلهاً.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ لم يأمرهم الله سبحانه وتعالىٰ في التوراة والإنجيل وعلىٰ ألسنة أنبيائهم إلا بعبادته وحده، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا يستحق الربوبية إلا هو ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ تقدس وتنزه عن الآلهة التي يدعون أنها شركاء لله سبحانه وتعالىٰ.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ يريد أهل الكتاب أن يمحوا ما أنزل الله سبحانه وتعالىٰ، ويبدلوه بأكاذيبهم وحيلهم ومكرهم؛ وقد كانوا أهل دهاء ومكر شديدين، وكانوا أصحاب سياسة، ومن مكرهم ودهائهم أنهم لم يحملوا سلاحاً ضد النبي ﷺ وأصحابه، ولم يفكروا بحرب الإسلام بسيوفهم مع كثرتهم وقوتهم وعدتهم وعتادهم وغنائهم وتجارتهم، ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر:١٤]، وإنما كانوا يدبرون للنبي ﷺ الحيل، ويكيدونه من حيث لا يشعر ويحيكون المؤامرات لإطفاء الإسلام، وإبطال نبوة محمد ﷺ، ويدخلون الشبه على المسلمين، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ قد وعد بأن يبطل حيلهم وشبههم هذه ومؤامراتهم، وأن يظهر دينه على كل الأديان على رغم

أنوف اليهود والنصارى والمشركين.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ۝٣٣﴾ أرسل الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بدين الحق ليظهره على جميع الأديان التي كانت سائدة في الأرض، ويكون دينه هو الدين السائد عليها، والمهيمن عليها، والناسخ لها؛ فهذا هو الغرض من إرساله.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ۝٣٤﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن كثيراً من أحبار اليهود ورهبان النصارى يأكلون أموال الناس رشوة على تحريف التوراة والإنجيل، وأنهم يضلون الناس عن الدين الذي أنزله الله سبحانه وتعالى في كتبهم؛ يحذر الله سبحانه وتعالى المسلمين في هذه الآية ألا يعملوا عمل اليهود والنصارى.

﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فإذا أراد أحد أن يؤمن منعوه عن الإيمان وقالوا له إن محمدا هذا ليس إلا ساحراً وكذاباً وأنه ليس ذلك النبي الذي بشرت به التوراة والإنجيل وأوصافه لا تنطبق على الأوصاف التي ذكرت فيها.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لا يخرجون زكاتها فهم من أهل وعيد الله بعذاب جهنم.

فإن قيل: هل يدخل في هذا الوعيد كل من خزن أمواله؟

فإنه يجاب عليه: بأن الوعيد هذا ليس إلا لمن لا يخرج زكاة ماله، وأما ما دام قد أخرج زكاته فلا بأس عليه ولا ضير، ولو كنز القناطير المقنطرة وخزنها.

﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ سوف يحمي الله سبحانه وتعالى الذهب والفضة التي كانوا يكنزونها، ولا يؤدون حق الله فيها، ثم يعذبهم بها؛ فإذا عرف أنه يعذب بذلك المال الذي كان يخزنه ويدخره- فإن ذلك سيزيده حسرة وندماً في نفسه.

﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴿٣٥﴾﴾ فذوقوا عذاب ما كنزتموه.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ يريد الله سبحانه وتعالى بهذه الشهور- الشهور القمرية، فهي اثنا عشر شهراً منذ أن خلق السماوات والأرض، وجعل منازلها ومنازل الليل والنهار على حساب هذه الأشهر.

﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ بين هذه الاثني عشر شهراً أربعة أشهر حرم يحرم عليكم القتال فيهن، وهي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم.

﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن الالتزام بحرمة هذه الأشهر الحرم هو الدين الحق، فلا تنتهكوا حرمة هذه الأشهر، ومن انتهكها فقد ظلم نفسه؛ لأنه جرَّ عليها سخط الله ونقمته.

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴿٣٦﴾﴾ وأما المشركون فقاتلوهم ولو في هذه الأشهر؛ لأنهم سيقاتلونكم فيها لو تمكنوا، ولن يرقبوا فيكم إلًّا ولا ذمة، ولأن قتالكم لهم ليس إلا دفعاً لشرهم ودفاعاً عن أنفسكم، وأما هم فمصرون على قتلكم وقتالكم واستئصالكم في أي وقت تمكنوا من ذلك، غير مراعين لحرمة وقت ولا مكان، ولا حرمة عهد ولا ميثاق، فقاتلوهم فالله معكم ما دمتم متقين لمعاصيه وسينصركم ويؤيدكم.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الأشهر الحرم هي أربعة: رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم؛ فإذا دخل رجب مثلاً وهم في حرب استحلوا حرمته وحرموا مكانه شهر شعبان، وهكذا في ذي القعدة وذي الحجة ومحرم؛ فأخبر الله سبحانه وتعالى أن فعلهم هذا إنما هو زيادة في كفرهم وتمردهم وعصيانهم.

﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ضل المشركون وتوغلوا في الضلال بسبب

صنيعهم هذا، فأضلوا أتباعهم.

﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ هكذا من تلقاء أنفسهم يستحلون حرمته في هذه السنة، وإذا جاءت السنة الأخرىٰ يجعلونه حراماً بسبب تلاعبهم بالأشهر الحرم.

﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ يفعلون ذلك لأجل قضاء أربعة أشهر في السنة بدل التي ضيعوها ظناً منهم أنهم إذا فعلوا كذلك فقد راعوا حرمتها.

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴿٣٧﴾﴾ يرون صنيعهم هذا الذي زينه لهم الشيطان حسناً، وهم يظنون أنهم بهذا في خير العمل، وأنه عمل بِرٍّ يرضاه الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالىٰ المؤمنين: ما لكم إذا دعاكم النبي ﷺ إلىٰ الخروج للجهاد معه في سبيل الله تباطأتم عن الخروج معه، وتقاعدتم عنه، مؤثرين لمتاع الدنيا الفانية بين نسائكم وأولادكم وأموالكم وتجاراتكم، وكان هذا في آخر غزوة غزاها النبي ﷺ، وهي غزوة تبوك.

﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ استنكر الله سبحانه وتعالىٰ عليهم تثاقلهم عن الخروج، وإيثارهم لمتاع الدنيا الفانية علىٰ الدار الآخرة الباقية.

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴿٣٨﴾﴾ فكيف تؤثرونها وليست شيئاً بالنسبة للحياة الآخرة.

﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٣٩﴾﴾ إذا لم تنفروا عند دعاء النبي لكم للخروج معه في سبيل الله، وتهبُّوا للقيام معه- فسوف يلحق بكم العذاب الأليم في الدنيا بأن يسلط عليكم عدواً أو ينزل بكم نقمة من عنده، يكون فيها هلاككم؛ وكان الرسول ﷺ قد دعاهم في هذه الغزوة غزوة مؤته، وتوعدهم علىٰ القعود،

وكانوا كثرة فهددهم الله هنا بأنهم إن لم يقوموا للجهاد في سبيله ونصرة دينه فسوف يعذبهم ويهلكهم بعذاب ينزله بهم من جنس ذلك العذاب الذي عذب به أولئك الكافرين الذين كذبوا بأنبيائهم، وكفروا بهم، كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح، وأخبرهم الله سبحانه وتعالى أنهم بتقاعدهم لن يضروه شيئاً، وسيبدلهم برجال غيرهم ينصرون دينه.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾ إن لم تنصروا نبيكم أيها المسلمون وتقاعدتم عن نصرته، ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ فسوف ينصره الله سبحانه وتعالى كما نصره من قبل حين كان وحيداً ليس معه أحد إلا أبوبكر، وذلك عند خروجه من مكة مهاجراً من بين أيدي المشركين.

﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ نجاه الله سبحانه وتعالى من المشركين مع أنهم قد وقفوا على باب الغار ليس بينهم وبينه إلا بضعة أقدام، حتى قال أبو بكر: لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا، مع أن هذا الغار ليس بالواسع حتى يختبئوا فيه بحيث لا يراهم أحد، بل إنه من الصغر بحيث لو نظر الناظر من بابه لأبصر جميع ما فيه، ومع هذا فقد حفظه الله سبحانه وتعالى من المشركين مع أنهم قد وصلوا عنده، وقد خاف أبو بكر خوفاً شديداً فقال له النبي ﷺ: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما.

فإذا لم تنصروه أيها المؤمنون فسينصره الله سبحانه وتعالى كما قد نصره من قبل، ولن يخذل نبيه.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ حزن أبو بكر وتملكه الخوف وأيقن بالهلاك، فقال النبي ﷺ واثقاً بالله سبحانه وتعالى: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟ فلا تخف ولا تحزن فهو معنا ولن يخذلنا.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ جعل الله سبحانه وتعالى في قلب نبيه ﷺ الطمأنينة فلم يخف، ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ يحرسونه في طريق الهجرة، ﴿وَجَعَلَ

كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٤٠﴾﴾ رجع المشركون خائبين مهزومين، ونجى الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ منهم، وهذا نصر من الله سبحانه وتعالى عندما ينجي نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من بينهم وقد وصلوا عنده، وأكمل طريقه إلى أن وصل المدينة.

وعزيز معناه: غالب، وحكيم معناه: أن أفعاله كلها حكمة ومصلحة.

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يخرجوا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى غزوة تبوك، فكانوا متباطئين عن الخروج معه، وصادف هذا أن كان الوقت شديد الحر، والثمرة قد أقبلت؛ فكان أهل الإيمان الضعيف يعتذرون عن الخروج مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ فأمرهم الله سبحانه وتعالى بالخروج جميعا غنيهم وفقيرهم، شيبانهم وشبانهم، مشغولين أو غير مشغولين، وهو المراد بقوله ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وكل خارج يتحمل نفقة نفسه، ويحمل دابته معه، وإذا كان له مركوب زائد؛ فإنه يعيره غيره إذا أراد ذلك، وهذا في هذه الغزوة، وأما بقية الغزوات فلم يشدد عليهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وإنما كان يجعل ذلك لمن كان في سعة وكان له رغبة في الخروج، وفي هذه الغزوة استدعى الحال خروجهم جميعاً؛ لأنه كان إلى الروم، وكانوا أهل كثرة وقوة، وكان لهم دولة قوية.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن خروجهم لو كان لغنيمة يتغنمونها- لخرجوا جميعا أو كان سفرا قريبا، ولكنهم تثاقلوا في خروجهم هذا لبعد المسافة إلى مقصدهم، وكانت غزوتهم هذه تبعد مسيرة شهر، سبعمائة كيلومتر من المدينة تقريباً، مع شدة الحر في طريقهم.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ سوف يأتي هؤلاء المتخلفون عن الغزو إلى رسول الله ﷺ معتذرين إليه، وسيحلفون بأنهم لو تمكنوا من الخروج لخرجوا، يطلع الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ على أن أعذارهم هذه كاذبة، وأيمانهم التي يحلفونها أيمان فاجرة.

﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بأيمانهم هذه وعصيانهم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴿٤٢﴾﴾ في اعتذارهم هذا، وكان الله سبحانه وتعالى قد أطلع نبيه ﷺ على ذلك قبل أن يقع.

وفي خروجهم هذا أسر المسلمون بعض ملوكهم، ووقع الصلح مع بعضهم؛ لأن بلاد الروم كانت دويلات يحكمها مجموعة من الملوك تحت قيادة القيصر.

وقد اكتسب النبي ﷺ والإسلام في هذا الخروج هيبة وعزاً عند أولئك القوم، مع أنه لم تحصل مواجهة معهم.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴿٤٣﴾﴾ بعد رجوع النبي ﷺ من غزوة تبوك، وبعد أن وصل إلى المدينة، عندها أقبل إليه هؤلاء المتخلفون يعتذرون له- فيقبل أعذارهم، ويعفوا عنهم؛ فعاتبه الله سبحانه وتعالى على قبوله أعذارهم.

وقد يكون اعتذارهم هذا قبل أن يخرج إلى تبوك حين عزم على الخروج وبدأ يعد له ويجمع الناس، فيعتذرون له حينئذ فيقبل أعذارهم، فعاتبه الله سبحانه وتعالى على ذلك، وأخبره أنه كان من المفترض ألا يقبل لهم عذراً، حتى يتبين أهل الأعذار الكاذبة من الأعذار الصادقة.

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴿٤٤﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن المؤمنين بالله واليوم الآخر لن يأتوه مستأذنين في القعود كما يفعل أولئك، وسيخرجون للجهاد معك، ولن يتخلفوا تحت أي ظرف.

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴿٤٥﴾﴾ وهم المنافقون الذين في قلوبهم مرض، وهم مرتابون في صحة نبوتك يا محمد، ولا زالوا على شك في الإسلام، فهؤلاء هم الذين سيختلقون الأعذار الكاذبة؛ لئلا يخرجوا معك.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ ولكنهم لم يريدوا أن يخرجوا من أول الأمر، وليس لهم نية في الخروج.

﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ فالله سبحانه وتعالى كاره لأن يخرجوا مع نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وأن ينضموا مع جيشه، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ لم يوفقهم للخروج، ولم يجعل لهم ألطافاً ودواعي للخروج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴿٤٦﴾﴾ فقعدوا مع العجزة والنساء والصبيان في البيوت بسبب ما هم فيه من الشك في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفي دين الإسلام.

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم لو خرجوا معكم لما كان في خروجهم أي فائدة لكم، بل إن خروجهم معكم يكون سبباً للفساد.

﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ ولأسرعوا في إفسادكم، والمراد بالخلال: هو المكان الذي يتسع بين الشيئين، أراد الله سبحانه وتعالى أنهم يستغلون أي فرصة للإفساد، فإذا رأوا مجموعة يتحدثون دخلوا بينهم يشككون عليهم، ويلقون الشبه والكلام الباطل، محاولين لإفسادهم بأي طريقة استطاعوا.

﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ يريدونكم أن تفتتنوا عن دينكم، وترجعوا إلى الكفر مثلهم.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ فإذا خرجوا معكم سعوا في الإفساد فيما بينكم، وفيكم أيها المؤمنون من سيصغي إلى حديثهم ويفتتن به لضعف إيمانه.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴿٤٧﴾﴾ فهو عالم بمن هو منافق، ومن هو مؤمن، وعالم بما يصلحكم وما يفسدكم.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴿٤٨﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم عن حال هؤلاء الذين قعدوا عن الخروج، وأنهم ليسوا إلا أهل فتنة وفساد، وأنهم قد فعلوا ذلك فيما مضى من محاولة إبطال دعوتك، وطمس دينك، وزرع الفرقة بين المؤمنين، وقد اتخذوا شتى الوسائل في إفساد أمرك، ولكن الله سبحانه وتعالى قد أظهر دينه على رغم أنوفهم وهم كارهون.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴿٤٩﴾﴾ كثر المنافقون في المدينة، وذلك بعد أن انضم إليهم منافقو قريش بعد فتح مكة، وقد أصبح لهم كيان في المدينة، وصاروا أهل صولة وجولة، لولا تأييد الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بنصره لقضوا على الإسلام والمسلمين.

أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن من المنافقين من يعتذر إليه بأنه سيفتتن ببنات الروم إن هو خرج، فأخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن هذا المعتذر بالفتنة قد سقط في الفتنة وقت اعتذاره هذا بمعصيته لله ورسوله في عدم الخروج.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴿٤٩﴾﴾ وعيد من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء المتخلفين بأنهم من أهل جهنم في جملة الكافرين.

﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ إذا انتصرت وظفرت بعدوك وغنمت أموالهم استاء المنافقون من ذلك واغتموا.

﴿وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ إذا حصل عليك نكسة وهزيمة وظفر العدو بالمسلمين وانتصر عليهم: ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ يقول المنافقون لهم: هذا ما كنا نتوقعه وقد حسبناه؛ فلذا لم نخرج معكم، وأن هذا الأمر قد تدبرناه، وتدبرنا عواقبه، ورأينا أن المصلحة في عدم الخروج.

﴿وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴿٥٠﴾﴾ في عدم خروجهم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأن هذا كان من حسن التدبير والسياسة.

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يجيب على المنافقين بأنه لن يصيبنا إلا ما قد كتبه الله لنا، فهو ولينا وناصرنا.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴿٥١﴾﴾ فقد توكلنا عليه، وفوضنا أمورنا إليه وخرجنا؛ فما لحقنا فهو شيء قد كتبه الله علينا لمصلحة يعلمها لنا.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا﴾ كان المنافقون يقولون: إن الدين هذا ليس إلا رياحاً هبت وسرعان ما ستنجلي، يصبر بعضهم بعضا بأن الدين هذا سيذهب وسينتهي، وما هو إلا عاصفة عصفت سرعان ما تنتهي، وسيرجع كل شيء إلى ما كان عليه.

وكانوا منتظرين متى ستأتي على المسلمين نكسة، وينتهي الدين، وينتهي الإسلام، ظانين أن دعوة محمد ﷺ لن تتم أبداً، فأمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يقول لهم: لستم منتظرين لنا إلا إحدى اثنتين: إما أن نقتل في سبيل الله فنفوز عنده بالنعيم الدائم في جنات النعيم، وإما النصر والظفر بالعدو، وكل ذلك حسن مرغوب فيه.

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ وبأن يقول لهم: أما نحن فمنتظرون لكم أحد أمرين ينزلها الله بكم: إما أن ينزل بكم ساخطة من السماء تهلككم، أو أن الله سبحانه وتعالى يسلطنا عليكم فنقتلكم، وكان النبي ﷺ ومن معه منتظرين لأمر الله في شأن المنافقين وقتالهم، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يأمر نبيه ﷺ بذلك حتى مات، وذلك لأنهم كانوا يتسترون بالإسلام، ولم يظهروا كفرهم، وإذا ظهر منهم شيء ذهبوا يعتذرون للنبي ﷺ.

وما دام الأمر كذلك ودين الله سبحانه وتعالىٰ هو الظاهر فهذا هو المطلوب عند الله سبحانه وتعالىٰ، فيعاملون معاملة المسلمين في التناكح والتوارث، ويقبرون في مقابر المسلمين، وكان النبي ﷺ يصلي عليهم قبل أن يأمره الله سبحانه وتعالىٰ بترك الصلاة عليهم، وقد فعل النبي ﷺ ذلك مع عبد الله بن أبي رأس المنافقين، وقد كفنه في ثوبه، وصلىٰ عليه، ووقف علىٰ قبره إلىٰ أن انتهىٰ الدفن، ثم نزلت بعد ذلك الآية التي تنهاه عن الصلاة علىٰ المنافقين، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فلم يصل النبي ﷺ علىٰ أحد منهم بعد ذلك.

وفعل النبي ﷺ مع عبد الله بن أبي كان مكافأة له علىٰ معروف صنعه معه عندما أسر عمه العباس في غزوة بدر، وكان ضخم الجسم ولم يجد النبي ﷺ له ثوباً ليكسيه إياه؛ فخلع عندها عبدالله بن أبي ثوبه وألبسه إياه، فلم ينس له النبي ﷺ ذلك حتىٰ مات؛ فألبسه ثوبه مكافأة له، وكذلك ليتألف ولده عبدالله بن عبد الله بن أبي لأنه كان من الصالحين، وليتألف قومه لأنهم إذا رأوا النبي ﷺ يعامل كبيرهم هذه المعاملة الحسنة استجلبهم لطاعته وسلم من شرهم؛ لأنهم كانوا نحواً من أربعمائة رجل.

ففي هذا دليل علىٰ جواز معاملة المنافقين المعاملة الحسنة، وحسن الخلق معهم والتعظيم لهم، فالنبي ﷺ قد ذهب ليزور أناسا فصادف عبد الله بن أبي مع جماعته في جانب الطريق جالسون، فانعطف النبي ﷺ عن طريقه إليهم؛ فسلم عليهم وقرأ عليهم شيئا من القرآن، فهذا يدل علىٰ أنه يجوز معاملتهم المعاملة الطيبة، وأما أن يكون ذلك لأجل نفاقه أو فسقه ففي هذا معصية لله ولرسوله، وكذلك النصح له ومعاونته علىٰ ما هو عليه من النفاق فذلك لا يجوز.

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝٥٣﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يخبر المنافقين بأن الله سبحانه

وتعالى لن يقبل منهم نفقاتهم من الزكاة أو غيرها.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴿٥٤﴾﴾ فهذا هو الذي منع من قبول نفقاتهم، وهو كفرهم بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك إذا قاموا للصلاة فقيامهم ليس لأجل إرضاء الله سبحانه وتعالى، وإنما لأجل أن ينافقوا بها، وكذلك لا يخرجون الزكاة عن طيب خاطر وقناعة بوجوبها عليهم، وإنما يؤدونها على كراهة منهم، وليتظاهروا بالإسلام؛ لأنهم إن رفضوا ذلك وامتنعوا عن الصلاة والزكاة- قتلهم المسلمون، وصار لهم حكم الكفار وهم لا يريدون ذلك؛ لأنه لا يؤديها بطيبة نفس إلا من هو راج لثوابها والجزاء عليها وهم المؤمنون، وأما هم فليسوا كذلك.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ كان المنافقون أهل أموال طائلة وأهل غنى وتجارات واسعة، فنهى الله تعالى المؤمنين عن أن يستعظموا كثرة أموال المنافقين وكثرة أولادهم؛ لأن أموالهم هذه ليست إلا وبالاً عليهم في الدنيا لما يلحقهم من الشقاء والتعب عليها، وفي الحقيقة ليست إلا عذاباً وتنغيصاً عليهم في معيشتهم، وما هم فيه من الغنى ليس لكرامتهم عند الله سبحانه وتعالى، وإنما هو فتنة لهم، وعذاب يعذبهم الله به في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴿٥٥﴾﴾ والله سبحانه وتعالى يريد أن يعذبهم بها في حياتهم الدنيا بما يلحقهم عليها من التعب والعناء في المحافظة عليها وتنميتها وحراستها والسهر على حفظها، وما يتبع ذلك من الهم والغم والضيق والضنك و...إلخ.

﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴿٥٥﴾﴾ تكون الدنيا شغلهم الشاغل حتى يأتي عليهم الموت، وهم على هذه الحالة- فيموتوا وهم كافرون.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ يحلفون الأيمان الكاذبة أنهم مسلمون، ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ۝٥٦﴾ فإظهارهم للإسلام وتظاهرهم به ليس إلا جبناً وخوفاً على أنفسهم من القتل.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ۝٥٧﴾ لو يجدون مكاناً يفرون إليه أو مغارات يدخلون فيها حتى لا تروهم أو مكاناً يدخلونه لهربوا منكم إليه- ليظهروا كفرهم ونفاقهم فيه، وليفصحوا عما في قلوبهم، ولكنهم لم يجدوا ذلك حتى يفروا إليه.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ۝٥٧﴾ يعني يسقطون من سرعة الجري.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي ومن المنافقين من يتنقص النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أخذه للزكاة، ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ۝٥٨﴾ إن أعطاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الزكاة ارتاحوا إليه ومدحوه، وإن لم يعطهم منها، فإنهم يسبونه ويتنقصونه ويستهزؤون بالدين وبالمؤمنين.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ۝٥٩﴾ لو كانوا مثل المؤمنين المخلصين في إيمانهم إن أعطاهم الله سبحانه وتعالى شيئاً قبلوه وهم راضون قل أم كثر، وقنعوا بذلك، وبما قسم الله سبحانه وتعالى لهم، وكذلك لا يسخطون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم إن منعهم.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ۝٦٠﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى المنافقين أن الصدقة ليست إلا لهؤلاء الأصناف خاصة بهم؛ فلا يصح أن يعطيكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم منها وأنتم أغنياء.

وهذه الصدقة حق واجب قد فرضها الله سبحانه وتعالى لهؤلاء في أموال الأغنياء، وقد فرضها الله سبحانه وتعالى لهؤلاء بعلمه وحكمته، ولمصلحة جعلها فيهم.

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ وبعض من المنافقين يلحقون الأذى بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ويقولون أنه مسماع يصدق كل من تكلم عنده، يعنون بذلك أنه مسكين وأبله، وليس ذلك من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلا لأخلاقه الرفيعة، وكرمه العظيم، ويستحيي أن يرد لأحد طلباً؛ فلذلك كان لا يرد أحداً قد جاء إليه معتذراً كائناً من كان ما دام يستطيع ذلك، وليس فيه ضرر على الدين.

وهو في الحقيقة لا يصدق كلامهم، وإنما كان يستمع لكلامهم إذا تكلموا عنده؛ لئلا ينفرهم فتمتلئ قلوبهم عليه وعلى الإسلام والمسلمين، فيؤدي ذلك إلى أن يقفوا في وجه دعوته.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن يخبرهم بأنه: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ فهو يستمع لكم لأجل مصالحكم، ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يصدق بالله، ويصدق المؤمنين إذا تكلموا عنده بشيء، ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ أراد بذلك المنافقين فهو رحمة لهم عندما يستمع إليهم، ويقبل أعذارهم؛ لأجل أن يستر عليهم، وأما التصديق فلا يصدق إلا المؤمنين، ولا يصدق إلا بالله، وسكوته عندما يعتذرون إليه ليس تصديقاً لهم وإنما رحمة بهم وستراً عليهم.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ۝٦١﴾ يهددهم الله تعالى بأنه سيعذبهم على هذه الأذية التي يلحقونها بنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وهي ما ينسبون إليه من النقائص كمسماع وأبله، وغير ذلك.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ يأتي المنافقون إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين، ويحلفون لهم بأنهم مؤمنون، وأنهم مصدقون، وفي الحقيقة إنهم إنما يقولون ذلك لأجل إرضائهم.

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ۝٦٢﴾ والمفترض بهم أن يرضوا الله ورسوله، ويحرصوا على ذلك إن كانوا على ما يزعمون.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴿٦٣﴾﴾ استنكر الله سبحانه وتعالى عليهم كيف لم يعلموا أنه من يعاد الله ورسوله فإن جزاءه نار جهنم خالداً فيها مخلداً، ويحادد بمعنى: يعادي.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فهم في أشد الحذر والخوف من ذلك مع أنهم كافرون بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومع اتهامهم له بالكذب والافتراء، ولكنهم خائفون أن ينزل الله سبحانه وتعالى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم سورة تفضحهم.

﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴿٦٤﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يقول للمنافقين: افعلوا ما بدا لكم من استهزاء ومكر فالله سيفضحكم ويكشف أسراركم وأخباركم.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ بعد أن يفضحهم الله سبحانه وتعالى، ويطلع نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على أسرارهم؛ فسيسألهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ماذا كنتم تفعلون؟ فيجيبون: إنما كان ذلك منا مزاحاً ولسنا جادين فيما نقول.

﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴿٦٥﴾﴾ فيجيبهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم: بل كنتم تستهزؤون بالله وآياته ورسوله، يلقنه الله سبحانه وتعالى كيف يجيبهم.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ فلن يقبل لكم عذر ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؛ لأن استهزاءكم بالله سبحانه وتعالى وبنبيه صلى الله عليه وآله وسلم كفر، ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴿٦٦﴾﴾ إذا عفا الله سبحانه وتعالى عن طائفة بعد أن يتوبوا ويحسن إيمانهم فهناك طائفة أخرى سيرفضون التوبة والإيمان ويمكثون على كفرهم، ولا بد أن يوقعهم الله سبحانه وتعالى في عذابه، وهذا وعيد لهذه الطائفة التي ترفض الإيمان والتوبة.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ طبيعة المنافقين واحدة ومبدأهم واحد وكلهم

يأمر بالمنكر ويفعلونه، وينهون عن المعروف، وطبيعتهم البخل في أموالهم فلا يؤدون زكاتها.

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى بأنهم تركوا طاعة الله فحرمهم من رحمته وثوابه.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ۝٦٧﴾ فهؤلاء هم المنافقون، وهم المتمردون والخارجون عن حدود الله سبحانه وتعالى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فهذا جزاؤهم، ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ۝٦٨﴾ فيكفيهم نار جهنم جزاءً على أعمالهم، فقد لعنهم الله سبحانه وتعالى وطردهم عن رحمته، فلا حظ لهم فيها ولا نصيب.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن صفة الكفار والمنافقين الذين كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ فصفة هؤلاء كصفة من سبقهم من الكفار.

﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ يعني أولئك الكفار السابقين قد استمتعوا في الدنيا بحظهم الذي قد أعطاهم الله سبحانه وتعالى فيها من الأموال والأولاد والصحة والعافية، وقد اغتروا بما أعطاهم.

﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى عن المنافقين والكفار الذين في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم قد استمتعوا في الدنيا كما قد استمتع أولئك فيها ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ﴾ استمتعتم بما أعطاكم الله في الدنيا مثل ما استمتع أولئك، ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ خضتم في تكذيبكم واستهزائكم بنبيكم كما خاض أولئك السابقون في استهزائهم وتكذيبهم بأنبيائهم، وبما جاءوا به.

والمراد أن كلامهم فيما بينهم الذين يخوضون فيه لا يكون إلا حول الاستهزاء والتكذيب بأنبيائهم، وبما جاؤوهم به.

﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ۝٦٩﴾ أعمال البر التي يصنعونها في الدنيا، وصنائع المعروف التي يفعلونها قد حبطت، وسلبوا جزاءها وثوابها الذي في الدنيا، وكذلك في الآخرة فقد خسروها.

وذلك لأن للكفار والمنافقين صنائع معروف يصنعونها في الدنيا من أعمال البر والمعروف كما ذكر في الحديث: ((إن القوم يكونون كفاراً فيتواصلون ويتباذلون فتنموا أموالهم، وتزكوا ثمارهم، وتغزر أنهارهم، وتنموا تجاراتهم))، فهذا هو الثواب الذي يستحقونه يعطيهم الله سبحانه وتعالى إياه في الدنيا.

وهؤلاء الذين هذه صفتهم قد خسروا الدنيا والآخرة، فلا ينالون شيئاً من ثواب الدنيا ولا من ثواب الآخرة.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ استنكر الله سبحانه وتعالى عليهم عدم اعتبارهم بما حل بمن مضى من هؤلاء جزاءً على أعمالهم وتكذيبهم حتى كأنهم لم يسمعوا ويعرفوا بقصصهم، وما مضى عليهم.

يحثهم الله سبحانه وتعالى على الاعتبار لينزجروا ويحذروا؛ لأن من رأى شخصاً وقع في مكروه أو مصيبة بسبب عمل عمله؛ فإنه سيتجنب أن يعمل مثل عمله خوفاً أن يحل به مثل ما حل به.

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فكذبوا بها واستهزئوا بها، فعذبهم الله سبحانه وتعالى جزاءً على ذلك.

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ۝٧٠﴾ فقد اقتضت حكمته وعدالته أن يعذبهم، فتعذيبهم ليس ظلماً لهم؛ لأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيبهم وعنادهم وتمردهم.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ينصر بعضهم بعضاً، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٧١﴾﴾ بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى صفات المنافقين ذكر صفات المؤمنين وأنهم على عكسهم تماماً؛ فسيدخلهم الله سبحانه وتعالى في رحمته وسيثيبهم جزاءً على أعمالهم هذه، فهو العزيز الغالب، والحكيم الذي من شأنه أن يضع كل شيء في موضعه، ويعطي ثوابه لمن يستحقه، وعقابه لمن يستحقه.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴿٧٢﴾﴾ يرغب الله سبحانه وتعالى المؤمنين في هذه الآية أن يعملوا الأعمال الصالحة، وذلك بوعده لهم بأن جزاءها الجنة، وقد جعل الله سبحانه وتعالى هذا الثواب ليرغبوا في طاعته، ويقبلوا عليها بجد واجتهاد، وإلا فالمفترض بكل امرئ أن يطيع الله سبحانه وتعالى شكراً له على نعمه التي أنعم بها عليه كنعمة الخلق والرزق والعافية والأموال والأولاد، وحفظه من كل الأخطار التي تحيط به في كل وقت، فالواجب عليه أن يطيعه ولا يعصيه مقابل هذا الذي أعطاه ووهبه له من النعم؛ لأن شكر المنعم واجب، والمكافأة على الإحسان واجبة؛ فما دامت كل هذه الأشياء منه، وهو الذي وهبها فالمفروض مقابلتها بالإحسان، وهو الطاعة والانقياد حتى ولو لم يكن ثواب أو عقاب.

وبعد كل هذه النعم حكم على من عصاه بأنه يعذبه سبحانه وتعالى في نار جهنم خالداً فيها مخلدا.

وأكبر وأعظم من هذا الثواب هو رضا الله سبحانه وتعالى، فما دام راضٍ عليك فسيزيدك أكثر مما تستحقه، وسيجازيك على عملك أضعافاً مضاعفة.

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴿٧٣﴾﴾ خاطب الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ آمراً له بمجاهدة الكفار والمنافقين.

وفي سيرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه جاهد الكفار بالسيف وبالقرآن والوعظ والإرشاد والدعوة، وأما المنافقون فلم يذكر في سيرته أنه جاهدهم بالسيف، وإنما كان يجاهدهم بالوعظ والتذكير، وقد أمره الله سبحانه وتعالى بأن يبلغ جهده فيهم وفي دعوتهم، وتبليغهم آياته، وتكريرها عليهم عسى أن تدخل في قلوبهم، ولم يحمل عليهم سيفاً، ولم يَسْبِ نساءهم، ولم يتغنم أموالهم، ولم يخرجهم من بيوتهم.

ومن صفاتهم أنهم لم يكونوا ظاهرين مثل بقية الكفار؛ لأنهم كانوا يتسترون بالإسلام، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مع أنه كان في منتهى الذكاء والفطنة والفراسة التي لا تخطئ، ولكنه مع كل ذلك لم يكن يعرفهم جميعاً، وإنما كان يعرف البعض ممن قد أطلعه الله سبحانه وتعالى عليهم، قال تعالى ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة:١٠١]، وبعض المنافقين قد أظهروا أمرهم وكشفوا سترهم مثل عبدالله بن أُبَيّ ومن معه عندما خرجوا بثلث جيش النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يوم أحد، وانفصلوا عنه؛ فعرفهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والمؤمنون، مع أنه قد بقي من المنافقين بقية في ساحة المعركة لم يعرفهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ولم يطلع عليهم كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك قال تعالى ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة:١٠١]، ومعنى مردوا على النفاق: تمرنوا على النفاق حتى مهروا فيه.

وأمره الله سبحانه وتعالى بأن يغلظ على الكفار والمنافقين، فإغلاظه على الكفار بضربهم بالسيف والترصد لهم في كل طريق، وأخذ تجاراتهم، واستباحة أموالهم، وأما الإغلاظ على المنافقين فهو أن يخبرهم بأن الله سبحانه وتعالى قد

أطلعه على صفاتهم وكذبهم، واستهزائهم بآيات الله سبحانه وتعالى، وما أشبه ذلك من صفاتهم، وأن الله سيعذبهم، وينزل نقمته بهم.

واعلم أن الجهاد كلمة عامة للجهاد بالسيف، والجهاد بالدعوة، والاجتهاد في إصلاح شأن المسلمين، وجهاد النفس وأعمال البر كلها.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ يأتي المنافقون ليحلفوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم لم يتكلموا بشيء يسوءه، ولكن الله سبحانه وتعالى كان يطلع نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك، وما يدور بينهم في شأنه.

﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ مع أنهم قد كفروا بالله سبحانه وتعالى، وبالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبما جاء به بعد ما دخلوا في الإسلام.

﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ هموا بقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم غير أن الله سبحانه وتعالى قد خيب آمالهم، ولم يمكنهم من الوصول إليه.

وكان عزمهم ذلك في ليلة العقبة والنبي صلى الله عليه وآله وسلم عائد من تبوك إلى المدينة، اتفقوا على أن يُنَفِّرُوا ناقته؛ لأنهم إذا فعلوا ذلك أصابها الفزع فتهرب فزعة في غير طريق تقتحم المهالك فيسقط النبي صلى الله عليه وآله وسلم في نفورها، ومع ذلك فما زال النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحسن إليهم، ويقربهم ويتلطف لهم، ويكثر تذكيرهم ووعظهم؛ لعلهم يرجعون.

﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ليس فعلهم ذلك إلا بطراً منهم؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما فتح الفتوح غنم أموالاً طائلة، فوسع عليهم وأعطاهم كما أعطى غيرهم حتى أصبحوا أصحاب أموال وتجارات وثراء وغناء، وليس ذنب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا هذا، ولم يكن يأتيهم منه إلا كل خير، والذي نقموا عليه هو أنه أكرمهم وأعطاهم، وجعل لهم هيبة وعزاً بين جميع القبائل العربية، وبسببه صار لأهل المدينة دولة تهابها كل الناس حتى كسرى وقيصر، فهذا هو الذي نقموه عليه.

﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ إن أرادوا أن يرجعوا عن غيهم وضلالهم إلى طريق الهدى، ويدخلوا في الإسلام فهذا هو الأفضل لهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ وإن أصروا على ضلالهم ونفاقهم- فسوف يعذبهم الله سبحانه وتعالى في الدنيا بالخزي والذلة والمهانة والصغار، وفي الآخرة بعذاب النار وبئس المصير.

﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴿٧٤﴾﴾ قد غضب الله سبحانه وتعالى عليهم، فعذابه لا محالة لاحقهم ومصيبهم، ولا يوجد على وجه الأرض من يدفع عنهم عذاب الله.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴿٧٥﴾﴾ بعض المنافقين عاهدوا الله سبحانه وتعالى بأنه إن أغناهم وأوسع عليهم- ليتصدقن وليشكرن الله ويطيعوه ولا يعصوه.

﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴿٧٦﴾﴾ فلما أعطاهم الله ما طلبوا من السعة والغنى نقضوا عهدهم، وذلك أن ثعلبة ذهب إلى النبي شاكياً إليه الفقر وشدة العيش طالباً منه أن يدعوا الله سبحانه وتعالى له بأن يوسع له في الرزق ويغنيه؛ فنصحه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن الأحسن له البقاء على حالته هذه، ولكنه أصر وألح عليه، فعند ذلك دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ له فلم يلبث مدة حتى أوسع الله عليه في الرزق، وأصبحت له أموال طائلة؛ فنقض العهد الذي كان عاهد الله سبحانه وتعالى عليه فنزلت هذه الآية.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴿٧٧﴾﴾ تسبب نقضهم للعهد وإخلافهم الوعد وعدم صدقهم فيما قالوه تسبب ذلك كله في امتلاء قلوبهم نفاقاً وكفراً.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴿٧٨﴾﴾ ألا يعلمون أن الله سبحانه وتعالى عالم ومطلع على ما في قلوبهم، وعالم بنياتهم الخبيثة، فهو

تعالى عالم بنياتهم يوم عاهدوا، وأنهم في ذلك الوقت مبيتون للنقض والإخلاف.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ كان المنافقون يسخرون من المؤمنين الذين يأتون بزكاتهم وصدقاتهم للنبي ﷺ ويتنقصونهم.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ الذين كانت حالتهم ضعيفة، وكانوا يعطون النبي ﷺ كلاً على قدر حالته؛ فإن المنافقين كانوا يسخرون منهم ويتنقصونهم أيضاً ويستحقرونهم لقلة ما تصدقوا به.

﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩﴾ والمراد به أنه سيجازيهم على صنيعهم هذا.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فقد استحقوا غضب الله سبحانه وتعالى وسخطه، ولن ينفعهم استغفارك لهم.

والتعبير بـ«سبعين مرة» هو مثل يضرب لقطع الطمع في الشيء؛ لأن النبي ﷺ لرحمته كان يريد ويتمنى أن يغفر الله لهم لشدة شفقته على الناس من عذاب النار، فهو لا يريد لأحد أن يدخلها حتى كاد أن يقتل نفسه من الأسف والحسرة على عدم إيمان الكافرين؛ لما يعلم من العاقبة التي تنتظرهم؛ فأراد الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أن يقطع طمع نبيه ﷺ عن مغفرته لهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٨٠﴾ السبب في عدم مغفرته لهم هو أنهم كفروا بالله ورسوله فقد استحقوا عدم مغفرته ورحمته ما داموا خارجين عن حدوده.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ هؤلاء الذين تخلفوا عن النبي ﷺ عندما خرج إلى غزوة تبوك كانوا فرحين بقبول النبي ﷺ أعذارهم في القعود.

﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ واعتذارهم هذا كان لأنهم يكرهون الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم والجهاد في سبيله.

﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ كانوا يكاسلون الناس ويثبطونهم عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴿٨١﴾﴾ كان المنافقون يشيعون بين الناس أن المصلحة في عدم الخروج هذا الوقت لشدة الحر فيه، وأنهم إذا خرجوا والحال هكذا فالحر سيضعفهم وينهك قواهم، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبرهم أن نار جهنم أشد من هذا الحر، وأن القعود معصية عظيمة وكبيرة، وأنهم قد استحقوا سخط الله سبحانه وتعالى وغضبه وعذابه في نار جهنم بقعودهم هذا.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴿٨٢﴾﴾ فرحوا عندما تخلفوا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقعدوا فأخبرهم الله سبحانه وتعالى بأنهم سيندمون على قعودهم هذا عندما يرون ما أعد الله لهم من العذاب جزاءً على فرحهم بالقعود عن الجهاد.

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴿٨٣﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنك يا محمد إذا رجعت من هذه الغزوة إلى طائفة من المنافقين فطلبوا منك الخروج للقتال معك إذا غزوت ثانية فلا تسمح لهم أن يصحبوك في أي سفر أو غزوة أبداً.

والمراد بالطائفة هم أولئك الذين لم يتوبوا دون التائبين؛ لأن الله سبحانه وتعالى كان عالماً بأن بعضهم لن يتوب أبداً، والسبب في ذلك هو قعودهم عن الخروج في غزوة تبوك، فجزاؤهم القعود مع النساء والصبيان وعدم الخروج معك أبداً.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ۝٨٤﴾ كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يصلي على المنافقين في بداية الأمر ثم إن الله سبحانه وتعالى نهاه عن الصلاة عليهم، وتشييع جنائزهم، والقيام على قبورهم، وكان آخر من صلى عليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هو عبد الله بن أبي رأس المنافقين.

ويؤخذ من هنا أنه لا تجوز الصلاة على مرتكبي الكبائر.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ۝٨٥﴾ فلا يكبر في عينك يا محمد ما تراه معهم من كثرة النعم من الأموال والتجارات والأولاد، وتظن أن الله سبحانه وتعالى راضٍ عنهم، فاعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يعطهم هذه النعم في الدنيا إلا ليعذبهم بها فيها، وذلك لما يلحقهم من التعب والنصب عليها من الحراسة والخوف عليها من الطامعين واللصوص ونحوهم، فقد أصبحت شغلهم الشاغل، ولن تنفعهم في آخرتهم، وسيموتون وهم على كفرهم.

﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ۝٨٦﴾ فهذه طبيعة المنافقين أن الله سبحانه وتعالى إذا أنزل سورة تأمرهم بالإيمان بالله والجهاد مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ استأذنك أهل الغنى والتجارة منهم بالقعود مع النساء والصبيان.

فهذه السورة أخبرت بصفاتهم وأعمالهم وصنائعهم، وكشفت أسرارهم، وهتكت أستارهم وفضحتهم، وكان نزولها في آخر الإسلام بعد أن كانت المدينة قد امتلأت بالمنافقين؛ فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه السورة ليفضحهم ويكشف أستارهم ويذلهم بها ويخزيهم، وقد أخبرت بأعمالهم التي يعملونها وعلاماتهم- ليتضح أمرهم للمؤمنين، وليتعرفوا عليهم ويعرفوهم.

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ وهذه نقيصة ارتضوها لأنفسهم وهي أن يمكثوا بين النساء والصبيان، وذلك لأن من به أدنى رجولة وحمية فلن يرضى بأن يقعد مع النساء والصبيان وقت خروج باقي القوم للقتال.

﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ۝٨٧﴾ ولكن قلوبهم قد طبع عليها فلا يفرقون بين الحسن والقبح، وأن هذا خزي ومنقصة وهذا العمل عز وشرف.

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أما الرسول والمؤمنون فقد خرجوا للقتال بالرغم من شدة الحر وقسوة الظروف ممتثلين لأمر الله عز وجل.

﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ۝٨٨﴾ سيعطيهم الله سبحانه وتعالى خير الدنيا ونعيم الآخرة، وقد أفلحوا وفازوا وظفروا بثواب الله سبحانه وتعالى ورضوانه.

مع أن جميع حروب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعاركه منذ أن بعثه الله سبحانه وتعالى، وطهر الجزيرة العربية من الشرك، وقهر جميع أعدائه إلى أن مات- لم يبلغ الذين قتلوا معه المائتين أو الثلاثمائة قتيل، وكان أكبر عدد من القتلى في معاركه يوم أحد بلغ عدد قتلى المسلمين سبعون شهيداً.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ۝٨٩﴾ أولئك الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالرغم من الظروف القاسية لهم عند الله ثواب عظيم في جنات النعيم خالدين فيها.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ۝٩٠﴾ جاء المعتذرون من منافقي البدو الذين كانوا حول المدينة يستأذنون النبي صلى الله عليه وآله وسلم في القعود، وعدم الخروج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنهم كاذبون على الله ورسوله، ولا زالوا كافرين، ويستحقون عذابه وسخطه.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى هنا بأن أهل الأعذار والفقراء لا حرج عليهم في قعودهم، وهم الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون مركوباً ليركبوا عليه، ولا زاداً يتزودون به في طريق سفرهم؛ فإن الله سبحانه وتعالى يعذرهم عن الخروج، وذلك لأن سفرهم هذا بعيد، فلا بد من مركوب يسيرون عليه، ولكن بشرط أن ينصحوا لله ورسوله، ويكونوا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بقلوبهم وألسنتهم.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا حرج على من أتى إليك يا محمد يسألك مركوباً ليخرج عليه معك؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد علم أنه لم يمنع هؤلاء عن الخروج إلا ذلك، وأنهم لو وجدوا ما يحملهم لما ترددوا عن الخروج.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ فهؤلاء هم الذين قد استحقوا الذم وسخط الله سبحانه وتعالى وعذابه، فكيف يستأذنون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهم متمكنون من الخروج معه؟

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ مع النساء والصبيان ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ غطى الله سبحانه وتعالى على قلوبهم حين حرمهم من التنوير وزيادة البصيرة وحرمهم من الألطاف والتوفيق والتسديد ؛ لأنه لا يعطي ذلك إلا للمؤمنين فحين حرمهم الله من كل ذلك غفلت قلوبهم وعميت بصائرهم عن إدراك مراشدهم، فصارت لذلك كالمغطاة بغطاء محكم يحجبها عن معرفة الحسن والقبيح، ومعرفة معالي الأمور ومساوئها، وأسباب العزة وأسباب الخسة.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ: بأنكم عندما تعودون من غزوتكم هذه سيعتذرون لكم في عدم الخروج، ويختلقون لكم المبررات الكاذبة.

﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ امنعهم عن الاعتذار يا محمد عندما يأتون إليك وقل لهم: لا تعتذروا أيها المنافقون فلن نصدقكم؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ قد كشف لنا أخباركم وأعذاركم الكاذبة.

﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٩٤﴾﴾ سيطلع الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ والمؤمنين علىٰ أسراركم وأخباركم، وسيكشفها لهم ويفضحكم في الدنيا، ثم تردون إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ الذي هو مطلع علىٰ أسراركم ونياتكم السيئة؛ فيجازيكم عليها.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأن المنافقين سوف يأتون إليكم عند عودتكم مريدين أن يبرروا لكم سبب قعودهم وسيحلفون علىٰ صدق أعذارهم.

﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ يحلفون لكم لأجل أن لا تؤاخذوهم علىٰ قعودهم.

﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ إذا قدموا إليكم معتذرين فاتركوهم وشأنهم، ولا تجازوهم ولا تؤاخذوهم؛ فالله سبحانه وتعالىٰ سوف يتولىٰ جزاءهم.

﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ ليسوا إلا نجاسة فابتعدوا عنهم ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴿٩٥﴾﴾ ومصيرهم إلىٰ جهنم سينالون فيها جزاءهم، فاتركوهم وشأنهم؛ فيكفيهم جهنم تكون جزاءً لهم علىٰ أعمالهم هذه.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ كان حلفهم أولاً لأجل أن يمنعوا عن أنفسهم جزاء النبي ﷺ، ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ بأنهم بعد ذلك سوف يحلفون لكم لينالوا رضاكم، ولتغيروا نظرتكم إليهم.

﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴿٩٦﴾﴾ إذا حلفوا لكم فصدقتموهم ورضيتم عنهم، فاعلموا أن الله غير راضٍ عنهم فاحذروا أيها المؤمنون من تصديق المنافقين والرضا عنهم.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ وهم البدو الذين هم خارج المدينة وحولها أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بأنهم أشد كفراً ونفاقاً من كفار ومنافقي المدينة، وكانوا قبائل معروفة، مثل بني سليم ومن على شاكلتهم.

﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٩٧﴾﴾ هم أهل جهل بشريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لا يعرفون ما هو الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، بخلاف أولئك المنافقين الذين في المدينة فهم يسمعون الأحكام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويعرفونها لمخالطتهم للمسلين.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن بعض الأعراب إذا طلب منهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الزكاة- فإنهم يعتبرون ذلك خسارة ونقصاً في أموالهم.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ منتظرون لهزيمة تلحق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، أو أي كارثة تحل بهم تستأصلهم، وكانوا يقولون: إن أمر محمد ليس إلا عاصفة هبت سرعان ما ستنتهي، ويرجع كل شيء إلى ما كان عليه، وأن دولة الإسلام ستنتهي في ظنهم.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٩٨﴾﴾ هذه دعوة عليهم بالهلاك، والله سبحانه وتعالى مطلع على ما في ضمائرهم وسيجازيهم على ذلك.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا زال بين الأعراب مؤمنون بالله واليوم الآخر، وأنهم ليسوا جميعاً منافقين.

﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ إذا أخرجوا زكاة أموالهم، أو أنفقوا أي نفقة فإنهم يجعلونها قربة يتقربون بها إلى الله، ويحتسبونها في

ميزان حسناتهم، راجين من إنفاقهم هذا أن يشفع لهم عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيدعوا لهم، فهم يعلمون أن دعوته لن ترد، وأنها مقبولة عند الله سبحانه وتعالى، ويتوقعون الخير والبركة عند ذلك.

والمراد بصلوات الرسول هو الدعاء فهو يبادر بإخراج زكاته لينال ثواب الله سبحانه وتعالى ودعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقد روي أن أناساً من آل أبي أوفى أتوا بصدقتهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فدعا لهم قائلاً: ((اللهم صل على آل أبي أوفى))، قال تعالى ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة:١٠٢]، ولأن دعوة النبي مقبولة عند الله سبحانه وتعالى لا يشكون في ذلك.

﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصدقة قربة مقبولة عند الله تعالى.

﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿٩٩﴾﴾ بسبب ذلك سينالون رحمة الله سبحانه وتعالى، والمراد برحمته هو الخير الذي يعطيه الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ أثنى الله سبحانه وتعالى على السابقين إلى الإسلام وإلى نصرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المهاجرين والأنصار والذين أتوا من بعدهم، وجاهدوا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، واجتهدوا في طاعة الله ورسوله، فأثنى الله سبحانه وتعالى عليهم: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فهم من أهل رضوان الله سبحانه وتعالى، وأهل ثوابه وأهل رحمته، وهم راضون عن الله سبحانه وتعالى بما افترض عليهم من الفرائض، وأوجب عليهم من الطاعات، ويتلقونها وأنفسهم راضية ومتيقنة بثواب الله سبحانه وتعالى عليها.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴿١٠٠﴾﴾ فهؤلاء هم الذين يستحقون ذلك الثواب العظيم وهم المستوجبون للفوز برضوان الله.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ قسم الله سبحانه وتعالى الصحابة إلى قسمين: فالقسم الأول: هم المؤمنون الذين أثنى عليهم بأنهم السابقون الأولون والذين رضي عنهم.

والقسم الثاني: وهم المنافقون الذين بداخل المدينة ومن حولها.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه عن المنافقين الذين هم حول المدينة، الذين قد تمرنوا على النفاق حتى استطاعوا إخفاء كفرهم بحيث لا تظهر عليهم أي علامة تفضحهم وتكشفهم، لا من فلتات ألسنتهم، ولا من نظرات أعينهم، ولا من حركاتهم أو أعمالهم؛ فكانوا يسيرون مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويخرجون معه في غزواته حتى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يستطع أن يعرفهم مع شدة ذكائه وفطنته.

﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه لا يستطيع أن يعرفهم، وأنه تعالى وحده اختص بمعرفتهم، وهناك أناس من المنافقين قد أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه سيطلعه عليهم، وسيعرفهم بعلامات تميزهم، قال تعالى ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠] من خلال كلامهم، وهناك قسم ثالث من المنافقين، وهم الذين انفصلوا عن جيش النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد، وهم عبد الله بن أبي ومن معه، وكانوا ثلث الجيش.

فالمراد في هذه الآية هم المنافقون الذين لم يظهر منهم شيء يكشفهم ولم يتمكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا المؤمنون من معرفتهم.

﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه سيضاعف لهم العذاب يوم القيامة؛ لأن ضرهم وخطرهم على الإسلام أشد من ضر الكفار وغيرهم.

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ في الدرك الأسفل من النار، وسيكون عذابهم أشد من عذاب المشركين.

﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ وهناك طائفة خلطوا عملاً صالحاً مع

العمل السيئ فهم مؤمنون بالنبيﷺ ومصدقون به، ويعملون الأعمال الصالحة، غير أنهم لم يستطيعوا أن يتحكموا في شهواتهم ورغباتهم، ومع ذلك فهم يتوبون منها، ويندمون عندما يفعلونها؛ فأخبر الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء عسى الله أن يقبل توبتهم ويتوب عليهم.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيهﷺ بأن يأمر الناس بإعطائه زكاة أموالهم.

﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ لأن الزكاة تطهرهم من الذنوب وتكفرها عنهم.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ۝١٠٣﴾ لأن دعاءك طمأنينة لهم في قلوبهم يزدادون بها ثقة بدينهم وإيماناً.

أمر الله سبحانه وتعالى نبيهﷺ بأن يأخذ الصدقة من عامة المسلمين، ثم أخبر أن هذه الصدقة ستطهر أولئك الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وستزكي أعمالهم الصالحة.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ ألم يعلم أولئك الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً أن الله تعالى يقبل توبة التائبين من عباده المخلصين توبتهم.

﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ ويقبل الصدقات ويجازي عليها، ويكفر بها الذنوب.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ۝١٠٤﴾ إن الله تعالى لا تتعاظمه كثرة الذنوب ولا كبرها فمن تاب ورجع إلى الله غفر له ذنوبه وتاب عليه.

يحثهم الله سبحانه وتعالى في هذه الآية على التوبة من المعاصي، وعلى إخراج الزكاة لأجل أن يكفر عنهم سيئاتهم.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ۝١٠٥﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيهﷺ أن يحث الناس على الأعمال الصالحة.

وخاطبهم أن ما عملتم من عمل فإن الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وسيجازي العاملين على أعمالهم، ولو كان في جوف صخرة صماء؛ فإن الله سبحانه وتعالى سيظهر عمله، وسيكشفه للمؤمنين.

وكذلك المنافق مهما حرص على إخفاء عمله فسيفضحه الله سبحانه وتعالى بين الناس، ويوم القيامة سيجازي كل امرئ على عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا زال هناك قسم غير الذي ذكر فيما سبق قد أخرهم الله سبحانه وتعالى؛ لأنه قد علم أنهم سيتوبون ويرجعون إليه، وكانوا من المنافقين فقد اطلع الله سبحانه وتعالى على ضمائرهم فعلم أنهم سيتوبون، وهناك أيضاً قسم آخر منهم قد أخرهم الله سبحانه وتعالى، وهو عالم بعدم توبتهم وسيعذبهم ما داموا مصرين على نفاقهم.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى نوعاً من المنافقين فقال عنهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وذلك أن أهل قبا كانوا قد بنوا لهم مسجداً ثم دعوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يأتيهم ويصلي عندهم فيه تبركاً بصلاته في مسجدهم؛ فحسدهم على ذلك أناس حولهم فبنوا مسجداً أيضاً، ودعوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يأتي إليهم ويصلي فيه، فهؤلاء الآخرون كانت نياتهم سيئة في عملهم هذا؛ لحسدهم أهل قبا، وإرادة إلحاق الضرر بمسجدهم، وليفرقوا بين الناس، وكذلك أرادوا أن يجعلوا القائم عليه حنظلة الراهب، وكان نصرانيا آمن ثم ارتد وهرب إلى الشام؛ فتشاوروا فيما بينهم أنه عند رجوعه سيجعلونه إماماً لصلاتهم، مع أنه قد حارب الله ورسوله.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ حلفوا عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنهم بعملهم هذا لا يريدون إلا الخير والصلاح، فأخبر الله نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنهم كاذبون في حلفهم هذا، وإنما يريدون بعملهم هذا التفريق بين المؤمنين، وإلحاق الضرر بهم.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ كانوا قد دعوا النبيﷺ ليصلي في مسجدهم هذا؛ فنهاه الله سبحانه وتعالىٰ عن ذلك.

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ وأخبره أن مسجد قبا هو الأحق بصلاته فيه؛ لأنه قد بني علىٰ غرض عبادة الله سبحانه وتعالىٰ وطاعته، ولا غرض لهم غير ذلك.

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ۝١٠٨﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن القائمين علىٰ هذا المسجد رجال يحبون الطهارة الحقيقية وهي الوضوء، والطهارة المجازية وهي التخلص من الذنوب.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أيهم أفضل وأحسن؟ هل الذي أسس بناء مسجده علىٰ تقوىٰ ورضوان؟ أم الذي أسس بناءه علىٰ الباطل، فقد شبه الله سبحانه وتعالىٰ هذا الأخير بمن يضع أساس بنائه علىٰ طرف حفرة علىٰ وشك أن تتهاوىٰ أطرافها، فسرعان ما يسقط وينهار، يصور الله سبحانه وتعالىٰ أن تأسيس هذا المسجد علىٰ باطل وضلال.

﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وأن من ذهب للصلاة فيه فهو معرض للفتنة والهلاك.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ۝١٠٩﴾ هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار، أن يمدهم الله بأنوار هدايته وكانوا منافقين، وقد أمر النبيﷺ بعد نزول هذه الآية بهدم هذا المسجد وتخريبه.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ۝١١٠﴾ كان النبيﷺ قد هدم هذا المسجد، وأخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن فعله هذا سيورث ريبة في قلوب أهل المسجد وحقداً عليه، يسبونه ويعترضون عليه لماذا هدم مسجدهم؟ أليس مسجداً كسائر المساجد؟ وما أشبه ذلك من الانتقادات إلىٰ أن يموتوا وهم علىٰ ذلك، وهو المراد بـ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ وأن الغيظ سيمكث في قلوبهم إلىٰ أن يموتوا.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ فقد باعوا أنفسهم وأموالهم من الله سبحانه وتعالى، وقد جعل الجنة ثمناً لذلك.

﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ يقتلون عدوهم، ويلحقهم القتل في أنفسهم.

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ وعد من الله سبحانه وتعالى بأن يوفي لهم الثمن الذي وعدهم به وهو الجنة، وهو حق ثابت، ولا بد أن يقع.

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ يؤكد الله تعالى لعباده صدق وعده، الذي كتبه في التوراة والإنجيل والقرآن؛ ليطمئن عباده المؤمنين بما عنده من الثواب العظيم لهم، ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ فافرحوا بثمن بيعكم هذا واقطعوا بالوفاء به، ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴿١١١﴾﴾ الذي هو فوز على الحقيقة، حتى أنه لا يسمى فوزاً إلا هذا، وغيره لا شيء.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴿١١٢﴾﴾ الذين أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بأنه اشترى منهم أنفسهم، وجعل لهم الجنة ثمناً على ذلك، والذين قد وعدهم بأنه سوف يوفيهم بوعده، والذين قد بشرهم ببيعه الذي بايعهم عليه، وأنهم يستحقون الفوز العظيم وهو الجنة- هم المتصفون بتلك الصفات الحسنة ولا يستحق ذلك الوعد إلا أهل تلك الصفات وهي: أن يكونوا تائبين إلى الله سبحانه وتعالى في كل أوقاتهم وراجعين إليه، وأن يكونوا في عبادتهم منقطعين إلى الله سبحانه وتعالى، ويكونوا من أهل الحمد والشكر له على جميع ما أنعم به عليهم، وأن يكونوا من السائحين أي الصائمين كما قال في الحديث: ((سياحة أمتي هي الصيام))، وأن يكونوا من أهل الصلاة والمداومة عليها، وأن يكونوا حريصين على الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وإرشاد الناس وتعليمهم أمور دينهم، وألا يتجاوزوا حدود الله سبحانه وتعالى ولا يتعدوها.

فلا بد أن يلتزم البائع نفسه لله سبحانه وتعالى بهذه الصفات، ولا يكفي ذهابه إلى المعركة فقط ويسمى شهيداً، بل لا بد مع ذلك من أن يكون على هذه الصفات، وأن يكونوا ملتزمين بحدود الله سبحانه وتعالى فيمتثلون لما أمرهم به، وينتهون عما نهاهم عنه.

والعابدون هم الخاضعون لله سبحانه وتعالى، والمتواضعون له في عبادتهم.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ۝١١٣﴾ حذر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين من الاستغفار للمشركين، وطلب المغفرة والرحمة لهم حتى ولو كانوا من أقرب القرابة كالأب والأم.

فإذا عرف المرء أن رجلاً مات مصراً على أي كبيرة ولم يتب منها- فإنه لا يجوز له أن يطلب له المغفرة والرحمة.

فإن قيل: فقد استغفر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لجده عبدالمطلب مع أنه قد مات، ولم يكن قد أسلم؟

والجواب عليه: أن عبدالمطلب كان على ملة إبراهيم صلوات الله عليه، وكان يتعبد لله سبحانه وتعالى في غار حراء، ولم يكن يعبد الأصنام، وقد رويت الروايات الصحيحة في ذلك وأنه لم يعبد صنماً قط، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتعبد أيضاً في غار حراء تأسياً بجده عبد المطلب، وكان هناك أيضاً أناس على شاكلته في العرب كقس بن ساعدة وورقة بن نوفل.

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ۝١١٤﴾ كان نبي الله إبراهيم صلى الله عليه وآله قد استغفر لأبيه فترة من الزمن ثم إنه ترك ذلك، وكان السبب في ذلك أن أباه كان قد وعده بأن يؤمن فكان إبراهيم يدعوا له ويستغفر له على أساس هذا الوعد؛ فلما عرف إصرار أبيه على الشرك ترك ذلك، ومعنى «أواه» هو كثير التأوه من خوف الله سبحانه وتعالى.

ومعنى حليم: أن الله سبحانه وتعالى قد وصفه بذلك؛ لأنه تأنى بأبيه فلم يدع عليه.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿١١٥﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يؤاخذ خلقه على فعل معصية حتى يبين لهم أن فعلها معصية.

ومعنى يضل قوماً: يحكم بعذابهم وضلالهم؛ فإذا بين لهم ما يتجنبونه ثم عصوه- فإنه حينئذ سيحكم بضلالهم، واستحقاقهم العذاب.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴿١١٦﴾﴾ فما دام شأنه هكذا فاحذروه وامتثلوا لما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم عنه؛ فأنتم في قبضته وتحت يده، ولا مفر لكم منه، وبيده حياتكم ومماتكم، ولن يدفع عذابه عنكم أحد منه أو ينصركم.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴿١١٧﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه قد تاب عليه هو ومن خرج معه إلى غزوة تبوك.

وسميت ساعة العسرة؛ لأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يدعوا الناس للنفير إلى بلاد الروم في أشد الحر، وأقسى الظروف، وكان بعض من المهاجرين والأنصار قد أوشك على عدم الاستجابة لله ورسوله، وقد أضمروا في أنفسهم القعود عن ذلك لولا رعاية الله سبحانه وتعالى لهم؛ إذ شملهم بلطفه وقوى عزائمهم، وربط على قلوبهم؛ فأخبرهم الله سبحانه وتعالى بأنه قد تاب عليهم فيما بدر منهم.

ومعنى لقد تاب الله على رسوله والمؤمنين: رجع عليهم برحمته ولطفه.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه قد تاب على الثلاثة الذين تخلفوا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك، وهم هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكعب بن مالك ثلاثتهم من الأنصار، وذلك أنهم أتوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد عودته من تبوك، واعترفوا له بأنهم قد أخطئوا في قعودهم مع تمكنهم من

الخروج طالبين التوبة بعد أن عرفوا أنه لا مخرج لهم عند الله سبحانه وتعالى، ولا ملجأ لهم منه إلا إليه، راضين بحكمه فيهم؛ فأعرض عنهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ولم يحكم فيهم بشيء منتظراً لأمر الله سبحانه وتعالى فيهم، ومنع الناس من السلام عليهم ومن محادثتهم أو معاملتهم بشيء، وجعلهم معزولين عنهم حتى عن نسائهم وأهاليهم؛ فمكثوا على هذه الحالة زماناً قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ فقد ندموا على تخلفهم عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وعرفوا ألا مهرب لهم من الله إلا إليه ولا مفر، فعندما ظهر صدق نياتهم وصدق توبتهم- تاب الله سبحانه وتعالى عليهم بعد ذلك ورحمهم، وأنزل في شأنهم قرآناً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ يحثهم الله سبحانه وتعالى على الذهاب إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ويكونوا من جملة المصدقين به والمتبعين له، ويتركوا المنافقين والكاذبين فإنما يدعونهم إلى الضلال.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه ما كان ينبغي لأهل المدينة ومن حولها أن يتركوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يخرج وحده إلى تبوك، ويمكثوا في المدينة، ولا يجوز لهم أن يقعدوا عن الخروج معه، وعن الجهاد معه ويعرضوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ للهلاك وهم في محل الأمن بين أهلهم وأولادهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ رغبهم الله سبحانه وتعالى في هذه الآية بأنه سيعطيهم إذا خرجوا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وسيثيبهم وسيجازيهم، فلا يصيبهم ظمأ وعطش، ولا تعب ومشقة، ولا مخمصة أي شدة ومجاعة، ولا ينزلون في مكان أو يصعدون يغيضون به الكفار، ولا ينالون منهم نيلاً إلا وسينالون ثواب عملهم هذا، ويكتب لهم أجره.

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ فلا يخطون خطوة، ولا ينفقون نفقة إلا كان لهم على ذلك أجر وثواب، وأي عمل يعملونه خلال خروجهم هذا قل أم كثر فسيوفيهم ثوابه.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ۝١٢١﴾ وسيثيبهم على ذلك العمل بأحسن الثواب، وهو أن يجازي على الحسنة بسبعمائة ضعف أو أكثر.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يخلف مكانه عند خروجه من يحرس المدينة ويحميها؛ لأن الأعداء كانوا يتربصون بها وبأهلها، ويتحينون الفرص لاقتناصها، فخلف علي بن أبي طالب مكانه بعد أن كان أمير المؤمنين قد ألح عليه في الخروج معه، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصر على بقائه، ولن يحفظها أحد غيره، وكذلك في كل غزوة فلا ينبغي أن ينفروا جميعاً، ويتركوا بلادهم وأهليهم وأولادهم عرضة للعدو.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ ليخرج من كل فرقة وقبيلة مجموعة منهم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليأخذوا عنه ويتعلموا عنه أحكام دينهم خلال ذلك فلا يرجعون إلى أهاليهم إلا وقد استفادوا وتعلموا وأخذوا عنه؛ فيعلمونهم ما استفادوه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفرهم هذا وما تعلموه، يحثهم الله على ذلك حثاً؛ لأنهم يستفيدون عنه في أسفارهم أكثر مما يستفيدونه وهم في بلادهم؛ لأنهم يكونون منشغلين في مدينتهم بأمور معايشهم، وإصلاح أراضيهم وأشجارهم، فلا تتاح لهم فرصة الجلوس حوله والاستفادة منه، فإذا كانوا معه في أسفاره فإنهم يحفظون عنه كل أفعاله وحركاته وأقواله، فلا يرجعون من سفرهم إلا وقد أخذوا عنه الكثير والكثير من الفوائد والعلوم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ۝١٢٢﴾ لأجل أن ينتفع بقية قومهم، ويعرفوا أحكام الله وأمور دينهم، وليتجنبوا معصيته.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يقاتلوا الكفار ويبدؤوا بقتال

القريب فالقريب منهم، وأمرهم بأن يكون فيهم شدة وقساوة عليهم، ولا يلينون لهم؛ لأنهم إذا لانوا لهم طمعوا فيهم.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ بنصره ومعونته وتأييده.

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ كلما أنزل الله سبحانه وتعالى سورة من القرآن- تهامس بعض أهل المدينة فيما بينهم وتساءلوا فيما بينهم: من منكم زادته هذه السورة إيماناً؟

فيجيبهم الله سبحانه وتعالى على ذلك: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ يخبرهم الله سبحانه وتعالى بأنها تزيد الذين آمنوا لا غيرهم.

يخبرنا الله سبحانه وتعالى عن كيفية طبع المؤمنين والمنافقين، فالمؤمنون ينتفعون بها ويعملون بأحكامها، فيزداد إيمانهم وثوابهم عندما يعملون بها.

والمنافقون يكفرون بها ولا يعملون بأحكامها، فيزدادون بذلك كفراً إلى كفرهم؛ لأنهم قد كفروا بما نزل من قبل، وكلما نزل شيء كفروا به أيضاً فازدادوا كفراً إلى كفرهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي نفاقاً، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ يعجب الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ والمؤمنين لماذا لا ينتفع المنافقون ويرجعون إليه، مع أنه ينزل بهم في كل سنة من البلاوي والمصائب ما يجعلهم ينزجرون، ويقلعون عما هم عليه من الكفر والنفاق والتمرد؛ فالمفترض بهم أن ينتبهوا بسبب ذلك من غفلتهم ورقدتهم، وهذا من لطفه عندما يبتلي الإنسان ببلاء أو شدة؛ لأن ذلك يوقظه، ويسوقه إلى الرجوع إليه والخوف منه، فكيف مع كل هذا لا ينتبه المنافقون ويرجعون عن غيهم وضلالهم.

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ فهذه هي طبيعة المنافقين كلما أنزلت سورة وسمعوها جعل بعضهم ينظر إلى بعض يهمون بالفرار لئلا

تلحقهم مذمة عندما يتركون العمل بها نزل، ويكون ذلك عذراً لهم في عدم العمل ظناً منهم أن ذلك ينفعهم، وأن فيه مخرجاً لهم.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى العرب بأنه قد أرسل إليهم رسولاً منهم، إذ كان أهل المدينة أخواله، وأهل مكة أهله وعشيرته.

فأخبرهم الله سبحانه وتعالى بأنه ليس غريباً أن يكون منهم نبي، فلماذا لا تؤمنون به ما دمتم تعرفونه، وتعرفون معدنه وأصله.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ يعز عليه أن تقعوا في المهالك، وحريص عليكم أشد الحرص، وأيضاً يدعوكم إلى ما فيه نجاتكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝١٢٨﴾ مشفق على المؤمنين أن يلحقهم أي أذى أو مكروه أو مضرة في الدنيا وفي الآخرة.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأبوا الاستماع إليك، وأرادوا هلاكك.

﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فلا تخف منهم، وقل سيكفيني الله بهم، وسيحفظني ويدفع عني شرهم وأذاهم، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت عليه وحده، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝١٢٩﴾ رب الملك كله، والعرش هو ملك السماوات والأرض وما بينهما، ولا سرير كما يزعمون ويقولون.

وهذه السورة اسمها التوبة، وقد نزلت في المدينة، وأكثرها تتحدث عن المنافقين، وتذكر شأنهم وأفعالهم، وبعض آياتها قد تحدثت عن المشركين.

وسورة يونس تتحدث عن مشركي مكة وتخاطبهم، وكان نزولها في مكة عندما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعوهم إلى الإسلام والإيمان، ولكنهم رفضوا الاستماع إليه، وأصروا على كفرهم وتمردهم، وعلى عبادة الأصنام.

تمت سورة التوبة

ويليها سورة يونس

❁❁❁❁❁

سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ۝١﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن اسم هذه السورة «الَر»، وأنها تحتوي على الآيات المحكمة التي تنطق بالحكمة، وليست كلاماً كسائر الكلام فكل كلمة فيها تشتمل على المعاني الحكيمة البالغة الدقة والإحكام، وتتحدث عن مواضيع هامة ينبغي الاستماع لها، والوقوف على معانيها، والتدبر لما جاء فيها.

وأشار إليها بأنها آيات الكتاب الحكيم تعظيماً لها، وتفخيماً لشأنها.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ۝٢﴾ استنكر الله سبحانه وتعالى عليهم كيف أنهم يتعجبون عندما أنزل الله وحيه على رجل منهم؟ وكيف يجعلون ذلك مستحيلاً وغير ممكن؟ واستغربوه غاية الغرابة، فقالوا: لا يصح أن يكون الذي ينذرنا بشراً مثلنا، ولا بد أن يكون من غير جنسنا إما ملكاً أو نحوه؛ فكيف يتعجبون وليس ذلك موضعاً يستدعي التعجب؟ وما المانع من أن ينزل الله سبحانه وتعالى وحيه على رجل مثلهم؟ فواجهوا هذا النبي الذي ينذرهم واتهموه بأنه ساحر ظاهر سحره، وليس من النبوة في شيء.

ثم خاطب الله سبحانه وتعالى قريشاً فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ فمن هذه صفاته هو الذي يستحق أن يكون رباً لكم تتوجهون إليه بعبادتكم دون تلك الأصنام التي لا تنفع ولا تضر.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ ثم استولى على الملك، وجعله تحت سيطرته، وتحت قدرته وتدبير شؤونه.

والملك هو السماوات والأرض وما بينهما، والعطف بثم هنا يدل على قدرته

وتمكنه، وأن الاستيلاء وتولي إدارة ذلك أعظم من خلقه.

ولا سرير هناك كما يقولون، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد ذكر ذلك في سياق التمدح والكبرياء، فلو كان معنى ذلك هو الجلوس على السرير كما يزعمون، فأي تمدح في ذلك؟ وأي فائدة في ذكره لو كان كذلك؟ بل ولكان ذلك نقيصة في حقه جل وعلا أن يجعل جلوسه من جملة ما يتمدح به.

يثني الله سبحانه وتعالى على نفسه هنا، ويذكر صفاته التي يستحق بها الربوبية، فلم يبق مع ذلك إلا أن يكون معنى الاستواء هو ذلك الذي فيه غاية المدح والثناء له جل وعلا، وقد ورد ذلك في لسان العرب كثيراً، أي استعمال العرش بمعنى الملك، وأيضاً فقد فسره الكلام الذي ورد بعده فقال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ مما يزيد ذلك وضوحاً ودلالة في أن المراد المعنى الذي ذكرنا وهو الاستيلاء.

﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ فالله سبحانه وتعالى لجلاله وعظمته وملكه وسلطانه أخبر أنه لا يستطيع أحد أن يشفع عنده إلا لمن أذن له، فلا نبي مرسل ولا ملك مقرب، يتقدم بشفاعة عند الله إلا بعد أن يأذن الله تعالى له، وهذا مما يدل على عظمته وقوة ملكه وسلطانه وتمكنه.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ فمن هذه صفاته هو ربكم الذي ينبغي أن تتوجهوا بعبادتكم إليه، وليست تلك الأحجار التي تنحتونها، وتجعلون لها أسماءً، وتعبدونها من دون الله.

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ فخصوه بالعبادة ولا تعبدوا غيره؛ فالذي خلقكم وخلق السماوات والأرض وما بينهما، وسيطر عليهما بقدرته وقوته وملكه وتدبيره هو الذي ينبغي أن تتوجهوا بعبادتكم إليه بدل تلك الأحجار التي لا تضر ولا تنفع ولا تغني شيئاً.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ۝٣﴾ يحثهم الله سبحانه وتعالىٰ على الرجوع إلىٰ عقولهم، وأن يتفكروا وينظروا ليعرفوا الصدق والحقيقة؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ قد ركز في عقل كل عاقل معرفته، وأنه الذي يستحق العبادة دون غيره، وقد فطرها علىٰ التمكن من التوصل إلىٰ ذلك؛ فإذا فتش فيها سيجد حقيقة ذلك، وسيسوقكم تفكيركم إلىٰ الحقيقة التي تقتنع عندها الفطرة فلا يحتاج العقل إلىٰ تعب في التفكير وإنما دعاه الله إلىٰ أن يفتش بتفكيره في حنايا عقله.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ يحذر الله سبحانه وتعالىٰ كفار قريش بأنهم سوف يرجعون إليه جميعاً هم وآلهتهم، وجميع من في السماوات والأرض فيجازيهم.

﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ ولا بد أن يقع وهو حق ثابت لا يخلف الميعاد.

﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ كانوا ينكرون البعث ويجعلونه مستحيلاً، ويستبعدون كيف يحيي الله العظام وهي رميم، فأخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن من قدر علىٰ بداية خلق الشيء من العدم سوف يقدر علىٰ إعادته، بل إن الإعادة أسهل من ابتداء الشيء من العدم؛ لأن الإعادة هي تركيب وتأليف أشياء موجودة بخلاف الابتداء.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ فهذه هي الحكمة والغرض من الإعادة وبعث الناس يوم القيامة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ۝٤﴾ يبعثهم الله سبحانه وتعالىٰ يوم القيامة ليجازيهم علىٰ أعمالهم التي عملوها في الدنيا، فهؤلاء إلىٰ النار بسبب كفرهم وتكذيبهم بآيات الله سبحانه وتعالىٰ ورسله، وأولئك إلىٰ الجنة والنعيم الدائم جزاء أعمالهم الصالحة.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالىٰ قريشاً، ويستنكر عليهم عبادتهم الأصنام، ولماذا لا تعبدون الله الذي خلق الشمس، وسخرها لكم تستضيئون بنورها الوهاج، وجعل القمر لكم نوراً

تستضيئون بنوره الخافت، وكل منهما لحكمة ومصلحة لكم؟ وكم من فوائد جعلها الله فيهما بقدرته وحكمته.

﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ وهي منازل القمر منزلة بعد منزلة إلى أن تستوفي شهراً.

﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ جعل هذه المنازل لتعرفوا بها السنين، وتحسبوا بها أوقاتكم ومواعيد معاملاتكم، وفي ذلك من المصلحة ما لا يخفى.

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ما خلق ذلك إلا لحكمة ومصلحة لكم وغرض منفعتكم، ولم يخلقهما عبثاً.

وكل شيء يخلقه الله سبحانه وتعالى فهو لحكمة ومصلحة لكم، وأما هو فليس محتاجاً لذلك، يطلعهم الله سبحانه وتعالى هنا على المصالح التي يلمسونها بأيديهم، ويحسون بها، وتحيط بها أفكارهم ببديهتها، وإلا فهناك فوائد كثيرة غير ذلك فمن فوائد القمر أنه الذي يمسك البحر، ويتحكم في عملية المد والجزر، وفيه جاذبية تمنعه أن يفيض على اليابسة، ولا زال العلم الحديث يكتشف المزيد، والمزيد من الفوائد التي تصب كلها في مصلحة الإنسان وبعد فالحكمة العظيمة التي خلق الله من أجلها المخلوقات كلها هي: أن يثيب الصالحين ويعذب الظالمين.

﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ۝٥﴾ يوضح الله سبحانه وتعالى، ويبين لهم الآيات التي تدل على وحدانيته وقدرته وحكمته وعلمه ورحمته؛ لأن الشمس والقمر رحمة ونعمة عظيمة يفصل الله سبحانه وتعالى آياته فيهما وفي غيرهما لأولئك الذين يتأملون فيها، ويتدبرون في خلقها، ويزداد إيمانهم بالنظر في عجيب صنعها.

﴿إِنَّ فِي اختلاف اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ۝٦﴾ فمرة يكون الليل طويلاً والنهار قصيراً، ومرة يكون العكس من ذلك، والليل يكون مظلماً، والنهار يكون مبصراً، يجيء النهار ثم يخلفه الليل.

يحثنا الله سبحانه وتعالى أن ننظر ونتفكر في هذا الاختلاف أليس يدل على أن وراء ذلك قادراً يفعل ذلك، وكذلك يحثنا على النظر فيما يترتب على هذا الاختلاف من المنافع العظيمة والمصالح الجمة والكثيرة لنا، أليس في ذلك آيات دالة على قدرته ورحمته وعلمه ووحدانيته وفضله ونعمته على الناس.

أخبر الله سبحانه وتعالى أنه سينتفع بهذه الآيات ويتفكر فيها المتقون لسخطه ونقمته، وأما الذين لا يخافون منه، ولا يؤمنون باليوم الآخر- فهم بعيدون كل البعد عن ذلك، ومعرضون أشد الإعراض.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أراد الله سبحانه وتعالى بهؤلاء المشركين فهم الذين لا يؤمنون باليوم الآخر، ولا يؤمنون بلقاء الله سبحانه وتعالى، ولا بالحساب والعقاب والجنة والنار، وينكرون أن يكون هناك حياة غير هذه الحياة.

﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ وجعلوا أكبر همهم الدنيا وزينتها وملذاتها، وتوجهوا بجميع أعمالهم إليها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ۝٧﴾ وهم غافلون عن النظر والتفكر في آيات الله سبحانه وتعالى التي بين أيديهم من خلق السماوات والأرض والشمس والقمر، واختلاف الليل والنهار.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن مصيرهم فقال: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ۝٨﴾ فمصيرهم إلى جهنم بسبب أعمالهم تلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ۝٩﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأن الذين آمنوا بالله وعملوا الأعمال الصالحة فسيهديهم ربهم إلى أن يعملوا بالأسباب التي تؤدي بهم إلى الجنة، وسيبصرهم بسبب ذلك إلى الطريق التي يسيرون فيها وتؤديهم إلى الجنة.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ فهذا هو دعاء أهل الجنة، وهو: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي ننزهك ونعظمك ونقدسك، وأما تحية بعضهم لبعض وتحية الملائكة لهم فهو: (السلام عليكم).

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۝١٠﴾ على ما هداهم إلى أن وصلوا إلى ذلك الملك العظيم، والنعيم الدائم، ونفوسهم تطفح بحمد الله تعالى والثناء عليه عندما يرون هذه النعمة التي لا يضاهيها نعمة، والنعيم الذي لا يساويه ولا يعادله نعيم، تعبيراً وكناية عن رضاهم عن الله سبحانه وتعالى بما أعطاهم.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لو أن الله سبحانه وتعالى يستجيب للناس عندما يدعون على أنفسهم بالعذاب والهلاك لانتهت حياتهم ولماتوا، ولو أنه يعجل استجابته لهم بذلك مثلما يعجل استجابته لهم بالخير عندما يدعون به لأهلكوا، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يستجيب لهم دعاءهم بالشر على أنفسهم رحمة منه تعالى بعباده.

﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ۝١١﴾ مع أنهم يدعون الله سبحانه وتعالى أن يعذبهم، وذلك كدعائهم على أنفسهم عند النبي ﷺ عندما دعاهم إلى الإيمان فقالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ۝٣٢﴾ [الأنفال]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ۝١٦﴾ [ص]، أي: عجل لنا نصيبنا من العذاب الآن، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يستجيب لهم ذلك، بل يتركهم في غيهم وضلالهم وشركهم، يسرحون ويمرحون إلى أن يستوفوا آجالهم التي كتبها لهم، ولو أنه يستجيب لهم لأخذهم في الحال وعذبهم، ولما أمهلهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ۝١٢﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية عن طبع ابن آدم في الجملة،

فإذا أصابه بلاء وشدة رجع إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ يدعوه ويتضرع إليه، ويستغيث به في كل وقت، وعلىٰ كل حالة في قيامه وقعوده واضطجاعه؛ ليكشف عنه هذا الضر، فما إن يرفع الله سبحانه وتعالىٰ عنه ضره بدأ في الإعراض عنه ونأىٰ بجانبه، فلا يحمد الله ولا يشكره، ورجع إلىٰ عبادة الأصنام والاستقسام بالأزلام، وترك ذلك الذي عافاه وشفاه وأنقذه من المهالك.

وهكذا دأبهم يخلصهم الله سبحانه وتعالىٰ من البلاوي والأمراض والمهالك والشدائد، فيعرضون عنه، ويظنون أنهم بعملهم هذا الذي قد زينه لهم إبليس في خير العمل.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالىٰ قريشاً، ويحذرهم بأسه ويحثهم علىٰ أن ينظروا في مصير الذين من قبلهم عندما كفروا بآيات الله سبحانه وتعالىٰ، وكذبوا رسله- ليعتبروا بهم فيقلعوا عما هم عليه.

﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ولكنهم لم يؤمنوا بالرغم من الآيات التي جاءتهم بها رسلهم؛ فعذبهم الله جزاءً علىٰ ذلك.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ سوف نجازيكم ونفعل بكم مثل ما فعلنا بهم، فاحذروا.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد أولئك الذين أهلكناهم، تعمرونها وتعيشون علىٰ ظهرها.

﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ لنختبركم كيف سيكون عملكم فيها، هل ستطيعون الله سبحانه وتعالىٰ، وتؤمنون بآياته ورسوله؟ أم ستعرضون كما أعرض من كان قبلكم؟

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ يتحدث الله سبحانه وتعالىٰ عن مشركي قريش، وكيف كان موقفهم من القرآن وجوابهم عندما تلي عليهم، فأخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن

النبي ﷺ كان إذا تلا عليهم آيات القرآن التي هي واضحة، والحق بين فيها، وظاهر لمن سمعه كان المشركون يجيبونه بأن يأتيهم بغير هذا القرآن، أما هو فلن يصدقوه، وليس ذلك منهم في الحقيقة إلا عناداً وتمرداً عن قبول الحق.

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يجيبهم بهذا الجواب وهو أنه لا ينبغي لي أن أبدله وليس في استطاعتي ولا تحت قدرتي فهو كلام الله سبحانه وتعالى؛ فإن شاء تركه، وإن شاء بدله لهم بغيره.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ فلست أبلغكم إلا ما يوحي به الله سبحانه وتعالى إلي من الآيات، ولست مأموراً بغير ذلك، شئتم أم أبيتم.

﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾ إن بدلته لكم أو جئتكم بشيء من عندي فقد عصيت الله سبحانه وتعالى، وأنا أخاف من معصيته عذاب جهنم.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أخبرهم يا محمد أن الله تعالى لو شاء لما أوحى به إليك، ولما بعثك لتقرأه عليهم.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ ولو كان من تلقاء نفسي لكنت قد أخبرتكم به وقرأته عليكم قبل مبعثي.

أراد بذلك أن يقنعهم بأنه من عند الله سبحانه وتعالى؛ لأنه لو كان من عند نفسه لكان قد أسمعهم شيئا من هذا الكلام المعجز قبل أن يبعثه الله سبحانه وتعالى إليهم، مع أن جميع قريش يعترفون بصدق النبي ﷺ وأمانته، وأنه لم يكذب كذبة قط؛ فلماذا يكذب الآن مع وضوح صدق ما جاء به؟

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٦﴾ يحثهم النبي ﷺ على التفكر والنظر في صدق ما جاء به.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ۝١٧﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا أحد أشد ظلماً من ذلك الذي يفتري الكذب على الله سبحانه وتعالى، ويقول: إن الله حرم هذا، وحلل هذا،

كذباً وافتراءً من عند أنفسهم، وكذلك الذي إذا سمع آيات الله تتلى عليه كذب بها واستهزأ، ونسبها إلى الخرافات والسحر والأباطيل.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ هؤلاء المشركون كانوا يعبدون الأصنام التي لا تضر ولا تنفع.

﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فسنسعد بشفاعتهم في الدنيا والآخرة؛ لأنها هي الواسطة بيننا وبين الله.

﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ لقد تعاظم جهلكم أيها المشركون حتى ادعيتم أن مع الله آلهة، والله سبحانه وتعالى لا يعلم له شريكاً في السموات والأرض.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ كان الناس جميعاً على الكفر، ثم بعث الله سبحانه وتعالى إليهم الأنبياء فاختلفوا حينها؛ فمنهم من آمن، ومنهم من كفر.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ لولا أنه قد سبق من الله سبحانه وتعالى الوعد بأنه سوف يؤجل حساب الخلائق وجزاءهم إلى يوم القيامة لحكم بينهم في الدنيا، ولكن حكمته اقتضت أن يؤخر ذلك إلى يوم القيامة فيحكم بين المحقين والمبطلين.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يطلب المشركون من النبي ﷺ أن يأتيهم بآيات تدل على نبوته وسوف يؤمنون به ويصدقونه، متغافلين عن الآيات التي قد جاءهم بها قبل ذلك، ومتعامين عنها، زاعمين أنها ليست شيئاً، وأنها لا تدل على صدق النبي ﷺ وصدق نبوته، وفي الحقيقة أن هذا ليس إلا عناداً منهم وتمرداً.

﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ فلا أعلم ماذا سيكون من الله سبحانه وتعالى، وما الذي سينزله عليكم أو يأتيكم به، ولست إلا مبلغاً لما يأمرني بتبليغه، وليس في يدي شيء غير ذلك.

﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴿٢٠﴾﴾ انتظروا واصبروا ماذا سيأتيكم من الله سبحانه وتعالى؟ وماذا سينزله عليكم؟ هل آياته أم سخطه وعذابه؟ ولا يعلم الغيب إلا هو وحده.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ يتكلم الله سبحانه وتعالى عن طبيعة المشركين؛ فأخبرنا أنه إن أعطاهم الخير وأسبغ عليهم النعم بعد أن أصابهم بالشدائد والمصائب نسوا ذلك، وبمجرد أن يرفع الله سبحانه وتعالى عنهم ذلك يبدؤون بالتآمر على دينه، وعلى أنبيائه وآياته، ويتخذون شتى الوسائل لهدمه وإبادته، وأن هذا هو دأبهم دائماً، ولكن كيفما كان مكرهم فمكر الله سبحانه وتعالى فوق مكرهم وسيغلبهم.

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴿٢١﴾﴾ وهم الحفظة الكرام الكاتبون الموكلون بتسجيل أعمال ابن آدم، وسيجازيهم الله سبحانه وتعالى على ما قد سجلته الحفظة من أعمالهم صغيرها وكبيرها، فهذا هو المراد بمكر الله سبحانه وتعالى الذي سيمكره بهم.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى كفار قريش بأنه الذي منّ عليهم بنعمة التنقل على ظهر البر والبحر، وسخر لهم الإبل والخيل والحمير وما أشبهها في البر، وكذلك نعمة السير بالأرجل، بما جعل فيكم من الصحة والعافية والتمكين، وفي البحر سخر لكم السفن تجري بكم فيه.

﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ يسخر الله سبحانه وتعالى لعباده الريح الطيبة التي تسير بهبوبها السفن منه تعالى على عباده، فيرتاح لها ركاب السفن ويفرحون بها، ثم يأتي الله تعالى بريح شديدة تهيج بشدتها الأمواج، هنالك يظن المشركون لشدة ما يرون من الأهوال وأسباب الهلاك أنهم قد وقعوا في الهلكة.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ ظنوا أنهم حينها قد أوشكوا على الهلاك والغرق فعند ذلك: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ففي هذه الحالة نسوا تلك الأصنام التي يعبدونها، ورجعوا إلى الله سبحانه وتعالى يستغيثون به وحده في إنقاذهم والكشف عنهم، وعرفوا أن معبوداتهم تلك لن تنفعهم شيئاً.

وهذه التي جعلتهم كذلك هي الفطرة التي جعلها الله سبحانه وتعالى في عقل كل عاقل، وجعلها حجة واضحة عليهم في معرفته.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يدعونه وحده دون تلك الآلهة، ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴿٢٢﴾﴾ لئن خلصتنا يا ربنا من هذه الكارثة والشدة لنكونن من الشاكرين والمخلصين في عبادتنا لك لا ندعو معك نداً ولا نعبد سواك.

﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فلما أنجاهم وأنقذهم من الهلاك والغرق- رجعوا إلى ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والشرك، ونسوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله سبحانه وتعالى عليه وهم على ظهر البحر الهائج الذي تتلاطم بهم أمواجه الهادرة.

وهذه التي قصها الله سبحانه وتعالى كانت هي حالة قريش؛ لأنهم كانوا أهل سفر وأهل تجارة، وكانوا يتعرضون لمثل هذه المهالك، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يذكرهم بتلك النعم التي أنعم بها عليهم؛ لعلهم يرجعون.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أخبرهم الله سبحانه وتعالى بأن طغيانهم في الأرض وعبادتهم للأصنام لن يضر إلا أنفسهم، ووباله لن يكون إلا عليهم، وأنهم لم يبغوا إلا على أنفسهم، وأما هو فلن يضروه شيئاً، ولن يضروا دينه، وسيظهر دينه ولو كره الكافرون، وعلى رغم أنوفهم.

وطغيانهم هذا ليس إلا ذنوباً اكتسبوها، وسيجازيهم عليها في الدنيا بالخزي والذل والهوان، وسيسلط عليهم من يعذبهم، وفي الآخرة عذاب النار وبئس المصير.

وبغيهم هذا إنما هو لأجل إشباع رغباتهم وأهوائهم وشهواتهم، وليمتعوا

أنفسهم باللهو الطرب والرقص عند الأصنام، ومخالطة النساء، وشرب الخمر، ولم يعبدوا الأصنام إلا لأجل ذلك.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ يخاطبهم الله سبحانه وتعالى بأن مرجعهم إليه وسيجازيهم على بغيهم هذا وفسادهم في الأرض.

﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٢٣﴾﴾ يطلعهم الله سبحانه وتعالى على أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، ويجازيهم عليها.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ يصور الله سبحانه وتعالى الحياة الدنيا وقصرها، وسرعة زوالها، وأنها ليست إلا متاعاً وغروراً، وسرعان ما تنتهي وتزول.

شبه الله سبحانه وتعالى حالها تلك بأنها مثل الماء الذي ينزله من السماء إلى الأرض فينبت به الشجر، ويكسوا به الأرض خضرة، ولكن سرعان ما تذهب هذه الخضرة، وتيبس هذه الأشجار، وتذبل وتتفتت؛ فتطيرها الرياح وكأن شيئاً لم يكن.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴿٢٤﴾﴾ قص الله سبحانه وتعالى هنا قصتين ذكر أولاً الحياة الدنيا وحالها، ثم أخبر ثانياً بأنه يمتع الكافرين في الدنيا فيتركهم يتمتعون بزخارفها وزينتها، ويمكنهم على ظهرها بالعمارة والتجارة والصناعة؛ فإذا ظنوا أنها قد انساقت لهم وصلحت من كل ما ينغص عليهم فيها- دمرها الله سبحانه وتعالى عليهم، وأخذهم جهرة في ليلهم أو في نهارهم، يخبر أن هذه هي سنته في الدنيا في كل زمان، وليس بعد الكمال إلا النقصان، قال الشاعر:

توقـــع زوالا إذا قيـــل تـــم

فليتنبه كل عاقل لذلك، ولا يغتر أحد بزخرفها وزينتها.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فالله سبحانه وتعالىٰ لا يريد إلا سعادتكم وما فيه نجاتكم، وهو يناديكم إلىٰ الجنة التي لا خوف ولا شدة ولا زوال لنعيمها الدائم؛ لأن الإنسان يميل بشهواته إلىٰ الدنيا وملاذها ومتاعها مع أنها دار زوال، وسرعان ما ستنتهي كما قد شبهها الله سبحانه وتعالىٰ في الآية السابقة، والله سبحانه وتعالىٰ يدعو إلىٰ تلك الدار التي سلمت عن كل ما ينغصها ويذهب بهجتها، ويهدي إليها أولياءه.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ بجزاء من أطاعه وامتثل لأوامره بأفضل الثواب وأجزله وأحسنه.

فالذين أحسنوا العمل وطاعة الله سبحانه وتعالىٰ وعبادته فسيعطيهم الله المثوبة الحسنىٰ وسيزيدهم علىٰ ما يستحقونه من عنده بأضعاف مضاعفة، ومن عظيم فضله جعل للإنسان فرصاً وأوقاتاً يكون أجر العمل فيها مضاعفاً رحمة بهم كشهر رمضان وليالي القدر ويوم الجمعة وليلتها والعشر الأول من ذي الحجة وليلة النصف من شعبان و...إلخ.

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ومع هذا النعيم الذي هم فيه تكون وجوههم يوم القيامة مشرقة ومنيرة، ظاهراً عليها السرور والبهجة، بخلاف الكفار والمشركين والمنافقين والفساق فالقتر والسواد ظاهر علىٰ وجوههم، وكذلك الذلة والخزي والمهانة.

ذكر الله سبحانه وتعالىٰ هنا صفات أهل الجنة يوم القيامة وثوابهم.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ يخبرنا الله سبحانه وتعالىٰ بأن من عمل معصية فسيجازيه بمثلها ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يوم القيامة، سيحشرهم ووجوههم مظلمة وعليهم الخزي والذلة.

﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ وليس لهم من يدفع عنهم العذاب يوم القيامة.

﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴿٢٧﴾﴾ من شدة سوادها كأنها ألبست قطعة من سواد الليل.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ عندما يحشر الله سبحانه وتعالى المشركين يوم القيامة سوف يأمرهم بالوقوف في أماكنهم للمساءلة والحساب.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ ثم يفرق الله سبحانه وتعالى بينهم وبين آلهتهم.

﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴿٢٨﴾﴾ أنكرت الآلهة التي عبدوها من دون الله أن هؤلاء كانوا يعبدونها كالمسيح والملائكة وغيرهم مما عُبِدَ من دون الله عز وجل.

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴿٢٩﴾﴾ فلم نكن نفكر في عبادتكم لنا، ولم نأمركم بعبادتنا، وكفى بالله سبحانه وتعالى على ذلك شاهداً.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ في ذلك الموقف في أرض المحشر سوف ترى كل نفس ما أسلفت من عمل في الدنيا، صغير أعمالها وكبيرها، ظاهرها وخفيها.

﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴿٣٠﴾﴾ رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى في يوم القيامة، وهو الذي سيحاسبهم على أعمالهم وسيجازيهم عليها، فهذا الذي سوف يكون مرجعهم إليه هو إلههم الحق دون تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها فقد ضاعت عنهم يوم القيامة.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يسأل المشركين: من هو الذي ينزل عليكم بركات السماء من المطر، ويخرج لكم خيرات الأرض؟

﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ وأن يسألهم أيضا: من الذي خلق أسماعهم وأبصارهم؟ ومن هو مالكها؟

﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ ومن هو الذي يخرج من النطفة إنساناً وسياً ويخرج من البيضة دجاجة، ومن يدير أمر السماوات والأرض ويدبر شؤونها؟

﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ سوف يعترفون لك يا محمد بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي بيده كل ذلك، ولن يجدوا بُدّاً من هذا الاعتراف، وحقاً اعترفوا بكل ذلك.

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ۝٣١﴾ فقل لهم يا محمد: فلماذا لا تتقونه وتطيعونه وتعبدونه، وتتركون هذه الأصنام والآلهة التي تعبدونها؟

﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ فما دمتم معترفين أن الله تعالى هو وحده الذي ينزل الماء من السماء ويخرج به أرزاقكم، وأنه الذي جعل لكم السمع والأبصار وأنه الذي يحيي ويميت، وأنه الذي يدبر ملكوت السماوات والأرض فما بالكم لا تخصونه بالعبادة والطاعة فهو الذي يستحق الإلهية والربوبية- فينبغي أن تتوجهوا بعبادتكم إليه، وتنقادوا وتستسلموا له لو كانت لكم عقول.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ۝٣٢﴾ فكيف تصرفون عن عبادة الإله الحق الذي بيده خلقكم ورزقكم وحياتكم وموتكم، وتذهبون إلى تلك الأصنام التي لا تضر ولا تنفع؟ وما هو الذي صرفكم إليها؟

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ۝٣٣﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن كلمته قد صدقت فيهم، وهي أنهم لن يؤمنوا أبداً فلا تطمع في إيمانهم يا محمد، ولا تتوقع منهم ذلك أبداً، ولا تتعب نفسك في ملاحقتهم، فقد سبق في علم الله سبحانه وتعالى أنهم لن يؤمنوا.

فقد بلّغتهم الحجة وهذا هو الذي عليك، ولست مكلفاً بإدخالهم في الهدى مكرهين.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعلِّم الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ كيف يحاجج المشركين ويجادلهم، فأمره أن يسألهم: هل في هذه الأصنام التي تعبدونها من قد ابتدأ خلق شيء من العدم؟ وهل فيها من يستطيع أن يعيد خلق هذا الشيء مرة أخرى؟ وهل فيها من يقدر على ذلك؟ فسيجيبونه حتماً بالنفي.

﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ولن يجدوا جواباً إلا أن يعترفوا لله سبحانه وتعالى بأنه الذي ابتدأ ذلك الخلق، وهو قادر على إعادته حتماً.

﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴿٣٤﴾﴾ فكيف تعترفون بذلك لله سبحانه وتعالى، ثم تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأصنام؟ وما هو الذي صرفكم؟

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ ولن يجدوا بداً من أن يجيبوه بالنفي.

﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ فإذا أجابوك بالنفي يا محمد فأخبرهم بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يهدي إلى الحق.

﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ اسألهم من الذي هو أحق بالاتباع: أذلك الذي يهدي للحق أم الذي لا يهدي إليه إلا إذا هداه هادٍ إلى طريق الهدى والصواب؟ كالمسيح عندما كانوا يدعون له الربوبية، والحقيقة أنه لم يهتد بنفسه، وإنما احتاج إلى من يهديه.

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴿٣٥﴾﴾ ما بالكم تميلون إلى ذلك الذي لا يهدي للحق؟

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ فهم بعبادتهم هذه الآلهة لا يستندون إلى دليل قاطع على استحقاقها الإلهية والعبادة، وإنما يتبعون أوهاماً في قلوبهم، وظنهم هذا لا يكفي، ولا يغنيهم عن الحق شيئاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴿٣٦﴾﴾ فهو مطلع على نياتهم وعالم بأعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وما ينبغي أن يكون هذا القرآن قد جاء به شخص من عند نفسه، وذلك لبلاغته الفائقة قوى البشر، ودقته وتناسق معانيه، وسلامته من التناقض والاختلاف يدل على أنه فوق قدرة البشر ولن يستطيع أحد أن يأتي بمثله، إذاً فلم يبق إلا أنه كلام الله سبحانه وتعالى.

كان المشركون واليهود يتهمون محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه كذاب، وأن القرآن الذي جاء به ليس إلا سحراً وكلاماً مفترا، فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بهذا الجواب.

﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ ولكنه كتاب حق مصدق لما سبقه من الكتب السماوية وهي التوراة والإنجيل، وهذا هو تفسير «الذي بين يديه» وأن المراد به هو أقرب شيء نزل قبله من الكتب، ومفصلاً للأحكام والشرائع.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٣٧﴾﴾ ولا يدخله الريب والشك، ولن يتطرق إليه أبداً.

ثم ذكر بعد ذلك أن هذا الكلام من كلام رب العالمين ليزيد من تأكيد عدم صحة دخول الريب فيه، فما دام من كلامه فكيف يصح أن يدخله الريب والشك ويتطرق إليه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ كان المشركون يقولون: إن القرآن ليس من كلام رب العالمين، وإنما هو كلام قد افتراه واختلقه محمد من تلقاء نفسه.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴿٣٨﴾﴾ إذا كنتم تدعون أن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قد افتراه من عند نفسه فهاتوا سورة من مثل ما جاء به واستعينوا بمن أردتم من الجن والإنس.

تحداهم الله سبحانه وتعالى بذلك إن كانوا صادقين فيما يزعمون، مع أنهم أرباب الفصاحة والبلاغة والسباقون في ميادينها، وكانت البلاغة في ذلك العصر قد بلغت غايتها، وراجت رواجاً عظيماً في ذلك الوقت حتى صارت تجارة

أسواقهم وميدان سباقهم، وصارت الشعراء تجتمع في الأسواق يتبارون فيها، تشهد بقوة بلاغتهم المعلقات السبع التي علقوها في أستار الكعبة، وهي سبع قصائد كانوا قد انتقوها لأشعر شعرائهم، ولكن عندما نزل القرآن وسمعوه استحقروها واستصغروها وأصابهم الخجل من أنفسهم فأزالوها عند ذلك.

وكان كبار قريش كأبي سفيان والوليد بن المغيرة وغيرهم يذهبون خفية لسماع القرآن لما فيه من الحلاوة واللذة والطرب لأنفسهم.

وعندما اجتمعوا ليتشاوروا في كيفية الطعن فيه قال الوليد بن المغيرة في شأنه: كيف يكون لنا مدخل في الطعن عليه؛ والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وأعلاه لمورق، وإنه يعلوا ولا يعلا عليه، ووالله إن هذا الكلام ليس من كلام البشر، وإنه لكلام خالق القوى والقُدَر، ولكن أقرب ما نستطيع أن نقول فيه: إنه سحر يؤثر، أي: سحر قوي ونفاذ تقادم عهده.

وكان من سمعه آمن به، وبأنه من عند الله لمعرفتهم بالبلاغة والفصاحة، وتأثيره ذلك مما يدل على قوة إعجازه، ولولا أن قريشاً كانت تقف حائلة بين محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبين الناس، وتمنع من أتى إلى مكة حاجاً أو معتمراً، وتحذر الناس من الاستماع له، وتتخذ شتى الوسائل للحيلولة بينه وبينهم- لكثر المؤمنون ذلك الوقت.

فكانت قريش تحذر منه حتى أن من دخل مكة صار يتحاشا لقاء محمد أو رؤيته خوفاً على أنفسهم من سحره، وأما من لم ينتبه لنفسه إلا وقد سمعه فإنه يؤمن بمجرد أن يسمعه لفصاحته وبلاغته الخارقة لقوى البشر.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ والسبب في عدم إيمانهم به هو تكذيبهم بما أنزل فيه من الأمور الغيبية كالقيامة والبعث والجزاء والحساب وتكذيبهم بالوعيد الذي توعدهم به الله سبحانه وتعالى على أعمالهم التي يعملونها، وكان ذلك مما زادهم استكباراً وعتواً وعناداً.

﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وهم أمم الأنبياء الذين كانوا قبلهم.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴿٣٩﴾﴾ انظروا أيها المشركون في عاقبة أولئك عندما كذبوا أنبياءهم كيف عذبهم الله سبحانه وتعالى؛ فاعتبروا بهم.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴿٤٠﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن بعض قريش قد آمن بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وما جاء به، وبعضهم على العكس.

وقوله: وربك أعلم بالمفسدين فيه تهديد لهم بأنه مطلع على أعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء، وسيجازيهم عليها.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴿٤١﴾﴾ إن لم يصدقوك يا محمد وتمردوا عليك فأخبرهم أن كل امرئ مرهون بعمله، وأنك بريء من أعمالهم ودينهم، وكافر به كما أنهم بريئون من دينك وعملك وكافرون به، وقد أبلغتهم الحجة، وهذا هو الذي يلزمك.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن بعض قريش كانوا يستمعون إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴿٤٢﴾﴾ ولكن سماعهم هذا لم يكن سماع تصديق، وإنما هو سماع مثل سماع البهائم، ولن يستجيبوا لك لأنهم صم لا يسمعون؛ فكيف تستطيع أن تسمع الأصم، ومع ذلك ليس له عقل؟

يخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه مهما حاول في إقناعهم فلن يستطيع؛ لأن حالهم كحال الأصم الذي لا يعقل.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن بعض المشركين ينظر إليه وهو يقرأ عليه القرآن.

فلا تظنن يا محمد أنه من نظره هذا وإنصاته قد أوشك على الإيمان فلن يهتدي أبداً.

﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴿٤٣﴾﴾ فما حالهم إلا كحال الأعمى الذي لا يبصر أمامه فكيف تستطيع أن تدله على الطريق ليمشي فيها.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿٤٤﴾﴾ فهم الذين ظلموا أنفسهم وجنوا عليها، وأعمالهم هي التي أعمت أبصارهم، وهم الذين تسببوا على أنفسهم بالدخول في الضلال، وليس الله سبحانه وتعالى هو الذي فعل بهم ذلك.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ عندما يحشرهم الله سبحانه وتعالى يوم القيامة سوف يستقصرون مدة حياتهم في الدنيا فليست إلا بعض يوم في نظرهم، ولا زال بعضهم يعرف بعضاً فلم يكونوا قد نسوا ما كان بينهم في الدنيا.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴿٤٥﴾﴾ ولم يبق لهم أي أمل في النجاة أو الهرب من الله سبحانه وتعالى بسبب تلك الساعة التي عاشوها في معصية الله سبحانه وتعالى في الدنيا.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴿٤٦﴾﴾ كان الله سبحانه وتعالى قد وعد قريشا بأنه سيعذبهم على تكذيبهم واستهزائهم، فأخبر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم هنا بأنه سواء عليه أراك بعض ما وعدهم من العذاب، أو توفاك قبل ذلك؛ فمرجعهم إليه يوم القيامة، وسينالون جزاءهم في نار جهنم.

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد رأى بعض عذاب الله الذي حل بكبار قريش يوم بدر الذين كانوا يستهزئون به ويلحقون به وبأصحابه الأذى، قال تعالى:﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر]، وهو سبحانه مطلع على أعمالهم فلا يغيب عليه منها شيء، وسيجازيهم عليها.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴿٤٧﴾﴾ سوف تأتي كل أمة بنبيها يوم القيامة فيحكم الله سبحانه وتعالىٰ بينهم بحكمه، فمن آمن بنبيه وصدقه أدخله الجنة، ومن كفر وكذب به أدخله النار.

فإن قيل: فكيف بتلك الأمم التي في أوروبا واستراليا ونحوهما من البلدان النائية والبعيدة هل بلغتها دعوة الرسل؟

فالجواب عليه: أن الله سبحانه وتعالىٰ لم يقص علينا في القرآن إلا الأنبياء الذين بعثهم في جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق؛ لقربهم من العرب واختلاطهم بهم ولسماعهم بأخبارهم ورؤيتهم لآثارهم، وأما أولئك فلم يقص الله سبحانه وتعالىٰ علينا أخبارهم وأنبياءهم لعدم الحاجة إلىٰ ذلك، والبعد الذي بيننا وبينهم، قال تعالىٰ ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴿٤٨﴾﴾ كان المشركون يسألون النبي صلى الله عليه وآله وسلم: متىٰ سيحين وقت هذا الوعد الذي تزعم أن الله سبحانه وتعالىٰ سيعذبنا فيه؟ وسؤالهم هذا في الحقيقة إنما هو عناد واستهزاء واستخفاف واستبعاد منهم لوقوعه.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يجيبهم بهذا الجواب وهو أنه لا يعلم الغيب ولا يعلم إلا بما أطلعه الله سبحانه وتعالىٰ عليه.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أخبرهم يا محمد بأن لكل أمة موعداً مؤقتاً في الدنيا لوقت عذابها، وسوف ينزله الله سبحانه وتعالىٰ بهم في حينه.

﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴿٤٩﴾﴾ فإذا حل وقت ذلك الأجل وقع ذلك الذي توعدهم الله به.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ۝٥٠﴾ لماذا تستعجلون هذا الذي توعدكم الله سبحانه وتعالىٰ به؟ وأي منفعة ومصلحة لكم فيه حتىٰ طلبتم نزوله؟

فسؤالكم هذا إنما يسأله الأحمق، وأما العاقل فلا يستعجل إلا الشيء الذي فيه راحة له وسرور ومنفعة ومصلحة.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ فكيف إذا وقع هل ستؤمنون به؟ وإذا آمنتم به فلن ينفعكم هذا الإيمان.

﴿آلْآنَ﴾ هل ستؤمنون الآن عند نزوله؟ فلن ينفعكم.

﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ۝٥١﴾ وقد كنتم من قبل تكذبون به وبوقوعه.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ۝٥٢﴾ بعد أن أنزل الله سبحانه وتعالىٰ بهم عذابه في الدنيا سيعذبهم يوم القيامة في نار جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ يسألون النبي صلى الله عليه وآله وسلم: هل حقاً سيأتينا العذاب؟

﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ فيجيبهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه حق وواقع لا محالة.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ۝٥٣﴾ولن تستطيعوا أن تفروا من الله سبحانه وتعالىٰ وتهربوا من عذابه.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ لو كان للكافر يوم القيامة حين يرىٰ ما أعد الله له من العذاب ملك الأرض وما فيها لاقتدىٰ به نفسه ليسلم من عذاب الله.

﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن حالة المكذبين والمتمردين والعصاة يوم القيامة، وكيف يكون موقفهم عندما يرون العذاب الذي أعده الله سبحانه وتعالىٰ لهم؟ هنالك يندمون ندامة شديدة يسرونها في أنفسهم، وسيقفون متحيرين مبهوتين لهول ما يرونه، واليأس قد تملكهم، والذلة والقهر مستوليان عليهم.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ۝٥٤﴾ يحكم الله سبحانه وتعالى بينهم بحكمه الحق، ولن يدخل أحداً النار بغير ذنبه.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ۝٦٢﴾ [يونس] أما أولياء الله فإنهم يوم القيامة والحساب في مأمن لا يلحقهم خوف ولا حزن.

﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ۝٥٥﴾ وأخبرهم أيضاً أن وعده بيوم القيامة والحساب والجنة والنار حق ثابت لا محالة، ولكنهم لم يصدقوا بوعد الله فأصروا على الكفر.

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ۝٥٦﴾ فهو وحده الذي بيده ذلك، وإليه مرجعكم بعد الموت للحساب والجزاء.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يناديهم الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه قد أنزل إليهم القرآن الذي فيه بيان ما يصلحهم ويرشدهم.

﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ وجاءكم من الله ما يزيل الشكوك والأوهام والظنون التي في القلوب، والنفس تطمئن عند سماعه إلى أنه الحق، وأن هداها فيه.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ۝٥٧﴾ نعمة أنعم الله سبحانه وتعالى بها عليهم وهي أن جعل فيه هداهم، وجعل فيه النور الذي يضيء لهم طريق الحق وينوره، ورحمة لهم؛ وجعل فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ۝٥٨﴾ كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن آمن معه في أول الإسلام في فقر وفاقة وشدة بينما كان المشركون أهل أموال وتجارات وأهل وجاهة ورئاسة وترف وسعة، فأمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يخبر المؤمنين بأن يفرحوا بالهدى والنور الذي في قلوبهم، والقرآن الذي تعلموه وعرفوه عن نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم، وبدينهم؛ فإن ذلك خير من تلك الأموال والتجارات التي جمعها أهل الدنيا، وألا يحتقروا أنفسهم،

وما هم فيه من الفقر والشدة؛ فإن ما معهم من الهدى خير لهم مما مع أولئك المشركين من الأموال.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيهﷺ بأن يسأل المشركين: أخبروني أيها المشركون هل أذن الله سبحانه وتعالى لكم أن تحللوا وتحرموا من عند أنفسكم ما أنزل الله تعالى لكم من الرزق فتجعلوا بعضه حراماً وبعضه حلالاً.

﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴿٥٩﴾﴾ أم أنكم تفترون على الله فتحرمون وتحللون ثم تقولون إن الله هو الذي حرم وحلل افتراءً عليه.

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يلفت الله سبحانه وتعالى أنظار المشركين إلى التفكر والنظر في يوم القيامة لعلهم يرتدعون عن كفرهم وتكذيبهم؛ فإذا كان يوم القيامة في ظنكم أيها المشركون يوم سلام وأمن- فإنكم مخطئون. إنه يوم عظيم يجازى فيه كل امرئٍ بعمله إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشر وستلقون الله يوم الجزاء فيسألكم عن افترائكم عليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴿٦٠﴾﴾ تفضل الله سبحانه وتعالى على جميع الناس من المشركين وغيرهم بأن أمهلهم وأمد لهم في أعمارهم، وعافاهم في أبدانهم، وزاد في أرزاقهم وأولادهم، وأرسل إليهم الهدى، وأعطاهم السعادة في الدنيا والآخرة.

ذكّرهم الله سبحانه وتعالى بتفضله على الذين يفترون عليه الكذب ويستهزئون بدينه وبنبيه ﷺ، ويعبدون آلهة غيره ليعلموا أنه لم يعجل لهم العذاب، مع أنه كان من المفترض أن يعذبهم، ومع كل هذا رفضوا أن يشكروا الله سبحانه وتعالى على ما تفضل به عليهم وأعطاهم.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى هنا أنه لا يخفى

عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه مطلع على كل شؤون البشر وأعمالهم، وما من شأن يكونون فيه إلا وهو حاضر معهم بعلمه لا يغيب عليه شيء من أعمالهم وأفعالهم.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ لا يغيب عن علمه شيء لا صغير ولا كبير لا في السماء ولا في الأرض، يخبرهم الله سبحانه وتعالى عن سعة علمه وإحاطته بكل شيء، وأنه سيحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة.

﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴿٦١﴾﴾ يعني أن كل ما هو أصغر من مثقال الذرة أو أكبر فإنه محفوظ في علمه، ولا كتاب على الحقيقة،وإنما يصور لنا ذلك بالمعلوم الذي نشاهده ونفهمه، وهو التسجيل في الدفاتر كالذي يكون من تسجيل الديون ونحوها حفاظاً عليها من الضياع والنسيان.

وأما الله سبحانه وتعالى فهو غير محتاج إلى ذلك؛ لأنه عالم لا يغيب عن علمه شيء.

هذا، وأما كيفية إطلاعهم يوم القيامة على أعمالهم التي عملوها في الدنيا فالله سبحانه وتعالى أعلم بكيفية ذلك، وأظن والله أعلم أنه سيطلعهم عليها في شاشات يشاهدون من خلالها أنفسهم وهم يمارسون تلك المعاصي قال تعالى ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ [النور:٢٤]، حتى إذا أرادوا الإنكار لم يجدوا سبيلاً إليه، فستشهد عليه تلك الصور التي يظهرها الله سبحانه وتعالى أمام الناس يوم القيامة شاهدة عليه، فسيظهر الله سبحانه وتعالى أعمالهم أمام الناس جميعاً يوم القيامة حتى ينادوا الله سبحانه وتعالى بأن يعجل بهم إلى النار من شدة الفضائح التي يراها جميع الناس، والخزي الذي يلحقهم.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴿٦٢﴾﴾ أما أولياء الله فلن يلحقهم أي خوف أو حزن يوم القيامة، فهم في أمن وأمان وطمأنينة.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴿٦٣﴾﴾ كأنه قيل من هم أولياء الله هؤلاء؟

فأجابهم الله سبحانه وتعالى بأنهم الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله وكتبه وامتثلوا لأمره وتجنبوا معاصيه.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أخبرهم الله سبحانه وتعالى أنه يبشر أولياءه وهم على الدنيا، تبشرهم الملائكة وهم على فراش الموت فيؤمّنونهم من عذاب الله سبحانه وتعالى وسخطه، وقد قيل إن هذه هي أسعد لحظة تمر على المؤمن في حياته حتى أنه من شدة الفرح والسرور ينسى أهله وأولاده، ولا يهمه فراقهم، فهذه هي البشرى التي في الدنيا، ولا يصح أن تكون قبل ذلك؛ لأن حكمة الله سبحانه وتعالى اقتضت أن يبقى المرء في حالة خوف وحذر من عذاب الله سبحانه وتعالى والبشرى بالجنة ينافي ذلك، وأما عند الموت فإن التكليف يكون قد ارتفع، والبشرى التي تكون في الآخرة فعندما يبعثهم الله سبحانه وتعالى فإن الملائكة تتلقاهم وتبشرهم بالخير والأمن والأمان والفوز.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ فهذا وعد من الله سبحانه وتعالى ولن يخلفه أو يبدله، ولا بد أن يقع ويوفي بوعده، ووعده هذا هو أنه لا يلحق أولياءه يوم القيامة شيء من مخاوف يوم القيامة ولا من أحزانها.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ۝٦٤﴾ الفوز العظيم هو الفوز برضوان الله تعالى وثوابه والسلامة من النار وسعيرها.

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ نهى الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ عن الحزن من تكذيبهم له واستهزائهم به، وكفرهم وعنادهم وتمردهم، يريد الله تعالى أن يهون على نبيه ﷺ مما لحقه من الأسى والحزن بسبب عناد قومه وعدم إيمانهم فقال: ليس عليك أن يدخلوا في الهدى ولم أرسلك لتدخلهم في الدين والهدى وما عليك إلا البلاغ المبين.

﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فلن يضروا الله سبحانه وتعالى شيئاً بكفرهم وتمردهم، فهو عزيز والعزة كلها له والعظمة والكبرياء، ولن يلحقه نقص بكفرهم وتمردهم، وسيقهرهم بعزته وقدرته وسيعذبهم.

﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿٦٥﴾﴾ فهو مطلع على أعمالهم، وعالم بها، ولا يخفى عليه شيء منها، وسيجازيهم عليها.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ فكل ما في السماوات والأرض ملك له وتحت قدرته وسيطرته.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أولئك الذين يعبدون غير الله سبحانه وتعالى فهم في الحقيقة لا يعبدون شركاء لله سبحانه وتعالى في الإلهية، وإنما يعبدون أحجاراً بعيدة كل البعد عن الإلهية.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ وظنهم إلهيتها واستحقاقها العبادة ليس إلا أوهاماً لا حقيقة لها.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴿٦٦﴾﴾ يكذبون في زعمهم إلهيتها.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴿٦٧﴾﴾ فمن هذه صفاته هو الذي يستحق أن يعبد، فمن حكمته أن جعل لكم الليل لترتاحوا فيه من عناء تعبكم في النهار ومشقته، وتهدأ أعصابكم وتناموا حتى لا يصبح النهار إلا وقد تجدد نشاطكم وزال تعبكم، ومن حكمته أن جعل لكم الضياء في النهار لتبصروا أعمالكم وأسباب معايشكم.

فكيف لو أن الوقت كان كله نهاراً كيف سيكون حالكم؟ ومتى ستجدون وقتاً لراحتكم؟ وكذلك لو كان الوقت كله ليلاً كيف ستتدبرون أمور حياتكم وأسباب معايشكم؟ فانظروا وتدبروا في هذه الحكمة العجيبة التي تدل على أن من دبر هذا التدبير في غاية الحكمة والعلم والقدرة والتمكن.

ويدل على رحمته بكم عندما سخر الليل والنهار لمصلحتكم.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ قال المشركون: إن الملائكة بنات الله جل وعلا.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ تعالى وتقدس عن اتخاذ الأولاد.

﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ فليس محتاجاً إلى اتخاذ الولد.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وإذا كان ملك السماوات والأرض وما فيهما له عز وجل فلا حاجة به لأن يتخذ ولداً.

﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ هاتوا حجة ودليلاً على ما ادعيتموه عليه من اتخاذ الولد.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ۝٦٨﴾ استنكر الله سبحانه وتعالى عليهم كيف يفترون عليه شيئاً لا يعلمونه، ولا دليل لهم عليه.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ۝٦٩﴾ ولن تنفعهم أعمال البر التي يعملونها وسيخسرون دنياهم وآخرتهم.

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنهم سيمتعون في الدنيا.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ۝٧٠﴾ ثم يرجعون إلى الله سبحانه وتعالى فيعذبهم بسبب كفرهم.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يقص على المشركين قصة نوح في قومه لعلهم يتعظون ويعتبرون بما جرى عليهم، وليحذروا أن يحل بهم ما حل بقوم نوح.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ۝٧١﴾ خاطب نوح عليه السلام قومه قائلاً: يا قوم إن كنتم قد تثاقلتم مقامي بينكم وتذكيري لكم، وتكابرتم ذلك فاعلموا أنني مع ذلك لا زلت مصراً على مواصلة تبليغكم رسالتي ودعوتي لكم إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، وترك عبادة الأصنام، وأنا متوكل عليه في ذلك.

تحداهم بذلك، وبأنه لن يتركهم حتى ولو عزموا على قتله، ولو اجتمعوا هم وآلهتهم التي يعبدونها من دون الله سبحانه وتعالى، وليفعلوا ذلك ولا يمهلوه لحظة واحدة إن استطاعوا، ولا يكن ذلك غمة في أنفسهم، تحداهم بذلك لثقته

بالله سبحانه وتعالىٰ وبنصره وتأييده، وأنهم مهما فعلوا فلن يستطيعوا أن يمنعوه من إتمام ما أمره الله سبحانه وتعالىٰ به.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الاستماع لي وإجابتي.

﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ فما هو الذي منعكم من إجابتي؟ هل طلبت منكم أجراً علىٰ ذلك حتىٰ تمتنعوا عن الاستجابة لي؟

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٧٢﴾ ولست أبتغي الأجر إلا من عند الله سبحانه وتعالىٰ؛ لأنه الذي أمرني أن أسلم له وأكون من المنقادين له.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أغرقهم الله سبحانه وتعالىٰ جزاءً علىٰ تكذيبهم بعد أن أمره الله سبحانه وتعالىٰ بصناعة سفينة له ولمن آمن معه، وأن يحمل معه أيضاً زوجين من كل نوع من الحيوانات، وكان قومه يسخرون منه ويستهزئون ويضحكون عليه وعلىٰ عمله هذا، وكيف يصنع سفينة في الصحراء، وعندما نزل أمر الله سبحانه وتعالىٰ انقادت إليه جميع تلك الحيوانات وركبت معه، وأغرق الله سبحانه وتعالىٰ جميع من بقي علىٰ وجه الأرض.

وأما الناجون معه فهم أولاده من آمن منهم، وسكان الأرض الآن هم من ذريته فقط قال تعالىٰ ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ٧٧﴾ [الصافات].

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ جعل الله تعالىٰ الذين نجاهم في الفلك خلائف الأرض بعد أولئك الذين أهلكهم.

﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ٧٣﴾ انظروا لعاقبتهم عندما كذبوا نبيهم، واعتبروا بهم لئلا يصيبكم ما أصابهم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ ثم إن البشر تكاثروا بعد أن أهلك الله سبحانه وتعالىٰ قوم نوح ولم يبق إلا نوح ومن آمن معه، فتكاثروا علىٰ مرور الزمن، فأرسل الله سبحانه وتعالىٰ لهم أنبياء، نبياً بعد نبي كلما دعت الحاجة إلىٰ ذلك.

﴿فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وكل نبي جاء قومه بآيات بينات تدل على أنه رسول من عند الله.

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن طبيعة الأمم واحدة وعلى طريقة واحدة هي التكذيب بالرسل ورد دعوتهم.

﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ من شدة عنادهم وتمردهم أصبحت قلوبهم كالمطبوع والمختوم عليها؛ فلا ينفذ إليها الإيمان أبداً، وهذا كناية عن استحالة إيمانهم.

ثم بعث الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام وقد بعث الله تعالى قبلهما أنبياء كثيرين لا يعلمهم إلا الله.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾ أرسل الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون بآيات تدل على أنهما مرسلان من عنده.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ فلم يؤمنوا واستكبروا عن الإيمان مع أنهم قد عرفوا أن هذه الآيات صادقة من عند الله، وأن موسى نبي من عند الله سبحانه وتعالى؛ لأن عادتهم كانت الإجرام والتمرد والعصيان.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ عندما جاءتهم الآيات الواضحة، والدلالات الدالة على صدق نبوة موسى قالوا حينها ليس إلا سحراً وساحراً متمكناً في سحره.

﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾ استنكر عليهم موسى عليه السلام التكذيب بما جاء به مع وضوحه ومع معرفتهم للحق الذي جاءهم، وأنه من عند الله تعالى.

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ وأنتم تعلمون أيضاً أن الساحر إنما يسحر أعين الناس، ثم ينكشف سحره ويظهر بطلانه بعد ذلك، وقد علمتم أن الذي جئتكم به ليس من السحر في شيء.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ۝٧٨﴾ قال فرعون وملؤه لموسى مستنكرين عليه: قد أتيتنا بسحرك لتخرجنا عن دين آبائنا، وتكون أنت وأخوك المسيطرين على أرض مصر؟ فهيهات أن يكون ذلك أو أن نصدقكما.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ۝٧٩﴾ أمر فرعون بأن ينادى في جميع أراضي مملكته بأن من كان متمرساً في السحر فليأت لمعارضة موسى وسحره، قال ذلك ليوهم شعب مصر ويلبس عليهم حقيقة الأمر، ولئلا ينكشف لهم أنه النبي الموعود الذي أخبرت به الكهنة، وأن ملك فرعون وهلاكه سيكون على يده، فموه بذلك على أهل مملكته أن الذي مع موسى ليس إلا سحراً، وأما في الحقيقة فقد عرف أن ما جاء به موسى عليه السلام ليس من السحر في شيء.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ۝٨٠﴾ عندما اجتمع السحرة والتقوا بموسى في ميدان اجتماعهم وفي يوم عيدهم قال لهم موسى عليه السلام وهو غير مبالٍ بما جاءوا به من السحر: ألقوا سحركم وابدؤوا أنتم.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ عندما ألقوا بحبالهم وعصيهم قال لهم موسى: إن هذا الذي ألقيتموه هو السحر في الحقيقة.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ۝٨١﴾ سيبطل الله سبحانه وتعالى سحركم هذا؛ لأن عملكم هذا إفساد في الأرض، والله لا يقبل عمل المفسدين.

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ۝٨٢﴾ وسيظهر الله سبحانه وتعالى الحق بقدرته وإرادته، وسيبينه للناس ولو كره فرعون وحزبه، ولا بد أن يظهر الحق، وفعلاً قد ظهر الحق، وآمن السحرة، وخاب فرعون وما دبره وذلك حين ألقى موسى عصاه فانقلبت ثعباناً عظيماً فأخذ يبتلع كل ما ألقوه من السحر حتى قضى عليه فعند ذلك بهت الناس وخرت السحرة على وجوهها

ساجدة لرب موسى وهارون وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون.

﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ فلم يستجب له أحد إلا القليل من بني إسرائيل.

﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ هؤلاء الذين آمنوا بموسى كانوا قلة قليلة من بني إسرائيل، ومع ذلك هم خائفون من فرعون أن يعذبهم بالقتل والصلب.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ۝٨٣﴾ وسبب خوفهم من فرعون: أنه متكبر في الأرض ومتجبر فيها، ومسرف في الدماء والقتل؛ فكان يقتل من غير مبالاة البريء وغيره، وهذا هو معنى الإسراف.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ۝٨٤﴾ وتوجه موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل يحثهم على الصبر وقال لهم: اعتمدوا على الله سبحانه وتعالى وتوكلوا عليه، ولا تخافوا من فرعون وبطشه، وسيكفيكم الله سبحانه وتعالى شره وأذاه.

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ۝٨٦﴾ فتوجهت بنو إسرائيل إلى الله بالدعاء بعدما وعظهم موسى وتوكلوا عليه وطلبوه أن يحفظهم من ظلم فرعون وبطشه وأن يجعلهم في منجاة من جبروته وكفره.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ۝٨٧﴾ أوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى وأخيه هارون بأن يتخذا لمن آمن من بني إسرائيل بيوتاً تكون محل عبادة لهم يعبدون الله سبحانه وتعالى فيها بعيداً عن فرعون وبطشه، وليتخفوا بدينهم في بيوتهم من أعين فرعون وجواسيسه، وأخبرهم أن الله سبحانه وتعالى سيؤيدهم وسينصرهم ويحفظهم ويقهر عدوهم.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كان موسى عليه السلام قد استبطأ النصر الذي قد وعده الله سبحانه وتعالى به، ومكث ينتظر نحواً من أربعين سنة وهو يرى فرعون وبطشه وتجبره على بني إسرائيل وقتلهم، فعندها دعا الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ آتيتهم يا رب هذه الأموال وهذا التمكن في الأرض فاتخذوها وسيلة لإضلال الناس والبطش بهم، والتكذيب والتمرد.

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ دعا عليهم بهذا الدعاء: وهو ألا تنموا أموالهم ولا تجاراتهم، وأن يسلبهم نفعها، وكان هذا من الله سبحانه وتعالى ابتلاءً واختباراً لموسى ومن معه هل سيصبرون ويثبتون على إيمانهم ويستمسكون بدينهم؟

﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝٨٨﴾ كان موسى عليه السلام قد غضب من فرعون ومن معه غضباً شديداً فدعا عليهم بأن لا يدخل الإيمان في قلوبهم أبداً ليدخلوا جهنم فيتشفى منهم عند رؤيتهم يتعذبون.

وفي الحقيقة لم يكن هذا من موسى إلا أنه كان قد عرف أنهم لن يؤمنوا أبداً قد أطلعه الله سبحانه وتعالى على ذلك، وإلا فإنه لا يجوز لأحد أن يدعوا على الكافر بأن يثبته الله سبحانه وتعالى على الكفر.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ أخبرهما الله سبحانه وتعالى أنه قد استجاب دعاءهما.

﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ونشر دينه.

﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾ ولا تميلا إلى فرعون وباطله، واثبتا على ما أنتما عليه.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ عندما خرج موسى ببني إسرائيل من مصر هرباً من فرعون وجنوده، وفلق الله سبحانه وتعالى لموسى البحر.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ لحق بهم فرعون بجنوده ودخل بهم فرعون من وسط البحر من حيث مر موسى وقومه فلما توسط فرعون وجنوده البحر أطبقه الله عليهم.

﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ۝﴾ عندما شاهد فرعون الموت وأيقن بالهلاك عند ذلك آمن بالله سبحانه وتعالى.

﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ۝﴾ أتؤمن يا فرعون الآن وقد فات وقت الإيمان، إنه لا يقبل منك اليوم، وقد عصيت ربك قبل هذا اليوم وكنت من المفسدين في الأرض.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه سيحفظ جثة فرعون، ويخرجها من البحر ليراها جميع الناس؛ لأن الناس كانوا مستبعدين هلاكه لظنهم أنه إله، وأنه يستحيل عليه الهلاك.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ ليعتبروا بك، ويعرف الناس أنك لست بإله، وليعرفوا أن موسى هو النبي الذي وعدوا به؛ لأنه كان قد ذاع فيما بينهم أن الله سبحانه وتعالى سيبعث نبياً يكون هلاك فرعون على يديه، فإذا رأوا ذلك عرفوا صدق نبوته وأنه نبي من عند الله.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ۝﴾ فأكثر الناس في غفلة عن آيات الله سبحانه وتعالى التي يأتيهم بها، وجثة فرعون هذه آية من آيات الله سبحانه وتعالى فلم يعتبروا بها ولم يتعظوا.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه قد هيأ لبني إسرائيل مكاناً صالحاً للاستيطان وذلك في بلاد الشام، وأنه قد بسط عليهم الرزق.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ وكانوا جميعاً يداً واحدة وكلمة واحدة فلما أن أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم الرسل بدأوا يختلفون حينئذ فمنهم من يؤمن، ومنهم من يكفر مع أنه كان من المفترض أن يكونوا على العكس من ذلك، وأن يجتمعوا على أنبيائهم لعظيم نعم الله عليهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ هؤلاء الذين أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بأنهم اختلفوا بين مصدق بنبيه ومكذب به- فإنه سيحكم بينهم يوم القيامة بالحق والعدل فيعذب المكذبين، ويثيب المؤمنين.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ لم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في شك وريبة من القرآن وإنما هذا من باب: إياك أعني واسمعي يا جارة، فالخطاب موجه لشخص بينما المقصود به غيره.

وذلك أن بعض المؤمنين كان قد دخل في قلبه الشك في صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن لما رأوه من الضعف في الإسلام وعدم انتشاره، وعدم استجابة الكثيرين لدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأمرهم الله سبحانه وتعالى ألا يظنوا أن عدم انتشار الإسلام، وعدم التصديق لدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أكثر الناس كان لنقص في الدين أو خلل، فالرسول رسول الله حقاً، والقرآن حق وصدق من عند الله سبحانه وتعالى، وإذا كان في قلوبكم شك فاسألوا علماء أهل الكتاب وسيخبرونكم بالحق.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولكن المقصود غيره كما ذكرنا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ وهؤلاء الذين حقت عليهم كلمة الله سبحانه وتعالى هم قريش، أراد الله سبحانه وتعالى بذلك أن يقنع نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم لن يؤمنوا أبداً ليقطع طمعه في إيمانهم، وأن الله سبحانه وتعالى مهما جاءهم به من الآيات فلن يؤمنوا وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم حريصاً كل الحرص على إيمان قريش حتى كاد أن يقتل نفسه أسفاً وحسرة عليهم.

فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية وذلك حين علم الله تعالى من نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أنه يتمنى آية عظيمة من آياته علها تنفع في إيمانهم وأما بلسانه فلم يكن قد سأل

الله سبحانه وتعالى ذلك.

وأخبره أيضاً أن شأنهم كشأن آل فرعون عندما لم يؤمنوا إلا عند نزول العذاب بهم فلم ينفعهم ذلك الإيمان.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴿٩٨﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن من شأن كل الأمم التي بعث إليها أنبياءه ورسله عدم التصديق والإيمان فأنزل بهم عذابه واستأصلهم إلا قوم يونس من بين هؤلاء جميعاً؛ فإنهم آمنوا عندما رأوا أمارات نزول العذاب عليهم، وخرجوا حينها جميعهم بأهاليهم وأنعامهم يتضرعون ويتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى أن يرفع عنهم عذابه، فتاب الله سبحانه وتعالى عليهم عندما علم صدق توبتهم، ورفع عنهم عذابه فعاشوا إلى أن استوفى كل منهم أجله المقدر له، وأنهم لو لم يؤمنوا لكان قد قطع آجالهم في الحال وعذبهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴿٩٩﴾﴾ كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان قريش أشد الحرص، وكاد أن يقتل نفسه ويهلكها في ملاحقتهم؛ فأخبره الله سبحانه وتعالى أنه لو شاء أن يكرههم على الإيمان لفعل، ولكن حكمته اقتضت أن يكون ذلك باختيارهم وإرادتهم، وأنك يا محمد لن تستطيع أن تكرههم، وما عليك إلا تبليغهم فقط.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴿١٠٠﴾﴾ أما أولئك الذين لم تنفع فيهم الدعوة، ورفضوا أن يستجيبوا لدعوة الرسل فقد طبع الله سبحانه وتعالى على قلوبهم، وسلبهم توفيقه وهداه.

والمراد بإذن الله: يعني بألطافه وعلمه، وقد علم أن أولئك لن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية.

﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴿١٠١﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يأمر قريشاً بأن ينظروا إلى الآيات الدالة على ربوبيته التي جعلها في السماوات والأرض، ثم أخبر الله

سبحانه وتعالىٰ أن هذه الآيات لا فائدة منها لقوم طبيعتهم العناد والتمرد والتكذيب، وأن عدم إرسال الآيات لهم ليس السبب في عدم إيمانهم فهي موجودة، ولكن السبب في ذلك هو عنادهم وتمردهم.

﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه لم يبق إلا أن ينتظروا أن ينزل بهم مثل ما أنزله علىٰ الأمم التي كذبت أنبياءها من قبل.

﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ قل لهم يا محمد بأن ينتظروا نزول العذاب بهم، وأخبرهم أنك منتظر معهم.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ إذا أنزل الله سبحانه وتعالىٰ عذابه علىٰ أمة فإنه ينجي أنبياءه والمصدقين بدعوتهم، وهذا وعد من الله سبحانه وتعالىٰ حق لازم.

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إذا كنتم في شك وريبة من صدق ديني وعبادتي فاعلموا أني لن أعبد أصنامكم هذه التي تعبدونها من دون الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ قل لهم يا محمد بأنك تعبد الله الذي بيده حياتكم وموتكم، وأخبرهم بأن الله سبحانه وتعالىٰ قد أمرك بذلك.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ وأخبرهم بأن الله سبحانه وتعالىٰ قد أمرك بأن تتوجه إلىٰ الدين الحق وعبادة الإله الحق مائلاً عن عبادة كل ما يعبد من دون الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ وأخبرهم بأن الله سبحانه وتعالىٰ قد نهاك أن تكون من المشركين.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ نهىٰ الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يعبد تلك الآلهة التي لا تنفع ولا تضر.

﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ۝١٠٦﴾ إن فعلت ذلك وعبدتها فاعلم أنك من الخاسرين.

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ فالخير والشر بيد الله سبحانه وتعالى؛ فإن مسك بضر فلن يستطيع أحد أن يرفعه عنك أو يدفعه.

﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ وإذا أراد لك الخير فلن يستطيع أحد أن يمنعه عنك.

﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ۝١٠٧﴾ يعطي الله الخير من يشاء من عباده وليس لأحد أن يعترض على الله فيما يفعله.

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أخبرهم يا محمد بأنه قد جاءهم الدين الحق الذي فيه هداهم.

﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أخبرهم يا محمد بأن من اهتدى فقد نفع نفسه، ومن ضل فلن يضر إلا نفسه.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ۝١٠٨﴾ أخبرهم يا محمد بأنك لن تحاسبهم على أعمالهم وليس عليك إلا أن تبلغهم فقط، وأن الوكيل والمحاسب لهم هو الله سبحانه وتعالى، وهو الذي سيجازيهم على أعمالهم.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن يصبر على أذى قومه وتكذيبهم، وأن يواصل تبليغ دعوته.

﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ۝١٠٩﴾ حتى يحكم الله بينك وبين قومك، وحكم الله سبحانه وتعالى هو أن يظهر الحق ويهلك المبطلين؛ وقد تحقق وعد الله تعالى ونصر نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على المشركين فقتل جميع صناديدهم وكبارهم يوم بدر، وفي آخر الأمر دخل مكة عنوة وقهرهم وأذلهم ودخلوا في دين الله كرهاً.

تمت سورة يونس

ويليها سورة هود

❁❁❁❁

سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ۝١﴾ هذه السورة من السور التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكة يخاطب بها المشركين، ويحاججهم بها، ويبين لهم آياته وحججه فيها.

وهي من جملة الكتاب الذي أحكمه الله سبحانه وتعالى بعلمه، ورتبه بحكمته، ووضع كل كلمة منه في موضعها، وهو حق وصدق، وأحكامه مبينة بعلمه وحكمته فهو من الحكيم الخبير.

فهو سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان، وأنزل القرآن فهو عالم من أين يدخل على قلوبهم وعلى مسامعهم؟ وما هو البيان الذي سيفهمونه، والتفصيل الذي سيعقلونه؟ وعالم بالحجج التي ستطمئن لها أنفسهم.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أول خطاب وجهه إليهم هو أن أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يأمر المشركين بعبادة الله سبحانه وتعالى وحده، ويتركوا عبادة الأصنام.

﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ۝٢﴾ وأمره أيضاً أن يخبر المشركين بأن الله سبحانه وتعالى قد أرسله إليهم لينذرهم عذابه إن استمروا على عبادة الأصنام، وأنهم سيستحقون بعبادتها عذابه؛ وأن يبشر من استجاب له وعمل بما أمره الله سبحانه وتعالى بالخير والرحمة والثواب العظيم.

فكان من المفروض حين أخبرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا أن ينزجروا ويخافوا ويقلعوا عما هم عليه.

ألا ترى أن العاقل إذا أتى إليه شخص من أهل الثقة يخبره انه مرسل لينذره أن قوماً مسميين قادمون لقتله وتشريده إن لم يفعل كذا، فمن شأنه أن ينظر في مصداقية هذا الخبر وأن يعمل الاحتياطات اللازمة لتوقي ذلك الخطر القادم عليه، وألا يجعل هذا الخبر وراء ظهره، ولا يغفل عنه، وخاصة إذا كان الشخص

هذا معروف الصدق ن ولم يعرف عنه أنه قد كذب قط.

فشأن الرسول في قومه كهذا الشخص، فكان من الواجب على المشركين أن يتفكروا وينظروا في صدقه ومصداقية ما جاء به لأن يردوا خبره من غير نظر وتفكر.

والبشير بمعنى يبشرهم بثواب الله سبحانه وتعالى وجنته إن هم أطاعوه.

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ ومرسل إليكم بأن تستغفروا ربكم من ذنوب الشرك، وأن ترجعوا إليه وتعملوا بأوامره وأن تتركوا ما نهاكم عنه.

﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ إن استغفرتم ربكم من عبادة الأصنام، ومن الشرك والضلال، ورجعتم إلى الله سبحانه وتعالى- فسيمدد لكم في أعماركم حتى يبلغ كل امرئ أجله المكتوب عند الله سبحانه وتعالى، وسيدفع عنكم المصائب والشدائد، وبالعكس إن بقيتم على ما أنتم عليه من الشرك فسيقطع أعماركم بأن يعذبكم ويستأصلكم قبل أن تستوفوا أعماركم التي هي مكتوبة لكم عنده.

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ يعطي كل من عمل صالحاً ثواب عمله لا ينقص منه شيئاً.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ۝٣﴾ وإن أعرضتم عن دعوتي وإنذاري وتبشيري لكم فسوف يحيط بكم عذاب الله سبحانه وتعالى وسخطه فيستأصلكم في الدنيا قبل الآخرة. وفعلاً حل بهم عذابه يوم بدر استأصل كبارهم جميعاً.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ۝٤﴾ فسوف ترجعون إلى الله سبحانه وتعالى وسيحاسبكم، فهو قادر على أن يبعثكم بعد الموت، أليس من قدر على إحيائكم من العدم قادر على إعادة إنشائكم؟

وكانوا ينكرون البعث والحياة بعد الموت، ويستبعدون أن يقدر الله سبحانه وتعالى على ذلك.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن المشركين إذا سمعوا النبي ﷺ يقرأ القرآن، أو يدعوهم إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ويبشرهم وينذرهم- فإنهم يعرضون عنه ثانين لصدورهم، أي أعرضوا بوجوههم عنه لئلا يسمعوه.

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ۝٥﴾ فلن ينفعهم إعراضهم عن النبي ﷺ لئلا يسمعوه؛ فالله سبحانه وتعالىٰ عالم بأسرارهم ومطلع عليها، وعالم بما يخفونه إلىٰ قلوبهم حتىٰ حين يتغطون بفراشهم عند النوم، وهو عالم بنية كل واحد، وما هو عازم عليه، وما يوسوس به، وما يحدث نفسه به.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ۝٦﴾ يطلعهم الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ مدىٰ قدرته وأنها محيطة بكل شيء، وأنه ما من دابة تسير علىٰ الأرض إلا ويوصل إليها رزقها، ويعلم من أي صلب خرجت وفي أي رحم استودعت واستقرت، وأين تذهب وتجيء وأين تبيت وتأوي، وكلها في علمه مكتوبة، ولا يغيب عن علمه شيء من ذلك.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يخبر الله سبحانه وتعالىٰ المشركين علىٰ لسان نبيه ﷺ لهم بأنه الذي خلق السماوات والأرض وليست هذه الأصنام التي يعبدونها من دونه.

والأيام هذه المراد بها أيام الله التي مقدار اليوم كما ورد خمسون ألف سنة، وقد يكون المعنىٰ أنها ستة أيام مثل أيامنا، والله علىٰ كل شيء قدير.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ وذلك قبل أن يخلق السماوات والأرض لم يكن إلا الماء، ثم خلق من الماء السماوات والأرض وما بينهما، وجعل ذلك تحت ملكه وسيطرته وقدرته.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ هذه هي الحكمة في خلق السماوات والأرض وهي: أن يختبر عبيده من الجن والإنس والملائكة فينظر من الذي سيطيعه ويمتثل لأوامره، ويعمل الأعمال الصالحة فيثيبه، ويعاقب الذي يعمل الأعمال السيئة؛ والمقصود من ذلك هو الجزاء؛ لأنه الغاية من التكليف والاختبار.

﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ۝٧﴾ قال الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ: إذا أخبرت المشركين أن الله سبحانه وتعالى سيبعثهم بعد الموت- فسيكذبونك ويرمونك بالسحر، ويتهمونك بالكذب والافتراء على الله سبحانه وتعالى.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى عن حال المشركين وهو أنه إذا أخر عنهم إنزال عذابه إلى فترة محدودة، وبلوغ أجله المقدر له قالوا: ما هو الذي حبس العذاب عنا؟ وما هو الذي منع من حلوله بنا؟

واستعجالهم ذلك واستفهامهم إنما هو سخرية واستهزاء منهم بنبيهم ﷺ وبما جاءهم به.

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى بجواب ما يستعجلونه فقال: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ فإذا نزل عليهم فلا دافع لهم منه.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ۝٨﴾ فعند رؤيتهم للعذاب ونزوله بهم ستحيط بهم أعمالهم التي عملوها ويحيط بهم جزاء سيئاتهم.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ۝٩﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى عن حال الإنسان الكافر وهو أنه إذا أنعم الله سبحانه وتعالى عليه في الدنيا، وأسبغ عليه نعمه ثم بعد ذلك رفع عنه هذه النعمة- فإنه حينئذ يقنط من رحمة الله سبحانه وتعالى، ويصيبه اليأس، وينقطع أمله، ويكون ساخطاً من ذلك أشد السخط، بخلاف المؤمن فإذا فات عليه شيء أو حلت به كارثة

أو مصيبة فلا ينقطع رجاؤه في الله سبحانه وتعالى، ويكون واثقاً بالله سبحانه وتعالى كل الثقة وأنه سيخلفه خيراً مما فات عليه ويعوضه من عنده، ويحتسب أجر ذلك عند الله سبحانه وتعالى في الآخرة فتطمئن عند ذلك نفسه ويهدأ باله، بخلاف الكافر فلا يشعر بهذا الشعور ويصيبه اليأس والاضطراب.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴿١٠﴾﴾ وإذا أنعم الله سبحانه وتعالى عليه بعد شدائد قد أصابته فلا يشكر الله سبحانه وتعالى على ذلك، وفرحه يكون بطراً وعصياناً لله تعالى، ويذهب في اللهو واللعب وفعل القبائح والمنكرات، ويتكبر ويتعالى على الناس ويترفع عليهم.

والفرح هو: فعل المعاصي والمنكرات والقبائح، والفخور هو: التكبر والتعالي على الناس.

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴿١١﴾﴾ استثنى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية المؤمنين، فأخبر بأن حال الخير والشر عندهم سواء فهم راضون بما قسمه الله سبحانه وتعالى لهم، فإن هو أنعم عليهم قابلوا نعمته بالشكر والتواضع، وإن أصابهم بالشر ليحتسبوا ذلك عنده، ويوقنوا بثوابه لهم على الصبر عليه، ويكونوا راضين بذلك مطمئنة قلوبهم بما أعطاهم وقسم لهم.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴿١٢﴾﴾ عندما اتهم المشركون محمداً بالكذب ورفضوا تصديقه وقالوا له: لو كنت نبياً من عند الله حقاً كما تزعم لكان معك كنز من الذهب والفضة، أو لرأينا معك ملكاً من الملائكة يشهد بصدقك؛ عندها ضاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهم ذرعاً واستاء من قولهم هذا، فأراد الله تعالى أن يشد من عزيمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له إنه لا

ينبغي أن تهتم لقولهم، ولا أن تضعف عزيمتك بسببه ولا أن يكون سبباً لضيق صدرك، ولا مبرراً لأن تترك تبليغ ما أمرك الله بتبليغه.

وحثه الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ مواصلة تبليغهم الحجة وإنذارهم، وأخبره أن هذا هو الذي عليه فعله، وأنه مطلع علىٰ أعمالهم، وهو الذي سيحاسبهم ويجازيهم، وألا يضيق صدره منهم، ولا يكبر عليه تكذيبهم له.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ عندما قرأ النبي ﷺ علىٰ المشركين القرآن وسمعوه قالوا حينئذ: ليس إلا كلاماً مفترىٰ من عند نفسه، وليس من كلام الله.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ إذا كانوا يزعمون أنه كلام مفترىٰ فقل لهم يا محمد بأن يأتوا بعشر سور من مثل بلاغته وفصاحته يفترونها من عند أنفسهم أيضاً إن كانوا صادقين في دعواهم أنك افتريته.

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ ولم يستطيعوا أن يأتوا بعشر سور ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ فتيقنوا أنه كلام الله أنزله بعلمه، وليس من كلام البشر.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن من أراد الدنيا ولذاتها وشهواتها فسيمتعه الله فيها وينعم عليه، ولن ينقص علىٰ أهل الدنيا من دنياهم شيئاً، لأن أمور الدنيا مبنية علىٰ الأسباب فمن تسبب وتكسب فسيحصل عليها.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ ولا حظ لهم ولا نصيب في الآخرة، وإنما يساقون إلىٰ النار وبئس المصير.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ وحبط ما عملوه في الدنيا من أعمال البر فلن ينالوا ثوابه مع كفرهم وشركهم وتكذيبهم بالله سبحانه وتعالىٰ، وهو ما كانوا يفعلونه من مكارم الأخلاق من إكرام الضيف، وحسن الجوار، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وصلة الأرحام، وكانت العرب تتحالف علىٰ ذلك فيما بينها، وقد كان

هناك حلف الفضول تحالفت عليه عدة قبائل من قريش في مكة على ألا يأتي إليهم مظلوم إلا ونصروه، وتعاهدوا وتحالفوا عليه.

وقد أخبر النبيصلى الله عليه وآله وسلم أنه لو دعي إلى مثل حلف الفضول لأجاب، فدل ذلك على حسن هذه الصفة وكرم أهلها، فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه سيحبط ثواب أعمال البر التي عملوها في الدنيا.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ هل يستوي من كان على بينة من ربه وحجة واضحة في دينه، هو وذلك الكافر الذي لا يتبع في دينه إلا هوى نفسه وشهواته؟

يستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم لماذا لا ينظرون بعقولهم ويتفكرون فيما جاءهم به نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم مع أنه قد جاءهم بحجة واضحة تدل على صدقه، وأنه من عند الله سبحانه وتعالى، بينما أولئك ليسوا على بينة ولا حجة في عبادتهم للأصنام؛ فإن هم تفكروا في ذلك ونظروا عرفوا، فلماذا لا يتبعونه وقد عرفوا ذلك.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ روي أن هذا الشاهد هو أمير المؤمنين علي عليه السلام، وأنه الذي سيخلف النبيصلى الله عليه وآله وسلم، ويقوم مقامه، وكان مع النبيصلى الله عليه وآله وسلم وملاصقاً له، لا يفارقه من بداية دعوته، وما حدث به النبيصلى الله عليه وآله وسلم بحديث أو تكلم بكلام إلا وحفظه عنه ووعاه في صدره، وهو باب مدينته وخازن علمه ومستودع أمانته وقرينه، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من يومنا هذا إلى يوم الدين.

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ من قبل القرآن كتاب موسى الذي هو التوراة رحمة للناس يهتدون بهديه.

﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ الذين اهتدوا بالتوراة وعملوا بما جاء فيها فهم مؤمنون بالقرآن، ومصدقون به؛ لأنه قد ورد ذكره في كتابهم، وقد عرفوا ذلك.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ من يكفر بالقرآن من الفرق المتحزبة ضد النبيصلى الله عليه وآله وسلم من قريش وغيرهم فمصيره نار جهنم خالداً فيها أبداً.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ خاطب الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ والمؤمنين وأعلمهم بأن القرآن الحكيم حق منزل من عند الله، وما ترونه أيها المؤمنون من كثرة المكذبين ليس لشكهم فيه ولا لارتيابهم في آياته ومصداقيته، وتكذيبهم ليس إلا لتمردهم على الله وفسوقهم عن أمره وتعاليهم على الله فلا ترتابوا أيها المؤمنون.

﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴿١٧﴾﴾ واعلم أنه كلام الله سبحانه وتعالىٰ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولكن الكفر والجحود طبيعة البشر منذ أن خلق الله سبحانه وتعالىٰ أولاد آدم إلا القليل منهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه لا أحد أظلم من أولئك الذين يختلقون الكذب والافترآت عليه، ويقولون: إن الله حرم هذا وأحل هذا من عند أنفسهم، فقد بلغوا الغاية والنهاية في الكفر والضلال.

﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ يعرضون للحساب يوم القيامة.

﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ وهم الأنبياء؛ لأنهم الذين سيشهدون يوم القيامة على المكذبين من أممهم.

﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴿١٨﴾﴾ والظالمون هم هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، واللعنة هي أن يطردهم إلى جهنم، ويحبسهم فيها خالدين أبداً، ومحل لعنته هو جهنم.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ من هم الظالمون أيضاً؛ لأن الظالم يندرج تحته معان كثيرة فقال:

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يمنعون الناس ويحذرونهم من الذهاب للاستماع للنبي ﷺ والأخذ عنه، ويلحق بهم كل من صد عن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالىٰ أو عن ذكره.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يريدون أن يكون الناس في طريق الضلال والغي والجهل.

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴿١٩﴾﴾ لا يصدقون بالبعث والحساب والجزاء.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله سبحانه وتعالى، ويكفرون بالآخرة- أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بأنهم لن يعجزوه، وأن إمهالهم في الدنيا ليس لعجزه عنهم فهو قادر على أخذهم متى أراد؛ لأنهم تحت قبضته وقدرته.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ كانوا يقولون: إن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله سبحانه وتعالى ستنفعهم وتنصرهم، فأخبرهم الله سبحانه وتعالى أنها لن تنصرهم من دونه.

﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ يضاعف الله تعالى العذاب لهؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله.

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴿٢٠﴾﴾ وسبب مضاعفة العذاب لهم أنهم كانوا لا يستطيعون أن يستمعوا لآيات الله سبحانه وتعالى وبيناته ولا لنبيه، ولا يبصرون الهدى الذي كان يدلهم على طريقه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهم كالصم البكم العمي؛ وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسمعهم الهدى ويبصرهم الحق، ولكنهم لم يكونوا يسمعون ولا يبصرون، وكان دأبهم العناد والتمرد والكفر وسفاهة العقول والاستكبار.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فهؤلاء الذين ذكرنا صفاتهم هم الذين قد خسروا أنفسهم في جهنم، وذلك هو الخسران المبين.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴿٢١﴾﴾ ضاعت عنهم يوم القيامة تلك الأصنام والمعبودات من دون الله سبحانه وتعالى التي كانوا يدعون أنها ستنصرهم وستدفع عنهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴿٢٣﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن حال المؤمنين، وما سيلاقونه جزاءً على أعمالهم فقال: الذين آمنوا وصدقوا بالله سبحانه وتعالى،

وعملوا مع ذلك الأعمال الصالحة، وتواضعوا لأوامر الله سبحانه وتعالى، واستسلموا له وقالوا سمعنا وأطعنا هم أصحاب الجنة خالدين فيها أبداً، والمتكبر في الحقيقة هو الذي لا يمتثل ما أمره الله سبحانه وتعالى به ويجعل أوامره وراء ظهره ويفعل المعاصي من دون مبالاة فهذا هو المتكبر ولو كان يمشي حافياً أو على وجهه من شدة التواضع.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ يمثل الله سبحانه وتعالى لنا حال الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وحال الذين كفروا وكذبوا به.

﴿كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ فالمشرك كالأعمى والأصم، والمؤمن كالبصير والسميع.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴿٢٤﴾﴾ فلا يستوي الأعمى والبصير، فالمؤمن كالبصير الذي اهتدى إلى طريق الصواب وسار فيه، والكافر كالأعمى الذي لا يهتدي إلى طريق، وإنما يخبط خبط عشواء لا يبصر شيئاً فيسير في غير طريق.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ كما أرسلناك يا محمد إلى قريش، وإلى جميع الناس.

﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴿٢٥﴾﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أنه أرسل نوحاً لينذر قومه ويحذرهم.

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ يأمرهم نبي الله نوح بعبادة الله وحده، ويترك عبادة الأصنام.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴿٢٦﴾﴾ إن بقيتم على عبادة الأصنام فإني خائف ومشفق عليكم أن يحل بكم عذاب يستأصلكم ويبيدكم، وقد جئت لأستنقذكم من عذاب الله وسخطه الذي أوشك أن يحل بكم.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وهم أشراف قومه وكبرائهم، وذلك لأن البقية يكونون تبعاً لهم ولما قالوه.

﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ فلست نبياً كما تزعم ولست إلا بشراً من جنسنا، ظناً منهم أنه لا يصح أن يكون النبي من البشر، ولا بد أن يكون من غير جنسهم قالوا ذلك تعنتاً وتمرداً وإلا فقد جاءهم نبيهم نوح عليه السلام بما يدل على نبوته.

﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ولم يصدقك ويتبع دعوتك إلا أولئك الأراذل وحثالة القوم الذين استجابوا لك من دون نظر أو تروٍّ أو تفكير، استنقاصاً بهم واستحقاراً لهم، وكذلك ليسوا من أهل العقول الراجحة والرأي حتى نصدقك، بل إن ذلك يدل على أنك كذاب، ولست نبياً من عند الله سبحانه وتعالى وإلا لما اتبعك هؤلاء الأراذل.

﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴿٢٧﴾﴾ فلست إلا بشراً مثلنا ولا تزيد علينا في شيء، فلماذا نتبعك ونصدق أنك نبي؟

وفي الحقيقة لم يكن هذا إلا كبراً منهم؛ لأنهم قد عرفوا أنه صادق، وأنه قد جاءهم بالحق، وبما فيه نجاتهم.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ أخبروني كيف لو كنت على بينة واضحة وحجة قاطعة تدل على أنه قد تفضل علي، وجعلني نبياً، وأرسلني إليكم.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ ولم تعرفوا هذه الحجة، وأما أنا فاعلموا أني قد علمت بذلك.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴿٢٨﴾﴾ أأكرهكم على أن تقبلوا ذلك وتؤمنوا بهذه الحجة الواضحة مكرهين، فقد أخبرتكم بأني رسول إليكم من عند ربي، وجئتكم بما يدل على ذلك وهذا هو الذي يلزمني تجاهكم؛ فإن شئتم قبلتم، وإن شئتم رفضتم.

﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ يخاطب نوح عليه السلام قومه معاتباً لهم في عدم اتباعهم له.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ فلا أريد منكم أجراً في تبليغي لكم فأجري على

ذلك من عند الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ كان كبار قومه وزعماء قبيلته اشترطوا عليه أن يبعد عنه الأراذل في زعمهم ممن آمن به وسوف يتبعونه، ويستمعون إليه، ولكنه أجاب عليهم بالنفي، وأنه لن يطردهم من عنده؛ لأنه سيسأل عن ذلك أمام الله سبحانه وتعالىٰ يوم القيامة.

﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝٢٩﴾ ولو كنتم تريدون الحق كما تزعمون لما احتجتم إلىٰ ذلك، ولكنكم من أهل العناد والتمرد علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠﴾ من يدفع عني عذاب الله سبحانه وتعالىٰ وسخطه إن طردتهم وأخرجتهم؛ لأن ذلك جريمة عظيمة سيحاسبني ربي عليها ويعذبني.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ عندما ادعىٰ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الرسالة والنبوة استنكر عليه قومه ظناً منهم أنه لا يصح ذلك، وأنه لا بد لأجل ذلك أن تكون عنده خزائن الله من الذهب والفضة والأموال، أو يعلم الغيب، أو يكون من الملائكة؛ فأخبرهم بأنه ليس معه شيء من ذلك، ومع ذلك فهو نبي من عند الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ ولن أقول إن هؤلاء الذين آمنوا بي ممن تحتقرونهم لن يثيبهم الله سبحانه وتعالىٰ، ولن يدخلهم الجنة، وكانوا يظنون أنه لن يدخل الجنة إلا الأشراف والكبار، ويعتقدون أنهم لشرفهم في الدنيا وتعاليهم فيها هم الذين يستحقون ثواب الله وكرامته دون الأراذل وأهل الضعف والمسكنة.

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فهو عالم ومطلع علىٰ ضمائر هؤلاء الذين تحتقرونهم، وبما يحملونه من الإيمان في قلوبهم، وسيثيبهم علىٰ ذلك.

﴿إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝٣١﴾ لو استمعت إليكم وطردتهم.

﴿قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ۝٣٢﴾ قد أكثرت علينا يا نوح فلن نؤمن لك، ولن نصدقك مهما فعلت فادع الله أن يعجل علينا بعذابه هذا الذي تدعي أنه سينزله بنا.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ۝٣٣﴾ فليس بيدي تعذيبكم فهو الذي سيعذبكم إن أراد ولستم بمعجزين له، ولن تستطيعوا أن تدفعوا عن أنفسكم عذابه إن نزل بكم، أو أن تفروا منه.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ۝٣٤﴾ فإذا حق عليكم عذاب الله سبحانه وتعالى واستوجبتم سخطه وحان وقت تعذيبكم، فلن ينفعكم الإيمان حينئذ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عن حال المشركين، وأنهم يزعمون أنه كاذب فيما جاءهم به، وأن القرآن ليس من عند الله سبحانه وتعالى.

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ۝٣٥﴾ إن كنت قد افتريته على الله فأنا سأتحمل وزر ذلك، ولن تتحملوا عني شيئاً، ولكن اعلموا أنكم سوف تتحملون ذنب شرككم وتكذيبكم، وأنا بريء منه.

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نوحاً عليه السلام أنه لن يؤمن غير من قد آمن ليقطع طمعه في إيمان قومه.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ۝٣٦﴾ فلا تحزن على أعمالهم وشركهم وتكذيبهم، وعلى ما سيلحقهم بسبب ذلك من العذاب.

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ بعد هذه المدة -مدة دعائه لقومه- أمره الله سبحانه وتعالى بأن يصنع سفينة له ولمن آمن معه، وطمأنه الله سبحانه وتعالى بأنه تحت عنايته وحفظه، وأنهم لن يستطيعوا أن يضروه بشيء فهو معه.

﴿وَوَحْيِنَا﴾ وأخبره الله سبحانه وتعالى بأنه سيرسل إليه من يعلمه كيفية

صناعتها بمنتهى الدقة.

﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴿٣٧﴾﴾ ولا تراجعني في شأن قومك فقد حق عليهم العذاب، وحان وقت نزوله بهم، وكان الله سبحانه وتعالى قد علم بأن نوحاً عليه السلام سيدعوه أن يمهلهم، ويؤخر نزول عذابه بهم طمعاً في إيمانهم وشفقة عليهم، بالرغم من أنه قد مكث نبيهم يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً؛ فأخبره الله سبحانه وتعالى بأنه قد بلغ الكتاب أجله، وأنه لن ينفع مراجعته في شأنهم.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ خلال عمله كان كل من مر عليه من قومه يسخرون منه ويستهزئون به، وأنه مجنون؛ فكيف يصنع سفينة في وسط الصحراء؟! وصناعة السفن إنما تكون على شواطئ البحار.

﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴿٣٨﴾﴾ إن كنتم تسخرون من عملنا هذا فإنا أيضاً نسخر منكم لكفركم بالله سبحانه وتعالى وبآياته.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴿٣٩﴾﴾ كانوا يقولون إن نوحاً قد خرج عن الحق، وعن دين آبائه وأجداده، وأن الأصنام سوف تنتقم منه جزاءً على ما يفعله؛ فرد عليهم بأنهم سوف يعلمون من الذي خرج عن الحق عندما يرون نزول العذاب بهم في الدنيا قبل عذاب الآخرة، ولا زالوا على هذا المنوال مدة صناعته للسفينة.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أعلم الله تعالى نوحاً بأن علامة حلول عذاب الله بقومه هو فوران الماء من التنور.

﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ فإذا فار التنور فاركب أنت ومن آمن معك في السفينة، واحمل أيضاً معك زوجين من كل حيوان من حيوانات الأرض ذكر وأنثى.

﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ إلا من قد استحق منهم عذاب الله سبحانه وتعالى، وهم زوجته وأحد أولاده فهذان اللذان لم يؤمنا من أهله فلا يحملها.

﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ۝٤٠﴾ أمره الله سبحانه وتعالى أن يحمل فيها من آمن معه، ثم أخبر أنه لم يؤمن به إلا قلة قليلة.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ۝٤١﴾ أمرهم الله سبحانه وتعالى أن يستعينوا به عند ركوبهم، وأن يتوكلوا عليه، وأن يسموا الله سبحانه وتعالى عند ذلك، وأنها تجري بأمره وتحت حراسته وحفظه.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ نبعت الأرض بالماء والسماء بالمطر؛ فامتلأت الأرض، وتكاثر فيها الماء حتى غطى الجبال، والسفينة تجري بهم فيه.

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ۝٤٢﴾ كان الولد هذا منعزلاً عن أبيه مع الكافرين فناداه نوح عليه السلام بأن يركب معه؛ شفقة منه عليه من الغرق.

﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ فرفض دعوة أبيه، وقال له: سأصعد جبلاً طويلاً لا يلحقني فيه طوفان الماء.

﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ يخاطب ابنه بأنه لن ينجو من الغرق إلا من كان من أهل رحمة الله سبحانه وتعالى ومن المؤمنين، فلم يصدق أباه أن الناس جميعاً سيغرقون، وظن أن الجبل سيحميه، وقد عاتب الله سبحانه وتعالى نبيه على ذلك؛ لأنه قد أخبره أنه لن ينجو من الغرق إلا من كان من أهل رحمته، فتاب نوح عليه السلام وندم على ما كان منه، واستغفر الله من ذنبه ذلك.

﴿وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ عندما قضى الله سبحانه وتعالى على الكافرين أمر الأرض بأن تبتلع ماءها، والسماء بأن تكف عن المطر؛ فنقص الماء إلى أن رجع كل شيء على حالته.

﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ ورست السفينة على جبل اسمه الجودي قيل إنه في

أرض التبت.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ۝٤٤﴾ هذه دعوة نوح ومن آمن معه، وقد تكون دعوة من الملائكة، ويمكن أن تكون من الطرفين.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ۝٤٥﴾ عندما رأى ولده قد أوشك على الغرق أشفق عليه فدعا الله سبحانه وتعالى أن ينقذه ظناً منه أنه قد دخل في جملة من وعده الله سبحانه وتعالى بالنجاة.

﴿قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه نوح عليه السلام بأن ولده هذا ليس من أهله الذين وعده بأنه سينجيهم.

ثم أخبر بسبب خروجه من جملة أهله فقال: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾؛ لأنه ليس من أهل الصلاح والإيمان، فهو داخل في جملة المشركين.

﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ فلا تتشفع فيه وأنت تعلم أنه من أهل الشرك، وقد سبق أن أخبرناك أنه لن ينجو معك إلا من كان من أهل الإيمان.

﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ۝٤٦﴾ فلا تسأل عن شيء وأنت تعلم أنه لا يجوز.

ويؤخذ من ذلك: أنه لا يجوز أن يسأل المرء أو يدعو بشيء وهو يعلم أن الله لا يريده ولا يفعله، كأن يسأل الله سبحانه وتعالى أن يعمره ألف سنة، أو ألا يميته، أو نحو ذلك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ۝٤٧﴾ تاب نوح إلى ربه وندم على ما كان منه في شأن ولده، واستغفر الله سبحانه وتعالى.

﴿قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ۝٤٨﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نوحاً ومن معه

أن ينزلوا إلى الأرض، ويسكنوا فيها، ويعمروها بذكره، وأخبرهم بأنه سيحفظهم من الآفات والمصائب، وأن بركاته مصاحبة لهم، وسيبارك في ذراريهم وأرزاقهم، وستتكاثر أنت ومن معك من الناس ومن الحيوانات.

وقد أراد بالبركة: الكثرة والنمو لذراريهم، وأنهم سيعمرون الأرض وسيملؤونها مكان أولئك الذين أهلكهم.

وأخبره الله سبحانه وتعالى أيضاً أنه سيكون من هؤلاء الناس أمم سيكذبون رسلهم، وسيعذبهم الله على ذلك، وأن حالهم سيكون كحال أولئك الذين أهلكهم من قومه.

والله أعلم كم عاش نبي الله نوح بعد ذلك، وكم تعمر؛ فلم يقص الله سبحانه وتعالى لنا إلا مدة دعوته في قومه وهي تسعمائة وخمسون سنة.

وأما الذين نجاهم الله سبحانه وتعالى معه فهم ثلاثة من أولاده فقط، وهم سام وحام ويافث، وقد تناسل الناس منهم.

ثم إن الله سبحانه وتعالى أخبر عن حال تلك الأمم فقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾، وهي قصة نوح مع قومه، وأمر السفينة والغرق فهي من الأخبار التي يختص الله سبحانه وتعالى بعلمها، ولا أحد يعلمها لا أنت يا محمد، ولا أحد من قومك، وإنما أوحينا إليك علم ذلك، لنطلعك على أخبار الأمم التي كذبت برسلها، وفي ذلك دلالة على نبوة محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ۝٤٩﴾ ذكر الله سبحانه وتعالى هذه القصة ليصبر نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إذا علم أن نوحاً قد لبث في قومه تلك المدة، و علم كم آمن من قومه- هان عليه أمره، وما يلاقيه من تكذيب قومه، فأمره بالصبر؛ لأن النصر والظفر سيكون في النهاية لمن أتقاه وأطاعه، وإن كان القهر والغلبة والسلطان في الظاهر للمشركين؛ فإن العبرة بعاقبة الأمر ونهايته، وهذا وعد من الله سبحانه وتعالى لنبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وللمؤمنين بأنهم سوف يخلفون في الأرض في

نهاية الأمر بعد أن يقهر المشركين، ويخزيهم ويذلهم في الأرض.

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ثم ذكر الله سبحانه وتعالىٰ قصة قوم عاد مع نبيهم الذي أرسل إليهم وهو هود عليه السلام.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ۝٥٠﴾ أرسلني الله سبحانه وتعالىٰ إليكم لأنهاكم عن عبادة الأصنام من دونه، وآمركم بعبادته وحده؛ لأنه الإله الذي يستحق العبادة، والذي يحمل صفات الإلهية لا تلك الأصنام التي تدعونها من دون الله سبحانه وتعالىٰ افتراءً عليه، فلا تحمل من صفات الإلهية شيئاً، فلا علم ولا قدرة، ولا تحيي ولا تميت، ولا تغني شيئاً.

وقوم عاد كانوا قاطنين في بلاد حضرموت في أرض الأحقاف (الكثبان الرملية).

﴿يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لم أطلب منكم أجراً على دعوتي لكم كي تتثاقلوا ذلك، وتتباطئوا عن الإيمان، وكانوا قد استثقلوا دعوته لهم، وضاقت نفوسهم منه.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ۝٥١﴾ ولست أطلب أجر تعبي إلا من الله سبحانه وتعالىٰ.

فإن قيل: وما الفائدة في الأجرة حتى أن كل نبي يدعوا قومه يقرن دعوته بذكر الأجرة عند معاتبتهم في عدم الاستجابة؟

قلنا ذلك؛ لأن من لا يطلب الأجرة على التعليم تكون النفوس في العادة إليه أميل ممن كان على خلافه، وتكون أقرب إلى تصديقه من ذلك الذي يطلبها.

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ وتوبوا إلى الله سبحانه وتعالىٰ من الشرك وذنوبه وارجعوا إليه.

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ أخبرهم نبيهم هود عليه السلام بأنهم إذا رجعوا إلى الله سبحانه وتعالىٰ واستغفروه- فسيثيبهم في الدنيا قبل الآخرة بأن ينزل عليهم بركات السماء من الأمطار.

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ وكانت عاد أهل قوة وبسطة في الأجسام زائدة على من كان قبلهم من الأمم، فأخبرهم الله سبحانه وتعالى بأنهم إذا تابوا واستغفروا فسيزيدهم أيضاً قوة في أجسادهم فوق قوتهم التي هم عليها.

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴿٥٢﴾﴾ ولا تعرضوا عن دعوتي لكم التي هي دعوة الله سبحانه وتعالى؛ لأن ذلك جريمة كبيرة سيعذبكم عليها.

﴿قَالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ طلب قوم هود البينة والدليل على صدق نبوته مع أنه كان قد أتاهم بالبينات والحجج التي تشهد بصدقه، وسؤالهم ذلك لم يكن إلا تمرداً وعناداً، وإلا فقد عرفوا صدق نبوته.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴿٥٣﴾﴾ فاقطع طمعك في إيماننا، فلن نترك آلهتنا حتى ولو جئتنا بالبينات والحجج، ولن نصدقك أبداً، فلا تتعب نفسك في ذلك.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ يزعم قومه أن آلهتهم قد أصابته بالجنون عقاباً له، وأنه أصبح يهذي كالمجانين.

﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴿٥٥﴾﴾ فاشهدوا جميعاً يا قومي أني أشهد الله سبحانه وتعالى أني كافر بآلهتكم وبريئ منها فلتصنع بي ما شاءت، فاجتمعوا أنتم وآلهتكم، وافعلوا ما بدا لكم، واجهدوا جهدكم في إلحاق الضرر والأذى بي، ولا تمهلوني لحظة واحدة.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ فأنا متوكل على الله سبحانه وتعالى، وواثق به وبنصره، وما دام معي فلن يصل إلى كيدكم.

﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ فقد توكلت على الإله الذي بيده نواصي كل شيء وكل شيء تحت قبضته وقدرته، والأخذ بالناصية كناية عن السيطرة والقدرة والتمكن من الشيء.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٦﴾ فأنا على الدين الحق الذي هداني إليه ربي.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ فإن تعرضوا عن دعوتي وتكذبوا بها، ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ فقد أديت مهمتي التي كلفني ربي وهي تبليغكم طريق الحق، وطريق نجاتكم، قبلتم أم لم تقبلوا.

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ إن لم تقبلوا فسيعذبكم الله سبحانه وتعالى ويستأصلكم عن بكرة أبيكم، ويجعل مكانكم قوماً غيركم.

﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ٥٧﴾ فلن تضروا بكفركم إلا أنفسكم، فالله سبحانه وتعالى مستول ومسيطر على كل شيء، وكلهم تحت قدرته وقبضته، وسيحاسبكم على أعمالكم، وسيجازيكم عليها وهو الغني الذي لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ ولما حصل وقت تعذيبهم، ونزول العذاب بهم.

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٥٨﴾ لما أنزل الله تعالى عذابه بالمجرمين المكذبين نجى تعالى نبيه هوداً والذين آمنوا معه وأدخلهم الله سبحانه وتعالى في رحمته وحفظهم، بالرغم من كونهم بين أولئك الذين عذبهم.

هذا، ولم يذكر الله سبحانه وتعالى الآيات والمعجزات التي أنزلها على هود، ولم يقصها علينا في القرآن بخلاف غيره من الأنبياء.

والعذاب الغليظ هو الريح سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حتى أبادتهم.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى محمداً ﷺ بأن هذه قصة عاد عندما كفروا بربهم وعصوا نبيه، والجحود هو الكفر بألسنتهم مع معرفتهم بقلوبهم أنهم صادقون.

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ٥٩﴾ عصوا أنبياء الله سبحانه وتعالى، وأطاعوا رؤساءهم وكبراءهم وأشراف قومهم.

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ولعنته في الدنيا هي إنزال العذاب عليهم، وقد عذب الله سبحانه وتعالى قوم هود في الدنيا والآخرة.

﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى بالسبب الذي استحقوا به عذاب الاستئصال وذلك هو كفرهم بربهم وتكذيبهم لنبيهم.

﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴿٦٠﴾﴾وهو لعنته لهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه قد أرسل إلى قبيلة ثمود نبياً منهم واسمه صالح.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أرسله الله سبحانه وتعالى إليهم ليأمرهم بعبادته وحده، وترك عبادة الأصنام؛ لأنه الإله الحق الذي يستحق العبادة.

﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ يذكرهم نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالدليل على أن الله سبحانه وتعالى هو الإله الحق والذي يستحق العبادة وحده، وهو أنه الذي خلقهم من طين، وابتدأ إنشاءهم من العدم.

﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ وهو الذي سخر لكم الأرض وهيأها لكم لتعمروها وتسكنوا عليها، وتعيشوا على ظهرها.

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فاتركوا عبادة الأصنام، وارجعوا إليه، واطلبوا منه المغفرة والرحمة على ما سلف منكم.

﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴿٦١﴾﴾ إذا طلبتم منه المعفرة فهو قريب ممن ناداه ومستجيب لمن دعاه.

﴿قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ يخاطبونه بأنهم كانوا يؤملون فيه الصلاح والخير حتى رأوا منه ما رأوا من ادعاء النبوة فخابت آمالهم فيه، وذلك أنهم كانوا قبل ذلك يرون فيه الصدق والوفاء والأمانة حتى حصل ما حصل من ادعائه النبوة، ودعوته لهم إلى عبادة الله وحده فتغيرت نظرتهم

نحوه، وصار من المفسدين في زعمهم.

﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾ استنكروا عليه كيف ينهاهم عن عبادة الأصنام التي هي دين آبائهم وأجدادهم.

﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴿٦٢﴾﴾ ونحن في شك من دعوتك، ومرتابون في صدقها، يزين لهم الشيطان ذلك، وأنهم على الصواب، وأن صالحاً على الباطل.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ أخبروني يا قومي كيف يكون حالي إذا كنت على بينة فيما كلفني به ربي من تبليغ رسالته حيث اختارني برحمته لتبليغها إليكم ثم تمردت عليه وتركت تبليغها فمن هو الذي يدفع عني عذابه.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴿٦٣﴾﴾ فما أزداد إلا يأساً من تكذيبكم وحسرة لعدم إيمانكم واستجابتكم.

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ آية دالة على صدق نبوتي، وذلك أنه أخرج لهم ناقة من الجبل؛ لأنهم كانوا قد سألوه فقالوا: إن كنت صادقاً فأخرج لنا من هذا الجبل ناقة نراها أمام أعيننا، فإن فعلت ذلك صدقناك واتبعناك.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴿٦٤﴾﴾ وعندما خرجت هذه الناقة أخبرهم أن يوماً لها ويوماً لهم في الشرب والمرعى، وجعل لها حصة مثل حصتهم جميعاً مما يدل على كبر حجمها وعظمها، وقد قيل: إنها كانت تسقيهم جميعاً ما يكفيهم من لبنها، وأمرهم بأن يتركوها ترعى، ولا يعترضوا لها أو يمنعوها أو يمسوها بسوء؛ فإن فعلوا فسيعذبهم الله سبحانه وتعالى.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ فتمردوا على الله وعصوا نبيهم عليه السلام فقتلوها.

﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ۝٦٥﴾ أخبرهم نبيهم صالح عليه السلام أنه لم يبق لهم إلا ثلاثة أيام يعيشون فيها على الدنيا ثم ينزل عليهم عذاب الله سبحانه وتعالى جزاءً على عصيانهم وتمردهم، وأخبرهم أن هذا وعد من الله سبحانه وتعالى، ولا بد أن يقع.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ۝٦٦﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالى أنزل بهم عذابه كما وعدهم، ونجى صالحاً ومن آمن معه، وقد عذبهم الله سبحانه وتعالى بالصاعقة نزلت عليهم من السماء فصعقتهم جميعاً، وكان صالح بينهم، ولكن الله نجاه وحفظه هو ومن آمن معه.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ۝٦٧﴾ فما أصبح الصباح إلا وهم جاثمون على وجوههم أمواتاً.

﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أصبحت بلادهم بعدما أخذتهم الصيحة خالية من السلام بعد أن كانت مأهولة بقوم صالح عليه السلام.

﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ۝٦٨﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى بالسبب في نزول عذابه وسخطه بهم، وذلك هو كفرهم بربهم وعصيانهم وتكذيبهم لنبيهم صالح عليه السلام أبعدهم الله وأزهق أرواحهم بعذابه.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ ثم انتقل الله سبحانه وتعالى إلى حكاية قصة إبراهيم لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أخبره الله سبحانه وتعالى بأنه قد أرسل إلى نبيه إبراهيم صلى الله عليه وآله الملائكة يبشرونه بمولود سيولد له يكون نبياً.

﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ دخلوا عليه فسلموا فرد عليهم السلام.

﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ۝٦٩﴾ خرج من عندهم ولم يلبثوا إلا يسيراً حتى أقبل إليهم بذبيحة محنوذة ليأكلوا، وهذه هي عادة الكرام عند إقبال الغريب عليهم.

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ استنكر عليهم عندما رآهم لا يأكلون.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ خاف عندما رأى منهم ذلك، وعلم في نفسه أنهم ملائكة، وأنهم قد جاءوا لأمر جلل، إما للعذاب أو نحوه، وكان هذا هو سبب خوفه.

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ طمأنوه بأنهم لم يريدوا منه ولا من قومه شيئاً، وأنهم مرسلون إلى قوم لوط ليعذبوهم.

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ كانت قريبة منهم وتسمع محاورتهم، وتبشير إبراهيم بمولود فاستبشرت وضحكت مما سمعت.

وقد قيل: إن معنى ضحكت حاضت، وأنها علامة على أنها ستحمل وتلد؛ لأنها كانت قد أسنت وكبرت، وقد انقطع حيضها.

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ أخبروها بمولود سيكون نبياً واسمه إسحاق، وأنه سيولد لإسحاق نبي أيضاً واسمه يعقوب.

هذه هي البشرى التي بشروا بها نبي الله إبراهيم صلى الله عليه وآله حين جاءوا إليه وهم في طريقهم إلى قرى قوم لوط ليستأصلوهم.

وكان مولد إسماعيل قبل إسحاق، وذلك أن إسماعيل بعد مولده هاجر به أبوه إبراهيم مع أمه إلى مكة بأمر من الله سبحانه وتعالى ليعيشوا هنالك، وبعدما عاد إلى الشام ولد له إسحاق.

وقد سكن إسماعيل في مكة مع أمه واستوطن فيها، وكانت أرضاً قفراء؛ لا ماء فيها ولا حياة، ولم يكن معهما إلا الله سبحانه وتعالى برعايته، ولم تكن الكعبة قد عمرت وبنيت، وإنما كان مكانها أحجار مطروحة كعلامة عليها.

﴿قَالَتْ يَاوَيْلَتَى ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ قالت قولها ذلك وهي متعجبة كيف تلد وقد شاخت هي وزوجها، وقد تجاوزت سن الحمل والولادة.

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ استنكرت الملائكة عليها حين تعجبت وهي تعلم أن الله على كل شيء قدير.

﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ۝٧٣﴾ سيدخلكم الله سبحانه وتعالى في رحمته وسيبارك في ذرياتكم بأولاد أنبياء ينتفع الناس بهم، وسيؤتيكم الله سبحانه وتعالى الكتاب والحكمة والعلم.

وسمي الحميد لأنه ينعم على الناس نعماً يستحق أن يحمد عليها، والمجيد المراد به أنه ذو رفعة وعلو.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ لما زال عنه الخوف من الرسل الذين أقبلوا عليه، وبعد أن بشروه.

﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤﴾ بعد ذلك وبعد أن اطمأن أقبل إلى الملائكة يحاورهم في شأن قوم لوط، ويراجعهم في أن يمهلوهم لعلهم يهتدون، ويرجعوا إلى صوابهم ورشدهم.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ۝٧٥﴾ لأنه كان من أهل الأناءة والتروي وعدم استعجال الأمور، والأواه هو كثير التأوه من خشية الله سبحانه وتعالى، والمنيب الراجع إلى الله سبحانه وتعالى.

﴿يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ لا تراجعنا في شأن قوم لوط.

﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾ فقد أراد الله سبحانه وتعالى تعذيبهم، ولا راد لأمره وقضائه.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ بعد أن خرجت الملائكة من عند إبراهيم توجهت نحو قرى قوم لوط، ودخلت على لوط في هيئة الضيوف.

﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧﴾ استاء من مجيئهم، وخاف عليهم من قومه أن يعلموا بهم فيأتوا مريدين للفاحشة بهم؛ لأن هذا كان طبعهم فيمن أقبل إليهم.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ وفعلاً فعندما عرفوا بأمر الوافدين على نبي الله لوط عليه السلام- أقبلوا نحوه جرياً من شدة الفرح مريدين للفاحشة.

ومعنى يهرعون: يسرعون في الجري، يسقطون ويقومون من شدة الجري.

﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ وكانوا على الفاحشة من قبل مجيئهم يعملونها فيما بينهم، ولا ينفكون عنها.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ وقف في وجوههم محاولاً لصدهم عن ضيوفه بشتى الوسائل، ويعدهم بأنه سيزوجهم بناته، وأن يذهبوا فلا يفضحوه في ضيوفه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ واتركوهم ولا تفضحوني في ضيوفي؛ لأن ذلك عيب على المضيف إن أصاب ضيفه مكروه وهو في بيته ولا يدافع عنه، وسيكون ذلك خزيا عليه، وهكذا في كل زمان أن من اعتدى على ضيفك فكأنه اعتدى عليك.

﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۝٧٨﴾ فهل فيكم رجل ذو عقل يكفيني ما أجد، ويقدر موقفي هذا.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩﴾ وقد رفضوا توسل نبي الله لوط إليهم وهم مصرون على فعل الفاحشة غير مبالين به وبتوسله إليهم، وكان ضيوفه هؤلاء جبريل وميكائيل وإسرافيل.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾ يتحسر ويتندم على عدم استطاعته ردهم ودفعهم عن ضيوفه، ويتمنى أنه لو كان له أنصار يدفعون عنه شر هؤلاء القوم، أو أن له حصناً يأوي إليه، ويختفي منهم.

﴿قَالُوا يَالُوطُ﴾ تكلمت الملائكة حين رأت ما رأت من لوط مع قومه مخاطبة له ومطمئنة: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ نحن مرسلون من عند الله سبحانه وتعالى فاهدأ ولا تخف؛ فلن يستطيعوا أن يصلوا إليك ولا إلينا. قيل: إن

جبريل ضرب بجناحه نحوهم فأعمى أبصارهم، فلم يهتدوا حينئذ إلى لوط، وصاروا يخبطون فيما بينهم.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ خذ أهلك في سواد الليل واخرج بهم من بين هؤلاء القوم.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ ولا ينظر أحد منكم وراءه وواصلوا مشيكم، وذلك لأن عذاب الله سبحانه وتعالى سينزل على هؤلاء القوم وهم في خلال مسيرهم؛ فإذا ما رأوه فقد لا يتحملون هول ما يرونه.

﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ فاخرج بأهلك جميعاً إلا امرأتك فاتركها بينهم، والاستثناء من قوله ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، وأخبرته الملائكة أنها كانت كافرة مثلهم، وأن عذاب الله سينزل بها معهم.

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ موعد نزول عذاب الله بهم هو الصبح.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ رفع جبريل عليه السلام قراهم وضرب بها الأرض فأهلكها ودمرها بمن فيها.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ قد يكون ذلك لمن بقي منهم خارج هذه القرى، والسجيل الطين اليابس الذي قد استحجر.

﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ عليها علامة من عند الله سبحانه وتعالى.

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ وليس عذاب الله الذي أنزله بقوم لوط عليه السلام ببعيد من قريش لأنهم قد أجرموا، وأفسدوا في الأرض، وقد استحقوا ما نزل بقوم لوط؛ فليحذروا ذلك إن أرادوا.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أرسل الله سبحانه وتعالى إلى قبائل مدين رجلاً منهم واسمه شعيب، ومدين بلاد تقع على خليج العقبة الآن، وآثارهم لا زالت إلى اليوم باقية.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ اتركوا عبادة الأصنام، واعبدوا الله سبحانه وتعالىٰ فهو الإله الذي يستحق العبادة وحده.

﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ كانوا أهل تجارات وبيع وشراء؛ فنهاهم عن الغش، وأمرهم بأن يوفوا في كيلهم ووزنهم.

﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ ينصحهم شعيب بعدم الغش والبخس في بيعهم وشرائهم، فهم في خير ونعمة وتجارة واسعة، وفي أمن وأمان في بلادهم؛ فلماذا لا يشكرون الله سبحانه وتعالىٰ، ويتركون ما هم عليه من عبادة الأصنام والغش والخيانة في البيع والشراء، وفعل المعاصي والمنكرات؟

﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴿٨٤﴾﴾ فأنا خائف إن لم تقلعوا عن عصيانكم أن ينزل الله بكم عذابه المحيط الذي يستأصلكم ويقطع دابركم.

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴿٨٥﴾﴾ أوفوا للناس الكيل والوزن، ولا تنقصوا من حقوقهم شيئاً، واتركوا الفساد في الأرض.

﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ طاعة الله سبحانه وتعالىٰ خير لكم من العصيان والتمرد.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴿٨٦﴾﴾ وليس علي حسابكم وجزائكم، ولا يلزمني إلا أن أبلغكم ما أرسلت به إليكم، وحسابكم وجزاؤكم علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ يستنكرون علىٰ نبي الله شعيب، حين دعاهم إلىٰ ترك عبادة الأصنام ونهاهم عن نجس المكيال والميزان وقالوا لن نترك ذلك لأجل تنسكك.

﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴿٨٧﴾﴾ قالوا ذلك استخفافاً منهم به واستحقاراً لما يدعوهم إليه.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أخبروني أيها القوم ماذا لو كنت على بينة وحجة واضحة تدل على صدقي، وأني رسول من عند الله سبحانه وتعالى؛ فهل تريدون مني أن أترك ما كلفني به، وأن أعصيه وقد أوسع علي في الرزق وأنعم علي، فلن يكون ذلك، ولا بد أن أكمل تبليغي رسالة ربي التي كلفني بها.

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ ولن أعمل تلك الأعمال التي نهيتكم عنها حتى تتهموني بالاحتيال عليكم، والخيانة لكم، والكذب في دعوتي.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴿٨٨﴾﴾ فلا غرض لي غير إصلاحكم، وإصلاح أمركم متوكلاً على الله سبحانه وتعالى في ذلك، ومستمداً منه العون على ذلك، ومعتمداً عليه في أمري هذا، وماضياً فيه؛ لأن مرجعي إليه، و هو الذي سيحاسبني.

﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴿٨٩﴾﴾، هذا من خطاب نبي الله شعيب لقومه: لا تحملكم عداوتي وشقاقكم لي ومخالفتكم على الوقوع في المهالك، وأن تقعوا فيما وقع فيه قوم صالح وقوم هود وقوم لوط، ولا تأخذكم حماقتكم إلى ظلم أنفسكم وإهلاكها، ووعظهم أن يتفكروا وينظروا في عاقبة أمر أولئك الذين سبقوا، وأن قوم لوط لا زالوا قريبي عهد بهم؛ فليعتبروا بهم.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴿٩٠﴾﴾ واطلبوا المغفرة من ربكم على تمردكم وعصيانكم وشرككم، وارجعوا إليه وسيقبل توبتكم، وسيعفوا عن سيئاتكم.

ومعنى «ودود» أنه تعالى يتودد إلى عباده ويتلطف بهم ليرجعوا إليه، ويدخلوا في رحمته.

﴿قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ لا ندري ما هذا الذي تقوله، ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١﴾ ونحن نستطيع أن نقتلك ولولا خوفنا قبيلتك لقتلناك وما أسهل ذلك علينا.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أتخافون من قومي ولا تخافون من الله سبحانه وتعالى؟ ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝٩٢﴾ جعلتموه وراء أظهركم ولم تبالوا به، مع أنه أحق بالخوف منه، وكيف تتهاونون به وبأوامره وبرسوله غير مبالين، وهو ربكم الذي بيده نواصيكم، وهو عالم بأعمالكم هذه، ومطلع عليها، وسيجازيكم عليها.

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ أبلغوا جهدكم في نصب العداوة لي، وافعلوا ما بدا لكم بي- فلن تثنوني عن عملي هذا، وسأواصل تبليغكم دعوتي، ولن أترك ذلك؛ فاصنعوا ما بدا لكم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۝٩٣﴾ يهددهم شعيب بذلك، وأنه سيحل بهم العذاب عما قريب، وستعلمون عما قريب من ستكون الدائرة عليه؛ فانتظروا وترقبوا.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ عندما حان وقت تعذيبهم ونزول العذاب بهم- أحاطت رحمته بشعيب ومن آمن به، ونجاهم واستأصل قومه، ولم يبق على الأرض أحد منهم.

﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝٩٤﴾ عذبهم الله سبحانه وتعالى بصوت شديد نزل عليهم من السماء لم تتحمله قواهم البدنية- فماتوا جميعاً، ولم يصبح عليهم الصباح إلا وقد جثموا على وجوههم أمواتاً.

﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ وكأن أحداً لم يكن قد سكن تلك البلاد، أو عاش فيها، وأصبحت خالية من الحياة تماماً، وخرج شعيب والمؤمنون معه من هذه الأرض التي حل فيها العذاب، وكذلك كل أرض نزل بها عذاب الله سبحانه وتعالى فإن الأنبياء يتركونها تشاؤماً منها؛ لأنها أصبحت محل سخط الله سبحانه وتعالى وغضبه.

﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ۝٩٥﴾ أبعدهم الله سبحانه وتعالىٰ من رحمته كما أبعد من قبلهم من المكذبين، وهذا دعاء عليهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ۝٩٦ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ۝٩٧﴾ أرسل الله سبحانه وتعالىٰ موسىٰ بالآيات والحجج الواضحة التي تدل علىٰ صدق نبوته، والسلطان المبين هو الحجة الواضحة الظاهرة الدالة علىٰ أنها من عند الله سبحانه وتعالىٰ.

أرسله الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ فرعون وكبار دولته وأعيانها، وذلك لأن بقية القوم يكونون تبعاً لهؤلاء الكبار، فإذا آمن الكبار تبعهم هؤلاء، ولكنهم استجابوا لفرعون وتركوا موسىٰ وما دعاهم إليه، مع أن فرعون كان يدعوهم إلىٰ الهلاك والبوار في الدنيا والآخرة.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ۝٩٨﴾ عندما اتبعوه سيحشرون معه يوم القيامة، وسيكون متقدماً لهم وهم خلفه إلىٰ جهنم.

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ۝٩٩﴾ بسبب طاعتهم له واتباعهم حلت بهم لعنة الله سبحانه وتعالىٰ في الدنيا، وسوف تتبعها لعنته يوم القيامة، ولعنته في الدنيا هي عندما أغرقهم في البحر وأخزاهم، وسلبهم النعم التي كان أنعم بها عليهم، ولعنته يوم القيامة هي عذاب جهنم وبئس المصير، والرفد المرفود هو اللعنة تلو الأخرىٰ.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأن تلك القصص التي قصصناها عليك هي من أنباء القرىٰ التي كذبت رسلها.

﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ۝١٠٠﴾ وأخبره الله سبحانه وتعالىٰ أن بعض هذه القرىٰ لا زالت آثارها قائمة إلىٰ اليوم، وأن بعضها قد محيت وأزيلت.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ تعذيب الله سبحانه وتعالىٰ لهؤلاء المكذبين لم يكن ظلماً منه لهم، وأنهم هم الذين تسببوا في هلاك انفسهم، وهم

الذين ظلموا أنفسهم بارتكابهم الكفر والتكذيب.

﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ فلم تنفعهم تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها، ويدعون أنها تنفعهم، وسوف تشفع لهم.

﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى عن حال هذه الأصنام بأنها لم تزد هؤلاء الذين يعبدونها إلا خسارة لأنفسهم في الدنيا والآخرة، ولم تنفعهم أي نفع.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه سيأخذ القرى الظالمة مثل ما أخذ أولئك من قبل؛ فلتحذر قريش أن يحل بها ما حل بهم، ولينتبهوا من غفلتهم، ويعتبروا بمن كان قبلهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن في هذه القصص التي قصها عليه من أنباء الأمم المكذبة بأنبيائها عبرة لمن اعتبر، وعظة لمن انتفع بها، وخاف عذاب الآخرة، وأما أولئك الذين لا يخافون من الله سبحانه وتعالى فلن تنفع فيهم هذه العبر والمواعظ.

وكان نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد سأل الله سبحانه وتعالى ألا يعذب أمته بمثل ما عذب به تلك الأمم السالفة، فاستجاب الله سبحانه وتعالى له ذلك ولكنه استثنى من ذلك بأسهم بينهم؛ فلن يرفعه عنهم، وسيكون عذابه لهم بتسليط بعضهم على بعض.

﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ۝١٠٣﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى عن يوم القيامة الذي ذكر أنه سيعذب المكذبين فيه بأنه يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين، وسيحضره جميع الأمم السابقة واللاحقة من الملائكة والجن والإنس.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ۝١٠٤﴾ ولم يبق لمجيئه إلا أوقات معدودة.

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ عند حلول هذا اليوم واجتماع الناس فيه سيكونون مدهوشين ساكتين لا يتكلم أحد منهم بكلمة إلا إذا أذن الله تعالى لأحد في الكلام.

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥﴾ الناس يوم القيامة فريقان، سيكون الأشقياء في جنب، والسعداء في جنب آخر، وسيميز الله سبحانه وتعالى بعضهم من بعض.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن مصير الأشقياء والسعداء، فالأشقياء سيكون مصيرهم إلى النار.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ولن يخرجوا من النار أبداً، خالدين فيها مخلدين.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أراد بذلك غير ما شاء ربك من أنواع العذاب الذي سيعذبون به من العقارب والحيات والزمهرير وغير ذلك، علاوة على الخلود.

وليس المراد به أن الله سبحانه وتعالى استثنى ذلك من الخلود، وأنهم سيعذبون مدة، ثم يخرجون كما تزعمه بعض الفرق، والاستثناء هنا بمعنى غير.

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾وسيعذبهم بما أراد من أنواع العذاب ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ [النبأ].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى عن حال المؤمنين بأنه سيدخلهم الجنة خالدين فيها أبداً، وأن ذلك غير ما قد شاء من النعيم الذي سيزيدهم فيه؛ والمراد أنه سيعطيهم غير الخلود من التكريم والتعظيم والرضوان والنعيم الزائد على ما يستحقون، وليس المراد بالاستثناء أنه سيدخلهم ثم يخرجهم من الجنة، بل المراد به ما ذكرنا من النعيم الزائد على الخلود.

﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ يعني غير منقطع.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ فلا تظن يا محمد أنت وأصحابك أن المشركين على حق، ولا يدخل الشك في قلبك من ذلك، فليسوا على الحق، واقطع أنهم أهل باطل وضلال.

﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ ولا دليل لهم ولا حجة على عبادتهم ودينهم، وإنما يفعلون فعل آبائهم، فاسألهم يا محمد أن يأتوك بدليل يدل على أنهم على الحق إما بدليل حسي ملموس ومشاهد كالخلق والرزق، أو حجة يأتون بها من السماء إما وحي أو نحوه؟ ولن يأتوك بذلك أبداً.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ١٠٩﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه سيوفي هؤلاء المشركين نصيبهم من العذاب الذي استحقوه من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه قد أرسل موسى، وأنزل معه التوراة شاهدة بصدق نبوته، وأن ناساً آمنوا به، وآخرون كفروا وتمردوا عليه.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لولا أن الله سبحانه وتعالى قد حكم، وقد سبق في علمه وحكمته أنه سيؤخر الحساب والحكم بالحق إلى يوم القيامة- لحكم بين هؤلاء المختلفين في التوراة في الدنيا، ولعذب الكافرين، وأثاب المؤمنين فيها، غير أن حكمته قد اقتضت ألا يحكم بينهم إلا في الآخرة.

والكلمة التي سبقت من الله سبحانه وتعالى هي وعده بأن يحكم بين الناس يوم القيامة.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ١١٠﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى عن المشركين بأنهم في شك من يوم القيامة، وأنه سيبعثهم ويحاسبهم فيه.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١١﴾ أكد الله سبحانه وتعالى على نبيه ﷺ أنه سيوفي الناس جميعاً أعمالهم، المؤمنين منهم

والمشركين والكافرين، وسيوفيهم جزاء أعمالهم يوم القيامة، لا ينقص من ذلك شيئاً، وأخبر أنه عالم بأعمالهم لا يخفى عليه منها شيء، حتى خواطر قلوبهم، وما أضمروه في صدورهم، وكل حركة وسكون فالله سبحانه وتعالى عالم بها، وسيجازي على كل صغير وكبير.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ عندما لم يستجب المشركون للنبي ﷺ، ورفضوا أن يؤمنوا له اصطدم ﷺ في نفسه، وتحطمت معنوياته، فذكر الله سبحانه وتعالى له قصص الأنبياء السابقين، وما جرى لهم مع أممهم، وأخبره أنه سيجازي المشركين وسيعذبهم بذنوبهم، وأنه سيوفيهم أعمالهم، كل ذلك تسلية للنبي ﷺ، ورفعاً لمعنوياته في الدعوة إلى الإسلام، وأمره بالاستقامة على ما هو عليه من الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وإلى دين الحق والتوحيد ورفض الشرك هو ومن معه من المؤمنين، وأمره ألا يفتر عن ذلك أو يتهاون.

﴿وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ لا تتجاوزوا حدود الله سبحانه وتعالى. التزموا أوامره فلا تأتوا بشيء من عند أنفسكم، أو تنقصوا شيئاً مما أمركم به، فهو عالم بأعمالكم، ومطلع عليها، وسيجازيكم عليها، ولو كان ذلك أنت يا محمد فسيجازيك، فليس بين الله وبين أحد من خلقه هوادة.

والمراد بـ «لا تطغوا»: لا تزيدوا وتتجاوزوا.

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولا تميلوا إلى المشركين ودينهم أي ميل حتى ولو كان ميلاً يسيراً، واثبتوا على دينكم الحق الذي أنزله الله سبحانه وتعالى.

﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ فإذا ركنتم إليهم فسيعذبكم الله سبحانه وتعالى في النار، ولن يكون لكم مخرج من ذلك، ولن تنفعكم شفاعة أحد عنده.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيهﷺ أولاً بالاستقامة على دينه، والثبات على دعوته، وعدم الركون إلى الذين كفروا، ثم أمره بإقامة الصلاة، وجعل لذلك وقتاً معلوماً؛ فجعل وقت ذلك طرفي النهار، فالطرف الأول من طلوع الفجر إلى وقت الظهيرة، والطرف الثاني من الظهيرة إلى غروب الشمس، وقد أمرنا في الطرف الأول من النهار بصلاة الفجر، وفي الطرف الثاني بصلاة الظهر وصلاة العصر، والمراد بزلف الليل: الساعات القريبة من النهار وهي أول ساعات الليل؛ فأمرنا بإقامة صلاة المغرب والعشاء في هذا الوقت، فهذه هي الصلوات الخمس التي أمر الله سبحانه وتعالى عباده بإقامتها.

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وأراد بالحسنات الصلوات الخمس هذه، فهي تكفر السيئات التي هي الصغائر من الخطأ والنسيان والزلات التي تكون من المؤمنين.

﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴿١١٤﴾﴾ هذه الأوامر التي أمر الله سبحانه وتعالى بها نبيهﷺ من الاستقامة وإقامة الصلاة سيذكر بها ويتعظ ويعمل بها الذين تنفع فيهم الذكرى وهم المؤمنون.

﴿وَاصْبِرْ﴾ على أذى قومك يا محمد وكفرهم واستهزائهم بك.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴿١١٥﴾﴾ فسيثيبك الله سبحانه وتعالى، ولن يضيع عليه شيء من عملك أو يفوته.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية عن حال علماء الأمم السابقة بأنهم كانوا لا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر.

وأولو البقية هم العلماء وحملة الدين، وقد استثنى الله سبحانه وتعالى القليل منهم فهم على خلاف من ذكر.

ولو كانوا ينهون عن المنكر لاستمر الهدى والصلاح في الناس، ولما انخرطوا في الفساد والمعاصي والكفر.

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴿١١٦﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى عن كبار القوم وأثريائهم ووجهائهم بأنهم يتبعون زينة الحياة الدنيا والترف واللهو في الباطل، وأخبر أن فعلهم هذا جريمة يستحقون عليها العذاب.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴿١١٧﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يعذب أهل قرية فعلوا المعاصي وبينهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وما فعله بأولئك القوم الذين كذبوا أنبياءهم فإنما كان حين أطبق أهل تلك القرى جميعاً على الظلم والفساد والمنكر.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه لو شاء لجعل البشر جميعاً على دين واحد، ولأجبرهم على الهدى جميعاً، ولكن مشيئته لم تقتض ذلك، وإنما أوكل ذلك إلى اختيار البشر ومشيئتهم، وذلك لما يترتب على ذلك من الثواب والعقاب، إذ لو كان ذلك جبراً وإكراهاً لما استحقوا ثواباً ولا عقاباً؛ لأن الثواب لا يكون إلا على الأعمال الاختيارية.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴿١١٨﴾﴾ ولا بد أن يقع الاختلاف فيما بين الناس.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ وهم أهل الحق أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يقع الاختلاف فيما بينهم.

﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي لأجل الاختلاف، والمراد به التكليف والاختيار؛ لأنه الذي يؤدي إلى الاختلاف، فما داموا مختارين فلا بد أن يقع الاختلاف فيما بينهم؛ لأنه لا بد أن ينقسم الناس ويختار كل منهم طريقاً غير طريق الآخر.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴿١١٩﴾﴾ فقد سبق في علمه أن أناساً سيختارون الكفر، ويموتون عليه، وأنه لن يكون كذلك إلا إذا خلاهم واختيارهم، وأنه لو كان الإيمان والكفر فعل الله سبحانه وتعالى

لبطل التكليف، ولكان ظلماً أن يدخلهم النار، ولكانت التكاليف عبثاً، قال تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ۝١٠﴾ [البلد]، فقد خلق الإنسان وجعله مختاراً وأخبره بطريق الخير وطريق الشر، يختار أيهما شاء، فإن سلك طريق الخير استحق الجنة، وإن سلك طريق الشر أدخله النار.

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ الغرض من قص الله سبحانه وتعالىٰ لنبيه ﷺ أخبار الأنبياء، وما لاقوه من أممهم- أن يقوي عزيمة نبيه ﷺ، ويثبت قلبه، ويشد من عزيمته؛ فإنه إذا عرف ﷺ ما جرىٰ علىٰ الأنبياء قبله- هان عليه تكذيب قومه له، واستهزاؤهم به.

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ جاءك يا محمد في هذه السورة النبأ الحق من أخبار المكذبين بأنبيائهم، وما لحقهم بسبب ذلك.

﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ۝١٢٠﴾ وجاءك في هذه السورة أيضاً موعظة لمن اتعظ بها، وذكرىٰ لمن اعتبر بما قص الله سبحانه وتعالىٰ من أخبارهم.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ۝١٢١ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ۝١٢٢﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأن يقول لمشركي قريش عندما رفضوا الإيمان: اعملوا واجهدوا جهدكم في باطلكم واعملوا طاقتكم من الحيل في الكيد للدين، ونصب العداوة للإسلام والمسلمين، وأخبرهم يا محمد أنك ستواصل تبليغ دعوتك إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ونشر دينه، وأنك ناصب للعداوة لآلهتهم، ومكذب بها وحرب لها، وقل لهم بأن ينتظروا العاقبة لمن ستكون.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأن علم الغيب مختص به وحده، وأنه لن يطلع عليه أحداً من خلقه، وذلك من أخبار النصر والفرج للإسلام والمسلمين، ومتىٰ سيكون، ومتىٰ سينزل غضبه علىٰ الكافرين؟

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ فأمر الدنيا كله مرجعه إلى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة؛ أراد بذلك الجزاء والحساب.

﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ خصه بالعبادة وحده وتوكل عليه في جميع أمورك.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴿١٢٣﴾﴾ فلا يضيع عليه شيء من أعمال المسلمين، ولا من أعمال المشركين، وسيجازيهم جميعاً، ولن يضيع عليه شيء من ذلك.

تمت سورة هود
ويليها سورة يوسف

❁❁❁❁❁

سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ۝١﴾ أشار الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ أن هذه السورة اشتملت علىٰ الحجج الواضحة والقاطعة، وأن الحق فيها واضح.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ۝٢﴾ جعلناه علىٰ لغتكم لأجل أن تفهموه وتعقلوا معانيه، وتعلموا أنه حجة وآية من آيات الله سبحانه وتعالىٰ، ولو كان أعجمياً لما حصل ذلك.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ﴾ نقص عليك يا محمد في هذه السورة أحسن القصص بما اشتملت عليه من العظات والعبر والذكرىٰ بوحي ننزله عليك.

﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ۝٣﴾ فلم تكن يا محمد تعلم شيئاً مما قصصناه عليك قبل نزول الوحي، وكنت غافلاً عنها وعن الدين.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ۝٤﴾ هذه هي بداية القصص التي وعد الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن يقصها عليه.

أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ برؤيا يوسف وقصها علىٰ أبيه يعقوب؛ فأخبره أن تأويل هذه الرؤيا بأنه سيكون له شرف وعز وشأن عظيم في المستقبل، وأن الله سبحانه وتعالىٰ سيصطفيه للنبوة من بين إخوته.

﴿قَالَ يَابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ خاف يعقوب -عندما سمع رؤيا ولده هذه- من إخوته أن يدبروا له المكايد، ويعملوا الحيل؛ ليفتكوا به ويؤذوه غيرة وحسداً فأمره ألا يقصها عليهم.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ۝٥﴾ وأن الشيطان سيغري إخوته عليه، فليحذر أن يعلموا برؤياه.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ عندما سمع يعقوب بهذه الرؤيا أخبره بأن الله سبحانه وتعالىٰ سوف يجتبيه ويختاره لرسالته.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وسيمنحك علم تأويل الأحلام، وكان ذلك العلم قد راج في ذلك العصر وازدهر، فكانت معجزة يوسف عليه السلام هي علم تفسير الأحلام، كما أن البلاغة والفصاحة كانت معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ سيتم نعمته عليك بالنبوة، وستشمل هذه النعمة بقية آل يعقوب عندما يكون منهم نبي.

﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾ لعلمه تعالىٰ وحكمته لا يختار لنبوته ويصطفي لرسالته إلا من علم بأنه أهل لحملها وللقيام بأعبائها، وقد اقتضت حكمته أن تكون يا يوسف موضع حملها.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ۝٧﴾ سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن قصة يوسف وما جرىٰ عليه؛ فأوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه سيقصها عليه، وأخبره أن فيها دروساً وعبراً عظيمة لمن عرفها واعتبر بما فيها.

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٨﴾ كان إخوة يوسف عليه السلام يتشاورون فيما بينهم في شأن يوسف وأخيه، وحب أبيهم الزائد لهما، وكانا علىٰ أم، وبقية الإخوة علىٰ أم، وكانوا عشرة إخوة قد بلغوا مبالغ الرجال، بينما يوسف وأخوه لا زالا صغيرين، فحسدهما إخوتهما لما يرونه من حب أبيهما الزائد لهما، وقالوا: كيف يؤثرهما علينا، ونحن الذين نتحمل مسؤولية أبينا، ونتصدىٰ لمشاكله، وكل الأمور تُعْصَبُ بنا، فنحن أحق منهما بحب أبينا، واتهموا أباهم بأنه بعمله هذا قد أخطأ في حقهم، وأساء إليهم إساءة كبيرة، وحكموا عليه بالضلال بسبب ذلك، وهم يعلمون أن هذا الأمر من الأمور الجبلية التي لا يلام المرء عليها؛ لأن ميول

القلب ليس تحت سيطرة المرء لأنه أمر خارج عن إرادته وقدرته.

فما دام الأمر هكذا فما ذنب يعقوب إن مال إلى حب يوسف أكثر من بقية إخوته، والشيء الذي يلام المرء عليه إنما هو عندما يفضل المرء أحد أبنائه في العطاء ونحوه، وهذا الشيء لم يكن من نبي الله يعقوب.

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ بعد أن تحاوروا في شأن يوسف- توصلوا إلى أنه لا حل لمشكلتهم هذه إلا أن يقتلوه، أو يخرجوه إلى أرض بعيدة يضيع فيها عن أبيه.

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ ورأوا أنه لا حل لهم إلا أحد ذينك الأمرين لينفردوا بحب أبيهم، فلا يشغله أحد عنهم.

﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ۝٩﴾ أماني يتمنونها وهي أن يقتلوا يوسف، ويتخلصوا منه، ثم بعد ذلك يتوبون إلى الله سبحانه وتعالى من ذنبهم هذا، ويستغفرونه، وينتهي كل شيء.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ قيل إن قائل ذلك كان كبيرهم واسمه يهودا، وقد أشار عليهم بعدم قتله، وأنه يكفيهم أن يلقوا به في البئر وسيكفون شره.

﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ۝١٠﴾ أشار عليهم أخوهم الأكبر بذلك، وأنهم إذا ألقوه في البئر فسوف يأتي بعض المسافرين ليستقوا فيأخذوه معهم، وأخبرهم أن هذه هي الطريقة الأحسن للتخلص منه.

﴿قَالُوا يَاأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ۝١١﴾ بعد أن ناقشوا خطتهم وما دبروه، بدأوا في تنفيذها؛ فذهبوا إلى أبيهم يتوددون إليه ليأذن لهم في أخذه معهم، وأنهم لا يريدون له إلا الخير، وتعليمه فنون القتال والصيد، وأن يتفسح ويتنزه معهم فقط.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴿١٢﴾﴾ وأن يخرج للعب والنزهة والرعي، وعاهدوا أباهم على أنهم سيحفظونه، وسيحرسونه من كل مكروه إن أذن لهم في أخذه معهم.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ لا أتحمل غيابه عن ناظري، ويصيبني الحزن كلما فارقني.

﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴿١٤﴾﴾ يطمئنون أباهم قائلين كيف أن الذئب يستطيع أن يأكله، ونحن مجموعة من الرجال الأشداء، وأنه إن فعل وأكله كنا خاسرين لرجولتنا كرامتنا.

والعصبة المراد بها المجموعة من الرجال الذين تعقد بهم عزائم الأمور والمهمات الصعبة.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ تم لهم ما أرادوا فأذن لهم أبوهم في أخذ يوسف، واتفقوا على أن يجعلوه في جوف البئر؛ فذهبوا به، ونفذوا مخططهم.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴿١٥﴾﴾ أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه يوسف وهو في جوف البئر بأنه سوف يقابل إخوته بعد زمان، وسوف يخبرهم بصنيعهم معه في وقت يكونون قد نسوا ذلك، وفعلاً قد تحقق ذلك بعد فترة من الزمان عندما أصبح عزيزاً لمصر، وأتوا إليه للميرة، فقال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴿٨٩﴾﴾ قال لهم ذلك وهم لا يعلمون أنه يوسف.

نزل عليه جبريل بالوحي وهو في جوف البئر ليطمئنه فيها، ويؤنس وحشته لصغر سنه.

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ۝١٦ قَالُوا يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ۝١٧﴾ قالوا لأبيهم: نحن نعلم أنك لن تصدق ما نقول لك؛ لأنك متهم لنا فيه، وحبك الشديد له سيمنعك من تصديقنا.

كانوا قد تركوا يوسف في جوف البئر، وعادوا إلى أبيهم وهم يبكون، أو يتظاهرون بالبكاء، فقالوا له: إنا ذهبنا في سباق وتركنا يوسف عند متاعنا ليحفظه حتى نعود من السباق فلما عدنا من السباق وجدنا الذئب قد أكله ولم يترك منه إلا ثوبه.

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ لطخوا ثوبه بالدم ليموهوا على أبيهم ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وفعلاً لم يصدقهم أبوهم، وعلم أنهم يكذبون عليه، وأن أنفسهم قد زينت لهم المكر بأخيهم.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ولكن نبي الله يعقوب عليه السلام بالرغم من شدة مصيبته عزم على أن يصبر على مصيبته هذه، وعزم على ألا يعاتبهم أو يناقشهم أو يظهر جزعه لهم ولا لغيرهم، وأن يحتسب مصيبته هذه عند الله تعالى.

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ۝١٨﴾ وعزم على أن يستعين بالله سبحانه وتعالى، ويطلب منه العون على الصبر على هذه المصيبة، وأن يتوكل عليه في ذلك.

وكان قد علم أنهم لم يقتلوه، ولكنه لم يعرف ما فعلتهم تلك التي فعلوها به.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ ثم أخبرنا الله سبحانه وتعالى كيف تم إخراج يوسف وإنقاذه، وأن رجلاً من المسافرين جاء يستقي لأهل القافلة ماءً.

﴿قَالَ يَابُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾ فأخرج الدلو من البئر؛ فإذا بداخله غلام قد تشبث به.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ وكان إخوة يوسف على مقربة من البئر يراقبون ماذا سيجري، فما إن استخرج هؤلاء القوم أخاهم حتى حضروا مدعين أنه غلام آبق عليهم، وأنهم يبحثون عنه، وأن عادته الهرب، وقد عزموا على بيعه، وقد خاف يوسف على نفسه من القتل إن أخبرهم بحقيقة الأمر، وكان عزمهم على بيعه خفية لئلا يفتضحوا وينكشف أمرهم عند أبيهم يعقوب، ولكن الله سبحانه وتعالى مطلع على أعمالهم هذه، وسيجازيهم عليها.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ باعوه من أهل القافلة وقبلوا فيه أقل الأثمان؛ لأنهم يريدون أن يتخلصوا منه بأي طريقة، وأما هؤلاء الذين اشتروه فقد باعوه في مصر من عزيزها (الوزير).

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ كان عزيز مصر هذا عقيماً لا ينجب، وقد ألقى الله في قلبه حب هذا الغلام حباً شديداً؛ فاستبشر بهذا الغلام وفرح، فأوصى زوجته أن تعتني به، وأن تحسن تربيته ليكون ولداً لهم.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد أراد ليوسف المكانة العظيمة، وأن هذه بدايتها، فقد هيأ له عزيز مصر ليعيش حياة الملوك، ويكون له المكانة العليا.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وقد هيأ الله سبحانه وتعالى له ذلك، وأراد أن يمكنه في الأرض؛ لأجل أمر عظيم قد أراده له من النبوة والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وليعلمه تأويل الأحلام وتفسيرها التي هي من خصائص الأنبياء.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أمراً هيأ له أسبابه، وقد أراد إخوته أن يضيعوه، ولكن أمر الله وإرادته فوق مشيئتهم، وقد دبر الله سبحانه وتعالى له هذا التدبير ليدفع عنه شرهم وأذاهم، وقد علم أنه لو مكث بينهم لما سلم من شرهم ومكايدهم،

فجعل له في مكرهم هذا به المصلحة والخير الكثير.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴿٢٢﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن يوسف لما بلغ مبالغ الرجال، واكتمل عقله ولعل ذلك بعد أن بلغ أربعين سنة؛ لأن العقل في هذه المرحلة يكون في كامل قواه، وأصبح عنده مدارك لجميع الأمور، وتقديرٌ لكل المواقف، ويكون قد اكتسب الخبرة، وخاض في تجارب الحياة، فقد أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه أعطاه النبوة عندما بلغ هذا السن، وزاده من العلم والحكمة، وأن عطاءه هذا يكون للمحسنين من خلقه، يعطيهم إياه في الدنيا جزاءً علىٰ إخلاصهم له، وإحسانهم إليه، وهذا ثواب الدنيا غير ما أعده لهم من ثواب الآخرة.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ يحكي الله سبحانه وتعالىٰ كيف أن يوسف عليه السلام استحق ما أعطاه من النبوة والعلم والحكمة، وكيف استطاع أن يقمع هوىٰ نفسه، ويكبح جماحها، ويقهر غريزته الشهوانية، وقد صفي الجو له مع امرأة العزيز، وأصبحا وحديهما لا يعلم بخلوتهما أحد.

﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ والأبواب مغلقة عليهما، وقد تزينت، ولبست أفخر ثياب الزينة، وطلبت منه أن يقضي وطره فيها، وهيأت نفسها له، فرد عليها: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ فأجابها بالرفض لما تطلب منه، واستعاذ بالله من ذلك، واستنكر علىٰ نفسه كيف يخون سيده، ومالك أمره، وولي نعمته، فيقع علىٰ زوجته، وقد آواه وأحسن تربيته وأكرمه؟

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴿٢٣﴾﴾ وأخبرها بأنه إذا حقق لها رغبتها فسيكون ظالماً لسيده، والظالم لن يفلح أبداً.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ صممت أشد التصميم علىٰ أن يواقعها ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وقد مال إليها بطبيعته وغريزته، ولكن خوفه من الله سبحانه وتعالىٰ منعه، ولولا هذا المانع من الله سبحانه وتعالىٰ لواقعها، وهذا المانع الذي

من الله المراد به الهدى والنور، ومعرفة الله سبحانه وتعالى التي استحكمت في قلبه، وأما العزم والنية على مواقعتها فلم يكن ذلك منه، وحاشا نبي الله أن يطيع هوى نفسه وشهواتها، فخوف الله سبحانه وتعالى، والهيبة منه قد غلب شهوته وطغى عليها.

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴿٢٤﴾﴾ صرف الله سبحانه وتعالى عن نبيه السوء، وفعل الفاحشة بتوفيقه ولطفه؛ لأنه كان من عباده المخلصين له، فلا مدخل للشيطان إلى قلبه.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ جريا مسرعين نحو الباب: هو هارب، وهي تلحق به.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ فتح الباب فإذا بالسيد في وجهيهما.

﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٢٥﴾﴾ لفقت العذر هذا بسرعة، وحاكت حيلتها هذه قبل أن يتكلم العزيز بكلمة واحدة، وطلبت منه أن يلحق بيوسف أشد العقاب جزاءً على ما أراد منها.

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ لم يجد يوسف بداً من الدفاع عن نفسه؛ فأخبر سيده بأنها هي التي قد دعته إلى نفسها، وأرادت النيل منه، ولم يجد بداً من أن يبرئ نفسه، وإلا فهو لا يريد أن يسيء إليها أي إساءة، ولا أن يلحقها أي فضيحة بسببه، ولكنه لم يجد بداً من ذلك ليرفع عن نفسه التهمة.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه كان هناك شخص يسمع ما جرى، وكان من أهل امرأة العزيز، فقال: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴿٢٧﴾﴾ هذا الرجل الذي كان يسمع ما جرى اقترح على السيد حلاً لمعرفة الصادق منهما؛ فأخبره بأن ينظر في قميص يوسف؛ فإن كان قد من مقدمه فهي صادقة في دعواها عليه، وإن كان قد من دبر فهي كاذبة.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ اقتنع العزيز بما قاله هذا الشاهد، ونظر إلى القميص؛ فإذا بالقميص مقدود من الدبر فعرف براءة يوسف، وأن امرأته قد مكرت به.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾، هذا من كلام العزيز يتوسل به إلى يوسف بأن يستر على امرأته، ويسكت عما جرى لأجل الستر.

﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ أمرها زوجها بأن تعترف بخطئها، وأن تندم عليه، وتستغفر من جريمتها هذه.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ تسربت أخبار امرأة العزيز، وما جرى لها مع غلامها، وصارت حديث نساء المدينة يذمونها بذلك، ويلقون اللوم عليها، ويعيبون عليها صنيعها، وكيف أنها تتنازل إلى أن تلاحق عبداً من عبيدها؟! وكيف أن منصبها يسمح لها بذلك حتى تهيم بحب عبد هذا الحب؟!

وكان جمال يوسف وحسنه قد بلغ هؤلاء النسوة، واشتهر بينهن؛ فأردن بذلك أيضاً أن يستدرجنها لتخرجه إليهن ليروا جماله هذا، وكان هؤلاء النسوة من أزواج أعيان مصر ووجهائها.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ عرفت امرأة العزيز بما يردنه، فعزمت على أن تدعوهن إليها في احتفال تقيمه لهن.

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أعدت لهن مكاناً يجلسن ويتناولن فيه الطعام والفاكهة.

﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وأعطت كل امرأة سكيناً لتستعين به على تقطيع الفاكهة، وعندها أمرت يوسف بالخروج إليهن.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ عندما خرج عليهن، ورأين جماله وحسنه الخارق تعاظمن ما رأين من الحسن والجمال الزائد على ما ألفوه وعرفوه، وبقين مبهوتات

والسكاكين والفواكه في أيديهن فأخذن يقطعن أيديهن بالسكاكين وهن لا يشعرن من عظيم ما رأينه من جمال يوسف عليه السلام.

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴿٣١﴾﴾ أنكرت النسوة أن يكون هذا الغلام من جنس البشر- لما رأين من حسنه وجماله فقلن ليس هذا من البشر وما هو إلا ملك كريم من ملائكة السماء.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ عندها تكلمت امرأة العزيز رافعة لرأسها مخاطبة لهؤلاء النسوة بأن هذا الذي قطعتن أيديكن لرؤيته هو ذلك الذي راودته عن نفسه، وقد امتنع ورفض أن يجيبني لما أطلبه منه.

﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴿٣٢﴾﴾ وأخبرتهن بأنها سوف تحاول فيه حتى يطاوعها على ما طلبت منه، وستعمل الحيل لذلك وستهدده على ذلك بالسجن إن رفض، وستلحق به الهوان والذلة إن لم يجبها إلى ما تريد.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴿٣٣﴾﴾ عندما علم بما همت النسوة بفعله دعا الله سبحانه وتعالى أن يصرف عنه كيدهن ومكرهن، وأن يعينه على الامتناع منهن، واختار السجن على أن يجيبهن إلى ما يردن.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿٣٤﴾﴾ وقد حاولت النسوة فيه دون جدوى، وأصابهن اليأس والإحباط من موافقته على إشباع رغباتهن.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴿٣٥﴾﴾ ثم ترجح للعزيز وزوجته، ومن في جانبهما إدخاله السجن ليستروا هذه الفضيحة، وذلك بعد أن رأوا الدلالات الواضحة على براءته، وعلموا علماً قاطعاً أنه لم يكن شيء

من ذلك الذي يتهمونه به.

وهؤلاء النسوة عندما رأوا جمال يوسف هذا رفعوا اللوم عنها، وعذروها في شغفها به واقترحن عليه السجن إن لم يجبها إلى ما تطلب.

وقد مكث في السجن سبع سنين مع براءته.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى بالأحداث التي حصلت معه في السجن، وما فيها من الدروس والعبر لمن عرفها.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ۝٣٦﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه دخل مع يوسف السجن رجلان، وتعرفا عليه، وعرفا فضله وصلاحه، وتوسما فيه معرفة ما عندهما؛ فقصا رؤياهما عليه.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ فأجابهما يوسف بأن تفسير رؤياهما عنده، وأن الله سبحانه وتعالى قد علمه ذلك العلم ووهبه إياه، وأخبرهما أن عنده تفسير وتأويل كل طعام يرونه في رؤياهما، وأن عنده تأويله، وسيتحقق على حسب ما يفسره بالدقة؛ لأن هذا العلم من عند الله سبحانه وتعالى قد وهبه إياه، وليس تخميناً من عند نفسه.

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ۝٣٧ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ۝٣٨﴾ أخبرهما يوسف بأن الله سبحانه وتعالى الذي علمه هذا العلم بسبب أنه ترك ملة الشرك والكفر، وعبادة الأصنام، واتبع دين آبائه الذي هو دين التوحيد، وعبادة الله سبحانه وتعالى وحده، وأخبرهما أن هذا من فضل الله عليهم أن أعطاهم العلم والحكمة والنبوة، وأن هذا الفضل على الناس أيضاً؛ لأنهم سيأخذون

منهم، ويهتدون بهم إن أرادوا ذلك، غير أنهم لم يشكروا الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ هذه النعمة وظلوا علىٰ ضلالهم وكفرهم.

وقبل أن يفسر لهما رؤياهما بدأ أولاً بوعظهما ودعوتهما إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وإلىٰ عبادته وحده، وقد جعل ذلك فرصة لدعوتهما.

﴿يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ۝٣٩﴾ سألهما هذا السؤال ليبعثهما علىٰ التفكر والنظر بعقولهما، وليدخل معرفة الله سبحانه وتعالىٰ في قلوبهما بطريقة مقنعة لهما.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ثم أخبرهما عن هذه الآلهة التي يعبدونها بأنها لا تستحق الإلهية؛ لأنها ليست إلا أحجاراً صنعت بأيديكم، ثم اختلقتم لها الأسماء ونَعَتُّمُوها بالآلهة.

يناقشهم ويحاججهم بالبراهين العقلية التي توصلهم إلىٰ معرفة أنها لا تحمل شيئاً من صفات الإلهية، ولا دليل علىٰ إلهيتها.

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أمر السماوات والأرض، وتدبير شؤونهما كل ذلك إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، لا يشاركه في ذلك أحد.

﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وقد أمركم بعبادته وحده، وألا تعبدوا معه أحداً.

﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ وأخبر أن عبادته وحده هو الدين الحق الثابت بالأدلة الواضحة، والبراهين القاطعة، وأنه وحده هو الذي يستحق العبادة دون تلك الآلهة التي لا حجة قائمة علىٰ صحة إلهيتها.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ۝٤٠﴾ ولكن أكثر الناس معرضون عن الدين الحق فهم يخبطون في الجهل والضلال واتباع الأهواء.

﴿يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ بعد أن دعاهما إلىٰ دين التوحيد وبين لهما بالأدلة

القاطعة أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يستحق الإلهية وحده، وأن العبادة ليست إلا له، لا يشاركه فيها أحد، بدأ يفسر لهما أحلامهما، وأخبر الذي رأى أنه يعصر الخمر أنه سوف يخرج من السجن، وسيرجع إلى عمله عند الملك، وكان ساقي الملك من قبل.

وأما الآخر فأخبره بأنه سوف يخرج من السجن، ولكنه سيصلب، وستأكل الطير من رأسه.

وكان السبب في سجنهما أنهما اتُّهما بالمؤامرة على قتل الملك والإطاحة به، ولكن الأول ثبتت براءته، وأما الآخر فبقيت التهمة لابسة له، وصلب جزاءً على ذلك.

﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴿٤١﴾﴾ أخبرهما نبي الله يوسف عليه السلام أن ما قصه لهما من تأويل رؤياهما أمر محتوم، ولا بد أن يقع، وأكد لهما أنه لن يكون غير ذلك.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أوصى يوسف عليه السلام ذلك الذي ستثبت براءته بأن يخبر الملك بأمر سجنه، وأن ينظر في قضيته، ويحقق فيها.

﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ وقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن ينسى هذا الناجي وصية يوسف له لحكمة ومصلحة أرادها الله لنبيه يوسف عليه السلام.

﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴿٤٢﴾﴾ ولم يتذكر تلك الوصية إلا بعد عدة سنين قيل إنها -والله أعلم- سبع سنين، والبضع من الثلاثة إلى التسعة.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴿٤٣﴾﴾ كان ملك مصر قد رأى هذه الرؤيا، وصار في حيرة شديدة منها؛ فدعا جميع كبار دولته وعلماءها ليبحثوا له عن تفسير لها، ولكن أحداً لم يستطع جوابا لتأويلها، مع أن العصر ذلك قد اشتهر فيه علم تفسير الأحلام، وكثر علماء ذلك الفن.

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ قال هؤلاء: إن هذا ليس إلا من الأحلام العابرة، وأن رؤيا الملك هذه خليط من الأحلام قد اجتمعت في حلم واحد، ولو كانت رؤيا حقيقية لفسروها، وأما الأحلام فلا شيء عندهم فيها.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ عند ذلك تذكر ذلك السجين الذي خرج من السجن تفسير يوسف لرؤياه، وتذكر وصيته تلك، وأخبر الملك أن تفسير ما يطلب عنده؛ فليرسله ليأتي إليه بتفسير رؤياه هذه.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ فأرسله الملك إلى يوسف ليسأله عن هذه الرؤيا، ونعته بالصديق؛ لأنه عليه السلام اشتهر بالصدق في جميع أقواله وفيما يفسره من تأويل الرؤيا.

﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ قص على يوسف الرؤيا؛ فأخبره بأنه سيأتيهم سبع سنوات يكثر فيها الخير من المطر، وستنزل فيها بركات السماء، وأمرهم بأن يزرعوا الأرض في هذه المدة.

﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ وأمره أن يخبر الملك بأن يأمر الناس عند حصادهم أن يتركوا ما حصدوه داخل سنابله؛ لأجل أن لا تأكله السوس.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ ولا يخرجوا من السنابل إلا ما احتاجوه لأكلهم.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ وأخبره بأنه سيأتي بعد هذه السنين المخصبة سبع سنين مجدبة يستهلكون فيها ما قد خزنوه في تلك السنين المخصبة.

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ وأخبره بأنهم سيأكلون ما ادخروه من الحبوب في تلك السنين.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ وأخبره

بأن بعد السنين الشداد سيكون عام يكثر فيه الخير، وتكثر فيه الثمار؛ فيأكل الناس فيها، ويعصرون ما جنوه من ثمارهم.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ۝٥٠﴾ عندما رجع الساقي من عند يوسف وقص على الملك ما سمعه منه- عرف أن من فسر رؤياه هذه بمكان من العلم والحكمة؛ فأمر بمن يأتيه به من السجن.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ۝٥٠﴾ رفض نبي الله يوسف عليه السلام أن يصحبهم إلى الملك، وامتنع من الخروج من السجن إلى أن ينظر الملك في قضيته التي سجن من أجلها، وتظهر براءته أمام الناس، فلم يرد أن يخرج وعرضه لا يزال ملطخاً بتهمة هو بريء منها، وكان العزيز وزوجته قد سجنوه بتهمة الاعتداء على امرأة العزيز.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ وفعلاً استدعى الملك امرأة العزيز وصويحباتها اللاتي قطعن أيديهن، وحقق معهن في هذه القضية، وثبتت براءة يوسف.

﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ۝٥١﴾ اعترفت امرأة العزيز ببراءته، وأقرت بأنها هي التي أجرمت في حقه.

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ۝٥٢﴾ هذا من كلام يوسف عليه السلام وذلك ليبرر أمام الملك سبب رفضه للخروج من السجن حتى يستدعي النسوة ويسألهن، وأخبرهم أن ذلك أيضاً ليعلم العزيز أنه لم يخنه في امرأته عند غيابه عنها.

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ۝٥٣﴾ هذا من كلام يوسف أيضاً فبعد أن قص للملك سبب امتناعه عن

الخروج من السجن أخبره أن تبرئته لنفسه، ورفع التهمة عنها لا يعني أنه يزكي نفسه من الخطأ والزلل، فكل إنسان يخطئ، وقال: لا يعني ذلك أني معصوم من الخطأ والزلل، ولولا عفو الله سبحانه وتعالى ومغفرته لكنت هالكاً، وكان ذلك من تواضعه عليه السلام وشدة خوفه من الله سبحانه وتعالى؛ لأن المرء كلما زاد معرفة بالله سبحانه وتعالى زادت خشيته وخوفه منه.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ عندما عرف بأمر يوسف، وما جرى معه، وعدم استعجاله الخروج من السجن حتى تظهر براءته، علم حينئذ بزكاء نفسه وطهارتها وعفتها، وأنه صاحب علم ومعرفة، عند ذلك أمرهم بأن يأتوا به إليه ليكون من خواصه المقربين لديه وأهل مشورته.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴿٥٤﴾﴾ حضر يوسف عليه السلام عند الملك وجرى بينهما وجرى بينهما كلام فرأى الملك من عظمة يوسف ما ادهش لبه وعرف من قوة شخصيته وزكاء عقله وكمال فطنته وحسن علمه وحكمته وعظيم عفته وطهارة مظهره ومخبره وجمال طلعته وصدق لهجته وما عرف منه من حسن تدبيره وسياسته و..إلخ، قال له: لقد أصبحت يا يوسف اليوم عندنا ذا مكانة رفيعة ومنزلة جليلة وصرت ذا ثقة عندنا واطمأنت نفوسنا إليك ومالت بقلوبها عليك ثقة بك وبأمانتك الكبيرة.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴿٥٥﴾﴾ ولم يكن ذلك طمعاً منه إلى ما في خزائن الدولة، وإنما رحمة منه بالناس لما علم ما هم مقبلون عليه من القحط والشدة، ولعلمه أنه لن يستطيع أحد غيره أن يدير أمور معايشهم.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ وهذا تدبير من الله سبحانه وتعالى ليصل نبيه إلى ما وصل إليه من السلطان والولاية على أرض مصر.

﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أصبحت أرض مصر تحت قبضته وسيطرته.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴿٥٦﴾﴾ وتمكينه هذا التمكين رحمة من الله سبحانه وتعالى له، وعطاءٌ منه جل وعلا في الدنيا جزاءً على إيمانه وتقواه وصبره.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴿٥٧﴾﴾ إن أجر الآخرة وثوابها أعظم وأفضل من أجر الدنيا وثوابها إلا أن الله تعالى لا يعطي أجر الآخرة إلا لأهل الإيمان والتقوى.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ عندما حلت سنو القحط والشدة، وأصابت الناس المجاعة والجوع- أصبح الناس يقصدون أرض مصر بغية الزاد والطعام، كونها أرض غنية، ولما قد سمعوه عن عدالة حاكمها، ورحمته بالناس.

﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴿٥٨﴾﴾ وقد اضطر الجوع آل يعقوب للسفر إلى أرض مصر لجلب ما يسدون به جوعتهم، فدخل إخوة يوسف على عزيز مصر وهم لا يعلمون من هو- يشكون إليه حالهم، وما وصلوا إليه من الحاجة ويرجون منه أن يزودهم بما يسد جوعهم، ومن يعولون؛ فعرفهم يوسف.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ عندما قضى لهم حاجتهم، وأوقر جمالهم بالطعام.

﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴿٥٩﴾﴾ كان قد سألهم عن حالهم وحال أهاليهم، فأمرهم أنهم إذا عادوا للميرة فليأتوا بأخيهم الذي من أبيهم ليعطيه حصته؛ لأنه كان لا يعطي إلا من يأتي إليه بنفسه، وعرّض عليهم بكرمه، وحسن ضيافته لهم؛ ليغريهم بالعودة إليه مرة أخرى مع أخيهم.

﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴿٦٠﴾﴾ ثم أقنعهم أنهم إن لم يأتوا بأخيهم الحادي عشر معهم فإنه يحرمهم من الكيل وحذرهم من قربه وذلك لأن نفسه قد هاجت شوقاً لرؤية أخيه، وعواطفه قد جاشت إليه، فمنعهم من العودة إلا معه، وإلا فلن يكيل لهم، ويمكن أن يكون طلبه هذا بأمر من الله تعالى زيادة محنة نبيه يعقوب عليه السلام.

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴿٦١﴾﴾ وأخبروه بأن أباهم قد فقد أخاً له من أمه قبل زمان، وكان مولعاً به أشد الولع، وأن أباهم يتسلى بأخيهم، ويهون عليه مصابه، ويصعب عليه فراقه خوفاً أن يصيبه ما أصاب أخاه، وأخبروه بأنهم سوف يحاولون عسى أن تنفع فيه محاولتهم.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴿٦٢﴾﴾ أمر غلمانه بأن يردوا ثمن طعامهم بين أمتعتهم، وكان الثمن هذا جلوداً مدبوغة، يدفعونها مقابل الطعام هذا.

وكان غرضه من ذلك أنهم إذا رأوا ثمن بضاعتهم قد رد إليهم سيكون ذلك دافعاً لهم إلى الرجوع مرة أخرى.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَاأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴿٦٣﴾﴾ أخبروا أباهم بأن ملك مصر قد رفض أن يكيل لهم مرة أخرى إن لم يكن أخوهم برفقتهم، وعاهدوه بأنهم سيحفظونه وسيحرسونه فلا يصيبه أي مكروه.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴿٦٤﴾﴾ أخبرهم يعقوب بأنه لن يثق فيهم، وكيف يثق بهم وقد فعلوا ما فعلوا بأخيهم يوسف من قبل؟ وأخبرهم أن ثقته بهم قد سلبت.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ عندما نقضوا أحمال جمالهم ونزلوها- فوجئوا بثمن بضاعتهم بين متاعهم قد رد إليهم.

﴿قَالُوا يَاأَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ يلحون على أبيهم، فحينما رأوا ثمن بضاعتهم قد رد إليهم، رأوا أن ذلك سيكون فرصة لموافقته، وحافزاً له في إرساله معهم، وذهبوا إليه ليعلموه بذلك، وماذا يريد بعد كل هذا؟ وبعد ما رأى من كرم الملك ما قد رأى؟ واعتقدوا أن رؤية أبيهم لذلك سوف يزيده اطمئناناً، مما جعلهم يبشرونه بذلك، ويلحون عليه ذلك الإلحاح.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ وكذلك سيزودنا بما يسد جوعة أهلنا، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴿٦٥﴾﴾ ونعاهدك على حفظ أخينا، وأخبروه بأنهم سيزدادون كيل بعير إن هم أخذوه معهم، وكانوا عشرة إخوة فسيكون لهم حمل عشرة جمال، وإن أخذوه معهم سيصير لهم حمل أحد عشر بعيراً، وأطلعوا أباهم على ما رأوه من كرم هذا الملك، وأن ما ينفقه ليس شيئاً بالنسبة لكثرة ما في خزائنه من الأموال والمؤن.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ بالرغم من إلحاحهم الشديد عليه لكنه أصر على الامتناع والرفض إلا إن هم أعطوه العهود والمواثيق على حفظه ورده إليه إلا أن يمنع من ذلك مانع من عدو يتمكن منهم، أو نحو ذلك.

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴿٦٦﴾﴾ أشهد يعقوب على ذلك الله سبحانه وتعالى، وأخبر أولاده أن الله بينهم وبينه شاهد ورقيب. والوكيل: الشاهد.

﴿وَقَالَ يَابَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ كانوا أحد عشر رجلاً، فخاف عليهم من دخولهم مجتمعين، وأوصاهم بأن يتفرقوا عند دخولهم؛ فإذا حصل مكروه فلا يصيبهم جميعاً.

وأخبرهم أن هذا أخذٌ بالأسباب، وإلا فإن الله سبحانه وتعالى إن كان قد أراد بأحد سوءاً فلن يستطيع أحد أن يدفعه.

وقد قيل إن ذلك منه خوفاً عليهم من العين ومن الحساد؛ لأنهم كانوا أحد عشر شاباً عليهم الهيبة والجمال، وكمال الأجسام والقوة.

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴿٦٧﴾﴾ أخبر أولاده أن الخلق بيد الله سبحانه وتعالى، وكلهم تحت قبضته وقدرته يحكم فيهم كيفما شاء.

ويؤخذ من ذلك أنه ينبغي، ويجب على المرء أن يأخذ بالأسباب، ثم يتوكل على الله سبحانه وتعالى، وإلا كان مفرطاً ومقصراً كأن يتزود في سفره مثلاً بالزاد والماء، ويكون معه ما يكفيه في سفره، وأن يأمن في طريقه فلا يسير في طريق الخوف، ثم يتوكل على الله سبحانه وتعالى لا أن يكون صفر اليدين، ويزعم أنه متوكل على الله سبحانه وتعالى.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أخذوا بنصيحة أبيهم، وهم يعلمون أنها لن تدفع عنهم شيئاً قد أراده الله سبحانه وتعالى.

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ وكان ذلك لأجل غرض في نفس يعقوب خاف منه، وقد يكون منه خوفاً من العين أو من الحسد، والله أعلم.

﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن فعله هذا ووصيته لأولاده كان لشيء قد علمه الله تعالى إياه وأطلعه عليه، ويؤخذ من ذلك أنه يجب على المرء أن يأخذ في تدبير أموره بنصيحة العالم الناصح الشفيق.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ فلا ينبغي أن يزعم أحد ألا فائدة في فعل يعقوب ذلك.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ المراد أجلسه إلى جانبه.

﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أجلسه يوسف بجنبه وأسر إليه بأنه أخوه، وأنه ذلك الذي فقده أبوه بسبب صنيع إخوته، وطمأنه على نفسه وما وصل إليه من العز والشرف فلا يحزن بعد ذلك على أخيه، وكان الوحيد من بين إخوته على أمه.

وكان أول ما دخلوا عليه أجلسهم كل اثنين في جانب فبقي هذا وحيدا وكأنه تذكر أخاه يوسف، وأنه لو كان موجوداً لكان إلى جانبه، وظهرت عليه علامات الحزن؛ فأجلسه إلى جنبه، وحصل ما حصل.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ كال لهم الحب وأمر من يشده على البعير.

﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ وهي المكيال الذي يكتال به الحب أمر من يضعها بين متاع أخيه.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ۝٧٠﴾ عندما هموا بالرحيل نادى مناديه على أهل هذه القافلة: بأن توقفوا، ونعتهم بالسرقة.

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ۝٧١﴾ رجعوا إليهم يسألونهم: ما الذي ضاع عليكم وفقدتموه؟

﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ۝٧٢﴾ فأجابهم: بأن صواع الملك قد فُقِد، وأخبرهم هذا المنادي بأن من وجده فسيكون له جائزة عند الملك، وأنه كفيل على إعطائه جائزته.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ۝٧٣﴾ اندهشوا مما سمعوه، وأصابتهم الحيرة والاستنكار مما اتهموهم به، وخاصة أنهم قد عرفوا حالهم، وأنهم من أصل طيب، وأهل عز وشرف ودين، وعرفوا مروءتهم وشهامتهم، وأنهم منزهون عن السرقة ورذائل الأعمال، فكيف يتهمونهم مع كل هذا؟!

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ۝٧٤﴾ إذا ثبت وكان صواع الملك بين متاع أحدكم فماذا ستحكمون عليه؟

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ۝٧٥﴾ أخبروهم أن من وجدوا صواعهم بين متاعه فجزاؤه أن يكون عبداً لهم، وكان هذا حكم السارق في شريعة يعقوب عليه السلام، وأن من سرق يكون عبداً لمالك الشيء المسروق.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ فتش أولاً بين أمتعتهم، وترك متاع أخيه آخر شيء، ثم إنه فتش متاعه؛ فإذا بالصواع بينه، فأخذه عبداً جزاءً على ذلك.

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وهذه الحيلة كانت بتدبير من الله سبحانه وتعالى ليوسف، وذلك لأجل ألا يحكم على السارق بشريعة أهل مصر، وكونهم قد حكموا على أنفسهم سيكون مبرراً له عند الملك إذا سأله: لماذا لم يحكم فيه بشرع أهل مصر؟ لأن أحكامهم كانت أحكاماً جاهلية، ويوسف لا يريد ذلك.

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه ما ينبغي ليوسف أن يعاقب أخاه ويحكم عليه بحكم أهل مصر؛ لأنه ليس حكم الله سبحانه وتعالى.

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إلا إذا كان الله سبحانه وتعالى قد أذن له في ذلك، ولكنه قد أراد أن يحكم فيه بشريعة يعقوب الذي هو حكم الله جل وعلا.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴿٧٦﴾﴾ أثنى الله سبحانه وتعالى على نبيه يوسف عليه السلام بأنه رفع درجته بالعلم والحكمة وحسن تدبيره للأمور، ثم أثنى على نفسه بأنه بعلمه فوق كل عالم.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يريدون أن يرفعوا التهمة عن أنفسهم، ويلطخوا بها أخاهم وحده، فقالوا: ليس ببعيد عليه السرقة، فقد كان له أخ سارق وقد أشبهه، يريدون يوسف.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ ترك ذلك في نفسه، ولم يتكلم لهم بشيء؛ لأنه كان يريد ألا يكشف أمره لهم ذلك الوقت.

﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ كانوا إذا أرادوا أن يذموا شخصاً، قالوا: أنت شر مكاناً، ينسبون الشر للمكان والمراد صاحب المكان.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴿٧٧﴾﴾ يخاطبهم يوسف بأن اتهامهم ذلك لأخيهم باطل، وأنه كان من المفترض بهم أن يتأولوا لأخيهم بالخير، ويستروا عليه.

﴿قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴿٧٨﴾﴾ تذكّروا عند ذلك العهد الذي أخذه عليهم أبوهم، وكيف

سيرجعون إليه من دونه، وقد حصل ما حصل؛ فسألوا الملك عندها بأن يفتديه بأحدهم، ويتركه لأبيه الحزين، وذكروا له قصة أبيهم وتعلقه الشديد به بدلاً عن أخيه الذي فقده قبله، والذي لا يزال يبكي على فراقه بالرغم من أنه قد مضى على ذلك حقبة من الزمان، وقصوا عليه ما كان منهم من العهد الذي قطعوه له في رد أخيهم هذا له، وتوددوا إليه بذلك، وأنهم لم يروا منه إلا الإحسان والكرم، ويطمعون في إحسانه إليهم برد أخيهم.

وكان ذلك ابتلاءً من الله سبحانه وتعالى لنبيه يعقوب عليه السلام ليزيده من الثواب جزاءً على صبره، وإلا فإن يوسف عليه السلام كان يستطيع أن يرسل إلى أبيه فيخبره بحقيقة وجوده، وما صار له من العز والشرف والملك غير أن الله سبحانه وتعالى لم يكن قد أذن له في ذلك.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴿٧٩﴾﴾ استنكر يوسف عليه السلام عليهم؛ فكيف يأخذ البريء مكان المتهم؟ وأن هذا لو صار لكان ظلماً.

وقوله: ﴿مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا﴾ بدلاً من: «مَنْ سرق»؛ لأنه لم يكن قد سرق في الحقيقة، ولو أنه قال كذلك لكان كاذباً.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ﴾ بعد أن حاولوا بشتى الوسائل في استنقاذه، فلم يجد ذلك، وأصابهم اليأس، ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ انحازوا في جانب يتشاورون فيما بينهم.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ وبخهم أخوهم الأكبر كيف يستطيعون أن يعودوا من دونه، وقد كان منهم ما كان من العهود والمواثيق، وقبل ذلك قد أفجعتموه بأخيه يوسف؟ وكيف ستقابلونه؟ وبأي وجه ستقابلونه؟ وكيف سيصدقكم وقد كان منكم ما كان؟ وأخبرهم أنه لن يصدقهم أبداً.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴿٨٠﴾﴾ وأخبرهم أنه لن يبرح أرض مصر حتى يأذن له أبوه في الرجوع، أو يفتح الله له باب الفرج من عنده.

﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَاأَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ يدبرهم أخوهم الأكبر، ويشير عليهم بأن يرجعوا إلى أبيهم ويخبروه بحقيقة ما جرى.

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴿٨١﴾﴾ وأمرهم بأن يخبروه بأنهم قد عاهدوه، ولم يكونوا يعلمون ماذا سيكون في علم الله سبحانه وتعالى، وأشار عليهم بأن يخبروه بأنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما أخذوه ولما عاهدوه.

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ ويشير عليهم أيضاً بأنه إذا لم يصدقهم، فليقولوا له أن يسأل أهل مصر عن حقيقة ذلك الذي جرى.

﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴿٨٢﴾﴾ وأن يسأل القافلة التي معهم، وسيخبرونه بواقع ما حصل، وأمرهم أن يقسموا له على ذلك، وأنه الذي قد جرى.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ بعد أن أقبلوا على أبيهم، وقصوا عليه ما جرى- أصابه الحزن الشديد، واتهمهم بأن أنفسهم قد زينت لهم أمرا في شأن أخيهم كما فعلوه من قبل بأخيهم يوسف.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وعزم على أن يصبر على مصابه هذا، وعلى ترك عقابهم ولومهم.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴿٨٣﴾﴾ وأوكل أمره هذا إلى الله سبحانه وتعالى، ودعاه بأن يرد إليه يوسف وأخاه.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ اعتزل في جانب بعيداً عن أولاده، ولم يظهر حزنه أمامهم؛ لأنه عزم على ألا يرى حزنه أحد غير الله سبحانه وتعالى، وكان في عزلته يشكوا حاله ومصيبته إليه وحده بعيداً عنهم.

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴿٨٤﴾﴾ من كثرة حزنه، وتوالي

المصائب عليه عميت عيناه، وأراد بكظيم: أنه قد امتلأ حزناً في داخله.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴿٨٥﴾﴾ يوبخون أباهم على عدم نسيانه ليوسف، وقد مضى على فراقه فترة من الزمان نحوٌ من أربعين سنة، وإلى متى سيبكي؟ وهل سيظل يبكي عليه إلى أن يبلغ نهاية العمر، ويصير أبيض الرأس واللحية، أو إلى أن يأتي عليه الموت؟ ويلومونه على بكائه وحزنه ذلك الذي لم ينته.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴿٨٦﴾﴾ كانوا قد سمعوه وهو يبكي، ثم وبخوه على ذلك؛ فأخبرهم أنه لا يشكوا إليهم، وأنه إنما يشكوا حزنه إلى الله سبحانه وتعالى وحده، وأخبرهم أنه لا يريد أن يسمعوا شكواه وبكاءه، وأخبرهم أنه يعلم أن الله سبحانه وتعالى يبتلي عباده الصالحين لحكمة ومصلحة يعلمها لهم في ذلك، وهي إرادة أن يثيبهم على ذلك، وأخبرهم أيضاً أنه يعلم أن يوسف لا يزال حياً في مكان ما، وأن أمر اختفائه لحكمة ومصلحة يعلمها الله سبحانه وتعالى، وأن هذه البلوى لا بد أن يكون بعدها فرج، وأخبرهم أنه منتظر لهذا الفرج.

وكان ذلك لأمارات قد تقدمت تدل على ذلك من الرؤيا التي كان رآها يوسف، وهي أن الله سبحانه وتعالى سيختاره ويصطفيه، ويجعله نبياً، ويرفع ذكره في الأرض، ويعلوا شأنه، وأن أباه وإخوته سوف يسجدون له حينئذ.

﴿يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ عندما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بشأن أخيهم، وأنه قد سرق، وقد أخذ جزاءً على ذلك- أمرهم أن يرجعوا إلى أرض مصر فيسألوا عن يوسف وأخيه، وليكن ذلك ببصيرة وتروٍّ دون أن يحس بهم أحد، وكأنه كان قد أحس أن الفرج قد قرب، وأنه سيكون من أرض مصر.

والتحسس والتجسس بمعنى واحد.

﴿وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ والروح هو الفرج؛ لأن المؤمن إذا أصابه شر فلا ينقطع رجاؤه في الله، ويجعل أمله فيه وفي ثوابه، وأما الكافر فإذا أصابه الشر فإنه يصيبه اليأس والقنوط غير مؤمل في الله سبحانه وتعالى ولا راجياً لرحمته وفرجه ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت].

فينبغي على المؤمن عندما تصيبه مصيبة، أو تحل به شدة ألا يصيبه اليأس، ويجب عليه أن يكون راجياً لله سبحانه وتعالى، ومؤملاً فيه لكشف بليته ومحنته، يأمرهم أبوهم بذلك، ونهاهم أن يذهبوا وهم على يأس مما يرجوه أبوهم ويؤمله، وفي ظنهم أن يوسف قد مات، وقد فني قبل زمان، وأن ما يكون من أبيهم ليس إلا أوهاما.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ عادوا إلى مصر، ودخلوا على عزيزها يشكون عليه حالهم، وما هم فيه من الجدب والجوع والفاقة، وأن بضاعتهم التي يريدون أن يبتاعوا بها الحب كاسدة ورديئة، ولا رغبة لأحد فيها، وكانت بضاعتهم الجلود.

﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ورجوا منه أن يكرمهم، وأن يمن عليهم بإحسانه، ويكيل لهم غير ناظر إلى رداءة بضاعتهم، وأن يجعل ذلك صدقة، وخاصة أنهم قد عرفوا عنه ما عرفوا من الكرم والسخاء وعدم رده لمن يأتيه.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ فحينئذ أذن الله سبحانه وتعالى لنبيه يوسف أن يظهر حقيقة أمره، ويكشفها لإخوته؛ فبدأ بتوبيخهم على ما فعلوا به وبأخيه، وأن الوقت قد حان لمحنة يعقوب أن تنقضي، وأنه قد استحق ثواب الله سبحانه وتعالى على صبره.

﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ عندما وبخهم على ما فعلوا أمعنوا النظر إلى

وجهه وتحققوا في ملامحه، وعرفوا أنه هو؛ فسألوه حينئذٍ وكان استفهامهم هذا لتقرير شيء قد ثبت عندهم حقيقته، وكانوا من قبل لا يفكرون في ذلك، ولا يتخيلون أن يكون يوسف هو عزيز مصر، ولو كانوا يرون نفس ملامح يوسف فيه، وأنه من المستحيل أن يكون قد بلغ تلك المرتبة حتى يفكروا في ذلك، وغاية ما في الأمر أن يكونوا قد شبهوه بأنه من بيت نبوة؛ لما يرون من الصفات التي يحملها من الإيمان والكرم، وحسن المعاملة التي لا يحملها إلا ذوو الأقدار الرفيعة.

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ قد أنعم الله سبحانه وتعالى علينا بالصحة والسلامة والاجتماع.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴿٩٠﴾﴾ يخبرهم بما وصل إليه من الكرامة والرفعة والعزة وقال لهم: إن ذلك حصل بسبب الصبر وتحري تقوى الله، والله تعالى لا يضيع أجر المحسنين، غير أن الله سبحانه وتعالى لعلمه وحكمته قد يدخر أجر بعضهم ليوم القيامة لحكمة ومصلحة يعلمها، وهي أنه لو أعطاه أجره في الدنيا؛ لكان ذلك سبباً في بعده عن الله سبحانه وتعالى وهلاكه، وخسارته للآخرة.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴿٩١﴾﴾ أيقنوا حينئذ أن الله سبحانه وتعالى قد فضله، ورفعه عليهم، واعترفوا له بخطأ ما صنعوه به.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أخبرهم بأنه لن يؤاخذهم على ما فعلوه ولن يعاقبهم أو يذكر ذنبهم.

﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴿٩٢﴾﴾ أمرهم أن يستغفروا الله سبحانه وتعالى، وأن يتوبوا إليه، وسيتوب عليهم.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴿٩٣﴾﴾ وأمرهم أن يذهبوا بقميصه إلى أبيه؛ فإذا شمه فسيعود إليه بصره، كرامة من الله سبحانه وتعالى لنبيه، وأمرهم أيضاً أن يأتوا بأهلهم وجميع ما معهم ليسكنوا عنده في أرض مصر.

وكانت هذه المرحلة هي بداية استيطان بني إسرائيل لأرض مصر، ولم يخرجوا منها إلا في عهد موسى عليه السلام، فقد دخلوا مصر وهم اثنا عشر رجلاً وأبوهم يعقوب عليه السلام وأولادهم، ولم يخرجوا إلا في عهد موسى عليه السلام وهم ألوف.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴿٩٤﴾﴾ فما إن خرجت العير من أرض مصر حتى بدأ يعقوب يشتم رائحة يوسف وخاطب من عنده بأنه لولا أنكم ستتهمونني بالخرف والهلوسة لأقسمت أن يوسف على مقربة منا.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴿٩٥﴾﴾ فقال الحاضرون عنده: تالله إنك لتتكلم في غير الصواب وتتحدث عن أوهام وخيالات ناتجة عن هيامك بحب يوسف وغرامك به، وفي الحقيقة فقد كان في كامل قواه العقلية، وكان كلامه عن ثقة ويقين؛ لإلهام قد ألهمه الله سبحانه وتعالى إياه.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ فما إن اشتم ريح القميص ذلك حتى عاد عليه بصره.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴿٩٦﴾﴾ وكانوا يتهمونه بالخرف والهلوسة، وأنه قد رجع إلى ضلاله القديم في يوسف حين كان يقول لهم إنه ما زال حياً، وأن يبحثوا عنه، وأنه سيعود؛ فعند ذلك زجرهم على ما كانوا يرمونه به، ووبخهم على ما كانوا يرمونه به من الضلال في حديثه عن يوسف، وأن يوسف لا يزال حياً ولم يصدقوه، فها هو كلامي ذلك يتحقق؛ فانظروا لقد عاد يوسف، وها هو من يبشرنا به، وأخبرهم أن الله سبحانه وتعالى هو الذي كان يلهمه ذلك.

﴿قَالُوا يَاأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴿٩٧﴾﴾ ندموا على ما فرط منهم فيه، وفي أخيهم يوسف، وطلبوا من أبيهم أن يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى فيطلب لهم المغفرة.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴿٩٨﴾﴾ ووعدهم بأنه سوف يستغفر لهم، كأنه أجَّل ذلك إلىٰ وقت يكون الدعاء فيه مستجاباً، ولم يسأل الله سبحانه وتعالىٰ وقت طلبهم كما ذكرت الآية.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ عندما خرجوا من الشام مع أهاليهم إلىٰ أرض مصر، ودخلوا علىٰ يوسف- ضم أبويه إليه، وقبَّلهما وأجلسهما بجنبه، وكأن ذلك الاستقبال كان خارج أرض مصر يدل علىٰ ذلك سياق الكلام بعده.

﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴿٩٩﴾﴾ بعد أن استقبلهم ذلك الاستقبال- سار بهم نحو مصر.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أجلسهما علىٰ السرير، ثم سجد له إخوته بعد ذلك، وسجودهم ذلك كان لله سبحانه وتعالىٰ، وقد كان في شريعتهم جواز التحية بالسجود لله سبحانه وتعالىٰ.

﴿وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ تذكر حينها رؤياه تلك التي رآها أيام صباه، وأشار إلىٰ أبيه كيف أن تلك الرؤيا قد تحققت.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ يعدد يوسف عليه السلام نعم الله سبحانه وتعالىٰ عليه وعلىٰ أبيه وإخوته.

﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴿١٠٠﴾﴾ وأن الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي دبر هذه الأمور بلطفه، وهيأ الأسباب إلىٰ أن ساقهم إليه، وأصبحوا علىٰ هذه الحال.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴿١٠١﴾﴾ بعد أن عدد النعم التي أنعم بها الله سبحانه وتعالىٰ عليه وعلىٰ أهله- حمد الله سبحانه وتعالىٰ، وأثنىٰ عليه؛ لما أنعم عليهم، ثم دعا الله سبحانه وتعالىٰ أن يميته صالحاً، وأن يدخله في مداخل الصالحين.

وهذه هي نهاية قصته وما كان من شأنه، ختمها الله سبحانه وتعالى بخاتمة كل إنسان التي لا بد منها وهي الموت، وفي هذا من البديع ما لا يخفى على أهل البلاغة والفصاحة، ثم انتقل بعد ذلك إلى خطاب النبي ﷺ فقال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ بأن هذه القصة من أخبار الغيب التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى وحده قد أطلعه على تفاصيلها.

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴿١٠٢﴾﴾ أخبره أن هذه قصته وشأنه مع إخوته قد أوحيناها إليك؛ فلم تكن عندهم وقت تدبير حيلتهم تلك، وما اجتمعوا عليه في شأنه حتى تعرف أخبارهم، وما جرى لهم لولا أننا أعلمناك.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴿١٠٣﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن الكثرة من الناس لن يؤمنوا عندما تقص عليهم هذه القصة، مع أنهم كانوا يعلمون أنه كان أمياً لم يختلط بأهل الكتاب، ولم يتعلم عندهم أو يجالسهم حتى يزعموا أنهم نقلوا ذلك إليه، أو سمعه عنهم من التوراة والإنجيل، ويعلمون أيضاً أن هذه السورة نزلت عليه وهو لا يزال في مكة بين ظهرانيهم، ولم يكن قد حصل منه أي لقاء بهم.

أخبره الله سبحانه وتعالى بأنهم لن يؤمنوا؛ وكان ﷺ شديد الحرص على إيمان قومه أشد الحرص مع امتناعهم أشد الامتناع؛ فأخبره الله سبحانه وتعالى بذلك ليقطع طمعه في إيمانهم، ولا يتعب نفسه في ملاحقتهم، وأنهم سيموتون على كفرهم وضلالهم.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴿١٠٤﴾﴾ فلم تطلب يا محمد منهم الأجر على تبليغهم الدعوة، وتعليمهم معالم دينهم حتى يمتنعوا من الاستجابة والإيمان بك، هروباً من الأجر.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴿١٠٥﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بكثرة الآيات الدالة عليه التي يمر المشركون عليها ويشاهدونها؛ فلا يعتبرون بها، ولا يتفكرون فيها، وإنما يعرضون عنها.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴿١٠٦﴾﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالى نبيه بأن أكثرهم إذا آمن وصدق بالله فإنه يشرك معه غيره.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴿١٠٧﴾﴾ استنكر الله سبحانه وتعالى عليهم عدم إيمانهم، فهل هم آمنون من نزول عذابه بهم لإصرارهم على الكفر والتكذيب، أو هل هم آمنون من حلول الساعة بهم؟ فمن شأن العاقل أن يتجنب المخاوف ويبتعد عنها.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ أخبرهم يا محمد بأن سبيلك التي تسلكها وطريقتك هي الدعوة إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وحده، ونبذ الأصنام.

﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ وأنا على حجة واضحة وأدلة قاطعة تدل على صدق دعوتي هذه التي أدعوكم إليها، وليس كشأن المشركين في ادعائهم إلهية الأصنام التي يعبدونها؛ فلا حجة لهم ولا برهان، وإنما يعبدون كما يعبد آباؤهم من دون حجة ولا دليل.

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿١٠٨﴾﴾ تعالى الله أن يكون معه شريك، وأخبرهم يا محمد أنك لا تشرك به أحداً في عبادتك.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ استنكرت قريش أن يكون من البشر نبياً، وزعموا أنه لا يصح أن يكون إلا من الملائكة أو من جنس غير جنس البشر، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ أن يخبرهم بأن الرسل الذين قد أرسلهم قبله ليسوا إلا رجالاً.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن هؤلاء الرسل الذين قد أرسلهم من أهل القرىٰ وليسوا من البوادي، وذلك لأن أهل القرىٰ أفطن وأزكىٰ وأكمل عقولاً، وذو أحلام وأخلاق حسنة وتجارب في الأمور، علىٰ الخلاف مما عليه أهل البوادي؛ لأنهم يكونون في عزلة عن الناس غير مختلطين بهم، مما يؤدي ذلك إلىٰ صلابة في طبائعهم وخشونة، وغلظة فيهم.

﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ استنكر الله سبحانه وتعالىٰ عليهم ذلك وعدم إيمانهم، وكيف ذلك وقد ساروا في الأرض، ورأوا آثار أهل تلك القرىٰ الذين كانوا قبلهم كقوم عاد وقوم ثمود وقوم لوط وغيرهم؛ فلماذا لم يعتبروا بهم، وقد رأوا ما حل بهم بسبب تكذيبهم بأنبيائهم؟ والاستفهام للتقرير، أي: بلىٰ قد ساروا في الأرض، وقد رأوا ما حل بمن كان قبلهم.

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ فهي أفضل للمؤمنين من دار الدنيا، يحث الله سبحانه وتعالىٰ عباده علىٰ النظر والتفكر بعقولهم، واستنكر عليهم كيف يختارون الدنيا الفانية علىٰ الأخرىٰ الباقية.

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن النصر والفرج لا يأتي لأنبيائه ورسله إلا بعد أن يبتليهم ويمحصهم، ويختبر صبرهم، وأن ذلك لا يأتيهم إلا عندما يصيبهم اليأس والإحباط من إيمان قومهم، وإصرارهم علىٰ التكذيب.

﴿فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ ثم ينزل الله سبحانه وتعالىٰ عذابه بعد ذلك علىٰ المشركين وينجي أنبياءه ومن آمن معهم.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه يقص هذه القصص، وفيها العبر والمواعظ للذين يتفكرون بعقولهم، ويتركون اتباع شهواتهم وأهوائهم.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ وأن هذا القرآن ليس كسائر الكلام والأساطير، بل كلام حق وصدق، وحجته ظاهرة فيه؛ فمن سمعه شهد بصدقه، وعلم بعده عن الكذب والافتراء.

﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولكنه مصدق لما سبقه من التوراة والإنجيل، ولم يأت بشيء مخالف مما يدل على أنه حق وصدق مثلهما، وأنه أنزل من عند الله سبحانه وتعالى.

ويؤيد ذلك أن النبي ﷺ جاء بالقرآن وهو في مكة، ولم يكن قد اختلط بأهل الكتاب، ولا عرفهم ولا جالسهم، وكان هذا القرآن الذي جاء بهم مصدقاً لكتبهم، وموافقاً لها في جملة شرائعها وأحكامها، فكيف يستطيع أن يأتي بكتاب من عنده يكون موافقاً للكتب السماوية.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وفيه تفصيل وتبيين لجميع مهمات أمور الدين وأصوله، وتفصيل كيفية بداية الخلق والرزق، ومكان العرش قبل خلق السماوات والأرض، وكيفية خلق آدم وحواء، وسجود الملائكة، وهو نفس ما هو موجود في التوراة والإنجيل.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ فهو يدل على الطريق المستقيم، ويهدي الناس إلى طريق الحق والصواب الموصل إلى السلامة والنجاة، وفيه أيضاً منافع المؤمنين، فما من شيء شرعه الله سبحانه وتعالى لهم إلا وكان فيه مصلحة عظيمة لهم، ولو كانوا لا يعلمونها، وكم قد اكتشف العلم الحديث من هذه النعم والمنافع والمصالح؛ فمثلاً شرع الوضوء والصلاة فقد اكتشف الطب أن في ذلك وقاية من كثير من الأمراض والصلاة في حركاتها رياضة للجسم، وأن المرء لو ترك تلك الحركات لأصيب بكثير من الأمراض، وأن في الجسم خلايا لا تتفتح إلا إذا تحرك الجسم تلك الحركات المخصوصة.

يحكى أن مريضاً مسلماً دخل على بعض الأطباء في بلاد كفرية يعالج أذنه من ألم كان فيها؛ فكشف على أذنه عدة أيام، وكان كلما كشف الطبيب على أذنه وجدها نظيفة، فيتعجب من ذلك؛ لأنه خلاف ما كان يراه في أهل بلاده كونهم كفاراً فسأله عن ذلك، فأخبره بأن ديننا الإسلام قد أمرنا بذلك، وأن نغسلها عدة مرات في اليوم؛ فعرف هذا الطبيب أن هذا الدين هو دين الرحمة للناس، والمراعاة لمصالحهم، وأسلم من حينه.

تمت سورة يوسف

ويليها سورة الرعد

❁❁❁❁❁

سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ يشير الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ تفخيم هذه السورة لما اشتملت عليه من الآيات الواضحة المنيرة التي فيها البينات والحجج التي تكشف عن صدقه، وفيها حث علىٰ النظر والتفكر في هذه الآيات، واستنكار علىٰ من أعرض عنها.

﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأن القرآن الذي أنزله إليه هو الكلام الحق والصدق، وليس خرافات وأساطير الأولين كما يزعمون.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ①﴾ فقد عرف المشركون ذلك، وأنه حق وصدق، ولكنهم استكبروا عن الإيمان به، وأعرضوا وتمردوا.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ يثير الله سبحانه وتعالىٰ عقول المشركين وغيرهم إلىٰ أن ينظروا إلىٰ السماء فوقهم، فمن الذي رفعها وأمسكها بغير عمد تعتمد عليه، وأخبرهم أنه قد جعلها آية ظاهرة أمام أعينهم معلقة فوقهم بكواكبها ونجومها بلا مانع يمنعها من السقوط إلا قدرته سبحانه، فلماذا لا يؤمنون بالذي رفعها وأمسكها من السقوط بقدرته؟

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ خلق الله سبحانه وتعالىٰ السماوات والأرض ثم سيطر عليها بقدرته، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وحثهم أيضاً أن ينظروا إلىٰ الشمس والقمر هاتين الآيتين الظاهرتين أمامهم، وفي مجيئهما وذهابهما علىٰ تقدير في دقة متناهية لا تختلف عن مسارها ذلك منذ أن خلق الله السماوات والأرض وستظل كذلك إلىٰ يوم القيامة.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ وأخبرهم أن تدبير أمور السماوات والأرض وما بينهما من الخلق والرزق والحياة والموت والمطر والرياح وإخراج الثمر والنبات بقدرته وعلمه وحكمته.

﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ۝٢﴾ فصل الله سبحانه وتعالىٰ لنا هذه الآيات الدالة عليه وعلىٰ جلاله وعظيم قدرته- لنؤمن به وبلقائه وحسابه وجزائه، وقد نزلت هذه السورة في مكة بين المشركين يخاطبهم الله سبحانه وتعالىٰ بها لإعراضهم وتمردهم عليه.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ وأخبرهم أنه وحده هو الذي مد لهم الأرض وبسطها، وهيئها لمعيشتهم؛ فما بالهم يعدلون عن عبادته إلىٰ عبادة الأصنام التي لا قدرة لها أصلاً؟

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ وهو الذي خلق علىٰ ظهرها الجبال الراسية لتثبيتها وإمساكها، وهو الذي أنزل لهم المطر، وأنبت لهم به أنواع الثمار.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ وهو الذي جعل ظلمة الليل تغطي ضوء النهار؛ يدعوهم الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ أن يتفكروا ويتدبروا في ذلك، ليرجعوا عن غيرهم وشركهم إلىٰ فاطر السماوات والأرض.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ۝٣﴾ أخبرهم الله سبحانه وتعالىٰ أن فيما ذكر آيات ودلالات واضحة علىٰ قدرته وعظمته وسيطرته علىٰ ما في السماوات والأرض لمن تفكر ونظر وتأمل.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ﴾ أراد بذلك البساتين والأراضي الزراعية المتنوعة في زراعتها.

﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ وأخبر أن فيها بساتين النخل، وأن هذه النخل صنوان وغير صنوان، فالصنوان هي النخلة التي يخرج من عرضها نخلة مثلها متفرعة منها، وغير الصنوان هي المفردة التي لم يخرج منها ذلك.

﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ وأخبر أن هذه البساتين المتنوعة تسقىٰ بنفس الماء.

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ ومع ذلك تتفاوت في طعمها ونكهاتها، يبعث الله سبحانه وتعالى هنا المشركين على النظر والتفكر في هذه القطع المتجاورات، وأصناف ما تنبته وتخرجه من الثمار المختلفة والمتنوعة، من هو الذي خالف بينها، وميز بين طعومها وألوانها، مع أنها تسقى بماء واحد وفي تربة واحدة؟

يستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم لماذا لا يؤمنون بمن ظهرت فيهم آيات قدرته وآيات علمه ورحمته.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴿٤﴾﴾ فانظروا وتفكروا في ذلك، وستعرفون أنه لا بد من قدرة قادر عليم تدبر هذه الأشياء، وتخالف بينها في منتهى الدقة والإحكام.

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه إذا تعجب من شيء فليتعجب من قول المشركين: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ لأنهم قد استنكروا كيف يصح أن يردهم الله سبحانه وتعالى أحياءً وقد صاروا تراباً؟

ففي قولهم هذا العجب العجاب؛ فكيف لا يستطيع أن يعيد خلقهم!! وقد خلق ودبر أمر السماوات والأرض، وأخرج البساتين والثمار المختلفة والمتنوعة مع أنها تنبت في تراب واحد وتسقى من ماء واحد؟ أليس من قدر على ذلك، وقدر على خلقهم من العدم قادر على أن يعيد خلقهم مرة أخرى؟ فإن كنت متعجباً يا محمد من شيء فتعجب من زعمهم هذا الكاذب، واتهامهم لله جل وعلا بالعجز وعدم القدرة، مع ما كان منه من كل تلك الآيات الظاهرة الدالة على عظيم قدرته.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء الذين يتهمون الله سبحانه وتعالى، ويشككون في قدرته- هم الذين كفروا بربهم.

﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ۝٥﴾ فبكفرهم بربهم سيغل الله سبحانه وتعالى أيديهم إلى أعناقهم، ويسحب بهم إلى نار جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ كان المشركون يسألون النبي ﷺ أن يعجل لهم بالعذاب الذي توعدهم به على كفرهم.

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ يُعَجِّب الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ من شأنهم هذا كيف يستعجلون نزول العذاب بهم وهم يرون ما حل بالأمم السابقة التي كانت قبلهم ويرون آثارهم؟ وأن هذا من سخافة عقولهم، والمثلات هي: الأيام التي مثل الله سبحانه وتعالى بهؤلاء القوم وعذبهم فيها وعاقبهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ۝٦﴾ أراد الله سبحانه وتعالى بذلك أنه لا يعجل بإنزال عقوبته وعذابه بالعصاة مع أنهم قد استحقوا ذلك، بل يمهلهم ويؤخرهم، والتمهيل هو المراد بالمغفرة في الآية.

وأخبر أنه إذا أنزل عقابه بأحد فإن عقابه يكون شديداً؛ فليحذروه وليحذروا عقابه.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يقول الكافرون لو كان محمد نبياً كما يزعم لكان معه آية من ربه تشهد بصدقه، مع أنه قد جاءهم بالآيات الواضحة والحجج القاطعة غير أنهم لم يعتدوا بها وكذبوها وعاندوا مع معرفتهم بصحة ما جاء به واستيقانهم لصحة ما جاءهم به من الآيات.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه لم يرسله إلا لينذرهم فقط، وليس عليه أن يأتيهم بما يقترحون من الآيات، فلن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ۝٧﴾ وأخبره بأنه يبعث لكل قوم من يهديهم إلى طريق الحق، وأنت يا محمد هادي هذه الأمة لو كانوا يهتدون.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى المشركين عن مدى علمه وإحاطته بكل شيء، وأنه يختص بعلم ما تحمله كل أنثى، وما تغيض أرحامهن وتنقصه، وما يزداد فيها من الحمل، وهل بواحد أم باثنين أم بأكثر من ذلك؟ وهل هو حي أم ميت؟

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ۝٨﴾ وكل شيء خلقه الله سبحانه وتعالى فهو على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من غير زيادة ولا نقصان.

فانظر لخلق الإنسان، وما في تركيبه من الإتقان العجيب، والتناسق البديع، وكونه على هذه الهيئة والصفة والتقدير، فانظر إلى خلق اليدين مثلاً لو أن اليد كانت أطول مما هي عليه كيف يكون حاله ومنظره، وأيضاً لو كانت أصغر مما هي عليه كيف يكون منظره وحاله؟

وكيف لو كان بغير شعر كيف يكون منظره؟ وكيف لو كانت عيناه على شكل غير شكلها هذا؟ وكذلك كل عضو في الإنسان إذا نظرت وتفكرت فيه ستجد أنه قد وضع في مكانه المحدد له في منتهى الدقة، وعلى حسب ما يوافق احتياجه في المعيشة.

وكذلك انظر إلى هذا الماء الذي ينزل من السماء فهو على قدر حاجة الإنسان والحيوان، وعلى حسب ما يوافق مصالحهم، فلو أنه زاد على ذلك القدر لكانت الفيضانات، ولتخربت أمور المعيشة، وانظر إلى الشمس لو أنها ارتفعت قليلاً عن مكانها لتجمدت الكائنات وليبست، ولو أنها نزلت قليلاً لأحرقت من في الأرض، وأنها قد وضعت على حسب احتياج الإنسان ومصلحته، وكل ما في السماوات والأرض على هذا المنوال، وعلى قدر الحكمة والمصلحة.

ولو تتبعنا ذلك هنا وبسطناه على حسب ما يقتضيه المقام لاحتجنا إلى الكثير من الكلام.

وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر]، يعني علىٰ قدر الحكمة والمصلحة لا كما يزعم أولئك أن المعنىٰ أن كل فعل يفعله الإنسان فهو من الله سبحانه وتعالىٰ عن ذلك علواً كبيراً.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ والتقدير ذلك فهو صادر من العالم بما يحتاجه خلقه في الحاضر والمستقبل.

والغيب هو: الأمور المستقبلة والخفية الغائبة عن الحس، والشهادة هو: الأمر الحاضر المحسوس.

﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ فهو الكبير بعلمه المحيط بكل شيء، وبقدرته المسيطرة علىٰ كل شيء، وعظمته وملكه للسماوات والأرض وما بينهما، لا تلحقه صفات النقص من التعب والإعياء، ولا الموت والفناء، ولا العجز ولا الجهل، فهذا هو معنىٰ الكبير المتعالي.

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ فهو عالم بهم جميعاً، ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ وعالم بمن هو متخف في ظلمة الليل، ومن هو سائر في وضح النهار لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك.

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ يخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن ضعف الإنسان، وأنه لا حول له ولا قوة حتىٰ في نفسه، وأنه قد امتن علىٰ كل إنسان بأن سخر له ملائكة يحفظونه من المهالك والمصائب، ولا يرتفعون إلا عند حلول أجله.

والمراد أن للإنسان حافظاً يحفظه وهذا الحافظ هو من أمره تعالىٰ، فقد يكون ملائكة وقد يكون غير ذلك، فكل شيء بقدرته تعالىٰ، والمعقبات المراد بها أنها تتعقبه في كل أوقاته، ولا تنفك عنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ عندما يكفر الإنسان نعم الله سبحانه وتعالىٰ عليه ويبطر، ولا يشكر الله تعالىٰ عليها فإن الله سبحانه

وتعالىٰ سيرفع نعمه عنه، فينبغي للإنسان إذا أنعم الله سبحانه وتعالىٰ عليه بنعمة أن يؤدي حق شكرها، ويشكر الله سبحانه وتعالىٰ عليها، وشكره لله يكون بامتثال أوامره، والانتهاء عن مناهيه.

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ فإذا أراد الله سبحانه وتعالىٰ إنزال مصيبة أو مكروه بقوم فلن يستطيع أحد أن يدفع ذلك، ولا أي قوة في الأرض تستطيع رد ذلك، فلا مفر لهم منه إلا إليه.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾﴾ ولا ناصر لهم غير الله سبحانه وتعالىٰ، فالأحسن لهم أن يرجعوا إليه، ويقلعوا عما هم عليه من الكفر والتمرد والعصيان.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ يخبرنا الله سبحانه وتعالىٰ عن البرق الذي نراه أنه من خلقه، ومن آيات قدرته، فبعض الناس يصيبه الخوف من رؤيته لئلا يصيبه منه مكروه، وبعضهم يكون طامعاً في المطر، وما يأتي من الخير معه.

﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ وأن هذه السحاب التي ترونها أمامكم المحملة بالماء، فالله سبحانه وتعالىٰ هو الذي أنشأها وخلقها.

ينبه الله سبحانه وتعالىٰ مشركي مكة بذلك لعلهم يرجعون إليه إذا نظروا وتفكروا فيها، ويتركون ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، ولا تغني شيئاً.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أراد الله سبحانه وتعالىٰ بذلك أن الرعد يدل علىٰ عظمة منشئه وخالقه، وعلىٰ رحمته بعباده وعظيم نعمته عليهم بالمطر الذي يخرج الله تعالىٰ به لهم رزقهم، فمن نظر وتفكر في الرعد سبح الله وعظمه ونطق بحمد الله علىٰ ما رأىٰ من عظيم النعمة بالرعد والمطر.

وأخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن الملائكة بأنها تحمد الله وتسبحه خوفاً منه لمعرفتهم العظيمة به حق معرفته.

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴿١٣﴾﴾ والله تعالىٰ هو الذي يرسل الصواعق؛ فلماذا لا يؤمنون به مع آياته الكثيرة التي يرونها، ولماذا يصرون علىٰ كفرهم بربهم وهم يرون آثار قوته العظيمة وقدرته الشديدة.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ هناك من يعبد الشمس ومن يعبد الأصنام ومن يعبد عيسىٰ بن مريم، ومن يعبد البقر، و...إلخ، فأخبر الله تعالىٰ ونبيه ذوي العقول بعد أن عدد آيات ربوبيته وآيات قدرته وآيات علمه ورحمته إلىٰ أنه هو وحده الذي يستحق العبادة وأنه هو الذي يستحق أن تتوجه إليه الخلائق بالطاعة والخشوع والتذلل دون ما سواه من المعبودات.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ وأخبر الله سبحانه أن ما سواه من المعبودات عاجزة لا تنفع ولا تقدر علىٰ النفع.

﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴿١٤﴾﴾ وأن دعوتهم للأصنام هذه ليست إلا كحال من يؤشر بيديه إلىٰ الماء من بعيد ويناديه بأن يأتيه ليشربه، فهل يستطيع هذا الماء أن يأتي؟ فدعوتهم هذه في ضلال وضياع.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴿١٥﴾﴾ يخبر الله سبحانه وتعالىٰ هنا أن ما في السماوات والأرض خاضع لله تعالىٰ ومنقاد لمشيئته وإرادته من البشر وغيرهم من الملائكة والجن والحيوانات والنجوم والكواكب وغيرها، وأخبر أن بعض هذه الأشياء خاضع ومنقاد طوعاً كالملائكة وبعض الجن والإنس بمحض إرادتهم واختيارهم، والبقية خاضع له كرهاً كالنجوم والجبال والشجر والدواب أي أنها منقادة لإرادته ومشيئته، ولا اختيار لها في ذلك.

وذكره للظلال فقد أراد به الشمس لأنه ملازم لها ويعني به أن الشمس منقادة له في مسار واحد لا تختلف عنه أبداً منذ أن خلق السماوات والأرض، فالظلال منقاد لله تبعاً لانقياد الشمس.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يسأل المشركين من رب السماوات والأرض؟ وأخبره بأنهم سيعترفون بأن الله خالقها ومالكها والمسيطر عليها.

﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ إذا اعترفتم بأن الله سبحانه وتعالى خالق السموات والأرض فلماذا تتخذون من دونه آلهة تعبدونها؟ مع أنها لا تملك لنفسها شيئاً من النفع، فضلا عن أن تنفع غيرها، أو تدفع عن غيرها ضراً أو مكروهاً.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ فأخبروني إذاً هل يستوي الأعمى والبصير؟ وهل يعدل العاقل إلى تفضيل الأعمى على البصير، وإلى اختيار الظلمة على النور؟ فما بالكم تعدلون إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، وتتركون عبادة رب السماوات والأرض؟

﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾، يستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم عبادتهم للأصنام فهل خلقت هذه الآلهة كخلق الله حتى اشتبه عليهم خلق الله من خلق ذلك الإله الآخر فذهبتم تعبدونها مع الله لأجل ذلك.

﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝١٦﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يخبرهم أنه ما دام أنكم قد اعترفتم بالله سبحانه وتعالى، وأنه خالق السماوات والأرض- إذاً فهو وحده المختص بالإلهية، والمستحق للعبادة لا شريك معه في ذلك، فلأي سبب عدلتم إلى عبادة غيره.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ ثم أخبر عن قدرة الواحد القهار الذي استحق العبادة وحده بأنه الذي أنزل المطر من السماء بقدرته.

﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ وأخبر أن هذا السيل يحمل زبداً فوقه والزبد كما هو معلوم لا نفع فيه.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ وأخبر تعالى أن هناك زبد آخر يخرج من الذهب والفضة والحديد والنحاس عند صياغته بالنار، والمعروف أيضاً أن هذا الزبد غير نافع ولا قيمة له.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد ضرب للحق والباطل مثلاً فالزبد هو مثل الباطل والماء هو مثل الحق، وزبد المعادن هو مثل الباطل والمعدن هو مثل الحق.

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ يضيع ويذهب وكأن لم يكن شيئاً، وإن كان يظهر أمام عين الرائي عندما يطفوا على الماء في صورة وكأنه شيء ذو شأن.

﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ الذي فيه نفع للناس وهو الماء فإنه يبقى على وجه الأرض، وأما ذلك الزبد الذي لا ينفعهم فيذهب وينتهي، فمثل الحق والباطل في النفع وعدمه كحال الزبد والماء.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ يضرب الله تعالى الأمثال للناس ليقرب إلى عقولهم صورة الحق وصورة الباطل كما فعل تعالى هنا حين صور الحق لنا بصورة الماء وصور الباطل بصورة الزبد الذي يطفو على وجه السيل ويملأ العين بجهامته ثم يذهب ويتلاشى ولا يستفيد منه إنسان ولا حيوان.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن الذين استجابوا له وآمنوا به وصدقوا آياته ورسله فلهم جزاء الحسنى في الدنيا والآخرة.

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ ورفضوا دعوة الله سبحانه وتعالى وكفروا به.

﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ لن يكون لهم إلا الندم والحسرة يوم القيامة، ولو كان له ملء الأرض ذهباً وأضعاف ذلك ليفتدي به- لافتدى به من هول ما يرى من عذاب الله.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ وسيحاسبهم الله سبحانه وتعالىٰ حساباً شديداً علىٰ كل صغيرة وكبيرة، بخلاف المؤمن فإن الله سبحانه وتعالىٰ يتجاوز عن الصغائر ويمحوها بسبب محافظته علىٰ طاعة الله ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴿٨﴾﴾ [الانشقاق].

﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴿١٨﴾﴾ ثم يدخلهم نار جهنم خالدين فيها أبداً، يكون فراشهم فيها النار، وعليهم غطاء من نار مع ما يلقونه من أنواع العذاب.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ لا يستوي من آمن بك يا محمد وعرف الحق واهتدىٰ به، هو وذلك الذي تعامىٰ عن الحق وأعرض عنه.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴿١٩﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه لا يفرق بينهما إلا أهل العقول والمعرفة، وأما أولئك المشركون فالمؤمن والكافر عندهم سواء لأنهم لا يؤمنون بالبعث والحساب ويقولون إن من مات صار تراباً وانتهىٰ أمره.

فأجاب الله سبحانه وتعالىٰ عليهم بأنهم ليسوا سواء، وأنه لا بد من دار يجازىٰ فيها كلٌ منهما، ويتناصف فيها الظالم والمظلوم، وأن ذلك الذي يزعمه أولئك المشركون لا يصح عقلاً، فهل يصح أن يكون من أصابه البلاء من حين ولادته إلىٰ موته، وذلك الصحيح علىٰ السواء؟

إذاً فإنا نحكم عقلاً عندما نرىٰ ذلك المبتلىٰ لم ينل جزاءه في الدنيا أن هناك داراً غير هذه الدار ينال فيها عوض ما فاته في الدنيا، وأنه لو لم يكن ذلك لكان ظلماً من الله سبحانه وتعالىٰ أن يميته قبل أن ينال عوضه، وكذلك الظالم والمظلوم فعندما لا نرىٰ هذا الظالم ينال جزاءه في الدنيا فإنا نقطع أنه لا بد من دار غير هذه الدار ينال فيها جزاءه، وذلك أنا نعلم أن الله سبحانه وتعالىٰ عدل حكيم ومن عدله وحكمته أن ينال هذا الظالم جزاءه، ويأخذ هذا المظلوم حقه، وكذلك الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ كل شيء قدير فهو قادر علىٰ أن يمنع هذا الظالم،

ويحول بينه وبين هذا المظلوم، ولكنه خلَّى بينهما، وجعل هذا متمكناً، ووفر له جميع أسباب ظلمه من الآلات والقوى، وفي مقابله سلب عن المظلوم التمكين والقوى التي يدفع بها عن نفسه، إذاً فلا بد أن يبعثهما فيعوض هذا بدل ما قد سلبه في الدنيا، وينال ذلك الظالم جزاءه، يعرف ذلك كل من نظر وتفكر بعقله.

ثم وصف الله سبحانه وتعالى أولو الألباب فقال: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ۝٢٠﴾ وهو إيمانهم بالله سبحانه وتعالى وامتثالهم لما أمرهم به، واجتنابهم ما نهاهم عنه؛ فهذا هو عهدهم وميثاقهم مع الله سبحانه وتعالى الذي يوفونه به، وهكذا هم متصفون بالوفاء، وعدم نقض العهد فيما بينهم وبين الناس.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ فهم يتبعون الله سبحانه وتعالى، ويطيعونه فيما أمرهم به، ويصلون ما أمرهم بوصله من الأرحام، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه.

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ ومن صفة أولي الألباب أيضاً أنهم يخشون ربهم، ويخافون معصيته التي تؤدي إلى عذابه وعقابه.

﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ۝٢١﴾ فيتركون المعاصي لأنهم عالمون بعاقبة ذلك.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ ومن صفتهم كذلك أنهم يصبرون على ما ابتلاهم الله سبحانه وتعالى به في الدنيا من الفقر والشدة، كل ذلك لأجل أن ينالوا رضوان الله سبحانه وتعالى ورحمته، وذلك كما كان من ابتلاء الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين معه فقد ابتلاهم بالفقر والشدة بينما أعداؤهم كانوا أهل غنى وتجارات واسعة، وابتلاهم بالقلة والضعف بينما كان لأعدائهم كثرة وقوة وعدة وعدد، فصبروا بالرغم من كل ذلك.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ مع صبرهم ذلك فقد حافظوا على إقامة صلواتهم، وأدوا ما أوجبه الله سبحانه وتعالى عليهم على أكمل وجه، وأخرجوا زكاة أموالهم في السر والعلانية.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ وإذا أساء إليهم أحد بكلام فاحش أجابوه بالكلام الحسن واللين درءاً منهم للفتن.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ۝٢٢﴾ فهؤلاء الذين هذه أوصافهم سينالون تلك الدار التي ستعقب هذه الحياة الدنيا وهي: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ ثم أخبرهم الله سبحانه وتعالىٰ عن هذه الدار التي تعقب الدنيا بأنها جنات يتنعمون فيها لا تنقطع ولا يفنىٰ نعيمها، والعدن المراد به الإقامة التي لا تنقطع.

وأخبر الله سبحانه وتعالىٰ بأنهم سيدخلون الجنة هم والصالحون من أقاربهم.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ۝٢٣ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ۝٢٤﴾ فتدخل عليهم الملائكة وهم في الجنة يتنعمون فيباركون لهم ويعظمونهم، ويزفون إليهم التهاني والتبريكات، وفي هذا من التشريف والتعظيم ما لا يخفىٰ، وكذلك ما يتركه من الأثر في النفس، ورفع معنوياتهم ما لا يخفىٰ.

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن حال هؤلاء الذين ينقضون ما عاهدوا عليه، ووثقوا عليه الأيمان، ويقطعون صلة أولياء الله سبحانه وتعالىٰ وصلة أرحامهم، ويقطعون صلاتهم بالمؤمنين.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ويكون دأبهم السعي بالفساد بين الناس، وإثارة الفتن، وإهلاك الحرث والنسل، وخلق العداوات وسفك الدماء.

﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ فجزاؤهم اللعنة من الله سبحانه وتعالىٰ، والطرد من رحمته في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ۝٢٥﴾ ولهم نار جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ كان المؤمنون في مكة يعيشون في حالة من الضعف والفقر الشديدين بينما كان المشركون أهل تجارات واسعة

وثراء في الأموال، وأهل وجاهة ومكانة في الدنيا، فأمرهم الله سبحانه وتعالى أن لا يحتقروا أنفسهم عندما يرون ذلك في عدوهم فهو يبسط الرزق لمن يشاء من خلقه، ويضيقه على من يشاء، وأن حكمته قد اقتضت ذلك.

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى عن المشركين أنهم فرحوا بما هم عليه من النعمة ومن الغنى والثراء والسعة.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴿٢٦﴾﴾ فلا تتعاظموا أمر الدنيا أيها المؤمنون فليست شيئاً بالنسبة للآخرة، وليست إلا كمتاع المسافر سرعان ما ينتهي.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ كان المشركون يقولون: لو كان محمد صادقاً لأتانا بآية واضحة تدل على صدق نبوته، متجاهلين ما جاءهم به من الآيات القاهرة.

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴿٢٧﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيب على المشركين بأن الله قد أرسله بالآيات والحجج الواضحة التي تدل على صدقه، ولكنكم قد ضللتم عنها، ولم تعتبروا بها، وأنه قد اهتدى بها من أناب إلى الله سبحانه وتعالى ورجع إليه.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴿٢٨﴾﴾ فالمؤمنون قد صدقوا بآيات الله التي جاء بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم واطمأنت قلوبهم إلى صدقها واستيقنت أنفسهم أنها من عند الله، وأخبر الله سبحانه وتعالى أن دواء القلوب هو ذكره جل وعلا، وقد يكون الإنسان في قلق وخوف وتوتر دائم لا ينفك عن ذلك وعن هموم الدنيا ومشاغلها، ومن أين سيأكل؟ ومن أين سيطعم أولاده؟ و...و...؛ فإذا تذكر الله سبحانه وتعالى، وعرف آياته، وأن السماوات والأرض تحت قبضته وتصرفه- عرف أن الرزق من الله سبحانه وتعالى، وأنه لن يصيبه إلا ما قد كتبه له، وإذا كان في مصيبة عرف أن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يأتيه بالفرج، مما يبعث على الطمأنينة في نفسه، ويزول قلقه وهمه.

ومن صفة المؤمنين أنهم ينتفعون بآيات الله وبذكره، وتطمئن قلوبهم بالإيمان والتعظيم لله، والخشية منه، والرضا بقضائه وقدره.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴿٢٩﴾﴾ هذا وعد من الله سبحانه وتعالى للذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة بأن لهم في الجنة حياة طيبة ونعيم دائم لا ينقطع، وأن دارهم هذه قد حسنت لهم بما يرونه من النعيم الذي قد أعده الله سبحانه وتعالى لهم.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه قد أرسله إلى قريش وإلى بقية الأمم؛ لأن الناس جميعاً هم أمة محمد ﷺ، وأن هذه الأمة قد مضى قبلها أمم كثيرة بأنبيائها، فلست يا محمد بدعاً من الرسل، وشأنك كشأن سائر الأنبياء الذين بعثهم الله سبحانه وتعالى قبلك.

﴿لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أرسل الله سبحانه وتعالى محمداً ﷺ إلى هذه الأمة ليتلو عليهم ما أوحاه الله سبحانه وتعالى إليه من القرآن بما فيه من الإنذار والبشارات، وتبيين آيات الله وحججه وبيناته وشرائعه وأحكامه.

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه أرسل محمداً ﷺ فلم يستجيبوا لدعوته، ورفضوها وكفروا بالرحمن الذي نعمه ظاهرة لهم ومكشوفة، يرونها ويحسون بها ويلمسونها؛ لأن الرحمن معناه المنعم بالنعم الظاهرة المكشوفة، وذلك مما يدل على شدة عنادهم وتمردهم عندما يرون نعم الله سابغة عليهم ثم يكفرون ويتمردون؛ لأن العاقل من شأنه ألا ينكر الشيء الواضح والظاهر، فكفروا بالله سبحانه وتعالى بالرغم من كل ذلك.

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يخبر المشركين بأن الرحمن هو ربه لا يشرك به شيئاً، ولا يعدل عن عبادته.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ۝٣٠﴾ ويخبرهم بأنه متوكل عليه ومسند ظهره إليه، ومستمد للنصر من عنده، وأن يخبرهم بأن مرجعه إليه يوم القيامة، وليقل للمشركين أن يفعلوا ما شاءوا فمرجعهم إلى الله فيجازيهم على أعمالهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ يبين الله سبحانه وتعالى شدة عناد قريش وتمردهم وكفرهم بالرحمن الذي نعمه ظاهرة ومكشوفة لهم، وكفرهم بالقرآن الذي آياته واضحة وظاهرة مع أن عقولهم قد شهدت بصدقه، وحجيته قد استقرت في قلوبهم، وأخبر الله سبحانه وتعالى أنه لو كان هناك كتاب يهد الجبال ويزعزعها، أو يشق الأرض ويمزقها، أو يكلم الموتى لهدها هذا القرآن من شدة بيانه وصدقه، ولشق الأرض وقطعها، ولكلم الموتى لقوة وقعه وشدة صدقه.

يبين الله سبحانه وتعالى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن عدم إيمانهم ليس لأن الحجة لم تظهر لهم، أو لنقص في القرآن، بل إنما كان كفرهم وعدم إيمانهم لشدة عنادهم وتمردهم، وليرفع عن قلبه الشك في أنه لو زاد لهم آية واضحة وظاهرة لآمنوا، وأن هذا القرآن من آيات الله العظيمة الذي من شأنه أن كل من وقف عليه عرف بصدقه وآمن به، وأنه أكبر الآيات الدالة عليه فلا آية أوضح منه، وأخبره الله سبحانه وتعالى أن كفرهم به وبما جاء به ليس إلا عناداً وتمرداً.

﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ فتدبير أمر السماوات والأرض بيده وحده، والحكم له وحده، ولا نصيب للأصنام في شيء من ذلك.

﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ألم يعلم المؤمنون ذلك، وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين كانوا يريدون من الله سبحانه وتعالى أن يأتي لقريش بآية ليؤمنوا، فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بذلك الرد وأنه لو شاء لأدخل الناس جميعاً في الهدى، لكنه لم يشأ ذلك؛ لأن التكليف سيبطل، وقد اقتضت حكمته ومشيئته أن يوكل الناس إلى اختيارهم ومشيئتهم

لما يترتب على ذلك من الجزاء؛ لأنه لا يصح الجزاء إلا على الأفعال الاختيارية.

يريد الله سبحانه وتعالى هنا أن يقطع طمع النبي ﷺ والمؤمنين من إيمان أولئك المشركين، وأنهم لن يؤمنوا مهما جاءهم به من الآيات والحجج، وأنه لم يبق إلا أن يدخلهم في الإيمان كرهاً، وذلك مما يتنافى مع الحكمة.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴿٣١﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يزال يرسل للكافرين العبر والمحن لعلهم يرجعون إليه، وينزل بهم المصائب الواحدة تلو الأخرى، في ديارهم وحول ديارهم لعلهم ينتبهون من غفلتهم فيرجعون إليه، وأخبر الله سبحانه وتعالى أنها لا تنقطع القوارع حتى يأتي ما وعدهم الله من عذابه الذي يستأصلهم كما فعل بقوم عاد وقوم هود وغيرهم من المكذبين، ولا يفعل بهم ذلك إلا عندما يحل الأجل الذي قضت به الحكمة، وهذا وعد منه تعالى وهو لا يخلف الميعاد، ولا بد أن يقع ما أخبر بوقوعه.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه ليس الأول من بين سائر الرسل آذاه قومه وكفروا به، بل إن كل رسول الله يبعثه إلى أمة فإن أمته تستقبله بالتكذيب والاستهزاء، وأن شأنك يا محمد كشأنهم، وقد حل بك ما قد حل بهم من التكذيب والاستهزاء والأذى.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أخبره الله سبحانه وتعالى بأنه قد أمهل أولئك المكذبين من الأمم الخالية المكذبة بأنبيائها مثل ما أمهل هذه الأمة.

يريد الله سبحانه وتعالى من نبيه ﷺ ألا يستعجل نزول عذابه بالمشركين فإنه سيمهلهم في الدنيا كما قد أمهل من كان قبلهم، ثم يأخذهم بعد إمهالهم.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴿٣٢﴾﴾ فانظر يا محمد كيف كان عقابي لهم، فقد كان عقاباً شديداً وأليماً، وعقاب استئصال لهم ولذراريهم وما معهم.

يسلي الله سبحانه وتعالى هنا نبيه محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ويصبره على المضي على دعوته والاستمرار عليها وأن يشد من عزيمته ولا يتكاسل أو يفتر عن ذلك.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ تقرير من الله سبحانه وتعالى بقيامه على كل نفس، وأنه رقيب عليها يحصي عليها جميع أعمالها صغيرها وكبيرها، وأنه سيجازيهم على ذلك.

وأخبر أنه لا يستوي رب العالمين القائم على كل نفس بما كسبت، الذي هو حي قيوم بتدبير أمر السماوات والأرض، ورقيب وشهيد على كل نفس يحصي جميع أعمالهم، وعالم بما في صدورهم، هو وتلك الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تعلم شيئاً؟ فلماذا يعبدون هذه التي لا تنفع ولا تضر، ولا تعلم ولا تغني شيئا؟ ولماذا لا يرجعون إلى الذي بيده الضر والنفع والخير والشر وبيده القوة والسلطان؟

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يسأل المشركين عن أسماء آلهتهم هذه، فليست إلا أحجاراً يصنعونها ثم يخلقون لها أسماءً من عند أنفسهم.

﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم ذلك، وهل يعلمون شيئاً لا يعلمه الله سبحانه وتعالى؟ لأن الله سبحانه وتعالى لا يعلم إلهاً غيره.

﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ولا مصداقية لإلهيتها في الواقع، وإنما في القول والتسمية فقط، وأنها أسامي من دون مسميات.

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ إنما حسن في أعينهم كفرهم وتكذيبهم بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وزان في عقولهم عبادة الأصنام والإقامة على الضلال والباطل، وقد زين لهم الشيطان ذلك فزانت في أعينهم واستحسنوها.

﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ يقرأ بفتح الصاد وضمها، كان المشركون يصدون الناس عن الإيمان ويقفون في طريق الحق، ويقطعون الطرق عن الذهاب للاستماع للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وكان من وصل إليه وسمعه يقرأ القرآن فإنه يؤمن به، ويتيقن أن ما جاء به هو الحق؛ فكانوا يقفون في مداخل مكة يحذرون الناس من الذهاب إليه، ومن

الاستماع له، ويقولون: ساحر وكذاب، وينفرونهم عنه بكل ما يقدرون من الوسائل.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴿٣٣﴾﴾ فمن حكم الله سبحانه وتعالىٰ بضلاله؛ فلن يستطيع أحد أن يحكم له بالهدىٰ، أو يسميه به.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هؤلاء المشركون الصادون عن سبيل الله حكم الله سبحانه وتعالىٰ عليهم بالعذاب في الدنيا، وبالخزي والذلة والهوان.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ وسيعذبهم أيضاً في الآخرة في نار جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴿٣٤﴾﴾ ولن يدفع عنهم أحد يوم القيامة، ولن يستطيع أحد أن يدفع، أو يمنع عنهم العذاب، أو ينتصر أو يتشفع لهم.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴿٣٥﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن صفة الجنة التي وعدها المتقين، فقد بلغت من النعيم ما لا يستطيع أن يحيط وصف الواصفين بها، وقد عرفنا بوصفها العظيم هذا عندما أغفل ذكر الخبر مما يدل علىٰ ذلك، وعلىٰ عظم وصفها حتىٰ لا يستطيع وصف الواصف أن يحيط بها، ولن تستطيع أي عبارة أن تذكر وصفها ذلك.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالىٰ بعض صفاتها بأنها تجري من تحتها الأنهار، وأن ثمارها دائمة لا تنقطع، وظل أشجارها دائم فلا تتساقط أوراقها كحال الدنيا، وقد أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن عاقبة المتقين ومصيرهم إليها، بينما تكون النار عاقبة الكافرين ومصيرهم.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن بعض علماء أهل الكتاب قد آمنوا بالنبي ﷺ وصدقوه واستبشروا بقدومه؛ لأن التوراة والإنجيل كانت قد بشرت بقدومه، وهؤلاء الذين هم كذلك ليسوا إلا قلة قليلة، وأما الكثرة فإن عامة اليهود قد كفروا وجحدوا وكذبوا.

﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ أراد الله سبحانه وتعالى بهم الأحزاب المتحزبة من المشركين ضد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وإنكارهم لبعضه كإنكارهم لكله.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يخبر المشركين بأنه لم يأتهم بأشياء خارجة عن المعقول، وأمره أن يخبرهم بأن الله سبحانه وتعالى إنما أمره بعبادته وحده لا شريك له، فلماذا يستنكرون عليه ذلك؟

وأمره أن يسألهم أن يأتوا له بدليل على إلهية هذه الآلهة التي يعبدونها، ولكنهم لم يستطيعوا أن يأتوا بحجة قاطعة تدل على ذلك؛ لأنهم إنما صنعوا أحجاراً بأيديهم ونحتوها، ثم عبدوها وقالوا: قد وجدنا آباءنا على ذلك.

﴿إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ۝٣٦﴾ إلى الله سبحانه وتعالى وحده لا إلى غيره؛ لأن مرجعي سيكون إليه بعد الموت.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد أنزل القرآن على نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كتاباً عربياً على لغتهم العربية، وذلك لأجل أن يفهموا خطابه، ويتحققوا معانيه.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۝٣٧﴾ يهدد الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه إن اتبع دين هؤلاء المشركين الذي شرعوه على حسب أهوائهم ودواعي شهواتهم، وكانوا يجتمعون عند هذه الأصنام وهم عراة فيغنون ويرقصون عندها، وتغني لهم القيان.

وتهديد الله سبحانه وتعالى هذا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إنما أراد به من كان حوله من المؤمنين، وأما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فهو بعيد عن هذا كل البعد، وحاشاه أن يفكر في ذلك، وأخبره الله سبحانه وتعالى أنه إن فعل ذلك فلن يجد أحداً ينصره أو يدفع عنه عذاب الله سبحانه وتعالى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨﴾ كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حريصاً على إيمان قومه أشد الحرص، وقد كاد أن يهلك نفسه حزناً على عدم إيمانهم، وكان يتمنى

أن يؤتيه الله سبحانه وتعالىٰ آية عظيمة تجعلهم يؤمنون، وكانوا يعدونه بأنه إن جاءهم بآية فسيؤمنون، مما جعله يتمنىٰ من الله سبحانه وتعالىٰ ذلك، فأخبره الله سبحانه وتعالىٰ أنه لا ينزل الآيات إلا إذا اقتضتها حكمته ولا ينزلها لأجل اقتراح الكافرين، وكان المشركون يستبعدون أن يكون محمد ﷺ نبياً لأنه مثلهم ذو زوجة وأولاد، فذكر الله تعالىٰ أن جميع الرسل كانوا ذوي أزواج وذراري.

وأخبره بأنه أرسل رسلاً قبله، وقد لقوا من أقوامهم نفس ما لقي من قومه من الأذىٰ، وأمره أن ينظر في أخبارهم وسيعرف ذلك، وأن أقوامهم كانت تطلب منهم نفس ما يطلبه قومه من الآيات، ويعدونهم أنهم سوف يؤمنون، وذلك منهم ليس إلا عناداً واستهزاءً، وسيموتون علىٰ كفرهم.

وأخبره أن قومه قد استحقوا نزول العذاب بهم، وقد قرب نزوله بهم.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ۝٣٩﴾ فأجل الموت، ووقت نزول العذاب وتحديدها بيد الله سبحانه وتعالىٰ، وأمر تقديمها وتأخيرها إليه وحده علىٰ حسب ما تقتضيه حكمته وعلمه.

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ۝٤٠﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيهﷺ بأنه قد بلّغ ما عليه، وأمر حسابهم ووقت نزول العذاب بهم إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ في الدنيا والآخرة، وسواء عليك نزل بهم في حال حياتك أو بعد مماتك، وسواء عليك رأيت تعذيبهم أم لم تره؛ وأمره ليس موكولا إليك فما عليك إلا البلاغ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ۝٤١﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ المشركين لماذا لا يؤمنون؟ وهم يرون النبيﷺ ومن معه من المؤمنين يتوسعون في البلاد وأن دولة الإسلام تكبر أمام أعينهم بينما أرض الشرك في نقص، وذلك أن المسلمين كانوا يفتحون البلاد ويتوسعون في بلاد الكفر حتىٰ وصلوا إلىٰ أطراف بعيدة، وقريش لا زالت علىٰ كفرها وتمردها مع ما تراه من ذلك.

وهذه الآية نزلت في المدينة، بينما بقية السورة نزلت في مكة؛ لأن النبيﷺ يوم كان في مكة كان الإسلام ضعيفاً، ولم يكن قد توسع وانتشر، وقد أخبرهم أن إظهار دينه حكم قد حكم به من عنده، وأن يقتلع الشرك من جميع البلاد العربية، ولن يستطيع المشركون أن يمنعوا ما حكم به، وسيجازي الكفار على كفرهم وتمردهم، وسيعذبهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أخبر الله عن كفار الأمم السابقة بأنهم قد مكروا بأنبيائهم ورسلهم، وقد كادوا لدينهم كل كيد، وعملوا جميع ما أمكنهم من الحيل، ولكن مكر الله سبحانه وتعالى كان فوق مكرهم، وقد أبطل مكرهم ودمرهم واستأصلهم.

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ وكان مكره فوق مكرهم؛ لأنه محيط بهم وعالم بهم وبأعمالهم، وهم تحت قبضته وسيطرته.

﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴿٤٢﴾﴾ تهديد من الله سبحانه وتعالى للمشركين، وأنهم سيعلمون عما قريب لمن ستكون العاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة، وفعلاً عرفوا ذلك عندما دخل الإسلام إلى وسط مكة، وقهرهم وأذلهم، ودخلوا فيه مكرهين غير راضين، واضطروا إلى أن يتسموا بالإسلام.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ ينكرون نبوة محمد ﷺ.

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴿٤٣﴾﴾ فإذا أنكروا نبوتك يا محمد ورسالتك إليهم فالله شاهد لك بذلك، وكفى بشهادته بينك وبينهم، ويكفيك شهادة من عنده علم الكتاب أيضاً وهو جبريل، وبعضهم فسر ذلك بعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة، وبعضهم بمن آمن من أهل الكتاب.

تمت سورة الرعد

ويليها سورة إبراهيم

❁❁❁❁❁

سورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه قد أنزل إليه القرآن، ومنه هذه السورة لغرض إخراج الناس من ظلمات الجهل والضلال إلىٰ نور الهدىٰ والحق.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ۝١﴾ بأمره وإرادته إلىٰ دين الله الذي هو عزيز غالب لا يستطيع أحد أن يلحقه أو يناله، والحميد هو المنعم علىٰ الناس.

﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وصف الله سبحانه وتعالىٰ نفسه بأنه الله الذي له ملك السماوات والأرض، وهما تحت قبضته وقدرته وسيطرته.

﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ۝٢﴾ تهديد للذين يرفضون قبول ما أنزله الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالعذاب الشديد في نار جهنم.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ عرّف الله سبحانه وتعالىٰ من هم الكافرون فقال: هم الذين يميلون إلىٰ شهوات الدنيا وملذاتها، ويتركون دعوة الله سبحانه وتعالىٰ، ودعوة أنبيائه عليهم السلام.

﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ويمنعون الناس عن تصديق دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعن الذهاب للاستماع إليه، ويدخل في ذلك الصدُّ عن دعوة العلماء؛ لأنهم ورثة الأنبياء، وأن الصادين عن دعوتهم وتبليغهم دين ربهم داخلون في هذا الوعيد.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ فلا يريدون دين الحق وإنما يريدون الضلال واتباع الشهوات.

﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ۝٣﴾ وهم غاوون عن الطريق، وفي بعد عن الحق والهدىٰ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه لم يرسل نبياً إلىٰ أمته إلا بلسانهم ولغتهم.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أرسلهم بنفس لسان قومهم ليفهموا عنهم، ولكن لم يؤمن ويستجب لدعوة أنبيائهم إلا البعض منهم، وأكثرهم رفضوا ذلك وعاندوا وتمردوا، فالمستجيبون هم الذين هداهم الله سبحانه وتعالى وحكم بهداهم، وأما الذين لم يستجيبوا لأنبيائهم فقد حكم بضلالهم وغوايتهم.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿٤﴾﴾ وهو العزيز الغالب، والحكيم لأنه يضع الأشياء في مواضعها، فلا يحكم لأهل الهدى بالاهتداء إلا إذا كانوا من أهل الهدى، ولا يحكم على ذوي الضلال بالضلال إلا إذا كانوا من أهل الضلال.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ بالمعجزات الدالة على صحة نبوته وصدقه.

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ كلفه الله سبحانه وتعالى وأرسله ليستنقذ قومه من ظلمات الجهل والضلال الذي هم فيه في سلطان فرعون وتحت قهره وظلمه إلى نور الهدى والإسلام والحرية والعدل.

﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ وأمره الله سبحانه وتعالى أن يعظ قومه بأن يعتبروا بما مضى على المكذبين من الأمم السابقة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴿٥﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن في تاريخ الأمم السابقة التي كذبت بأنبيائها آيات وعبر، ولن يتعظ بها إلا من صبر على الإيمان، وعلى طاعة الله سبحانه وتعالى ورسوله، وأما أولئك الذين انقادوا لشهواتهم وأهوائهم حتى طمست على عقولهم وأفكارهم- فلا تنفع فيهم هذه العظات والعبر، ولا يتذكرون بها.

كان موسى يعظ قومه من بني إسرائيل بعد أن أخرجهم من مصر؛ لأن الله سبحانه وتعالى كان قد أرسله إليهم ليستنقذهم من ظلم فرعون وطغيانه وكان فرعون قد ألحق بهم أنواع الأذى، واستعبدهم وأذلهم، وقتل أبنائهم واستحيا نساءهم، فأرسل موسى عليه السلام رحمة بهم ليستنقذهم منه، وكان اضطهاده لهم

واستعبادهم وقتلهم لما كان قد أخبرته الكهنة بأنه سيلد لبني إسرائيل مولود يكون هلاكه على يديه.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ استنقاذ بني إسرائيل من ظلم فرعون وجبروته نعمة عظيمة؛ لأنه كان قد بلغ النهاية في ظلمهم وكان مسرفاً في الدماء أشد الإسراف، وكان يقتل على التهمة والشيء اليسير من غير مبالاة ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾ [الدخان]، وكان يلحق بهم أنواع العذاب، فينبغي أن يشكروا هذه النعمة العظيمة عليهم حين أنقذهم من جبروت فرعون ونجاهم من ظلمه، ويطيعوا الله سبحانه وتعالى حق طاعته عليها.

وقوله ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ فيحتمل أن يكون ذلك البلاء هو النعمة لوروده في سياقها، ويحتمل أن يكون المعنى: وفي ظلم فرعون واستعباده بلاء عليكم من ربكم عظيم، أي: امتحان شديد.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ خاطب موسى عليه السلام قومه بأن الله سبحانه وتعالى قد أعلن فيكم وأعلمكم أنكم إذا شكرتم نعمته عليكم وأطعتموه حق طاعته- فإنه سيزيدكم من نعمه، ويوسع عليكم فيها، وأما إذا كفرتم نعمه عليكم فسوف يعذبكم في الدنيا، ويجازيكم على كفر نعمه عليكم، فاحذروا كفران نعمته.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ وأخبرهم موسى عليه السلام بأن الله سبحانه وتعالى غني عن إيمانهم وطاعتهم، وليس محتاجاً إلى عبادتهم، وأخبرهم بأنه سيستخلف قوماً غيرهم يعبدونه مكانهم.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فلماذا لا تتعظون بهذه الأمم السابقة وتنظرون كيف أخذهم الله سبحانه وتعالى جزاءً على كفرهم وتمردهم على أنبيائهم عندما جاؤوهم بالآيات والحجج الواضحة؟

﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ يعني بذلك أنهم واجهوا دعوة أنبيائهم بالكفر والإعراض، والتعبير بوضع الأيدي في أفواه أنبيائهم- كناية عن إرادة تسكيتهم عن دعوتهم، ومنعهم منها.

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ۝٩﴾ كانوا يحاولون منع أنبيائهم زاعمين أنهم في شك من صدق دعوتهم.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فتجيبهم أنبياؤهم: كيف تتشككون في الله وأنتم ترون آياته الدالة عليه، وعلى قدرته- مِن خلق السماوات والأرض، وما بينهما؟

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ يدعوكم إلى توحيده وعبادته لمصلحتكم، ولا حاجة به إليكم وإلى عبادتكم، وإنما ليخرجكم من ظلمات الشرك والضلال والجهل إلى نور الحق والهدى.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ لأن كفركم هذا وشرككم وخوضكم في المعاصي والشهوات- قد أوجب تعذيبكم وخرم آجالكم واستئصالكم وإبادتكم؛ فدعوته لكم وإرسال الرسل إليكم إنما هو لأجل أن يستنقذكم من إنزال عذابه بكم واستئصالكم، وليعيش كل واحد منكم في الأرض، ويستوفي مدة عمره الذي قد كتبه الله سبحانه وتعالى له فيها.

﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فأجابتهم تلك الأمم المكذبة بأنهم ليسوا أنبياءَ، وأنه لا يصح أن يكون نبيٌّ من البشر في زعمهم.

﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾ ودعوتكم لنا إنما هو لأجل إغوائنا عن دين آبائنا، فكيف تريدون أن نترك ديننا ودين آبائنا، ونعكف على عبادة إله واحد؟

﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ۝١٠﴾ يطلبون من أنبيائهم أن يأتوهم بدليل وحجة واضحة تدل على صدق دعوتهم، وأنهم رسل من عند الله سبحانه وتعالى.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أجابتهم رسلهم بذلك عندما زعموا أنه لا يصح أن يكون من البشر أنبياء، وأن هذا اختيار الله سبحانه وتعالى فكيف يعترضون على مشيئته واختياره؟

﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وأخبروهم أنه لا ينبغي لهم، وليس في مقدورهم أن يأتوا بآية إلا إذا أذن الله سبحانه وتعالى بذلك وأراد.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ۝١١﴾ تخبرهم أنبياؤهم بأنهم متوكلون على الله سبحانه وتعالى، وماضون في مواصلة دعوتهم، وعازمين على الصبر على أذاهم وكفرهم وتمردهم.

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ وأي شيء يمنعنا من التوكل على الله سبحانه وتعالى ما دمنا قد عرفنا طريق الحق واهتدينا إليها.

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا ءَاذَيْتُمُونَا﴾ وسوف نصبر على أذاكم، وسنتوكل على الله سبحانه وتعالى، ونعتمد عليه في تبليغ دعوته، فاجهدوا جهدكم، وافعلوا ما استطعتم أيها المشركون فالله معنا بنصره وتأييده.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ۝١٢﴾ حث للمؤمنين ألا يتوكلوا إلا على الله سبحانه وتعالى في جميع أمورهم، ولا يعتمدوا إلا عليه، ولا يثقوا إلا به وحده؛ فالنصر والظفر من عنده.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أراد بهؤلاء كفار الأمم السابقة التي كذبت بأنبيائها، وأن كل أمة كانت تهدد نبيها وتتوعده إن لم يرجع عما هو عليه بإخراجه وطرده من بينهم.

﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ۝١٣﴾ يطمئن الله سبحانه وتعالىٰ رسله بأنه لن يصيبهم أي أذىً أو مكروه من أقوامهم، وأن عذابه أسرع من وصولهم إليهم، أو مسهم بسوء أو مكروه وأخبرهم أنه سيهلك الظالمين.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وكذلك يعدهم الله سبحانه وتعالىٰ بأنه سيورثهم بلادهم وأرضهم بعد أن يستأصلهم.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ۝١٤﴾ هذه القصص والعبر التي قصها الله سبحانه وتعالىٰ لا ينتفع بها إلا الذين يخافون الله سبحانه وتعالىٰ وعظمته وقوة سلطانه وقدرته، ويخافون وعيده وعذابه.

﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ۝١٥﴾ يعود الله سبحانه وتعالىٰ هنا إلىٰ حكاية ما كان من شأن مشركي قريش، وذلك أن قريشاً استفتحت يوم بدر، فدعت الله سبحانه وتعالىٰ أن يقطع دابر الظالم منهم أو من محمد، دعا بذلك أبو جهل، وأمّن علىٰ ذلك المشركون والمؤمنون، وكان دعاؤه: اللهم وأقطعنا للرحم فأحنه اليوم، أي اجعل حينه وموته هذا اليوم أو هذه الساعة، وذلك أن كلاً من المشركين والنبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان يدعي أن الآخر قد قطع رحمه، وفعلاً قطع الله سبحانه وتعالىٰ دابر المشركين ذلك اليوم، وكانت الدائرة عليهم وخابوا وخسروا.

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ وسيكون لهم وراء تلك الهزيمة نار جهنم يكون شرابهم فيها الصديد والقيح يشربونه من شدة العطش.

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ من شدة العذاب يتألم إلىٰ حد الموت، ويتمنىٰ أن يموت ولكن هيهات ذلك.

﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ۝١٧﴾ وله عذاب شديد غير النار وماء الصديد، من الزمهرير والحيات والعقارب، وغير ذلك من صنوف العذاب.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ١٨﴾ يمثل الله سبحانه وتعالىٰ حال الذين كفروا من قريش في أعمال البر والخير، التي كانوا يفعلونها كمكارم الأخلاق من إغاثة الملهوف ونصرة المظلوم، وإكرام الجار وإطعام الطعام، وكانوا يتسابقون في هذه المكارم، ويتنافسون فيها، وقد اشتهروا بالكرم من بين سائر العرب؛ فأخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن أعمالهم هذه كرماد أتت عليه ريح عاصفة فنسفته وضيعته، وأن أعمال البر هذه ليس لهم من ثوابها شيء، ولن ينالوا من ورائها شيئاً وستصير هباءً منثوراً، وقد وصف الله سبحانه وتعالىٰ ذلك بالضلال البعيد؛ لما يكون منهم من التعب عليها، وفي الأخير لا ينالون من ثوابها شيء بسبب إحباطهم لها بكفرهم وضلالهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن الإنسان إذا نظر إلىٰ خلق السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات، وتفكر وتدبر فيها وفي خلقها فسيعرف لا محالة أنها قد خلقت لأمر عظيم، وأنها لن تنتهي بالموت؛ لأنا قد عرفنا أن الله سبحانه وتعالىٰ عدل حكيم، ومن عدله وحكمته أنه لم يخلقها إلا ليرتب عليها داراً أخرىٰ؛ فإذا تفكر وتساءل: يا ترىٰ ما الحكمة في أن يخلق الله سبحانه وتعالىٰ هذا المخلوق ضعيفاً، ويسلبه كل الإمكانيات والقوىٰ، وذلك الآخر يخلقه ويمكنه بالقوة والبطش والمال، ويجعل له سلطة، ثم يخلي بينهما؟ فنرىٰ هذا القوي يبطش بالضعيف ويقهره ويذله ويقتله، فلا يستطيع الضعيف أن يدفع عن نفسه شيئاً، ثم نراه في الأخير يموت من دون أن يكون قد حصل علىٰ أي إنصاف ممن ظلمه، إذاً ماذا ستحكم علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ لو لم يكن دار غير هذه الدار؟ أليس يكون ذلك ظلماً منه جل وعلا عندما يمكن هذا من هذا، ويسلب عن الآخر كل ما يستطيع أن يدافع عن نفسه به، ولا ينتصف له ممن ظلمه؟

ولو كان الأمر كذلك لكان قد خرج عن اسم العدالة والحكمة اللذين وصف بهما نفسه، وتمدح بهما عند خلقه، وقد علمنا أن الله سبحانه وتعالى عدل حكيم، وأن خلقه للسماوات والأرض لا بد أن يكون لغرض وحكمة، وتخليته هذه لا بد أن يكون وراءها شيء، ورؤية هذا في بلاء ومرض طيلة عمره، وذلك في صحة وعافية؛ فإن العقل يقطع أنه لا بد أن يكون لهذا أعواض مقابل ذلك.

ولما لم نره ينال تلك الأعواض في الدنيا فإنا نجزم بأن هناك داراً أخرى ينال فيها جزاءه، وإلا كان ظلماً وعبثاً من الله سبحانه وتعالى، وقد علمنا أيضاً أن الله سبحانه وتعالى غني، والغني ليس من شأنه أن يفعل ذلك وهو مستغن عنه.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾ يتهدد الله سبحانه وتعالى المشركين بأنه لو أراد أن يذهبهم، ويأت بخلق آخرين مكانهم- لفعل، وهو قادر على ذلك، ولكنه لرحمته بهم أمهلهم وخلاهم لعلهم يتنبهون من غفلتهم ويرجعون عن كفرهم وضلالهم فيقلبهم في البلاوي والنعم، والرخاء والشدة لعلهم يتوبون ويرجعون إليه.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى أن الكفار جميعاً سيبرزون في ساحة المحشر يوم القيامة للحساب الدقيق والحكم العادل.

﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ هنالك يقول الأتباع لرؤسائهم وزعمائهم: قد كنا تابعين لكم في الدنيا نطيعكم فيما تأمرون به من الكفر والتكذيب بآيات الله ورسله، فاحملوا عنا بعض العذاب، وكان الرؤساء والزعماء في جميع الأمم هم الذين يتصدون لدعوة الأنبياء ويقفون في وجهها، وتكون الكلمة لهم، وبقية القوم يكونون تبعاً لهم ولما قالوه، فإذا جاء يوم القيامة فإنهم يتجادلون فيما بينهم التابع والمتبوع.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يريد هؤلاء الأتباع أن يأخذ المتبوعون نصيباً من عذاب الله النازل بهم مقابل إغوائهم وإضلالهم لهم.

﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ۝٢١﴾ يرد عليهم الرؤساء بأننا لو كنا مهتدين لكنتم مهتدين مثلنا، ولكنا كنا ضالين فتبعتمونا، ولا مهرب لنا ولا لكم من عذاب الله وشدته، ولا نقدر أن نحمل عنكم شيئاً مما حق عليكم من العذاب.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وذلك يوم القيامة عندما يحكم الله سبحانه وتعالى على من استحق العذاب بالنار؛ فعندها يظهر إبليس على رؤوس الأشهاد خطيباً فيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ يقول ذلك لأتباعه الذين ساروا في طريقه واتبعوه.

﴿وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ ويخبرهم بأن مواعيده لهم ليست إلا أماني يمنيهم بها.

﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ يخاطبهم إبليس ويخبرهم أنه لم يدخلهم في الضلال بالقوة والإكراه، وأنهم قد دخلوا بمحض إرادتهم ولم يكن منه إلا الدعاء لهم والوسوسة فقط.

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لأنكم الذين تسببتم على أنفسكم بالضلال واستحقاق العذاب.

﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ فلست بمنقذكم من عذاب الله سبحانه وتعالى، وكذلك انتم لستم بمنقذي من عذابه.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ ويقول لهم الشيطان: إنكم عبدتموني في الدنيا وأطعتموني وأنا كافر بعبادتكم لي لأني لست شريكاً لله في الربوبية.

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ۝٢٢﴾ وهم الذين دخلوا في طاعة الشيطان وعبدوه، وفي ذلك وما يكون من الحوار بينهم وبين إبليس ما لا يخفى من الذلة والخزي، وزيادة الحسرة والندامة التي تلحقهم لما يرون من سخرية إبليس بهم والفضيحة التي تلحق بهم.

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن المؤمنين أن جزاءهم سيكون النعيم الدائم في جنات النعيم، وأخبرهم أن التحية بينهم فيها ستكون سلام بعضهم علىٰ بعض، وتسليم الملائكة عليهم، وإقبالهم عليهم من كل باب يهنئونهم بما نالوا جزاءً علىٰ صبرهم في الدنيا علىٰ طاعة الله.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾ يخبر الله سبحانه وتعالىٰ عما تخلفه الكلمة الحسنة وراءها من الثمار، وما تتركه من الفوائد والمنافع بعدها، والأثر الكبير الذي يلحقها، حتىٰ ولو كانت لعدو؛ فإنه إذا سمع منك كلمة طيبة فإنك تراه ينجذب إليك، ويظهر لك الود والاحترام والإخلاص، وأن حالها في ذلك كالشجرة الطيبة التي جذورها ثابتة في الأرض بينما ثمارها قد تدلت من أغصانها المتدلية من فوق يأكل منها جميع الناس.

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ فحال الكلمة الطيبة كحال هذه الشجرة التي تؤتي ثمارها كل وقت يأكل منها جميع الناس.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ جعل الله سبحانه وتعالىٰ لنا هذه الأمثال لندرك مدىٰ تأثير الكلمة الطيبة وما يترتب عليها من المنافع والفوائد، وما فيها من المصلحة الكبيرة للدين ولهداية الناس إليه؛ لأنهم إذا سمعوا منك صدق الكلام ولينه، وعرفوا حرصك علىٰ الكلام الحسن والطيب، والرد علىٰ من أساء إليك بالكلمة الحسنة فإن القلوب بلا شك ستنجذب إليك، وستجعلهم يقبلون إلىٰ الاستماع إليك، والقبول منك والرغبة إليك.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ بخلاف الكلمة الخبيثة؛ فإذا سمعوا منك الكلام الفاحش والبذيء فإنهم سينفرون منك، ولا يتقبلون عنك، ولا يقبلون عليك ولو كنت عالماً، بل

ولو بلغت الدرجة العليا في العلم، وأن حالها كحال الشجرة التي لا تحمل إلا الشوك، ولا تخلف وراءها إلا الأذى للناس، حتى ولو اقتطعت فإنها تترك وراءها الشوك، ومن مر بجانبها مرة فلن يمر من عندها مرة أخرى؛ لما يلحقه من أذى الشوك الذي خلفته بعد قطعها.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه يثبت عباده المؤمنين بهذه الكلمة الحسنة، والقول الحسن في الدنيا والآخرة، لما يكون منهم من الأخلاق الحسنة مع الناس، والكلام الحسن طول زمانهم، وفي الآخرة وعند الموت كذلك يكون منطقهم طيب الكلام، وذكر الله سبحانه وتعالى، لا ينفكون عنه، وأما الظالمون فلا يوفقهم الله سبحانه وتعالى إلى ذلك.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ وهؤلاء هم مشركو قريش أنعم الله سبحانه وتعالى عليهم بنعم كثيرة وعظيمة؛ فقد جعلهم سكان بيته الحرام وهم أهل الله، وبعث فيهم نبياً منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، ثم إنهم بالرغم من كل ذلك قابلوا هذه النعم بالكفر والجحود، وأدخلوا قومهم جهنم بسبب جهلهم وكفرهم.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ قابل مشركو قريش نعم الله سبحانه وتعالى عليهم أيضاً بأن جعلوا مع الله آلهة أخرى ليضلوا الناس عن طريق الحق والدين الحق.

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ أن يخبر المشركين أن مصيرهم إلى النار جزاءً على كفرهم ذلك، فليتمتعوا في الدنيا، وليتنعموا فيها بما أنعم عليهم من النعم فعاقبتهم إلى النار وبئس القرار.

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وأمره أيضاً أن يخبر الذين آمنوا وصدقوا، ويأمرهم بأن يؤدوا صلاتهم، ويخرجوا ما أوجب الله سبحانه وتعالى عليهم من زكاة أموالهم في السر والعلانية.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴿٣١﴾﴾ وليفعلوا ذلك قبل أن يأتي عليهم يوم القيامة يوم الحسرة والندامة الذي لا تكون فيه مبادلة منافع، ولا تنفع فيه صداقة فلا صديق ينفع صديقه، وقد انقطع الود فيما بينهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ فهو وحده الذي يستحق الإلهية والعبادة؛ لأنه الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل لكم المطر، وأنبت به الزرع، وأخرج به الثمر، وجعل فيه أسباب رزقكم ومعايشكم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ فهو الذي هيأ البحر وسخره لحمل السفن التي تحملكم وتحمل أمتعتكم، وجعلها تجري على ظهره بقدرته وإرادته.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴿٣٢﴾﴾ هيأها لتستنفعوا منها، وتسقوا منها أشجاركم، وتستقوا منها أنتم وأنعامكم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ جعلهما يجريان على طول الزمان في خدمتكم، وعلى حسب مصالحكم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴿٣٣﴾﴾ وهيأهما في خدمتكم ومصالحكم، فجعل النهار لتنظروا فيه أسباب معايشكم وأرزاقكم، والليل لتسكنوا فيه وتهدؤوا من تعب نهاركم.

﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى عباده في هذه الآيات بنعمه عليهم، وإعطائهم كل ما طلبوه من منافع الدنيا على حسب مصالحهم.

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴿٣٤﴾﴾ ومهما عد الإنسان من نعم الله سبحانه وتعالى فلن يستطيع أن يحصيها لكثرتها، ولو عد نعمه عليه التي في نفسه فلن يستطيع ذلك.

فنعمة النفَس وإدخال الهواء إلى الرئتين، وانتظام دقات القلب على طريقة واحدة من دون اختلال أو فقد توازن، وتصفية الكليتين للسوائل التي يشربها، وأسنانه التي يقطع بها طعامه، وعيناه اللتان يبصر بهما ما أراد ويهتدي بهما لما أراد، وأذناه اللتان يسمع بهما، ونعمة الطعم والذوق، ونعمة الشم، ونعمة اللمس ونعمة الكلام والتعبير عما بداخلك، وكم وكم غير هذه في جسمك التي لا تعد ولا تحصى، وكل نعمة من هذه النعم تترك وراءها ما لا يعد ولا يحصى من المنافع، ومع كل هذا فهو جاحد لهذه النعم، وكافر بها، غير معترف لله سبحانه وتعالى بمنة أو نعمة.

والظلوم هو الذي يضع الأشياء في غير مواضعها فيعبد من لا يستحق العبادة، ويطيع من لا يستحق الطاعة، ويشكر من لا يستحق الشكر.

والكَفَّار هو الجاحد بما أنعم الله سبحانه وتعالى عليه غير معترف بنعمه عليه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ يريد الله سبحانه وتعالى أن يذكر قريشاً بنعمه العظيمة عليهم، وهي أن جعلهم من ذرية إبراهيم، وأسكنهم حرمه، وجعله حرماً آمناً، وأمنهم في أنفسهم يجيئون ويذهبون أينما أرادوا، بينما كانت بقية العرب في خوف وقتل وقتال، يتناحرون فيما بينهم، ويغزو بعضهم بعضاً، وهم يسيرون في جزيرة العرب آمنين على أنفسهم، وكانت العرب تسميهم بأهل الله، فهم آمنون في أنفسهم وبلادهم.

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ۝٣٥﴾ وهذا من دعاء إبراهيم عَلَيْهِ وَآلِهِ بأن يرزقه الله سبحانه وتعالى الذرية الصالحة لكي يعبدوه ويوحدوه.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ۝٣٦﴾ يدعوا إبراهيم عَلَيْهِ وَآلِهِ الله تعالى أن يثبته على دينه، وأن من كان معه على ملته ودينه فهو منه، وأن من عصاه ورفض الاستجابة لدعوته وعكف على عبادة الأصنام ولوكان من ولده فالله سبحانه وتعالى أولى به.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه إبراهيم ﷺ وهو في الشام بأن يهاجر بزوجته وابنه إلى مكة، وكانت أرضاً قفراء، فلا ماء ولا زرع، ولم يكن فيها أحد من الناس غير بعض القبائل كانوا ساكنين على مسافة منها، وهي أرض لا يصلح فيها الزرع، فأسكنهما بأمر الله سبحانه وتعالى فيها وذلك لحكمة منه سبحانه ومصلحة كان علمها، فدعا إبراهيم ﷺ الله سبحانه وتعالى بأنه قد أسكن بعض ذريته في تلك الأرض ليعمروها بذكره وعبادته وطاعته؛ لأنه سبحانه وتعالى قد أراد عمارة تلك البقعة بعبادته.

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ دعا الله سبحانه وتعالى بأن يجعل في الناس الرغبة فيها والدواعي التي تجعلهم يميلون إليهم ويقصدونهم، ويسافرون إليهم من كل مكان في الأرض.

﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ۝٣٧﴾ وكذلك دعا الله سبحانه وتعالى أن يسبغ عليهم من النعم ويوسع لهم في الأرزاق ليشكروه، ولازالت دعوته تلك إلى يومنا هذا فالفواكه وخيرات الأرض تقبل عليها من كل مكان لا تنقطع في جميع أوقات السنة.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ۝٣٨﴾ عندما أمر الله سبحانه وتعالى نبيه إبراهيم ﷺ أن يسكن امرأته وابنه في تلك الأرض القفراء وحدهما، ثم يرجع إلى الشام بعد ذلك وكان الولد طفلاً لا حول له ولا قوة، فعند ذلك أصابه الحزن الشديد، والضيق والقلق عليهما، ولكنه عرف أن هذا أمر الله سبحانه وتعالى، ولا بد أن يمتثل لأوامره، وعندها دعا الله سبحانه وتعالى شاكياً إليه ما هو فيه من الحزن والضيق، وانه وحده العالم بحاله، وما هو فيه لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء، ويرجوه أن يعينه على الصبر على بلواه هذه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴿٣٩﴾﴾ ثم حمد الله سبحانه وتعالى بعد ذلك على ما أنعم عليه من الأولاد في كبره وشيخوخته.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴿٤٠﴾﴾ ثم يدعوا الله سبحانه وتعالى بأن يوفقه هو والصالحين من ذريته إلى طاعته وإقامة الصلاة.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴿٤١﴾﴾ يطلب لوالديه المغفرة؛ لأنه كان قد وعد أباه أن يستغفر له ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤]، ويحتمل أن يكون طلبه ذلك للصالحين من آبائه الأولين، وفي ذلك أيضاً تعليم للناس كيف يستغفرون الله سبحانه وتعالى ويطلبونه، فإبراهيم هو قدوة المسلمين ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:٧٨]، ولكن ينبغي أن ينوي المرء عند ذلك الصالح منهم.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ فلا تظن يا محمد أن الله سبحانه وتعالى غافل عنهم وعن أعمالهم عندما تراهم يتقلبون في النعم التي لا تحصى من التجارة والسعة والعدة والعدد والأمن والأمان والوجاهة والعافية والسلامة والرياسة، فالله سبحانه وتعالى مطلع عليهم وعلى أعمالهم، وسيؤاخذهم عليها؛ فما عليكم إلا الصبر.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴿٤٢﴾﴾ وأخبره أنه إنما يؤخر تعذيبهم إلى يوم القيامة، ووصفه بأن الأبصار تشخص فيه لشدة هوله وعظم الأفزاع التي فيه، فلا يحركون أبصارهم لما هم فيه من الهول والمراقبة والانتظار للعذاب.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ خاشعين من الذل ومطأطئين لرؤوسهم، فهم مستسلمون منتظرون للعذاب الذي سينزل بهم.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ فهم محدقون بأعينهم إلى ناحية العذاب، لا تنظر إلى ما سواه، ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ وأفئدتهم خالية من كل تفكير لانشغالها بأهوال يوم القيامة.

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن ينذر المشركين ويخبرهم بأن العذاب منتظر لهم إن لم يقلعوا عن شركهم، وأنه واقع بهم لا محالة.

﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ يخبرهم النبي ﷺ بذلك وأنهم سيطلبون من الله سبحانه وتعالى وقت حلول العذاب أن يمهلهم وينظرهم ليؤمنوا، ولكن حين لا ينفع الندم ولا يجابون إلى التأخير.

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ عندها يجيب الله سبحانه وتعالى عليهم بأن العذاب قد وجب ولا مفر لهم منه، ولن تنفعهم توبتهم حينها، ويخبرهم بأنه قد جعل لهم الفرص قبل ذلك فلم يغتنموها، وكانوا ينكرون ما ينذرهم به نبيهم ويكذبون ما جاءهم به، وينكرون البعث بعد الموت والحساب والجزاء.

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ وقد عرفتم وتحققتم أيضاً أن الله سبحانه وتعالى قد أسكن أمماً قبلكم، وخلفتموهم في مساكنهم وقد عذبهم واستأصلهم بسبب تكذيبهم، ثم سكنتم في مساكنهم، فلماذا لم تعتبروا بهم، وبما نزل عليهم من عذاب الله وسخطه، وخاصة أنكم قد تحققتم ذلك؟

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ فلماذا لم تعتبروا ولم تتعظوا؟ وقد قصصنا لكم أخبار الأمم، وضربنا لكم الأمثال، وأرسلنا إليكم الرسل لتنذركم وتحذركم، فقد بلغتكم الحجة، ولم يبق لكم أي عذر.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ وهم المشركون فقد بالغوا في المكر، وعملوا جميع الحيل، واتخذوا جميع الوسائل في استئصال الإسلام، وإبطال دعوة النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ فأخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن قدرته فوق قدرتهم، ومهما حاولوا فهو من فوقهم بقدرته يبطل ما يكيدونه ويدبرونه.

﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴿٤٦﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن الجبال ما كانت لتزول من مكرهم وحيلهم، وبعضهم فسر ذلك بأن مكرهم عظيم غير أن مكر الله سبحانه وتعالىٰ فوق مكرهم.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ فلا تظن يا محمد أن الله سبحانه وتعالىٰ سيخلف ما وعد به رسله من النصر والظفر بالمشركين والقهر لهم، بل سينتقم لدينه من المشركين ويعذبهم ويعز رسوله والمؤمنين، غير أنه تعالىٰ يمهلهم ويتأنىٰ بهم إلىٰ أن يحين أجلهم؛ لأن المسلمين كانوا قد استبطئوا نزول عذابه بهم حتىٰ صاروا في شبه يأس من النصر والظهور عليهم؛ لما كانوا يرونه من المشركين من القوة والعدد والعدة والتمكن في الأرض والسلطان الكبير وكثرة الأموال والتجارات.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴿٤٧﴾﴾ فالله سبحانه وتعالىٰ لا يمتنع عليه شيء وهو قادر علىٰ أن ينتقم منهم، وسينتقم منهم، غير أنه لم يحن ذلك الوقت الذي أراد أن يعذبهم فيه.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴿٤٨﴾﴾ وسيكون وقت انتقامه منهم يوم القيامة يوم يحشر جميع الخلق إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وإلىٰ الحساب والجزاء.

وأراد بتبديل الأرض أنها سوف تتساوىٰ عاليها بسافلها ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴿١٠٧﴾﴾ [طه]، وليس هناك أرض غير هذه الأرض كما يظن البعض، فهذه الأرض هي نفسها الأرض التي سيبعثون منها وسيحاسبون فوقها ثم يسيرون منها إلىٰ الجنة والنار.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴿٤٩﴾﴾ وسيكون المجرمون في يوم القيامة مقيدين بالسلاسل والأغلال.

﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ﴾ وهي ملابسهم ستكون من نحاس ذائب من شدة الحرارة.

﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴿٥٠﴾﴾وهو اللهب يلفح وجوههم ويحرقها.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴿٥١﴾﴾ سيبدل الله الأرض ويحشر الناس وسيحاسبهم؛ لأجل أن يجازي كل نفس بما عملت.

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وأنزل معه القرآن؛ ليبلغ الناس معالم دينهم، ويحذرهم من عذاب الله، وينذرهم سخطه ونقمته، وما دام الأمر هكذا فالمفروض أن يأخذ المرء حذره، ولو لم يحصل له اليقين بصدقه، فالعاقل يحتاط لنفسه.

﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴿٥٢﴾﴾ فلا يكون لأحد أي عذر عند الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، فقد بلغتهم الحجج، وقد أعذرهم وأنذرهم وحذرهم على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم الذي عرفوا صدقه وأمانته حتى أنه اشتهر بينهم بلقب الصادق الأمين مع ما أيده الله تعالى به من الآيات البينات والحجج الواضحة والبراهين القاطعة للأعذار.

تمت سورة إبراهيم

ويليها سورة الحجر

❁❁❁❁❁

سورة الحجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ۝١﴾ يشير الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ بأن هذا الذي يتلى عليه هو من آيات الكتاب، وآيات القرآن الذي قد وضحت حجته وتبينت آياته.

﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ۝٢﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن الكفار سيتمنون يوم القيامة أنهم كانوا مسلمين في الدنيا لما يرونه من عذاب الله.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ۝٣﴾ اتركهم يا محمد يأكلوا في الدنيا ويتمتعوا فيها كما تأكل الأنعام فلن يدخلوا في دينك، ولن يستجيبوا لدعوتك، وسوف يعلمون بصدق دعوتك، وأنك مرسل من عند الله سبحانه وتعالى عندما يرون نزول العذاب بهم وحلوله بساحتهم، فدعهم يعيشون على الآمال التي يؤملونها ويتمنونها.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ۝٤﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه لم يهلك قرية ويعذب أهلها إلا عند بلوغ أجل عذابها الذي حدده لها؛ فلا تستعجل يا محمد على عذاب قومك، وسيأتيهم العذاب عند حلول أجله الذي كتبه الله تعالى.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ۝٥﴾ لا تستعجلوا هلاك قريش فإن لهم أجلاً لا بد أن يبلغوه ويصلوا إليه؛ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فهم كغيرهم من الأمم التي عذبها الله.

﴿وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ۝٦﴾ سخرت قريش من النبي ﷺ ومن دعوته ونسبته إلى الجنون.

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ۝٧﴾ وقالت له قريش: فإن كنت صادقاً يا محمد فيما تزعم فهات الملائكة يشهدون بصدق نبوتك.

﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فأجاب الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ المشركين بأنه لا ينزل الملائكة إلىٰ الناس إلا إذا أراد إهلاك قوم وتعذيبهم فإنه ينزلهم لإهلاكهم كما نزل جماعة من الملائكة لإهلاك قوم لوط أو ينزلهم بالوحي إلىٰ رسله عليهم السلام.

﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ۝٨﴾ ولو أن الله تعالىٰ نزل الملائكة إلىٰ قريش كما اقترحوا لأخذهم بالعذاب ولما أمهلهم.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ۝٩﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه قد نزل عليه القرآن وسيحفظه من التحريف والتبديل والتغيير.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ۝١١﴾ وأخبره أيضاً بأنه قد أرسل قبله الرسل في كل فرقة من فرق الأمم السابقة، وكانت كل فرقة تكذب وتستهزئ برسولها، وتلحق به الأذىٰ.

أراد الله سبحانه وتعالىٰ أن يهون علىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم تكذيب قومه واستهزاءهم، وأن يشد من عزمه علىٰ مواصلة دعوته وتبليغ رسالته؛ لأنه إذا عرف أن الأنبياء قبله قد أصابهم مثل ما أصابه هانت عليه مصيبته، فالمصيبة إذا عمت هانت.

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ۝١٢﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ بأنه يدخل القرآن في قلوب المكذبين به، ويفهمهم إياه؛ ليكون حجة عليهم يوم القيامة.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ۝١٣﴾ وقد عرفوه وعلموا به، ولكنهم لن يؤمنوا أبداً، يخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بذلك لئلا يظن عندما يراهم لم يؤمنوا أنهم لم يفهموا حجة الله ولم يعلموا بها، فقد علموها، ولكنهم تمردوا واستكبروا ويريد الله تعالىٰ أن يحسم طمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في إيمانهم، وأخبره بأنه قد عذب تلك الأمم السابقة جزاءً علىٰ كفرهم وتكذيبهم بأنبيائهم، وأن قومه سيصيبهم مثل ما أصاب الأمم السابقة، وأن سنته في جميع خلقه واحدة لا تتبدل.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ۝١٤ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ۝١٥﴾ أراد الله سبحانه وتعالى أن يحسم طمع النبي ﷺ في إيمانهم، ويقطع رجاءه فيهم، وأخبره أنه لو فتح لهم باباً إلى السماء يطلعون منه إليها، ثم ينزلون ويجيئون منه ويذهبون متى أرادوا- لظلوا على كفرهم هذا وتمردهم، ولما نفع فيهم ذلك، ولقالوا: إن الذي نسمعه من الملائكة ليس صدقاً وإنما قد أصابنا السحر، فلا تظن يا محمد أن إعراضهم وتمردهم لنقص في تبليغهم أو خلل في آياتك، فلن يؤمنوا أبداً أبداً.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ۝١٦﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى نعمه على خلقه، ويعرضهم على مدى قدرته وقوته ليلتفتوا إلى آياته هذه التي بثها لهم، ويتفكروا ويتدبروا فيها، وحثهم أن ينظروا إلى خلق النجوم التي فوقهم كأنها قناديل معلقة في السماء تزينها بنورها وجمالها.

والبروج هي المنازل والطرق التي يسير فيها كل نجم، وأن كل نجم له منزلة لا يتخلف عنها.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ۝١٧﴾ حفظ الله تعالى السماء فلا تستطيع الشياطين أن تطلع إلى السماء لتستمع إلى ما تتكلم به الملائكة، أو تطَّلع على الأسرار من علم الغيب التي تتناقلها الملائكة فيما بينهم، والتي قد أطلعهم الله سبحانه وتعالى عليها؛ لأن الشياطين إذا سمعت ذلك فإنها ستنقله إلى كهنتها ومنجميها.

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ۝١٨﴾ إلا ما كان من بعض العفاريت المتمكنين بما معهم من القوة فيغامرون ليسترقوا بعض الأخبار، فإن الله سبحانه وتعالى يرمي من فعل ذلك بشهاب يرسله عليه فيحرقه ويطرده، وقد قيل إنه لا يموت منه، وإنما يؤلمه ألماً شديداً يمنعه من الإتيان مرة أخرى.

والمراد بهذه السماء هي سماء الدنيا؛ لأن النجوم الساطعة فيها، وأما التي فوقها فليس فيها نجوم ساطعة ظاهرة للناظرين.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ ثم يذكر الله سبحانه وتعالى عباده بأنه قد مهد لهم الأرض، وجعلها صالحة للاستقرار على ظهرها والعيش فوقها.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وجعل فيها الجبال ليهتدي بها الناس في طرقهم ومعرفة الجهات والبلدان، ولتحفظ الأرض من الْمَيَدَان.

﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ١٩﴾ وأنبت فيها من المعائش على قدر حاجة خلقه ومصالحهم، ولا يخلق شيئاً أو ينبت شيئاً عبثاً زائداً على قدر الحاجة ولا ينقص من قدر الحاجة.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ جعل الله في الأرض أماكن صالحة للزراعة، ولحياة الحيوانات والأسماك، وبذلك قامت الحياة على ظهر الأرض للإنسان والحيوان.

﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ٢٠﴾ وكذلك أرزاقاً للحيوانات التي لا تستطيعون أن ترزقوها، وقد جعل الله سبحانه وتعالى لها في الأرض قدر حاجتها.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ٢١﴾ وكل شيء تحت قدرته وسيطرته وفي خزائنه وملكه، يعطي كلاً حاجته، ولا ينقص من ملكه شيء، وأن الأرزاق بيده ينزلها لخلقه على قدر ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يخبرنا الله سبحانه وتعالى بفائدة الرياح والنعمة التي جعلها لنا فيها، وهي أنها تلقح الأشجار، وتلقح السحاب ليمطر؛ لأن السحاب يلقح بعضه بعضاً، فتأتي الرياح فتدمج هذا مع هذا مما يؤدي إلى أن يتفاعل فينزل المطر منه.

﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ٢٢﴾ ولن تستطيعوا أن تخزنوا هذا الماء الذي ينزل من السماء وإنما تمتصه الأرض إلى أن ينضب.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ٢٣﴾ ينبه الله سبحانه وتعالى هنا الإنسان عن غفلته ويوقظه لينتبه من رقدته، ومن الوقوع في المهالك والمآثم، ويذكره بأن الموت والحياة بيده، وأنه هو الذي وهب الحياة، وسيأخذها متى ما

أراد؛ فليحذروه ويتقوا معاصيه، ويجتنبوا سخطه وعذابه.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴿٢٤﴾﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى مشركي قريش بأنه سيأخذهم بعذابه وأنه قد علم من هو الذي سيعذبه منهم أولاً، وأنه عالم بمن سيأخذه بعذابه آخراً.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴿٢٥﴾﴾ وأن مرجعهم إليه يوم القيامة جميعاً، وكل من خلقه على وجه الأرض سيحشره يوم القيامة للجزاء والحساب.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى عباده بنعمته عليهم بالخلق لعلهم يرجعون إليه، ويتركون ما هم فيه من الضلال والكفر، وأن بيده كل ذلك، أما الأصنام فلم يكن منها أي خلق أو رزق أو حياة أو موت.

يخاطب الله سبحانه وتعالى العقل هنا؛ لأنه إذا تفكر في ذلك وتدبر عرف صدق ذلك، وإذا تفكر المشركون في الأصنام عرفوا أنها ليست إلا أحجاراً أخذوها من الجبال ونحتوها وصوروها، وسموها آلهة وعبدوها، وعرفوا أيضاً أنها لا تنفع ولا تضر، ولا تستطيع فعل شيء.

ينبه الله سبحانه وتعالى المشركين ويذكرهم بذلك؛ لأنهم في بداية أمرهم نشأوا على ذلك وتربوا على عبادة الأصنام من صغرهم، وغرس آباؤهم فكرة إلهيتها في عقولهم، مما أدى ذلك إلى تعطل عقولهم، فعندها أرسل الله سبحانه وتعالى رسله وأنبياءه ليذكروهم ويوقظوا عقولهم، ويثيروها على التفكر والتدبر، فإذا تفكروا وتدبروا عرفوا صدق ما جاءتهم به رسلهم، وأنهم كانوا في ضلال وباطل.

﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴿٢٦﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه خلق الإنسان، وأن أول ما خلق آدم من تراب أسود، والمسنون هو المملس والمصنوع على شكل آدمي، والصلصال هو التراب الذي قد عجن بالماء، ويكون له صوت طنين عند الضرب عليه إذا يبس، ثم بعد أن صوره على ذلك الشكل نفخ فيه الروح فإذا هو إنسان يتحرك ويمشي ويسمع ويبصر، وهذا هو بداية خلق البشر.

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه خلق الجان قبل خلق الإنسان، وأنه خلقهم من اللهب الأصفر الذي يكون في النار.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ أوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ ملائكته قبل خلق آدم بأنه سيخلق بشراً من التراب.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وأمرهم بالسجود له حين ينفخ فيه الروح.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ وكان هذا اختباراً منه جل وعلا لملائكته، من سيذعن منهم لأوامره، ويتواضع ويتضعضع لعظمته؛ فسجد جميعهم إلا إبليس؛ فإنه استكبر عن ذلك، ولم يتنازل لأن يسجد لبشر من طين، وكيف يسجد له وهو أفضل منه لكونه خُلِق من النار، والنار أشرف من الطين؟ وكان بتكبره هذا إنما يتكبر علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ عندما لم يمتثل لأوامره وتعاظم عن الانقياد لأمره.

﴿قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾ استنكر الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ إبليس امتناعه من الامتثال لأمره.

﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ فيجيب إبليس بأنه لا ينبغي له أن يسجد لبشر أدنىٰ منه في الخلقة، وزعم أن ذلك غير لائق به وبمكانته.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ عندها أمره الله سبحانه وتعالىٰ بالخروج من الجنة التي خلق آدم فيها، وهي من جنان الأرض، والرجيم هو المطرود، وأخبره بأنه مطرود من رحمته إلىٰ يوم القيامة.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ طلب إبليس من الله سبحانه وتعالىٰ بعد أن طرده ولعنه أن

ينظره ويمهله إلىٰ يوم القيامة، وألا يميته، فأجابه الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ ما طلب ووعده أن يمهله إلىٰ وقت مبعث الناس يوم القيامة.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴿٣٩﴾﴾ فما دمت محكوماً علي بالغواية واللعنة والطرد فسأزين للبشر المعاصي، وسأغويهم عن طريق الحق والصواب وأصرفهم جميعاً عن طريق الحق.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴿٤٠﴾﴾ استثنىٰ إبليس عباد الله المخلصين لعلمه بأنه لا يستطيع إضلالهم وإغواءهم، لإخلاصهم لله سبحانه وتعالىٰ، وإن وقع منهم زلة أو خطيئة تابوا عنها من ساعته وحينه، وأقلعوا عنها.

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴿٤١﴾﴾ أخبره الله سبحانه وتعالىٰ أن عباده المؤمنين قد استحقوا أن يحوطهم الله بألطافه وبعنايته وتوفيقه وتسديده.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ وأخبره أنه لا تسلط له عليهم لثباتهم وقوة إيمانهم ولعناية الله بهم، وأما البقية فقد صاروا تحت سلطانه وسيطرته وهو ما استثناه بقوله:

﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴿٤٣﴾﴾ لموعد الغاوين من الجن والإنس.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴿٤٤﴾﴾ لجهنم سبعة أبواب، وأصحاب جهنم سبعة أصناف لكل صنف منهم باب يدخل منه.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴿٤٥﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن حال المتقين أنهم يتنعمون في البساتين التي فيها ما لذ وطاب من أنواع الفواكه والثمار، وأن الأنهار تجري في هذه البساتين.

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴿٤٦﴾﴾ وستزفهم إليها الملائكة بأمر من الله سبحانه وتعالىٰ، وكذلك ستزف إليهم التهاني والتبريكات ويطمئنونهم عند ذلك، ويبشرونهم بنيل الفرح والسرور الذي لا خوف معه.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ وسيذهب الله سبحانه وتعالى عنهم تلك الطبائع التي كانت في الدنيا موجودة عند كل إنسان من الغل والحسد والحقد وما أشبهها، وقد وجدت هذه الطبائع في الدنيا لأجل التكليف، فمن تحكم في نفسه ومنعها من الطمع والجشع والحسد فإنه يستحق على ذلك الثواب العظيم من الله سبحانه وتعالى.

﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴿٤٧﴾﴾ وسيكونون إخوة متحابين ومجتمعين على سرر يتحدثون فيما بينهم.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ لا يلحقهم فيها ما يكون في الدنيا من التعب والإرهاق والضيق والهم والحزن.

﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴿٤٨﴾﴾ فهم في نعيم دائم لا ينقطع ولا يفنى.

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴿٤٩﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلغ جميع عباده من المشركين وغيرهم أنه غفور لمن تاب ورجع إليه ولو كانت ذنوبه مثل الجبال؛ فسيغفرها له ما دام قد رجع إليه، وأن هذا من رحمته بعباده إذ يرغب عباده في الرجوع إليه، والإقلاع عما هم عليه من الشرك والمعاصي والفساد.

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴿٥٠﴾﴾ وأمره أن يخبرهم أيضاً أن عذابه شديد وأليم لمن أصر على معصيته ولم يتب منها، وأما من اعتذر عنده فسيقبل عذره، وأما إذا كانت زلته حقاً لآدمي فليذهب إليه ليتخلص من الحق عند صاحبه.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴿٥١﴾﴾ ثم أمره الله سبحانه وتعالى أن يقص على قومه قصة إبراهيم وما جرى له مع ضيوفه الكرام.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴿٥٢﴾﴾ وهذه هي بداية قصته معهم، وهي أنهم دخلوا عليه في هيئة البشر ضيوفاً، فسلموا عليه ورد عليهم، وأخبرهم أنه قد أصابه من دخولهم عليه الخوف؛ لأنه كان قد علم أنهم

من الملائكة، وأنهم لا ينزلون إلا لتعذيب قوم واستئصالهم.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ۝٥٣﴾ فطمأنوه وأخبروه أنهم إنما جاءوا إليه ليبشروه بمولود سيولد له، وسيكون من أهل العلم والحكمة.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ۝٥٤﴾ استنكر عليهم واستغرب في نفسه كيف يبشرونه بالولد بعد أن طعن في السن وبلغ حداً لا يسمح له بالإنجاب؟

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ۝٥٥﴾ فأجابوه بأنهم إنما يبشرونه بخبر قد أمرهم الله سبحانه وتعالى بتبليغه إياه، فكيف يتعجب من ذلك وهو يعلم أن الله على كل شيء قدير.

﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ۝٥٦﴾ فأجابهم إبراهيم ﷺ بتصديق وعد الله وأنه على كل شيء قدير.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ۝٥٧﴾ وكان قد عرف أنهم قد جاءوا لأمر آخر غير هذا الذي قد جاءوه به.

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ۝٥٨﴾ فأجابوه بأن الله سبحانه وتعالى أرسلهم إلى قوم لوط؛ لأنهم قد أفرطوا في المعاصي وبلغوا النهاية في الكفر والتمرد.

﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ۝٥٩ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ۝٦٠﴾ وأخبروه أنهم نزلوا لاستئصال قوم لوط عليه السلام جميعاً إلا لوطاً وأهله فلا يلحقهم سوء، إلا امرأته فإنه سيصيبها ما أصابهم، وسيعذبها الله سبحانه وتعالى معهم؛ لأنها كافرة مثلهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ۝٦١﴾ خرجوا من عند نبي الله إبراهيم ﷺ ذاهبين إلى قرى قوم لوط فلما دخلوا عليه.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ۝٦٢﴾ دخلوا على نبي الله لوط في هيئة الضيوف؛ فأنكرهم وسألهم عن ما جاءوا له.

﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ۝٦٣﴾ وأخبروه بأنهم جاءوه بما كان يتشكك فيه قومه ويكذبونه فيه؛ لأن لوطاً عليه السلام كان يحذر قومه من الخوض في الباطل والمعاصي، وينذرهم عذاب الله سبحانه وتعالى إن استمروا على كفرهم وباطلهم وضلالهم أن يحل عليهم فيستأصلهم فكذبوه.

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ۝٦٤﴾ جئناك بالعذاب عليهم، وهو واقع بهم لا محالة.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ وأمروه بأن يخرج من بين قومه بأهله في سواد الليل.

﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ أمروه أن يجعل أهله أمامه ويمشي خلفهم، ليحرسهم فلا يتخلف منهم أحد.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ وأمروه في خلال مشيهم ألا يلتفت أحد منهم وراءه، ولعل ذلك لكي لا يروا شدة العذاب النازل بقومهم.

﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ۝٦٥﴾ وأخبروه أيضاً أن الله سبحانه وتعالى سيرسل إليهم من يوجههم في مسيرهم.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ۝٦٦﴾ والمراد به أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى لوط أن وقوع العذاب بهم مقطوع به، وأنه لن يأتي عليهم الصباح إلا وقد استأصلهم وأبادهم، وقطع دابرهم.

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ۝٦٧﴾ وذلك عندما وصل ضيوف نبي الله لوط عليه السلام علم قومه بقدومهم فأقبلوا مسرعين نحوه يعلوهم الفرح والسرور بما سيفعلونه مع هؤلاء الضيوف من الفاحشة، وقد قيل إن امرأته هي التي أعلمت القوم بقدومهم.

﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ۝٦٨ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ۝٦٩﴾ استاء لوط عندما رآهم مقبلين إليه، وأخذ يترجاهم ويتوسل إليهم أن يتركوا ضيوفه

فلا يفضحوه فيهم.

وفي هذه الآيات تقديم وتأخير فقد بدأ بذكر أمر الملائكة لنبي الله لوط بالخروج، وإخبارهم له بوقوع العذاب بهم، ثم قص بعد ذلك بداية قدومهم، وما كان من لوط مع قومه، وقد ورد في القرآن كثير من هذا الباب.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ۝٧٠﴾ وزجروه وانتهروه بأنه الذي جنى على نفسه، وزعموا أنهم قد حذروه أن يأتي إليه أحد فلا يلومن إلا نفسه.

﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ۝٧١﴾ عرض عليهم أن يزوجهم بناته ليكفوا عن ضيوفه.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ۝٧٢﴾ فلم يقبلوا منه عرضه هذا، وأصروا على الفاحشة وعلى جهلهم وضلالهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ۝٧٤﴾ عندها نزل بهم عذاب الله وقت شروق الشمس بأن رفع جبريل قراهم وضرب بها الأرض فجعل أعلاها أسفلها، وأمطر الله سبحانه وتعالى عليهم بالحجارة من السماء، والسجيل هو الطين المستحجر.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ۝٧٥﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه لا زالت آثارهم باقية يراها كل من مر من حولها، وأن من تفكر فيها ونظر وتدبر في عاقبة أولئك القوم- انزجر وخاف وحذر من ارتكاب ما يسخط الله تعالى، وأن قريشاً لو نظرت وتدبرت لعرفت ذلك.

وكانت قرى قوم لوط في الأردن بجوار البحر الميت.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ۝٧٦﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن آثارهم لا زالت قائمة، وأنها في طريق أسفار قريش في تجاراتهم.

يحثهم الله سبحانه وتعالى على النظر والتفكر فيها لعلهم يعتبرون في عاقبة المكذبين بأنبيائهم كيف كانت.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴿٧٧﴾﴾ فهم الذين يعتبرون ويحذرون عذاب الله سبحانه وتعالىٰ وعقابه.

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴿٧٨﴾﴾ ثم انتقل الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ أصحاب الأيكة وما كان من شأنهم، والأيكة هي الأشجار الكثيفة الملتفة والمختلطة، وهم قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأهلكهم الله سبحانه وتعالىٰ عندما كذبوا نبيهم وتمردوا عليه.

﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴿٧٩﴾﴾ آثار مساكن قوم شعيب وآثار قرىٰ قوم لوط علىٰ طريق واضح تمر عليه قريش في أسفارها إلىٰ الشام.

وأراد بالإمام المبين الطريق الواضح التي لا زال الناس يسلكونها.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴿٨٠﴾﴾ ثم انتقل إلىٰ حكاية ما كان من شأن أصحاب الحجر وتكذيبهم بنبيهم، وهم قوم ثمود أصحاب نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجعل تكذيبهم به كأنهم قد كذبوا بجميع المرسلين.

﴿وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴿٨١﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه قد أعطاهم الآيات الواضحات الدالة علىٰ الحق وعلىٰ صدق نبيهم، ولكنهم كذبوا واستهزئوا وتمردوا.

والحجر هو السد الذي يحجز الماء كانوا قد جعلوه في واديهم فنسبوا إليه.

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴿٨٢﴾﴾ وآثارهم لا زالت باقية إلىٰ اليوم وهي في شمال المدينة وتسمىٰ مدائن صالح، وكانوا في نعمة وأمن وأمان ولكنهم نغصوا نعيمهم ذلك بكفرهم وتكذيبهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴿٨٣﴾﴾ جزاءً علىٰ كفرهم وتمردهم عذبهم الله سبحانه وتعالىٰ، واستأصلهم مع طلوع الصبح.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴿٨٤﴾﴾ فلم ينفعهم ما كانوا يجمعونه من متاع الدنيا من التجارات ومن العمران والقوة والعدة والعدد، ولم يدفع عنهم

شيئاً من عذاب الله.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى قريشاً أنه لم يخلق السماوات والأرض وما فيهما عبثاً وباطلاً، وإنما خلقهما لأمر عظيم وراءهما وهو يوم القيامة، ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام]، فأجابهم الله سبحانه وتعالى بذلك وأنه لم يخلقهما إلا ليرتب عليهما دارا أخرى تكون بعد هذه الدار يجازى فيها المحسن والمسيء.

﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴿٨٥﴾﴾ أكد الله سبحانه وتعالى على وقوع الساعة، وأنها أمر واقع لا بد منه، ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن لا يغلظ على المشركين، وأن يجيبهم بالكلام اللين والإحسان إليهم، وألا يعاتبهم أو يماريهم أو يسيء إليهم أي إساءة، وأن يقابل إساءتهم بالإحسان لعله يكون فيهم من يكون من أصحاب الخير؛ فيقبل إلى النبي ﷺ عندما يرى منه ذلك، ولأن الفحش في الكلام والغلظة فيه ستكون حاجزاً بينه وبينهم حتى ولو كان فيهم صاحب خير فلن يستطيع أن يقبل إليه مع ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴿٨٦﴾﴾ فهو عالم بخلقه وبطبائع عباده، وما هو الذي يتألف قلوبهم ويستميلها، وأن مقابلة الإساءة بالإحسان خير وأنفع من مقابلتها بالسيئة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴿٨٧﴾﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه قد أنعم عليه بنعمة هي خير له من كل ما مع المشركين من متاع الدنيا، وهو أن أعطاه سبعاً من المثاني وأعطاه القرآن، وقد فسرها بعضهم بفاتحة الكتاب، وسميت مثاني لأنها تثنى في كل ركعة، وبعضهم قال هي السبع السور الطوال من القرآن، وهي السبع الأول منه، وسميت مثاني لأنها تثنى فيها قصص الأنبياء والأمم، وتحكي أخبارهم، وتكرر ذكرها وتردده مرة بعد أخرى.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴿٨٨﴾﴾ نهى الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن ينظر إلى ما أعطاه الله بعض المشركين من المال والوجاهة والغنى والترف في الدنيا، وألا ينظر إليها نظر إعجاب، وأخبره أن ما قد أنعم به عليه من السبع المثاني والقرآن العظيم أعظم وأكبر من نعمته على المشركين، وألا يخالجه الشك في ذلك فيحتقر نعمة الله سبحانه وتعالى عليه، وأنه ينبغي له أن يفرح بنعمته هذه لأنها أكبر وأعظم مما معهم جميعاً، والمراد بقوله: ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي ما أنعم به على كثير من أفرادهم.

وألا ينظر إلى ما معهم نظر إعجاب، وكذلك نهاه عن الحزن من عدم إيمانهم، وكان يسوءه عدم استجابتهم له شفقة منه عليهم، ورحمة بهم أن يصيبهم العذاب، وأمره أن يتواضع للمؤمنين.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴿٨٩﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبر المشركين بأن الله أرسله إليهم لينذرهم ويحذرهم من عذابه وسخطه.

﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴿٩١﴾﴾ أراد الله سبحانه وتعالى أنه أنزل القرآن على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم كما ق أنزل التوراة والإنجيل على اليهود والنصارى، ثم وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم جعلوا القرآن عضين، فقد آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، فما وافق أهوائهم آمنوا به وما كان على خلاف رغباتهم وشهواتهم كفروا به.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿٩٣﴾﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى أنه سيسألهم عن جميع أعمالهم تلك، وسيجازيهم عليها.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴿٩٤﴾﴾ ثم أمره الله سبحانه وتعالى بأن يجهر بدعوته، ويبثها في كل مكان، ويبلغها جميع الناس، ولا يبالي بتكذيب المشركين أو يفتر لردهم لدعوته وتكذيبهم برسالته.

يحثه الله سبحانه وتعالى على الاستمرار والمضي في مواصلة دعوته؛ لأنه ﷺ كان يستاء كثيراً من تكذيبهم ويضيق صدره من إعراضهم عن دعوته وتنهار قواه من ذلك.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴿٩٥﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه قد كفاه أمر أولئك الذين يقفون في وجه دعوته وفي طريقها، وأنه سوف يهلكهم.

ثم إن الله سبحانه وتعالى قد نفذ ما كان وعد به نبيه ﷺ وأهلكهم يوم بدر، وكان وعده هذا وهو لا يزال في مكة في بداية دعوته، وقد عبر عنه بالماضي مع أنه لم يكن قد وقع دلالة على تحقق وقوعه، وأنه واقع لا محالة.

﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴿٩٦﴾﴾ وهؤلاء هم أولئك المستهزئون بالنبي ﷺ، وكانوا يعبدون الأصنام. يهددهم الله سبحانه وتعالى ويتوعدهم بأنهم سوف يعلمون عاقبة تكذيبهم واستهزائهم.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴿٩٧﴾﴾ كان النبي ﷺ يصيبه الضيق الشديد لما يراه من تكذيبهم واستهزائهم وعنادهم، ويصيبه الفتور وتضعف عزيمته في مواصلة تبليغ الدعوة، فأخبره الله سبحانه وتعالى أنه عالم بذلك الذي يصيبه ومطلع عليه، يشجعه الله سبحانه وتعالى بذلك، ويصبره على مواصلة دعوته لهم، وأنه سوف يجازيهم على ما كان منهم.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴿٩٩﴾﴾ أمره الله سبحانه وتعالى بأن ينزهه ويوحده، وأن يحمده وأن يكون من العاكفين على عبادته وحده، ويحثه على الاستمرار على ذلك حتى يأتيه الموت.

تمت سورة الحجر

ويليها سورة النحل

❁❁❁❁

سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ كان المشركون يسألون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يدعوا الله سبحانه وتعالى بأن يعجل نزول العذاب بهم إن كان صادقاً فيما يدعيه، فأخبرهم الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن ما يسألونه قد وجب عليهم، وأنه عما قريب واقع بهم فلا عجلة على مكروه.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾ تقدس وتعالى عن أن يكون له شريك كما يزعمون.

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۝٢﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه ينزل الملائكة بالقرآن الذي هو مثل الروح التي تكون بها حياة الأبدان، وأن القرآن حياة القلوب كما أن الروح حياة للأبدان؛ لأن من كان في ظلمات الجهل والشرك فهو ميت القلب؛ فإذا سمع القرآن وآمن فإن قلبه يحيا بالإيمان.

وأخبر سبحانه وتعالى أنه ينزله على من يشاء من عباده وهم الأنبياء كموسى وعيسى ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وغيرهم ممن اختارهم الله واصطفاهم لحمل شرائعه وتبليغها للناس، وأنزله عليهم لينذروا الناس من عبادة الأصنام وغيرها، ويأمروهم بعبادة الإله الواحد، واتقاء معصيته ومخالفة أوامره، واتخاذ الشريك معه.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾ هو وحده الذي خلق السماوات والأرض، يصرف الله سبحانه وتعالى آياته وينوعها، ويكررها للمشركين؛ لأجل أن يتدبروا ويتفكروا فيها، فهو عالم بمداخل قلوبهم، ومن أين يأتي عليهم، وما هو الذي سينفع في كل واحد منهم، ويذكر لهؤلاء قصة ولآخرين قصة أخرى لكل على حسب مصلحته وحاجته، فأخبرهم هنا أنه خلق السماوات والأرض بالحق لغرض وحكمة، وليس كما يزعم المشركون من أنه لا حياة بعد

الموت؛ لأنه لو كان كما يقولون لكان خلقهما عبثاً وباطلاً لا فائدة فيه، وأخبر أنه قد تعالىٰ عن هذه الآلهة التي يعبدونها من دونه أن تكون مشاركة له في الإلهية.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ۝٤﴾ وأخبرنا الله سبحانه وتعالىٰ أنه وحده هو الذي خلق الإنسان من نطفة وليست تلك الأصنام التي يعبدونها من دونه، واستنكر علىٰ الإنسان المخلوق من النطفة ثم العلقة... حتىٰ إذا بلغ مبالغ الرجال واستكمل عقله برز لعداوة خالقه ومخاصمته والكفر به والتكذيب برسله وكتبه وبآياته والكفران لنعمته.

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ۝٥﴾ ويذكرنا أيضاً بأنه الذي خلق لنا الأنعام نعمة منه علينا، لما جعل لنا فيها من المنافع والمصالح من الأكل والركوب علىٰ ظهورها، ولبس جلودها والتدفؤ به وبشعرها، والحرث عليها، يذكر المشركين بذلك أيضاً لعلهم يرجعون إلىٰ الحق والهدىٰ ويشكرون الله علىٰ نعمه.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ۝٦﴾ وكذلك يذكر الله سبحانه وتعالىٰ المشركين بنعمة الجمال الذي جعله لهم فيها والذي يدركونه ويشاهدونه في مجيئهم وذهابهم، ولكونهم من أهلها وأصحابها مما يجعلهم يحسون بهذه النعمة ويدركونها، وإن كنا لا ندرك هذه النعمة ولا نحس بها لكوننا لسنا من أهلها.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ۝٧﴾ وهذه أيضاً من النعم التي أنعم بها علىٰ خلقه يذكرنا بها لنرجع إليه وهي أنها تحمل الأمتعة في أسفارنا البعيدة التي لولا هي لأرهقنا حملها إرهاقاً شديداً، ولما استطعنا أن نصل إلا بتعب وجهد شديدين، والمراد بشق الأنفس هو أن التعب يكون قد أخذ بعض النفس وشقها، وهذا من رأفته ورحمته بخلقه أن أعطاهم وامتن عليهم بهذه النعم.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ وكذلك خلق الخيل والبغال والحمير وفيها نعمة الركوب على ظهورها، وجعلها زينة يتزينون بها عند ركوبها وتربيتها، والزينة ظاهرة في الخيل والبغال.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴿٨﴾﴾ يذكرنا الله سبحانه وتعالى بمدى قدرته وقوته وإحاطته بكل شيء، وأنه يخلق أصنافاً من المخلوقات لا نعلمها.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد أوجب على نفسه أن يبين لخلقه طريق الحق والهدى، وما فيه نجاتهم، وقصد السبيل هو بيان الطريق التي تسوق إلى الحق، وأخبرنا تعالى أن بعض الطرق جائرة تؤدي إلى الضلال والهلاك فلا نسلكها، وأن طريق الحق ليست إلا واحدة فقط.

﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴿٩﴾﴾ لو شاء مشيئة جبر وإلجاء لفعل ذلك، ولأدخلهم في الهدى مكرهين، ولكنه ترك خلقه ووكلهم إلى اختيارهم لما يترتب على ذلك من الجزاء.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وليست الأصنام التي تعبدونها أيها المشركون.

﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴿١٠﴾﴾ يذكر الله عباده بعظيم نعمة الماء الذي ينزله من السماء فيشرب منه الناس وتنبت به الأشجار والمراعي التي تأكلها الأنعام.

﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴿١١﴾﴾ وأخبرنا أن في ذلك دلالة كبيرة، وآية واضحة وبينة تدل على قدرته وإلهيته إذا كان هناك من يتفكر وينظر فبالماء الذي ينزله من السماء ينبت الله لنا الزرع بأنواعه وينبت به الزيتون والنخيل والأعناب والأثمار والفواكه على اختلاف أنواعها وأشكالها.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ وهيأهما لمصالحكم، وعلى حسب ما يوافق معايشكم.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ وكذلك الشمس والقمر سخرهما لمصالح بني آدم لما لهم فيهما من الدفء والنور والضياء ومعالم الأوقات والزراعة، والفائدة لأشجارنا وأنعامنا، وكم وكم من المنافع فيهما التي لو عددناها لاحتاج إلى الكثير من الكلام الذي لا يسع بسطه هنا.

وكذلك سخر لنا النجوم لنهتدي بها في أسفارنا، ونحدد به جهات مسيرنا، ونعرف بها ساعات الليل، وغير ذلك كثير من المنافع.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴿١٢﴾﴾ يذكرنا الله سبحانه وتعالى بذلك ليبعثنا على التفكر والتدبر في شأنها لنعرف من أوجدها، ومدى قدرته وعظمته وإلهيته، وأن في ما ذكره لأهل العقول آيات واضحات وحجج بينات تدل عليه وعلى تفرده بالإلهية.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴿١٣﴾﴾ وكذلك آياته التي خلقها في الأرض على مختلف أنواعها وأصنافها وألوانها فيها آية واضحة لمن تفكر ونظر فيها، فمن خلقها على هذه الصفة؟ ومن ميز بين ألوانها وصورها؟ فلو اجتمع أهل الأرض على أن يخترعوا لوناً لما استطاعوا، وكذلك الطعوم فمن هو الذي جعل لكل صنف طعماً ونكهة تميزه عن صنف آخر غيره؟ ومن هو الذي خالف بينها مع أن تربتها واحدة وتسقى بماء واحد؟ ولو اجتمع جميع علماء الأرض على أن يستخرجوا لوناً من تلك التربة، أو يجدوا فيها لوناً أو يستخرجوا حلاوة منها- لما استطاعوا ذلك، ولما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، مما يدل على أن هناك قدرة خارقة هي التي تتحكم في ذلك، وتخالف وتميز بين ألوانها وطعومها، وكل ما ذكرنا فيه دلالة واضحة تدل عليه جل وعلا، وعلى قدرته وعظمته، ومن تدبر فيها ونظر وتأمل عرف الله سبحانه وتعالى حق معرفته.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ۝١٤﴾ أخبرنا الله سبحانه وتعالى بأنه تفضل علينا بأن سخر البحر في خدمتنا، وهيأه في صالحنا نركب على ظهره، ونسير فوقه، وجعل لنا فيه أرزاقاً كثيرة فنأكل ونلبس ونتزين من خيراته، يخبرنا بذلك لنعرف فضله علينا ونعمته لنشكره ونحمده على ذلك، وكذلك تسخير السفن لتسير على ظهره ففيها آية دالة وواضحة تدل على أن هناك قوة سخرته على هذه الطبيعة، وكذلك ما جعل لنا فيه من أسباب المعايش والبيع والشراء والتجارات، كل ذلك لأجل أن نعرفه ونعرف نعمه علينا، ونعترف بها وأنها من عنده، ولكن أكثر الناس ينكرون فضله ونعمه هذه، وتمردوا وعاندوا واستكبروا.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ۝١٥﴾ يذكرنا الله سبحانه وتعالى بنعمته هذه وأنه قد خلق لنا الجبال لنستطيع أن نعيش على ظهر الأرض فلا تتمايل وتفقد توازنها، وكذلك سخر لنا الأنهار لنشرب ونسقي أرضنا ومواشينا، وكذلك الطرق التي نهتدي بها في أسفارنا كل ذلك لمصلحتنا، وقد جعل لنا في هذه الطرق علامات لنهتدي بها في سيرنا، فلو كانت كلها صحراء لضعنا ولتهنا فيها.

﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ۝١٦﴾ ثم ذكرنا بنعمة قد أنعم بها على العرب خاصة من بين سائر الأمم، حيث جعل لهم النجوم ليهتدوا بها في أسفارهم وطرقهم وتحديد جهات سيرهم.

وقد تكون الرواسي هي الجبال الكبيرة، والعلامات هي الجبال الصغيرة، فالرواسي لتحفظ توازن الأرض، والعلامات لنهتدي بها في سيرنا وطرقنا.

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ۝١٧﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى على المشركين كيف يساوون بينه وبين تلك الأصنام التي لا تخلق ولا ترزق، ولا

تستطيع فعل شيء، وكيف يشركونها في عبادته.

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ عدد الله سبحانه وتعالى لنا بعض نعمه علينا، وأخبرنا أن نعمه علينا كثيرة لا تعد ولا تحصى.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ خلقنا وجعل لنا كل هذه النعم وأخبرنا أنه عالم بنا، وأن علمه محيط بنا مثل ما أن قدرته محيطة بكل شيء.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى المشركين بأن معبوداتهم تلك التي يعبدونها من دونه لا تستطيع خلق شيء، بل هي في نفسها مخلوقة.

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ وأن الأصنام التي يعبدونها من دونه ليست إلا مواتاً وجمادات لا تعلم شيئاً عن البعث والحساب والجزاء؛ فكيف يعبدونها وهذا حالها؟

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ثم أخبرهم أن تلك التي يعبدونها ليست شيئاً فلا إله إلا إله واحد وهو الله رب العالمين.

﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ولكن أولئك الذين لا يصدقون بالبعث والجزاء ينكرون الله رب العالمين استكباراً منهم عن الاعتراف بالحق، ومع معرفتهم بالله تعالى فهم متمسكون بدين آبائهم، ومصرون على عبادة أصنامهم.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ يؤكد الله سبحانه وتعالى أنه مطلع على أعمالهم سرها وعلانيتها وسيجازيهم عليها، وأخبر أنه لا يثيب المستكبرين عن عبادته، ولا يدخلهم في رحمته؛ لأنه لا ينال رحمته إلا المتواضعون لعظمته، والمنقادون لأوامره بالسمع والطاعة والامتثال.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن المشركين إذا سألهم سائل: ماذا أنزل ربكم على محمد؟ فإنهم سيجيبون بأنه لم يأت إلا بخرافات من قصص الأولين وحكاياتهم.

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ثم أخبر بأن هؤلاء المشركين سوف يتحملون وزر ذنوبهم التي اقترفوها، بالإضافة إلى ذنوب الذين أضلوهم وأغووهم، لتسببهم في إضلالهم وإغوائهم من غير نقص من ذنوب الأتباع.

وذلك أن كبار المشركين وزعماءهم هم الذين كانوا يتصدون للدعوة، ويقفون في وجهها، وأما بقية القوم فكانوا تبعاً لما قالوا.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ والمؤمنين أن المكذبين من الأمم السابقة قد فعلت مع أنبيائها مثل ما فعلت قريش معه من مكرهم بالدين وتكذيبهم واستهزائهم.

﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ جزاءً على تكذيبهم ذلك واستهزائهم عذبهم الله سبحانه وتعالى بأن خرب بيوتهم فوقهم، وقد قيل إنه النمرود ومن معه من وزرائه وأشراف مملكته هم الذين تهدم عليهم بنيانهم، وقد يكون المراد بذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أخذهم بعذابه من المكان الذي يأمنون فيه، ويحسون بالأمان في جانبه، ولم يشعروا إلا بنزوله عليهم من حيث لا يتوقعون.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ ومع تعذيبهم في الدنيا فلا زال ينتظرهم عذاب يوم القيامة وهو أشد وأطم.

﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أيضاً بأنه في يوم القيامة سيخاطبهم وسيسألهم: أين هؤلاء الشركاء الذين كنتم تعبدونهم وتعادونني فيهم؟ وذلك لأنهم بعبادتها كانوا يعادون الله سبحانه وتعالى، يقول الله لهم ذلك يوم القيامة ليزيدهم حسرة وندماً إلى حسرتهم وندمهم.

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ۝٢٧﴾ وأنه سيجيب على سؤاله هذا أهل العلم من أنبيائه وغيرهم بأن الخزي هذا اليوم والعذاب على الكافرين.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ثم وصف الكافرين بأنهم هم الذين يموتون وهم مصرون على معاصيهم غير تائبين منها.

﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ وهم هؤلاء الكفار سيستسلمون يوم القيامة وقت رؤيتهم لمصيرهم، وسينقادون حينئذ لله سبحانه وتعالى، ويظهرون إيمانهم، وينكرون أنهم كانوا يعملون المعاصي في الدنيا، وذلك بعد أن كانوا في الدنيا يصرحون بعداوتهم لله ورسوله، ويظهرون حربهم للإسلام وأهله ويتحدون الله سبحانه وتعالى ورسوله بعنادهم وتمردهم، ثم يجيبهم الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ۝٢٨﴾ من المعاصي والشرك لم يخفَ عليه من أعمالكم شيء.

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ۝٢٩﴾ جزاءً على أعمالكم فهي مثواكم ومستقركم خالدين فيها أبداً، والمتكبر هو الذي يرفض أوامر الله سبحانه وتعالى، ولا ينقاد لما أمره أو نهاه عنه، ولو كان يمشي في الدنيا على وجهه من شدة التواضع، فما دام غير مستجيب لله تعالى ويجعل أوامر ربه تحت قدميه فهو متكبر.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ وأما المتقون فإذا سألهم السائل: ماذا أنزل الله تعالى؟ فإنهم سيجيبون بأنه قد أنزل الخير والهدى.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن الذين أطاعوه وعملوا الأعمال الصالحة سيكون ثوابهم الجنة، وقد يكون المراد بالحسنة هو ما يعطيهم في الدنيا من الخير، وقد يكون هذا من كلام المتقين جواباً لمن سألهم: ماذا أنزل ربكم؟

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ۝٣٠ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ ومع ثواب الدنيا سينالون ثواب الآخرة في النعيم الدائم في الجنة، والعدن: المراد بها النعيم الذي لا ينقطع.

﴿يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ وأخبر عن هذه الجنة بأنها بساتين تجري فيها الأنهار، وأخبرهم أيضا أن لهم فيها كل ما يشاؤونه ويتمنونه من أصناف النعيم.

﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ۝٣١ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ فهي للذين يتقون الله سبحانه وتعالى، ويتقون معاصيه وسخطه وغضبه- جزاءً على تقواهم وصبرهم على طاعته وطلب رضوانه، ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن صفة هؤلاء المتقين بأنهم الذين تتوفاهم الملائكة ويموتون وهم على طاعته، ومنقادون لأوامره ونواهيه.

﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ۝٣٢﴾ وأن الملائكة تسلم على هؤلاء، وتبشرهم بدخول الجنة من ساعة موتهم، ويطمئنونهم ويؤمِّنُونهم من الخوف والحزن، وكذلك في ساعة حشرهم.

وقد قيل: إن أسعد لحظات تمر على المؤمن في حياته على الدنيا هي ساعة موته، عندما تبشره الملائكة بالفوز بالنعيم الدائم في جنات النعيم، فيكون في فرح وسرور من تلك اللحظة، ولا يمسه حزن بعدها أبداً، حتى أنه من فرحه ذلك ينسى حزنه على فراق أهله وأحبته، ولو أنه كان يستطيع الكلام لأخبرهم بما يراه ويشاهده.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ ثم أخبر الله عن حال أولئك المكذبين، وأنه قد انقطع الرجاء في إيمانهم، وقد استحقوا العذاب، ولم يبق إلا أن تأتيهم الملائكة بعذابه.

﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وهو عذابه.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأن حال قريش كحال المكذبين السابقين، وسيلحقهم من العذاب مثل ما لحقهم جزاءً علىٰ تكذيبهم لأنبيائهم.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ۝٣٣﴾ فهم الذين جنوا علىٰ أنفسهم بتكذيبهم وتمردهم، وتسببوا في هلاكها.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ وأن ما لحقهم من العذاب فهو جزاء علىٰ ما عملوا من الأعمال السيئة.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ۝٣٤﴾ أحاط بهم جزاء ذلك العمل وهو استهزاؤهم بعذابه، وتكذيبهم به.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ۝٣٥﴾ عندما احتج النبي ﷺ علىٰ المشركين، وعلىٰ بطلان آلهتهم التي يعبدونها، وأنه لا يستحق العبادة إلا الله سبحانه وتعالىٰ وحده، فحينئذ احتج المشركون وزعموا أنهم علىٰ حق، واستدلوا علىٰ ذلك بأن الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي أراد لهم عبادة الأصنام، وأنه لو شاء أن يمنعهم لمنعهم فهو قادر علىٰ ذلك، وما دام لم يمنعهم وهو قادر علىٰ ذلك فهو دليل علىٰ أنه قد شاء لهم عبادة الأصنام، فهم لذلك علىٰ الحق في زعمهم، وكذلك ما حرموه من تلقاء أنفسهم فقد زعموا أن الله سبحانه وتعالىٰ لو شاء أن يمنعهم لمنعهم، ولكن لما لم يكن ذلك فهو دليل علىٰ أنه قد أراد ذلك وقد شاءه.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن المشركين ممن كانوا قبلهم قد احتجوا بنفس احتجاجهم، وأنهم علىٰ نفس طريقتهم، وأنه قد أرسل لهم رسله ليبلغوهم أمور دينهم، ويخبروهم ببطلان آلهتهم ودينهم، وأن هذا هو الواجب عليهم تجاه أممهم؛ فليس عليهم أن يدخلوهم في الهدىٰ والدين كرهاً، ويلجئوهم إليه؛ فما علىٰ الرسول إلا البلاغ، وقد شنع الله عليهم حين احتجوا بمشيئة الله وتعللوا بها، وذمهم علىٰ ذلك.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ بأنه قد تابع فيهم حججه، وقد بعث في كل أمة رسولاً لينذروهم ويحذروهم، ويدعوهم إلىٰ عبادة الله، واجتناب عبادة الطاغوت.

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فكل نبي أرسله الله تعالىٰ فإنه يأمر أمته بعبادة الله سبحانه وتعالىٰ وحده لا شريك له، وأن يجتنبوا عبادة الطاغوت، وفي هذا تسلية للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه إذا علم بحال الأنبياء قبله مع أممهم هانت عليه مصيبته.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ وأخبره بأنه قد اهتدىٰ منهم القليل، وأما البقية فقد استحقوا العذاب والهلاك لعنادهم وكفرهم وتمردهم.

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن يأمر المشركين بأن يسيروا في الأرض لينظروا ماذا حل بتلك الأمم المكذبة؛ لأن آثارهم كانت باقية، ولأنهم كانوا أهل سفر وتجارة، وكانت آثار المكذبين في طريق أسفارهم يرونها ويشاهدونها، كأصحاب لوط والأيكة وديار ثمود، فأمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن يذكرهم لينظروا ويتدبروا ويتفكروا فيما حل بهم.

﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حريصاً أشد الحرص علىٰ إيمان قومه، ودخولهم في الهدىٰ، وقد كاد أن يهلك نفسه من الأسىٰ والحزن علىٰ عدم استجابتهم- رحمة بهم، وشفقة عليهم من العذاب الذي ينتظرهم، فأخبره الله سبحانه وتعالىٰ أنه مهما حرص علىٰ هداهم فلن يهتدوا أبداً؛ لأنهم قد استحقوا الضلال والهلاك، وليسوا من أهل الهدىٰ، لأنه لا يهتدي إلا من كان من أهل الهدىٰ، واختار طريق الهدىٰ، وما دام ذلك الشخص قد اختار طريق الضلال فلا يصح أن يهديه الله سبحانه وتعالىٰ؛ لأن ذلك سيكون خلاف ما

تقتضيه الحكمة والمصلحة؛ لأن حكمته اقتضت أن يوكل كل امرئ إلى اختياره ومشيئته فمن اختار الضلالة حرمه الله الألطاف والتوفيق.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ۝٣٧﴾ وما داموا قد استحقوا الضلال والهلاك فلن يجدوا من ينصرهم أو يدفع عنهم عذاب الله وسخطه.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ وهؤلاء هم المشركون كانوا ينكرون أشد الإنكار البعث بعد الموت، ويحلفون على ذلك أغلظ الأيمان.

﴿بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ۝٣٨﴾ أجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بأنه سيبعثهم، وأكد على بعثهم بعد الموت، وأوجب ذلك على نفسه، ولكن على الرغم من كل ذلك فأكثر الناس لا زالوا ينكرونه تكبراً على الله سبحانه وتعالى، وعلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ والغرض من البعث بعد الموت أن يتبين المحق من المبطل؛ لأن كلاً من أهل الحق والباطل يدعي أنه الذي على الحق والهدى، وكل فرقة وملة من الملل من اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم تدعي أنها التي على الحق والهدى، فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه سيبعثهم بعد الموت ليظهر المحق من المبطل، وما داموا في الدنيا فلن تعترف أي فرقة للأخرى بأنها على الحق.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ۝٣٩﴾ وكذلك ليعلم أولئك الذين كانوا يدعون أنهم على الحق من الكفار والمشركين وغيرهم أنهم كانوا كاذبين في دعواهم.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ۝٤٠﴾ يبين الله سبحانه وتعالى أنه لن يعسر عليه شيء أو يعجزه أو يتعبه، وأنه إذا أراد شيئاً فإنه كائن من دون تكلف أو آلة يحتاج إليها؛ فلا تستبعدوا أيها المشركون البعث والحساب.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن المؤمنين الذين هاجروا من مكة لما كانوا يعانونه من أذى المشركين بأنه سيمهد لهم مكاناً حسناً في الدنيا يستقرون فيه ويعيشون عليه، ويأمنون فيه، ويعوضهم عن مكة أحسن منها.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ۝٤١﴾ وعد الله المؤمنين المهاجرين بالأجر العظيم في الآخرة مع ما يعطيهم من ثواب الدنيا.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ۝٤٢﴾ وهم المهاجرون الذين وعدهم الله سبحانه وتعالى بأنه سيعوضهم في الدنيا، وسيثيبهم في الآخرة جزاءً على صبرهم على دينهم وتمسكهم به بالرغم من كل ما يلحقهم من أذى المشركين وتسلطهم عليهم، وكذلك جزاءً على توكلهم على الله سبحانه وتعالى، واعتمادهم عليه، وتيقنهم أنه الذي سيفرج عليهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ كان المشركون ينكرون أن برسل الله نبياً من البشر، وزعموا أن ذلك لا يصح، وأنه لا بد أن يكون من جنس غير جنسهم؛ فأخبرهم الله سبحانه وتعالى بأن رسله الأولين كانوا جميعاً رجالاً من البشر يوحي إليهم برسالاته فيبلغونها للناس.

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ۝٤٣﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يأمر المشركين بأن يذهبوا إلى أهل التوراة والإنجيل يسألونهم عن ذلك، وكيف كانت الرسل الأولون؟ وهل هي من الملائكة أم من البشر؟

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ الجار والمجرور متعلق بنوحي، أخبر الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء الذين يرسلهم من البشر يوحي إليهم بتبليغ آياته وبيناته، وبالكتب التي ينزلها عليهم.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ۝٤٤﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا ﷺ بأنه أنزل إليه القرآن ليبلغ الناس

شرائع دينهم، والذي فيه بيان آياته التي تبعثهم على التفكر والنظر في معرفته.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴿٤٥﴾﴾ استنكر الله سبحانه وتعالى على أولئك الذين يحيكون الحيل ضد دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وضد الدين والإسلام والمسلمين كيف يفعلون ذلك، وهم عالمون أنه لا طاقة لهم بمحاربة الله سبحانه وتعالى؟ وهل أمنوا عذاب الله سبحانه وتعالى حتى نصبوا أنفسهم لمحاربة الله ورسله؟

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴿٤٦﴾﴾ فهل أمنوا عذاب الله وهم يعلمون أنهم لن يعجزوا الله سبحانه وتعالى، ولن يستطيعوا أن يهربوا منه، فهو قادر على أخذهم، وهم يتقلبون في بلادهم، وفي أمر معيشتهم.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴿٤٧﴾﴾ وهل أمنوا أن يأخذهم العذاب في حال توقعهم لنزوله بهم، يستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم كيف ينصبون العداوة له مع علمهم بكل هذا.

ثم أخبرهم الله سبحانه وتعالى بأنه يمهلهم ويتأنى بهم لعلهم يرجعون إليه، ويقلعون عما هم عليه، وأن ذلك من رحمته ورأفته بهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ استنكر الله سبحانه وتعالى عليهم لماذا لا يتفكرون ويتدبرون في آياته التي أمام أعينهم؟

﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴿٤٨﴾﴾ وكذلك يستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم لماذا لا يؤمنون وآياته بين أيديهم؟ وقد حثهم هنا على النظر والتفكر في كل ما يرونه أمامهم، فهو آية دالة عليه من إبلهم وبقرهم وغنمهم، ومن الجبال والشجر والدواب، ومن النجوم والكواكب، والشمس والقمر و...و...إلخ، وأن جميع هذه الأشياء خاضعة لإرادته ومشيئته يتصرف فيها كيفما شاء، وهو ما أراده بقوله (سجداً لله)؛ لأنه تعبير عن غاية الخضوع والانقياد لما يرونه من آيات الله.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۝٤٩﴾ وكل شيء في السماوات والأرض خاضع لإرادة الله سبحانه وتعالى ومشيئته، ومنقاد له وتحت سيطرته، غير أن هناك من البشر من هو على خلاف ذلك، فهو عاص ومتكبر على الله سبحانه وتعالى ومعاند له.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۝٥٠﴾ يخافون الله سبحانه وتعالى الذي قدرته فوق قدرتهم وعظمته فوق عظمتهم، ويطيعون الله سبحانه وتعالى في كل ما أمرهم به وهم الملائكة.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ۝٥١﴾ ينبه الله سبحانه وتعالى عباده إلى أنه لا يصح أن يكون هناك إلهان، ولو كان كذلك لاختل نظام هذا الكون، ولرأينا خلق الإله الآخر ورسله، فثبت من كل ذلك أنه لا يصح أن يكون هناك إلا إله واحد وهو خالق السموات والأرض، ثم أخبرهم بأنه وحده الذي ينبغي أن يخافوه ويحذروه.

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم علل ذلك بأنه وحده الذي بيده ملك السماوات والأرض، وهما تحت قدرته وسيطرته وحده.

﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ وأيضاً لأن له وحده الدين الخالص فلا شريك له، فالمفروض أن يتوجهوا بعبادتهم إليه وحده.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ۝٥٢﴾ فما دام الأمر كذلك، وأنه وحده الذي خلق السماوات والأرض وهو مالك لهما ومتصرف فيهما كيف شاء فلماذا تشركون معه غيره في العبادة؟

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ وكذلك كل ما يأتيكم من النعم فهي من الله تعالى وحده.

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ۝٥٣﴾ يعاتبهم الله سبحانه وتعالى كيف يعبدون غيره، مع أنهم إذا مسهم سوء أو مكروه لجأوا إليه ليكشف الضر عنهم.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالىٰ عليهم، ويعاتبهم عندما يرجعون إلىٰ شركهم بعد أن عرفوا نعمته عليهم برفع البلاء والشدة عنهم.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ بأنه إذا كشف الضر عنهم رجعوا إلىٰ شركهم لأجل أن يكفروا بالله سبحانه وتعالىٰ، وبما أنعم به عليهم.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن كفرهم هذا لن ينفعهم، وما هي إلا أيام قلائل في الدنيا يأكلون ويتمتعون في الدنيا بما أنعم به عليهم، ثم يأخذهم بعدها بعذابه.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ كان المشركون يجعلون للأصنام التي يعبدونها نصيباً من أرزاقهم، ويخصصون لها حصة من ذلك.

﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ ثم أقسم الله سبحانه وتعالىٰ أنه سوف يسألهم عن سبب افترائهم هذا، وتشريعهم الذي يشرعونه من عند أنفسهم، وعن تحليلهم ما حرم الله سبحانه وتعالىٰ، وتحريمهم ما أحل الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وهذا منهم حط لله سبحانه وتعالىٰ وللملائكته إذ جعلوها بنات الله، وفي نفس الوقت يشرفون أنفسهم ويعزونها بجعلهم لأنفسهم الذكور، وادعوا أنه لا يصح أن ينسب إليهم من الأولاد إلا الذكور فقط، وأما البنات فكانوا يدفنوهن أحياءً.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وإذا ولد لأحدهم بنت فإنه يغتاظ من ذلك أشد الغيظ ويصيبه الهم والحزن.

﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ ينعزل عن قومه خجلاً، ويفكر في نفسه: ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فهل يمسكها ويربيها علىٰ مذلة وهوان يلحقه من ذلك، أو يدفنها وهي حية ليتخلص من الفضيحة والعار.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن شناعة هذا الحكم وفضاعته وعن شناعة تنزيههم لأنفسهم عن البنات خوفاً من الفضيحة كما يزعمون، واستنكر عليهم عدم استحيائهم من الله سبحانه وتعالى عندما ينسبون إليه البنات، وينزهون أنفسهم عن ذلك.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ۝٦٠﴾ فأخبر الله سبحانه وتعالى أنهم هم الذين يستحقون أن يكون لهم مثل السوء، وأن ينسب إليهم النقص لا إليه، فهم الذين يستحقون صفات الذم والقبح والنقص، وأما هو فهو متعال عن ذلك، ومستغن عنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ۝٤﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ ولكنه رحيم بعباده؛ فلو أنه يؤاخذهم بظلمهم لعذبهم من حين اقترافهم المعصية.

﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ۝٦١﴾ فيمهلهم في الدنيا، ويتركهم يتمتعون فيها إلى أجل كتبه وحدده لهم يعذبهم فيه؛ فإذا حل ذلك الوقت، ونزل بهم عذابه وغضبه- فلا مفر ولا مهرب لهم منه.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ وهو البنات فينسبونهن إليه جل وعلا، وينزهون أنفسهم عن نسبة البنات إليهم.

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ ذمهم الله سبحانه وتعالى على ذلك ونسبتهم لأنفسهم ما هو الأحسن والأفضل وهو الذكور.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ۝٦٢﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنهم بذلك القول قد استحقوا النار بلا شك، ومعنى مفرطون: مقدّمون إلى النار.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ يقسم الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قد أرسل رسله إلى الأمم التي كانت قبله؛

فكذبوا بها واستكبروا، وآمنوا بالشيطان واتبعوه.

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ۝٦٣﴾ فهو ناصرهم والمسيطر عليهم، وقد استحقوا العذاب بسبب ذلك.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ۝٦٤﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه قد أنزل عليه الكتاب فيه بيان الحق والهدى الذي اختلف فيه الناس، وذلك أن كل طائفة كانت تدعي أنها التي على الحق.

وكذلك أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه قد أنزله إليه ليهتدي به المؤمنون رحمة منه جل وعلا بهم، وأما المشركون فليس عليك أن تدخلهم في الهدى يا محمد وتكرههم عليه؛ فما عليك إلا البلاغ وحسابهم على الله سبحانه وتعالى، وهو الذي سيجازيهم.

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ۝٦٥﴾ يكرر الله سبحانه وتعالى ذكر آياته للمشركين لعلهم ينتبهون من غفلتهم، فأمرهم أن يتفكروا في ذلك الماء الذي ينزله لهم من السماء وكيف تحيا به الأرض، وتكتسي بالخضرة والنبات بعد أن كانت أرضاً مواتاً يابسة، يذكر الله سبحانه وتعالى المشركين بذلك ليعلموا أن من قدر على أن يحيي الأرض قادر على إحيائهم بعد الموت.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ۝٦٦﴾ يحث الله سبحانه وتعالى الناس أن يتفكروا وينظروا في الأنعام التي هي بين أيديهم آية يشاهدونها كيف يخرج لبنها في غاية الصفاء والنقاوة من بين أحشائها وفرثها ودمها، مع ما يكون فيه من الطعم واللذة الذي يستسيغه كل من يشربه، أليس خروجه من ذلك المكان يدل على أن هناك قدرة قاهرة تتصرف فيه وتجعله على تلك الصفة؟

ففي ذلك دلالة واضحة على الله سبحانه وتعالى وعلى قدرته وعظمته لمن تفكر فيها وتأمل.

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ۝٦٧﴾ وكذلك يحثهم الله سبحانه وتعالى أن يتفكروا في ذلك الثمر الذي يخرج من أشجار النخيل والأعناب، وكيف أنعم عليهم بذلك إذ جعل لهم فيه رزقاً حسناً؟ وأخبر كذلك بأنهم يتخذون منه الخمر الذي هو خلاف الرزق، ولذلك غاير بين الرزق والخمر؛ لأن ما كان من هذه الأثمار حراماً فقد سماه سكراً، وما كان منها حلالاً سماه رزقاً حسناً، وأن في ذلك دلالة واضحة على رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه إذ أنعم عليهم بهذه النعم.

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ۝٦٨﴾ فمن الذي ألهمها ذلك وعلمها كيف تبني بيوتها وترصفها على ذلك الشكل الهندسي البديع.

﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ ومن الذي ألهمها إلى أن تهتدي إلى طعامها ورزقها، ومن الذي ساقها إلى رزقها ذلك.

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ۝٦٩﴾ وحثهم على أن يتفكروا في ذلك الشراب الذي يخرج من بطونها، وما فيه من اللذة والطعم مع ما فيه من العلاج والشفاء لكثير من الأمراض.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ۝٧٠﴾ ثم يذكرهم الله سبحانه وتعالى بأنه الذي خلقهم وأن بيده حياتهم وموتهم وأن أرواحهم بيده يأخذها متى شاء، فمنهم من يأخذه في ريعان شبابه، ومنهم في طفولته، ومنهم من يعمره إلى أن يصل إلى مرحلة لا يستطيع أن يعرف أو يميز بين شيء.

يذكر الله سبحانه وتعالى بنعمه هذه وآياته لأجل أن يتفكروا فيها ويتدبروا ليرجعوا إليه ويشكروه على نعمه.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ فضل الله بعضكم أيها الناس على بعض لحكمة منه ومصلحة؛ فقد فضل ما بين العبيد وأربابهم.

﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ فما اكتسبه العبد يكون لسيده، فيختص السيد بمكسبه ومكسب عبده، ولا يشرك عبده في ذلك.

يضرب الله سبحانه وتعالى هذا المثل للمشركين ليتنبهوا إلى معبوداتهم التي يعبدونها من دونه فكيف يعبدون هذه الأصنام التي هي مملوكة، ولا تملك بيدها شيئاً، ويتركون عبادة مالكها الذي بيده كل شيء.

﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴿٧١﴾﴾ استنكر الله سبحانه وتعالى عليهم ذلك؛ لأنهم بعبادتهم للأصنام يجحدون نعمته عليهم، وكان من المفروض أن يتوجهوا بعبادتهم وشكرهم إلى ربهم الذي أولاهم النعم، ورزقهم من الطيبات.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يتمنن الله سبحانه وتعالى على المشركين هنا بأنه الذي خلق لهم من جنسهم أزواجاً، وأنه جعل في ذلك حكمة الإنجاب، وأنه وحده الذي بيده الرزق وليست تلك الأصنام التي تعبدونها أيها المشركون، وجعل لهم من أزواجهم بنيناً ولبنيهم بنيناً.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴿٧٢﴾﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى على المشركين كيف يذهبون إلى عبادة تلك الأصنام التي لا تملك من صفات الإلهية شيئاً، ويتركون عبادة الله الذي بيده خلقهم ورزقهم والذي هو ولي جميع نعمهم؟

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى عن المشركين بأنهم يعبدون آلهة لا تستطيع أن تنزل لهم رزقاً من السماء، ولا أن تخرج لهم رزقاً من الأرض، وأن ذلك ليس تحت قدرة هذه الآلهة فلا تستطيع إنزال المطر، ولا إخراج الثمر، وأن هذا من سخافة عقولهم أن يعبدوا من هذا شأنه.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ نهى الله سبحانه وتعالى عباده أن يضربوا له الأوصاف ويمثلوه بخلقه، أو يشبهوه بشيء من مخلوقاته، وأنه وحده الذي له أن يضرب الأمثال لخلقه، وأما هو فلا مثل له ولا شبيه.

ثم قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ ضرب الله سبحانه وتعالى هذا المثل للذين يعبدونه، والذين يعبدون الأصنام، فهؤلاء المشركون حالهم وشأنهم في توجههم في عبادتهم إلى الأصنام كحال من توجه إلى معاملة عبد مملوك ليس له أي تصرف فهو وما ملك لسيده، وأن المؤمنين حالهم وشأنهم في توجههم بعبادتهم كحال من توجه إلى سيد هذا العبد الذي له أن يتصرف كل تصرف، وبيده أن يعطي ويمنع، وأن حال هذه الأصنام كحال العبيد التي لا تملك شيئاً، فمن المفترض بهؤلاء المشركين أن يكون رجوعهم إلى المالك لا إلى المملوك الذي ليس بيده أي شيء.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ ثم مثل الله سبحانه حالة الأصنام، فأخبر أن حال الأصنام كحال الرجل الأبكم والأعمى الذي لا يستطيع أن يتصرف في شيء من أمور الدنيا، وليس بيده أي نفع أو ضر، ومع ذلك فهو عبء على وليه ينفق عليه ويقوم على حاجته، فهل يستوي هو ومن بيده التصرف في جميع الأمور وله الأمر والنهي والتدبير؟

فقطعاً لا يستوي هذان؛ فلماذا يذهبون إلى عبادة هذه الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر، وليس بيدها أي تصرف، ويتركون الذي بيده ملكوت كل شيء؟

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه مختص بعلم ما غاب في السماوات والأرض، وهي كل ما كان غائباً عن الحس المشاهدة، وكل ما كان محجوباً عنا كالذي يكون تحت الثرى، وفي بطون الأرض، وما يكون في السماء.

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ كان المشركون يستبعدون البعث بعد الموت، وينكرون أن يكون الله سبحانه وتعالى قادراً على ذلك؛ فأخبرهم الله سبحانه وتعالى أنه سيبعث الأموات للحساب في لمح البصر فما أمر ذلك في قدرة الله إلا كغمضة عين وفتحها، فإذا الناس وكل ما خلق الله سبحانه وتعالى على وجه الأرض قيام إلى الحساب والجزاء: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر]، فيحييهم الله سبحانه وتعالى في لمحة البصر: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴿٨٢﴾﴾ [يس]، فلا آلة أو مزاولة عمل، أو حاجة إلى عمال، فما أراده فهو كائن وواقع لا محالة.

﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٧٧﴾﴾ يعبر الله سبحانه وتعالى عن مدى قدرته، فأخبرنا أن ما يفصلنا عن الساعة ليس إلا كغمضة العين أو أقل من ذلك، فعندها سيفني الأرض ومن عليها في لحظة واحده: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴿١٤﴾﴾ [الحاقة]، وستصير هباءً منثوراً وغباراً متطايراً، ثم إن هذا الغبار سيتساقط ويتكاثف بعد ذلك حتى تستوي جميع الأرض وتصير أرضاً مستوية فعندها يبعث الله سبحانه وتعالى جميع خلقه في لمح البصر، أو هو أقرب من ذلك، ولنصدق ذلك فقد رأينا آثار قدرته فيما حولنا من الجبال والنجوم والشمس والقمر وغير ذلك؛ فلا بد أن يكون من قدر على جميع هذه الأشياء قادر على إعادة الخلق، والبعث بعد الموت.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ يطلع الله سبحانه وتعالىٰ المشركين علىٰ مدىٰ قدرته؛ فحثهم علىٰ النظر والتفكر في بداية خلقهم، وكيف أنه أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يملكون شيئاً لأنفسهم، ولا يعلمون بشيء مما يجري حولهم.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ وكذلك زودكم بآلة السمع والبصر، وجعل لكم العقول لتفرقوا بها بين الحسن والقبيح، وكل ذلك نعمة منه أنعمها عليكم لتشكروه عليها، وأخبرنا أن ذلك هو الغرض من خلق هذه الحواس، فهو لم يخلق العقل إلا لذلك، وإلا فلسنا في حاجة إليه للأكل والشرب؛ إذ كل الحيوانات تأكل وتشرب مع أنه لا عقل لها، وأي فائدة فيه لو كان الأمر كذلك، فلم يعطنا العقل وينعم به علينا إلا لنؤدي حق شكره علىٰ نعمه علينا، وكذلك فإن السمع والبصر هي الوسائل التي توصل إلىٰ العقل المعلومات التي تتمركز فيه ليحكم فيها بالحسن والقبح وترتيب الأمور، ثم نرجع بعد ذلك الحكم إلىٰ الشكر والعبادة لله تعالىٰ الذي هو الغرض المطلوب من كل ذلك، وأما الأكل والشرب فقد تكفل الله سبحانه وتعالىٰ به كما في سائر الحيوانات الأخرىٰ.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ المشركين إعراضهم عن آيات عظمته وقدرته وعلمه، وهي مبثوثة أمام أعينهم في السماوات والأرض وفي أنفسهم، وفي هذه الآية استنكر عليهم إعراضهم عن النظر إلىٰ الطير الذي يطير بين السماء والأرض، فما بالهم لم ينظروا إليه ويتفكروا في تسخيره في جو السماء، وما هو الذي يمسكه عن السقوط إذا صف بجناحه، فمن تفكر في ذلك وتدبر وتأمل عرف أن هناك قدرة تتحكم فيها وتسيرها وتمسكها، ولا قدرة إلا قدرة الله سبحانه وتعالىٰ تستطيع ذلك.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ ثم ذكرنا الله سبحانه وتعالىٰ بعد ذلك بأنه الذي أنعم علينا وهدانا ومكننا، وجعل لنا القوة، وسخر لنا الآلات التي نستطيع بها بناء ما نسكن إليه، ونستتر تحته من الحر والبرد، وجعلها مأمناً لنا من جميع المخاوف والأخطار.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ يتمنن الله سبحانه وتعالىٰ هنا علىٰ العرب خاصة بأنه سخر لهم جلود الأنعام هذه، فكانوا قديماً يجعلون منها بيوتاً يأوون إليها، وكانت خفيفة يستطيعون حملها في تنقلاتهم وترحالهم وأسفارهم؛ ليستكنوا ويتظللوا تحتها، وأما في وقتنا هذا فقد صنعوا ما يقوم مقامها.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ۝٨٠﴾ وكذلك أنعم الله سبحانه وتعالىٰ علينا بأن جعل لنا من أصواف الغنم وأوبار الإبل وأشعار الماعز فراشاً نتمتع به، ونفترشه ونلبسه ونتزين به.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ وكذلك يذكرنا الله سبحانه وتعالىٰ بأنه أنعم علينا بأن جعل لنا ظلالاً نستكن تحته من حر الشمس، وقد ذكر الله نعمته هذه؛ لأن بلاد العرب كانت أرضاً حارة.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ وكذلك هيأ لخلقه أماكن في الجبال يستكنون تحتها من الأمطار وغيرها.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ وكذلك هو الذي أنعم علينا بأن جعل لنا الملابس التي تقينا من حر الشمس حتىٰ لا تشوه أجسامنا، وكذلك سخر لنا الملابس التي تحمينا من بأس بعضنا لبعض في الحروب، وهي دروع الحديد، وتكون علىٰ شكل حلق صغيرة مترابطة لينة؛ لكي يستطيع الإنسان أن يتحرك من خلالها، وأن يلبسها بسهولة تقي لابسها من ضرب السيوف وطعن الرماح.

﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴿٨١﴾﴾ ثم أخبرنا الله سبحانه وتعالىٰ بأنه هو الذي وفر لنا كل ما نحتاجه في جميع مجالات حياتنا نعمة منه علينا لأجل أن ننقاد له ونستسلم لأوامره، ونشكره عليها.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴿٨٢﴾﴾ أوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن قريشاً إن أعرضوا وتولوا بعدما ذكرهم بآياته وبنعمه عليهم- فقد أدىٰ ما عليه، فما عليه إلا تبليغهم بآيات الله سبحانه وتعالىٰ، ويذكرهم بها حتىٰ يتبين لهم الحق ويعرفوه؛ فإذا علموه وعرفوه فقد أدىٰ ما عليه، سواء استجابوا أم أعرضوا وتمردوا.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴿٨٣﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عنهم بأنهم يعترفون بأن النعم التي هم فيها منه جل وعلا، ثم ينكرونها ويجحدونها ولا يؤدون شكرها استكباراً منهم علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وكفراً منهم لما أنعم به عليهم.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ اذكر يا محمد وذكِّر قريشاً بيوم القيامة عندما يبعث الله سبحانه وتعالىٰ من كل أمة نبيها يشهد عليها عند الله سبحانه وتعالىٰ بأنه قد بلغهم، وأنهم رفضوا وأعرضوا، وكذلك العلماء الذين يبلغون عن أنبيائهم في كل عصر سيكونون شهداء علىٰ أهل عصرهم من أجابهم، ومن أعرض عنهم.

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴿٨٤﴾﴾ لا يؤذن للكفار حينئذ بالكلام، ولا ينفعهم أي عذر أو مراجعة لله تعالىٰ، أو استئناف في الحكم كما في حال الدنيا إذا أخطأ شخص علىٰ أي شخص آخر؛ فإنه يأخذ معه من وجهاء قومه ليذهبوا ويعتذروا إليه ويستسمحوه، ففي يوم القيامة لن ينفعهم ذلك ولن يكون لهم أي مفر أو مهرب من عذاب الله سبحانه وتعالىٰ وسخطه، وهذا هو المراد بقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴿٨٥﴾﴾ يقطع الله سبحانه وتعالىٰ أمل أولئك الذين يدعون الخروج من النار ويقولون إن الله سبحانه وتعالىٰ سيعذب كلاً علىٰ قدر معصيته، ثم يخرج من جهنم، ويخبرهم بأن من استحق جهنم ودخلها فلا أمل له في الخروج منها، وإنما سيعذب فيها دائماً وأبداً، ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ بأنه لن يمهلهم لحظة واحدة بعد مبعثهم، وإنما يحاسبهم ويدخلهم جهنم مباشرة من دون إمهال أو ترو.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴿٨٦﴾﴾ أولئك المشركون الذين كانوا يعبدون غير الله سبحانه وتعالىٰ أخبر الله عن المشركين بأنهم يوم القيامة حين يرون الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالىٰ سيقولون يا ربنا هؤلاء الأرباب التي كنا نعبدها من دونك، ثم إن معبوداتهم عندما تسمعهم تتبرأ منهم وتنكر أنها ادعت الإلهية، أو أمرت أحداً بعبادتها، ويخبرونهم أنهم إنما كانوا يعبدون الشيطان، وأما نحن فلم نكن ندعي ذلك، وذلك أنهم كانوا ينحتون أصناماً علىٰ شكل الملائكة في زعمهم ثم يعبدون الصنم علىٰ أساس أنهم يعبدون ذلك الملك، فإذا كان يوم القيامة فإن الملائكة ستنكر عليهم أنها ادعت الربوبية، أو أمرتهم بعبادتها، وأنكم كاذبون في ادعائكم ذلك.

﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ فحينئذ سيستسلمون لله سبحانه وتعالىٰ عندما يرون الملائكة تكذبهم وسينقادون للواقع الذي وقعوا فيه وصاروا إليه.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴿٨٧﴾﴾ وتلك التي كانوا يعبدونها ويدعون إلهيتها سوف تضيع عنهم يوم القيامة، وعندها سيستسلمون لله تعالىٰ ويعترفون حينئذ بكفرهم وتكذيبهم أمام الأشهاد، وبعدل الله وعدم ظلمه لهم بحكمه عليهم باستحقاق النار؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ لن يحكم عليهم بها إلا عندما يعترفون علىٰ أنفسهم بأنهم يستحقونها.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴿٨٨﴾﴾ يخبرنا الله سبحانه وتعالىٰ عن حال الذين كفروا بأنه سوف يعذبهم بسبب كفرهم، وسيزيدهم عذاباً فوقه بسبب صدهم عن سبيله، ومنع الناس عن الهدىٰ والإيمان، وإدخال الناس في الضلال.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وهو يوم القيامة سيبعث الله سبحانه وتعالىٰ مع كل أمة نبيها يكون شهيداً عليهم.

﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ وسيكون محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شهيداً علىٰ أمته، وعندما أنزل الله سبحانه وتعالىٰ هذه الآية علىٰ محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قيل إنه بكىٰ عندما علم أنه سيكون شهيداً علىٰ أمته لشدة رحمته وشفقته علىٰ أمته من عذاب الله سبحانه وتعالىٰ، وحرصه الشديد علىٰ استنقاذهم من عذاب الله.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴿٨٩﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه أنزل القرآن علىٰ محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فيه بيان الحق والباطل والهدىٰ والضلال، وفيه بيان الطريق التي توصل إلىٰ ثواب الله سبحانه وتعالىٰ، وكذلك فيه البشرىٰ للمؤمنين بثواب الله تعالىٰ والأمن يوم القيامة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴿٩٠﴾﴾ يذكر الله سبحانه وتعالىٰ المشركين أنه لم يأت بدين خارج عن المعقول، ومخالف لفطر العقول، وإنما أمركم بما فيه مصلحتكم، وهو العدل والإحسان، وأمركم بصلة أرحامكم لما فيه من زيادة الروابط والعلاقات التي فيها كثير من المصالح والمنافع لكم التي تستحسنها عقولكم، ونهاكم عن كل القبائح التي تستفحشها العقول وتستنكرها، ولم ينهكم عن شيء تستحسنه عقولكم، ونهاكم عن الظلم لما فيه من الإفساد بينكم.

أخبركم الله سبحانه وتعالىٰ بكل ذلك لعلكم ترجعون إليه وتتفكرون في الدين الذي أتاكم به ربكم، وأنه الدين الذي تقتضيه فطر عقولكم.

والإحسان هو الأعمال الصالحة التي تستحسنها العقول كشكر المنعم، وقد ذكر الله سبحانه وتعالىٰ القربىٰ مع أنهم قد دخلوا تحت العدل والإحسان، وذلك ليبين أن صلتهم بمكانة عظيمة وكبيرة عنده تعالىٰ.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ وأمرهم الله سبحانه وتعالىٰ بأنه إذا كان بينهم وبين أحد عهد فالواجب أن يوفوا به، ولا ينقضوه.

﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ لأن من عاهد عهدا فقد جعل الله سبحانه وتعالىٰ كفيلاً عليه؛ فلا ينبغي أن ينقض عهده، وقد توعد الله سبحانه وتعالىٰ من خانه في عهده فسيجازيه علىٰ ذلك.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ ولا تكون حالكم كالمرأة التي تتعب نفسها في الغزل والنسج حتىٰ تحكم صنعه وغزله، ومتىٰ فرغت من غزلها ذلك- بدأت بنقضه، فيذهب تعبها ذلك هباءً، شبه الله سبحانه وتعالىٰ ذلك الذي ينقض عهده بعد توكيده وإبرامه بهذه المرأة التي تغزل ثم تنقض غزلها.

والأنكاث هم الذين ينكثون العهد مثل المرأة التي تنقض الغزل بعد إحكامه، كأولئك الذين عاهدوا النبي ﷺ علىٰ الإيمان بالله ورسوله والجهاد بين يديه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بعد ذلك ينقضون عهدهم هذا، وكذلك كل العهود سواءً كانت مع الله سبحانه وتعالىٰ أو مع أحد من خلقه، فلا يصح ولا يجوز نقضها؛ لأن نقضها من الكبائر التي توعد الله سبحانه وتعالىٰ عليها بالعذاب الشديد.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي تجعلون أيمانكم حيلة تحتالون بها وطريقا ووسيلة إلى الفساد والغدر، وقوله: ﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ يعني فساداً بينكم.

﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ومن معه من المؤمنين في ضعف بينما كان المشركون في قوة وعزة، وكان هناك أناس عاهدوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقد عزموا على نقض عهدهم معه، والذهاب إلى قريش لكونهم أقوى من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فنهى الله سبحانه وتعالى عن ذلك، وأمر بالوفاء بالعهد، ولو كان يلحق ضرر من ذلك القوي، وأربى يعني أقوى.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ وهو أن جعل أناسا أقوى من أناس آخرين، وأخبر أن ذلك منه اختباراً منه لكم هل ستوفون بعهودكم أم لا؟

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه يوم القيامة سيحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه بينهم في الدنيا، وهو ما كان من الاختلاف بين المؤمنين مع المشركين، ومع اليهود والنصارى؛ فسيحكم الله سبحانه وتعالى بين هذه الأمم المختلفة يوم القيامة.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لو أراد أن يكره الناس جميعاً على الإسلام لفعل، ولكن حكمته اقتضت خلاف ذلك، وأن يتركهم واختيارهم ومشيئتهم ليرتب على ذلك الثواب والعقاب؛ لأنه لا يستحق الثواب والعقاب إلا على ما كان موقوفاً من الأعمال على الاختيار، ولا يستحق الإنسان الثواب إلا إذا ذهب إلى الهدى باختياره ليس معه غرض غير ذلك، وأيضاً اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يكون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ومن معه على ضعف وقلة حظ في الدنيا؛ لأجل ألا يذهب إليه إلا من لا غرض له سوى الهدى والإيمان، ولا غرض له غير ذلك، إذ لو كان معه قوة ودولة وسلطة لأقبل الناس إليه ودخلوا في دينه لأجل قوته وغناه وسطوته، لا لأجل الإيمان، وإلا فالله سبحانه وتعالى قادر على أن يفتح لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خزائن الأرض، ويجعل مفاتيحها بيديه.

﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٩٣﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لم يرد أن يكرههم ويلجئهم، وأنه أراد أن يوكلهم إلى اختيارهم؛ فمن اختار الهدى جعله الله في زمرة المهتدين، ومن اختار الضلال جعله الله في زمرة الضالين، ثم أكد الله سبحانه وتعالى على أنه سيسأل كل امرئ عن كل ما عمله من صغير وكبير يوم القيامة، وسيحاسبه عليه ويجازيه.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ ثم أكد الله سبحانه وتعالى عليهم مرة ثانية بالوفاء بالعهود والمواثيق والأيمان، وأراد بالأيمان المعقودة على شيء، وهنا قد نهى الله سبحانه وتعالى عن اتخاذ الأيمان حيلة ووسيلة؛ لأن يأمن أحد جانبك وأنت تريد الغدر به والفساد، وأخبر أن ذلك معصية كبيرة يستحق عليها العقاب والعذاب الشديد.

﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أراد الله سبحانه وتعالى أن نقض العهود والمواثيق والأيمان من الكبائر التي تخرج صاحبها من اسم الإيمان، ويستحق بسبب ذلك العذاب والنار؛ لأنها من الصد عن سبيل الله لما فيها من الإفساد والغدر.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ثم أكد الله سبحانه وتعالى على ذلك بالنهي عن نقض العهد وعدم قبول أي ثمن مقابل ذلك؛ لأنه خروج من الدين وكبيرة يستحق عليها النار.

﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴿٩٥﴾﴾ وأخبر أن الوفاء بالعهد هو الأفضل عنده سبحانه وتعالى؛ لأنه سيعطي على ذلك الثواب العظيم.

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾ أراد الله سبحانه وتعالى أن ثوابه هو أبقى لهم إذا وفوا بعهودهم وأيمانهم، وأن متاع الدنيا سيفنى وسيبقى إثمه.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿٩٦﴾﴾ وعد من الله سبحانه وتعالىٰ لأهل الوفاء بأنه سيجازيهم بأحسن الأجر وأوفاه وأكمله.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ وهذا أيضاً وعد من الله للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بأنه سيحييهم في الدنيا الحياة الطيبة، وسيرزقهم الأمن والأمان والطمأنينة والرضا بما قسمه لهم الله سبحانه وتعالىٰ، وفي هذه الآية حث وترغيب على الإيمان والعمل الصالح لأنهم إذا علموا أنهم سيحيون بعيدين عن القلق والاضطراب والمكاره والشدائد وضنك العيش؛ فسيكون ذلك أدعىٰ إلىٰ المسارعة في الأعمال الصالحة.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿٩٧﴾﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالىٰ بأنه مع سعادتهم التي يعطيهم في الدنيا سيوفيهم أجورهم في الآخرة، وهذا وعد من الله سبحانه وتعالىٰ للمؤمنين.

والمؤمن الصادق الإيمان ولو كان قليل المال فإن الله تعالىٰ يجعل في قلبه قناعة ورضا وطمأنينة؛ لأنه عالم بأن الله سبحانه وتعالىٰ سيعطيه، وأنه إذا ابتلاه بشيء فهو راضٍ بما قسم الله له، وعالم بأنه سيعوضه عما فاته في الدنيا؛ فلا ينقطع أمله ورجاؤه في الله سبحانه وتعالىٰ، بل يكون في فرح وسرور دائمين لعلمه بما عند الله، وأن ما عند الله هو خير وأبقىٰ، وأنه وإن لم يعط مقابل تلك البلوىٰ في الدنيا فهو عالم بأن الله سبحانه وتعالىٰ سيعطيه مقابل ذلك في الآخرة، بخلاف أولئك العاصين والمتمردين علىٰ الله؛ فلبعدهم عنه فإنه ينقطع رجاؤهم فيه، ويصيبهم اليأس والقنوط، فيزيد ذلك في حسراتهم وهمومهم وغمومهم.

ولأن المؤمن عالم بأن الله سبحانه وتعالىٰ عدل حكيم وعالم بأن فيما ابتلاه الله به مصلحة له يعلمها وأن بلواه خير له من عافيته لدينه ودنياه.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴿٩٨﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين إذا شرعوا في قراءة القرآن أن يستعيذوا من الشيطان الرجيم.

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴿٩٩﴾﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالى أن الشيطان ليس له تسلط على المؤمنين المتوكلين عليه والمعتمدين عليه، ولا طريق له إليهم، وأنه آيس منهم، ومقتنع بأنهم محاطون بتوفيق الله سبحانه وتعالى وتسديده، وأنه لن يستطيع شيئاً فيهم، وأن من اعتمد على الله سبحانه وتعالى وتوكل عليه؛ فإنه سيكفيه من شر إبليس ومكره.

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴿١٠٠﴾﴾ وأخبر أن سلطان الشيطان ليس إلا على أولئك الذين يعملون المعاصي وقد أصبحوا تحت سيطرة إبليس وقبضته، وقوله: ﴿هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أراد بذلك أن من أطاع الشيطان فقد عبده وأشركه في العبادة.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿١٠١﴾﴾ ينزل الله سبحانه وتعالى شرائعه وأحكامه على حسب ما تقتضيه المصلحة والحكمة فأمر في أول الإسلام بشرائع على حسب ما اقتضته المصلحة في ذلك الزمان وعندما أصبح الإسلام في قوة وعزة أتى تعالى بشرائع أخر نسخت الشرع الأول؛ فعند ذلك رمى المشركون النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسبب ذلك بالافتراء والكذب على الله سبحانه وتعالى، وقالوا: كيف يأمر في أول اليوم بأمر ثم ينقضه في آخره بأمر آخر، وقالوا: إن هذا دليل على أنه يفتريه من عنده، كالصلاة مثلاً، ففي بداية الإسلام لم تكن إلا اثنتين اثنتين إلا المغرب فهو ثلاث، ثم نسخ ذلك بعدما استقوى الإسلام إلى أربع أربع، وكذلك المسح على الخفين في بداية الإسلام، ثم نسخه آخراً.

وكذلك في بقية التكاليف نزلت أول الإسلام على التخفيف والتيسير فلم ينزل القطع بتحريم الخمر إلا عندما تروضوا على الإسلام وتمرنوا عليه، وكل الشرائع كانت على التدريج فأول فريضة فرضها الله تعالى على الناس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رسول الله، ولم يشرع الله سبحانه وتعالى الشرائع وينزل الأحكام والتكاليف على الحتم إلا عندما كانوا في المدينة وقد استقوى الإسلام، وصار له دولة وكيان، وقد استغنى بالرجال والعدة والعتاد.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ۝١٠٢﴾ عندما رمى المشركون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالكذب والافتراء على الله سبحانه وتعالى أمره الله تعالى بأن يخبر المشركين بأن روح القدس وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أنزله إليك يا محمد من عند الله سبحانه وتعالى، وأنه الدين الحق الذي سيثبت عليه الذين آمنوا، وسيستجيبون لما نزل عليهم فيه من الأحكام والشرائع التي فيها هداهم إلى الطريق المستقيم.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قد استاء من مقالة المشركين فيه الزور والبهتان، وذلك أنهم كانوا يقولون: إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إنما يتعلم من غلام لعتبة وشيبة، وأن هذا الغلام كان على دين يونس بن متى، وأن ما جاء به ليس من عند الله سبحانه وتعالى، وإنما هو من عند ذلك الغلام؛ فاصطدم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من مقالتهم تلك واستاء؛ فأخبره الله تعالى بأنه قد علم بمقولتهم هذه، وأنه سيجازيهم عليها.

﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ۝١٠٣﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأن ذلك الذي يتهمون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه أخذ عنه وتعلم منه هو من الأعاجم ولغته أعجمية، وأن الذي جاءهم به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ باللسان العربي الفصيح، واللغة العربية التي هي لغتهم، وهم يعرفون أن ذلك العجمي لن يستطيع أن يأتي به كذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿١٠٤﴾﴾ فلن يتوفقوا إلى توبة أبداً، ولذا تراهم يتخبطون في وادي الهلكات فمرة يقولون: ساحر، ومرة مجنون، وأخبر الله سبحانه وتعالى أنهم قد خرجوا من عنايته ولطفه، واستحقوا العذاب بسبب إعراضهم عن آيات الله سبحانه وتعالى بعد أن عرفوا صدقها.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴿١٠٥﴾﴾ فهؤلاء هم الذين يفترون على الله سبحانه وتعالى الكذب.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالى أن من كفر بعد إيمانه ورجع إلى دين المشركين هو الذي يتوقع منه أن يفتري الكذب على الله دون النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودون المؤمنين الذين استقاموا على الإيمان والتقوى فما أبعدهم عن الافتراء على الله الكذب لشدة تعظيمهم لله وخوفهم منه، وأما من أكرهه المشركون على الكفر وأرغموه على النطق بالتكذيب بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وبالقرآن فكفر بلسانه ليسلم من القتل والعذاب فلا بأس عليه إن نطق بكلمة الكفر، ما دام مكرهاً عليها، كما كان من عمار بن ياسر عندما عذبه المشركون حتى ألجئوه إلى أن ينطق بالكفر، وبسب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد ذهب بعد ذلك إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله قد هلكت وكفرت! فأجابه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه لا بأس عليك يا عمار، ما دام قلبك مطمئناً بالإيمان، وإن عادوا لك فعد لهم.

﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿١٠٦﴾﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالى بأن الذي صح عليه اسم الكفر، واستحق عذاب الله تعالى وسخطه- هو من اعتقد الكفر بقلبه.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴿١٠٧﴾﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالى أن سبب اعتقاد الكفر والرضا به هو حب الحياة الدنيا وشهواتها وحرمانهم من الألطاف والتوفيق.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴿١٠٨﴾﴾ فما أحق الكافرين بالله الذين رضوا بالكفر واطمأنوا إليه بأن يحرمهم الله من ألطافه وأنوار هدايته وتوفيقه وإعانته لكفرهم بربهم وتكذيبهم بآياته ورسله.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴿١٠٩﴾﴾ لا شك ولا ريب أنهم قد خسروا يوم القيامة، وأنهم قد أصبحوا من أهل عذاب الله وسخطه.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴿١١٠﴾﴾ أخبر الله تعالى بأنه سيغفر ويرحم الذين عذبهم المشركون حتى أرغموهم على الكفر ثم بعد ذلك تابوا إلى الله وهاجروا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجاهدوا معه وصبروا على تكاليف الإسلام.

وذلك أن أناساً كانوا قد آمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم إن المشركين علموا بإيمانهم فعذبوهم حتى ارتدوا عن الإيمان وكفروا، ولكنهم عندما حصلت لهم الفرصة هربوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة، وجاهدوا معه، وآمنوا وحسن إسلامهم.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴿١١١﴾﴾ وهذا هو يوم القيامة سوف يكون كل امرئ منشغل بنفسه يجادل ويدافع عنها، والشهود سيكونون على رؤوسهم يشهدون عليهم حتى يتبين الحق والصدق، وتوفى كل نفس عملها الذي قد عملته في الدنيا لا يزيد الله عليهم شيئاً، ولا ينقصهم شيئاً من أعمالهم.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴿١١٢﴾﴾ وهي مكة جعلها الله سبحانه وتعالى عبرة للناس ليعتبروا، وليحذروا أن يفعلوا كفعلهم؛ فيلحقهم مثل ما لحقهم من العذاب، وذلك أن أهل مكة كانوا مطمئنين آمنين، والرزق مقبل عليهم من كل مكان؛ فأرسل الله

سبحانه وتعالىٰ إليهم محمداً ﷺ- فكفروا به، وكذبوا بآيات الله، وعاندوا وتمردوا؛ فابتلاهم الله سبحانه وتعالىٰ بالجوع حتىٰ أكلوا الكلاب، وبالخوف بدل الأمن نحواً من سبع سنين، وكان النبي ﷺ بينهم، وكان ﷺ قد دعا عليهم، فقال: ((اللهم اجعلها عليهم سنيناً كسني يوسف)).

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴿١١٣﴾﴾ وهو هذا العذاب الذي ذكرنا من الجوع والخوف.

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴿١١٤﴾﴾ يخاطب الله عباده جميعاً بأن يأكلوا مما رزقهم حلالاً طيباً، ولكن يجب عليهم أن يشكروه علىٰ ما أنعم به عليهم، ويطيعوه فيما أمرهم به.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه لم يحرم عليهم شيئاً من طيبات الرزق، وإنما حرم عليهم ما كان خبيثاً ومستقذراً، بينما كان المشركون يحرمون بعض الطيبات من عند أنفسهم، ويحللون بعض الخبائث كأكل الميتة، وكانوا يقولون: إنها ذبيحة الله، ومع ذلك يحرمون ما ذبحه الإنسان، وكذلك يحللون بعض الأنعام لذكورهم دون إناثهم، وبعضها حرموه علىٰ ذكورهم وإناثهم، إلا إذا مات فهم فيه شركاء جميعاً؛ فأخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن الذي شرعه المشركون إنما هو ضلال وجهل، وأنه قد أحل الطيبات جميعاً، ولم يحرم إلا هذه الأشياء المذكورة في الآية.

والذي أهل لغير الله هو ما ذكر عليه غير اسم الله سبحانه وتعالىٰ نحو: باسم اللات، وباسم العزىٰ.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿١١٥﴾﴾ وأباح هذه الأشياء إذا كانت الضرورة قد دعت إليه، ولكن لا يأكل أكثر مما يسد جوعته.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴿١١٦﴾﴾ نهى الله

سبحانه وتعالى أن يحلل أحد شيئاً، أو يحرمه من عند نفسه، وأخبر أن من فعل ذلك فقد افترى على الله الكذب، وارتكب بذلك معصية كبيرة.

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ وأن من افترى الكذب على الله سبحانه وتعالى فسيمتعه في الدنيا قليلاً، ثم يعذبه في نار جهنم خالداً فيها أبداً.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ أنه حرم على اليهود بعض الطيبات التي قصها فيما سبق كتحريم الشحوم.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ وأخبر أنه لم يظلمهم بتحريمه عليهم بعض الطيبات؛ فهم الذين تسببوا على أنفسهم بمعصيتهم لله سبحانه وتعالى، فحرم عليهم بعض الطيبات جزاءً على ذلك.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ وقد أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه سيتوب على العصاة إذا تابوا ورجعوا إليه، وأصلحوا ما أفسدوه، وأن كل من عصى الله فهو يعمل السوء بجهالة، ولو كان يعلم أنه يعصي الله سبحانه وتعالى فهو في جهالة.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ كان مشركو مكة يزعمون أنهم على دين إبراهيم، وأن ما هم فيه من الشرك هو دين إبراهيم، فأنزل الله سبحانه وتعالى على نبيه ﷺ يخبرهم أن إبراهيم كان أمة لحاله، ولم يؤمن به إلا امرأته ولوط عليه السلام، وأخبر أنه وحده بدينه يسمى أمة، ثم وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه كان قانتاً يعني: خاضعاً خاشعاً متعبداً لله تعالى وحده، وكان أيضاً حنيفاً، يعني: مائلاً عن الأديان الباطلة، ووصفه أيضاً بأنه لم يك من المشركين كما يدعي مشركو قريش.

﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ وكان أيضاً شاكراً لنعم الله سبحانه وتعالى بينما أنتم أيها المشركون غير شاكرين لله سبحانه وتعالى بعبادتكم لأصنامكم هذه، وتقربكم

إليها، وتوسلكم بها من دون الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴿١٢١﴾﴾ اختاره الله سبحانه وتعالىٰ واصطفاه للنبوة وهداه إلىٰ الدين الحق، وهو دين التوحيد لله تعالىٰ ودين الإسلام.

﴿وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴿١٢٢﴾﴾ رزقه الله في الدنيا رفعة وشرفاً وذكراً حسناً، ولم تأت أمة من الأمم إلا وتصلي عليه وتذكره، وكذلك جعل في ذريته النبوة، والعلم والكتاب والحكمة، وكل أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام ونبي هذه الأمة صلى الله عليه وآله وسلم من ذريته، فهذه هي الحسنة التي أعطاه الله سبحانه وتعالىٰ في الدنيا وأكرمه بها، ومع ذلك فهو في الآخرة من أهل المنازل الرفيعة.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿١٢٣﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يتبع دين إبراهيم الذي هو الدين الحق، ودين التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وكان اليهود يقولون أيضاً بأنهم هم المتبعون لملة إبراهيم، فأكذبهم الله سبحانه وتعالىٰ وأنكر عليهم أن يكونوا علىٰ دينه، وأخبرهم أن السبت إنما جعل علىٰ اليهود وحدهم، ولم يلزم به أحداً غيرهم، وأنه لم يكن إلا في زمن موسىٰ عندما أمرهم به في التوراة؛ فآمن به بعضهم، وكفر به بعضهم ولم يكن السبت من دين إبراهيم عليه السلام.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴿١٢٤﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه سيحكم بين اليهود يوم القيامة فيما اختلفوا فيه مما نزل عليهم في التوراة، وسيجازيهم علىٰ كل صغيرة وكبيرة.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يدع الناس إلىٰ الدين الذي أمره بتبليغه، وهو دين التوحيد، وعبادة الله سبحانه وتعالىٰ وحده ونبذ عبادة الأصنام.

﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ۝١٢٥﴾ أراد بالحكمة: بالعلم الذي أنزله عليه، وأمره أن يكون ليناً ولطيفاً في دعوته لهم لئلا ينفرهم، وأمره أن يجادلهم على بطلان دينهم بالطريقة التي ترغبهم في جانبه، وتجعلهم يميلون إليه وهي الكلام اللين، وعدم الإغلاظ لهم في القول؛ لأن ذلك سينفرهم، ويكسر قلوبهم، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى عالم بمن سيستجيب للهدى، وعالم بالطريقة التي ستجعلهم يؤمنون، وكذلك أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه لن يجازيهم إلا على أعمالهم التي تظهر منهم، ولن يجازيهم على ما في قلوبهم، وإلا فهو عالم بمن سيهتدي ومن سيضل، وأخبر أن الجزاء لن يكون إلا على الأعمال التي يعملونها لا على ما في علم الله.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ۝١٢٦﴾ هذه هي الآية الوحيدة التي نزلت في المدينة وبقية السورة نزلت في مكة، والسبب في نزولها أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان قد تحمس على أنه سيمثل بسبعين من قريش إن ظفر بهم، وذلك لما فعلوه بالمسلمين في أحد من القتل، ولما فعلوه بهم من التمثيل والتشويه، وما فعلوه بعمه حمزة بن عبد المطلب من التشويه، فاغتاظ غيظاً شديداً، وجعله يقسم على أنه إن ظفر بهم ليمثلن بسبعين منهم، عدد قتلى أحد؛ فأنزل الله سبحانه وتعالى على نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنكم أيها المسلمون إن عاقبتم واقتصصتم من أحد فلكم ذلك، ولكن إن صبرتم فالصبر أفضل لكم لكونك يا محمد صاحب الدعوة؛ فلا ينبغي أن يصدر منك أفعال تنفر الناس عنك، وأنك إن فعلت، ومثلت بهم، فسينفر الناس عنك، وتقسى قلوبهم تجاهك.

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن يستعين به فهو وحده الذي سيعينه على الصبر، ونهاه عن الحزن

على إصرار المشركين على شركهم، وعدم استجابتهم، وأمره بأن يتركهم في ضلالهم وشركهم؛ فسيجازيهم.

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ ولا يصبك الضيق والأسى والحزن من مكرهم بك، ومحاولة قتلك، واستئصالك، وطمس دينك؛ فالله معك بنصره وتأييده، وسيخذلهم وينصرك عليهم، فلا تحمل في قلبك الهم تجاههم، واستمر في دعوتك؛ فمهما فعلوا، ومهما حاولوا فلن يصلوا إليك.

تمت سورة النحل

ويليها سورة الإسراء

❁❁❁❁❁

سورة الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ تقدس الله وتعالىٰ عن أن يكون له شريك أو مثيل أو شبيه، يقص الله سبحانه وتعالىٰ علينا كرامته لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك أنه كان قد أصاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم الضيق والغم، ودخلت الشكوك في قلبه عندما رأىٰ من المشركين عدم الاستجابة له، واتهم نفسه بالنقص والتقصير في دعوته؛ لما يراه فيهم من زيادة العناد والتمرد، فأسرىٰ به الله سبحانه وتعالىٰ ليرفع من شأنه، ويرد عليه معنوياته، ويعرف أنه لم يكن منه أي تقصير في تبليغ دعوته، وأنه لم ينقص من قدره شيء عنده تعالىٰ، وكذلك ليشاهد آثار الأنبياء قبله؛ لأن المسجد الأقصىٰ في بلاد الشام، وكانت مهبط الأنبياء والمرسلين، فإذا شاهد آثارهم ازداد طمأنينة، وازدادت معنوياته وهمته ونشاطه في مواصلة نشر دعوته، وتبليغ رسالة ربه؛ لان الله سبحانه وتعالىٰ عالم بأن فعله هذا سيزيد من نشاطه، وسيزيل ما كان أصابه من الأسىٰ والحزن في عدم استجابة المشركين له.

وأخبر أن أرض الشام جعلها أرضاً مباركة لما فيها من كثرة المياه وخصب الأرض، وكثرة الثمار، وما كان فيها من الخير والتجارة لجميع الناس، وكونها مقصداً لتجارتهم من جميع أقطار الأرض ثم إنها أرض الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه أنزل علىٰ موسىٰ التوراة التي فيها هدىٰ بني إسرائيل وطريق نجاتهم.

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ۝٢﴾ وأمرهم ألا يتخذوا إلهاً غيره، وأن يفردوه وحده بالعبادة.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا۝٣﴾ وأن بني إسرائيل هم من ذرية من أنجاهم الله سبحانه وتعالى من الغرق، وهم أولاد نوح عليه السلام، وقد كان أبوكم نوح عبداً شكوراً وجدير بكم أن تقتفوا أثره في شكر الله.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا۝٤﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل في توراتهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، وأنهم سيتكبرون في الأرض، وسيظهرون عليها بالفساد مرتين.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا۝٥﴾ فإذا كان إفسادهم الأول فإن الله سبحانه وتعالى سيسلط عليهم قوماً من عباده أهل قتل وقتال، وسيقتحمون بلادهم، وسيكثرون فيهم القتل، وأخبرهم أن هذا واقع لا محالة، وهؤلاء الذين سلطهم عليهم هم أهل بابل، وهم جيش بخت نصر.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل أنهم بعد ذلك سيستردون دولتهم وهيبتهم، وسيظهرهم في الأرض.

﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا۝٦﴾ وأنه سيمكنهم في الأرض بالأموال والبنين والقوة، والعدة والعدد.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ وأخبرهم بأنهم إن أحسنوا وعملوا الأعمال الصالحة كان ذلك عائداً عليهم بالثواب والنعيم الدائم، وأنهم إن أساءوا كان وزرهم على ظهورهم، وهم الذين سيتحملون عاقبة وزرهم.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ وهي إفسادهم المرة الثانية في الأرض.

﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ وهم أهل بابل سيسلطهم الله سبحانه وتعالى عليكم مرة أخرى، وسيمكنهم منكم فيلحقون بكم الأذى والقتل.

﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وسيعبثون بمقدساتكم ويخربونها ويستبيحون حرمتها.

﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا۝٧﴾ وسيهلكون كل ما يظهرون عليه، وسيدمرون مساكنكم ومزارعكم ومواشيكم، وكل ما ظفروا به منكم أيها اليهود.

أخبر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بذلك في التوراة على لسان موسى قبل وقوعه.

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بأنه بعد إفسادهم في الأرض مرة أخرى، وبعد أن يسلط عليهم عباده في الكرة الثانية بأنه سيرحمهم مرة أخرى، وسيرد عليهم قوتهم ودولتهم.

﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ وأخبرهم بأنهم إن عادوا إلى الفساد في الأرض فسيسلط عليهم من يعذبهم، وعلى هذا إلى يوم القيامة كلما عادوا عاد عليهم، وكان آخر تسليط عليهم هو أن سلط الله سبحانه وتعالى عليهم هتلر في الحرب العالمية الثانية، قتل نحواً من ستة مليون يهودي، وخرب مساكنهم، والآن قد تراجعوا وعادت لهم هيبتهم، وقد بدأوا في الفساد في الأرض، وقريباً سيسلط الله عليهم من ينتقم منهم، ويقتلهم ويذلهم كما وعد سبحانه وهو لا يخلف الميعاد.

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا۝٨﴾ وأخبرهم بأنه قد جعل جهنم سجناً للكافرين يعذبهم فيها بعد أن يعذبهم في الدنيا بالخزي والذل والقتل.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا۝٩﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن القرآن يهدي الناس إلى طريق نجاتهم، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بثواب الله والنعيم الدائم.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا۝١٠﴾ وفيه الوعيد لمن كفر بالله سبحانه وتعالى، وأنكر البعث بعد الموت بالعذاب الأليم في نار جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن طبيعة الإنسان المكذب بأنه يستعجل نزول الشر كاستعجاله بنزول الخير، وأنهم يدعون علىٰ أنفسهم بالشر، ويستعجلون نزوله؛ لأن الأنبياء كانت تدعوا أممها إلىٰ الله تعالىٰ، وكان كل نبي يحذر قومه أنهم إن أصروا علىٰ الكفر والتمرد فسينزل الله بهم عذابه في الدنيا ويستأصلهم، فكانوا يستعجلون نزول العذاب بهم، ويسألون أنبياءهم أن يدعوا الله سبحانه وتعالىٰ بأن يعجل بنزول العذاب عليهم تكذيباً منهم واستهزاءً بأنبيائهم.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ ثم يذكر الله سبحانه وتعالىٰ عباده بآياته الدالة علىٰ قدرته وعلمه وحكمته؛ فأمرنا بأن نتفكر في آية الليل والنهار.

﴿فَمَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ جعل الله الليل أسود مظلماً وجعل لنا النهار ضياءً ونوراً لنرىٰ فيه مصالحنا وأسباب معايشنا ومنافعنا، ونبتغي فيه أرزاقنا.

﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ وكذلك لنعرف بها الشهور والأسابيع والسنين، ومواعيد أعمالنا ومعاملاتنا، ومواسم عبادتنا.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ وأخبرنا أنه قد فصل لنا كل آياته، ووضحها وبينها لنا.

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وأخبرنا أنه قد ألزم كل إنسان عمله يتحمله في عنقه، وأن كل امرئ مرهون بعمله فعمله هو الذي يوبقه أو يطلقه.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ وأنه يوم القيامة سيحصي علىٰ كل إنسان عمله، وسيعرض عليه صحيفة أعماله يوم القيامة فيرىٰ فيها كل صغير من أعماله وكل كبير لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ وسيعرض عليه كتابه ليرىٰ عمله الذي عمله في الدنيا، وسيقرأ ما كتب فيها من أعماله ليحكم كل

امرئ على نفسه بما يستحقه، وإن أنكر أو كذب بشيء قد كتب عليه فستأتي الشهود لتشهد عليه عند الله سبحانه وتعالى بالحق.

﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ فلا يظن أحد أنه سيضر الله تعالى بكفره وتمرده وعصيانه أو يضر دينه أو نبيه، وإنما سيضر نفسه فقط، ولن يتعدى ضره إلى غيره.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ولا تحمل نفس ذنب نفس أخرى، بل كل نفس سوف تتحمل وزرها وحدها.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يعذب أحداً حتى يبعث إليهم رسولاً يحذرهم وينذرهم، وليقطع عليهم الاحتجاج والأعذار؛ فلا يكون لهم عذر عند الله سبحانه وتعالى يوم القيامة.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه إذا أراد أن يهلك أهل قرية، وأن ينزل عليهم عذابه لكفرهم وفسادهم؛ فإنه قبل ذلك يرسل إليهم رسولاً يأمرهم وينهاهم، ويحذرهم وينذرهم، ويخبرهم أنهم قد استحقوا نزول العذاب بهم إن لم يؤمنوا ويستجيبوا فإذا لم يؤمنوا عذبهم الله واستأصلهم وقطع دابرهم.

ومترفوها هم كبار القوم وزعماؤهم؛ لأن رسل الله سبحانه وتعالى يذهبون إلى الكبار؛ لأن الكلمة تكون كلمتهم، وأما البقية فيكونون تبعاً لهم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى المشركين لعلهم يعتبرون فيرجعون إليه، ولعلهم إن عرفوا بمصائر الأمم المكذبة قبلهم اعتبروا.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ من أراد الدنيا وزينتها ولذاتها- فإن الله سيمتعه فيها ويعطيه على حسب ما اقتضته الحكمة والمصلحة، ثم بعد ذلك يدخله نار جهنم خالداً فيها مخلداً.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴿١٩﴾﴾ ومن عمل لآخرته وترك الدنيا وشهواتها ولذاتها؛ فإن الله سبحانه وتعالىٰ سيثيبهم فيها في النعيم الدائم الذي لا ينقطع.

﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴿٢٠﴾﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه يعطي كلا الصنفين من أراد الدنيا، ومن أراد الآخرة، وليس رزقه في الدنيا وعطاؤه فيها محصوراً علىٰ أحد فهو يرزق في الدنيا الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم.

﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴿٢١﴾﴾ ثم أخبر أنه قد فاضل بينهم في الدنيا فجعل هذا غنياً وذاك فقيراً، وهذا شريفاً وهذا وضيعاً؛ لحكمة منه ومصلحة، ولتستقيم أمور المعيشة في الدنيا، وكذلك في الآخرة فأهل الجنة متفاضلون كلاً علىٰ حسب عمله إلا أن درجات الآخرة عظيمة لا تقاس بدرجات الدنيا.

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴿٢٢﴾﴾ نهىٰ الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يتخذ إلهاً غيره وأنه إن فعل ذلك سلبه توفيقه وتأييده ونصره.

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ وألزم جميع عباده بإخلاص العبادة له وحده، وقرن بذلك الإحسان إلىٰ الوالدين ليبين عظيم منزلتهما وقدرهما.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ إذا بلغا في الكبر إلىٰ حد الضعف والعجز وأصبحا في حاجة إلىٰ من يقوم عليهما فيتأكد وجوب الإحسان إليهما والقيام بما يلزم لهما وحياطتهما بالشفقة والرحمة وحسن الرعاية، وقد نهىٰ الله تعالىٰ في هذه الآية أن يظهر الولد التضجر منهما والتأفف والتقذر مما يرىٰ منهما من قذر أو وسخ ؛ لأن من طعن في السن واستولىٰ عليه الضعف لا يخلو من ظهور شيء منه من الوسخ والقذر، فلا ينبغي أن تتأفف

منهما وتستقذرهما، وليس المراد به كلمة أف على حقيقتها، وإنما هي كناية عن الاستقذار، وقد جعل الله ذلك معصية لما لهما على الولد من النعمة من تربيتك صغيراً والقيام عليك والحرص على نظافتك من دون استقذار؛ لما يكون منك من الأقذار، فينبغي أن ترد لهما ذلك عند حاجتهما إليك، ولا تبدي لهما الاستياء والاستقذار، ولا ينبغي أن يريا منك ما يدل على الاشمئزاز والتضجر.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴿٢٣﴾﴾ ونهى أيضاً أن يغلظ لهما في القول، أو أن يصيح في وجهيهما، ولو كان حصل منهما خطأ تجاهك، وأمر أن يلين لهما في الكلام، وأن يحرص على أن يطيب نفسيهما.

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴿٢٤﴾﴾ ولتكن في غاية التذلل والخضوع، وقد عبر بخفض الجناح مبالغة في ذلك وفي الحرص على الإحاطة لهما بالعناية والرحمة والشفقة، مثل ما تفعل الدجاجة مع صغارها، وكذلك أن تدعو الله سبحانه وتعالى لهما بالرحمة والمغفرة وأن يجزيهما عنك خير الجزاء، وأن يكافئهما على إحسانهما إليك، وعنايتهما في تربيتك.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴿٢٥﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه عالم بما في نفس كل إنسان، وأن من عادته الإحسان إلى والديه والبر بهما ونيته صالحة في حقهما إذا صدر منه بعض الزلات والأخطاء تجاههما أو صدر منه بعض الكلام الغليظ والقاسي نحوهما؛ فإن الله سيغفر له ما دام كذلك، وسيتجاوز عنه ما دام قد رجع إليه.

﴿وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى بالإحسان والتعطف على ذوي القربى، وأمر بأن يحرص كل امرئ على صلتهم والبر بهم، وإعطائهم حقوقهم، وكذلك أمر بحقوق المساكين، وأبناء السبيل، والحرص عليها، وعدم التقصير نحوهم وليس هناك حد محدود للإحسان ولكن بالمعروف وعلى حسب الظروف المادية وأقل درجات الإحسان كف الأذى وكلمة طيبة.

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴿٢٦﴾﴾ ونهى الله تعالىٰ أيضاً عن التبذير، وهو أن تضع أموالك في غير مواضعها كالحرام والرشوة والفساد، وأنه ينبغي أن تضعها في مواضعها كصلة الأرحام والإحسان إلىٰ الوالدين والمساكين، وأبناء السبيل، وغير ذلك من القرب التي تقرب إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴿٢٧﴾﴾ وأن هؤلاء الذين يضعون أموالهم في غير مواضعها من الحرام ومعصية الله سبحانه وتعالىٰ- خارجون عن زمرة المؤمنين إلىٰ زمرة الشياطين.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴿٢٨﴾﴾ يُعَلِّم الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ويرشده كيف يتعامل مع ذوي القربىٰ والمساكين وأبناء السبيل، وأنه إن كان لا يجد شيئاً يعطيهم، فينبغي أن يتخلص منهم بالكلمة الطيبة إلىٰ أن يعطيه الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴿٢٩﴾﴾ ثم نهاه أن يكون بخيلاً ممسكاً لا يخرج لهم شيئاً، وكذلك لا يعطي جميع ما في يده حتىٰ لا يبقىٰ معه شيء، وأن يكون علىٰ الوسط من ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴿٣٠﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه هو الذي يعطي ويمنع ويبسط رزقه لمن يشاء ويضيقه علىٰ من يشاء، وأن كل ذلك لمصلحة عباده فهو عالم بما يصلحهم وما يفسدهم، وأنه لو بسط الرزق لبعضهم لبغوا في الأرض ولأفسدوا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴿٣١﴾﴾ كان المشركون يقتلون أولادهم خشية الفقر فنهىٰ الله سبحانه وتعالىٰ عباده عن ذلك، وأخبرهم أنه سيرزقهم مثلما رزق آباءهم، وأنه لم يخلق أحداً إلا وقد تكفل برزقه، وقتل الأولاد معصية عظيمة.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ ثم نهى تعالى عن الزنا لكونه معصية في غاية القبح والفحشاء، وبئست العادة الزنا لما فيه من الفساد واختلاط الأنساب، وما يورثه من المفاسد في المجتمع.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ونهى عن قتل النفس إلا إذا كانت قد استحقت ذلك نحو القصاص.

﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن من قتل ظلماً وعدواناً فقد جعل لولي هذا المقتول سلطاناً وتسلطاً على القاتل ليقتله ويقتص منه.

﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ۝٣٣﴾ وهذا وعد من الله سبحانه وتعالى بأنه سوف ينصره على قاتل قريبه، ولكن بشرط ألا يعتدي بقتل غير القاتل.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ وأمركم الله تعالى أن تحفظوا مال اليتيم وتستصلحوه فليس لكم فيه أي حق إلا أجرة تعبكم وقيامكم عليه وهي أجرة المثل، وأن تحفظوه حتى يبلغ اليتيم مبالغ الرجال ثم تسلموه أمانته ونهاكم عن قرب ماله.

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝٣٤﴾ وأمر بالوفاء بالعهود والمواثيق، وأخبر أن نقض العهد معصية كبيرة سيعذب عليها.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥﴾ وكذلك أمر بالوفاء في الكيل والوزن، وتوعد على البخس والنقص فيه، وأخبر أن عاقبة من أوفى كيله ووزنه عاقبة حسنة في الدنيا وبركة في الرزق، وأجر وثواب عند الله.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ثم نهى عن اتباع الأوهام والظنون، وألا يعمل إلا بما قد حصل اليقين فيه.

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا۝٣٦﴾ واعلم أن الله سبحانه وتعالىٰ سيسألك عن كل ما سمعت ورأيت وأخطرت في قلبك من العقائد.

وهذه التي سيسأل الله سبحانه وتعالىٰ عنها هي الطرق التي يحصل منها العلم، فما عرف من خلالها أنه الحق واليقين اتبعه سواء كان من سمع أو بصر أو اعتقاد.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ثم نهىٰ عن المشي في الأرض مشي المتكبرين والمختالين، أو السير بسيرتهم مترفعا علىٰ الناس في معاملاته.

﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا۝٣٧﴾ فمهما اشتدت وطأتك أيها الإنسان فلن تخرق الأرض، ومهما شمخت بأنفك فلن تبلغ بطولك الجبال، فالأحسن لك أن تعرف قدر نفسك، وأن تمشي مشي المتواضعين، وكذلك فإن من كان كذلك فسيمقته الناس وسيبغضونه وسينفرون عنه، وسيحاولون إدخال الضرر والمكروه عليه.

﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا۝٣٨﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن تلك الأشياء التي نهانا عنها من الفواحش والقبائح والكبائر التي يستحق فاعلها النار.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن هذه الوصايا والتعاليم هي مما أوحىٰ إليه بعلمه وحكمته، وأنها مبنية علىٰ ما تقتضيه المصلحة لعباده.

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا۝٣٩﴾ ثم أضاف الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ نبيه وصايا غير ما ذكر؛ فنهاه أن يعبد إلهاً غيره، وأن من فعل ذلك فقد أشرك بالله وجزاؤه جهنم خالداً فيها مخلداً.

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا۝٤٠﴾ خاطب الله سبحانه وتعالىٰ المشركين هنا مستنكراً عليهم في قولهم: إن الملائكة بنات الله، وأنهم قد اختصوا بالذكور، وذلك أنهم كان من

ولد له بنت منهم، فإنه يدفنها حية، أو يتخلص منها بأي طريقة، وأخبر أن هذا القول فرية عظيمة وبهتان عظيم قد افتروه عليه تعالى.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا۝٤١﴾ وأخبرهم الله سبحانه وتعالى بأنه قد بين لهم في القرآن بيناته وحججه وصرفها لهم ونوعها؛ لعل شيئاً منها يدخل في قلوبهم فيرجعوا إليه، غير أن ذلك لم ينفع فيهم، ولم يزدادوا إلا بعداً عن الحق وعتواً وكفراً.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا۝٤٢﴾ يجادل الله سبحانه وتعالى المشركين ويحاججهم بأنه لو كان هناك آلهة غيره لتوجهوا إلى مغالبته في ملكه وممانعته ومحاربته، وذلك كما يكون من الملوك والرؤساء في الدنيا، ولتنازعوا معه في الاستيلاء على العرش والسلطة.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا۝٤٣﴾ ولكنه تقدس وتعالى وتنزه عن مقالتهم هذه أن يكون له شريك ينازعه في ملكه لا إله إلا هو وسع كل شيء رحمة وعلماً.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا۝٤٤﴾ تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ويشهدون له بالتعالي عن الشريك، وكل مخلوقات السماوات والأرض تنزهه عن المشارك، وتشهد له بالوحدانية، وليس هناك لسان على الحقيقة تتكلم به، وإنما أراد بذلك أنها آية ناطقة دالة على تفرده بالإلهية، وأن من نظر وتفكر فيها علم علماً يقيناً ألا شريك له ولا مثيل، وأن من نظر إلى الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب والسحاب والمطر - علم أنها مسخرة في مصلحة واحدة، تصب في خدمة الإنسان، وأن كل واحدة منها آية مكملة للأخرى، لا تتم الحياة ولا تستمر إلا بها، مما يدل على أن مدبرها واحد، وأنه لو كان هناك إله غيره لما تمت الحياة، ولما استمرت، ولتفرد كل إله بخلقه، ولأخذ ما خلقه واستبد به.

هذا، ويجب النظر على كل مكلف ليسبح الله تعالى وينزهه عن اتخاذ الشريك؛ لأنه لن يعرف وحدانية الله تعالى، ولن تزول الشكوك عن قلبه إلا إذا نظر وتفكر وتأمل في خلق السموات والأرض، ففي كل شيء خلقه الله سبحانه وتعالى آية ناطقة، ودلالة واضحة على وحدانيته تعالى وتفرده بالإلهية.

ثم خاطب الله سبحانه وتعالى مشركي قريش بأنهم لا يفقهون تسبيح السماوات والأرض وكل ما خلقه الله فيهما ؛ لأنهم لم ينظروا ولم يتفكروا فيما خلقه، وأخبرهم أنه حليم لم يعجل بتعذيبهم، وأنه أمهلهم في الدنيا، وأسبغ عليهم نعمه بالرغم من كل ذلك مع استحقاقهم للعذاب.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴿٤٥﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه سيمنع المشركين من النيل منه عندما يقرأ عليهم القرآن، وذلك لأنه كان قد علم أنهم سيؤذونه إن قرأه عليهم لتكبرهم وقسوتهم وجبروتهم، وذلك أن الله سبحانه وتعالى أمره أن يقرأ عليهم القرآن فخاف أن يؤذوه لما هم عليه من الكبر والقسوة والتجبر فطمأنه الله سبحانه وتعالى بأنه سيجعل بينه وبينهم حجاباً من قدرته يحميه منهم ويمنعهم منه.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وأخبر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه إذا قرأ عليهم القرآن فلن يفهموه، ولن يعوا منه شيئاً، وأن قلوبهم كأنها قد غلقت، وقد طبع عليها فلا ينفذ إليها شيء، وآذانهم كأنه قد أصابها الصمم فلا يسمعون شيئاً.

عبر الله سبحانه وتعالى بهذا التعبير كناية عن عدم قبولهم للحق وعظيم تكبرهم.

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴿٤٦﴾﴾ وأخبره بأنه إذا ذكر الله سبحانه وتعالى وحده ولم يذكر آلهتهم فإنهم سيعرضون عنك أشد الإعراض، وسيصيبهم الاشمئزاز والغضب مما تقول.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴿٤٧﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأن المشركين يستمعون إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولكنهم لا ينتفعون بما يسمعون، وأخبر أنه عالم بأنهم إنما يستمعون إليه ليجدوا فيما يسمعون طريقاً يطعنون من خلالها عليه، فربما وجدوا مدخلاً في القرآن يدخلون عليه من خلاله، وأخبر أنهم يتشاورون ويتناجون فيما بينهم بأن محمداً ليس إلا رجلاً قد أصابه الجنون وليس إلا ساحراً.

﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴿٤٨﴾﴾ وذكر تعالى أن المشركين ضربوا له الأمثال، وشبهوه بتشبيهات عدة؛ فمرة يقولون ساحر، ومرة شاعر، ومرة مجنون، ومرة يقولون إنما يعلمه بشر، ومرة أساطير الأولين، وأخبر أنهم قد ضلوا في أوصافهم، ولم يصيبوا وصفه الحقيقي، وأنهم كلما ضربوا له مثلاً وتشبيهاً كذبهم الواقع، وأثبت أنه على خلاف ما وصفوه به، فتحيروا ولم يجدوا سبيلاً يدخلون عليه منه.

﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴿٤٩﴾﴾ يستنكر المشركون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم كيف يبعثون ويخلقون مرة أخرى وقد صاروا تراباً، واستبعدوا قدرة الله سبحانه وتعالى على ذلك.

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ وعند استنكارهم واستبعادهم أخبرهم الله سبحانه وتعالى أنهم لن يعجزوه، وأنهم كيفما صاروا وعلى أي صفة صاروا، ولو صاروا حجارة أو حديداً، أو أي خلق يستعظمونه، ومهما كبر في أعينهم- فسيعيد خلقهم مرة أخرى.

﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم سيسألونه من الذي سيعيد خلقهم ويبعثهم؟ فأمره الله سبحانه وتعالى بأن يخبرهم بأن الذي قدر على خلقهم من العدم قادر على إعادة خلقهم وهم تراب.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴿٥١﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ بأنهم سيميلون إليه رؤوسهم مستنكرين متىٰ سيكون مبعثهم، وقد أمره بأن يجيب عليهم بأن موعد بعثهم قريب، وأن ذلك: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴿٥٢﴾﴾ يخبر الله سبحانه وتعالىٰ المشركين بأنه سيدعوهم حين موعد بعثهم وسيستجيبون له معترفين بالبعث والحساب والجزاء، وأخبر أنهم سوف يظنون يوم مبعثهم أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا فترة قصيرة؛ كأنهم لم يلبثوا إلا ساعة من نهار.

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴿٥٣﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأن يأمر المؤمنين بألا يغلظوا في كلامهم علىٰ المشركين، وأخبرهم أن الكلمة القاسية تورث العداوة والبغضاء والمشاحنة، وأن الشيطان يتحين الفرص لإثارة العداوة بين الناس وزرعها بينهم، وأن لا يخاطبوا غيرهم إلا بالكلمة الطيبة وبأحسن الكلام حتىٰ ولو كان عدواً، وأن الكلمة الطيبة ستجمد العداوة وتوقف العدو عند حده؛ فلا يجد مع ذلك مدخلاً يدخل من خلاله عليك، وأنها ستجعله ينجذب إليك ويطمئن، ويسمع منك حتىٰ ولو كان مشركاً فسيكون ذلك أدعىٰ إلىٰ إسلامه، بخلاف الكلمة القاسية.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ وأخبر أنه عالم بخلقه وبما يصلحهم، وبما يجمع بينهم ويؤلف بين قلوبهم.

﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ لله الملك والقدرة والقوة والسلطان في السماوات والأرض وكأن هذه الآية تخاطب المشركين وتقول لهم: إن العذاب قد حق عليكم أيها المشركون فإذا أنزل الله بكم عذابه فلاستحقاقكم للعذاب بكفركم، وإن أمهلكم ولم ينزله بكم فبرحمته أمهلكم ومتعكم في الدنيا.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأنه لم يرسله إلىٰ الناس ليحاسبهم ويجازيهم، فليس عليه إلا البلاغ فقط وتلاوة آيات الله سبحانه وتعالىٰ عليهم وحججه وبيناته.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأخبر بأنه وحده المختص بعلم أهل السماوات والأرض وما هم عليه، وأن إليه حسابهم وجزاءهم فهو وحده العالم بأعمالهم صغيرها وكبيرها، وخفيها وظاهرها لا يخفىٰ عليه شيء منها.

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ يؤكد الله تعالىٰ لنا أن الأنبياء عليهم السلام ذوو مراتب ودرجات عنده، فبعضهم أرفع من بعض.

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وأن من الأنبياء الذين قد فضلهم الله سبحانه وتعالىٰ داوود عليه السلام أعطاه الله كتاباً اسمه الزبور.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأن يقول للمشركين ويأمرهم أن يدعوا آلهتهم التي يعبدونها فينظرون هل يستطيعون كشف الضر عنهم وإجابة دعائهم، أو أن تحول حالكم من حال إلىٰ حال؟ ثم أخبرهم بأنها لن تستطيع أن تفعل لهم شيئاً لا نفعاً ولا ضراً.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ كان مشركو قريش يعبدون الملائكة فكانوا ينحتون أصناماً ويسمونها باسم ملك ويعبدونها، فخاطبهم الله سبحانه وتعالىٰ بأن أولئك الذين يعبدونهم من الملائكة هم في أنفسهم يعبدون الله تعالىٰ ويتوسلون إليه، ويتنافسون في عبادته وطاعته من يكون منهم الأقرب إليه، واستنكر عليهم لماذا يعبدونهم والحال هكذا، وأخبرهم أن الأولىٰ لهم والأحسن لهم أن يحذروا عذاب الله سبحانه وتعالىٰ وسخطه وأن يخافوه.

﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴿٥٨﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أنه لم تكن قرية في الدنيا إلا وسيهلكها في الدنيا بعذابه بسبب عصيان أهلها وتمردهم، وأنه سيستأصلهم جميعاً أو يعذبهم عذاباً شديداً يؤلمهم كالجوع والجدب والخوف، وأخبر أن هذا الذي ذكر واقع لا محالة، وأن مكة من جملة هذه القرى.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن حكمته اقتضت ألا ينزل لقريش آية من آياته العظيمة كناقة صالح؛ لأنه إن أعطاهم آية من آياته تلك، ولم يؤمنوا فسيعذبهم ويستأصلهم، وأنه لم يترك إنزال ما طلبوا من الآيات إلا رحمة بهم فلا يستأصلهم؛ لأنه عالم بأنه سيأتي من أصلابهم من يعبد الله سبحانه وتعالى ويوحده، وأن هذه هي الحكمة من عدم استئصالهم، فلم يستأصل قوم نوح إلا بعد أن علم أنهم لا يلدوا إلا فاجراً كفاراً، وأنه لن يخرج من أصلابهم رجل يعبد الله سبحانه وتعالى، بخلاف مشركي قريش فقد علم الله أنه سيخرج من أصلابهم من يعبد الله، فعلى المثال عتبة بن أبي وقاص الذي شج النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد وكسر رباعيته وأسقطه بداخل حفرة وجرحه فقد خرج من صلبه أولاد كانوا من أعمدة الدين ومن أنصار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة كهاشم الملقب بالمرقال وابنه عبدالله.

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ فلو أنه أعطى قريشاً آية مثل آية ثمود هذه عندما أخرج الله سبحانه وتعالى لهم ناقة عظيمة من الجبل، وكانت تشرب عدل ما يشرب جميع قوم صالح ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء]، فعندما كفروا بها عذبهم الله تعالى واستأصلهم.

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا۝٥٩﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه إنما يرسل آياته ليخوف عباده ليرجعوا إليه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه قد أحاط بالناس بعلمه وقدرته، وأنه مطلع على جميع أعمالهم لا يخفى عليه منها شيء؛ وسيجازيهم عليها ويحاسبهم على كبيرها وصغيرها.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا۝٦٠﴾ كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد رأى في المنام بني أمية، وهم يتتابعون على منبره واحداً بعد واحد، ورؤيا الأنبياء حقيقة، فأخبره الله سبحانه وتعالى أن هذا الذي رآه في المنام إنما جعله فتنة للناس واختباراً لهم هل سيصبرون على إيمانهم؟ وهل سيتمسكون به أم سيميلون مع هؤلاء الظلمة الذين سيتولون عليهم؟

والشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أمية وبنو مخزوم من قريش، وهم الذين قاموا في وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي وجه دعوته من حين مبعثه إلى أن فتح مكة.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه يخوفهم بآياته ولكن ذلك لم يزدهم إلا طغياناً وعناداً وتمرداً.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا۝٦١﴾ ثم قص الله سبحانه وتعالى علينا قصة آدم من بداية خلقه، وما كان من إبليس عندما أمره بالسجود له واستكباره عن ذلك واستنكاره كيف يسجد لبشر أدنى منه في الخلقة إذ ليس مخلوقاً إلا من الطين؟

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا۝٦٢﴾ ثم إن إبليس خاطب الله سبحانه وتعالى سائلاً له أن يؤخر موته إلى يوم القيامة لإضلال ذرية آدم، وأقسم على أن يغويهم جميعاً إلا من عصم الله، وهم المخلصون من أهل الإيمان.

﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا۝٦٣﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالىٰ أجاب إبليس إلىٰ ما سأل من الإمهال وطرده، وتوعده هو ومن تبعه بأنه سيعذبهم في نار جهنم خالدين فيها أبداً، وكفىٰ بهذا الجزاء لهم.

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا۝٦٤﴾ ثم أخبره الله سبحانه وتعالىٰ بأنه قد مكنه منهم وسلطه عليهم؛ فليبلغ جهده وطاقته في إضلالهم، وهذا تصوير منه سبحانه وتعالىٰ لإبلاغ الجهد، وإلا فلا خيل معه، ولا رجال، ولا جيوش، وأخبره بأنه قد مكنه أن يدخل عليهم من جميع المداخل التي يستطيع الدخول منها، وأن يعدهم ويمنيهم بما شاء من الأماني، وأخبر أن أماني إبليس ووعوده ليست إلا كذباً وباطلاً وتغريراً لأتباعه.

يبين الله سبحانه وتعالىٰ هنا لنبيه ﷺ أن الشيطان هو الذي أضل قريشاً، وأنهم مقتدون به وهم جنوده ومن أعوانه، وقد أصبحوا تحت سلطانه بتكبرهم علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وعدم استجابتهم لدعوة نبيه.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ثم أخبره الله سبحانه وتعالىٰ أنه مهما فعل، ومهما حاول فلن يستطيع الدخول في عباده المؤمنين، أو التمكن من إغوائهم.

﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا۝٦٥﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأنه يكفي أن يكون هو تعالىٰ المحاسب والمجازي لهم.

﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا۝٦٦﴾ ثم خاطب الله سبحانه وتعالىٰ عباده جميعاً وأخبرهم بأنه الذي يسوق لهم السفن في البحر، وأنه الذي هيأه لحملها علىٰ ظهره، وسخر لها الرياح لتجري فوقه، وأنه قد سخرها لكم لتسافروا علىٰ ظهرها لمصالحكم ومنافعكم وأسباب معايشكم، وأخبرهم أن هذه نعمة عظيمة أنعم بها عليهم، وأنها من رحمته بهم؛ فالمفروض أن يقابلوا ذلك بالشكر.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ المشركين بأنهم إذا أحسوا بالخطر في البحر، وأحاطت بهم الأمواج وهاجت عليهم الرياح- فإنهم ينسون آلهتهم التي يعبدونها، ولا يبقىٰ في أذهانهم إلا الله سبحانه وتعالىٰ يلجؤون إليه، ويتضرعون بالدعاء له.

﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴿٦٧﴾﴾ ثم لما أن استجاب لهم ونجاهم من الغرق أعرضوا وتمردوا وعادوا إلىٰ عبادة الأصنام، وأخبر أن طبيعة الإنسان نسيان الجميل وإنكاره لإحسان المنعم عليه، والجحود لنعمه، ومقابلتها بالكفر.

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أتظنون أنكم آمنون إذا أصبحتم في البر بعد أن أنقذكم الله من الغرق في البحر؟ فاعلموا أن الله سبحانه وتعالىٰ قادر علىٰ أن يأخذكم ويخسف بكم الأرض ويهلككم، أو أن يرميكم بحجارة من السماء.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴿٦٨﴾﴾ وعندها لن تجدوا بعد ذلك ناصراً يدفع عنكم سخط الله سبحانه وتعالىٰ وعذابه.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴿٦٩﴾﴾ أو هل أمنتم أن يحوجكم الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ أن تركبوا البحر مرة أخرىٰ فيحل عليكم قاصف من الريح فيغرقكم جميعاً؟

يستنكر الله سبحانه وتعالىٰ عليهم نقض عهدهم الذي عاهدوه وهم في البحر، ورجوعهم إلىٰ كفرهم وتمردهم، ثم أعلمهم بأنه إذا نزل بهم عذاب الله وسخطه فلن يستطيع أحد أن ينتقم لهم، أو يأخذ بثأرهم منه.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴿٧٠﴾﴾ يذكر الله سبحانه وتعالىٰ عباده

هنا بأن من نعمته عليهم أنه قد أكرمهم وفضلهم على كثير من خلقه، وجعل لهم مكاناً وشرفاً وقدراً وعزة على غيرهم، وفضلهم على غيرهم بالصورة الحسنة والجمال في الخلقة، وكذلك بالسير منتصب القامة بخلاف غيره من الكائنات، وجعله بادي البشرة بخلاف غيره، وفضله بالعقل الذي يميز به بين الأشياء، وباللسان الذي يستطيع أن يعبر به عما في داخله، ومكنه من استطاعته لأخذ ما أراد، وتجميع ما أراد وعلى وفق ما أراد بمساعدة عقله، وبما جعل له من الهيبة والسلطان على جميع المخلوقات في الأرض، وأن كل ما في الأرض مسخر له ومهيأ لمصالحه وخدمته، وكذلك سخر لهم ما يحملهم على ظهره ويسير بهم في البر والبحر، وبما أخرج لهم من الأرض من طيبات الرزق، وكذلك بما فضلهم بالتكاليف التي توصلهم إلى السعادة الأبدية والنعيم الدائم.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه يوم القيامة سيدعوا كل أمة وكل طائفة من الناس بإمامهم وقائدهم الذي كانوا يتبعونه في الدنيا، ثم ينادى بهم يا أتباع فلان أقبلوا؛ ويحتمل أن يكون المعنى يوم ندعوا كل شخص بكتابه الذي كتبت أعماله فيه.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ وهم الذين قد عملوا الأعمال الصالحة فسيوفيهم الله سبحانه وتعالى أجورهم يوم القيامة لا ينقص من أعمالهم مثقال ذرة.

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأن من كان في الدنيا أعمى عن الحق والهدى ومعرضاً عنه فلا حظ له في الآخرة من الثواب، ولا نصيب له في رحمة الله سبحانه وتعالى، وكان المشركون يقولون: إنهم إذا رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى فإن لهم عنده الحسنى، وكانوا يعتقدون أن من فضله الله سبحانه وتعالى في الدنيا فإنه سيفضله في الآخرة، وكانوا يقولون: إنهم أولى بالجنة من أتباع محمد ﷺ؛ لأنهم كانوا

يزعمون أنه لا يتبع محمداً إلا أراذل القوم، وأنهم أهل الجاه والعز والسلطان والشرف، وأنهم هم الذين يطعمون الطعام ويحمون الجار ويغيثون الملهوف وهم...وهم..وهم، فهم أحق بالجنة من أولئك الذين لا حظ لهم ولا نصيب في شيء من الدنيا، فرد الله سبحانه وتعالىٰ عليهم بذلك.

والمراد بإعطاء الكتاب باليمين: أنه علامة علىٰ أنه من أهل الهدىٰ والصلاح، وبالعكس من أوتيه بشماله.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣﴾ ثم خاطب الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأخبره بأن المشركين أهل دهاء وجدال وخصام ومراوغة، بينما كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حريصاً كل الحرص علىٰ إيمانهم وإدخالهم في الهدىٰ، وكان يلين لهم ويتلطف، وحاولوا بدهائهم ومكرهم أن يستزلوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ولكن الله تعالىٰ عصمه ورد كيدهم في نحورهم.

﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ وأنك لو فعلت يا محمد وملت إليهم لضاعفنا لك العذاب في الدنيا وفي الآخرة، وهذا أيضاً تهديد للمؤمنين بأن يتمسكوا بدينهم، ولا يتنازلوا عن شيء من أمور دينهم أبداً، وأما النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فهو محاط بعصمة الله تعالىٰ وتوفيقه ولن يكون منه ذلك أبداً، والخطاب موجه للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، والمراد به غيره من باب: «إياكِ أعني واسمعي يا جارة».

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦﴾ كان المشركون قد ضاقت صدورهم من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وامتلأت غيظاً عليه وعلىٰ أصحابه، وكانوا قد استاءوا من بقائه بينهم لصرفه للناس عن عبادة آلهتهم ونسبتهم إلىٰ الجهل والضلال، فأرادوا أن يخرجوه من مكة صاغرا ذليلا، فأخبره الله سبحانه وتعالىٰ بأنهم لو فعلوا وأخرجوه لما مكثوا بعد إخراجه إلا قليلاً ثم ينزل بهم عذابه وسخطه جزاءً علىٰ ذلك.

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا۝٧٧﴾ وأخبره بأن هذه هي سنته في المكذبين من الأمم السابقة، وأنه كان من طرد نبيه من تلك الأمم فإنه يستأصلهم بالعذاب، وأن حالك يا محمد كحالهم فلو فعلوا وطردوك لعذبهم الله سبحانه وتعالى ولاستأصلهم.

هذا، وأما هجرته من مكة إلى المدينة فقد كانت بأمر من الله سبحانه وتعالى، لا لأنهم طردوه، وذلك أن المشركين كانوا قد خططوا لقتله، وقد بدأوا في تنفيذ ذلك، فأمره الله سبحانه وتعالى بالهجرة إلى المدينة.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا۝٧٨﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بإقامة الصلوات الخمس في أوقاتها، وجعل وقت الظهر والعصر من عند دلوك الشمس وهو زوالها عن وسط السماء إلى غسق الليل وهو ظهور ظلمته، وجعل ظهور الظلمة ابتداء وقت صلاة المغرب والعشاء إلى طلوع الفجر؛ فإذا طلع فهو وقت صلاة الفجر، ثم ذكر أن صلاة الفجر تختص من بين سائر الصلوات بأنه يحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار، مما يجعل لها مزية وفضلاً على بقية الصلوات.

وسميت صلاة الفجر بقرآن الفجر؛ لأن النبي ﷺ كان يطول بقراءة القرآن فيها.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا۝٧٩﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ وأوجب عليه خاصة بأن يقوم في الليل ليتهجد ويصلي صلاة الليل ويتنفل فيه، وهذا من خواصه ﷺ، ووعده سبحانه وتعالى بأنه سيجعل له مقاماً رفيعاً يوم القيامة على سائر الناس.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا۝٨٠﴾ وأمره الله سبحانه وتعالى بأن يدعوه بهذا الدعاء، وهو أن يخرجه من مكة مخرج صدق وخير وفائدة تعود للإسلام والمسلمين،

وأن يدخله مكة بالعودة إليها منتصراً، أو يدخله المدينة دخول عز ونصر للإسلام وأهله، وفعلاً فقد كان خروجه من مكة مهاجراً نصراً كبيراً له إذ استطاع أن يفلت من بين أيدي المشركين بالرغم من إحاطتهم به من كل مكان ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة:٤٠]، فوصف الله سبحانه وتعالى خروجه هذا بالنصر له والهزيمة على المشركين عندما أفلت من بين أيديهم.

وقد أمره بأن يدعوه عند خروجه من مكة ودخوله المدينة بأن يجعل له سلطاناً وأتباعاً ينتصر بهم ويرفع بهم راية الحق وأهله.

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ عند خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مكة ودخوله إلى المدينة أمره الله سبحانه وتعالى بأن يخبر المشركين بأنه قد آن ظهور الحق وانتصاره، وهزيمتكم أيها المشركون، وأن يخبرهم بأن الباطل مهما كانت صولته فلا بد أن يسقط وتنتكس رايته، وأن يظهر الحق عليه مهما طال الزمان.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه ينزل القرآن وفيه شفاء للمؤمنين من الشكوك والوساوس التي في القلوب، وآياته التي تشفيهم من الشبه والجهل، ويبعث على الطمأنينة في القلب لما فيه من الهدى والنور الذي يبصرهم طريق الحق، ويسمى هذا الشفاء الروحي، وفي العمل بأحكامه وشرائعه رحمة للمؤمنين لما فيه من التزكية للنفوس والارتقاء بها إلى رضوان الله سبحانه وتعالى، وكذلك أخبر أن الظالمين بخلاف ذلك فلا يزيدهم القرآن إلا خسارة لآخرتهم؛ لأنه كلما نزلت سورة أو آية كفروا بها، وبذلك يزداد كفرهم فيزداد سخط الله عليهم.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن طبيعة الكافر فإذا أنعم عليه بنعمة أعرض عن شكره وتكبر عليه وعن اتباع الحق وعن السماع لآياته، وشمخ بأنفه استكباراً علىٰ الله تعالىٰ وعلىٰ رسوله.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴿٨٣﴾﴾ وإذا نزلت به مصيبة أو شدة بعد رخاء وخير فإنه ينقطع أمله، ويزداد يأسه وقنوطه، بخلاف المؤمن فإنه إذا نزلت به مصيبة أو شدة فإنه لا ينقطع أمله في الله سبحانه وتعالىٰ لما يرجوه من ثوابه وتعويضه، وهو عالم بأنه إن لم يعوضه في الدنيا فإنه سيعوضه في الآخرة.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴿٨٤﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه قد بين طريق الحق وطريق الشر، ووضح لكم كلاً منهما، وأنكم مخيرون في اختيار أي الطريقين أردتم، وأنه عالم بعمل كل واحد من الصنفين ومطلع علىٰ كل صغيرة وكبيرة، وسيجازي كلاً علىٰ عمله.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ وهؤلاء هم المشركون سألوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن حقيقة الروح، وذلك أن المشركين كانوا قد ذهبوا إلىٰ اليهود يخبرونهم بأنه قد ظهر فيهم رجل يدعي أنه نبي من عند الله، وأن الله تعالىٰ قد أرسله ليبلغهم رسالته، فأمرت اليهود المشركين بأن يسألوا هذا النبي عن الروح وعن أصحاب الكهف، وأخبرتهم أنه إن أفتاكم في الروح وأخبركم عن حقيقتها فليس نبياً كما يدعي، وإن أخبركم أن علمها عند الله سبحانه وتعالىٰ، وقص عليكم خبر أهل الكهف فهو نبي صادق، وكل ذلك كان قبل أن تعلم اليهود بأمر محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأنه النبي الذي ينتظرون ظهوره في مكة، وإلا فإنهم لم يكونوا ليجيبوا المشركين بهذا الجواب لئلا يفتضح أمرهم.

﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴿٨٥﴾﴾فعندما سال المشركون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أمره الله سبحانه وتعالىٰ بأن يجيبهم بأن الروح علمها عند الله سبحانه وتعالىٰ وحده، وأنها مما اختص واستأثر بعلمه، ولا قدرة لعقول

البشر أن تعي مفهومها وتستوعب حقيقتها، وذلك أن قدرة العقل محدودة ومعرفة حقيقتها فوق طاقته وقدرته، وقد حاول العلم الحديث بما معهم من القوة والآلات المتطورة أن يكتشف حقيقتها وماهيتها فلم ينجحوا.

﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا۝٨٦﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه لو شاء لأخذ القرآن من صدره، ولرفعه من قلبه؛ فلا يستطيع أحد أن يشفع له ليرده إليه.

يطلع الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على مدى قدرته وقوته وإحاطته بكل شيء وأن كل شيء تحت قبضته وسيطرته.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا۝٨٧﴾ أراد الله سبحانه وتعالى أنه إنما أوحى إلى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالقرآن وجعله في صدره- رحمة منه له وتفضلاً منه تعالى عليه، وأن اختياره لتبليغ رسالته رحمة منه له ولغيره.

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا۝٨٨﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يخبر المشركين بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأن الإنس والجن لو اجتمعوا وتعاونوا على الإتيان بمثله فلن يستطيعوا ذلك، وأن يخبرهم بأن القرآن هو حجته الدالة على نبوته؛ فإن استطاعوا أن يأتوا بمثله فهم محقون في عدم صدق نبوتك؛ لأن المشركين كانوا ينكرون نبوته، ويرمونه بالكذب والافتراء وغير ذلك، ثم إنه تحداهم بأن يأتوا بسورة منه أو بعض سورة، وأنهم إن استطاعوا فسيتنازل عن دعوته وادعاء نبوته فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور من مثله ولا بمثل سورة مثله مع حرصهم الشديد على إبطال أمره.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا۝٨٩﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد نوع للمشركين في القرآن آياته وبينها على كل وجه، وأتى على المشركين من كل طريق لعلهم يؤمنون به ويصدقونه،

ولكنهم بالرغم من كل ذلك رفضوا الإيمان واتباع النبي ﷺ، وهؤلاء هم قريش؛ وهم الذين وقفوا في وجه النبي ﷺ، وصدوا عن دعوته، وحاصروه في مكة نحواً من ثلاث عشرة سنة، وعندما هاجر إلى المدينة لحقوا به وغزوه في عقر داره، وتقطعوا له في كل طريق وقتلوا أصحابه، وأقنعوه بأنهم لن يؤمنوا له مهما حاول فيهم.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴿٩٠﴾﴾ أي حتى تجعل لنا في مكة أنهاراً متفجرة مثل أرض الشام والعراق.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴿٩١﴾﴾ أو يكون لك بستان من النخيل والأعناب تكون الأنهار جارية في وسطه لا تنقطع.

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ أو تسقط السماء علينا قطعاً قطعاً، ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴿٩٢﴾﴾ أو تأتي بالله والملائكة إلينا ونراهم عياناً ثم يشهدون لك بالنبوة والرسالة، ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ من ذهب ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ ونراك أمام أعيننا وأنت تصعد في السماء.

﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ ولن نصدقك ولو رأيناك وأنت تصعد في السماء يا محمد حتى تنزل كتاباً من عند الله سبحانه وتعالى إلى قريش مخاطباً لكل شخص باسمه، قالوا ذلك للنبي ﷺ لكي يقطعوا طمعه في إيمانهم.

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴿٩٣﴾﴾ فأمره الله سبحانه وتعالى بأن يخبرهم بأن ما طلبوه ليس في يده ولا تحت قدرته، وأن يخبرهم بأنه ليس إلا بشراً أرسله الله سبحانه وتعالى إليهم ليبلغهم رسالته فإن شاءوا فليؤمنوا وإن شاءوا فليكفروا.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴿٩٤﴾﴾ فلم يجدوا حجة على عنادهم وكفرهم إلا استنكارهم على الله

سبحانه وتعالىٰ أن يبعث إليهم رسولاً من البشر، وأنه لا بد أن يكون من جنس غير جنسهم، فجعلوا هذا عذرهم وحجتهم في عدم الإيمان والتصديق، وإلا فهم في الحقيقة عالمون بصدق نبوته ورسالته.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ وأخبرهم يا محمد بأن سكان الأرض لو كانوا ملائكة لأرسل الله سبحانه وتعالىٰ لهم رسولاً من الملائكة، وأنه لا يصح أن يرسل للبشر رسولاً من الملائكة؛ لأنهم لا يستطيعون أن يتخاطبوا معه، فلا بد أن يكون من جنسهم ليتمكنوا من التفاهم والتخاطب.

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ وأخبرهم يا محمد بأنها تكفي شهادة الله سبحانه وتعالىٰ بأنك قد بلغتهم، وأنهم قد كذبوا بدعوتك؛ لأنه العالم بأعمال جميع عباده ومطلع عليها صغيرها وكبيرها، لا يخفىٰ عليه منها شيء.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأنه لن يستطيع أن يدخل أحداً في الهدىٰ أو يحكم بهداه، وأن ذلك إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ فمن حكم بأنه مهتد فهو المهتد، ومن حكم بضلاله فلا يصح أن يحكم بهداه، ولن يستطيع أحد أن يحكم بهداهم أو يدخلهم في الهدىٰ؛ فاقطع طمعك من إيمانهم يا محمد واترك ملاحقتهم ليؤمنوا.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن أهل الضلال بأنه سيحشرهم، ثم يسحبهم علىٰ وجوههم إلىٰ جهنم وأيديهم مربوطة؛ فلا يتقون العذاب إلا بوجوههم لا يخفف عنهم سعير جهنم، وهم فيها عمي وصم وبكم.

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن سبب دخولهم جهنم؛ فقال ذلك

بسبب كفرهم بآيات الله وإشراكهم به وإنكارهم لليوم الآخر وما فيه من الجزاء.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالىٰ إنكار بعثهم بعد الموت مع أنهم قد رأوا، وعلموا أن الله الذي خلق السماوات والأرض، وخلقهم وأوجدهم من العدم، فإن من قدر علىٰ ذلك لا يعجز عن إعادة خلقهم بعد الموت.

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثم أخبرهم بأنه سيعذبهم عند حلول ميعاد تعذيبهم، لا يخلف الله وعده.

﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴿٩٩﴾﴾ ولكنهم كفروا وكذبوا وأنكروا ما جاءهم به النبي ﷺ.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴿١٠٠﴾﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن المشركين بأن خزائن السماوات والأرض لو كانت بأيديهم لبخلوا بها؛ لأن طبيعتهم البخل والإمساك، وكانوا قد استنكروا علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ أن يبعث يتيم أبي طالب نبياً، ولماذا لم يجد إلا هذا اليتيم للنبوة؟ ولماذا لم يبعث كبيرا من كبار قريش كعتبة بن ربيعة، أو أبي سفيان، أو الوليد بن المغيرة؟ وأيضاً كان فقيراً وصغير السن بالنسبة لأولئك، وكان عمره أربعين سنة حين مبعثه، فحسدوه علىٰ ذلك مع وجود من هو أغنىٰ وأوجه وأكبر منه سناً.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا﴿١٠١﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ بأنه قد أرسل موسىٰ إلىٰ فرعون ليستنقذ بني إسرائيل من ظلمه وجبروته، وقد أرسل معه تسع آيات بينات تدل علىٰ صدق نبوته، ولكنهم كفروا بها، وكذبوه ورموه بالسحر.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴿١٠٢﴾﴾ قال موسى مخاطباً لفرعون ومستنكراً عليه: بأنك قد علمت يا فرعون أنها آيات واضحات منزلة من عند الله سبحانه وتعالى، وليس تكذيبك هذا إلا مغالطة وتمويها على قومك خوفاً منهم أن يتركوك ودينك، والتسع الآيات التي أعطاه الله سبحانه وتعالى هي العصا واليد والجراد والقمل والطوفان والضفادع والدم والسنين ونقص الأموال والأنفس والثمرات في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف:١٣٠].

والمثبور هو المهلك.

﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أراد فرعون أن يخرج موسى وقومه من أرض مصر ويقتلهم.

﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴿١٠٣﴾﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالى فلق لموسى البحر؛ فلحقه فرعون فانطبق البحر عليهم، وغرقوا جميعاً.

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى موسى أن يأمر قومه بأن يسكنوا أرض الشام.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴿١٠٤﴾﴾ وأخبرهم أن الله سبحانه وتعالى سيبعثهم يوم القيامة هم وفرعون، وسيحاسب الفريقين، وينتصف لكم منه ويحكم بينكم بالحق.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى والمصلحة أن ينزل القرآن ويرسل محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في ذلك الوقت وذلك الزمان؛ لأن الجهل والضلال قد عم الناس جميعاً، والشرك قد انطبق عليهم، وقد أصبحوا في حاجة إلى من يهديهم ومن يرشدهم، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن بالحق مصاحباً له ولآياته جميعاً تشهد بصحتها العقول؛ فلم يأمرهم إلا

بما تستحسنه عقولهم، ولم ينههم إلا عن الفواحش التي تستقبحها العقول وتنفر عنها؛ فلم يحل لهم إلا ما فيه مصلحتهم ومنفعتهم، ولم يحرم عليهم إلا ما فيه مضرة عليهم، ودلهم على عبادة إله واحد فقط؛ لأنه وحده الذي يستحق العبودية بما تشهد به فطر عقولهم، ونهاهم عن عبادة الأصنام التي ليست إلا أحجاراً وتشهد ببطلانها العقول أيضاً، إذا فآيات القرآن كلها تخاطب العقول، وليس فيه ما ينافي العقل أو فطرته، أو يأمر بما يخالف العقل.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴿١٠٥﴾﴾ بعث الله سبحانه وتعالى محمداً ﷺ ليبشرهم وينذرهم وليس مكلفاً بإدخالهم في الهدى.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ وفرقنا نزول القرآن عليك يا محمد ليسهل عليك حفظه وتبليغه الناس وليستطيعوا حفظه في صدورهم.

﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴿١٠٦﴾﴾ نزله قليلاً قليلاً على فترات متقطعة، ولم ينزله دفعة واحدة؛ لأن صدورهم كانت كتبهم فلا قراءة ولا كتابة، وإنما كانوا يعتمدون على الحفظ والفهم فقط.

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يخبر مشركي قريش أنه سواء عنده آمنوا به أم لم يؤمنوا، فما عليك إلا البلاغ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴿١٠٨﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن بعض أهل العلم من أهل التوراة والإنجيل يؤمنون به ويخضعون له تواضعاً لعظمته، ويسقطون على وجوههم ساجدين لله سبحانه وتعالى مسبحين له، ومصدقين بوعده من بعث آخر الأنبياء، وبالبعث بعد الموت وبالحساب والجزاء.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴿١٠٩﴾﴾ وأنهم يسجدون باكين من خشية الله تعالى، ويزيد من خشوعه سماع القرآن يتلى عليهم.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يخبر المؤمنين أنه سواء أن يذكروا الله أو الرحمن في دعائهم له فهما اسمان له تعالىٰ؛ لأن المؤمنين كانوا إذا سمعهم المشركون يذكرون الرحمن عيروهم بأنهم يذكرون إله اليمامة وهو مسيلمة الكذاب؛ وكانوا يسمونه بهذا الاسم وهو رحمن اليمامة، فأخبرهم الله تعالىٰ بأن هذين الاسمين مختصان به؛ فلا يصدنهم عن ذكره بهذا الاسم ما كانوا يسمعونه من تعيير المشركين.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ لا ترفع صوتك يا محمد حتىٰ يسمعه المشركون فيقولون إن محمداً يذكر إله اليمامة، ولا تخافت به حتىٰ لا يسمعك أصحابك.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيهﷺ أن يحمده بهذا الحمد، وأن يثني عليه بهذا الثناء، وكانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله، واليهود يقولون: عزير ابن الله، والنصارىٰ يقولون: المسيح ابن الله؛ فأمر الله نبيه ﷺ بأن ينزهه عن اتخاذ الولد والشركاء في الملك، وأخبره أنه ليس محتاجاً إلىٰ من ينصره، أو يعينه علىٰ تدبير شؤون ملكه، وأمره أيضاً أن يعظمه غاية التعظيم، وأن يقدسه عن الولد والشريك والمعين.



الفهرس